سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۷: 978-964-8981-51-3
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۷ن /۹۸ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضياء الفرقان فی تفسير القرآن مجلد السابع

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاريخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. – ۱۴۳۸ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

ليتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر انديشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزيع: تهران – شارع انقلاب – بازارچه کتاب – رقم ۱۰ – دارالکتب الاسلامية

جميع الحقوق محفوظة لمؤلف

شابک: ۳ – ۵۱ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

شابک دوره: ۷ – ۲۴ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلاۤئِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتٰى
وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوآ
إِلآَّ أَنْ يَشآءَ ٱللّٰهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾
وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ ٱلْإِنْسِ
وَ ٱلْجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إِلٰى بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ
غُرُورًا وَ لَوْ شآءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما
يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ
مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَبْتَغي حَكَمًا وَ هُوَ
ٱلَّذيٓ أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتابَ مُفَصَّلًا وَ ٱلَّذِينَ
اٰتَيْناهُمُ ٱلْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ
بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَ تَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

◁ اللّغة

ٱلْمَوْتٰى بفتح الميم واحدها، ميّت.

حَشَرْنا، الحَشر الجمع.

قُبُلًا: بضمّ القاف و الباء و قرأ ابن عامر و نافع بكسر القاف و فتح الباء المواجهة و قيل معناه مقابلة والمآل واحد

زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ يقال زخرفه اذا زيّنه.

يَفْتَرُونَ، الإفتراء الكذِب والتُّهمة.
مُقْتَرِفُونَ، الإقتراف إكتساب الإثم.
أَبْتَغِي، الإبتغاء الطَّلب.
مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ، الإمتراء الشكّ.

◁ الإعراب

قُبُلًا مصدر في موضع الحال أي عياناً أو مشاهدة إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ في موضع نصب على الإستثناء المنقطع و قيل هو متّصل و المعنى ما كانوا ليؤمنوا في كلّ حال إلاّ في حال مشيّئة اللّه وكَذَٰلِكَ هو نعت لمصدر محذوف غُرُورًا مصدر في موضع الحال وَ لِتَصْغَىٰٓ الجمهور على كسر اللاّم و هو معطوف علىٰ غرور أي ليغروا و لتصغى أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ هو مفعول إبتغىٰ و حَكَمًا حال منه أو تمييز و مُفَصَّلًا حال من الكتاب و بِالْحَقِّ حال من الضّمير المرفوع في منزل صِدْقًا وَ عَدْلًا منصوبان على التّمييز أو هو مفعول لأجله أو مصدر في موضع الحال.

◁ التّفسير

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةَ بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لو أعطاهم ما طلبوه مِن إنزال الملائكة و إحياء الموتى حتّى كلّموهم و أن يحشُر عليهم كلّ شيٍ قبلاً بحيث يشاهدونهم معاينةً ما كانوا ليؤمنوا باللّه إلاّ أن يشاء اللّه و لكن أكثرهم يجهلون، أي يجهلون أنّه لو أُوتوا بكلّ أيةٍ ما أمنوا طوعاً ففي الآية دلالة على أنّه لو عَلِم اللّه أنّه لو فعل بهم من الأيات ما إقترحوها لأمنوا كان يفعل ذلك بهم و أنّه يجب في حكمته ذلك لأنّه لو لَم يجب ذلك لما كان لهذا الإحتجاج معنى و تعليله بأنّه أنّما لم يظهر هذه الأيات لعلمه بأنّه لو فعلها لم يؤمنوا و ذلك يبيّن أيضاً فساد قول من يقول يجوز أن يكون في معلوم اللّه ما

اذا فَعله بألطاف أمَن لأنّه لو كان ذلك معلُوماً لَفعَله ولأمنُوا و الأمر بخلافه هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان عند تفسيره لهذه الآية.

و نقل عن ابن عبّاس أنّه قال المستهزؤن بالقرأن كانوا خمسة، الوليد بن المغيرة المخزومي و العاص بن وائل السّهمي و الأسود بن عبد يغوث الزّهري و الأسود بن المطّلب و الحرث بن حنظلة ثمّ أنّهم أتوا الرّسول في رهطٍ من أهل مكّة و قالوا أرنا الملائكة يشهدوا بأنّك رسول اللّه و أبعث لنا بعض موتانا حتّى نسألهم أحقٌّ ما تقوله أم باطل أو أئتنا باللّه و الملائكة قبيلاً أي كفيلاً على ما تدّعيه فنزلت هذه الآية.

أقول لا نحتاج في تفسير الآية الى هذه التّكلفات التّي لا دليل عليها و الذّي يستفاد منها هو أنّه تعالى بيّن في المقام حكماً كلّياً و هو أنّ داء العناد لا دَواء له و ذلك لأنّ المعاند دائماً يكون بصدد تحصيل العذر لإثبات عناده فهو كالغريق يتشبث بكلّ حشيشٍ فتارةً يقول لولا أنزل عليه أية من ربّه، و تارةً يقول لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً واللّه تعالى يعلم و يشهد أنّهم لكاذبون و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله: **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةَ... مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا** أي أنّهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم و أنّما قصدوا بذلك تخطئة الرّسول و تكذيبه.

و أمّا قوله: **إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ** فهو إستثناء من قوله: **مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا** و لذلك يفيد الإثبات أي إلاّ إن يشاء اللّه إيمانهم، و قد تمسّك الأشعري في إثبات مدّعاه بهذا الكلام و أمثاله و قرّره بأنّ اللّه تعالى لم يشاء الإيمان من الكافر ولو شاء لأمن قطعاً فالعبد لا يكون في فعله مختاراً و هو المطلوب و لم يعلم أنّ الكلام و هو قوله: **إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ** يدّل على أنّ اللّه تعالىٰ قادر على إجبار العبد في فعله حتّى يكون فعله مطابقاً و موافقاً لمشيّئة اللّه و هذا ممّا لا كلام لنا و لا لأحدٍ من العقلاء فيه لأنّه تعالى خالق العبد و المخلوق مقهور مغلوب لخالقه و كيف لا يقدر و قد ثبت أنّه على كلّ شيٍ قدير و أنّما الكلام

في أنّه تعالىٰ شاء ذلك أم لا و بعبارةٍ أخرىٰ لا بحث لنا في عالم الثّبوت بل البحث في عالم الإثبات و أنّه حصل ذلك أم لا و حيث أنّ الخصم يقول بأنّه شاء ذلك فلابدّ له من إقامة الدّليل لأنّ إثبات الحكم لا يكون بدونه و ليس كذلك النّفي وحيث لا دليل له إلاّ أنّ الكافر بقى على كُفره وكفره مستندٌ الى مشيّئة اللّه و إرادته، فلا محلّ لكلامه لأنّ البقاء على الكفر كما يحتمل مستنداً الى مشيّئة اللّه وإجباره العبد عليه كذلك يحتمل أن يكون مستنداً الىٰ إختيار العبد و إرادته و مجرّد إثبات القُدرة لا يكفي في إثبات المدّعىٰ اذا لم يدّل دليل من العقل والنّقل على تعلّق القدرة بسلب الإختيار عن العبد.

و محصّل الكلام هو أن المشيّئة في قوله إلاّ أن يشاء اللّه و أمثاله لا كلام لنا في ثبوتها له تعالىٰ بحسب ذاته و أنّما الكلام في أنّ الكفر في الكافر مستند بها بحيث لا إختيار له في تركه أو لا يكون كذلك و لا شكّ أنّ العقل السّليم حاكم بأنّ الإختيار ثابت له ولا يكون حاكماً بأنّ العبد مجبور مقهورٍ في فعله فكونه تعالىٰ قادراً على إجبار العبد شئ و أنّه حصل ذلك أم لا شيءٌ أخر و المطلوب هو الثّاني دون الأوّل.

قال بعض المحقّقين لو كان الكفر من الكافر بمشّيئة اللّه و إرادته لكان الكافر مطيعاً للّه بفعل الكُفر لأنّه لا معنىٰ للطّاعة إلاّ بفعل المراد.

ثانياً: لو جاز من اللّه أن يريد الكفر لجاز أن يأمر به والتّالي باطل فالمقدّم مثله.

ثالثاً: لو جاز أن يريد منهم الكفر لجاز أنّه يأمرنا بأن نريد منهم الكفر.

رابعاً: لو لم يرد منهم الإيمان لما وجب عليهم الإيمان لأنّه غير مرادٍ كما لَو لم يأمرهم لَم يجب عليهم فثبت بهذه الدّلائل أنه تعالىٰ ما شاء منهم إلاّ الإيمان و ظاهر هذه الآية يقتضي أنّه تعالىٰ ما شاء الإيمان منهم و التّناقض بين الدّلائل ممتنعٌ فوجب التّوفيق و طريقه أن نقول أنه تعالىٰ شاء من الكلّ الإيمان الذّي يفعلونه على سبيل الإختيار و أنّه تعالىٰ ما شاء منهم الإيمان الحاصل على سبيل الإلجاء و القهر و بهذا الطّريق زال الإشكال انتهى كلامه.

و قد أورد عليه الرّازي بما حاصله أنّ قدرة العبد على الإيمان و الكفر علىٰ السَّوية فلو صدر عنها الإيمان دون الكُفر أو بالعكس لا لداعيةٍ مرّجحةٍ فهذا قولٌ برجحان أحد طرفي الممكن على الأخر لا لمرّجحٍ و هو محال و أن كان لداعيةٍ مرّجحةٍ فهو أمرٌ معقول إلاّ أنّ الدّاعية حصلت للعبد من الخالق فالفعل المستند اليها منه تعالىٰ في الحقيقة لا من العبد و هو المطلوب.

أقول قد مرَّ الكلام في الدّاعية سابقاً و قلنا أنّ الدّاعية ليست تمام العلّة في صدور الفعل للإنسان العاقل لأنّ العقل حاكم عليه و هو معلومٌ بل محسوس فلا يحتاج الى إطالة الكلام فيه و أمّا قوله تـعالىٰ: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** فقيل معناه يجهلون أنّه لَو أوتوا بكلّ آيةٍ ما آمنوا طوعاً و أنّما قال أكثرهم ولم يقل كلّهم أو جميعهم مثلاً لأنّ الجهل بهذا المعنى لا يعمهم و هو ظاهرٌ.

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلٰى بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا

أي وكذلك زيّنا لكلّ أمّةٍ عملهم، **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا** و قيل معناه كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء فيكون قوله: **وَ كَذٰلِكَ** عطف على معنى ما تقدّم من الكلام و كيف كان فالآية تدّل على أنّ الشّياطين أعداء للأنبياء كغيرهم من النّاس و لا فرق في ذلك بين الأنبياء و غيرهم و إنّما خصّ الأنبياء بالذّكر لأنّ عداوة الشّياطين لهم أكثر و أشّد و ذلك لعلّو مقامهم و عظم شأنهم و جلالة مرتبتهم وتقرّبهم الىٰ اللّه تعالىٰ، أو لأنّ إنحراف النّبي عن جادّة المستقيم يوجب إنحراف جميع أمّته و قد حذّر اللّه النّاس عن متابعة الشّيطان في كثير من الآيات:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلشَّيْطٰانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**(١).

١- فاطر = ٦

و في قصّة آدم:

قال اللّه تعالىٰ: **فَقُلْنا يا آدمُ إِنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ**[١].

و حكاية عن موسىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **قالَ هٰذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ**[٣] و في الباب آيات كثيرة.

إن قلت أنتم تقولون أنّ الأنبياء معصومون فما معنى عداوة الشّيطان لهم.

قلتُ لا منافاة بين ثبوت العداوة للشّيطان و عدم متابعة الأنبياء له:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ**[۵].

و الوجه فيه أنّ ملكة العصمة الموجودة فيهم تمنعهم عن متابعة الشّيطان و سيأتي البحث فيه في بابه، ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ قال: **شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ** بصيغة الجمع و فيه دلالة علىٰ أنّ الشّيطان إسم جنسٍ يشمل الكلّ لأنّه يقال لكلّ عاتٍ متمّردٍ من الإنس و الجّن، و قال بعضهم أنّ شياطين الجّن غير شياطين الإنس لأنّ لكلٍّ من الصّنفين شياطين من جنسه فشيطان الإنس من الإنس و شيطان الجّن من الجّن.

و يقول الثّالث: أنّ الجميع من ولد إبليس إلاّ أنّه جعل ولده قسمين فأرسل أحدهما الىٰ وسوسة الإنس و الثّاني الىٰ وسوسة الجّن، و أنا أقول الحقّ أنّ الشّيطان واحد لا ثاني له في الخارج فهو إسمٌ لموجودٍ خاصّ لا علم لنا بحقيقته.

١- طٰه = ١١٧
٢- القَصص = ١۵
٣- المؤمنون = ٩٧
۴- النّحل = ١٠٠
۵- الحَجر = ۴٢

نعم أنّه يقدر علىٰ التّشكل بإشكالٍ مختلفة حتّىٰ الكلب و الخنزير فالشّيطان علمٌ لهذا الموجود المعين المخصوص المستور عن العيون و الأبصار إلاّ أنّه يطلق مجازاً علىٰ كلّ ما يتشكّل بشكله و صورته إنسيّاً كان أو أجنيّاً فيقال شياطين الإنس و الجّن و بهذا الإعتبار يقال لكلّ متمّردٍ عاتٍ هو شيطان لأنّه تلبّس بلباسه و تصوّر بصورته و تشكّل بشكله فإذا كان الشّيطان متشكّلاً بشكل الإنسان يقال شيطان الإنس و اذا لم يتشكّل بشكلٍ من الأشكال يقال شيطان الجّن لإستتاره و خفائه عن العيون و قد تكلّمنا في حقيقة الشيطان و أنّه هل كان من الملائكة أو من غير الملائكة في أوائل البقرة إذا عرفت هذا فأعلم أنّ قوله تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلْجِنِّ** ليس معناه، جعلنا لهم الشياطين من جنس الإنس و من جنس الجّن، بل معناه إنّا جعلنا لكلّ نبيٍ عدّواً من الشّياطين المتشكلّة بصورة الإنسان مثل أبو سفيان و معاوية و عمرو بن العاص و المغيرة بن شعبة و غيرهم ممّن يرىٰ و يشاهد بالعين، و من الشّياطين الغير المتشكلّة بصورة الإنسان و يؤيّده قوله: **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا** و قال تعالىٰ: **وَ إِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ**(١) أي الىٰ أوليائهم من الإنس لأنّ المجادلة من شأن الإنسان و ذلك لأنّ الوحي علىٰ ما قاله الرّاغب في المفردات الإشارة السّريعة و ذلك يكون بالكلام علىٰ سبيل الرّمز و التّعريض و قد يكون بصوتٍ مجرّد عن التّركيب و بإشارةٍ ببعض الجوارح و بالكتابة.

قالت الأشاعرة ظاهر قوله تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا** أنّه تعالىٰ هو الّذي جعل أولئك الأعداء أعداءً للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و لا شكّ أن تلك العداوة معصية وكفر فهذا يقتضي أنّ خالق الخير و الشّر و الطّاعة و المعصية و الإيمان و الكفر هو اللّه تعالىٰ و لا نعني بالجبر إلاّ هذا.

١- الأنعام = ١٢١

و أجيب عنه بأنّ المراد بهذا الجعل، الحكم و البيان فأنّ الرّجل إذا حكم بكفر إنسانٍ قيل أنّه كفّره و إذا أخبر عن عدالته قيل أنّه عدلّه فكذا هاهنا أنّه تعالىٰ لمّا بيّن للرّسول صلى الله عليه و آله و سلم كونهم أعداءً له لا جرم قال أنّه جعلهم أعداءً له و قال أبوبكر الأصّم لمّا أرسل اللّه محمّداً صلى الله عليه و آله و سلم رسولاً الىٰ العالمين و خصّه بتلك المعجزة حسدوه و صار ذلك الحسد سبباً للعداوة القّوية فلهذا التّأويل قال أنّه تعالىٰ جعلهم أعداءً له.

و قال الكعبي أنّه تعالىٰ أمر الأنبياء بعداوتهم و أعلمهم كونهم أعداءً لهم و ذلك يقتضي صيرورتهم أعداءً للأنبياء لأنّ العداوة لا تحصل إلاّ من الجانبين فلهذا الوجه جاز أن يقال أنّه تعالىٰ جعلهم أعداءً للأنبياء عليهم السّلام إنتهىٰ

وقال الإمام الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن كتابه في المقام ما هذا لفظه.

و أعلم أنّ هذه الأجوبة ضعيفة جدّاً لما بيّنا أنّ الأفعال مستندة الىٰ الدّواعي و هي حادثة من قبل اللّه تعالىٰ و متىٰ كان الأمر كذلك فقد صحَّ مذهبنا ثمّ قال و هاهنا بحث آخر و هو أنّ العداوة و الصّداقة يمتنع أن تحصل بإختيار الإنسان فأنّ الرّجل قد يبلغ في عداوة غيره الىٰ حيث لا يقدر البتّة علىٰ إزالة تلك الحالة عن قلبه بل لا يقدر علىٰ إخفاء آثار تلك العداوة و لو كان حصول العداوة و الصّداقة في القلب بإختيار الإنسان لوجب أن يكون الإنسان متّمكناً من قلب العداوة بالصّداقة و بالضِّد و كيف لا نقول ذلك و الشّعراء عرفوا أنّ ذلك خارج عن الوسع.

قال المتّنبي:

يُــراد مــن القــلب نسيانكم   وتأبــىٰ الطّــباع علىٰ النّاقل

و العاشق الذّي يشتّد عشقه قد يحتال بجميع الحيل في إزالة عشقه و لا يقدر عليه و لو كان حصول ذلك الحبّ و البغض بإختياره لما عجز عن إزالته انتهىٰ كلامه.

أقول العجب من الرّازي مع توّغله في الفلسفة كيف يقول بهذه المقالة الرّديئة التّي لا يساعد ها العقل السّليم و أعجب منه تمّسكه في العقليّات بقول الشّاعر الذّي لا يعلم ما يقول، كيف و قد إتّفقت الفلاسفة و علماء الأخلاق علىٰ أنّ الإتّصاف بالملكات الفاضلة و ضدّها يكون تحت إختيار الإنسان و لذلك أمرنا الشّارع بها و نهانا عن الإتّصاف بأضدادها و الأيات و الأخبار في الباب كثيرة لا نحتاج الىٰ ذكرها بل نقول لو كان الأمر كما ذكره لأنسّد باب الكمال و الصّعود الىٰ أعلىٰ مراتب الإيمان و التّخلق بأخلاق اللّه بل لازم ذلك هو تعطيل الأحكام و الشّرائع و علم الأخلاق بالكليّة و لا يقول بذلك عاقل فضلاً عن فاضل وكيف لا يكون الإنسان قادراً علىٰ ترك العداوة و البغض مأمورٌ بذلك من قبل اللّه تعالىٰ و العقل أيضاً يحكم به.

ألا ترىٰ أنّ أكثر الكفّار في صدر الإسلام كانوا أعداءً للنّبي ﷺ ثمّ صاروا بعد إسلامهم و عرفانهم من أحبّاءه و أولياءه و قاتلوا بين يديه حتّىٰ قتلوا في سبيل اللّه، فكيف لا يمكن قلب العداوة بالصّداقة و البغض بالمحبّة، كان حرّ ابن يزيد الرّياحي مبغضاً لأهل البيت ثمّ صار من الشُّهداء في واقعة الطّف وكم له من نظيرٍ بل نحن نرىٰ بالوجدان ببغض زيداً ثمّ نصير محبّاً له و هذا من البديهيّات عند العقل.

فالقول بأنّ الإنسان لا يقدر علىٰ إزالة تلك الحالة عن قلبه كلام لا نفهم معناه و اذا كان كذلك فالمشرك و أن كان عدّواً للنّبي ﷺ إلاّ أنّه كان قادراً علىٰ إزالة تلك العداوة بالفكر و التّأمل و رؤية المعجزة و أمثال ذلك من الأمور و لو لم يكن قادراً كما زعم الرّازي فلم يكن مكّلفاً لإستحالة التّكليف بما لا يطاق عقلاً وكيف يعقل أن يبعث اللّه رسولاً الىٰ من لا يقدر علىٰ متابعته أليس هذا موجباً لتعطيل الشّرائع و الأحكام.

أن قلت فما معنىٰ قوله تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا**.

قلتُ الجعل علىٰ قسمين بسيطٌ و مركّبٌ.

فالبسيط هو إيجاد الشّيء فقط و المركّب هو جعل الشّيء شيئاً و أن شئت قلت جعل البسيط هو وجود الشّيء و المركّب هو صيرورة الشّيء شيئاً فقوله تعالىٰ: **جَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَ ٱلنُّورَ**(١) مثلاً من الجعل البسيط أي أوجد و خلق الظلّمات و النُّور لا أنّه جعل الظلمة ظلمة و النُّور نوراً لأنّه من تحصيل الحاصل.

قال اللّه تعالى: **وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَ ٱلْخَنَازِيرَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا**(٣).

و أمثال ذلك فمن المركّب لأنّ اليهود صاروا قردة بعد أن لم يكونوا كذلك اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **وَ كَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا** معناه أوجدنا و خلقناهم و ليس معناه صيّرناهم أعداءً للنّبي و الىٰ هذا المعنىٰ أشار ابن سينا خيث قال ما جعل اللّه المشمش مشمشاً بل أوجده و السِّر في ذلك هو أنّ العداوة و المحبّة و الصّداقة و الخيانة و غيرها من الصّفات تعرض للنّفس بعد أن لم تكن و لأجل ذلك امرنا عقلاً و نقلاً بإكتساب الفضائل و التَّجنب عن الرّذائل لأنّ النّفس في إبتداء الخلقة تكون عارية من هذه الأوصاف و أنّما تتّصف بها في دار الدّنيا فلو كانت هذه الصّفات مخلوقة معها مركوزة فيها لكانت النّفس من أوّل الأمر متّصفة بها و ليس كذلك لأنّا اذا سألنا الصّبي و قلنا له أتحبّ هذا الشّخص مثلاً يقول نعم.

و أمّا بعد مضّي عهد الصّبا و الصِّغر يصير عدّواً له أو بالعكس و محصّل الكلام في المقام هو أنّ اللّه تعالىٰ خلق و أوجد المشركين كما خلق المّوحدين المؤمنين بلا تفاوتٍ بينهما من هذه الجهة و لكنّهم صاروا بعد ذلك ما صاروا أمّا مشركاً أو موّحداً و أمّا أنّ المشرك خلق مشركاً فهو غير معقول هذا ما فهمناه من الآية و اللّه تعالىٰ أعلم بكلامه.

١- الانعام = ١
٢- المائدة = ٦٠
٣- البقرة = ٢٢

وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ

الصَّغوا الميل و الإقتراف الإكتساب و قيل إكتساب الأثم و معناه وليكتسبوا الأثم، قال بعض المفسّرين العامل في قوله: **وَ لِتَصْغىٰ** قوله: **يُوحي** و اللاّم، لام الغرض و تقديره يوحي بعضهم الىٰ بعضٍ زخرف القول ليغرّونهم و لتصغىٰ اليه أفئدة الّذين لا يؤمنون بالآخرة، و تكون الهاء في قوله: **إِلَيْهِ** عائدة الىٰ القول المزخرف قال و لا يجوز أن يكون العامل فيها، جعلنا، لأنّ اللّه تعالىٰ لا يجوز أن يريد منهم أن تصغىٰ قلوبهم الىٰ الكفر و وحي الشيّطان.

و قيل أنّ اللاّم، لام العاقبة كما في قوله تعالىٰ: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا** [(١)] و قال الجبائي اللاّم، لام الأمر و المراد بها التّهديد كما قال تعالىٰ: **اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ**[(٢)].

قال لأنّ علامة النصب و الجزم تتّفق في سقوط النُّون في قوله: **وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا** وردَّ هذا القول بأنّ اللاّم لو كانت للامر لقال: و لتصنع، بحذف الألف نعم ما ذكره أنّما يتّم في قوله: **وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا** و أمّا في قوله: **وَ لِتَصْغىٰ** فلا.

و قال الزّجاج و البلخي، اللاّم في قوله: **وَ لِتَصْغىٰ** لام العاقبة و ما بعده لام الأمر الّذي يراد به التّهديد.

أقول أحسن الأقوال هو الأوّل منها و اليه ذهب أبو مسلم و إختاره أكثر المفسّرين اذا عرفت هذا فنقول:

معنىٰ الآية هو أنّ الشّياطين يوحي بعضهم الىٰ بعض زخرف القول ليغيّروهم بذلك و لتصغىٰ أي و لتميل، اليه، الىٰ القول المزخرف، **ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** لأنّ الذّين يؤمنون بها لا يصغون الىٰ القول المزخرف قطعاً **وَ لِيَرْضَوْهُ** أي و ليرضوا هؤلاء الّذين لا يؤمنون بالأخرة، من أوحىٰ اليهم ما

١- القصص = ٨

٢- فصلت = ٤٠

أوحىٰ من زخرف القول **وَ لِيَقْتَرِفُوا مٰا هُمْ مُقْتَرِفُونَ** أي و ليكتسبوا هـؤلاء السّامين من الإثم و الذّنب، ما هم مقترفون، أي إكتسبوا ما هم مكتسبون.

و المقصود أنّ الغرض بذلك ليس إلاّ إغفال الّذين لا يـؤمنون بـالأخرة و إيقاعهم في ورطة الهلاكة و الخسران و الّذي يستفاد من الآية هو أنّ السّامع ينبغي له التّأمل في كلام المتكلّم و لا يغترّ بظاهر الكلام و حسن نظمه و بلاغته و ذلك لأنّ ألات الصّيد كثيرة متنوّعة.

و إعلم أنّ الأفئدة جمع فؤاد و هو القلب، لكن يقال له الفؤاد بإعتبار معنىٰ التّفؤد أي التّوقد يقال فأدّت اللّحم، شويته و لحمٌ فيئد، أي مشّوي، و أمّا وجه تسمّية بالقلب فلتّقلبه و إنقلابه و قد أشار اللّه تعالىٰ في كثير من الأيات الىٰ للّفظين أعني بهما القلب و الفؤاد كما لا يخفىٰ.

أَفَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتٰابَ مُفَصَّلًا

الإبتغاء الطّلب خاطب اللّه نبيّه أن يقول لهؤلاء الكفّار الّذين مضىٰ ذكرهم، أفغير اللّه أبتغي حكماً، أي أطلب سوىٰ اللّه حاكماً، **و الحَكَم** بفتح الحاء و الكاف و الحاكم بمعنىٰ واحد إلاّ أنّ الأهليّة معتبرة في الحكم دون الحاكم لأنّه قد لا يكون أهلاً و لذلك فهو أمدح من الحاكم و المقصود من هذا الكلام هو أنّه لا يجوز لأحدٍ أن يعدل عن حكم اللّه رغبةً عنه و ذلك لأنّ الإستفهام الإنكاري يرجع الىٰ النّفي **والواو** في قوله: **وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ**، للحال أي و الحال أنّ اللّه هو الّذي أنزل اليكم الكتاب مفصّلاً بالأيات الّتي تفصل المعاني بعضها من بعضٍ أو بما يفصل بين الصّادق و الكاذب من أمور الدّين.

و قيل فصّل فيه الحلال من الحرام و الكفر من الإيمان و الهدىٰ من الضّلال **وَ ٱلَّذِينَ اٰتَيْنٰاهُمُ ٱلْكِتٰابَ** من اليهود و النّصارىٰ **يَعْلَمُونَ أَنَّهُ** أي القرأن **مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ** و لكن يكتمون ما يعلمون كما هو شأن المنافق المعاند و فى هذا الكلام إشارة الىٰ أنّ الإنكار باللّسان قد يكون كاشفاً عن عدم العلم كما هو

كذلك في حقّ العوام و قد لا يكون كما في غيرهم من العلماء نحن فيه من قبيل الثّاني فأنّ علماء اليهوٰد و النّصاریٰ أنكروا أنّ القرأن منزّل من عند اللّه مع علمهم بذلك باطناً.

و إحتمل بضع المفسّرين أن يكون المراد بقوله: **وَ ٱلَّذِينَ اٰتَيْنٰاهُمُ ٱلْكِتٰابَ** المؤمنين المسلمين و أن يكون المراد بالكتاب هو القرأن و قوله: **فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** معناه لا تكونَّن من الشّاكين الإمتراء الشكّ وكذلك المرية و يكون الخطاب للنّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و المراد به الأمّة و يحتمل أن يكون المراد فلا تكونّن من الشّاكين في أنّهم يعلمون أنّ ذلك من ربّك بالحقّ.

وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلاً لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِهِ وَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

قرأ أهل الكوفة، علىٰ التّوحيد والباقون (كلمات) جمع كلمة، ثمّ أنّهم إختلفوا في المراد بها فالمشهور علىٰ أنّ المراد بالكلمات ما ذكره اللّه من وعده و وعيده و ثوابه و عقابه فلا تبديل فيه و لا تغيير له:

قال اللّه تعالى: **مٰا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ**(١).

قال اللّه تعالى: **لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ ٱللّٰهِ**(٢).

قالوا و التّقدير و تمّت ذوات الكلمات.

أقول لا وجه لهذا الإختلاف في القراءة لأنّ المراد بالكلمة هو جنسها و الجنس يطلق علىٰ القليل و الكثير و أمّا تغيير الآية فلا بدّ لنا من التّكلم فيه إجمالاً فنقول ذكر اللّه تعالىٰ في الآية أوصافاً لكلمته.

أحدها: أنّها تامّة لا نقص فيها أصلاً و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ في ذاته و صفاته كاملٌ تامٌ لا نقص فيه ذاتاً و صفةً و التّكلم صفة له فلا محالة يكون تامّاً لأنّ النّقص في الصّفة دليل علىٰ النّقص في الموصوف فلو لم تكن كلماته تامّات

١- ق = ٢٩
٢- يُونس = ٦٤

لزم أن تكون الكلمة ناقصة و الّله تعالىٰ لا يوصف بالنّقص، و اذا لم تكن ناقصة فهي كاملة تامّة و هو المطلوب.

و قيل المراد بالتّمام كونها كافية وافية لإثبات النّبوة من جهة الإعجاز.

و قيل كافية تامّة في بيان ما يحتاج المكّلفون اليه الىٰ يوم القيامة علماً و عملاً.

و قيل أنّ حكم اللّه الّذي حصل في الأزل لا يزاد عليه شئ بعد ذلك فهو التّمام و الزّيادة عليه ممتنعة و هذا الوجه هو المراد من قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم جفّ القلم بما هو كائن الىٰ يوم القيامة، و قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم حلاله حلال الىٰ يوم القيامة و حرامه كذلك.

ثانيها: قوله: **صِدْقًا** و الصّدق ضدّ الكذب و الكلام لا يخلو منهما فأن كان صدقاً لا يكون كذباً و بالعكس.

و الدلّيل علىٰ كونه صدقاً في حقّه تعالىٰ هو أنّه لو لم يكن صدقاً لكان كذباً و الكذب نقصٌ و قبيح و هو تعالىٰ منّزهٌ عنهما و عن جميع العيوب و النّقائص ذاتاً وصفةً و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا**(٢)

ثالثها: قوله: **وَ عَدْلًا** العدل وضع الشّئ في محلّه كما أنّ الظّلم وضعه في غير محلّه و عليه فالعدل في الكلام هو وضعه في محلّه و الّله تعالىٰ حكيم بقولٍ مطلق و لازم الحكمة و العدل في جميع الشّئون و هذا الحكم مؤيّد بالعقل و النّقل و هو واضح.

رابعها: قوله: **لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** قالوا في معناه أي لا تبديل لها لأنّ دلالة الكلمات علىٰ معانيها ظاهرة جلّية لا تزول بسبب شبهات الكفّار.

١- النّساء = ٨٧

٢- النّساء = ١٢٢

و أنت ترىٰ أنّ هذا التّفسير لا يساعد اللّفظ اذ لم يقل لا تبديل لكلمات اللّه بل قال لا مبدّل لكلمات اللّه و المبدّل إسم فاعلٍ من بدَّل تبديلاً، فالمعنىٰ لا يقدر أحدٌ علىٰ تبديل كلمات اللّه إمّا من حيث البلاغة و أمّا من حيث إفادة المعنىٰ ففيه دلالةٌ علىٰ إعجاز القرأن و أنّ الخلق لا يقدر علىٰ الإتيان بأيةٍ منه فضلاً عن مثله و الىٰ هذا المعنىٰ أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**(١).

و يمكن أن يراد من الكلمات الأحكام من الحلال والحرام والمعنىٰ لايقدر أحَد علىٰ تبديل أحكام اللّه، أو لا يقدر أحد علىٰ تغير قضاءه و قدره و وعده و وعيده و أمثال ذلك و الكلّ محتمل و حمل اللّفظ علىٰ العموم أولىٰ.

خامسها: قوله: **وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** و فيه إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ يسمع و يعلم ما تقولون و ما تسُرون به و لا يخفىٰ عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء و هذا ممّا لا خفاء فيه.

قال الإمام الرّازي في تفسيره لهذه الآية عند قوله تعالىٰ لا مبدّل لكلماته بعد ما ذكره من الوجوه ما هذا لفظه:

الوجه الرّابع أن يكون المراد أنّ أحكام اللّه تعالىٰ لا تقبل التّبديل و الزّوال لأنّها أزّلية و الأزلّي و لا يزول.

و إعلم أنّ هذا الوجه أحد الأصول القوّية في إثبات الجبر لأنّه تعالىٰ حكم علىٰ زيد بالسّعادة و علىٰ عمر و بالشّقاوة ثمّ قال لا مبدّل لكلمات اللّه يلزم إمتناع أن ينقلب السّعيد شقّياً و أن ينقلب الشّقي سعيداً فاسّعيد من سعد في بطن أمّه و الشّقي من شقي في بطن أمّه انتهىٰ كلامه.

و لقائلٍ أن يقول أمّا أوّلاً أنّ اللّه قال: **لَا مُبَدِّلَ** ولم يقل لا تبديل و قد مرّ الكلام فيه و أنّ المعنىٰ لا يقدر أحدٌ علىٰ تبديل كلماته و هذا ممّا لا كلام فيه.

١- الإسراء = ٨٨

و أمّا أنّ الكلمات لا تقبل التّبديل و الزّوال لأنّها أزلّية و الأزلّي لا يزول، فهو خارج عن موضوع البحث مضافاً الىٰ أنّ الأزلّي لا يزول أو لا يقبل التّبديل كلام عارٍ عن التّحصيل و لا يناسب شأن الرّازي و أمثاله لأنّ اللّه تعالىٰ يقول في كتابه: **يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ اَلْكِتٰابِ** (١) فاذا كان كلامه أزليّاً و الأزلّي لا يزول و لا يبدّل علىٰ ما زعمه، فما معنىٰ قوله: يمحو اللّه و يثبت و محو الشّيئ لا يكون إلاّ بعد إثباته أوّلاً فهل قال أو يقول عاقل أنّه تعالىٰ يمحو ما ليس بثابتٍ.

و اذا كان كذلك فكيف يقال أنّ الأزلّي لا يزول و لا يبدّل، هذا كلّه مضافاً الىٰ أنّ كلام اللّه حادث و ليس بأزلّي لأنّ الأزلّي لا يكون إلاّ قديماً و هو منحصر بذاته و صفاته اذ لا قديم سوىٰ اللّه تعالىٰ و حيث أنّ الصّفات عين ذاته لا زائدة عليه فالقديم الأزلّي منحصر بالواحد الأحد الذّي **لم يَلد و لَم يُولد و لم يَكن له كفُواً أحَد**، علىٰ أنّ البحث في كلماته لا في قضاءه و قدره لأنّ القضاء شيئ و الكلمة شيئ أخر فعلمه بسعادة زيد أو شقاوته غير حكمه بهما و كلامه.

نعم لو ثبت أنه قال حكمت بشقاوة زيد أو بسعادته أو قال، كن شقّياً أو كن سعيداً، لكان لما ذكره محملاً و أنّىٰ له بإثبات ذلك فما ذكره خارج عن موضوع البحث أوّلاً و عن تفسير الكلام ثانياً.

و أمّا الحديث الذّي ذكره و تبعه غير واحدٍ من الأشاعرة فهو ممّا لا أصل له.

و علىٰ فرض صحّته فليس معناه ما ذكره و فهمه منه و للبحث فيه مقام أخر.

نعم الغريق يتّشبث بكلّ حشيشٍ، و كلّ يجّر النّار الىٰ قرصته.

■

١- الرَّعد = ٣٩

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ
سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا
ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِـآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ
﴿١١٨﴾ وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ
عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا
ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِمْ
بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَ
ذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ
ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَ لَا
تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ
إِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ
وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

◁ اللّغة

يَخْرُصُونَ قال في المفردات الخرص، حرز الثَّمرة و الخرص المحروز كالنَّقض للمنقوض و قيل الخرص الكذب و حقيقة ذلك أنّ كلّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ و تخمينٍ يقال له خرص سواء كان مطابقاً للشّئ أو مخالفاً له من حيث أنّ صاحبه لم يقله عن علم و لا غلبة ظنٍّ و لا سماعٍ.

مَا ٱضْطُرِرْتُمْ، الإضطرار الإلجاء.

بِالْمُعْتَدِينَ، الإعتداء التّجاوز عن الحدّ.

ذَرُوا: أي أتركوا.
يَقْتَرِفُونَ: الإقتراف الإكتساب، و الباقي واضح.

◁ الإعراب

أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ في، من، وجهان:
أحدهما: هي بمعنىٰ الذّي أو نكرة موصوفة بمعنىٰ فريق فعلىٰ هذا يكون في موضع نصب بفعلٍ دلَّ عليه، أعلم، لا بنفس أعلم، لأنّ، أفعل لا يعمل في الإسم الظّاهر النّصب و التّقدير يعلم من يضّل.
الثّانى: أنّ، من، إستفهام في موضع مبتدأ، و يضّل، الخبر، و موضع الجملة النَّصب بيعلم المقدّرة، وَ مٰا لَكُمْ ما، إستفهام في موضع رفع الإبتداء و، لكم، الخبر أَلاّٰ تَأْكُلُوا قيل حرف الجرّ مراد معه و التّقدير، في أن لا تأكلوا، ولمّا حذف حرف الجرّ كان في موضع نصب أو في موضع حرّ علىٰ إختلافهم.
وقيل أنّه في موضع الحال أي و أيُّ شئٍ لكم تاركين الأكل و هو ضعيف لأنّ، أن تمّحض الفعل الاستقبال و تجعلَه مصدراً فيمتنع الحال إِلاّٰ مَا اضْطُرِرْتُمْ ما، في موضع نصب علىٰ الإستثناء من الجنس من طريق المعنىٰ.

◁ التّفسير

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ
قيل هذا خطاب من اللّه لنبيّه و لجميع المؤمنين لأنّه كان في ذلك الوقت أكثر أهل الأرض كفّاراً، و الحقّ أنّ الخطاب للنّبي كغيره من الأيات و المراد به الأمّة.
أمّا أنّ الخطاب للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فلأنّه كان مخاطباً في جميع الأيات و الأحكام لمكان رسالته و نبّوته و أنّه واسطة بين الخلق و خالقه فينبغي أن يكون هو المخاطب بكلام اللّه دون غيره.
و أمّا أنّ المراد أمتّه لأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لمكان عصمته لا يطيع غير اللّه مضّلاً عن

المضّلين و أمّا قولهم كان أكثر أهل الأرض كفّاراً في ذلك الوقت، فهو تخصيص أو تقييد من غير دليل بل الحقّ أنّ الآية علىٰ عمومها والأن أيضاً كذلك و بعبارةٍ أخرىٰ الحكم كلّيّ لا يختّص بزمانٍ دون زمانٍ فهي دالّة علىٰ أنّ الطّاعة و الإنقياد لأكثر أهل الأرض في كلّ عصرٍ و زمانٍ توجب الضّلالة و الإنحراف عن طريق الحقّ للمطيع و المنقاد و لعمري هذا كلام ينبغي أن يكتب بماء الذّهب.

كيف لا و هو كلام الخالق و هو أعرف بخلقه منهم أنفسهم فيستفاد من الآية أنّ أكثر أهل الأرض من المضّلين الذّين توجب طاعتهم الإنحراف عن سبيل اللّه و المضّل أعمّ من الكافر لأنّ أكثر المسلمين أيضاً من المضّلين و إن كانوا بزعمهم من المهتدين فقوله تعالىٰ: **أَكْثَرَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ** لا يختّص بالكافرين فقط كما زعم بعض المفسّرين و إن أردت أن تعرف حقيقة الحال حتّىٰ في زماننا هذا.

فأعلم أنّ عدد النّفوس في كرة الأرض علىٰ ما هو المشهور بحسب الإحصاء (٥٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠) و عدد نفوس المسلمين (١٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠) و عدد الشّيعة الأثني عشّرية يقرب (١٠٠/٠٠٠/٠٠٠) أو أكثر بقليل فأنظر ماذا ترىٰ.

و حاصل الكلام هو أنّ الآية ترشدنا الىٰ نكتةٍ دقيقة و هي أنّ الحقّ لا يعرف بالأكثر و من زعم ذلك فقد أخطأ و لعلّ السّر فيه هو أنّ أكثر النّاس في كلّ عصرٍ و زمان العوام كالأنعام كما هو المشاهد المحسوس في زماننا هذا أيضاً و قد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عنهم بهمج الرعاء إتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريحٍ لا يستضيئون بنور الهدىٰ و قد ذمّهم اللّه تعالىٰ في كثير من الأيات:

و وصفهم بعدم العلم:

قال اللّه تعالىٰ: **اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**.

و بعدم العقل:

قال اللّه تعالىٰ: **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**.

و بعدم الإيمان:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.**

و بعدم الشُّكر:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَشْكَرُوْنَ.**

و بالفسق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فٰاسِقُونَ.**

و بكراهة الحقّ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ.**

و بالجهل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ.**

و بالكفر:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَكْثَرُهُمُ اَلْكٰافِرُونَ.**

و بالشّرك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ**(۱).

و بنقض العهد:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ**(۲).

و بالكذب:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَكْثَرُهُمْ كٰاذِبُونَ.**

و هكذا و من كان كذلك فكيف يتّبع و يطاع:

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى اَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لا يَهِدِّيَ إِلّاٰ أَنْ يُهْدىٰ فَمٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**(۳).

۱- يوسف = ۱۰۶ ۲- الاعراف = ۱۰۲
۳- يونس = ۳۵

و العجب من المسلمين في صدر الإسلام أنّهم بعد ما سمعوا هذه الآية و أمثالها كيف أطاعوا بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر و بعده من الخلفاء غيرهم من الغاصبين و تركوا عليّاً و من تبعه من الأقلّين أمثال سلمان و أبى ذرّ و عمّار و أستدلّوا بذلك علىٰ أنّ الأكثر مع أبي بكر و عمر و لم يعلموا أنّ الحقّ لا يتبع الأكثر بل الأمر بالعكس و أعجب من ذلك تسميتهم ذلك بالإجماع و نقلوا عن رسول اللّه أنّه قال لا تجتمع أمّتي علىٰ خطأ، ولم يعلموا أنّ هذا الإجتماع أن كان المراد به الأكثر فهو لا يساعد القرآن و أن كان المراد به الكّل فهو لم يحصل و لا يحصل فما معنىٰ الإجتماع و لم يقنعوا بذلك بل زادوا في الطّنبور نغمةٍ أخرىٰ و هى أنّ المخالف للأكثر يعّد فاسقاً مفسداً يجب قتله بحكم الإسلام و لذلك حكموا بقتل الحسين عليه السلام و أصحابه و أولاده و هلّم جرّا فأعتبروا يا أولي الأبصار فإذا قيل لهم لم فعلتم ما فعلتم بأولاد الرّسول و الصُلحاء من الأمّة من القتل و النّهب و الضّرب و الشّتم، يقولون أنّهم خالفوا أصحاب الرّسول و شقّوا عصا الأمّة و سلكوا مسلكاً آخر غير ما سلكه الأكثر وليس لهم جواب غير هذا و أن كان مخالفاً لصريح القرآن مع أنّ القرآن هو الأصل المتّبع في جميع الأحكام و قد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **أنّي تارك فيكُم الثّقلين كتاب اللّه و عِترتي** الحديث و ليت شعري لم جعل عمر أمر الخلافة في ستة و حكم بأنّ المخالف أن كان واحداً فأقتلوه و أن كان اثنين فأقتلوه لأنّ الأقّل يجب عليه متابعة الأكثر، و إلاّ فيجوز قتله فأنظر أيّها العاقل المنصف كيف جعل عمر الأقّل تابعاً للأكثر بقولٍ مطلق و أعرض عن حكم اللّه تعالىٰ في الباب حيث قال و أن تطع أكثر من في الأرض الآية و ذمّ الأكثر في غير واحدٍ من الأيات و كيف جعل الحقّ للأكثر برغم أنف القرآن و المسلمون ساكتون سامعون مطيعون.

أن قلت لعّل الآية و هى قوله: **وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** ناظرة الىٰ أكثر من في الأرض من الكفّار و أمّا المسلمون فلا.

قُلت إطلاق الآية ينفي هذا الإحتمال فأنّ اللّه قال أكثر من في الأرض،

مسلماً كان أو كافراً ولم يقّيد الحكم بالكفّار فيعلم منه أنّ متابعة الأكثر تحت عنوان الأكثّرية مذمومة و لا فرق فيها بين المسلمين و الكفّار بل الواجب متابعة الحقّ أينما وجد ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ أستّدل علىٰ ذلك بقوله: **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** إن، نافية بالإتّفاق و المعنىٰ، ما يتّبعون هٰؤلاء الأكثر إلاّ الظّن، و ما هم إلاّكاذبون، وصفهم اللّه بمتابعة الظّن و الكذب فالبحث يقع في مقامين.

أحدهما: متابعة الظّن.

الثّاني: الخرص والكذب.

أمّا المقام الأوّل: أعني به متابعة الظّن.

فنقول الظَّن إسمٌ لما يحصل عن أمارةٍ و متىٰ قويت أدَّت الىٰ العلم و متىٰ ضعفت جدّاً لم يتجاوز حدّ التَّوهم قاله الرّاغب في المفردات إذا عرفت هذا فأعلم أنّ المراد بالظَّن في الآية هو الظَّن الضّعيف الّذي لم يتجاوز حدّ التَّوهم و أن شئت قلت المراد به في المقام، التّوهم و أنّما قلنا ذلك لأنّ الظّن القوّي الّذي وصل الىٰ مقام العلم و اليقين فهو غير مرادٍ في الآية.

أمّا أوّلاً: فلأنّ متابعة العلم و القطع ليست بمذمومة قطعاً.

ثانياً: لو كان المراد به العلم لما عبَّر بالظَّن.

ثالثاً: لو كانت متابعة الظَّن القوّي الّذي أدَّت الىٰ العلم مذمومة و الضّعيف أيضاًكذلك فأيّ شئ يتّبع في الإعتقادات و الأحكام، و اذاكان الأمر علىٰ هذا المنوال فالعقل و النَّقل يحكمان بعدم إتّباعه.

أمّا العقل فواضح لأنّه يحكم حكماً قطّعياً بأنّ ما لا يقطع بصّحته أو فساده لا يتّبع لأنّ دفع الضّرر المحتمل واجب عقلاً و فى غير المقطوع به إحتمال الضّرر موجود.

أمّا النقل قال في كتابه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْـحَقِّ شَيْئًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ**(٣) والأيـات كثيرة في الباب.

و إذا كان الظّن لا يغني من الحقّ شيئاً، للظّان نفسه، فكيف يغني في حقّ من تابعه و هل هذا إلاّ كمتابعة الأعمىٰ للأعمىٰ و الجاهل بالجاهل: **ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ**(٤).

المقام الثّاني: الخرص و الكذب، و قيل أنّ الخرص الخدش و الظّن و قيل هو الإفتراء وكيف كان فمعنىٰ قوله: **وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ما هم إلاّ يكذبون أو يفترون أو يحسدون و الكّل متقارب المعنىٰ و حيث أنّ اللّه تعالىٰ وصفهم أوّلاً بأنّهم يتبعون الظّن قال و أن هم إلاّ يخرصون مشعراً بأنّ متابعة الظّن ملازم للخرص و الكذب فمن تابع الظّن تابع الكذب قهراً لأنّ الظّن لا يغني من الحقّ شيئاً و لذلك في موضع آخر:

قال اللّه تعالىٰ: **مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**(٥).

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

المخاطب بهذه الآية أيضاً نبيّه ﷺ و أن كان المقصود جميع الأمّة قال المفسّرون هو أعلم بمعنىٰ أعرف أي أنّ اللّه تعالىٰ أعرف بحال الضّالين و المضّلين و المهتدين من غيره و الوجه فيه واضح لا خفاء فيه لأنّ الخالق أعرف بخلقه منه نفسه فضلاً عن غيره و فيه إشعار بأنّ بعض الأشخاص أو

١- يُونس = ٣٦
٢- الحجرات = ١٢
٣- النّجم = ٢٨
٤- ص = ٢٧
٥- الزّخرف = ٢٠

أكثرهم يدّعون الإيمان و متابعة الحقّ و اللّه يشهد أنّهم لكاذبون و هذا ظاهر **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ** الفاء للتّفريع، لأنّه جواب لقول المشركين لمّا قالوا للمسلمين، أتأكلون ما قتلتم و لا تأكلون ما قتل ربّكم، فكأنّه قيل أعرضوا عن جهلكم فكلوا، و قيل أنّه عطف علىٰ ما دّل عليه أوّل الكلام كأنّه قال كونوا علىٰ الهدىٰ فكلوا ممّا ذكر إسم اللّه عليه، و لا شكّ أنّ قوله: **فَكُلُوا** و أن كان لفظه لفظ الأمر إلاّ أنّ المراد به الإباحة لأنّ الأكل ليس بواجبٍ و لا مندوب اللّهم إلاّ أن يكون في الأكل إستعانة علىٰ طاعة اللّه فأنّه يكون مرغباً فيه و ربمّا كان واجباً و نظير هذه الأية:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَانْتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ**(۲).

و الإصطياد و الإنتشار مباحان بلا خلاف ثمّ أنّ المراد بالذّكر، في قوله: **مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ** الذّكر المسنون و هو قول بسم اللّه، و قيل كل إسم يختصّ اللّه تعالىٰ به أو صفة مختصّة كقوله: **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ** أو بسم القدير أو بسم القادر و ما يجري مجرىٰ ذلك و الأوّل لا خلاف في جوازه غيره خلاف.

قال الشيّخ في التبّيان الآية تدّل علىٰ أنّ ذبائح الكفّار لا يجوز أكلها لأنّهم لا يسّمون اللّه عليها و من سمّىٰ منهم لا يعتقد وجود ذلك بل يعتقد أنّ الّذي يسمّيه هو الّذي أبدىٰ شرع موسىٰ أو عيسىٰ و كذّب محمّد بن عبد اللّه لا يكون، اللّه فإذا هم ذاكرون إسم الشّيطان و الإسم أنّما يكون المسمىٰ مخصوص بالقصد و ذلك مفتقر الىٰ معرفته و إعتقاده و الكفّار علىٰ مذهبنا لا يعرفون اللّه تعالىٰ فكيف يصّح منهم تسمّيته تعالىٰ و فى ذلك دلالة واضحة علىٰ ما قلناه انتهىٰ كلامه قدس سره.

و قال الطّبري، في تفسيره لهذه الآية يقول تعالىٰ ذكره لنبيّه محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و عباده المؤمنين به و بآياته فكلوا أيّها المؤمنون ممّا ذكيّتم من ذبائحكم و

۱- المائدة = ۲ ۲- الجمعة = ۱۰

ذبحتموه الذّبح الّذي بيّنت لكم أنّه تحلّ به الذّبيحة لكم و ذلك ما ذبحه المؤمنون بي من أهل دينكم دين الحقّ أو ذبحه من دان بتوحيدي من أهل الكتاب دون ما ذبحه أهل الأوثان و من لاكتاب له من المجوس إن كنتم بآياته مؤمنين انتهىٰ كلامه.

و أمّا قوله: **إِنْ كُنْتُمْ بِاٰيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ** فمعناه إن كنتم عرفتم اللّه و رسوله و صحّة ما آتاكم به من عند اللّه و تعليقه علىٰ الشّرط للدلاّلة علىٰ أنّ قبول الحكم مختّص بالمؤمنين و أمّا الكفّار و من لم يؤمن باللّه و برسوله فهم بريئون معرضون عن قبول الحكم و أن كان عامّاً لجميع الخلق من باب الإشتراك في التّكليف لأنّ الكفّار مكلّفون بالفروع و قيل ما حلّل اللّه للمؤمنين فهو حلال لجميع المكلّفين و ما حرَّم عليهم كذلك و قال الرّازي التّقدير، ليكن الحكم مقصوراً علىٰ ما ذكر إسم اللّه عليه إن كنتم بآياته مؤمنين و المراد أنّه لو حكم بإباحة أكل الميتة لقدح ذلك في كونه مؤمناً ثمّ وبّخ اللّه المؤمنين علىٰ تركهم أكل المذّكىٰ.

وَ مٰا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمّٰا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مٰا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ قرأ نافع و حفص عن عاصم **وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ** بالفتح في الحرفين أعني بهما الفاء و الحاء بصيغة المعلوم.

و قرأ إبن‌كثير و أبوعمر و ابن عامر بضّم الفاء والحاء بصيغة المجهول و فصّل الكسائي و حمزة و أبوبكر فقالوا بفتح الفاء و ضمّ الحاء، و قرأ أهل الكوفة **لَيُضّلُّونَ** بضّم الياء وكسر الضّاد و الباقون بفتح الياء فمن ضمّ الفاء و الحاء فلقوله تعالىٰ: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَ ٱلدَّمُ**(١) قال أنّ هذه الآية تفصيل لذلك العام بقوله: **فَصَّلَ** وكذلك **حَرَّمَ** لأنّ هذا المفصّل هو ذلك المحرّم الذّي حلَّ في هذه الآية و من فتحها فلقوله تعالىٰ: **أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ**(٢).

١- المائدة = ٣ ٢- الأنعام = ١٥٣

و قوله قد فصّلنا الأيات وكذلك قوله: **ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هٰذَا**[١] و لأنّه قال و ما لكم ألاّ تأكلوا ممّا ذكر إسم اللّه عليه و قد فصّل الآية فينبغي أن يكون الفصل بيّناً للفاعل لتّقدم ذكر إسم اللّه عليه، و من فتح الفاء و ضمّ الحاء فلقوله: فصّلنا الأيات) و قوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَ ٱلدَّمُ**، قاله الشّيخ في التّبيان و لنرجع الىٰ تفسير الآية فنقول:

قوله تعالىٰ: **وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا** لاشكّ أنّه خطاب للمؤمنين الذّين ذكرهم في الآية الأولىٰ و المعنىٰ، لم لا تأكلون ممّا ذكر إسم اللّه عليه و بعضهم فرّق بين قولنا، لم لا تفعل، و قولنا ما لك أن لا تفعل، فقال أنّ الأوّل أعمّ من الثّاني لأنّ، لم لا تفعل، قد يكون لحالٍ يرجع اليه و قد يكون لحالٍ يرجع الىٰ غيره بخلاف قولنا (ما لك أن لا تفعل، فأنّه لحالٍ يرجع اليه، و إختلفوا في معنىٰ، لا، في قوله: (أن لا تأكلوا).

فقال بعضهم أنّها للجحد و المعنىٰ أيّ شيءٍ لكم في أن لا تأكلوا إختاره الزّجاج و غيره من البّصريين.

و قيل أنّها صلة و المعنىٰ ما منعكم أن تأكلوا، و قال قوم معناه ليس لكم أن لا تأكلوا ممّا أمرناكم بأكله علىٰ الوصف الذّي أمرناكم بفعله، والمراد بإسم اللّه في قوله: **مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ** هو الإسم المختّص به تعالىٰ و قد مرّ الكلام فيه عند قوله: **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ**.

و قلنا أنّه دليل علىٰ وجوب التّسمية علىٰ الذّبيحة و أنّ ذبائح الكفّار لا يجوز أكلها لأنّهم لا يسمّون اللّه عليها و من سمّىٰ منهم لا يعتقد وجوبه وكيف كان فالآية تدّل علىٰ جواز تناول ذبيحة كلّ المسلمين إلاّ من خرج بدليلٍ كناصب العداوة لأهل البيت عليهم السّلام و المجسّمة و أمثالهم.

و أمّا إشتراط الإيمان في الذّابح فالمشهور عدمه و به قال أكثر الأصحاب و ذهب ابن البّراج الىٰ منع ذبيحة غير أهل الحقّ و قصّر ابن إدريس الحلّي علىٰ

١- الأنعام = ١٥٠

المؤمن و المستضعف الذّي لا منّا و لا من مخالفينا، إستثنىٰ أبو الصّلاح من المخالف جاحد النّص و أجاز العلامّة في المختلف ذباحة المخالف غير النّاصبي مطلقاً بشرط إعتقاد وجوب التّسمية و يدّل عليه بعض الأخبار كصحيحة زكّريا ابن أدم و حملها الأكثر علىٰ الكراهة جمعاً و هو الأقوىٰ دفعاً للمشّقة.

و قوله: **وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ** إشارة الىٰ قوله تعالىٰ: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَ ٱلدَّمُ**[1] و غيرها من الأيات و قوله: **إِلّٰا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** قالوا في معناه اذا خفتم علىٰ أنفسكم الهلاك من الجوع و ترك التّناول أي يجوز لكم التّناول ممّا حرّمه اللّه عليكم في حالة الإضطرار، و الحقّ إرادة العموم من اللّفظ عرفاً و عقلاً و شرعاً فكلّ موردٍ صدق عليه الإضطرار جاز أكله بقدر الضّرورة.

و قال الرّازي معناه يجوز لكم تناول ما دعتكم الضّرورة الىٰ أكله بسبب شدّة المجاعة و الحقّ ما قلناه فأنّ الإضطرار يصدق علىٰ الإكراه أيضاً.

نعم الجوع أحد مصاديقه و قوله: **وَ إِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوٰآئِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** معناه أنّ كثيراً من النّاس ليضّلون عن طريق الحقّ بسبب متابعة أهواءهم و أميالهم و إعراضهم عن الحقّ و قيل معناه يضّلون في أنفسهم من غير أن يضّلوا غيرهم من أتباعهم بإمتناعهم من أكل ما ذكر إسم اللّه عليه وكيف كان لا شكّ أنّ منشأ الضّلالة في الحقيقة هو الجهل و لذلك قال: **بِغَيْرِ عِلْمٍ** و حيث أنّ الضّلالة و الإنحراف عن الحقّ من أعظم مصاديق الإعتداء قالّ تعالىٰ: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** أعني بهم المتجاوزين عن الحقّ.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه:

دلّت هذه الآية علىٰ أنّ القول في الدّين بمجّرد التّقليد حرام لأنّ القول بالتّقليد قول بمحض الهوىٰ و الشّبهة و الآية دلّت علىٰ أنّ ذلك حرام انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

١- المائدة = ٣

و لقائلٍ أن يقول أن كان القول في الدّين بمجرّد التّقليد حرام فيجب الإجتهاد في الأحكام لكلّ أحدٍ من أحاد المسلمين وجوباً عيّنياً و لا يقول العاقل بهذه المقالة و توضيح الكلام إجمالاً هو أنّ النّاس علىٰ صنفين، عالم و جاهل و العالم يعمل بعلمه و الجاهل يأخذ العلم بالإحكام عن العالم نعني بالتّقليد إلاّ هذا و أن شئت قلت أمره دائرٌ بين أن يعمل بجهله و لا نعني بمتابعة الهوىٰ إلاّ ذلك وأن يعمل بقول العالم و لا نعني بالتّقليد إلاّ هذا فهو لا محالة إمّا يكون مقلّداً أو متابعاً لهواه في دينه فقول الرّازي أنّ القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوىٰ و الشّبهة كلامٌ لا نفهم معناه كما هو أيضاً لم يفهم معناه و ذلك لأنّ العامي اذا أخذ دينه عن مقلّده فلا يقول إلاّ بقوله و لا يعمل إلاّ بحكمه فكيف يكون قول هذا قولٌ بمحض الهوىٰ و الشّبهة و المفروض أنّه لا يقول من عند نفسه.

نعم التّقليد في المسائل الإعتقادية كالتّوحيد و النّبوة و المعاد باطلٌ و ليس كلامنا فيها بل الكلام في الحلال و الحرام و الفرق واضح.

وَ ذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ

الواو في قوله: **وَ ذَرُوا** للعطف وكلمة، **ذَر** بفتح الذّال وسكون الرّاء فعل أمرٍ بمعنىٰ أترك والواو علامة الجمع أي أُتركوا و لا يستعمل **وَذَر** بمعنىٰ الماضي و لا (واذر) الإسم الفاعل و إستغنىٰ عنه بقولهم (ترك) و أنّما يستعمل منه (و يذر و ذر) و أمثاله:

قال اللّه تعالىٰ: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا**[3].

١- الأنعام = ٩١ ٢- الأنعام = ١١٢
٣- المدّثر = ١١

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **لاٰ تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلْوٰارِثِينَ**(٣) وأمثالها من الأيات كثيرة.

أمر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عباده بترك الإثم و هو في الأصل إسم للأفعال المبطئة عن الثّواب و جمعه أثام و لتَّضمنه لمعنىٰ البطئ قال الشّاعر:

جـمالّية تـغتَلي بـالرّوادِف اذا كَـذِب الأثِـمات الهَجيرا

و إختلفوا في المراد بظاهر الإثم و باطنه، فقال الجبائي المراد بالظّاهر أفعال الجوارح و بالباطن أفعال القلوب، و قال غيره الظّاهر الطّواف بالبيت عرياناً و الباطن الزّناء.

و قال قوم ظاهر الإثم الزّناء و باطنه إتّخاذ الأخدان و عن سعيد بن جبير ظاهر الإثم إمرأة الأب و باطنه الزّناء.

و قال قتادة و الرّبيع و مجاهد أنّ الجاهليّة كانت ترىٰ أنّ الزّناء اذا أظهر و أعلن كان فيها إثم و اذا إستسر به صاحبه لم يكن إثماً فنزلت الآية و الأحسن حملها علىٰ العموم و هو وجوب إجتناب الإثم علىٰ كلّ حالٍ فالنّهي عامّ في جميع المحرّمات ظاهرها و باطنها و سِّرها و علنها و لا دليل علىٰ التّخصيص بشيءٍ معيّن.

و قال بعض المفسّرين من العامّة المراد بظاهر الإثم الإقدام عليه و بباطنه الإظهار بأنّ الدّاعي الىٰ تركه هو خوف اللّه لا خوف النّاس انتهىٰ.

أقول ما ذكره لا دليل عليه و أنّما هو مجرّد التّخيل و الحدس و إستدلّ الرّازي بهذه الآية علىٰ أنّ ما يوجد في القلب من سوء النيّة و الإعتقاد يؤاخذ عليه و إن لم يقترن به عمل، و هو كما ترىٰ مخالف للإجماع و ظواهر الأثار و

١- الأعراف = ١٨٦ ٢- الأنعام = ١١٠

٣- الأنبياء = ٨٩

العقل و للبحث فيه مقام أخر و لذلك قال اللّه تعالىٰ بعد ذلك **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ** و لم يقل أنّ الّذين يبطنون الإثم مثلاً ضرورة أنّ كسب الإثم غير نيّته فالمعنىٰ أنّ الّذين يعملون الإثم و يفعلونه في الخارج سيجازيهم اللّه يوم القيامة بما كانوا يرتكبونه فأنّ الإقتراف الإكتساب و الإرتكاب و هو أدّل دليلٍ علىٰ أنّ الجزاء علىٰ العمل لا علىٰ النّية و حيث أنّ الكسب عبارة عن فعل ما يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر خصّ بالإنسان و لا يوصف اللّه تعالىٰ به ثمّ أردف كلامه بقوله: **وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ** نهىٰ اللّه في هذه الآية عن أكَل ما لم يذكر إسم اللّه عليه و هو صريح في وجوب التّسمية علىٰ الذّبيحة فمن تركها عمداً لا يؤكل من ذبيحته و أمّا في صورة النّسيان فلا إشكال في أكلها بعد أن يكون الذّابح معتقداً لوجوبها و لذلك نقلو أنّ ذبيحة أهل الكتاب لا تؤكل منها لأنّهم لا يعتقدون وجوبها و لا يذكرونه و أمّا من عدا أهل الكتابين أعني بهما التّوراة و الإنجيل فلا خلاف في تحريم ما يذبحونه إجماعاً.

قال الحسن و عكرمة نسخ منها ذبائح الذّين أوتوا الكتاب بقوله تعالىٰ: **وَ طَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ**(١) و الحقّ عدم النّسخ و به قال الشّيخ في التّبيان و ذلك لأنّ المراد بالطّعام في الآية الحبوب دون الذّبائح علىٰ ما روي عن أهل البيت عليهم السّلام.

و قوله: **وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ** أي أنّ أكله فسق و حذف لدلالة الكلام عليه.

نقل الرّازي عن عطاء أنّه قال كلّ ما لم يذكر إسم اللّه عليه من طعامٍ أو شرابٍ فهو حرام تمّسكاً بهذه الآية و أمّا سائر الفقهاء فأنّهم أجمعوا علىٰ تخصيص هذا العموم بالذّبائح ثمّ إختلفوا فقال مالك كلّ ذبحٍ لم يذكر إسم اللّه عليه فهو حرام سواء ترك الذّكر عمداً أو نسياناً و به قال ابن سيرين و جماعة من المتّكلمين.

١- المائدة = ٦

و قال إن ترك الذّكر عمداً حرم وإن ترك نسياناً حلَّ.

و قال الشّافعي يحلّ متروك التّسمية سواء ترك عمداً أو خطأً اذاكان الذّابح أهلاً للذّبح انتهىٰ كلامه.

ثمّ أنّ الفسق هو الخروج عن حجر الشّرع قال الرّاغب في المفردات فسق فلان خرج عن حجر الشّرع و ذلك من قولهم فسق الرُّطب اذا خرج عن قشرٍ و هو أعمّ من الكفر الىٰ أن قال و أكثر ما يقال الفاسق لمن إلتزم حكم الشّرع و أقَرَّ به ثمّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه و اذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنّه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل و إقتضته الفطرة انتهىٰ.

أقول و عليه فالمعنىٰ لا تأكلوا ممّا لم يذكر إسم اللّه عليه و ذلك لأنّه يوجب الخروج عن حجر الشّرع وحدّه ثمّ قال تعالىٰ: **وَ إِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** إختلفوا في المراد بالشّياطين، فقال بعضهم أنّ المراد بهم علماؤهم و رؤوساءهم المتّمردين في كفرهم يوحون و يشيرون الىٰ أولياءهم الذّين إتّبعوهم من الكفّار بأن يجادلوا المسلمين في إستحلال الميتة.

و قال الحسن يجادلونهم بقولهم أنّ ما قتل اللّه أولىٰ بأن يؤكل ممّا قتله النّاس.

و قال عكرمة المراد بهم مرده الكفّار من مجوس فارس الىٰ أولياءهم من مشركي قريشٍ.

و قال ابن عبّاس المراد بهم هاهنا إبليس و جنوده بأن يوسوسوا اليهم و يوحون الىٰ أهل الشِّرك بذلك، و قال قومٌ الذّين جادلوا بذلك كانوا قوماً من اليهود جادلوا رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنّ ما قتله اللّه أولىٰ بالأكل ممّا قتله النّاس، نقل هذه الأقوال الشّيخ في التّبيان.

أقول الظّاهر أنّ المراد بالشّياطين في الآية شياطين الإنس الذّين إتّبعوا شياطين الجنّ و ذلك لقوله تعالىٰ: **لِيُجَادِلُوكُمْ** فأنّ المجادلة ليست من شئون شياطين الجنّ بل شأنهم الوسوسة لا غيرها.

و أمّا قوله: **وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** معناه أن أطعتموا الشّياطين في إستحلال الميتة و أكلها فقد أشركتم باللّه و ذلك لأنّ من إستَّحل الميتة فهو كافر بالإجماع و من أكلها محرماً لها مختاراً فهو فاسق و هو قول الحسن و جماعة من المفسّرين هكذا قيل.

وأنا أقُول أمّا الفسق فلاكلام لنا فيه و أمّا الكفر في حقّ من إستَّحل الميتة فهو محتاج الىٰ الإثبات اللّهم إلاّ أن يقال أنّ حرمة الميتة من ضرّوريات الدّين شكّ أنّ منكر الضّروري كافر فأن ثبت هذا فهو و إلاّ فلا و تفصيل الكلام في هذا البحث و أمثاله خارج عن المقام.

■

أَوَ مَنْ كٰانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُورًا يَمْشِي
بِهِ فِي اَلنّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي اَلظُّلُمٰاتِ لَيْسَ
بِخٰارِجٍ مِنْهٰا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكٰابِرَ
مُجْرِمِيهٰا لِيَمْكُرُوا فِيهٰا وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلاّٰ
بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ
قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ
اَللّٰهِ اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ سَيُصِيبُ
اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ
بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اَللّٰهُ أَنْ
يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ
يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ
فِي اَلسَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اَللّٰهُ اَلرِّجْسَ عَلَى
اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّكَ
مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾
لَهُمْ دٰارُ اَلسَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمٰا
كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

◁ اللّغة

مَيْتًا بالتّشديد و التّخفيف معناهما واحد و هو ضدّ الحيّ و لذلك قيل الميت مخّفف عن الميّت.

نُورًا، النُّور الضّوء المنتشرة الذّي يعين على الإبصار و هو ضدّ الظُّلمة.

أَكَٰبِرَ جمع الأكبر، أكابر القوم شرفاءهم.
لِيَمۡكُرُوا، المَكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ.
حَرَجًا الحرج المشقّة.

◁ الإعراب

أَوَ مَنۡ كَانَ من بمعنىٰ الّذي في موضع رفع بالإبتداء ويَمۡشِي بِهِۦ في موضع نصب صفة لنورٍ وكَمَنۡ خبر الإبتداء ومَثَلُهُ مبتدأ وفِي ٱلظُّلُمَٰتِ خبره و لَيۡسَ بِخَارِجٍ في موضع الحال من الضّمير في الجار وجَعَلۡنَا بمعنىٰ صيَّرنا و أَكَٰبِرَ المفعولُ الأوّل وفِي كُلِّ قَرۡيَةٍ الثّاني و مُجۡرِمِيهَا بدل من أكابر لِيَمۡكُرُوا اللاّم لام كي أو لام الصيّرورة حَيۡثُ يَجۡعَلُ حيث هنا مفعول به و العامل محذوف و التّقدير يعلم موضع رسالته عِندَ ٱللَّهِ ظرف ليصيب أو صفة لصغار ضَيِّقًا مفعول ثانٍ ليجعل فمن شدّد الياء جعله وصفاً و من خفّفها جاز أن يكون وصفاً كميّت و ميت و أن يكون مصدراً أي ذا ضيقٍ حَرَجًا بكسر الرّاء صفة تضّيق أي ضيّقاً بكفره و بفتح الرّاء المشَّقة.

◁ التّفسير

أَوَ مَنۡ كَانَ مَيۡتًا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ الإستفهام للإنكار أي ليس كذلك قرأ أهل المدينة و يعقوب و نافع، ميّتاً بالتّشديد و الباقون بالتّخفيف قال أبو عبيدة الميتة مخفّفة و مثّقلة معناها واحد و أنّما خفّف إستثقالاً قال الشّاعر:

ليس من ماتَ فأستراح بَميتٍ	أنّـما المَـيت مَـيْتُ الأحـياء
أنّما المَيت مَـن يـعيش كَـئيباً	كـاسفاً بـاله قـليل الرّجـاء

أقول و لذلك وصف اللّه الكفّار بأنّهم أموات في كثير من الأيات:
قال اللّه تعالىٰ: **أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٍ وَ مَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ**(١).

١- النّحل = ٢١

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَ لَا ٱلْأَمْوَاتُ**[١].

و الّذي يظهر من موارد الإستعمالات هو أنّ الميّت بالتّشديد كثيراً ما يطلق علىٰ ذوي العقول بخلاف الميت مخفّفاً فأنّه يطلق علىٰ غيرها من الجمادات و النّباتات أيضاً و بذلك يقال أنّ الميت بالتّخفيف أعمّ منه بالتّشديد و كيف كان فمعنىٰ الأية، **أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا** بالكفر فأحييناه بالإيمان أوكان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم أو كان ميتاً بالضّلالة و الغواية فأحييناه بالهداية و السّعادة الموت و الحياة بمعناهما الحقيقي أعني الخروج من العدم الىٰ الوجود فهو غير مرادٍ قطعاً علىٰ ما ذهب اليه المفسّرون و لعلّ مستندهم في ذلك هو وجود القرينة اللّفظية أعني بها قوله: **وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى ٱلنَّاسِ** أو غير ذلك ممّا ظهر لهم و خفي علينا.

و لقائلٍ أن يقول حمل الآية علىٰ العموم أولىٰ و أن كان ما ذكروه أظهر بإعتبار اللّفظ و اللّه أعلم بمراده.

ثمّ أنّهم إختلفوا في من نزلت الآية فيه فقال إبن عبّاس و الحسن و غيرهما نزلت في كلّ مؤمنٍ وكافرٍ، و قال عكرمة نزلت في عمّار بن ياسر و أبي جهل و هو قول أبي جعفر عليه السلام و قال الضّحاك نزلت في عمر بن الخطّاب، الزّجاج نزلت في النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و أبي جهل، و لا شكّ أنّ الأوّل أحسن و أولىٰ لأنّه أعمّ فائدةً حيث يدخل فيه جميع ما قالو: **وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى ٱلنَّاسِ** قيل أي جعلنا له علماً لأنّ العلم نور و حياة، أمّا أنّه نور فلأنّه ظاهر بالذّات و مظهراً للغير.

و أمّا أنّه حياة إذ به حياة القلب كما أنّ الجهل موته أو لأنّ العلم يهتدي به الىٰ الرّشاد كما يهتدي بالنُّور في الظّلمات و تدرك به الأمور كما تدرك بالحياة فالظّلمة، كالجهل لأنّه يؤدّي الىٰ الحيرة و الهلكة و الموت كالجهل في أنّه لا

١- فاطر = ٢٢

تدرك به حقيقة **كَمَنْ مَثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** و التّقدير كمن مثله مثل من في الظّلمات، أي في.

ظلمات الكفر أو الجهل، و الحاصل أنّ اللّه تعالىٰ شبّه العلم و الإيمان بالنُّور، و الكفر و الجهل بالظّلمة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس.

و قوله: **لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** معناه أنّه منغمرٌ فيها بإختياره لا أنّه لا يقدر علىٰ الخروج منها **كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** قال بعضهم وجه التشبيه في قوله: **كَذٰلِكَ** الخ.

أي زيّن لهؤلاء، الكفر فعملوه كما زين لأولئك الإيمان فعملوه فشبّهت حال هؤلاء في التزيين بحال أولئك فيه كما قال تعالىٰ: **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**(١)

و أنّما زيّن اللّه تعالىٰ الإيمان عند المؤمنين، و زيّن الغواة و الشّياطين و غيرهم، الكفر عند الكافرين و هو قول الحسن و أبي علّي و الرّماني و أمثالهم.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية عند قوله تعالىٰ: **كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ما هذا لفظه و عند هذا عادت مسألة الجبر و القدر فقال أصحابنا ذلك المزّين هو اللّه و دليله ما سبق ذكره من أنّ الفعل يتوقف علىٰ حصول الدّاعي و حصوله لابدّ و أن يكون بخلق اللّه و الدّاعي عبارة عن علم أو إعتقادٍ أو ظنٍ بإشتمال ذلك الفعل علىٰ نفع زائدة و صلاح راجح فهذا الدّاعي لا معنىٰ له إلاّ هذا التّزيين فإذا كان موجد هذا الدّاعي هو اللّه تعالىٰ كان المزّين لا محالة هو اللّه تعالىٰ انتهىٰ.

و الجواب عنه أمّا أوّلاً فبأنّ حصول الدّاعي و وجوده من اللّه لا يستدعي ما ذكره لأنّ اللّه تعالىٰ أوجد الدّاعي الىٰ الفعل في العبد و الدّاعي كما يوجب الخير لذلك يوجب الشّر و بعبارةٍ أخرىٰ الفعل الّذي يتّوقف علىٰ الدّاعي قد يكون خيراً و قد لا يكون كذلك و هو دليل علىٰ أنّ العبد مختار في إيجاد أيّهما شاء و اذا كان كذلك فهو غير مجبور في فعله.

١- المؤمنون = ٥٣

و أن شئت قلت وجود الدّاعي مع الإختيار و هذا أمرٌ معقول بل محسوس.

ثانياً: أنّ اللّه تعالىٰ قال وزُيّن بصيغة المجهول ولم يقل و زيّن بصيغة المعلوم و هذا دليل علىٰ أنّ المزّين غير معلوم فنسبة التّزيين اليه تعالىٰ يحتاج الىٰ دليلٍ و مجرّد كونه تعالىٰ موجداً للدّاعي لا يوجب كونه مزَّيناً للفعل فالموجد هو اللّه تعالىٰ و المزّين للفعل الّذي أوجده العبد بإختياره هو الشيطان:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لاٰغٰالِبَ لَكُمُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَجَدْتُهٰا وَ قَوْمَهٰا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ**(٣).

و الأيات كثيرة ولتفصيل الكلام فيه مقام أخر و في الآية دلالة علىٰ وجوب طلب العلم لأنّه تعالىٰ رغّب فيه بأن جعله كالحياة في الإدراك بها و النُّور في الإهتداء به قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم طلب العلم فريضة علىٰ كلّ مسلمٍ و الحمد للّه ربّ العالمين.

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا لِيَمْكُرُوا فيهٰا وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلّٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ

قال بعض المفسّرين معناه كما جعلنا، ذا النُّور من المؤمنين كذلك جعلنا، ذا المكر من المجرمين فكلّما فعلنا بهؤلاء فعلنا بأولئك إلاّ أنّ أولئك إهتدوا بحسن إختيارهم و هؤلاء ضلّوا بسوء إختيارهم.

و قال بعض المفسّرين الكاف في قوله: **وَ كَذٰلِكَ** يوجب التّشبيه وفيه قولان:

الأوّل: وكما جعلنا في مكّة صناديدها ليمكروا فيها **كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا**.

١- الأنعام = ۴۳
٢- الأنفال = ۴۸
٣- النّمل = ٢۴

الثّاني: أنّه معطوف علىٰ ما قبله أي كما زيّنا للكافرين أعمالهم كذلك جعلنا في كلّ قريةٍ الآية و الآية علىٰ التّقديم و التّأخير و تقدير الكلام جعلنا مجرميها أكابر، و لا يكون الأكابر مضافاً الىٰ مجرميها لأنّ إضافة الصّفة الىٰ الموصوف لايجوز عند البّصريين.

و قال بعضهم، جعلنا بمعنىٰ صيَّرنا و مفعولها الأوّل، **أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا**.

الثّاني: **فِي كُلِّ قَرْيَةٍ** و أكابر علىٰ هذا مضاف الىٰ مجرميها و أجاز أبو البقاء أن يكون مجرميها بدلاً من أكابر.

و قال الكرماني أضاف الأكابر الىٰ مجرميها، لأنّ أفعل لا يجمع إلاّ مع الألف و اللاّم أو مع الإضافة الىٰ معرفة، و أنّما خصّ أكابر المجرمين بهذا المعنىٰ دون الأصاغر لأنّه احسن في الإقتدار علىٰ الجميع لأنّ الأكابر اذا كانوا في قبضة القادر فالأصاغر بذلك أجدر **لِيَمْكُرُوا فِيهٰا** المكر هو فتل الشّئ الىٰ خلاف الرّشد علىٰ وجه الحيلة في الأمر و المكر و الختل و الغدر نظائر و أصل المكر الفتل و منه جارية ممكورة أي مفتولة البدن، و اللاّم في قوله: **لِيَمْكُرُوا** لام العاقبة و يسمّىٰ لام الصّيرورة كما قال تعالىٰ: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا**(۱) أي تصير عاقبة الأمر الىٰ ذلك.

و قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ اللاّم لام الغرض، و قد تسمّىٰ بلام، كي، و عليه فالمعنىٰ جعلناهم كذلك وكان الغَرض، **لِيَمْكُرُوا فِيهٰا** و بعبارةٍ أخرىٰ صيَّرناهم ماكرين، و هذا التّفسير موافق لمسلك الأشاعرة القائلين بالجبر صرَّحوا به وليس بشئ لأنّه تعالىٰ لا يريد أن يمكروا و قد قال: **وَ مٰا خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ**(۲) و إرادة القبيح قبيحة و المعنىٰ وكذلك جعلنا في كلّ قَرية أكابر مُجرميها ليطيعوني وليمتثلوا أمري وكان عاقبتهم أن مكروا بالمؤمنين و خدعوهم، غير أنّه تعالىٰ لمّا لم يمنعهم عن المكر صار شبيهاً بما اذا أراد ذلك فجاء الكلام علىٰ سبيل التّشبيه قاله الجبائي.

۱- القصص = ۸ ۲- الذّاريات = ۵۶

قلتُ و أنّما لم يمنعهم عن المكر لمكان الإختيار الّذي جعله اللّه فيهم فلو منعهم عن المكر أجبرهم علىٰ عدمه و هو منافٍ للإختيار **وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلّٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ** معناه أنّ و بال مكر هم يعود الىٰ أنفسهم كأنّه قال يضّرون بذلك المكر إلاّ أنفسهم و ما يشعرون أنّهم يمكرون بها، و لا يصّح أن يمكر الإنسان بنفسه علىٰ الحقيقة لأنّه لا يصّح أن يخفىٰ عن نفسه معنىٰ ما يحتال به عليها و يصّح أن يخفىٰ ذلك من غيره.

قالت المعتزلة لاشكّ أنّ قوله: **وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلّٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ** مذكور في معرض التّهديد و الزّجر فلو كان ما قبل هذه الآية يدّل علىٰ أنّه تعالىٰ أراد منهم أن يمكروا بالنّاس فكيف يليق بالرّحيم الكريم الحليم أن يريد منهم المكر و يخلق فيهم المكر ثمّ يهدّدهم و يعاقبهم عليه أشدّ العقاب.

وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ اٰيَةٌ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰآ أُوتِيَ رُسُلُ اَللّٰهِ

أخبر اللّه تعالىٰ عن هؤلاء الكفّار أنّهم كانوا معاندين للحقّ و ذلك لأنّه اذا جاءتهم أية من عند اللّه تدّل علىٰ توحيده و صدق رسله قالوا: **لَنْ نُؤْمِنَ** نصّدق بها **حَتّٰى نُؤْتىٰ** أي نعطىٰ من قبل اللّه مثل ما أعطىٰ رسله و أنّما قالوا ذلك حسداً و بغياً منهم للأنبياء.

قيل أنّ الوليد بن المغيرة قال و اللّه لو كانت النّبوة حقّاً لكنت أنا أحقّ بها من محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فأنّي أكثر منه مالاً و ولداً فنزلت الآية.

و قال الضّحاك أراد كلّ واحدٍ منهم أن يختّص بالوحي و الرّسالة كما أخبر اللّه عنهم في قوله، بل يريد كلّ إمرؤٍ منهم أن يؤتىٰ صحفاً منشّرة، فظاهر الآية التّي نحن في تفسيرها يدّل علىٰ ذلك أيضاً لأنّه تعالىٰ قال: **وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ** أي الخ، و هذا يدّل علىٰ أنّه قول جماعة منهم، ثمّ نّ في قوله: **لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰآ أُوتِيَ رُسُلُ اَللّٰهِ** قولان:

أحدهما: و هو المشهور بينهم أنّه أراد القوم أن تحصل لهم النّبوة كما حصلت للنّبي.

الثّاني: و هو المنقول عن ابن عبّاس أنّ المعنىٰ اذا جاءتهم أية من القرأن تأمرهم بإتّباع النّبي قالوا: **لَنْ نُؤْمِنَ** الخ، و هو قول مشركي العرب **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا**(۱) وعلىٰ هذا فالقوم ما طلبوا النّبوة و أنّما طلبوا أن يأتيهم أيات قاهرة ومعجزات ظاهرة مثل معجزات الأنبياء المقدّمين كي تدّل علىٰ صحّة نبّوة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم نقلهما الفخر الرّازي في تفسيره ثمّ قال:

قال المحقّقون و القول الأوّل أقوىٰ و أولىٰ لأنّ قوله بعد ذلك **ٱللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ** لا يليق إلاّ بالقول الأوّل انتهىٰ.

و كيف كان فقد أنكر اللّه تعالىٰ عليهم فقال: **ٱللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ** وذلك لأنّ الرّسالة بل جميع الأحكام تابعة للمصلحة الموجودة فيها فلا يبعث اللّه إلاّ من يعلم أنّ المصلحة تتّعلق ببعثه دون من لا تتّعلق به و محصّل الكلام هو أنّه تعالىٰ بما يزيد و ليفعل من غيره و هو ممّا لا كلام فيه و حيث أنّ كلامهم هذا في الحقيقة إعتراض علىٰ اللّه بل ردٌّ عليه.

سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ

أي سينال الّذين إنقطعوا الىٰ القبيح و أقدموا عليه، صغار عند اللّه، و الصّغار الذّل الذّي يصغر الىٰ الإنسان نفسه و قيل في معنىٰ الصّغار عند اللّه ثلاثة أقوال:

أوّلها: أي ذلّة من عند اللّه.

ثانيها: قال الفرّاء إكتسب من ترك أتباع الحقّ صغار عند اللّه.

ثالثها: قال الزّجاج يعني صغار في الأخرة.

۱- الاسراء = ۹۰

قال الشّيخ بعد نقله الأقوال المذكورة، و هو أقواها لقوله: **وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ** في دار الدّنيا، وعند اللّه، يتّعلق بقوله: **سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ** و معنىٰ الأية، الإنكار لما طلبوا، و الإجتماع عليهم فيما جهلوا، و الوعيد علىٰ ما فعلوا إنتهىٰ كلامه.

وإعلم أنّ ظاهر الآية يدّل علىٰ أنّ المكر المذكور في الآية السّابقة هو كلامهم هذا أي قولهم، حتّىٰ نؤتىٰ مثل ما أوتي رسل اللّه، وجه الدّلالة هو قوله: **بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ**.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ

قال بعض المفسّرين معناه فمن يرد اللّه أن يعرفه الحقّ و يوّفقه للإيمان يشرح صدره للإسلام فيتّسع له و يفسح فيه مجاله و هو كناية عن جعل القلب قابلاً للحقّ مهيّئاً لحلوله فيه مصّفا عمّا يمنعه و ينافيه، في المجمع قد وردت الرّواية الصّحيحة أنّه لمّا نزلت هذه الآية سأل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن شرح الصّدر ما هو قال صلى الله عليه وآله وسلم نورٌ يقذفه اللّه تعالىٰ في قلب المؤمن فينشرح صدره و ينفسح قالوا فهل لذلك إمارة يعرف بها فقال صلى الله عليه وآله وسلم.

نعم الإنابة الىٰ دار الخلود و التّجافي عن دار الغرور و الإستعداد للموت قبل نزوله انتهىٰ.

و قال بعض المتّأخرين من مفسري العامّة، هذا وصف لحال المستّعد لهداية الإسلام بسلامة فطرته و طهارة نفسه من الخلقين الصّادين عن إجابة دعوة الحقّ، و هما الكبرياء و الحسد و بتّحليها، أي نفسه بالهاديين الىٰ الحقّ و الرّشاد و هما إستقلال الفكر الصّاد عن تقليد الأباء و الأجداد و قوّة الإرادة الصّارفة عن إتّباع الرؤوساء أو مجاراة الأنداد فمن كان كذلك كان أهلاً بإرادة اللّه تعالىٰ و تقديره لقبول دعوة الإسلام الذّي هو دين الفطرة الىٰ أخر ما قال.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الأية، تمّسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أنّ الضّلال و الهداية من اللّه تعالىٰ ثمّ قال.

وإعلم أنّ هذه الآية كما أنّ لفظها يدّل علىٰ قولنا فلفظها أيضاً يدّل علىٰ الدّليل القاطع العقلي الذّي في هذه المسألة و بيانه أنّ العبد قادرٌ علىٰ الإيمان و قادر علىٰ الكفر فقدرته بالنّسبة الىٰ هذين الأمرين حاصلة علىٰ السّوية فيمتنع صدور الإيمان عنه بدلاً من الكفر أو بالعكس إلاّ اذا حصل في القلب داعية اليه و قد بيّنا مراراًكثيرة في هذا الكتاب و تلك الدّاعية لا معنىٰ لها علمُه أو إعتقاده أو ظنّه بكون ذلك الفعل مشتملاً علىٰ مصلحة زائدة و منفعةٍ راجحة فأنّه اذا حصل هذا المعنىٰ في القلب دعاه ذلك الىٰ فعل ذلك الشّئ وأن حصل في القلب علم أو إعتقاد أو ظنّ بكون ذلك الفعل مشتملاً علىٰ ضرر زائد و مفسدة راجحة دعاه ذلك الىٰ تركه و بيّنا بالدّليل أنّ حصول هذه الدّواعي لابدّ و أن يكون من اللّه و أنّ مجموع القدرة مع الدّاعي يوجب الفعل اذا ثبت هذا فنقول:

يستحيل أن يصدر الإيمان عن العبد إلاّ اذا خلق اللّه في قلبه إعتقاد أنّ الإيمان راجح المنفعة زائد المصلحة و اذا حصل في القلب هذا الإعتقاد مال القلب و حصل في النّفس رغبة شديدة في تحصيله و هذا هو إنشراح الصَّدر للإيمان فأمّا اذا حصل في القلب إعتقاد أنّ الإيمان بمحمّدٍ ﷺ مثلاً سبب مفسدة عظيمة في الدّين و الدُّنيا و يوجب المضّار الكثيرة فعند هذا يتّرتب علىٰ حصول هذا الإعتقاد نفرة شديدة عن الإيمان و هذا هو المراد من أنّه تعالىٰ يجعل صدره ضيّقاً حرجاً فصار تقدير الآية من أراد اللّه منه الإيمان قوّىٰ دواعيه الىٰ الإيمان و من أراد اللّه منه الكفر قوّىٰ صوارفه عن الايمان و قوّىٰ دواعيه الىٰ الكفر و لمّا ثبت بالدّليل العقلي أنّ الأمر كذلك ثبت أنّ لفظ القرأن مشتمل علىٰ هذه الدّلائل العقلّية و اذا إنطبق قاطع البرهان علىٰ صريح لفظ القرأن فليس وراءه بيان و لا برهان انتهىٰ كلامه.

و أنا أقُول ما قاله الرّازي في المقام من خلق الدّاعي الىٰ الفعل و تركه في العبد، قاله في جميع الأيات الموهمة لذلك و تبعه عليه غير واحدٍ من القائلين بالجبر و أنّ العبد لا إختيار له و ليس لهم دليل إلاّ هذا و هو أنّ الدّاعي في القلب مخلوق له تعالىٰ و قد مرَّ منّا مراراً في الجواب.

أنّ كون الدّاعي مخلوقاً له تعالىٰ لا يوجب سلب الإختيار عن العبد لأنّه أي الدّاعي مؤخّر عن الإختيار فأنّ العبد يختار أوّلاً ثمّ يريد الفعل أو التَّرك.

نعم لو كان الإختيار مؤخّر عنه كان الأمر كما ذكره و أنّىٰ له بإثبات ذلك ألا ترىٰ أنّ العبد يتأمل في الفعل أو التّرك فاذا علم و رجّح أحدهما علىٰ الأخر يريد و يفعل هذا اذا كان المراد بالدّاعي الإرادة و أمّا أن كان المراد به الخطور النّفساني و الشّوق الىٰ أحد الأمرين فهو و أن كان مقدّماً علىٰ الإختيار إلاّ أنّه ليس موجباً لحصول الفعل ما لم يتَّرجح حصول الفعل علىٰ التّرك أو بالعكس و التّرجيح هو الإختيار و قوله أنّ التّرجيح بسبب الدّاعي يحتاج الىٰ دليلٍ واذ ليس فليس و مجّرد كونه مخلوقاً له تعالىٰ لا يكفي في حصول الفعل و للبحث فيه مقام أخر.

و قد أجاب عنه بعض المفسّرين بما حاصله أنّ اللّه تعالىٰ لم يقل أردنا و فعلنا ذلك مثلاً بل قال **فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ** فعل به كيت وكيت أراد إضلاله فعل به كيت وكيت وليس في الآية أنّه يريد ذلك أو لا يريده و الدّليل عليه أنّه تعالىٰ قال: **لَوْ أَرَدْنَآ أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنٰاهُ مِنْ لَدُنَّآ إِنْ كُنَّا فٰاعِلِينَ**[1] فبيَّن أنّه يفعل اللّهو لو أراده و لا خلاف أنّه لا يريد ذلك و لا يفعله وما نحن فيه كذلك انتهىٰ.

و قال الشّيخ في التّبيان أنّ الضّمير في قوله: **يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلٰامِ** عائد لإسم اللّه تعالىٰ و المعنى أنّ الفعل مستند الىٰ إسم اللّه في اللّفظ، و في المعنى للمشروح صدره و أنّما نسبه الى ضمير إسم اللّه لأنّه بقدرته كان و

١- الانبياء = ١٧

توفيقه كما قال: **وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ رَمىٰ** [١] و يدّل علىٰ أنّ المعنىٰ لفاعل الإيمان إسناد هذا الفعل الىٰ الكافر في قوله (و لكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من اللّه) فكما أسند الفعل الى فاعل الكفر كذلك يكون إسناده الى فاعل الايمان ومعنىٰ شرح الصّدر إتّساعه للإيمان.

قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لنبيّه **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**[٢] هذا ما قالوه في تفسير الآية والذّي نقول في المقام هو أنّ شرح الصّدر بسطه و توسعته للعلم و الإيمان بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقّة و لا يدفع كلمة الحقّ اذا ألقيت اليه، و ضيق الصّدر يقابله.

قال بعض الحكماء حيثما ذكر اللّه تعالىٰ القلب فإشار الىٰ العقل و العلم و حيثما ذكر الصّدر فإشارة الىٰ ذلك و الى سائر القوى من الشّهوة و الهوى و الغضب و نحوها و عليه فالمعنىٰ من يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام، معناه، يجعله عالماً عاقلاً و اذا كان كذلك فلا محالة يستعمل قواه في طاعة اللّه و يمنعها عن المعاصي و بعبارةٍ أخرى يثبت عزمه عليه و يقوّي دواعيه على التّمسك به و يزيل عن قلبه وساوس الشّيطان و ما يعرض في القلوب من الحظوظ الفاسدة و أنّما فعل ذلك لطفاً و ثواباً على إهتداءه و منه يظهر معنى قوله: **وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي اَلسَّمٰاءِ** يعني يعاقبه أو يَعدل به عَن طريق الجنّة كأنّما يفعل ما يعجز عنه لا يستطيعه لثقله عليه و ذلك لأنّ الإضلال مقابل الهداية فلا محالة كان أثره أيضاً مقابلاً لأثرها و هو التّضييق المقابل للشّرح و التّوسعة و أثره أن لا يسع ما يتوجّه اليه من الحقّ والصّدق و يتحرّج عن دخولهما فيه ولذا أردف كون الصّدر ضيقّاً بكونه حرجاً هكذا قال بعض المفسّرين.

و قال الطّبرسي ﵀ في المجمع يعني و مَن يُرد أن يُضّله عن ثوابه وكرامته يجعل صدره في كفره ضيّقاً حرجاً عقوبةً له على ترك الإيمان من غير أن يكون

١- الأنفال = ١٧ ٢- الإنشراح = ١

سبحانه مانعاً عن الإيمان و سالباً إيّاه القُدرة عليه بل ربما يكون ذلك سبباً داعياً له الى الإيمان فأنّ من ضاق صَدره بالشّئ كان ذلك داعياً له الى تركه و الدّليل على أنّ شرح الصّدر قد يكون ثواباً.

قوله سبحانه: **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** الأيات و معلوم أنّ وضع الوزر ورفع الذّكر يكون ثواباً على تحمّل أعباء الرّسالة فكذلك ما قرن به من شرح الصّدر و ساق الكلام الىٰ أن قال.

و من يرد أن يضلّه أي يخذله و يخلّي بينه و بين ما يريده لإختياره الكفر و تركه الإيمان يجعل صَدره ضيّقاً حرجاً بأن يمنعه الألطاف التّي ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره الى أن قال.

ثالثها: أنّ معنى الآية من يرد اللّه أن يهديه زيادة الهدى الّتي وعدها المؤمن يشرح صدره لتلك الزّيادة لأنّ من حقّها أن تزيد المؤمن بصيرة و من يرد أن يضلّه عن تلك الزّيادة بمعنى يذهبه عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصّح عليه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً لمكان فَقد تلك الزّيادة لأنّها اذا إقتضت في المؤمن ما قلناه أوجب في الكافر ما يضّاده و يكون الفائدة في ذلك التّرغيب في الإيمان والزّجر عن الكفر و هذا التّأويل قريب ممّا تقدّم.

و روي عن إبن عبّاس أنّه قال أنّما سمّى اللّه قلب الكافر حرجاً لأنّه لا يصل الخير الىٰ قلبه و فى رواية لا تصل الحكمة الىٰ قلبه و لا يجوز أن يكون المراد بالضّلال في الآية الدّعاء الى الضّلال و لا الأمر به و لا الإجبار عليه لإجماع الأمّة على أنّ اللّه لا يأمر بالضّلال و لا يدعو اليه فكيف يجبر عليه.

و الدّعاء اليه أهون من الاجبار عليه و قد ذّم اللّه فرعون و السّامري على إضلالهما عن دين الهدى في قوله و أضّل فرعون قومه و ما هدى و قوله فأضّلهم السّامري و لا خلاف في أنّ إضلالهما إضلال أمرٍ وإجبارٍ و دعاءٍ و قد ذمّهما اللّه تعالىٰ عليه مطلقاً فكيف يمتدح بما ذمّ عليه غيره انتهى كلام الطّبرسي نقلناه بطوله لما فيه من الفائدة ما لا يخفى.

أقول ما ذكره‌ﷺ حقّ لا مرية فيه والّذي حصل لنا في المقام هو أنّ المراد بالإنشراح التّوفيق من اللّه للإيمان و العمل علىٰ مقتضاه كما أنّ المراد بضيق الصّدر هو سلب التّوفيق عن العبد و إيكاله الى نفسه و ذلك لأنّ اللّه اذا أراد بعبدٍ خيراً هيّأ له أسبابه.

و أمّا قوله: **كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ** فقيل في معناه كأنّه قد كلّف أن يصّعد الىٰ السّماء اذا دعى الى الإسلام من ضيق صدره عنه، أوكان قلبه معرضاً عن الإسلام و الحكمة.

وثاني: الأقوال أنّ معنى يصّعد كأنّه يتكلّف مشقّة في إرتقاء صعود.

ثالثها: أنّ معناه كأنّه لا يجد مسلكاً إلاّ صعداً.

رابعها: أنّ معناه كأنّما ينتزع قلبه الىٰ السّماء لشدّة المشقّة عليه في مفارقة مَذهبه **كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** قال الرّاغب في المفردات، الرّجس الشّئ القذر يقال رجل رجس ورجال أرجاس ثمّ قال والرّجس يكون علىٰ أربعة أوَجه:

إمّا من حيث الطّبع.

و إمّا من جهة العقل.

و إمّا من جهة الشّرع.

و إمّا من كلّ ذلك كالميتة فأنّ الميتة تعاف طبعاً و عقلاً و شرعاً الى أن قال: و جعل الكافرين رجساً من حيث أنّ الشّرك بالعقل أقبح الأشياء، الرّجس النّتن و قيل العذاب انتهى.

قال بعض المفسّرين وجه التّشبيه في قوله: **كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** أنّه يجعل الرّجس على هؤلاء كما يجعل ضيق الصّدر في قلوب أُولئك و أنّ كلّ ذلك على وجه الإستحقاق و لا يجوز أن يكون المراد بالآية أنّ اللّه تعالىٰ يجعل سبب الإيمان الّذي يكون به الإيمان و سبب الكفر الّذي يكون به الكفر و أنّهما جميعاً من فعل اللّه على ما يقوله المجبّرة و

ذلك أنّه تعالىٰ أنزل القرآن حجّة على عباده و لا حجّة للعباد عليه فلو كانت كما قالوه لكانت الحجّة عليه لا له على أنّه لا يجوز أن يكون في كلام اللّه مناقضة و قد ذكر اللّه في مواضع أنّه هدى الكفّار نحو قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا اَلْعَمٰى عَلَى اَلْهُدٰى**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هَدَيْنَاهُ اَلنَّجْدَيْنِ،فَلَا اَقْتَحَمَ اَلْعَقَبَةَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**(٣).

فبيّن بجميع ذلك أنّه تعالى هدى الكفّار كما هدىٰ المؤمنين فكيف ينفي ذلك في موضع آخر و هل ذلك إلاّ مناقضة وكلام اللّه منزّهٌ عنها و متى حملنا الأيات على ما نقلناه و وفقّنا بينها لم يؤد الى المناقضة و التّضاد و يقوّي ذلك أنّ اللّه أخبر أنّه يجعل قلب الكافر ضيّقاً حرجاً و نحن نجد كثيراً من الكفّار غير ضيّقي الصدر بما هم فيه من الكفر بل هم في غاية السّرور و الفرح بذلك فكيف يقال أنّ اللّه تعالىٰ ضيّق صدورهم بالكفر و لا يلزمنا ذلك إذا قلنا أنّ اللّه يفعل ذلك بهم على وجه العقوبة لأنّه تعالى إذا كان يفعل بهم ذلك عقوبة يجوز أن يفعل بهم ذلك إذا أراد عقابهم لا في جميع الأحوال و لا يلزم أن يجدوا نفوسهم علىٰ ذلك في كلّ وقت وأيضاً فأنّ بسبب القبيح لا يكون إلاّ قبيحاً فعلىٰ هذا بسبب الكفر يجب أن يكون قبيحاً لأنّه موجب لَه لا يصلح لضّده من الأيمان لأنّه لو صلح لذلك لم يكن سبباً و اللّه تعالىٰ لا يفعل القبيح الى آخر ما قال.

ثمّ قال و وجه آخر في الآية و هو أن يكون اللّه تعالىٰ لمّا دعاهم الى الإيمان و أمرهم ففعلوه إنشرحت صدورهم فنسب شرح ذلك الى اللّه و لمّا ضاقت

١- الفصلت = ١٧
٢- البَلد = ١٠ و ١١
٣- الأنعام = ١٠٤

صدور الكفّار عند دعاء اللّه و إقامة الحجج عليهم و أمره أيّاهم بذلك فضلّوا عند ذلك صحّ أن ينسب إضلالهم اليه كما يقولون أضلّ فلان بعيره إذا ضلّ عنه و هو لم يرد ذلك، انتهى كلامه.

و أنا أقول أنّما أطالوا الكلام حَول الآية و أمثالها لأنّهم لم يفرّقوا بين الإرادة التّكوينية والإرادة التشريعية و تخيّلوا أنّ إرادة اللّه تعالى في جميع الموارد واحدة و ليس كذاك لأنّ الإرادة تارةً تتعلّق بالايجاد و ذلك مثل قوله:

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**(١).

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**(٢).

ففي هذه الارادة لا يتخلّف المراد عنها و أخرى تتعلّق بالتّكاليف الشّرعية و ذلك:

قال اللّه تعالى: **وَ لِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ جَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَ أَنفُسِكُمۡ**(٥).

قال اللّه تعالى: **كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ**(٦).

و أمثال ذلك من الأوامر الصّادرة في الشّرع و هكذا في النّواهي و من المعلوم أنّ اللّه تعالى أراد ثمّ أمر و نهى إذ لا يعقل الأمر و النّهي من غير إرادة و في هذه الإرادة قد يتخلّف المراد عنها و قد لا يتخلّف و ذلك لثبوت الإختيار للعبد إذا عرفت هذا.

فنقول، قوله تعالى: **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ**.

ليست الإرادة فيها من قبيل الأول أعني به الأرادة التكويّنية حتّى لا يتخلّف المراد عنها كما زعمه الرّازي و أمثاله من الأشاعرة والمجبّرة.

١- يس = ٨٢
٢- النّحل = ٤٠
٣- آل عمران = ٩٧
٤- البقرة = ٤٣
٥- التوبة = ٤١
٦- البقرة = ١٨٣

و أن شئت قلت لم يخلقهم كذلك حتّى لم يقدروا على خلافه، بل الإرادة فيها و فى أمثالها من الأيات تشّريعية كما قال تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[1] و عليه فمعنىٰ الآية هو أنّ اللّه هدى المؤمن بالألطاف الّتي ينشرح بها صدره للتّمسك بالإسلام و الإستبصار فيه ولم يفعل ذلك بالكفّار و إن لم يخل بينهم و بين الأيمان و لا منعهم منه و ذلك لأنّه تعالى قد أعطى الكافر الصّحة و السّلامة و القوّة.

و جميع ما يتمكّن به من فعل ما أمره به و أنّما لم يفعل بهم اللّطف الّذي يؤمنون عنده لأنّهم لمّا عدلوا من النّظر في آيات اللّه و حججه و خرجوا من أن يكون لهم لطف يختارون عنده الإيمان و صاروا مخذولين فخلّي اللّه تعالى بينهم و بين إختيارهم فعّبر عن ذلك بأنّه جعل صدر الكافر ضيّقاً حرجاً.

و من المعلوم أنّ الباعث علىٰ ذلك الحرمان هو إعراضهم عن الأيات و الحجج و الإقبال على الشّيطان والهواجس النّفسانية مع قدرتهم على خلافه و يدّل علىٰ ما ذكرناه قوله في آخر الآية كذلك **يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** و ذلك لأنّهم لو لم يقدروا على الإيمان كما زعمه الخصم فلا معنى لهذا الكلام إذ للعبد أن يقول لم أقدر على الإيمان و هو كما ترى و الحمد للّه علىٰ كلّ حالٍ.

وَ هٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ

يمكن أن يكون المشار اليه بكلمة، هذا، الإسلام و يمكن أن يكون البيان الّذي في القرآن و إضافة الصّراط الى اللّه لأنّه هو الّذي نصبه و دلّ به و غلب عليه الإستعمال و لم يجز قياساً علىٰ ذلك أن يقال هذا طريق ربّك لأنّه لم تجر العادة بإستعماله كما أنّهم إستعملوا قولهم، هذا في سبيل اللّه، و لم يقولوا في طريق اللّه هكذا قيل.

١- الانسان = ٣

و قوله: **مُسْتَقِيمًا** نصب على الحال ومعناه الّذي لا إعوجاج فيه و قوله: **قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ** أي بيّناها **لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ** أصله يتذّكرون، فقلبت التّاء ذالاً و أدغمت الأولى في الثّانية، قالوا و لم يجز قلب الذّال الىٰ الدّال كما جاز في، هل من مدّكر، لأنّهم لمّا لم يجيزوا إدغام التّاء في الدّال لأنّها أفضل منها بـالجَهر قلّبت الىٰ الدّال لتعديل الحروف وليس كذلك إدغام التّاء في الذّال، و تخصيص الكلام بقومٍ، يتذّكرون، لأنّهم المنتفعون بها و أن كانت الأيات لغيرهم أيضاً كما قال هدىً للمتّقين، مع أنّه هدىً لغيرهم أيضاً، والسّر فيه هو أنّ شرط التأثير قابليّة المعلول للتأّثر و لا تكفي قابلّية العلّة فقط.

لَهُمْ دارُ ٱلسَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

لهم، أي لهٰؤلاء المتذّكرين دلر السّلام عند ربّهم، أي لهم دار السّلام من كلّ آفةٍ و بلّيةٍ،المراد بها الجنّة و المآل واحد لأنّ الجنّة هي دار السّلامة عـنها لا غيرها، فأنّ الدّنيا دار بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة و فى قوله: **عِنْدَ رَبِّهِمْ** إشارة الى مقام العنّدية الّذي لا مقام فوقه، وفى قوله: **بِما كانُوا يَعْمَلُونَ** إشارة الىٰ إستحقاقهم بذلك المقام حيث أنّـهم كـانوا فـي الدّنـيا مـن المـتذّكـرين العالمين، و لّما كان اللّه تعالى هو المتوّلي لإيصال المنافع اليهم و دفع المضار عنهم في الدّنيا والآخرة قال تعالىٰ و هو ولّيهم:

قال اللّه تعالى: **اَللّٰهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُماتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيآؤُهُمُ ٱلطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُماتِ أُولـٰئِكَ أَصْحابُ ٱلنّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**[1].

■

١- البقرة = ٢٥٧

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ
ٱسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ مِنَ
ٱلْإِنْسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنَآ
أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوٰيكُمْ
خَالِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَ كَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ
ٱلظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا
مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ اٰيَاتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيٰوةُ
ٱلدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ
ٱلْقُرٰى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَ لِكُلٍّ
دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَ رَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَآءُ كَمَآ
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ اٰخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَاٰتٍ وَ مَآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا
قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

◁ اللغة

يَحْشُرُهُمْ، الحَشَر اخراج الجماعة عن مقّرهم وإزعاجهم عنه الىٰ الحرب و نحوها.

ٱلْجِنِّ أصل الجّن ستر الشّئ عن الحاسّة يقال جنّه اللّيل و أَجّنَه وجِّن عليه فَجَّنه، سَتَره، والجِّن بكسر الجيم يقال على وجهين:

أحدهما: للروحّانيين المستترين عن الحّواس كلّها بازاء الإنس فعلى هـذا تَدخل فيه الملائكة و الشياطين و ليس كلّ جِّن ملك و قيل بل الجِن بعض الرّوحانيين و ذلك أنّ الرّوحانيين ثلاثة أخيارٌ، وهُم الملائكة، و أشرارهم و هم الشّياطينُ و أوساط فيهم أخيار و أشرار وهُم الجِن.

ٱلْإِنْسِ بكسر الألف خلاف الجِن.

أَجَلَنَا، الأجَل بفتح الجيم المُدّة المضروبة للشئ.

مَثْوٰكُمْ، مَثوىٰ إسم مكان من ثَوىٰ بمعنى الإقامة مع الإستقرار يقال ثوى يَثوى ثَواء و الثّوية مأوى الغنم والباقي واضح لا خفاء فيه.

◁ الإعراب

يٰا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ٱلْإِنْسِ حال من أَوْلِيآؤُهُمْ و خٰالِدِينَ فِيهٰآ حال العامل و جهان:

أحدهما: المثوىٰ علىٰ أنّه مصدر بمعنى الثّواء و التقدّير النّار ذات ثوائكم.

الثّانى: العامل فِيه معنى الإضافة و مثواكم، مكان والمكان لا يعمل.

إِلاّٰ مٰا شٰآءَ ٱللّٰهُ هو إستثناء من غير الجنس و يجز أن يكون من الجـنس على وجهين:

أحدهما: أن يكون إستثناء من الزّمان و المعنى يدّل عليه لأنّ الخلود يدّل على الأبد فكأنّه قال خالدين فيها في كلّ زمانٍ إلاّ ما شـاء اللّـه أي إلاّ زمـن مشيئته.

الثّانى: أن تكون من بمعنى، ما هكذا قيل والحقّ أن يقال أن تكون، ما، بمعنى، من كما لا يخفى.

يَقُصُّونَ في موضع رفع صِفة لرسل أو حال من الضّمير في، منكم، **ذٰلِكَ** خبر مبتدأ محذوف **أَنْ لَمْ** أن مصّدرية أو مخفّفة من الثّقلية و اللاّم محذوفة أي لأنّ لم **يَكُنْ رَبُّكَ** موضعه نصب أو جرّ على الخلاف **بِظُلْمٍ** في موضع الحال أو مفعول به يتعلّق بمهلكٍ **وَلِكُلٍّ** أي و لكلّ أحدٍ **مِمَّا** في موضع رفع صفة لدرجات **كَمَآ أَنْشَأَكُمْ** الكاف في موضع نصب صفة لمصدرٍ محذوف أي إستخلافاً كما **مِنْ ذُرِّيَّةِ** لإبتداء الغاية و قيل هي بمعنى البدل أي كما أنشأكم بدلاً من ذرّية **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ** ما بمعنى الّذي **لَآتٍ** خبر أن **مَنْ تَكُونُ** من بمعنىٰ الّذي و يجوز (أَن تكون) إستفهاماً مثل قوله، أعلم من يضَل.

◁ التّفسير

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يٰا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِنْسِ

قرأ حفص و روح، **يَحشُرهم** بالياء والباقون بالنّون، والتّقدير و أذكر يوم يحشرهم جميعاً ثمّ يقول لهم يا معشر الجّن، و المراد بهم الشّياطين، قد إستكثرتم من الإنس، أي أضللتم منهم كثيراً، فأنّ كلّ مَن و الى قوماً فهو منهم و أن لم يكن من جنسهم.

و قال بعضهم معنى الكلام، إستكثرتم من إغوائهم وإضلالهم **وَ قٰالَ أَوْلِيآؤُهُمْ مِنَ ٱلْإِنْسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنٰا بِبَعْضٍ** وفي معنىٰ الإستمتاع قولان:

أحدهما: بتزيين الأمور الّتي يهونها حتّى يسهل عليهم فعلها.

الثّانى: أنّه اذا كان الرّجل أراد أن يسافر فيخاف سلوك طريق من الجنّ فيقول، أعوذ بسيّد هذا الوادي ثمّ يسلك فلا يخاف:

قال اللّه تـعالىٰ: **وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**[١].

و قيل في وجه إستمتاع الجنّ بالإنس أنّهم اذا إعتقدوا أنّ الإنس يتّعوذون بهم و يعتقدون أنّهم ينفعونهم و يضّرونهم أو أنّهم يقبلون منهم اذا أغووهم كان في ذلك تعظيم لهم و سرور و نفع.

و قيل يحتمل أن يكون قوله: **ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** مقصوراً على الإنس فكان الإنس إسَتمتع بعضهم ببعضٍ دون الجنّ، (و بلغنا أجلنا الذّي أجلّت لنا) المراد بالأجل الموت، و قيل المراد به الحشر لأنّ كلّ واحدٍ منهما أجل في الحكم فالموت أجل إستدراك ما مضى و الحشر أجل الجزاء **قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ** أي قال اللّه لهم بأنّ النّار مثواكم و المثوى المقام، خالدين فيها، مؤبّداً و هو نصب علىٰ الحال **إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** في معنى الإستثناء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه من الفائت قبل ذلك من الإستحقاق من وقت الحشر الى زمان المعاقبة و تقديره خالدين فيها على مقادير الإستحقاق إلاّ ما شاء اللّه من الفائت قبل ذلك لأنّ ما فات يجوز إسقاطه بالعفو عنه و الفائت من الثّواب لا يجوز تركه لأنّه بخس لِحقّه ذكره الرّماني والبلخي و الطّبري و غيرهم.

الثّاني: إلاّ ما شاء اللّه، من تجديد الخلود بعد إحراقهم و تصريفهم في أنواع العذاب فيها و التّقدير، خالدين فيها علىٰ صفةٍ واحدة إلاّ ما شاء اللّه من هذه الأُمور.

الثّالث: ما حكي عن ابن عبّاس أنّه قال هذه الآية توجب الوقف في جميع الكفّار فأنّه ذَهب الىٰ أنّ و عيدهم بالقطع يدّل عليه فيما بعد و هو قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**[٢].

١- الجنّ = ٦

٢- النّساء = ٤٧

و قال قوم معنى، ما، من و تقدير الكلام إلاّ من شاء اللّه إخراجه من النّار من المؤمنين الّذين لهم ثواب بعد إستيفاء عقابهم، ذكر هذه الوجوه في التّبيان و الّذي يقوّي عندي أنّ الإستثناء من الأزمان أي خالدين فيها أبـداً إلاّ الزّمـان الّذي شاء اللّه أن لا يخلدون فيها و اللّه تعالى لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و لذلك قال: **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** أي أنّه تعالى لا يفعل شيئاً إلاّ بـموجب الحكمة فهو حكيم بما يفعله من جزائهم و عالم بذلك و بغيره من المعلومات فلا يخفىٰ عليه شيئ مـنها **وَ كَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**.

قال الزّمخشري في قوله تعالىٰ: **نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا** أي نُخلّيهم حتّىٰ يتولّى بعضهم بعضاً كما فعل الشّياطين وغواة الإنس أو نجعل بعضهم أولياء بعضٍ يوم القيامة و قرناءهم كما كانوا في الدّنيا انتهى كلامه.

و قال الأخر معناه أنّا نكل بعضهم الى بعضٍ في النُّصرة و المـعونة فـي الحاجة و لا نحول بينهم.

أقول و هذا الوجه قريب ممّا تقدّم، و قيل معناه نجعل بعضهم يتوّلى القيام بأمر بعضٍ و أمّا كيفيّة التّولية فبأن حكم أنّ بعضهم يتّولىٰ بعضاً فيما يعود عليه بالوبال من الأعمال التّي يتّفقون عليها.

و قال قتادة أنّه من الموالات و التّتابع في النّار أي يدخل بعضهم عقيب بعضٍ.

و قال الرّازي معنى الكلام أنّ ذلك يحصل بتقديره و قضاءه و ساق الكلام الى أن قال و بهذا التّقرير تصير الآية دليلاً لنا في مسألة الجبر و القدر و إستدلّ علىٰ ذلك بأنّ القدرة صالحة للطّرفين أعني العداوة و الصّداقة فلولا حصول الدّاعية الى الصّداقة لما حَصَلت الصّداقة و تلك الدّاعية لا تحصل إلاّ بخلق اللّه.

و قد مرّ الجواب عنه مراراً فلا نحتاج الى الإعادة والّذي حصل لنا في المقام في معنى الآية هو أنّ السّنخية ثابتة في الأرواح الخبيثة كما أنّها ثابتة في الأرواح الطّاهرة.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الأرواح جنُود مجنّدة فما تعارف منها إئتلف تناكر منها إختلف، ثمّ أنّ الأرواح تتعلّق بالأجسام في هذه الدّنيا فلا محالة ينقسم النّاس في كلّ عصرٍ وزمان الىٰ ذوات الأرواح الطّاهرة و ذوات الأرواح الخبيثة و بمقتضى قانون السّنخية ينضّم الخبيث الى الخبيث و الطّاهر الى الطّاهر فالخبيث لا يتولّي إلاّ الخبيث و هكذا الطّاهر و هذا معنى قوله تعالىٰ: **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّالِمِينَ** و عليه فالمراد بالتّولية في الآية الشّريفة المتابعة و الإنقياد والطّاعة و ليس المراد بها الحكومة كما زعم الرّازي و أمثاله.

قال الرّازي في المقام الآية تدّل على أنّ الرّعية متى كانوا ظالمين فاللّه تعالىٰ يسلّط عليهم ظالماً مثلهم فأن أرادوا أن يتخلّصوا من ذلك الأمير الظّالم فليتركوا الظّلم و أيضاً الآية تدّل على أنّ في الخلق لابدّ من أمير حاكم لأنّه تعالى اذا كان لا يخلّي أهل الظّلم من أمير ظالم لا يخلّي أهل الصّلاح من أمير يحملهم علىٰ زيادة الصّلاح كان أوَلىٰ قال علّي عليه السلام لا يصلح للنّاس إمّا أمير عادل أو جائر فأنكرُوا قوله أو جائر فقال نعم يؤمن السّبيل و يمكّن من إقامة الصّلوات وحجّ البيت.

و روي أنّ أبا ذر سأل رسول اللّه الإمارة فقال له أنّك ضعيف و أنّها أمانة و هي في القيامة خزيٌ و ندامة إلاّ من أخذها بحقّه وأدّىٰ الذّي عليه فيها وعن مالك ابن دينار جاء في بعض كُتب اللّه أنا اللّه ملك الملوك قلوب الملوك و نواصيها بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة و من عصاني جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا أنفسكم بسّب الملوك لكن توبوا الّي أعطفهم عليكم.

و أمّا قوله: **بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** فالمعنىٰ نولّي بعض الظّالمين بعضاً بسبب كون ذلك البعض مكتسباً للظّلم والمراد منه ما بيّنا أنّ الجنّسية علّة للضّم انتهىٰ كلامه بألفاظه و عباراته.

و لقائلٍ أن يقول أنّ الآية لا تدّل علىٰ ما ذكره أصلاً بل هي أجنبيّة عمّا ذكره قطعاً و ذلك لأنّها تدّل علىٰ أنّ الظّالمين يتوّلى بعضهم بعضاً، و أين هذا المعنى ممّا إدّعاه الرّازي من أنّ الرّعية متىٰ كانوا ظالمين يسلّط اللّه عليهم ظالماً مثلهم الخ.

ألا ترى أنّ المسلمين في حياة النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وبعد موته كانوا علىٰ حدٍّ سواء في الظُّلم و العدالة و لازم ما ذكروه أن يكون الرّسول ظالماً أن كانوا ظالمين و ليس كذلك و هكذا في الأمم الماضية فأنّ يوسف الصّديق كان حاكماً على أهل مصر ولاشكّ أنّهم كانوا ظالمين، و موسى ابن عمران بعد فرعون صار حاكماً عليهم وكانوا ظالمين و فى هذه الأمة أمير المؤمنين صار حاكماً عليهم وكانوا ظالمين و نظائره كثيرة، و أمّا قوله و أيضاً الآية تدّل على أنّ في الخلق لابدّ من أميرٍ و حاكم، فهو أيضاً أجنبّي عنها.

نعم لابدّ للخلق منه إلاّ أنّ الآية لا تدّل عليه و لا ربط لها بالإمارة أصلاً.

و أمّا ما ذكره من أنّ أبا ذر سأل رسول اللّه الإمارة و قال الرّسول له أنّك ضعيف، فهو كذبٌ محض لأنّه متفرّدٌ بنقله و لم ينقله أحدٌ من الموثّقين و العقل أيضاً يحكم بكذبه و بطلانه و ذلك لأنّ أبا ذر كان من الزُّهاد و الأوتاد في زمانه بشهادة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و من كان كذلك لا يسأل الحكومة والإمارة بل يفرّ منها فرار الذّئب من الأسد و العجب من الرّازي حيث نسب الىٰ الرّسول أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لأبي ذر أنّك ضعيف، و أيّ ضعفٍ كان فيه.

نعم أنّه كان ضعيفاً من الظّلم كما كان الرّسول أيضاً كذلك و أمّا قوله أنّها أمانة و هى في القيامة خزيٌ و ندامة إلاّ من أخذها بحقّه و أدّى الذّي عليه فيها فهو حقّ لا كلام لنا فيه مفهوماً إلاّ أنّ البحث في مصاديق الكلام و لتفصيل المقال مقام أخر و أمّا الأخبار التّي تمسّك بها في إثبات مدّعاه ففيها ما فيها سنداً و دلالةً.

أن قلت فما معنىٰ الآية و ما المقصود بها.

قلت معنى الآية أنّ توليت الظّالمين بعضهم بضعاً ليست إلاّ بما كسبت أيدي النّاس و حيث أنّ سنّة اللّه جرت في دار التّكليف علىٰ عدم الإجبار و الإكراه في حقّ عباده المكلّفين بل جعلهم مختارين في أفعالهم و أقوالهم بعد إتمام الحجّة عليهم عقلاً ونقلاً فلاجرم يترتّب الأثار على أفعالهم أن خيراً فخيراً و أن شرّاً فشرّاً فمن أطاع اللّه و رسوله بإرادته و إختياره لايرى إلاّ خَيراً و من خالف اللّه و رسوله لا يرى إلاّ شرّاً في الدّنيا و الأخرة.

و أنّما نسب اللّه تلك التولّية الىٰ نفسه فقال: **وَ كَذٰلِكَ نُوَلِّي** ولم يَنسبها الى خلقه مجازاً لا حقيقةً و الدّليل عليه قوله: **بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ** أي كان السّبب لها عملهم و مخالفتهم و تمرّدهم.

ألا ترى أنّ النّاس بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بايعوا أبابكر و بعده عمر و خالفوا أمر اللّه و رسوله بتركهم عليّاً عليه السلام و الأئمّة من ولده فوقعوا فيما وقعوا و من المعلوم أنّ النّاس كانوا معرضين عن علّي عليه السلام لأنّهم كانوا ظالمين و الظّالم لا يحبّ إلاّ مثله و هذا معنىٰ تولية الظّالمين بعضهم بعضاً.

و أمّا غيرهم من المؤمنين فليس للظّالم عليهم ولاية أصلاً:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ**[1].

و قال تعالىٰ حكايةً عنه: **وَ مٰا كٰانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**[2].

يٰا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيٰاتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا

المَعشر بفتح الميم و سكون العين و فتح الشّين الجماعة و فرّقوا بينه و بين المجمع بأنّ المعشر يقع عليهم هذا الإسم مجتمعين كانوا أو متفرقين

١- الحجر = ٤٢ ٢- إبراهيم = ٢٢

كالعشيرة، و ليس كذلك المجمع لأنّه مأخوذ من الجمع فلا يصدق على المتفرّقين، **و الجِنّ** بكسر الجيم مشتّق من الإجتنان عن العيون أعني به الإستتار عنها و هو إسم علمٍ لجنس ممّا يعقل متميّزٌ عن جنس الإنسان و الملك، و الإنس هم البشر و فى الآية أبحاث:

أحدها: أنّ قوله هذا إحتجاج عليهم يوم القيامة بأنّ اللّه تعالىٰ بعث اليهم الرّسل أعذاراً و إنذاراً و تأكيداً للحجّة و فيه دلالة علىٰ ثبوت التّكليف للجنّ كما أنّه ثابت للإنس.

البحث الثّاني: أنّ ظاهر الآية يدّل على أنّه تعالى أرسل رسلاً من الجنّ كما أرسل رسلاً من الإنس و أنّما قلنا ذلك لعموم الخطاب حيث قال: **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** فلو كان الرّسول مختصّاً بالإنس، قال: **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** أو من الإنس و لم يقل ذلك و إختار هذا القول الطّبري والبلخي و غيرهما و مال اليه الشّيخ في التّبيان.

و قال أكثر المفسّرين أنّ الخطاب و أن كان لجميعهم إلاّ أنّ الرُّسل من الإنس خاصّة اذ من المحتمل أن يكون الخطاب من باب التّغليب كما قد يغلّب المذّكر على المؤنّث ففي المقام غلّب الإنس علىٰ الجنّ في بعث الرّسول اليهم و نظيره قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ**(٢).

و من المعلوم أنّ الؤلؤ يخرج من الملح دون العذب، و كقولهم، أكلت خبزاً و لبناً، و أنّما شربت اللّبن وكما يقولون في هذه الدّار سرور و أنّما هو في بعضها.

و قال إبن عبّاس هُم رُسل الإنس الى غيرهم من الجنّ كما قال تعالىٰ: **وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**(٣) و قال المغربي المعنى، ألم يأتكم، يعني معشر المكلّفين

١- الرحمن = ٢٢
٢- الرّحمٰن = ١٩
٣- الأحقاف = ٢٩

و المخلوقين، **رُسُلٌ مِنْكُمْ** يعني المكلّفين و قال الكلبي كان الرُّسل يبعثون الى الإنس بعث محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الى الجنّ والإنس.

أقول محصّل الأقوال في الباب يرجع الىٰ ثلاثة:

احدها: أنّ للجنّ رسول كما أنّ للإنس رسول.

ثانيها: أنّ الرّسول فيهم واحد و هو من الإنس فقط.

ثالثها: القول بالفصل و هو أنّ جميع الأنبياء بُعثوا الىٰ الإنس خاصّة و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بعث الى الجنّ و الإنس جميعاً.

و الذّي إعتمد عليه من الأقوال المذكورة هو القول بالفصل و هو أنّ الأنبياء قبل النّبي بعثوا الى الإنس خاصّة و أمّا نبّي الإسلام فقد بعث الى الجنّ والإنس فالبحث يقع في مقامين:

المقام الأوّل: أنّ الأنبياء قبل الإسلام بعثوا الىٰ الإنس خاصّة و يدّل عليه ظواهر الأيات.

منها، هذه الآية فأنّها صريحة في المدّعى لقوله تعالىٰ فيها **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** والوَجه فيه ظاهر لأنّ قوله، منكم خطاب للجنّ و الإنس بدليل صدر الآية و هو قوله يا معشر الجنّ و الإنس و عليه فقوله منكم، أي من جنسكم و هذا يقتضي أن يكون الرّسول من جنس المبعوث اليهم فأن كان المبعوث اليه من جنس البشر فالرّسول كذلك و أن كان من الجنّ فالرّسول أيضاً منهم و هو ظاهر.

و منها، قوله تعالىٰ **وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**[١] و من المعلوم أنّ رسول الإنس لا يكون بلسان الجنّ و لا يكون قوم الجنّ قومه.

و منها، قوله: **وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** [٢] كيفيّة الإستدلال أنّ الجنّ أُمّة مستقلّة كما أنّ الإنس كذلك و النّذير لا يكون إلاّ النّبي و لازم ذلك أن يكون للجنّ نذيراً و هو المطلوب.

١- إبراهيم = ٤ ٢- فاطر = ٢٤

و يمكن أن يستّدل على المدّعى بالعقل أيضاً و ملخصّه أنّ الإستئناس بين المبعوث و المبعوث اليه شرط في تحقّق الدّعوة و ترتّب الأثر عليها و لا شكّ أنّ قانون السّنخية يقتضي إستئناس الجنّ بالجنّ و الإنس بالإنس و لازم ذلك هو أن يبعث في كلّ طائفةٍ رسولاً منهم ليتحقّق السَّبب فوجب أن يكون رسول الجنّ منهم و هو المطلوب.

أمّا المقام الثّاني: و هو أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم بعث الى الجنّ والإنس.

قال اللّه تعالىٰ: **تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**(١).

وجه الدّلالة هو أنّ المراد بالعبد في قوله: **عَلَىٰ عَبْدِهِ** هو رسول الإسلام قطعاً كما أنّ المراد بالفرقان القرأن سمّي به لكونه فارقاً بين الحقّ و الباطل و المراد بالعالمين جميع أصناف الخلق كلّ صنفٍ منهم و العالم جمع لا واحد له من لفظه و قيل العالم يختصّ بمن يعقل و جمعه بالواو و النّون و ذهب أكثر المتكلّمين الى أنّ العالم هو الجسماني المنحصر في الفلك العلوي و العنصري السِّفلي وكيف كان فلا شكّ أنّ الجنّ و الإنس و الحيوان و النّبات و الجماد كلّهم داخلون في العالم فالآية تدل علىٰ أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم كان نذيراً لجميعهم خرج عنهم الحيوان و النّبات و الجماد لكونها من غير ذوي العقول و بقي الباقي و هو الجنّ والإنس تحت الحُكم فالرّسول كان نذيراً لهم و كلّ نذيرٍ مبعوث من اللّه فثبت المطلوب.

و أمّا الإستدلال بقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ**(٢) علىٰ أنّه تعالىٰ لم يرسل رسولاً من الجنّ قطّ بدليل أنّ اللّه إصطفى هؤلاء القوم والمراد بالإصطفاء النبوّة بالإجماع ففيه.

أمّا أوّلاً: أنّ المراد بالاصطفاء ليس النّبوة وإلاّ يلزم أن يكون آل إبراهيم و آل عمران كلّهم أنبياء و ليس كذلك.

١- الفرقان = ١ ٢- أل عمران = ٣٣

ثانياً: يلزم أن يكون مريم من الأنبياء لقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّـهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَ طَهَّرَكِ**[(١)] و ليس كذلك.

ثالثاً: لا إجماع في المقام أصلاً هذا و يمكن أن يستدّل على المطلوب عقلاً أيضاً و هو أنّه لا شكّ في أنّ رسول الإسلام خاتم النبّيين وظاهر اللّفظ أنّه خاتم النبّين مطلقاً بمعنى أنّه لا نبّي بعده الى يوم القيامة و لازم ذلك أن لا يكون بعده نبّياً للجنّ أيضاً و اذاكان كذلك فنقول الإحتمالات في المقام ثلاثة.

أحدها: أن يكون الجنّ كالأنس في زماننا هذا متشرّعين بشريعة الإسلام معتقدين برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم و نبّوته.

ثانيها: أن يكونوا تابعين لغير نبّي الإسلام و متشرّعين بغير شريعته.

ثالثها: أن يكونوا بلا شريعةٍ و لا دينٍ.

ففي الصّورة الأولىٰ ثبت المطلوب.

و في الصّورة الثّانية، يلزم أن يكون لهم نَبّيٌ آخر ولم يثبت ذلك بل لم يقل به أحد.

و أمّا القسم الثّالث، فلا سبيل اليه إذ المفروض كونهم مكلّفين و المكلّف لا يكون كذلك فثبت و تحقّق أنّ الجنّ بناء علىٰ أنّهم من المكلّفين حالهم حال الأنس في متابعة سيد المرسلين و خاتم النبّيين و هو المطلوب و اللّه أعلم بحقائق الأمور.

و أمّا قوله: **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي** أي يتلون عليكم دلائلي وبيّناتي **وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا** أي لقاء ما تستحقّونه من العقاب في هذا اليوم ثمّ أنّه تعالىٰ أخبر عنهم بشهادتهم على أنفسهم بالإعتراف بالذّنب و التّقصير في العبوّدية و الإقرار بأنّ الحياة الدّنيا غرّتهم.

قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ

١- آل عمران = ٤٢

و لا شكّ أنّ العاقل إذا أقرَّ و إعترف على نفسه بالذّنب يؤخذ به ففي المقام حيث أنّهم أي الجنّ والإنس شهدوا على أنفسهم بالتّقصير وأنّهم كانوا مغرورين في الدّنيا بزينتها ولذّتها وصار هذا سبباً لكفرهم بالأنبياء وما جاؤا به من الأحكام فلا محالة صاروا مستحقّين للعذاب والعقاب لأنّ الحجّة قد تمّت عليهم عقلاً و نقلاً.

ففي الآية دلالة علىٰ أنّ اللّه لا يعاقب إلاّ بعد إرسال الرُّسل و إنزال الكتب و إقامة الحجّة فإذا خالف العبد بعد ذلك إستحقّ العقاب.

ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ تقدير الكلام، الأمر.

كذلك و عليه فموضع ذلك، رفع، علىٰ الخَبر و قيل التّقدير فعلناه ذلك لهذا، و أنّما جازت الإشارة الى غير حاضر لأنّ ما مضى صفة حاضرة للنّفس فقام مقام و يجوز الإشارة الى هذا، الّذي تقدّم ذكره هكذا قيل وكلمة، أن، في قوله: **أَنْ لَمْ يَكُنْ** هي المخفّفة من الثّقيلة و المعنى لأنّه لم يكن، و مثلها، قول الشّاعر:

في فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا   أن هالك كلّ من يحفي وينتعل

و إذا كان الأمر على هذا المنوال فلابدّ فيها من إضمار الهاء لأنّه لا معنىٰ لها في الإبتداء و أنّما هي بمعنىٰ المصدر المبنّي علىٰ غيره والمكسورة لا تحتاج الىٰ ذلك لأنّها يصّح أن تكون حرفاً من حروف الإبتداء فلا تحتاج الىٰ إضمارٍ، و قوله: **بِظُلْمٍ** في معناه قولان:

أحدهماً: أنّه بظلم منه علىٰ غفلةٍ من غير تنبيهٍ و تذكيرٍ و مثله قوله تعالىٰ: **وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ**[1].

الثّاني: معناه، بظلمٍ منهم حتّى يبعث اليهم رسلاً يزجرونهم و يذّكرونهم على وجه الإستظهار في الحجّة دون أن يكون ذلك واجباً لأنّهم بما فعلوه من الظُّلم قد إستحقّوا العقاب قاله الشّيخ في التّبيان.

١- هُود = ١١٧

قال الرّازي، في المقام، و أمّا قوله: **بِظُلْمٍ** ففيه وجهان:

الأوّل: أن يكون المعنىٰ و ما ربّك مهلكً القُرىٰ بسبب ظلم أقدموا عليه.

الثّاني: أن يكون المراد و ماكان ربّك مهلك القرى ظلماً عليهِم و هو كقوله: **وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ اَلْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا مُصْلِحُونَ**(١).

فعلىٰ الوَجه الأوّل: يكون الظّلم فعلاً للكفّار.

علىٰ الثّانى: يكون عائداً الى فعل اللّه والوجه الأوّل أليق بقولنا لأنّ القول الثّاني يُوهم أنّه تعالىٰ لو أهلكهم قبل بعثة الرّسل كان ظالماً و ليس الأمر عندنا كذلك لأنّه يحكم ما يشاء و يفعل ما يريد و لا إعتراض عليه لأحدٍ في شئٍ من أفعاله.

أمّا المعتزلة فهذا القول الثّاني مطابق لمذهبهم موافق لمعتقدهم و أمّا من فسَّر الآية بهذا الوجه مِن أصحابنا فقال أنّه تعالىٰ لَو فعل ذلك لم يكن ظالماً لكنّه يكون في صورة الظّالم فوصف بكونه ظالماً مجازاً ثمّ قال و أمّا قوله: **وَ أَهْلُهٰا غٰافِلُونَ** فليس المراد من هذه الغفلة أن يتغافل المرء عمّا يوعظ به بل معناها أنّ لا يبيّن اللّه لهم كيفيّة الحال و لا أن يزيل عذرهم و علّتهم انتهى موضع الحاجة.

و أنا أقول لا شكّ أنّ تقدير الأية، و ما ربّك مُهلك أهل القرىٰ.

و أمّا معنىٰ الآية فالحقّ أنّ قوله: **أَنْ لَمْ يَكُنْ** يجري مجرىٰ التّعليل أي لأجل أنّه لم يكن اللّه ليهلك أهل القُرىٰ بظُلم يكون منهم حتّىٰ يبعث اليهم رسلاً ينبّهونهم على حججه و أن شئت قلت أنّ اللّه تعالى لا يؤاخذهم بغتةً قبل إتمام الحجّة عليهم و أمّا ما إختاره الرّازي و من تبعه من الأشاعرة فأنّما هو على مذهبهم الفاسد من القول بعدم الحسن و القبح العقلّيين و عليه فلا إشكال في نسبة الظُّلم اليه تعالى بل قال بعضهم أنّ الفعل المعبّر عنه بالظّلم، اذا نسب اليه تعالى يعبّر عنه بالعدل و اذا نُسب الى الخلق يعبّر عنه بالظُّلم.

١- هُود = ١١٨

و لقائل أن يقول كيف يعقل أنّ الفعل الواحد يكون ظلماً و عدلاً بإعتبارين و هل الإعتبار أعني به النّسبة يوجب تغيير ماهيّة الفعل أليس القبح ذاتيّاً للقبيح و الحسن ذاتيّاً للحسن و قد إتّفقوا علىٰ أنّ الذّاتي لا يتغيّر و لا يتبدّل، و ما كان كذلك فكيف قالوا فيه ما قالوا، أليس العقل حاكماً بقبح الكذب مثلاً أينما وجد بذاته، مع قطع النّظر عن حرمته شرعاً فلو كان ما ذكروه حقّاً لصَّح نسبته اليه تعالىٰ لأنّه يَفعل ما يريد، فاذا أراد الكذب لا إشكال فيه و اذا صدر منه الكذب كيف يعتمد علىٰ كلامه في كتابه و هكذا سائر القبائح.

و العجب أنّهم لم يجوّزوا الظّلم والكذب و أمثالهما على الأنبياء بعد البعثة لكونه موجباً لسلب الإعتماد و لا يقولون بذلك في حقّ اللّه تعالى ولم يعلموا أنّ هذا الملاك فيه تعالى أقوى منه في حقّ الرّسول كما هو واضح لا خفاء فيه إلاّ على أعمى القلب الذّي لا يعلم ما يقول و محصّل الكلام هو أنّ الظّلم و غيره ممّا يحكم العقل السّليم بقبحه لا ينسب الى اللّه تعالىٰ لأنّه منزّه عن القبائح و اذا كان كذلك فإهلاك النّاس بظلمهم قبل إتمام الحجّة عليهم لا يساعده العقل و لا النّقل و اليه أشار بقوله: **وَ ما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولًا**[1] وقوله: **وَ أَهْلُها غافِلُونَ** الواو للحال أي لا نعذّبهم و لا نهلكهم في حال الغفلة عمّا بعثنا اليهم من الرّسول لأنّ الحجّة في حقّ الغافل لا معنىٰ لها و هو معلوم.

وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ

أي ولكلّ واحدٍ من العاملين درجات ومنازل من عمله حتّى يجزى به إن خيراً فخيراً و أن شرّاً فشرّاً ففي الآية دلالة على أنّ اللّه تعالىٰ لا يضيع عمل عاملٍ و أنّ الأعمال من حيث القرب و البعد الىٰ القبول متفاوتة و ذلك لأنّ مراتب الخلوص فيها متفاوتة و فى قوله: **وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ** إشارة الى أنّ الغفلة لا تنسب اليه تعالىٰ.

١- الإسراء = ١٥

و قد أشار اللّه تعالى الى هذا المعنى في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالى: **وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذابِ وَ مَا ٱللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ**(۱).

قال اللّه تعالى: **وأنّ الّذين أُوتُوا ٱلْكِتٰابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا ٱللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا يَعْمَلُونَ**(۲).

قال اللّه تعالى: **وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا ٱللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ**(۳).

و هكذا و السِّر فيه هو أنّ الغفلة من شئون الجسم و ذلك لأنّ الغفلة سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التَّحفظ والتّيقظ و هذا المعنىٰ لا يعقل في حقّ الواجب الذّي لا تأخذه سنة و لا نومٌ و لا سهو و لا نسيان الخ.

وَ رَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِـنْ بَـعْدِكُمْ مٰا يَشٰآءُ كَمٰآ أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ اٰخَرِينَ في الآية مسائل:

الأُولىٰ: أنّه تعالى غني عمّا سواه كائناً ما كان عقلاً و نقلاً.

أمّا العقل:

فلأنّه تعالىٰ لو لم يكن غنّياً بقولٍ مطلق لكان فقيراً لا محالة لأنّ ضدّ الغنى الفقر و لا واسطة بينهما و اذا كان فقيراً فهو محتاج وكلّ محتاج ممكن الوجود و المفروض أنّه واجب الوجود.

ثانياً: أنّ الغنى كمال و الفقر نقصٌ والواجب منّزه عن النّقائص.

أمّا النّقل:

قال اللّه تعالى: **يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرٰآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**(۴).

۱- البقرة = ۱۴۰
۲- البقرة = ۱۴۴
۳- البقرة = ۱۴۹
۴- فاطر = ۱۵

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَآءُ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ ٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ**(٢).

الثّانية: أنّه تعالىٰ ذو الرّحمة.

إعلم أنّ الرّحمة رقّة تقتضي الإحسان الىٰ المرحوم و قد تستعمل تارةً في الرّقة المجرّدة و أخرىٰ في الإحسان المجرّد عنها نحو رحم اللّه فلاناً، وصف به الباريْ فلا يراد به إلاّ الإحسان المجرّد دُون الرّقة و على هذا روي أنّ الرّحمة من اللّه إنعامٌ و إفضال و من الأدميين رقّةٌ و تعطّفٌ فركز اللّه في طبائع النّاس الرّقة و تفرّد بالإحسان اذا عرفت هذا فقوله:

و الرّحمة معناه ذو الإحسان الى خلقه و أيّ إحسانٍ أحسن من خلقهم و إنعامهم بأنواع النِّعم و الدّليل عليه من العقل هو أنّ الرّحمة صفة كمال تعالىٰ جامع لجميع الكمالات و حيث أنّ ضدّ الكمال نقصٌ فهو لا يتّصف به لأنّ النّقص من شئون الممكن المخلوق فثبت أنّه ذو الرّحمة و هو المطلوب.

وأمّا النّقل:

قال اللّه تعالى: **فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَارِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ**(٣).

قال اللّه تعالى: **مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا**(٤).

قال اللّه تعالى: **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا**(٥).

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**(٦).

قال اللّه تعالى: **وَ رَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ**(٧) والأيات كثيرة جدّاً.

١- أل عمران = ١٨١
٢- محمد = ٣٨
٣- الرّوم = ٥٠
٤- فاطر = ٢
٥- غافر = ٧
٦- الحَجر = ٥٦
٧- الكهف = ٥٨

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مٰا يَشٰآءُ

فالمقصود أنّه تعالى قادرٌ عليكم فكما أنّه خلقكم بالقدرة، يقدر على افنائكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء لأنّ حكم الأمثال واحد فكما أنّه تعالىٰ خلقكم كذلك يميتكم و كذلك يخلق بعدكم قوماً أخرين و الى هذا المعنى أشار بقوله كما أنشأكم من ذرّية قومٍ أخرين، و الكاف في **كَمٰآ** في موضع نصب و تقديره و يستخلف من بعدكم ما يشاء مثل ما إستخلفكم و في ذلك دلالة على أنّه تصّح القدرة على ما علم أنّه لا يكون لأنّه بيَّن أنّه لو شاء لذهب بهم و أتى بقومٍ أخرين و لم يفعل ذلك فدَّل ذلك علىٰ أنّه يقدر على ما يعلم أنّه لا يفعله هكذا قيل و الحقّ أنّ الآية لا تدّل على أكثر ممّا ذكرناه و هو أنّه قادر علىٰ كلّ شيٍ لأنّه اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون و كيف كان فكلمة مِن، في قوله: **وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ** للبدل من ذرية قوم.

و في قوله: **قَوْمٍ اٰخَرِينَ** لإبتداء الغاية لأنّ التّقدير إبتداء غايتكم من قومٍ أخرين، و في قوله: **أَنْشَأَكُمْ** إشارة الى أنّه تعالى خلقكم إبتداءً و ذلك لأنّ كلّ من إبتدأ شيئاً فقد أنشأه والىٰ هذا أشار اللّه بقوله: و لقد علمتم النّشأة الأولى يعني إبتداء الخلق و النشّأة الأخرى الخلق الثّاني للبعث يوم القيامة أعاذنا اللّه منه.

إِنَّ مٰا تُوعَدُونَ لَاٰتٍ وَ مٰآ أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ما في قوله: **إِنَّ مٰا** بمعنىٰ الذّي و المعنى أنّ الّذي توعدون من عقابه على معاصيه و الكفر به، فهو واقع قطعاً و عليه فاللاّم في قوله: **لَاٰتٍ** لام الإبتداء و هي في موضع نصب و لا يجوز أن تكون لام القسم لأنّها لا تدخل على الأسماء و لا الأفعال المضارعة إلاّ أن تكون معها النّون الثّقيلة، و معنى، توعدون، من الإيعاد بالعقاب أو من مجيئ السّاعة.

و قيل المعنى، أنّ ما توعدون من الثّواب و العقاب و عليه فقوله: **تُوعَدُونَ** ليس من الإيعاد بل من الوعد لإختلاط الخير و الشّر فيكون على التّغليب اذ مجيئ السّاعة خير للمؤمنين و شرٌّ على الكافرين.

و قوله: **بِمُعْجِزِينَ** اى لستم بمعجزين اللّه عن الإتيان بـالبعث و العـقاب قالوا لأنّ عابد الوثن يتوهّم أنّه ينفعه في صرف المكروه عنه جهلاً منه وكيف كان ففي الآية دلالة على أنّ اللّه صادق الوعد و الإيعاد و قادر على ما يشاء و لا يقدر أحد على منعه عمّا أراده و هو كذلك لعموم قدرته.

قُلْ يٰا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلٰى مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَةُ ٱلدّٰارِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ ٱلظّٰالِمُونَ

قرأ أبوبكر **مكاناتكم** على الجمع والباقون علىٰ التّوحيد و قـرأ حـمزة و الكسائي يكون بالياء و الباقون بالتّاء المعجمة من فوق، فمن قرأ بالياء قال أنّ المصدر المؤنّث يجوز تأنيثه على اللّفظ و تذكيره على المعنى و من قرأ بالتّاء فعلى اللّفظ،، و من قرأ **مكانتكم**، فلأنّه مصدر و المصادر في الأكثر لا تجمع و من جمع فلأنّها قد تجمع كقولهم، الحلوم و الأحلام.

و قال أبو عبيدة، مكانتكم، أي على حيالكم.

و قال بعضهم المكانة المـنزلة أي إعـملوا عـلىٰ حـيالكم، أو عـلى قـدر منزلتكم و تمكّنكم من الدّنيا فأنّكم لن تضُروننا بذلك شيئاً، فمعنى الآية قل يا محمّد لقومك أن يعملوا على مكانتهم أي على طريقتهم أو ناحيتهم أو حالتهم و قوله: **إِنِّي عٰامِلٌ** فهو إخبار من الرّسول أنّه عامل بما أمر اللّه تعالى به لأنّ الرّسول أيضاً مكلّف بالتّكاليف الشّرعية كغيره من النّاس و مع ذلك ففيه إشارة الىٰ أنّ الأمر بالتّكليف و العمل ينبغي أن يكون عاملاً بما يأمر به غيره والرّسول أيضاً لا يستثنى منه وقوله: **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** فيه تهديد أي سوف تـعلمون جزاء أعمالكم إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و الى هذا المعنى أشار بقوله: **مَنْ تَكُونُ** له عاقبة الدّار الآية فأن كلمة من، بمعنى الّذي و موضعها النّصب بقوله: يعملون.

و قيل الرّفع و تقديره أيّنا يكون له عاقبة الدّار و من المعلوم أنّ العاقبة للمتّقين و ذلك لأنّ الظّالم لا يفلح بل يصير الى العقاب المؤبّد كما أنّ المؤمن يصير الى النّعيم الدّائم و أنّما خصّ عدم الفوز والفلاح بالظّالم دون الكافر لأنّه أعمّ و أكثر فائدة و لأنّه اذا لم يفلح الظّالم فالكافر بذلك أولى على أنّ الكافر يسمّىٰ ظالماً كما قال تعالىٰ: **وَ ٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ**(١).

وإعلم أنّ، من، في قوله: **مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ** يمكن أن يكون إسم إستفهام و خبره تكون و الفعل معلّق و الجملة موضع المفعول أن كان، يعلمون، معدّى الىٰ واحدٍ و فى موضع المفعولين أن كان يتعدّى الى مفعولين، و قوله: **عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ** أي مألها و ما تنتهي اليه الدّار و الظّاهر أنّ المراد بها دار الأخرة و لا يبعد أن يكون المراد بها الدّنيا و على أيّ حالٍ ففي قوله فسوف تعلمون، من التّهديد والوعيد ما لا يخفى و الى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

اذا ما إلتقينا وإلتقىٰ الرُّسل بيننا   فسوف ترى يا عمرو ما اللّه صانعُ

قال بعض المحقّقين، و فى قوله: **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ** ترديدٌ بينه عليه‌السلام و بينهم و معلوم أنّ هذا التّهديد و الوعيد مختصّ بهم و أنّ عاقبة الدّار الحسنى هي له و لكنّه أجرى مجرى قوله فشّر كما الخير كما الفداء انتهىٰ.

أقول التّرديد من المحسّنات البّديعية و هو كثير في كلمات البلغاء ومنه قوله تعالىٰ: **إِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**(٢).

و محصّل الكلام في الآية هو أنّ المدار في العاقبة علىٰ العمل فقط.

■

١- البقرة = ٢٥٤   ٢- سَبأ = ٢٤

وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ
نَصِيبًا فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذٰا لِشُرَكٰآئِنٰا
فَمٰا كٰانَ لِشُرَكٰآئِهِمْ فَلاٰ يَصِلُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ
لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكٰآئِهِمْ سٰآءَ مٰا يَحْكُمُونَ
﴿١٣٦﴾ وَ كَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ
أَوْلاٰدِهِمْ شُرَكٰآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ
دِينَهُمْ وَ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ مٰا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مٰا
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ
لاٰ يَطْعَمُهٰآ إِلاّٰ مَنْ نَشٰآءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعٰامٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهٰا وَ أَنْعٰامٌ لاٰ يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللّٰهِ عَلَيْهَا
ٱفْتِرٰآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾
وَ قٰالُوا مٰا فِي بُطُونِ هٰذِهِ ٱلْأَنْعٰامِ خٰالِصَةٌ
لِذُكُورِنٰا وَ مُحَرَّمٌ عَلىٰ أَزْوٰاجِنٰا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً
فَهُمْ فِيهِ شُرَكٰآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلاٰدَهُمْ سَفَهًا
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مٰا رَزَقَهُمُ ٱللّٰهُ ٱفْتِرٰآءً عَلَى
ٱللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

◁ اللّغة

ذَرَأَ، الذَّرَأ هو الخلق على وجه الإختراع و أصله الظّهور و الذّرأة ظهور الشّيب.

ٱلْحَرْثِ بفتح الحاء المهملة الأرض التّي تثار للزّرع.

ٱلْأَنْعَٰمِ المواشي من الإبل و البقر و الغنم مأخوذ من نعمة الوطئ و لا يقال لذوات الحافر أنعام.

نَصِيبًا النَّصيب الحَظّ.

بِزَعْمِهِمْ، الزَّعم بفتح الزّاء الإعتقاد.

أَوْلَٰدِهِمْ الأولاد جمع وَلَد.

لِيُرْدُوهُمْ الإرداء الإهلاك أي ليُهلكهم.

لِيَلْبِسُوا اللّبس الإشتباه.

يَفْتَرُونَ الإفتراء الإختلاق والكذب.

حِجْرٌ بكسر الحاء الحرام.

◁ الإعراب

مِمَّا ذَرَأَ يجوز أن يتعلّق بجعل و أن يكون حالاً من نصيب وَمِنَ ٱلْحَرْثِ متعلّق بذرأ و قيل حال مِن، ما، أو من العائد المحذوف وَ كَذَٰلِكَ زَيَّنَ يقرأ بفتح الزّاء و الياء على تسمية الفاعل و هو شركائهم، و المفعول، قَتل و هو مصدر مضاف الى المفعول و يقرأ بضمّ الزّاء وكسر الياء على ما لَم يسّم فاعله و هو الأشهر و عليه فقوله، قتل، بالرّفع على أنّه القائم مقام الفاعل و أولادهم بالنّصب علىٰ أنّه مفعول القَتل شُرَكَآئِهِمْ بالجّر على الإضافة و قد فصّل بينهما بالمفعول وَلِيَلْبِسُوا بكسر الباء من لبست الأمر بفتح الباء إذا شبّهته لَا يَطْعَمُهَآ في موضع رفع كالّذي قبله حِجْرٌ الجمهور على كسر الحاء و سكون الجيم و قد يقرأ بضمّها و ضمّ الحاء و سكون الجيم، بِزَعْمِهِمْ متعلّق بقالوا ٱفْتِرَآءً منصوب على المصدر و قيل هو مفعول لأجله فأن نصبته على المصدر كان قوله عَلَيْهِ متعلّقاً بقالوا لا بنفس المصدر و أن جعلته مفعولاً من أجله علقته بنفس المصدر و يجوز أن يتّعلق بمحذوف على أن يكون صفة لإفتراء مَا فِي بُطُونِ ما، بمعنىٰ الذّي في موضع رفع بالإبتداء و خَالِصَةٌ خبره و أنّث على المعنى

لأنّ ما في البطون أنعام **وِلذُ كُورِنَا** متعلّق بخالصة أو بمحذوف على أن يكون صفة لخالصة و **مُحَرَّمٌ** جاء علىٰ التّذكير حملاً على لفظ ما **يَكُنْ مَيْتَةً** بالتّاء و نصب ميتة أي أن تكن الأنعام ميتة و بالياء حملاً علىٰ لفظ، ما، و قيل بالتّاء و رفع ميتة على أنّ كان، هي التّامة **سَفَهًا** مفعول له أو علىٰ المصدر لفعلٍ محذوف.

◁ التّفسير

وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ نَصِيبًا فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذٰا لِشُرَكٰائِنٰا

أخبر اللّه تعالى عن الكفّار أنّهم جعلوا ممّا خلق اللّه من الحرث و الأنعام نصيباً و لشركائهم أيضاً كذلك فقالوا هذا للّه لشركائنا و أنّما فعلوا ذلك تقرّباً اليهما قيل أنّ العرب كانت تجعل من غلاتّها و زروعها و أثمارها و أنعامها، جزءً تسمّيه لِلّه و جُزءً تُسمّيه لأصنامها و كانت عادتها تبالغ و تجتهد في إخراج نصيب الأصنام أكثر منها في نصيب اللّه اذ كانوا يعتقدون أنّ الأصنام بها فقر و ليس ذلك باللّه فكانوا اذا جمعوا الزرع فهبّت الرّيح فحملت من الذّي لشركائهم تركوه و لم يردّوه الىٰ نصيب اللّه و يفعلون عكس هذا و اذا تفجر من سقى ما جعلوه للّه في نصيب شركائهم تركوه و بالعكس سدُّوه و اذا لم ينجح شيئ من نصيب ألهتهم جعلوا نصيب اللّه لها و كذا في الأنعام و اذا أجدبوا أكلوا نَصيب اللّه و تركوا نصيبها و فى هذا الكلام دلالة على أنّ مشركي العرب مضافاً الى إنكارهم البعث كانوا جهالاً ضعفاء العقول و يدّل على ذلك تقسيمهم الأموال كذلك اذ كيف يعقل أن يجعل للّه تعالىٰ ممّا ذرأه و خلقه أقلّ ممّا جعلوه لشركائهم و المفروض أنّ اللّه تعالىٰ هو المُوجد للحرث والأنعام دون أصنامهم العاجزة عن ما يحلّ بها فضلاً عن أن تخلق شيئاً أو تنميه و الى هذا أشار اللّه بقوله: **سٰآءَ مٰا يَحْكُمُونَ** أي بئس ما يحكمون فيما جعلوا ممّا ذرأ اللّه سهماً للأصنام العاجزة الباطلة.

و قال صاحب الكشّاف كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج للّه وأشياء منهما لألهتهم فاذا رأوا ما جعلوه للّه زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للألهة و اذا زكى ما جعلوه للأصنام تركوه لها و إعتلّوا بأنّ اللّه غني ذلك لحبّهم ألهتهم و إيثارهم لها، و قال في قوله: **بِزَعْمِهِمْ** و قرئ بالضّم أي قد زعموا أنّه اللّه و اللّه لم يأمرهم بذلك و لا شرع لهم تلك القسمة التّي هي من الشّرك لأنّهم أشركوا بين اللّه و أصنامهم في القربة انتهىٰ.

فَمٰا كٰانَ لِشُرَكٰائِهِمْ فَلاٰ يَصِلُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلىٰ شُرَكٰائِهِمْ سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ

و المعنىٰ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى اللّه أي الى الوجوه الّتي كانوا يصرفونه اليها من قري الضّيفان و التصدّق علىٰ المساكين، و ما كان للّه فهو يصل الى شركائهم، لأنّهم كانوا ينفقون ما جعلوا للّه للأصنام بذبحهم النّساتك عندها و الإجراء علىٰ سدنتها و نحو ذلك.

و محصّل الكلام هو أنّهم لم يفوا بعهدهم فيما جعلوه لِلّه و لم يصفوا حيث جعلوا ممّا ذرأ اللّه من الحرث و الأنعام نصيباً لشركائهم أوّلاً.

ثانياً: أثروا ألهتهم على اللّه و جعلوا ما للّه بزعمهم لها **وَ كَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاٰدِهِمْ شُرَكٰاؤُهُمْ** أي ومثل ذلك التّزيين و هو تزيين الشّرك في قسمة القربان بين اللّه تعالىٰ و الألهة أو و مثل ذلك التّزيين البليغ الذّي هو علم من الشّياطين، و المعنىٰ أنّ شركائهم من الشّياطين أو من سدنة الأصنام زيّنوا لهم أي لهؤلاء المشركين قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم للألهة و المزّين لقتل أولادهم هو الشّركاء أي الأصنام.

قال مجاهد شركاؤهم شياطينهم أمروهم أن يدفنوا بناتهم أحياء خشية العيلة.

و قال الكلبي شركاؤهم سدنتهم و خزينتهم الّتي لألهتهم كانوا يزيّنون لهم دفن البنات أحياء، و قيل رؤوساءهم كانوا يقتلون الأناث تكّبراً والذّكور خوف الفقر.

و قال صاحب الكشّاف كان الرّجل يحلف في الجاهلّية لئن ولد لي كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلّب.

أقول ما ذكروه لا بأس به و أمّا ما ذكره صاحب الكشّاف مِن قوله كما حلف عبد المطلّب، فهو كاشف عن عناده لأهل البيت أو لجهله بمقام سيّد البطحاء و أنّه كان من أولياء اللّه و عباده الصّالحين بل ورد في الأثار عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ عبد المطّلب كان من الأوصياء في دين المسيح عليه السلام ألا ترى أنّه ما سَنَّ سنّةً في الجاهليّة إلاّ و أقرَّها الإسلام علىٰ ما كانت مثل حصره الطّواف في سبعة أشواط و جعله دية القتل في صورة الخطأ على مائة بعير و نهيه عن نكاح الأولاد أزواج الأباء و أمثال ذلك ممّا هو معلوم لا خفاء فيه اذا عرفت هذا فنقول:

دلّت الآية علىٰ أنّ شركاء المشركين زيَّن له مقتل أولادهم بناءً على القراءة المشهورة و هى بفتح الزّاء بصيغة المعلوم فيكون الأولاد في موضع النّصب هو مفعول به بالقَتل و عليه فقوله: **شُرَكَآؤُهُمْ** فاعل الفعل و قد فصّل بين الفعل و الفاعل المفعول به ثمّ أنّهم إختلفوا في الشّركاء الذّين زيّنوا قتل الأولاد على أقوال:

منها، أنّ المراد بهم هم الشّياطين زيّنوا لهم وأد البنات أحياء خوف الفقر و العار وبه قال الحسن و مجاهد و السُّدي.

ثانيها: هم قوم كانوا يخدمون الأوثان قاله الفرّاء و الزّجاج.

ثالثها: أنّهم الغواة مِن النّاس.

رابعها: شركاؤهم في نعمهم.

خامسُها: **شُرَكَآؤُهُمْ** في الإشراك فهذه هي الأقوال التّي ذكروها في المقام فالآية نزلت في ذمّ المُشركين الذّين كانوا يقتلون أولادهم لأجل متابعتهم شركاؤهم من الشّياطين و الغواة و هكذا.

و أمّا عبد المطّلب فلم يكن من المشركين قطعاً بل كان من الموّحدين لأنّه كان جدّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و قد ثبت أنّ أباء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا موّحدين مؤمنين فهو أي عبد المطّلب خارج عن الآية تخصُّصاً لا تخصيصاً.

ثانياً: عبد المطّلب لم يقتل ولده و أنّما همّ بذبحه و قتله متّقرباً الى اللّه تعالى و الفرق واضح و إلاّ يلزم أن يكون الخليل عليه السلام أيضاً من مصاديق الآية لأنّه همّ بذبح ولده إسماعيل و لا يقول به إلاّ معاندٍ ملحد.

فأن قال قائل أنّ إبراهيم الخليل كان مأموراً به من قبل اللّه تعالى.

نقول له أنّ عبد المطّلب أيضاً كان مأموراً به من قبله حيث أنّه نذر للّه تعالى ذلك و من المعلوم أنّ العمل بالنّذر واجب.

و محصّل الكلام هو أنّ قصّة عبد المطّلب في ذبح ولده بعد نذره لم يكن إلاّ بداعي أمره تعالىٰ و هو يدّل على خلوصه و عبوديّته في جميع أقواله و أفعاله و أين هذا ممّا كان المشركون يفعلونه من قتل أولادهم لأجل التّقرب الى الأصنام والشّياطين.

لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وفى هذا الكلام إشارة الى علّة التّزيين أي أنّهم زيّنوا لهم قتل أولادهم، ليردوهم، أي ليهلكوهم فأنّ الرّدى الهلاك و عليه فاللاّم في قوله: **لِيُرْدُوهُمْ** للعاقبة أي كانت عاقبة أمرهم الهلاكة كما قال تعالىٰ في قصّة فرعون وموسىٰ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا** (١).

أي فالتقط أل فرعون، موسى من الماء و صارت عاقبة الإلتقاط الى هلاك فرعون و قومه ففي المقام أيضاً كذلك حيث أنّ الشّركاء زيّنوا القتل و صارت

١- القصص = ٨

عاقبة أمرهم الىٰ الهلاك، و قوله: **لِيَلْبِسُوا** أي ليخلطوا عليهم دينهم الذّي كانوا عليه من دين إسماعيل حتّى زلّوا عنه الىٰ الشِّرك.

و قيل دينهم الذّي وجب أن يكونوا عليه، و قيل معناه وليوقعوهم في دينٍ ملتبسٍ.

وَ لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ مٰا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مٰا يَفْتَرُونَ قال بعض المفسّرين معناه لو شاء أن يضّطرهم الى تركه أو لو شاء أن يمنعهم منه، لفعل ولو فَعل المنع و الحيلولة لما فعلوه لكن ذلك ينافي التّكليف ثمّ أمر نبيّه أن يذرهم و يتركهم و يخلّي بينهم و بين ما يكذبون و ذلك غاية التّهديد.

و قال الرّازي و من تبعه من الأشاعرة أنّه يدّل علىٰ أنّ كلّ ما فعله المشركون فهو بمشيّئة اللّه تعالى.

و أمّا صاحب الكشّاف و غيره من المعتزلة حملوا المشّيئة على مشيّئة الإلجاء أي ولو شاء اللّه مشيّئة قسرٍ ما فعلوه، قل كلّ يعمل على شاكلته ونحنُ نقول لا جبر و لا تفويض بل أمرٌ بين الأمرين و قد مرّ الكلام فيه غير مرّةٍ ثمّ أنّ الإفتراء الكذب و لا يبعد أنّهم كانوا يقولون أنّ اللّه أمرهم بقتل أولادهم ولمّا لم يكن الأمر كذلك قال تعالىٰ: **وَ مٰا يَفْتَرُونَ** وكلمة، **ما**، موصولة، و المعنى دعهم بحالهم كما قال تعالىٰ: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**(١) و في هذا الكلام تهديد كما قال القائل دعني و إيّاه.

وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لاٰ يَطْعَمُهٰآ إِلاّٰ مَنْ نَشٰآءُ بِزَعْمِهِمْ

قوله: **حِجْرٌ** بكسر الحاء معناه حرام تقول حجرت على فلان منعته منه بالتّحريم **حِجْرًا مَحْجُورًا**(٢) و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار قالوا هذه أنعامٌ و ذحرث يعني الأنعام و الزّرع الّذي جعلوا لآلهتهم و أوثانهم.

١- الانعام = ٩١
٢- الفرقان = ٢٢

و المراد بالأنعام ما جَعلوه لأوثانهم كما جعلوا الحرث للنفّقة عليها في خدّامها و ما ينوب من أمرها و قيل قرباناً لِلأوثان و فى قوله: **بِزَعْمِهِمْ** إشارة الى أنّهم فعلوا ذلك بغير حجّةٍ بلا بيّنةٍ و لا برهان.

وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللّٰهِ عَلَيْهَا ٱفْـتِرٰآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ

قيل المراد بالأنعام الّتي ذكرت ثانياً هي السّائبة و البحيرة و الحام و هو الفحل الّذي يخلونه و يقولون، حمى ظهره.

و أمّا الّتي ذكرت ثالثاً، فقيل فيه قولان:

أحدهما: الّتي إذا ولدوها أو ذبحوها أو ركبوها لم يذكروا إسم اللّه عليها.

الثّاني: هي الّتي لا يحجّبون عليها، و قوله: **ٱفْتِرٰآءً** أي كذباً، فهو منصوب على المفعول له و قيل أي يفترون إفتراءً و إنتصابه لكونه مصدراً و كيف كان فقد ذكر اللّه تعالىٰ نوعاً آخر من جهالتهم و ذلك لأنّهم حرَّموا أنعاماً و حرثاً و جعلوها لأصنامهم و قالوا لا يطعمها إلاّ من نشاء، و هم خدّام الأصنام فبيَّن اللّه تعالى أنّ هذا تحَّكمٌ لم يرد به شرع و لهذا قال بزعمهم الى آخر الآية و حيث أنّ هذه التّقسيمات إبتدعوها و إلتزموها من عند أنفسهم على جهة الفرية و الكذب قال تعالىٰ فيهم ما قال وحَكم عليهم بأنّهم إفتروا عليه إفتراءً واللّه بريءٌ منه و ما كان لغير اللّه أن يحلّل أو يحرّم علىٰ العباد ما لم يأذن به لأنّه يوجب العقاب و لذلك قال: **سَيَجْزِيهِمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** يوم القيامة بسبب هذا الإفتراء القبيح و هكذا حال بعض النّاس الّذين يحلّون و يحرّمون علىٰ أنفسهم وعلىٰ النّاس بأهوائهم أو تقليد بعض المصنفين من أوليائهم و المنتحلين لمذاهبهم و هم يجهلون على إدّعائهم للعلم والدّين أنّهم يتّبعون بذلك المشركين.

وَ قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَ مُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا

هذا قسمٌ آخر من جهالاتهم و خرافاتهم من أحكامهم السّخيفة الّتي إبتدعوها من عند أنفسهم من التّحليل و التّحريم فقالوا: **مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ** من اللّبن و غيره و قال صاحب الكشّاف كانوا يفترون في أجنّة البحائر و السّوائب ما ولد منها حيّاً فهو خالص لذكورنا و لا تأكل منه الإناث و ما ولد ميتاً إشترك فيه الذّكور و الإناث قال بعض المفسّرين أنّ المراد بما في بطونها، هو الأجنّة، و أمّا اللّبن فهو في الضَّرع لا في البَطن إلاّ بمجازٍ لعبيد.

و قال الطّبري اللّفظ يعمّ الأجنّة و اللّبن، و الحقّ أنّ المراد به الجميع إذ لا دليل على التّخصيص و ما قيل أنّ اللّبن في الضَّرع لا في البَطن ففيه أنّ البطون يقابل الظّهور، و معناه ما ليس بظاهر سواء كان في الضّرع أم في البطن فأنّ ما في الضّرع يطلق عليه البطن لعدم ظهوره ثمّ أنّهم قالوا أنّ المراد بالأزواج مطلق الإناث فيشتمل البنات أيضاً، قال في التّبيان **وَ مُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا** الإناث و بناتهم و قال بعضهم أنّه يختصّ بالزّوجات و الأولى عموم النّساء تفضيلاً للذّكور على الإناث انتهىٰ كلامه.

أقول لا نعلم وجه العموم و ذلك لأنّ الأزواج لا تطلق على البنات والآية مصّرحة بتحريم ما في بطون الأنعام على الأزواج و هو ظاهر لا خفاء فيه ولو كان الأمر كما ذكروه لقال تعالىٰ على أزواجنا و بناتنا و حيث لم يقل ذلك فالتّحريم مختصٌّ بالأزواج.

و أمّا قوله: **خَالِصَةٌ** فقيل أنّ التّاء فيها للمبالغة، كالعّلامة والرّواية.

و قال بعضهم أنّها على تأنيث المصدر كالعاقبة و العافية و منه قوله تعالىٰ: **بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ**(١).

١-ص = ٤٦

و القول الثّالث، أنّها لتأنيث ما في بطونها من الأنعام**وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ** أي و أن كان جنين الأنعام ميتة فالذّكور و الإناث فيه سواء، و قوله: **مَيْتَةً** قرينة علىٰ أنّ المراد بما في بطون الأنعام هو الأجنّة دون اللّبن و ذلك لعدم صدق الميتة على اللّبن **سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** أي سيجزيهم اللّه جزاء وصفهم فحذف المضاف و أقيم المضاف اليه مقامه و قوله: **حَكِيمٌ عَلِيمٌ** معناه أنّه تعالى حكيم فيما يفعل بهم من العقاب آجلاً و إمهالهم عاجلاً، عليمٌ، بما يفعلون لا يخفىٰ عليه شيءٌ منها، و قد ذمّهم اللّه في الآية من وجوهٍ.

أحدهما: ذبحهم الأنعام بغير إذن اللّه.

ثانيها: أكلهم الأنعام على إدّعاء التذّكية إفتراءً على اللّه.

ثالثها: تحليلهم للذّكور و تحريمهم علىٰ الإناث علىٰ خلاف حكم اللّه.

رابعها: تسويتهم بينهم في الميتة من عند أنفسهم من غير رجوعٍ الى سمعٍ موثوق.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

قرأ إبن كثير و إبن عامر، **قتّلوا** بتشدّيد التّاء و الباقون بالتّخفيف.

إعلم أنّ هذه الآية نزلت في أهل الجاهلّية الّذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السّباء و الفاقة روي الطّبري بأسناده عن قتادة أنّه قال في هذه الأية، هذا صنيع أهل الجاهلّية كان أحدهم يقتل إبنته مخافة السّباء و الفاقة و يغذوا كلبه و قد ذكر في المقام أُموراً.

أحدهما: أنّه تعالىٰ حَكَم عَليهم بالخُسران.

قال الرّاغب في المفردات الخسر و الخسران إنتقاص رأس المال و يُنسب ذلك الىٰ الإنسان فيقال خسر فلان، و الى الفعل فيقال خسرت تجارته و

يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال و الجاه في الدّنيا و هو الأكثر وفي المقتنيات النَّفيسة كالصّحة و السّلامة و العقل و الإيمان و الثّواب انتهىٰ.

إذا عرفت هذا فنقول، قد حكم اللّه تعالى عليهم بالخسران في الدّنـيا و الآخرة.

أمّا الخسران في الدّنيا لأنّهم قتلوا أولادهم و حرَّموا على أنفسهم ما رزقهم اللّه و أحلَّ لهم من النِّعم و ذلك لأنّ المال و البنون زينة الحياة الدّنيا فمن حرم منهما فقد خسر فيها خسراناً مبيناً.

و أمّا الخسران في الأخرة فلأنّهم إفتروا على اللّه وبذلك **قَدْ ضَلُّوا وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ** و هذا هو الخسران في الآخرة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَوْمَ تَقُومُ ٱلسّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **خَسِرَ ٱلدُّنْيٰا وَ ٱلْاٰخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرٰانُ ٱلْمُبِينُ**(٤) والأيات كثيرة.

وأعلم أنّ قوله: **سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** نصب على أنّه مفعول له و يجوز النّصب على المصدر و تقديره سفهوا بما فعلوه سفهاً خوفاً من الفقر و هرباً من العار و السَّفه خفّة الحلم بالعجلة الى ما لا ينبغي أن يعجل اليه و أصله الخِّفة و ضدّ السَّفيه الحليم، و الخسران في الأصل هلاك رأس المال.

١- الجاثية = ٢٧ ٢- هُود = ٢١

٣- الأنعام = ٢٠ ٤- الحَج = ١١

وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْشَأَ جَنَّٰتٍ مَعْرُوشَٰتٍ وَ غَيْرَ
مَعْرُوشَٰتٍ وَ ٱلنَّخْلَ وَ ٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَ
ٱلزَّيْتُونَ وَ ٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَ ءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَ لَا
تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَ مِنَ
ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَ فَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَ
لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ
﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَ مِنَ
ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا
ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِنْ
كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَ مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَ مِنَ
ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا
ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ
إِذْ وَصَّيٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَآ أَجِدُ فِي مَآ
أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَنْ
يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُۥ
رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَ
عَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ
ٱلْبَقَرِ وَ ٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا

حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ
بِعَظْمٍ ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنّٰا
لَصٰادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

◁ اللّغة

أَنْشَأَ الإنشاء إيجاد الشّيئ و ترتيبه و أكثر ما يقال ذلك في الحيوان قاله الرّاغب في المفردات.

جَنّٰاتٍ بفتح الجيم جمع جَنّة، و الجنّة كلّ بستانٍ ذي شجرٍ يستتر بأشجاره الأرض.

مَعْرُوشٰاتٍ العرش بفتح العين في الأصل شيئ مسقّف و جمعه عروش يقال لذلك المعرَّش.

حَصٰادِهِ بفتح الحاء وكسرها لغتان و الحصد في الأصل قطع الزّرع.

وَ لاٰ تُسْرِفُوٓا السَّرف تجاوز الحدّ في كلّ فعلٍ يفعله الإنسان و أن كان ذلك في الإنفاق أشهر.

حَمُولَةً بفتح الحاء و ضمّ الميم قيل هي كلّ ما حمل من الأبل و البقر و الخيل و البغال و الحمير، و قيل ما حمل من البقر و الابل فقط و قيل هي كبار الأبل.

وَ فَرْشًا الفرش الغنم و قيل الصّغار من الأبل ٱلضَّأن الغنم ذوات الأصواف و الأوبار.

وٱلْمَعْزِ بفتح الميم و سكون العين و الزّآء، الغنم ذاوت الأشعار و الأذناب القصار.

ٱلضَّأْنِ بالفارسية، «ميش» و المعز «بز»، والمراد بها جنسهما فيشمل الذّكر و الأنثىٰ.

مَسْفُوحًا أي مصبوباً يقال سفحت الدّم إذا صببته و منه السّفاح الزّناء، لصَّب الماء و الصَّب الإراقة.

ظُفُرٍ أي ذو مخالب، و قيل أنّه كلّ ما ليس بمنفرج الأصابع كالأبل و النّعام.

◁ الإعراب

مُخْتَلِفًا حال مقدّرة لأنّ النَّخل و الزَّرع وقت خروجه لا أكل فيه حتّى يكون مختلفاً أو متّفقاً و يجوز أن يكون في الكلام حذف مضاف تقديره ثمر النَّخل و حبّ الزّرع و عليه فتكون الحال مقارنة مُتَشَٰبِهًا حال أيضاً حَمُولَةً وَ فَرْشًا معطوف علىٰ جنّات أي و أنشأ من الأنعام حمولة ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ في نصبه وجوه:

أحدها: أنّه معطوف على جنّات أي وأنشأ ثمانية أزواجٍ و حذف الفعل و حرف العطف و هو ضعيف.

الثّانى: أنّ تقديره كلوا ثمانية أزواج.

الثّالث: هو منصوب بكلوا تقديره كُلوا ممّا رزقكم ثمانية أزواج.

الرّابع: أنّ بدل من حمولةً و فرشاً.

الخامس: أنّه حال تقديره مختلفة أو متعدّدة.

مِنَ ٱلضَّأْنِ بسكون الهَمزة و فتحها لغتان و ٱثْنَيْنِ بدل من ثمانية وَٱلْمَعْزِ بفتح العين و سكونها لُغتان ءَآلذَّ كَرَيْنِ منصوب و العامل فيه، حرَّم وكذلك أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أي أم حَّرم الأثنين أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ أم منقطعة أي بل أكنتم إِذْ معمول شهداء يَطْعَمُهُ في موضع جرٍّ صفة لطاعم إِلَّآ أَنْ يَكُونَ إستثناء من الجنس و موضعه نصب أَوْ فِسْقًا عطف علىٰ لحم الخنزير ذِى ظُفُرٍ الجمهور على ضمّ الظّاء و الفاء و يُقرأ بإسكان الفاء و يقرأ بكسر الظّاء و الإسكان وَمِنَ ٱلْبَقَرِ معطوف على كلّ أَوِ ٱلْحَوَايَآ في موضع نصب عطفاً علىٰ، ما، قيل هو معطوف على الشّحوم فتكون محرّمة أيضاً ذَٰلِكَ في موضع نصب والعامل، جزيناهم، و قيل مبتدأ، تقديره جزيناهموه، و قيل هو خبر المحذوف أي الأمر ذلك.

◁ التّفسير

وَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْشَأَ جَنَّٰتٍ مَعْرُوشَٰتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَ ٱلنَّخْلَ وَ ٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَ ٱلزَّيْتُونَ وَ ٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ

لمّا أخبر اللّه تعالى فيما مضى من الأيات غير هؤلاء الكّفار أنّهم إبتدعوا من عند أنفسهم و إفتروا به على اللّه أي نسبوه اليه و شرّعوا من الدّين ما لم يأذن اللّه فيه عقَّب ذلك بأنّه الخالق لجميع الأشياء لا غيره فلا يجوز إضافة شئ منها الى غيره من الأوثان و غيرها و إذا كان اللّه تعالىٰ هو الخالق لها فتحليلها و تحريمها لا يكون إلاّ بإذنه فقال، هو الّذي أنشأ جنّات معروشات و غير معروشات، أي أنّ اللّه تعالى هو الّذي أوجد الأشياء إبتداءً لا علىٰ مثالٍ سبق، و هو كالإبتداع و المعنى أنّه أوجد البساتين الّتي يحفّها الشّجر من النّخل و غيره.

و إختلفوا في قوله: **مَعْرُوشَٰتٍ** على قولين:

أحدهما: ما عن إبن عبّاس و السُّدي و هو أنّ المعروشات ما عرش النّاس من الكروم ونحوها و هو رفع بعض أغصانها علىٰ بعضٍ، و غير معروشات ما يكون من قبل نفسه في البراري والجبال.

الثّاني: قال أبوعلّي، يعرشه أي يَرفع له خطائر كالحائط و أصله الرّفع ومنه قوله تعالىٰ: **خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**(١) يعني علىٰ أعاليها و ما إرتفع منها لم يندك فيستوي بالأرض و منه العرش للسّرير لإرتفاعه.

و أمّا قوله: **وَ ٱلنَّخْلَ وَ ٱلزَّرْعَ** معناه و أنشأ النَّخل و الزّرع بحكم العطف مختلفاً، أكله، أي طعمه و أنّما نصب مختلفا على الحال و المفروض أنّه يؤكل

١- البقرة = ٢٥٩

بعد ذلك بزمانٍ لأنّ المعنى ثمره الّذي يصلح أن يؤكل منه أو أنّه من قبيل قولهم مررت برجلٍ معه صقر صائداً به غداً أي مقدراً الصَّيد به غداً، و الزيّتون و الرُّمان أي أنشاهما أيضاً، متشابهاً و غير متشابه معناه متماثلاً و غير متماثلٍ أو متشابهاً في النظّر و غيرِ متشابهٍ في الطَّعم بل الطَّعم مختلف هكذا قيل و قوله: **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ** قالوا الأمر للإباحة و قيل أنّ المراد جواز الأكل من ثمره و إن كان فيه حقّ للفقراء و الى ذلك أشار بقوله: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** أي الزّكاة العشر أو نصف العشر و قيل المراد بالحقّ ما ينشر ممّا يعطي المساكين قال في التّبيان بعد نقله ذلك و روي أصحابنا أنّه الضّغث بعد الضّغث و الحفنة بعد الحفنة و قيل أنّ الآية منسوخة بفرض العشر و نصف العُشر قالوا لأنّ الزّكاة يوم الحصاد.

ثانياً: أنّ الآية مكيّة و فرض الزّكاة نزل بالمدينة.

ثالثاً: لما روي بأنّ فرض الزّكاة نسخ كلّ صدقة، قالوا الطّبري في تفسيره إختلف أهل التّأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم هذا أمرٌ من اللّه بإيتاء الصَّدقة المفروضة من الثّمر و الحبّ ثمّ روي بأسناده عن الحسن في قوله تعالىٰ: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال الزّكاة و بأسناده عن أنس بن مالك يقول و آتوا حقّه يوم حصاده، قال الزّكاة المفروضة، بأسناده عن إبن عبّاس في قوله: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال العشر و نصف العُشر و بأسناده عن إبن عبّاس عن أبيه قال و آتوا حقّه يوم حصاده قال الزّكاة.

و بأسناده عن إبن وهب قال قال إبن زيد في قوله: **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال كل منه و اذا حصدتَه فآت حقَّه و حقَّه عشوره.

و بأسناده عن عطاء في قوله: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قال القبضة من الطّعام و أمثال ذلك ممّا ذكره في تفسيره.

و قال الرّازي في تفسير قوله: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** ثلاثة أقوال:

الأوّل: قال إبن عبّاس في رواية عطاء يريد به العشر فيما سقت السّماء و نصف العشر فيما سقي بالدّواليب.

القول الثّاني: أنّ هذا حقّ في المال سوى الزّكاة.

القول الثّالث: أنّ هذا كان قبل وجوب الزّكاة فلّما فرضت الزّكاة نسخ و هذا قول سعيد بن جُبير والأصح قول الأوّل و الدّليل عليه أنّ قوله تعالى: **وَ آتُوا حَقَّهُ** أنّما يحسن ذكره لو كان ذلك الحقّ معلوماً قبل ورود هذه الآية لئلا تبقى هذه الآية مُجملة و قد قال عليه السلام ليس في المال حقّ سوىٰ الزّكاة فوَجب أن يكون المراد بهذا الحقّ حقّ الزّكاة.

ثمّ قال البحث الثّالث قوله تعالىٰ: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** بعد ذكر الأنواع الخمسة و هو العنب و النّخل و الزّرع و الزّيتون و الرّمان، يدّل علىٰ وجوب الزّكاة في الكّل و هذا يقتضي وجوب الزّكاة في الثّمار كما كان يقوله أبوحنيفة الىٰ آخر ما قال انتهىٰ.

أقول ما ذكره لا يرجع الىٰ مُحصّل و بهذه الإستحسانات والتّخريجات العقلّية أو العرفية لا يمكن الحكم بوجوب شئ أو تحريمه فأنّ الحكم بالوجوب يحتاج الى النّص و حيث أنّ قوله: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** مجمل من هذه الجهة فلابدّ لنا في تفسيره من الرّجوع الىٰ أهل البيت الّذين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طرّهم تطهيراً و جعلهم الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم عدلاً للكتاب حيث قال: **إنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي** .

فنقول في تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد اللّه عليه السلام عن أبيه عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يكره أن يصرم النّخل باللّيل و أن يحصد الزّرع باللّيل لأنّ اللّه يقول: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** قيل يا نبّي اللّه و ما حقّه قال صلى الله عليه وآله وسلم ناول منه المسكين و السّائل انتهى.

و عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السلام في قوله: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**

فسمّاه اللّه حقّاً قلت و ما حقّه يوم حصاده قال عليه السلام الضّغث و تناوله من حضرك من أهل الخاصّة انتهى.

و عن أبي الجارود قال قال أبو جعفر عليه السلام **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** الضّغث تناوله من المكان بعد المكان تعطي المسكين انتهىٰ.

و عن علّى إبن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** حصاده قال عليه السلام هذا من الصّدّقة تعطي المسكين القبضة بعد القبضة و من الجذاذ الحفنة بعد الحفنة حتّىٰ يفرغ و يعطي الحارث أجراً معلوماً فيترك من النّخل معافارة و أم جعرور و يترك للحارسين الخبر انتهىٰ.

و بالأسناد عن أبي عبد اللّه قال لا تصرم باللّيل و لا تحصد باللّيل و لا تضح باللّيل و لا تبذر باللّيل فأنّك أن تفعل لم يأتك القانع و المعتر الّذي يمرّ بك فيسألك و أن حصدت باللّيل لم يأتك بالسؤّال و هو قول اللّه عزّ وجلّ: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** عند الحصاد يعني القبضة بعد القبضة إذا حصدته فإذا خرج فالحفنة بعد الحفنة و كذلك عند الصرام وكذلك البذر لا تبذر باللّيل لأنّك تعطي في البذر كما تعطي في الحصاد انتهىٰ.

وَ لَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ السَّرف تجاوز الحدّ في كلّ فعلٍ يَفعله الإنسان و أن كان ذلك في الإنفاق أشهر و عليه فالمعنى لا تجاوزوا الحدّ في الإنفاق.

فقد روي عن إبن أبي نصر عن أبي الحسن عليه السلام قال سألته عن قول اللّه: **وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** و لا تسرفوا قال عليه السلام كان أبي يقول من الإسراف في الحصاد و الجذاذان يتصدّق الرّجل بكفيّه جميعاً وكان أبي إذا حضر شيئاً من هذا فرأى أحداً من غلمانه تصدّق بكفّيه صاح به إعط بيدٍ واحدة، القبضة و الضّغث من السُّنبل انتهىٰ.

و عن علّي إبن إبراهيم بأسناده عن هشام بن المثنى قال سأل رجل أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ: **وَ ءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ** فقال عليه السلام: كان فلان بن فلان الأنصاري سماه وكان له حرث وكان إذا أخذ يتصدّق به و يبقى هو وعياله بغير شئ فجعل اللّه عزّ و جلّ ذلك سرفاً انتهىٰ.

وَ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَ فَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أي و أنشأ من الأنعام حمولةً و فرشاً، قيل في معناه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنّ المراد بالحمولة كبار الأبل و بالفرش صغارها و عليه فالمعنى هو الّذي أنشألكم من الأنعام كبار الأبل و صغارها.

الثّاني: أنّ المراد من الحمولة ما حمل من الأبل و البقر و من الفرش الغنم.

الثّالث: أنّ الحمولة كلّ ما حمل من الأبل والبقر و الخيل و البغال و الحمير و الفرش الغنم.

أقول لا يظهر المعنى إلاّ بعد معرفة الحمولة و الفرش، فنقول، الحمولة بضمّ الحاء.

هي الأحمال و هى الحمول قالوا لا واحد لها من لفظها كالرّكوبة و الجزورة وكيف كانت هي ما حمل عليه من الأبل و البقر و الخيل و البغال و الحمير و إن شئت قلت كلّ حيوان يحمل عليه و قال بعضهم كلّ ما كان معدّاً للحمل من الحيوانات ممّا يحمل الأثقال، و أمّا الفرش فهو من الحيوان ما يفرش للذّبح أو ينسخ من وبره و صوفه و شعره للفرش كالأغنام و عليه فقوله: **وَ فَرْشًا** من قبيل ذكر المسبّب و إرادة السبب لأنّ الغنم سبب للفرش.

و أمّا إذا قلنا أنّ المراد به ما يفرش للذّبح فالإستعمال حقيقة كما لا يخفى إذا عرفت هذا فقوله: **فَرْشًا** ليس المراد به صغار الأبل كما ذهب اليه بعض

المفسّرين و على ما ذكرناه فمعنىٰ الكلام هو أنّ اللّه تعالى أنشأ لكم من الأنعام ما يحمل أثقالكم و يصلح للركوب، و ما يكون سبباً و وسيلةً للفرش بصوفه و وبره جلده و قال الرّاغب في المفردات، الفرش ما يفرش من الأنعام، أي يركب قال تعالىٰ: **حَمُولَةً وَ فَرْشًا** و عليه فالمعنىٰ و من الأنعام ما يحمل عليه و ما يركب، و لقائلٍ أن يقول كل حيوان يحمل عليه يصلح للّركوب أيضاً فلا وجه لذكر الفرش بعد الحمولة و الحقّ ما ذكرناه **كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ** الأمر للإباحة أي يباح لكم الأكل ممّا رزقكم اللّه فلا تحرّموا شيئاً على أنفسكم من عند أنفسكم **وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوٰتِ ٱلشَّيْطَانِ خُطوات**، بضمّ الخاء و الطاء، و ضمّ الخاء و سكون الطّاء و ضمّ الخاء و فتح الطّاء جمع خُطوة و هى ما يتخطّى به، و المعنى لا تتّبعوا ما يتخطّى بكم الشّيطان اليه من تحليل الى تحريم تحريم الى تحليلٍ و ذلك و لأنّه أي الشّيطان **إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** و متابعة العدُّو دليل على حماقة التّابع و هو واضح.

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَ مِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ

قرأ إبن كثير وبعض من تبعه، **المَعز**، بفتح العين و الباقون بسكونها و هو الأشهر وكذلك الكلام في الضّأن فمنهم من قال بسكون الهمزة و منهم من قال بفتحها و يقال ضئين أيضاً وكلاهما إسم جمع لضائنة و ضائن ولذلك قال أبو علّي من قرأ **المَعَز** بفتح العين أراد الجمع بدلالة قوله: **مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ** ولو كان واحداً لم يسغ فيه هذا، ثمّ أنّ نصب إثنين على تقدير، و أنشأ ثمانية أزواج، و أنشأ من الضّان إثنين و من المعز إثنين، قالوا ينظر معز جمع ماعِز، خدم جمع خادم و طلب جمع طالب و حرس جمع حارس و قيل هو جمع على غير واحدٍ و قوله ثمانية أزواج يريد ثمانية أفراد لأنّ كلّ واحدٍ من ذلك يسّمىٰ زوجاً، و الأنثىٰ زوج قالوا سمّي بذلك لأنّه لا يكون زوج وإلاّ و معه آخر له مثل إسمه فلّما دلّ على الإثنين من أقرب الوجوه وقع علىٰ طريقه قال لبيد:

مـن كـلّ مـحفوفٍ يـظلّ عَـصّيه　　　زوج عــليه كــلّة وقــرامـها

و قوله: **مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ** يعني ذكر و أنثى، فالضّان الغنم ذوات الأصواف و الأوبار، و المعز الغنم ذوات الأشعار و الأذناب القصار و واحد الضّان ضائن و الأنثى ضائنة و قيل هو الجمع لا واحد له، ثّم أنّ المراد بقوله: **مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ** أهلّي و وحّشي وكذلك المعز و البقر **وَ مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ** العرابـي و النجاتي و سيأتي الكلام فيه، قيل في وجه تخصيص هذه الثّمانية أزواج، لأنّها جميع الأنعام الّتي كانوا يحّرمون منها ما يحّرفونه، و تقدير الآية هو الّذي أنشأ لكم كذا وكذا و ثمانية أزواج و لأجل ذلك قالوا، ثمانية أزواج منصوب لِكونها بدلاً من حمولة و فرشاً، قال بعض المفسّرين لمّا قام الإسلام و ثبتت الأحكام جادلوا النّبي ﷺ وكان خطيب المشركين مالك بن عُوف بن أبي الأحوص الجشمي فقال بلغنا أنّك تحّل أشياء فقال ﷺ له أنّكم قد حرّمتم.

حرّمتم أشياء على غير أصلٍ و إنّما خلق اللّه هذه الأزواج الثّمانية للأكل و الإنتفاع بها فمن أين جاء هذا التّحريم أمن قِبل الذّكر أمّ من قبل الانثى فسكت مالك بن عوف و تحيّر فلو علّل بالذّكورة وجب أن يحرم الذّكر أو بـالأنوثة فكذلك أو بـإشتمال الرحّم وجب أن يـحرما لإشـتمالها عـليهما تـخصيص التّحريم بالولد الخامس أو السّابع أو ببعضٍ دون بعضٍ فلا وجه له والهَمزَة في قوله: **قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ** ألخ للـتّوبيخ الإستفهام فـي مـعنىٰ الإنكار، أي أجائكم التّحريم فيما حرّمتم من السّائبة و البحيرة و الوصـيلة و الحام، من الذّكرين أم من الأنثين أمّا إشتملت عليه أرحام الأنثيين، ثمّ قـال: **نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُـنْتُمْ صَـادِقِينَ** أي أخـبروني بـه أن كـنتم صـادقين فـي تحريمكم هذه، و إنّما قال بعلمٍ، لأنّ إخبارهم كان بالإفتراء، و هو غير مسموعٍ عقلاً و شرعاً.

وَ مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَ مِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ

هذا من التّفصيل بعد الإجمال، و ذلك لأنّ قوله: **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ذكر منها أربعة أزواج في الآية السّابقة و هى إثنان من الضّان و إثنان من المعز، و قلنا أنّ المراد بالأزواج الأفراد، فبقى أربعة أزواج ذكرها بقوله: **وَ مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَ مِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ** فتمّت الثّمانية و الكلام فيها الكلام فيما قبلها بلا زيادةٍ و نقيصةٍ و محصّل الكلام في المجموع، قل لهم يا محمّد من حرّم هذه الأنعام عليكم **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّيٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا** أم، معادلة لقوله: **ءَآلذَّكَرَيْنِ** كما تقول أزيدٌ قام أم عمروٌ.

أعلم أنّ طريق العلم بالأشياء منحصر في قسمين:

أحدهما: العقل.

ثانيهما: الحسّ.

فإذا سقط العقل و الحِّس سقط العلم قطعاً، و حيث أنّ اللّه تعالى احتّج عليهم بالعقل في أوّل الآية إحتجّ عليهم بالحسّ و المشاهدة في هذا المقام و قال لهم **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّيٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا** و حيث لم يكونوا شهداء قطعاً فسقط عنهم دليل الحسّ و العيان كما سقط عنهم دليل العقل و بذلك سقط مذهبهم و هو المطلوب.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ

يعني فمن أظلم على نفسه ممّن يكذب و يفتري على اللّه ليضلّ النّاس عن طريق الهدىٰ بتحليل ما حرّم اللّه و تحريم ما أحلّ اللّه و إضافته اليه تعالى فيقول هذا ممّا أحلّه اللّه و هذا ممّا حرّمه المعلوم أنّ القاصد لم يقصد به الىٰ إضلال النّاس و قوله: **بِغَيْرِ عِلْمٍ** معناه أنّه لا يعلم أنّه حقٌّ أو باطلٌ، و لا شكّ أنّه

ظلمٌ عظيم و أيّ ظلم أفحش و أقبح من إضلال النّاس، **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** أي لا يهديهم الىٰ الثّواب لأنّهم مستحقّون للعقاب الدائم بكفرهم و ضلالهم **قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ** أي قل يا محمّد لهٰؤلاء الكفّار الّذين يقولون في الأشياء من عند أنفسهم هذا حلال و هذا حرامٌ **لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ** منه تعالىٰ محرّماً على طاعمٍ يطعمه، و آكلٍ يأكله من لحوم الحيوانات) إلاّ ثلاثة أشياءٍ:

أحدها: أن يكون ميتة و المراد بها كلّ حيوانٍ فارقته الحياة بغير ذكوةٍ شرّعية فيشمل جميع ما تقدّم في الآية السّابقة و غيرها مّما مضىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَ ٱلدَّمُ وَ لَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَ مَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَ ٱلْمُنْخَنِقَةُ وَ ٱلْمَوْقُوذَةُ وَ ٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَ ٱلنَّطِيحَةُ وَ مَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَ أَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ**[1] و قد مرّ الكلام فيها هناك.

ثانيها: الدّم إذاكان مسفوحاً و المراد بالمسفوح غير المتخلّف منه باللّحم و العروق ممّا يشقّ تخليصه.

ثالثها: لحم الخنزير بحرّياً كان أو برّياً و هو معلوم و على هذه الأشياء إجماع الأمّة.

إن قُلت هنا محرّمات كثيرة غير ما ذكر في الآية فما وجه الحصر قلت.

مقتضى سياق الآية أنّه ردٌّ على المشركين من العرب حيث حرّموا علىٰ أنفسهم أشياء لم تكن محرّمة شَرعاً فالحصر إضافّي و قال بعضهم أنّ هذه الآية ليست آخر الأيات نزولاً فمن الجائز أن يكون هذا في مبدأ الأمر ثمّ حرّم بعد ذلك أشياء آخر لأنّه قد يذكر تحريم الأشياء شيئاً فشيئاً توطيناً للمعكّفين علىٰ

١- المائدة = ٣

القبول كما في تحريم الخمر و أمّا قوله: **فَإِنَّهُ رِجْسٌ** فهو تعليل للحكم كأنّه قيل ما وجه التّحريم فيها، فقال لأنّها رجس، و **الرِّجس** بكسر الرّاء الشّئ القذر على أربعة أوجه:

إمّا من حيث الطّبع، و أمّا من جهة العقل، و أمّا من جهة الشّرع و أمّا من كلّ ذلك كالميتة فأنّها تعاف طبعاً و عقلاً و شرعاً، و أمّا الرّجس من جهة الشّرعفالخمر و الميسر و قيل أنّ ذلك من جهة العقل أيضاً لقوله تعالىٰ: **وَ إِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**(١) وكلّ ما يوفي إثمه على نفعه فالعقل يقضي بِقبحه و الإجتناب عنه، و أمّا الرِّجس من جهة العقل، فكا الكفر لأنّ الشّرك باللّه من أقبح الأشياء عقلا.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ**(٣) وأمثال ذلك من الأيات.

و أمّا الرِّجس من حيث الطّبع فهو معلوم لأنّ القاذورات كلّها ممّا يستكرهه الطّبع و يمكن أن يكون جميع ما ذكر في الآية من الأرجاس الشّرعية وكيف كان لا شكّ في كون الميتة و أخواتها أرجاساً وكلّ ما كان كذلك فهو حرام فيقال هذا رجس، وكلّ رجسٍ حرام، فهذا حرام.

أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قوله: **أَوْ فِسْقًا** عطف على قوله: **أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ** فلذلك نصب و المراد بالفسق هو ما أهلّ لغير اللّه به، يعني ما لم يذكر إسم اللّه عليه أو تذكر الأوثان و الأصنام و أنّما سمّي ما ذكر عليه إسم الوثن فسقاً لخروجه عن أمر اللّه هكذا

١- البقرة = ٢١٩ ٢- التّوبة = ١٢٥
٣- التّوبة = ٩٥

قالوا: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ قيل في معناه، أي غير طالبٍ بأكله التّلذّذ، و قيل أي غير قاصدٍ لتحليل ما حرَّم اللّه فأنّ ربّك غفورٌ رحيمٌ، في حقّ المضطرّ.

و محصّل الكلام أنّه يجوز الأكل من المَيتة وأخواتها لِلمضطّر اذا كان غير باغٍ و لا عادٍ لا مطلقاً و توضيح المقال يستدعي التكلّم فيه فنقول:

المراد بالمضّطر من يخاف التّلف على نفسه لو لم يتناول ذلك و كذا لو خاف المرض بالتّرك أو عسر برءه أو خشي الضّعف المؤدّي الىٰ التّخلف عن الرّفقة مع ظهوره إمارة العطب أو الضّعف عن الرّكوب المؤدّي الى خوف التّلف و تفسير الإضطرار بهذا المعنى هو المشهور بين الأصحاب و يدّل عليه إطلاق الأيات و عموم كثير من الرّوايات الدّالة علىٰ أنّ الضّرورات تبيح المحظورات و عموم ما جعل عليكم في الدّين من حرج و الشّريعة السّمحة السّهلة و قيل هو خوف تلف النّفس و اليه ذهب الشّيخ في النّهاية و تبعه القاضي وإبن إدريس وإختاره العلامّة فى المختلف و كيف كان فالظّاهر أنّه يقتصر في هذه الحال علىٰ أقلّ ما تندفع به الضّرورة لأنّه المتّيقن في الرُّخصة و ما عداه داخل في الممنوع منه و يدّل عليه بعض الأخبار.

و أمّا الباغي فقد ظهر من الأخبار أنّ المراد به هو الذّي يخرج على الإمام العادل والذّي يخرج لطلب الصّيد لهواً أو بطراً.

و العادي هو الّذي يخرج لقطع الطّريق أو لسرّقة و فى حكم ذلك من خرج طلباً للعداوة و الشّحناء و القتل و النَّهب من المسلمين لأنّه مُتجانف للإثم و مائلٌ و منحرفٌ اليه، ثمّ أنّه لا يجوز للمضطّر التّرك اذا أدّى ذلك الىٰ هلاك النّفس لأنّه إلقاء لها بالتّهلكة المنهي عنه ولما رواه في الفقيه عن الصّادق عليه السلام أنّه قال من إضّطر الى الميتة و الدّم و لحم الخنزير فلم يأكل شيئاً من ذلك حتّى يموت فهو كافر.

قال في نوادر الحكمة لمحمّد بن أحمد بن يحيى بن عمران الأشعري و يظهر من قوله تعالىٰ: **فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ** أنّه اذاكان باغٍ أو عادٍ فلا رخصة له و هو كذلك لأنّ جواز الأكل مقيّدٌ بالإضطرار لكن لا مطلقاً بل اذاكان المضطّر غير باغٍ و لا عادٍ فقيّد الإضطرار بعدم البغي و العداوة فالمضطّر الباغي و العادي خارج عن الحكم فهو يبقى في الحكم بعدم الرُّخصة المطلوب.

ولو هلك و مات لعموم الأيات و الرّوايات و عليه فلو أكل في هذه الحال من الميتة مثلاًكان عليه إثم الأكل مع إثم عداوته و بغيه هكذا قيل.

و قال بعض المحققين فيه نظر لمخالفته لقوله تعالىٰ: **وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ**(١) و عموم النّهي يشمل الباغي و غيره و لأنّ الإثم المترتّب على إهلاك النّفس أشدَّ من أكل المحرّم فيجب إرتكاب الأسهل و هو الأكل من الميتة **فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** حيث حكم بالرُّخصة ثمّ بالمغفرة، و إعلم أنّه قد إستَّدل قومٌ بهذه الآية على إباحة ما عدا هذه الأشياء المذكورة و هذا ليس بصحيح لأنّ هاهنا محرّمات كثيرة كالسّباع و كلّ ذي مخلِب و غير ذلك من أصناف الحيوانات البّرية و البحرّية.

وَ عَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَ مِنَ ٱلْبَقَرِ وَ ٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّه حرَّم علىٰ اليهود في أيّام موسى كلّ ذي ظفرٍ، و إختلفوا في معناه فقال ابن عبّاس و مجاهد و قتادة و غيرهم أنّه كلّ ما ليس بمنفرج الأصابع كالإبل و النّعام و الأوز و البَّط.

١- البقرة = ١٩٥

و قال أبو علّي يدخل فيه جميع أنواع السّباع و الكلاب و السنانّير و سائر ما يصطاد بظُفره من الطّير.

و قال البلخي هو كلّ ذي مخلبٍ من الطّائر وكلّ ذي حافرٍ من الدّواب ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّه حرّم عليهم شحوم البقر و الغنم و إستثنى من ذلك أي من الشُّحوم ما حَملت ظهورها، أي ما حملته ظهور البَقر و الغنم فأنّه لم يحرم عليهم و أيضاً إستثنى من التّحريم ما على الحوايا، و هى المباعر، و قيل نبات اللّبن.

و قال الجبائي الحوايا الأمعاء الّتي عليها الشَّحم من داخلها، و إستثنىٰ منه أيضاً **مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** و هو علىٰ ما قيل شحم الجنب و الألية لأنّه على العصص ثمّ بيّن اللّه تعالى وجه التّحريم وقال: **ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِبَغْيِهِمْ** أي أنّا حرَّمنا ذلك عليهم عقوبةً عليهم على بغيهم، **وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ** فيما أخبَرنا به من تحريم ذلك على اليهود.

قال الرّازي إختلفوا في كلّ ذي ظفرٍ الذّي حرّمه اللّه تعالىٰ على اليهود و ساق الكلام.

الى أن قال، قال عبد اللّه بن مسلم أنّه كلّ ذي مخلبٍ من الطّير وكلّ ذي حافرٍ من الدّواب ثمّ قال كذلك قال المفسّرون و قال سمّي الحافر ظفراً على الإستعارة.

ثمّ قال الرّازي و أمّا ما حمل الظُّفر على الحافر فبعيدٌ من وجهين:

الأوّل: أنّ الحافر لا يكاد يسمّى ظفراً.

الثّاني: أنّه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال أنّه تعالى حرَّم عليهم كلّ حيوانٍ له حافرٍ و ذلك باطل لأنّ الآية تدّل على أنّ الغنم و البقر مباحان لهم مع حصول الحافر لهما و اذا ثبت هذا فنقول:

وجب حمل الظُفر على المخالب و البراثن لأنّ المخالب ألات الجوارح في الإصطياد و البراثن ألات السّباع في الإصطياد و على هذا التّقدّير يدخل فيه أنواع السّباع و الكلاب و السّنانير و يدخل فيه الطّيور الخ الّتي تصطاد لأنّ هذه الصّفة تعمّ هذه الأجناس اذا ثبت هذا فنقول:

وَ عَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ يفيد تخصيص هذه الحرمة من وجهين:

الأوّل: أنّ قوله: **وَ عَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا** كذا وكذا يفيد الحصر في اللّغة.

الثّاني: أنّه لو كانت هذه الحرمة ثابتة في حقّ الكلّ لم يبق لقوله: **وَ عَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا** فائدة فثبت أنّ تحريم السّباع و ذوي المخلب من الطّير مختصّ باليهود فوجب أن لا تكون محرّمة على المسلمين فصارت هذه الآية دالّة علىٰ حِلّ هذه الحيوانات علىٰ المسلمين و عند هذا نقول ما روي أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم حرّم كلّ ذي ناب من السّباع و ذي مخلبٍ من الطّيوز ضعيف لأنّه خبر واحد علىٰ خلاف كتاب اللّه فوجب أن لا يكون مقبولاً و على هذا التّقدير يقوّي قول مالك في هذه المسألة انتهىٰ كلامه.

وأنا أقول أمّا أوّلاً فلا نسلّم تخصيص ذي الظّفر بما قاله من الحمل على المخالب والبراثن لما ذكرناه من الإختلاف فيه.

ثانياً: لا نسلّم الحصر الذّي إدّعاه، قوله لم يبق له فائدة، نقول فائدته الأخبار عن ثبوت التّحريم لهم و هذا لا ينافي في ثبوته لنا أيضاً فأنّ إثبات شئٍ لشئٍ لا ينفي إثباته لما عداه وبعبارةٍ أخرى لا دليل على الحصر وما ذكره ليس إلاّ مجرّد إستحسانٍ و هو لا يدّل على مدّعاه و عدم الحَصر دليل على عدم الإختصاص و هو معلوم.

ثالثاً: أنّ ما رُوي عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم من النّهي عن أكل كلّ ذي نابٍ فقد إدَّعى القرطبي في تفسيره أنّه روي من طرقٍ متواترة فكيف يقول الرّازي أنّه خبر واحد.

قال القرطبي روي ذلك جماعة من الأئمّة الثّقات.

و العجب منه حيث إستند ما إستخرجه بوهمه و خياله الى مالك و قال على هذا التّقدير يقوّي قول مالك، والذّي حَصَل لنا بعد التَّتَبُع التّام هو خلاف قوله، فأنّ مالك يعتقد عموم النّهي عن أكل ذي نابٍ من السّباع و عموم النّهي ليس إلاّ في الحديث عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم و مَن أراد الوقوف على أقوال العامّة في هذا الباب فعليه بكتاب القرطبي و هو من أعاظم المالّكية.

و أمّا على مذهبنا فلا خلاف في حرمة كلّ ذي نابٍ من السّباع و ذي مخلبٍ من الطّير و لا نحتاج الى نقل الأقوال و الأخبار لعدم الخلاف فيه عندنا المخالف فهنيئاً له أكل الكلاب و السّباع و كلّ ما شاء ممّا لم يذكر في الآية صريحاً و للبحث في ظواهر الكتاب مقام أخر و قد مرَّ شطراً منه فيما مضى و سيأتي تفصيل الكلام فيه.

■

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وٰاسِعَةٍ وَ لاٰ
يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰآءَ ٱللّٰهُ مٰآ أَشْرَكْنٰا وَ لاٰ
اٰبٰآؤُنٰا وَ لاٰحَرَّمْنٰا مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّٰى ذٰاقُوا بَأْسَنٰا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ
عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنٰآ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ
إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلّٰهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبٰالِغَةُ فَلَوْ
شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدٰآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللّٰهَ حَرَّمَ هٰذٰا فَإِنْ شَهِدُوا
فَلاٰ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا
بِاٰيٰاتِنٰا وَ ٱلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

◁ اللّغة

بَأْسُهُ، البُؤس والبَأس والبَأساء الشدّة و المكروه إلاّ أنّ البؤس في الفقر و الحرب أكثر، و البأس و البأساء في النّكاية.

ذٰاقُوا، الذَّوق وجود الطّعم بالفم و أصله فيما يقلّ تناوله فأنّ ما يكثر منه يقال له الأكل و إختير في القرأن لفظ الذَّوق في العذاب.

تَخْرُصُونَ، الخَرص الكذب و حقيقة ذلك أنّ كلّ قولٍ مقولٍ عن ظَنٍ و تخمين يقال له خرص سواء كان مطابقاً للشّئ أو مخالفاً له من حيث أنّ صاحبه لم يقله عن علم.

يَعْدِلُونَ اى يجعلون له عديلاً و قيل يعدلون بأفعاله عنه و ينسبونها الى غيره و قيل يعدلون بعبادتهم عنه تعالىٰ و يصّح أن يكون من قولهم عدل عن الحقّ اذا جار عدُولاً.

◁ الإعراب

فَإِنْ كَذَّبُوكَ شرط وجوابه **فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ** و لا أباءنا، عطف على الضّمير في أشركنا **قُلْ هَلُمَّ** فيه لغتان:

أحدهما: أن تكون بلفظٍ واحد في الواحد و التثنيّة و الجمع و المذّكر و المؤنّث فعلى هذا هي إسم للفعل و بنيت لوقوعها موقع الأمر المبني ومعناها أحضروا شهداءكم.

الثّانية: أنّها تختلف فيقال **هَلُّم هلُمّا و هَلُّموا و هلُّمي و هلممن**، و على هذا فهي فعل و إختلفوا في أصلها فقال البّصريون أصلها ألمم، أي أقصد فأدغمت الميم في الميم و تحرّكت الآم فإستغنى عن همزة الوصل ثمّ حذفت ألف، ها، التّي هي للتّنبيه.

و قال الفرّاء أصلها، هل أم فألقيت حركة الهَمزة على اللاّم و حذفت **ما حَرَّم** ما بمعنى الذّي و قيل هي مصدّرية و فى موضعها وجهان:

أحدهما: هي بدل من الهاء المحذوفة.

الثّانى: أنّها منصوبة على الإغراء.

◁ التّفسير

فَإِنْ كَذَّبُوكَ يا محمّد و المراد بهم اليهود لأنّهم زعموا أنّهم حرّموا الشّروب لأنّ إسرائيل حرَّمها على نفسه فحرّموها إتّباعاً له دون أن يكون اللّه حرَّم ذلك على لسان موسى.

و قال الجبائي أنّه يرجع الى المشركين، و المعنى فأن كذَّبوك يا محمّد في أنّي حرّمتُ ذلك على اليهود على لسان موسى **فَقُلْ** لهم **رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وٰاسِعَةٍ** و لذلك أمهلم مع تكذيبهم بالمؤاخذة عاجلاً قاله الجبائي و قيل أنّه ذكر ذلك ترغيباً لهم في ترك التّكذيب و تزهيداً في فعله **وَ لاٰ يُرَدُّ بَأْسُهُ** و

نكايته **عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ** و ذلك لأنّه لا يقدر أحد من ردّ عقاب اللّه عن العصاة المستحقّين للعقاب مع أنّه ذو رحمةٍ واسعةٍ.

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَ لَآ ءَابَآؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ

أخبر اللّه تعالى نبيّه بأنّهم سيحتّجون و سيتدلون في إقامتهم على شركهم و تحريمهم ما أحلَّ اللّه من الأنعام الّتي تقدّم وصفها بأن يقولوا **لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَ لَآ ءَابَآؤُنَا** لأنّ العبد مقهور تحت قدرته فما شاء اللّه كان و ما لم يشاء لم يكن **وَ لَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** أي ولو شاء اللّه ما حرَّمنا من شيءٍ أيضاً لأنّه أوجد الدّاعي فينا و حيث كان كذلك فالعبد لا ذنب له في فعله و قوله، ولَم يَعلمُوا أنّ هذا أي عدم تخلّف المعلول عن العلّة أنّما يتمّ في المشيّئة التّكوينية أعني بها الإيجاد.

و أمّا الإرادة التّشريعية فإختيار العبد واسطة بين إرادة اللّه و فعل العبد و لذلك كثيراً ما نرى تخلّف المعلول عن علّته و أن شئت قلت الإرادة التّشريعية ليست علّة تامّة لفعل العبد حتّى يقال لو شاء اللّه ما أشركنا مثلاً و لذلك كذّبهم اللّه في قولهم هذا فقال:

كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا

أي كذلك كذَّب الكفّار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مِن قبلهم فقالوا أنّ اللّه أراد منّا ذلك ولو أراد غيره لما فعلناه، و قرأ بعضهم بالتّخفيف أي أنّهم كاذبون كما كذب الذّين من قبلهم على اللّه بمثله و فى قوله: **حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا** أي عقابنا في الأخرة.

و الحاصل أنّهم قالوا ما قالوا في الدّنيا حتّى ماتوا ورأوا العذاب الأليم بكذبهم و إفترائهم على اللّه تعالى و حكم الأمثال واحد و حيث أنّهم قالوا ذلك من غير علمٍ قال تعالىٰ (قل) يا محمّد لهؤلاء المشركين **قُلْ هَلْ عِندَكُم**

مِنْ عِلْمٍ فيما تقولون وتَدَّعُون **فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** كلمة، إن، نافية أي لا تتبّعون إلاّ الظنّ و ما أنتُم إلاّ تخرصون أي تكذبون و تفترون علىٰ اللّه.

قال في التبيان و فى هذه الآية دلالة علىٰ أنّ اللّه تعالى لا يشاء المعاصي و الكفر و تكذيبٌ ظاهر لمن أضاف ذلك الىٰ اللّه مع قيام أدلّة العقل علىٰ أنّه تعالى لا يريد القبيح لأنّ إرادة القبيح قبيحة و هو لا يفعل القبيح و لأنّ هذه صفة نقصٍ فتعالى اللّه عن ذلك علّواً كبيراً انتهى.

أقول وجه الدّلالة هو أنّ اللّه حكم عليهم بالكذب فيما إدَّعوا من إضافة الشّرك الى مشيّئة اللّه أي ليس كذلك بل أنّما أشركوا من عند أنفسهم بسوء سريرتهم وخبث طينتهم و حيث أنّه تعالى نفىٰ الإضافة فالشّرك ليس بمشيّئته و هو المطلوب.

أن قُلت هذا الاستدلال يتمّ بناءً على التّخفيف في، كذب، أي كذبوا في قولهم: **لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا**.

و أمّا على التشدّيد كما هو المشهور بين القرّاء فليس كذلك لأنّ المعنى أنّهم كذَّبوا رسله في الحلال و الحرام و بعبارةٍ أُخرى بناءً علىٰ التشدّيد فالإنكار لا يرجع الى قولهم: **لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا** بل يرجع الى تكذيبهم الرّسول لا ينافي أن يكون كفرهم بمشّيئة اللّه.

قُلت أنّ اللّه تعالىٰ بيَّن كذبهم في هذا القول بقوله: **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** و من المعلوم أنّ تكذيب الصّادق كذب و هو يدّل على الأمرين **قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَيٰكُمْ أَجْمَعِينَ** أي قُل يا محمّد في ردّ إحتجاجهم أنّ اللّه لو شاء منهم الشّرك كما زعموا لما كان للّه الحجّة البالغة الّتي إحتجّ بها على الكافرين اذ المفروض أنّه تعالى شاء منهم الكفر فكيف يعاقبهم عليه يوم القيامة و أنّما تتمّ الحجّة عليهم لو شاء منهم الإيمان ولم يؤمنوا فبعث اللّه رسله مبشّرين و منذرين إتماماً للحجّة لقبح العقاب من غير بيانٍ.

و أمّا قوله: **فَلَوْ شَآءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ** فليس معناه أنّه تعالى لم يشاء منهم الهداية والإيمان بل معناه لو شاء اللّه لَخلقكم كذلك أي غير قادرين على الكفر كما خلق الملائكة، و بعبارةٍ أخرى خلقكم قادرين على الإيمان و الكفر و الطّاعة و العصيان ليعبد إختياراً لا جبراً و هذا ممّا لا كلام فيه لأنّ اللّه قادرٌ على كلّ شئٍ فمن زعم أنّ قوله: **فَلَوْ شَآءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ** يدّل على الجبر تعالى شاء الكفر و العصيان من الكافر و العاصي كما هو مذهب الأشاعرة فقد خرج عن طور العقل و هو كما ترى.

قال الرّازي فلو كان المراد من هذه الآية ما ذكرتم لوقع التّناقض الصّريح في كتاب اللّه فأنّه يوجب أعظم أنواع الطّعن فيه و ذلك أنّه تعالىٰ حكى عن القوم أنّهم قالوا: **لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا** ثمّ ذكر عقيبه كذلك، كذّب الذّين من قبلهم فهذا يدّل على أنّ القوم قالوا لمّا كان الكلّ بمشيّة اللّه تعالىٰ و تقديره كانت التّكلّيف عبثاً فكانت دعوى الأنبياء باطلة و نبوّتهم و رسالتهم باطلة ثمّ أنّه تعالىٰ بيّن أنّ التّمسّك بهذا الطّريق في إبطال النبوّة باطل و ذلك لأنّه إلٰهٌ يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و لا إعتراض عليه لأحدٍ في فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر و مع هذا فيبعث اليه الأنبياء و يأمره بالإيمان و ورود الأمر علىٰ خلاف الإرادة غير ممتنع فالحاصل أنّه تعالى حكى عن الكفّار أنّهم يتمسّكون بمشيّئة اللّه في إبطال نبوّة الأنبياء.

ثمّ انّه تعالى بيَّن أنّ هذا الإستدلال فاسد باطل فأنّه لا يلزم من ثبوت المشيّئة للّه في كلّ الأمور دفع دعوة الأنبياء و على هذا الطّريق فقد سقط هذا الإستدلال بالكلّية و جميع الوجوه الّتي ذكرتموها في التّقبيح و التّهجين عائدة الى تمسّككم بثبوت المشيّئة للّه علىٰ دفع دعوة الأنبياء فيكون الحاصل أنّ هذا الإستدلال باطل و ليس فيه البتّة ما يدّل على أنّ القول بالمشيّئة باطل.

ثمّ قال فأن قالوا هذا العذر أنّما يستقيم اذا قرأنا قوله: **كَذَٰلِكَ كَذَّبَ** بالتشدّيد و أمّا اذا قرأناه بالتّخفيف فأنّه يسقط هذا العذر بالكلّية، فنقول فيه وجهان:

الأوّل: أنّما نمنع صحّة هذا القراءة والدّليل عليه أنّا بيّنا أنّ هذه السُّورة من أوّلها الى أخرها تدّل على قولنا فلو كانت هذه الآية دالّة على قولهم لوقع التّناقض و لخرج القرأن عن كونه كلام اللّه و يندفع هذا التّناقض بأن لا تقبل هذه القراءة فوجب المصير اليه.

الثّاني: سلّمنا صحّة هذه القراءة لكنّا نحملها على أنّ القوم كذبوا في أنّه يلزم من ثبوت مشيّئة اللّه في كلّ أفعال العباد سقوط نبوّة الأنبياء و بطلان دعوتهم و اذ حملنا على هذا الوجه لم يبق للمعتزلة بهذه الآية تمسّكٌ البتّة و الحمد للّه الّذي أعاننا على الخروج من هذه العهدة القوّية و ما يقوّي ما ذكرنا ما روي أنّ ابن عبّاس قيل له بعد ذهاب بصره ما تقول فيمن يقول لا قدر فقال أن كان في البيت أحد منهم أتيت عليه و يليه أما يقرأ.

قال اللّه تعالى: **إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ**(١).

قال اللّه تعالى: **إِنّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتىٰ وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ اٰثارَهُمْ**(٢).

و قال أوّل ما خلق اللّه القلم قال له أكتب القدر فجرى بما يكون الى قيام السّاعة و قال صلوات اللّه عليه المكذّبون بالقدر مجوس هذه الأمّة انتهىٰ كلام الرّازي بألفاظه و عباراته و أنّما نقلناه بطوله ليَعلَم القاريْ ما فيه من الخَبط و الزّلل و أنّه كيف حمل كلام اللّه علىٰ أوهامه الفاسدة الخارجة عن طور العقل و النّقل و حيث إنّجر البحث الىٰ هنا فلابُدّ لنا من التّكلّم فيه بوجهٍ أبسط لأنّ البحث من أهَمِّ الأصول الإعتقادية فنقول:

إعلم أنّ مدار كلام الرّازي على قراءة التشدّيد في، كذَّب، و قد سبق أنّ التشدّيد أحدى القراءتين و لا دليل على عدم جواز التّخفيف و هو أيضاً لم يقم دليلاً على عدمها هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول قوله أنّه تعالى حكى عن الكفّار أنّهم يتمسّكون بمشيّئة اللّه في إبطال نبوّة الأنبياء ثمّ أنّه تعالى بيّن أنّ هذا الإستدلال فاسد فأنّه لا يلزم من

١- القمر = ٤٩　　٢- يس = ١٢

ثبوت المشيّئة للّه في كلّ الأمور دفع دعوة الأنبياء، ففيه أنّه لو كان الأمر بمشيّئة اللّه و أنّ العبد لا قدرة له على الإيمان مثلاً فلا معنى لبعث الرُّسل قطعاً اذ المفروض عدم قدرة العبد فيلزم أن يكون البعث غلطاً و عليه فلازم ثبوت المشيّئة على ما زعمه هو دفع دعوة الأنبياء و بذلك قد ظهر لك أنّ الآية لا ربط لها إدّعاه الرّازي من بطلان دعوة الأنبياء بل تدّل علىٰ أنّ قولهم: **لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا** الخ، كذبٌ محض.

ثالثاً: يظهر منها أنّهم كذّبوا الأنبياء في دعوتهم النّاس بالإيمان بدعوىٰ أن شِركهم و كفرهم بمشيّئة اللّه فهو خارج عن قدرتهم و إختيارهم فكأنّهم قالوا للرّسول كيف تدعونا بالإيمان و لم نقدر عليه لأنّ اللّه شاء منّا الكفر.

فقال تعالىٰ: **كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** أي كذّبوا الأنبياء في دعوتهم الى الإيمان على سبيل الإختيار، فهم في الحقيقة كذّبوا الإيمان عن إختيارٍ و أين هذا من دعوى بطلان نبوّتهم و رسالتهم و محصّل الكلام ليس البحث في الآية في إنكار النبوّة و عدمه و أنّما البحث في أنّهم حيث إعتقدوا كفرهم بمشيّئة اللّه فكانوا كاذبين في قولهم هذا أو مكذّبين للرّسول من حيث أنّه كان يقول أنتم تقدرون على الإيمان.

و أمّا قول الرّازي أنّه إله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و لا إعتراض عليه في فعله فهو يشاء الكُفر من الكافر و مع هذا فيبعث اليه الأنبياء و يأمره بالإيمان و ورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع، فيقال في جوابه لاشكّ أنّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

إلاّ انّا نقول أنّه لم يشاء الكفر من الكافر لكونه قبيحاً و هو منزّهٌ عنه لا أنّه لا يقدر عليه، فهو يفعل الحسن و يحكم بغير قبيح، اذ لو شاء الكفر من الكافر و مع ذلك أمره بالإيمان بسبب النّبي، فهذا ممّا لا نقدر على تصّوره فضلاً عن تعقلّه.

و أمّا قوله و ورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع ففيه أنّ هذا معقول في الأوامر الإمتّحانية علىٰ قول من يقول به كما أمر الخَليل بذبح إسماعيل

مثلاً و أمّا الأمر بالإيمان و الطّاعة فهو ليس من هذا القبيل ألا ترى أنّه تعالىٰ رتَّب على تركه العقاب و هو دليل على جواز تركه و قد ثبت أنّ الأمر اذا صدر من المولى من غير إرادةٍ لا عقاب على تركه.

نعم على فعله الثّواب من حيث الإمتثال و الفرق بين الأمرين واضح، تمسيكُه بقول ابن عبّاس من أنّه قال و بله أما يقرأ، **اِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ** الخ فهو خارج عمّا نحن بصدده، اذ لا يوجد مسلمٌ لا يقول به.

فأنّ القول بثبوت القدر من المسلّمات، إلاّ أنّ المراد بالقدر في الآية ليس ما فهمه الرّازي و أمثاله بل المراد به كمّية الشّئ و حدوده و ذلك لأنّ تقدير اللّه الأشياء علىٰ وجهين:

أحدهما: بإعطاء القدرة.

الثّاني: بأن يجعلها على مقدارٍ مخصوص ووجهٍ مخصوص حيثما إقتضت الحكمة و ذلك أنّ فعل اللّه ضربان:

ضربٌ أوجده بالفعل بمعنى إيجاده بالفعل بأن أبدعه كاملاً دفعةً لا تعتريه الزّيادة و النّقصان الى أن يشاء أن يفنيه أو يبدّله كالسّموات و ما فيها.

و قسمٌ أخر ما جعل أصوله موجودة بالفعل و أجزاءه بالقّوة و قدَّره على وجه لا يتّأتى منه غير ما قدَّره فيه كتقديره في النّواة أن يبت منها النّخل دون التّفاح و الزّيتون و تقدير منّى الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات، فقوله تعالى: **اِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ** لا ربط له بمورد البحث أصلاً

و أمّا ما نقله عن إبن عبّاس أنّه قال أوّل ما خلق اللّه القلم قال له أكتب القَدر فجرى بما يكون الى قيام السّاعة، فهذا الحديث على فرض صحّته حيث لم ينسبه الى المعصوم معناه أنّه جرى القلم الى قيام السّاعة في اللّوح المحفوظ و هذا لا يدّل على ثبوته من غير تغيير و لا تبديل الى قيام السّاعة لقوله تعالىٰ: **يَمْحُوا اَللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُۤ أُمُّ اَلْكِتٰابِ**[1] و أمّا الحديث الّذي نقله عن

١- الرعد = ٣٩

رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم المكذّبون بالقدر مجوس هذه الأمّة، فلا نعلم من أين نقله و المشهور عنه صلى الله عليه و آله و سلم القدريّة مجوس هذه الأمّة نقله عنه صلى الله عليه و آله و سلم غير واحدٍ من الرّواة في مآخذ العامّة و الخاصّة فلو كان ما نقله الرّازي أيضاً حقّاً يلزم أن تكون الأمّة بأجمعها من المجوس لأنّ الأمّة بين المعتقد بالقدر و المكذّب به و هو كما ترى و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَ هُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ

قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الّذين تقدّم وصفهم، هلُمّ شهداءكم، أي هاتوا شهداءكم و هلّم كلمة موضوعة للجماعة بني مع، ها، فصار بمنزلة الصّوت نحو، صه، و من قال هلّموا، فأنّه لم ينبه، مع، ها، بل قدّره على الإنفصال و الأوّل أفصح لأنّه لغة القرآن و هى لغة أهل الحجاز و أمّا أهل نجد فيقولون، هلّم و هلّما و هلّموا و هلمي و هلّميا و هلممن، قيل أصله، ها، ضمّ اليه، لم فبني و قيل، هلُّم ثمّ أنّه تارةً يتعدّى و أخرىٰ لا يتعدّى فهو علىٰ الأوّل بمعنى، هاتوا، مثل قوله: **هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ**.

و على الثّاني، بمعنى، تعالوا، نحو، هلّم الينا، هكذا قالوا و معنى الآية قل يا محمّد لهم هاتوا شهداكم الّذين يشهدون بصحّة ما تدعون من أنّ اللّه حرَّم هذا و حلَّل هذا **فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ** لأنّهم لم يشهدوا على الوجه المقرّر في الشّهادة من أنّها لا تصّح إلاّ ببيّنَةٍ عادلة تقوم بها الحجّة و اذا كانت الشّهادة على هذا المنوال فهي ليست بمسموعة بل هي كالعدم.

و قيل المراد شهداء من غيرهم أي هلّم شهداءكم من غيركم و لن يجدوا ذلك أبداً ولو وجدوه ما وجب قبول شهادتهم لأنها لا ترجع إلاّ الى دعوى مجرّدة **وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا** نهى اللّه تعالىٰ نَبيَّه والمراد به

أمّته أن يعتقدوا مذهب من إعتقد مذهبه هوى **وَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** أي و لا تتّبع أيضاً من لا يؤمن بالآخرة و مَن عدل عن الحقّ، و ذلك لأنّ متابعة هؤلاء في الإعتقاد يوجب خسران الدّنيا و الآخرة ففي الآية دلالة واضحة على فساد التّقليد في الإعتقادات لأنّه لو كان جائزاً لما طالب اللّه الكفّار بالحجّة على صحّة مذهبهم و لما كان عجزهم عن الإتيان بها دّالاً على بطلان ما ذهبوا اليه ثمّ بعد ما ذكر اللّه تعالى في هذه الآية و غيرها ممّا سبق أنّ القول بالحرام و الحلال في الأحكام الشّرعية لابدّ من أن يكون مستنداً الى الوحي أمر نبيّه أن يدعوهم الى هذا الأصل و أن يسمعوا من النّبي الّذي **وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**[1].

١- النجم = ٣ و ٤

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْسانًا وَ لا
تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ
إِيّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما
بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلّا
بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾
وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ
بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلّا وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ وَ بِعَهْدِ اللّٰهِ أَوْفُوا
ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَ أَنَّ
هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

◁ اللّغة

إِمْلاقٍ بكسر الألف مصدر قولهم أَملَقَ إملاقاً و هو الإفلاس من المال و الزّاد و قيل الإملاق الفقر.

أَشُدَّهُ قيل واحده، شدَّة مثل أضرّ جمع ضَّر و الشدّ القوّة و هو إستحكام قوّة شبابه و سنّه كما شدّ النهار إرتفاعه و قيل واحدة، شدّة مثل نعمة و أنعم.

أَوْفُوا أمرٌ من الإيفاء و هو الوفاء من غير بخسٍ.

◁ الإعراب

مٰا حَرَّمَ ما بمعنى الّذي و العائد محذوف أي حرَّمه و قيل هي مصدّرية أَلاّٰ تُشْرِكُوا في، أن، وجهان:

أحدهما: بمعنى، أي، فتكون، لا، علىٰ هذا نهياً.

الثّانى: أنّها مصدّرية و فى موضعها وجهان:

أحدهما: هي بدل من الهاء المحذوفة أو من، ما، ولا، زائدة أي حرَّم ربّكم أن تشركوا.

الثّانى: أنّها منصوبة على الإغراء والعامل فيها، عليكم شَيْئاً مفعول تشركوا، أو أنّه في موضع المصدر أي إشراكاً مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ بدلان من الفواحش بدل الإشتمال و منها في موضع الحال من ضمير الفاعل و بِالْحَقِّ في موضع الحال ذٰلِكُمْ مبتدأ وَصّٰيكُمْ بِهِ الخبر بِالْقِسْطِ في موضع الحال أي مقسطين و يجوز أن يكون حالاً من المفعول أي أوفوا الكيل تاماً و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◁ التّفسير

قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار تعالوا، أتلُ أي أقرأُ عليكم **مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**.

الأوّل: **أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ** أي باللّه شيئاً، إعلم أنّ الشِّرك على ضربين

أحدهما: الشّرك العظيم و هو إثبات شريكٍ له تعالى يقال أشرك باللّه فلان و ذلك أعظم كفرٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ**[1].

١- النّساء = ٤٨ و ١١٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اَفْتَرىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ اَلْجَنَّةَ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ اَلْجَنَّةَ**(٢) والأيات كثيرة.

الثّاني: الشِّرك الصَّغير و هو مراعاة غير اللّه معه في بعض الأمور و قد يعبّر عنه بالرّياء و النّفاق المشار اليه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ**(٣).

و حيث أنّ لفظ الشّرك مشترك بين المعنيين فقوله: **لا تُشركوا باللّه شيئاً** يشمل العظيم و الصّغير.

الثّاني: وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً الحسن عبارة عن كلّ مبهجٍ مرغوبٌ فيه و ذلك ثلاثة أضرب مستحسنٌ من جهة العقل، و مستحسنٌ من جهة الهوىٰ، و مستحسنٌ من جهة الحسّ، والحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله و الإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الأنعام على الغير يقال أحسن الىٰ فلان.

الثّاني: إحسان في فعله و ذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً قال أمير المؤمنين عليه السلام النّاس أبناء ما يحسنون، أي منسوبون الى ما يعملون و يعملونه من الأفعال الحسنة و الإحسان أعمّ من الأنعام و هو فوق العدل لأنّ العدل أن يعطي ما عليه و يأخذ ما لَه.

و الإحسان، أن يعطي أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلَّ ممّا له فالإحسان زائد علىٰ العدل فتحرّي العدل واجب و تحرّي الإحسان ندبٌ و تطوّعٌ و قال تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُحْسِنِينَ**(٤).

إذا عرفت معنى الإحسان فنقول أمر اللّه تعالىٰ بالإحسان بالوالدين و هما الأب و الأمّ فقال و بالوالدين إحساناً، و قال في موضع آخر.

١- النّساء = ٤٨
٢- المائدة = ٧٢
٣- يُوسف = ١٠٦
٤- البقرة = ١٩٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اَللّٰهَ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً**[٣].

الثّالث: **وَ لا تَقْتُلُوٓا أَوْلاٰدَكُمْ مِنْ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّٰاهُمْ** إختلفوا في معنى الإملاق فقيل أنّه الإفلاس من المال و الزّاد يقال أملق إملاقاً و منه الملق لأنّه إجتهاد في تقرّب المفلس للطّمع في العطيّة، و قال إبن عبّاس و السّدي و إبن جريح و غيرهم الإملاق الفقر و كيف كان فقد نهاهم اللّه عن القتل لذلك لأنّهم كانوا يقتلون أولادهم في عهد الجاهلّية خشيةً من الفقر فقال تعالىٰ: **وَ لا تَقْتُلُوٓا أَوْلاٰدَكُمْ** لأجل الفقر و الفاقة و ذلك لأنّ الّذي خلقهم ضمن رزقهم كما ضمن رزقكم و اذا كان كذلك فلا وجه لقتلهم و قيل أنّهم كانوا يقتلون بناتهم و أنت ترى أنّه لا فرق بين الأبناء و البنات لصدق الأولاد على الجميع.

الرّابع: **وَ لا تَقْرَبُوا اَلْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ** الفَواحش جمع فاحشة، قال الرّاغب الفحش و الفحشاء و الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

و قوله: **مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ** قالوا في معناه أنّهم كانوا لا يرون بالزّناء بأساً سرّاً و يمنعون منه علانيةٌ فنهى اللّه عن الحالتين و قال بعض المفسّرين أنّما قال ذلك لئّلا يظنّ أنّ الإسبطان جائز.

قول ثالث: و هو أنّ المراد من قوله: **مٰا ظَهَرَ** هو الزّناء، و ما بطن هو المخالة، و الحقّ أنّ المراد به معناه العامّ الشّامل للجميع.

الخامس: **وَ لا تَقْتُلُوا اَلنَّفْسَ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللّٰهُ إِلّٰا بِالْحَقِّ** فالنّفس المحرّم

١- الأسراء = ٢٣
٢- البقرة = ٨٣
٣- النّساء = ٣٦

قتلها هي نفس المسلم و المعاهد دون الكافر الحربي قيل و الحقّ الّذي يستباح به قتل النّفس المحرّمة ثلاثة أشياء.

قود بالنّفس الحرام.

و الزّناء بعد إحصانٍ.

و الكفر بعد الايمان.

ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ خطاب لجميع الخلق **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** أي لكي تعقلوا عنه ما وصّاكم به فتعملوا به.

السّادس: **وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ اَلْيَتِيمِ إِلاّٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** لا شكّ أنّ المراد بالقرب التّصرف فيه و الأكل منه على غير الشّرع حكم عامّ يشمل جميع النّاس إلاّ أنّ اليتيم لمّا كان لا يقدر عن الدّفاع عن نفسه و مالِه خصّ بالذكر لأنّ الطّمع في ماله أقوى منه في مال غيره لما ذكرناه و لذلك تأكّد النّهي في التّصرف في ماله و المراد باليتيم من لا والد له و قوله: **إِلاّٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** إستثناء عن النّهي و قيل في معناه، حفظه عليه الى أن يكبر فيسلم اليه، و قيل معناه تثمير مال اليتيم بالتّجارة و الزّراعة و أمثال ذلك و قيل معناه أن يأخذ عليه القيّم بالمعروف دون الكسوة و قوله: **حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** اختلفوا في حدّ الأشدّ فقيل هو الحلم، و قيل ثلاثون سنة و قيل ثمانية عشرة سنة و قيل لا حدّ له و إنّما المراد به حتّى يكمل عقله و لا يكون سفيهاً يحجر عليه و المعنى حتّى يبلغ أشدّه فيسلّم اليه ماله أو يؤذن في التّصرف فيه و حذف لدلالة الكلام عليه قاله الشّيخ في التّبيان و قال القرطبي أختلف العلماء في أشدّ اليتيم فقال إبن زيد بلوغه و قال أهل المدينة بلوغه و إيناس رشده، و عند أبي حنيفة خمس و عشرون سنة، ثمّ قال و الأشّد واحد لا جمع له بمنزلة الانك الرّصاص و قد قيل واحده شدّ كفلس و أفلس وأصله من شدّ النّهار أي أرتفع يقال أتيته شدّ النّهار و مدّ النّهار قال الشّاعر:

عهدي به شدّ النّهار كأنّما　　　خضب اللّبان و رأسه بالعظلم

و قال الآخر:

تـطيف بـه شـدّ النّهار ظعينةٌ طـويلةُ إنـقاء اليـدين سـحوقُ

و قال سيبويه، واحدة شدّة و قال الجوهري و هو حسن في المعنى لأنّه يقال بلغ الغلام شدّته و لكن لا تجمع فعلة على أفعل.

السّابع: وَ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَ ٱلْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ لاٰ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاّٰ وُسْعَهٰا القسط العدل و المعنى أوفوا الكيل و الميزان بالعدل أي بالإعتدال في الأخذ و العطاء عند البيع و الشّراء بحسب الوسع و الطّاقة و فيه إشارة الى أنّ الأوامر و النّواهي إنّما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفّظ و التّحرر فما لا يمكن الإحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين و لا يدخل تحت قدرة البشر فمعفوٌ عنه و قيل الكيل بمعنى المكيال و لهذا عطف عليه بالميزان.

الثّامن: وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ أي ولو كان الحقّ علىٰ مثل قراباتكم قال بعض المفسرين هذا في الأحكام و الشّهادات، و الحقّ أن المراد معناه العام أي قولوا الحقّ ولو في حقّ أقربائكم.

التّاسع: وَ بِعَهْدِ ٱللّٰهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الوفاء بالعهد من الواجبات الّتي لابدّ لكلّ إنسانٍ الإلتزام به سواء كان العهد ممّا عهده اللّه الى عباده أم ممّا إنعقد بين إنسانين.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كٰانَ مَسْؤُلًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللّٰهِ وَ لاٰ يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثٰاقَ**(٣).

قال اللّـه تـعالىٰ: **أَوْفُوا بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيّٰاىَ فَارْهَبُونِ**(٤)

والأيات كثيرة في الباب جدّاً.

١- النّحل = ٩١
٢- الإسراء = ٣٤
٣- الرّعد = ٢٠
٤- البقرة = ٤٠

ثمّ أشار الىٰ جميع ما ذكر بقوله ذلكم و صيٰكم به لعلّكم تذكّرون، أي لئلا تغفلوا عنه فتتركوا العمل به و القيام بما يلزم منه.

وَ أَنَّ هٰذا صِراطي مُسْتَقيمًا فَاتَّبِعُوهُ قرأ الكسائي و حمزة و إنّ، بكسر الهَمزَة و الباقون بفتحها فمن فتح الهَمزَة فقد عطف الكلام علىٰ، أن لا تشركوا، أو التّقدير، و لأنّ هذا صراطي مستقيماً فإتّبعوه، و من كسر الهَمزَة فقد عطف الكلام على قوله: **أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ** أي و أتل، أنّ هذا، بمعنى أقول، أو إستأنف الكلام والمعنىٰ أنّ هذا، الّذي ذكرناه، صراطي مستقيماً فإتّبعوه، أمرٌ من اللّه بإتّباع صراطه و ما شرّعه للحقّ و أنّما سمّاه اللّه تعالىٰ صراطاً لأنّ العمل بما أمر به و نهى عنه طريق الى الثّواب في الجنّة كما أنّ العصيان و المخالفة طريق الى العذاب و العقاب و وصف الطّريق بالإستقامة لأنّه لا عوج في طريق الحقّ و لذلك أمرنا بالإتّباع ثمّ قال **وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** يعني سبل الشّيطان و أهل البدع من اليهود و النّصارى و غيرهم و أنّما نهى اللّه عنه لأنّ إتّباع غير سبيله تصرف عن إتّباع سبيله و لا يمكن الجمع بينهما و لذلك قال **فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ** أي عن سبيل الحقّ.

ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أي أمركم و أوصاكم بإمتثاله لكي تتّقوا عقابه بإجتناب معاصيه و مخالفة أوامره و نواهيه فهذا ما وعظ اللّه به عباده في كتابه فى هذا المقام و حيث إنّجر الكلام الىٰ هنا فلا بأس بذكر بعض ما ورد من الأثار و الأخبار فنقول:

روي في كتاب مشكاة الأنوار من كتاب المحاسِن عن سليمان بن خالد قال قال أبو عبد اللّه عليه السلام أنّ اللّه يقول: وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى[1]. فاذا إنتهىٰ الكلام الىٰ اللّه فأمسكُوا انتهىٰ.

و من كتاب التّوحيد بأسناده عن علّي عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ما جزاء من أنعَم اللّه عليه بالتّوحيد إلاّ الجنّة انتهىٰ.

١- النجم = ٤٢

و عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن أباءه عن علّي عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من مات و لم يشرك باللّه شيئاً أحسن أو أساء دخل الجنّة انتهىٰ.

و عن الصّادق عليه السلام أنّه سأله رجل فقال له أنّ أساس الدّين التّوحيد و العَدل الىٰ أن قال عليه السلام: و أمّا التّوحيد فأن لا تجوز على ربّك ما جاز عليك و أمّاالعَدل فأن لا تنسب الىٰ خالقك ما لامك عليه.

و عن ابن عبّاس قال جاء أعرّابي الىٰ النّبي فقال يا رسول اللّه علّمني من غرائب العلم قال صلى الله عليه و آله و سلم ما صنعت في رأس العلم حتّىٰ تسأل عن غرائيه قال الأعرابّي و ما رأس العلم يا رسول اللّه قال عليه السلام معرفة اللّه حقّ مَعرفته فقال الأعرابي ما معرفة اللّه حقّ معرفته قال صلى الله عليه و آله و سلم أن تَعرفه بلا مثل و لا شبه و لا ندٍّ و أنّه واحدٌ أحدٌ ظاهرٌ باطنٌ أوّل أخر لا كفو له و لا نظير له فذلك حقّ معرفته انتهىٰ.

و عن أبي ذر رَحِمه اللّه قال حَرجتُ ليلةً من اللّيالي فاذا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يمشي وحده و ليس معه إنسان فظَّننت أنّه يكره أن يمشي معه أحَد و ساق الحديث الىٰ أن قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ذلك جبرئيل عرض لي في جانب الحيرة و قال، بشّر أمّتك أنّه من مات و لا يشرك باللّه دَخل الجنّة قال قلت يا جبرئيل و أن زنى و أن سرق فقال نعم الحديث.

و ممّا ورد في الإحسان بالوالدين:

روي في هذا الكتاب من كتاب المحاسن عن الباقر عليه السلام قال سأل رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من أعظم حقّاً على الرّجل قال صلى الله عليه و آله و سلم والداه.

و عنه عليه السلام قال أنّ الرّجل يكون بارّاً بوالديه و هما حيّان فاذا ماتا ولم يستغفر لهما كتب عاقاً لهما و أنّ الرّجل يكون عاقاً لهما في حياتهما فاذا ماتا و أكثر الإستغفار لهما فكتب بارّاً.

و عنه عليه السلام قال أنّ رجلاً أتىٰ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول اللّه أوصني فقال عليه السلام لا تُشرك باللّه شيئاً وإن حرّقت بالنّار و عذّبت إلاّ و قلبك مطّمئن بالإيمان و والديك فأطعهما و برّهما حيّين كانا أو ميتين و أن أمراك أن تخرج من أهلك و مالك فأفعل فأنّ ذلك من الإيمان انتهىٰ.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال برّوا أباءكم يبرّكم أبناءكم و غضّوا عن النّساء يغّضُ عن نسائكم انتهىٰ.

و عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في كلام له إيّاكم و عقوق الوالدين فأنّ ريح الجنّة توجد من مسيرة ألف عام و لا يجدها عاق و لا قاطع رحمٍ الحديث.

و ممّا جاء في أموال اليتامىٰ:

روىٰ المجلسي قدس سره بأسناده عن ابن مسكان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال لمّا نَزل: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**(١) أخرج كلّ من كان عنده يتيم وسألوا رسول اللّه في إخراجهم فأنزل اللّه **وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ** (٢)

و عن الصّادق عليه السلام عن أبيه قال: قال النّبى صلى الله عليه وآله وسلم من كفل يتيماً و كفل نفقته كنت أنا و هو في الجنّة كهاتين و قرن بين إصبعيه المَسبحة والوسطىٰ انتهىٰ.

و بأسناده عن أبي ذر أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا أبا ذر أنّي أحبّ لك ما أحبّ لنفسي أنّي أراك ضعيفاً فلا تأمرّن علىٰ أثنين و لا توّلينّ مال يَتيم انتهىٰ.

١- النساء = ١٠
٢- البقرة = ٢٢٠

و عن الصّادق عن أباءه قال: قال رسول اللّه ﷺ من عال يتيماً حتّىٰ يستغني عنه أوجَب اللّه عزّ وجلّ له بذلك الجـنّة كـما أوجب لأكل مال اليتيم النّار انتهىٰ.

و بأسناده عن العالم عليه السلام أنّه قال: مَن أكل من مال اليَـتيم درهـماً واحداً ظُلماً من غير حقٍّ يخلده اللّه في النّار و ساق الحديث الىٰ أن قال و إيّاكم وأموال اليتامى لا تـعرّضوا لهـا و لا تـلّبسونها فـمن تعرّض مال اليتيم فأكَل منه شيئاً كأنّما أكل جَذوةً من النّار.

و روي إتّقوا اللّه و لا يعرض أحدكم لِمال اليتيم فأنّ اللّه جلّ ثناءُه يلي حسابه بنفسه مغفوراً له أو معذّباً الحديث والأحاديث في الباب كثيرة جدّاً ومن أراد الإطّلاع على أكثر ممّا ذكرناه فعليه بالمطّولات و لا سيّما بحار الأنوار باب العشرة مع اليتامىٰ [١]

■

١- ج ١٦ ط كمباني ص ١١٩

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ
أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً
لَعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَ هَٰذَا كِتَابٌ
أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ ٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنْزِلَ ٱلْكِتَابُ عَلَىٰ
طَآئِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ
لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا
ٱلْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ
بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّآ أَنْ تَأْتِيَهُمُ
ٱلْمَلَآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ
رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا
إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ
إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنْتَظِرُوٓا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ
فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ
أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا
وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

◁ اللّغة

دِرٰاسَتِهِمْ قال في المفردات درس الدّار معناه بقى أثرها و لذلك فسّر الدّروس بالإنمحاء وكذا درس الكتاب و درست العلم، تناولت أثره بالحفظ و لمّا كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبّر عن إدامة القراءة بالدَّرس.

صَدَفَ عنه أعرض عنه إعراضاً شديداً.

شِيَعًا الشَّيع الفرق الّتي يمالني بعضهم بعضاً على أمرٍ واحدٍ مع إختلافهم في غيره و قيل أصله الظّهور من قولهم شاع الخبر يشيع إذا ظهر. و قال الزّجاج أصله الإتباع من قولك شايعه على الأمر إذا تبعه.

◁ الإعراب

تَمٰامًا مفعول له أو مصدر أي أتممناه تماماً و يجوز أن يكون حالاً في موضع الحال من الكتاب وَ هٰذٰا مبتدأ كِتٰابٌ خبره و أَنْزَلْنٰاهُ صفة أو خبر ثانٍ و مُبٰارَكٌ صفة ثانية أو خبر ثالث، قرأ (مباركاً) بالنَّصب على الحال جاز مِمَّنْ كَذَّبَ الجمهور علىٰ التّشدّيد و قرأ بالتّخفيف و هو في معنى التشدّيد فيكون مِمَّنْ كَذَّبَ مفعولاً و يجوز أن يكون حالاً يَوْمَ يَأْتِي الجمهور على النَّصب و العامل في الظّرف لاٰ يَنْفَعُ و قرى بالرّفع و الخبر لا ينفع و العائد محذوف أي لا ينفع نَفْسًا اِيمٰانُهٰا فيه لَمْ تَكُنْ مستأنفة و قيل هي في موضع الحال من الضّمير المجرور أو على الصّفة، لنفس و هو ضعيف عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا بالأضافة أي فله عشر حسنات أمثالها و يقرأ بالرّفع و التنوين على تقدير فله حسنات عشر أمثالها و حذف التّاء من عشر لأنّ الأمثال في المعنى مؤنّثة للأضافة الى المؤنث.

◁ التّفسير

ثُمَّ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ تَمٰامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ

أن قلت ثمّ تقتضي التّراخي و لازم ذلك أن يكون كتاب موسى و هو التّوراة بعد القرآن مع أنّ الأمر بالعكس.

قلت يحتمل أن تكون، **ثُمَّ** بمعنىٰ الواو أي و **آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** لأنهما حرفا عطفٍ و قيل تقدير الكلام، ثمّ كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم وقيل المعنىٰ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** ثمّ أتلُ ما آتينا موسىٰ تماماً و في قوله على الّذي أحسن، وجوه.

أحدها: معناه، تماماً على إحسانه أي إحسان موسى.

ثانيها: تماماً علىٰ المحسنين أو تماماً علىٰ الّذين أحسنوا، أو تماماً على إحسان أنبياءه.

ثالثها: قال الحسن و قتادة لتمام كرامته في الجنّة على إحسانه في الدّنيا.

رابعها: قال أبو علّي تماماً على إحسان اللّه الى موسىٰ بالنبوّة.

أقول هذه الوجوه كلّها إستحسانات لا دليل عليها و الحقّ في المعنى أن يقال ثمّ آتينا موسى الكتاب تماماً على العبد الّذي أحسن الطّاعة و تجنّب المعصية في كلّ ما أمر به أو نهي عنه و قوله و تفصيلاً لكلّ شئ معناه أنّ كتاب موسى فيه تفصيل الواجبات و المحرّمات ممّا يحتاج اليه النّاس و بعبارةٍ أخرى فيه ما يوجب سعادة الدّارين و حلاوة النشأتين كما هو الشأن في جميع الكتب السّماوية و لذلك قال **وَ هُدًى وَ رَحْمَةً** أي كما أنّه يفصّل الأحكام كذلك يهدي الىٰ الحقّ و مع ذلك هو رحمة من اللّه لعباده الصّالحين العاملين بما فيه **لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** أي لِكي يؤمنوا بجزاء ربّهم، فسّمىٰ الجزاء لقاء اللّه تفخيماً لشأنه و تعظيماً له مع مراعاة الإختيار و الإيجاز **وَ هَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** قالوا هذا، إشارة الىٰ القرآن و عليه إجماع المفسّرين و المعنى، هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك مبارك الخ.

فالبركة ثبوت الخير بزيادته و نموّه و أصله الثُّبوت و منه تبارك، أي تعالىٰ بصفة إثبات لا أوّل له و لا آخر و هذا تعظيم لا يستحقّ غير اللّه تعالىٰ ولو نصب على الحال لكان جائزاً إلاّ أنّ الرّفع أولى لأنّه يدّل علىٰ لزوم الصّفة للكتاب **فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا** أمرٌ من اللّه تعالىٰ باتّباعه و التدبّر ما في آياته ثمّ العمل به أوّلاً و الى إتّقاء معاصيه و تجنّب نخالفة كتابه بترك العمل بما فيه.

ثانياً، و اذا كان العبد كذلك فهو قريب من رحمة اللّه و لذلك قال: **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** و فيه إيماء الىٰ أنّ الغرض من التّقوىٰ هو طلب ما عند اللّه من الرّحمة و الثّواب و أن شئت قلت، معناه إتّقوا علىٰ رجاء الرّحمة لأنّكم لا تدرون بما توافون في الأخرة.

أَنْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنْزِلَ ٱلْكِتَابُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ

العامل في، أن، قوله: **أَنْزَلْنَاهُ** و تقديره، لأن لا تقولوا، فحذف، لا، لظهور المعنى في أنّه أنزله لئلا يكون لهم حجّة بهذا و قال الزّجاج تقديره، كراهة أن تقولوا، و لم يجز حَذف، لا، هاهنا، و كيف كان فالمعنى لإن لا تقولوا، أيّها المسلمون أنّما أنزل الكتاب.

و قيل الخطاب لأهل مكّة و المعنى لإن لا تقولوا يا أهل مكّة، أنّما أنزل الكتاب، أي التّوراة و الإنجيل **عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا** أي على اليهود و النّصارىٰ **وَ إِنْ كُنَّا** أن هي المخفّفة من الثّقيلة واللاّم هي الفارقة بينها و بين النّافية و الأصل، و أنّه كنّا، و المعنى و أن كنّا غافلين عن تلاوة كتبهم لإنّهم كانوا أهله دوننا.

و تقدير الآية أنّا أنزلنا الكتاب الّذي هو القرآن لئلا يقولوا أنّما أنزل الكتاب على اليهود و النّصارى و لم ينزل علينا، ولو أريد منّا ما أُريد ممّن قبلنا لأنزل الينا الكتاب كما أنزل علىٰ من قبلنا، و أنّما فعلنا ذلك إتماماً للحجّة عليكم يوم القيامة.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدٰى مِنْهُمْ

عطف على، أن تقولوا، أي و لئلا تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنّا أهدىٰ منهم) في المبادرة الى قبوله و التمسّك به و ذلك لحدّة أذهاننا و ثاقبة أفهامنا و غزارة حفظنا لايّام العرب و وقائعها و خطبها و أشعارها و أمثالها على انّا أمّيون، هكذا قرّره في الكشاف فأجابهم اللّه تعالىٰ بقوله: **فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ** أي منتم صادقين في دعواكم، فقد جاءكم بيّنة، و شاهد من ربّكم، و هو القرأن الذّي هدىً و رحمةً لِمن عمل بما فيه فلم لا تعملون به بل تكذّبونه و تقولون أنّه ليس من عند اللّه **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِاٰيَاتِ ٱللّٰهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا** أي أعرض عنها إعراضاً شديداً بعد التّكذيب و الإنكار **سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ اٰيَاتِنَا** بالإعراض عنها وترك العمل بها **سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ** سوء العذاب شدّته والباء للسبّب أي سوء العذاب و شدّته يوم القيامة مسبّبٌ عن الإعراض كما قال: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**[١].

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّآ أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ

قالوا معنىٰ، **يَنْظُرُونَ** ينتظرون، و هل إستفهام معناه النّفي و تقدير الآية أنّهم لا يؤمنون بك إلاّ اذا جاءهم أحد هذه الأُمور الثّلاثة و هى مجيِ الملائكة أو مجيِ الرّب أو مجيِ الأيات القاهرة من الرّب والمراد بقوله: **إِلَّآ أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ** هو أن تأتيهم لقبض أرواحهم **أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ** أي أمر ربّك يوم القيامة **أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ اٰيَاتِ رَبِّكَ** كطلوع الشّمس من مغربها.

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ اٰيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ اٰمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَانِهَا خَيْرًا

١- طه = ١٢٤

و ذلك لأنّ ظهور الأيات تحجب من قبول التّوبة قالوا فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ما روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال بادروا بالأعمال قبل ستّة طلوع الشّمس من مغربها، و الدّابة، و الدّجال، و الدّخان، و خويصة أحدكم أي موته، وأمَر القيامة.

الثّاني: قال ابن مسعود طلوع الشّمس من مغربها و الدّجال و دابّة الأرضِ.

الثّالث: طلوع الشّمس من مغربها رواها جماعة عن النّبي و قوله: **أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا** قيل أنّه صفة ثانية معطوفة على الصّفة الأولىٰ و المعنى أن إشراط السّاعة اذا ظهرت ذهب أوان التّكليف عندها فلم ينفع الإيمان نفساً ما أمنت قبل ذلك و ما كسبت في إيمانها خيراً قبل ذلك ذكره الرّازي في تفسيره.

و قال السُّدي معناه أنّه لا ينفعه إيمانه حينئذٍ و أن إكتسب فيه خيراً إلاّ أن يكون مِمّن أمن قبل ذلك.

و قال الأخر المراد به التّغليب لأنّ الأكثر ممّن ينتفع بإيمانه حينئذٍ من كان كسب في إيمانه خيراً قبله.

و قال الطّبرسي رحمه الله في تفسيره بعد نقل الأقوال أنّ المعنى لا ينفع حينئذٍ إيمان من أمن من الكفّار و لا طاعة من أطاع من المؤمنين و من أمن من قبل نفعه إيمانه بإنفراده وكذلك من أطاع من المؤمنين نفعته طاعته أيضاً قال أقوىٰ الأقوال و أوضحها انتهىٰ.

و به قال الشّيخ أيضاً في التّبيان و الذّي يختلج بالبال هو أنّ، أو، هاهنا بمعنىٰ الواو و التّقدّير وكسبت في إيمانها خيراً و عليه فالمعنى واللّه العالم أنّ عند إشراط السّاعة لا ينفع نفساً إيمانها و أمّا قبل إشراط السّاعة فهو نافع اذا كان مقروناً بالعمل الصّالح و أمّا مجرّد الإعتقاد فلا و عليه فقوله: **أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا** يدّل علىٰ أنّ العمل شرط في صدق الإيمان و تحقّقه هذا اذا قلنا أنّ، أو، بمعنى الواو.

و أمّا بناءً على ظاهر اللّفظ و هو أن تكون كـلمة، أو، للـتّخيير أو الإبـهام فالمعنى أنّه لا ينفع الإيمان ح إلاّ من أمن قبل ذلك، أو أمن حين إشراط السّاعة ولكن كسب في إيمانه خيراً مضافاً على نفس الإيمان بالإستكثار من عمل البّر و أنت ترى أنّ الأوّل أقوى، **قُلِ ٱنْتَظِرُوٓا إِنَّا مُنْتَظِرُون** أي قل لهؤلاء الكفّار إنتظروا ذلك اليوم الذّي لابدّ منه فأنّا منتظرون حصوله بتحقّق الأيات فيه.

روي في كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام والحديث طويل، و فيه و معنىٰ قـوله: **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلآّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ اٰيَاتِ رَبِّكَ** فأنـما خـاطب نـبيّنا، هـل يـنظر المنافقون والمشركون إلاّ أن تأتيهم الملائكة فيعاينوهم أو يأتـي ربّك أو يأتي بعض أيات ربّك يعني بـذلك أمـر ربّك والأيـات هـي العذاب في دار الدّنيا كما عذّب الأُمم السّالفة في القرون الخالية.

و في عيون الأخبار في باب مـا جـاءِ مـن الرّضـا عليه السلام مـن العـلل بأسناده الىٰ أبي إبراهيم بن محمّد الهمداني قال: قلت لأبي الحَسن الرّضا لأيّ علّةٍ أغرق اللّه تعالىٰ فرعون و قد أمن به و أقّر بتوحيده قال عليه السلام لأنّه أمن عند رؤية البأس و الايمان عندها غير مـقبولٍ و ذلك حكم اللّه تعالىٰ في السَّلَف و الخلف قال اللّه تـعالىٰ: **فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا اٰمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ.فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا**(١) قال عزّ وجلّ: **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ اٰيَاتِ رَبِّكَ لاٰ يَنْفَعُ نَفْسًا ايمانُها لَمْ تَكُنْ اٰمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ ايمانِها خَيْرًا** الحديث.

و عن تفسير العيّاشي عن زرارة وحمران و محمّد بن مُسلم عـن أبي جعفر و أبي عبد اللّه في قوله: **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ اٰيَاتِ رَبِّكَ** قال: طلوع الشّمس من المغرب و خروج الدّابة والدّجال، والرّجل يكون

١- غافر = ٨۴ و ٨٥

مصِّراً و لم يعَل عمل الإيمان ثمّ تجئ الأيات فلا ينفعه إيمانه.

و عن كتاب كمال الدّين و تمام النّعمة بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: في قول اللّه عزّ وجلّ: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ اٰيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا اِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ اٰمَنَتْ مِنْ قَبْلُ فقال عليه السلام: الأيات هم الأئمّة والآية المنتظر القائم عليه السلام فيومئذٍ لا يَنفع نفساً إيمانها لم تكن أمنت من قبل، قيامه بالسّيف وإن أمنت بمن تَقدّمه من أباءه.

و بأسناده عن أبي بصير قال الصّادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ اٰيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا اِيمَانُهَا يعني خروج القائم المنتظر مِنّا.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ما زالت الأرض إلاّ ولِلّه تعالىٰ ذكره فيها حجّة يعرف الحلال والحرام و يَدعوا الى سبيل اللّه عزّوجلّ و لا تنقطع الحجّة من الأرض إلاّ أربعين يوماً قبل يوم القيامة فاذا رفعت الحجّة أغلقت باب التّوبة و لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن أمنت من قبل أن ترفع الحجّة أولئك شرار من خلق اللّه و هم الذّين تقوم عليهم القيامة.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه:لَا يَنْفَعُ نَفْسًا اِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ اٰمَنَتْ مِنْ قَبْلُ يعني في الميثاق، أو كسبت في إيمانها خيراً، قال عليه السلام: الإقرار بالأنبياء و الأوصياء و أميرالمؤمنين عليه السلام خاصّة قال لا ينفع إيمانها لأنّها سلبت

و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

١– ج ١، ص ٧٨٠ الى ص ٧٨٣.

قرأ حمزة و الكسائي **فارقوا** و الباقون **فرّقوا** بلا ألف مع تشديد الرّاء و المعنيان متقاربان لأنّ القراءتين يؤلان الى شيءٍ واحد ثمّ أنّهم إختلفوا في هؤلاء الذّين فرّقوا دينهم.

فقال بعضهم هم اليهود لأنّهم كانوا يمالؤن عبدة الأوثان على المسلمين.

و قال قتادة هم اليهود و النّصارىٰ لأنّ بعض النّصارىٰ يكفّر بعضاً وكذلك اليهود.

و قال الحسنهم جميع المشركين لأنّهم جميعاً بهذه الصّفة.

و قال أبو جعفر الباقر عليه السلام هُم أهل الضّلالة و البدع من هذه الأمّة و هو قول أبي هريرة و عائشة.

و قال صاحب الكشّاف **فَرَّقُوا دِينَهُمْ** إختلفوا فيه كما إختلف اليهود و النّصارىٰ و فى الحديث إفترقت اليهود على أحدىٰ و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلاّ واحدة و هى النّاجية و إفترقت النصاري ثنتين و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلاّ واحدة و تفترق أمّتي على ثلاث و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلاّ واحدة و قيل فرّقوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ انتهىٰ.

وَ كَانُوا شِيَعًا الشّيع الفرق الّتي يمالئ بعضهم بعضاً على أمرٍ واحدٍ مع إختلافهم في غيره و أصله الإتّباع من قولك شايعه علىٰ الأمر اذا تبعه **لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** خطاب للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم وإعلام له أنّه ليس منهم في شيٍ بمعنى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لا يجتمع معهم في معنى من مذاهبهم الفاسدة و ليس كذلك بعضهم مع بعضٍ لإجتماعهم على الباطل و أن إفترقوا في غيره فليس النّبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم في شيٍ و كيف كان فقد حذّرهم اللّه من تفرّق الكلمة و دعاهم الىٰ الإجتماع على ما تقوم عليه الحجّة.

ثمّ قال: **إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** أي أنّ اللّه تعالىٰ يحكم فيهم و ينبّئهم بفساد ما كانوا عليه من التّفرّق و التّشتت و إعلم أنّ الآية الشّريفة فيها نقاط و حقائق لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

أحداها: أنّ قوله: **فَرَّقُوا دِينَهُمْ** معناه أنّهم إختلفوا فيه إختلافاً أوجب التّفرق والتّشتت، و أمّا على قراءة **فارقوا** معناه تركوا دينهم و أعرضوا عنه و الأوّل أولى بسياق الكلام و لأنّهم لم يتركوا دينهم بالكلّية و أنّما صاروا أحزاباً و فرقاً و هو واضح.

ثانيتها: أنّ أكثر المفسّرين قالوا أنّ المراد بهم اليهود أو النصّارىٰ أو جميع الكفّار من المشركين و غيرهم.

و أمّا الأخبار الواردة عن طريق أهل البيت تدّل على أنّ المراد بهؤلاء هم أهل الضّلالة و البدع من هذه الأمّة و الحقّ أنّ المراد بهم الجميع بمعنىٰ أنّ كلّ من فرَّق دينه أو فارق دينه فهو داخل فيها و عليه فأهل الضّلالة و البدع التّي فرَّقوا دينهم أو فارقوه بعد رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كما أخبر به النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال و تفترق أمّتي علىٰ ثلاث و سبعين فرقة كلّهم من مصاديق الآية خرج عنها فرقة واحدة و بقي الباقون تحت الحديث و العَجب أنّ صاحب الكشّاف نقل الحديث ولم يبيّن المراد بالفرقة الواحدة الخارجة من الهلاكة كما لم يبيّن الذّين فرَّقوا دينهم بعد رسول اللّه من هم.

و لا شكّ أنّ الفرقة النّاجية هي الفرقة الأثني عشريّة الذّين يقولون بإمامة أمير المؤمنين بعد رسول اللّه وأحد عشر من خلفاءه بعده أخرهم الحجّة صاحب الزّمان عليه السلام الذّي يَملأ اللّه الأرض به قسطاً و عدلاً بعد ما ملأت ظلماً و جوراً و لنعم ما قيل:

ولمّا رأيت النّاس قد ذهبت بهم — مذاهبهم في أبحر الغّي والجهل
ركبت على إسم اللّه في سفن النّجاة — وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرُّسل
و أمسكت حبل اللّه و هو ولاءهم — كما قد أمرنا بالتمسّك بالحبل
اذا إفترقت في الدّين سبعون فِرقةُ — ونيّف كما قد جاء في محكم النَّقل
ولم يك ناجٍ منهم غير فِرقةٍ — فقل لي بها ياذا التّفكر و العقل
أفي الفرق الهلّاك أل محمّدٍ — أم الفرق اللاّئي نجت منهم قل لي

فأن قلت في النّاجين فالقول واحدُ   وإن قلت في الهلاك بعدُ عن العدل
اذا كان مولىٰ القوم منهم فأنّني   رضيت بهم لا زال في ظلّهم ظلّي
فخلّوا عليّاً لي وليّاً ونسله   وأنتم من الباقين في أوسع الحِلّ

ثالثها: أنّ التّفرق في الدّين مذموم في جميع الأديان:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا**(٢).

و محصّل الكلام هو أنّ التّفرق في الدّين من أعظم الدّواهي التّي توجب خسران الدّنيا و عذاب الأخرة و ذلك هو الخسران المبين.

رابعها: في قوله: **لَسْتَ مِنْهُمْ** قالوا معناه أنت منهم بريئ و هم منك و بعبارةٍ أخرىٰ أنّك بعيد عن أقوالهم وأباطيلهم ومذاهبهم فالعقاب اللاّزم علىٰ تلك الأباطيل مقصورٌ عليهم و لا يتعدّاهم.

و لقائلٍ أن يقول أن كان الكلام معناه هذا فهو من توضيح الواضحات لوضوح أنّ النّبي ليس منهم و الذّي نفهم من هذا الكلام هو أنّ الذّم تعلّق بالذّين فرّقوا دينهم و كانوا أتباعاً لغير النّبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فالمعنى أنّ الذّين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً و أحزاباً غير متابعين لك أنّما أمرهم الىٰ اللّه و أمّا اذا كانوا شيعاً لك مقتدياً بك في دينهم فلا عقاب لهم لأنّ التفرّق بحسب الأراء و الأطوار لا إشكال فيه اذا كانوا في دينهم متحدّين، و هنا إحتمال أخر و هو أنّ النّاس اذا تفرّقوا في دينهم فلا محالة لا يكون النّبي منهم في شئ بمعنى أنّهم لا يكونون تابعين له جميعاً و أن إدّعوا ذلك و هو واضح و اللّه أعلم.

وإعلم أنّ الألوسي البغدادي قال في تفسيره المسمّىٰ بروح المعاني في هذا المقام ما هذا لفظه:

١- أل عمران = ٦٤   ٢- أل عمران = ١٠٣

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إفترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة كلّهم في الهاوية إلاّ واحدة و إفترقت النّصارى على ثنتين و سبعين فرقة كلّهم في الهاوية إلاّ واحدة و ستفترف أمّتي علىٰ ثلاث و سبعين فرقة كلّهم في الهاوية إلاّ واحدة و ساق الكلام الى أن قال:

و من غريب ما وقع أنّ بعض متعصّبي الشّيعة الإماميّة من أهل زماننا و إسمه، احمد، روي بدل إلاّ واحدة، في هذا الخبر إلاّ فرقة و قال أنّ فيه إشارة الى نجاة الشّيعة فأنّ عدد لفظ فرقة بالجمل و عدد لفظ الشّيعة سواء فكأنّه قال عليه السلام إلاّ شيعة و المشهور بهذا العنوان هم الشّيعة الإماميّة فقلت له بعد عدّة تزيينات لكلامه، ويلزم هذا النّوع من الإشارة أن تكون كلباً لأنّ عدد كلب و عدد حمد، سواء فألقم الكلب حجراً انتهى كلامه لعنه اللّه.

و أنا أقول لا نعرف من علماء الشّيعة من كان إسمه، حمد، و لعلّ إسمه كان أحمد، و مع ذلك ينبغي للألوسي أن يذكر أوصافه و أنّه من هو و أين كان، و كيف يعقل أن يكون إسم شخصٍ، حمد، اللّهم إلاّ أن يكون إسمه، أحمد، أو حامد، فأسقط الألوسي الألف من إسمه لينطبق على ما قال هذا أوّلاً.

ثانياً أنّ قوله في الحديث، واحدة، معناه فرقة واحدة و لذلك قال واحدة ولم يقل واحد لكونها صفة للفرقة و عليه فأيّ فرقٍ بين قولنا إلاّ واحدة و بين قولنا، إلاّ فرقةٍ فما ذكره الألوسي دليل على جهله لكلام العرب و أنّ ذكر الصّفة مستغنٍ عن ذكر الموصوف في اللّفظ لأنّه موجود ملحوظ في ضمنها و أن لم يتلفّظ به فقوله عليه السلام إلاّ واحدة تقديره إلاّ فرقة واحدة و هذا ظاهر لا خفاء فيه فلا فرق في ذكر الموصوف وحذف الصّفة وبالعكس لدلالة كلّ واحدٍ منهما علىٰ الأخر.

ثالثاً: أنّ الحديث لا يختصّ بما ذكره الألوسي و نقله عن التّرمذي و ابن‌ماجه و أمثالهما، و ذلك لأنّه روي بطرق مختلفة و ألفاظ متفاوتة إلاّ أنّ المعنى في الجميع واحد.

رابعاً: نقول ما ذكره الألوسي في المقام لو كان فهو دليل على خبث طينته و سوء سريرته و عدم طهارة نطفته التّي خلق منها و ذلك لأنّ الولد الحلال لا يبغض أهل البيت و شيعتهم فلا يقول لمن تشيع و إعتقد النّجاة بمتابعة أهل البيت عليهم السّلام ما قاله هذا الخبيث الطّريد

مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا وَ مَنْ جٰآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ

الحسن عبارة عن كلّ مبهج مرغوب فيه ثلاثة أضرب، متحسنٌ من جهة العقل، و مستحسنٌ من جهة الهوى و مستحسنٌ من جهة الحسّ والحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله والسّيئة تضّادها و هما من الألفاظ المشتركة كالحيوان الواقع على أنواعٍ مختلفة كالإنسان و الفرس و غيرهما اذا عرفت هذا فنقول.

قوله: **مَنْ جٰآءَ بِالْحَسَنَةِ** أي من عمل بها فله عشر أمثالها أي فله عشر حسنات أمثالها من الثّواب و من جاء أي عمل بالسّيئة فلا يجزى إلاّ مثل السّيئة من العقاب.

قال بعض المحقّقين أنّ الواحد من العشرة مستحقّ و تسعة تفضّل بعضهم المعنى فله من الثّواب عشر حسنات أمثالها، و قيل و هذا لا يجوز لأنّ إعطاء غير العامل مثل ثواب العامل قبيح كما يقبح أن يعطى الأطفال مثل ثواب الأنبياء و مثل إجلالهم و إكرامهم و أن يرفع منزلتهم عليهم.

قالوا و إنّما لم يتوعّد على السّيئة إلاّ بمثلها لأنّ الزّائد على ذلك ظلمٌ واللّه يتعالى عنه و أمّا زيادة الثّواب علىٰ الجزاء تفضّلٌ و إحسان فجاز أن يَزيد عليه قال القرطبي و الحسنة هنا الإيمان أي من جاء بشهادة أن لا إله إلاّ اللّه فَلَه بِكلّ عملٍ عمله في الدّنيا من الخير عشرة أمثاله من الثّواب و من جاء بالسّيئة، يعني الشّرك فلا يجزى إلاّ مثلها و هو الخلود في النّار لأنّ الشّرك أعظم الذّنوب

و النّار أعظم العقوبة ثمّ روي عن عن الأعمش عن أبي صالح أنّه قال الحسنة لا إله إلاّ اللّه و السّيئة الشّرك إنتهى.

و لقائلٍ أن يقول أيّ دليلٍ دلّ على أنّ المراد بالحسنة لا إله إلاّ اللّه و بالسّيئة الشّرك، من الكتاب أو السُّنة و أمّا قول أبي صالح الّذي هو من آحاد النّاس فلا يمكن تفسير كلام اللّه به هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول لازم ما ذكره هذا القائل هو إختصاص السّيئات بالمشركين و الحسنات بمن قال لا إله إلاّ اللّه و أن لم يعتقد بما قال كأكثر امسلمسن أمثال أبى سفيان و معاوية و يزيد و عبدالملك و الحّجاج و أمثالهم ممّن كانوا من القائلين بكلمة التّوحيد، و لا يقول بهذه المَقالة عاقل فضلاً عن مسلم.

نعم لا إله إلاّ اللّه، من الحسنات و هذا ممّا لا كلام فيه كما أنّ الشّرك من السّيئات و أمّا أنّ المراد بالحسنة هو القول بلا إله إلاّ اللّه كيف إتّفق و بالسّيئة الشِّرك فلا دليل عليه بل الدّليل على خلافه عقلاً و نقلاً.

ثالثاً: ظاهر قوله تعالىٰ: **مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ** أو السّيئة هو العمل المتّصف بالحسن أو القبح شرعاً و عقلاً وكلمة لا إله إلاّ اللّه ليست من سنخ الأعمال كما أنّ الشِّرك و هو عدم الإعتقاد به أيضاً كذلك بل الحقّ أنّ التّوحيد و الشِّرك من سنخ الإعتقادات واللّه تعالى لم يقل من قال بالحسنة أو من إعتقد بالحسنة فله عشر أمثالها و من إعتقد بالسّيئة فلا يجزى إلاّ مثلها بل قال من جاء بهما كذلك و هو ظاهر في العَمَل بل نقول في الآية دلالة علىٰ أنّ الإتيان بالحسنة حكمه كذلك سواء كان العامل بها موحّداً أو كافراً كما أنّ الإتيان بالسيّئة أيضاً علىٰ هذا المنوال والدّليل على ذلك قوله في أخر الآية **وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**.

وجه الإستدلال هو أنّ الكافر لو أتى بالحسَنة و لا يجزى عليها فهو ظلمٌ.

نعم لو يقال بعدم إستحقاق الكافر التّفضل لا إشكال فيه و أمّا الجزاء بالمثل فلابدّ منه قضاء لحكم الحقّ و لقوله تعالىٰ: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَ مَنْ**

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(١) و عليه فأصل الجزاء في الحسنة و السّيئة لا فرق فيه بين المسلم و الكافر و أمّا التّفضل في الحسنات بقوله فله عشر أمثالها فهو مختّص بالمؤمن أنّ دلّ عليه الدّليل.

و السِّر فيه هو أنّ الآية و أمثالها نـزلت لأجـل التّـرغيب فـي الخـيرات و التّجنب من السّيئات و هذا حكم عامّ يشمل الجميع والقائل بالتّخصّيص لابدّ له من إقامة الدّليل واذ ليس فليس هذاكلّه مع أنّ مقتضى العدل أيضاً ما ذكرناه.

و إعلم أنّ في المقام إشكالاً ذكره القرطبي و غيره من مفسّري العامّة و هو أنّ هذا الحكم منافٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ كَمَثَلِ حَـبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللّٰهَ قَرْضًا حَسَـنًا فَـيُضَاعِفَهُ لَـهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**(٣).

و جه التّنافي هو أنّه تعالىٰ حكم في المقام بأنّ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، و حكم هناك بأكثر من ذلك.

و قد أجابوا عنه بأنّ المعنى في ذلك أنّ جزاء اللّه على الحسنات عـلى التّضعيف للمثل الواحد الّذي هو النّهاية في التّقييد في النّفوس و يضاعف اللّه عن ذلك بما بين عشرة أضعاف الى سبع مائة ضعف الى أضعاف كثيرة ففائدة ذلك أنّه لا ينقص من الحسنة عن عشر أمثالها لا أنّه لا يزاد ففيما زاد علىٰ ذلك يزيد على من يشاء من فضله و إحسانه.

و قال بعضهم المعنىٰ من جاء بالحسنة فَلَه عشر أمثال المستّحق عليها و المستحقّ مقداره لا يعلمه إلاّ اللّه و ليس يريد بذلك عشر أمثالها في العدد.

١- الزلزال = ٧ و ٨
٢- البقرة = ٢٦١
٣- البقرة = ٢٤٥

و قال أخرون المعنى في ذلك أنّ الحسنة لها مقدار من الثّواب معلوم للّه تعالى فأخبر اللّه أنّه لا يقتصر بعباده على ذلك بل يضاعف لهم الثّواب حتّىٰ تبلغ ذلك ما أراد و علم أنّه أصلح لهم و لم يرد العشرة بعينها لكن أراد الأضعاف.

و قال قوم عني بهذه الآية الأعراب و أمّا المهاجرون فحسناتهم سبع مائة.

و قال قوم معنىٰ عشر أمثالها، لأنّه كان يؤخذ منهم العشر في الزّكاة وكانوا يصومون في كلّ شهر ثلاثة أيّام والباقي لهم.

و قال القرطبي العشر لسائر الحسنات والسّبع مائة للنّفقة في سبيل اللّه و الخاصّ والعامّ فيه سواء.

و نقل عن بعضهم أنّه قال العشرة للعوامّ و سبع مائة للخوّاص ثمّ إختار الأوّل لحديث ضريم بن فاتك عن النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و فيه و أمّا حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها و أمّا حسنة بسبع مائة فالنّفقة في سبيل اللّه.

و قال الرّازي، مَذهَبنا أنّ الثّواب تفضّل من اللّه تعالىٰ في الحقيقة وعلىٰ هذا التّقدير فلا إشكال في الآية انتهىٰ.

و أنا أقول الحقّ عندنا أنّ الثّواب إستحقاق بمعنىٰ أنّ العبد يستحقّ بعمله الثّواب إلاّ أنّ ثواب الحسنة الواحدة واحد مثلها و ما زاد عليه فهو من الفضل و فضل اللّه تعالىٰ غير متناهية و لا يمكن تحديده بحدٍّ من الحدود بل لا يبعد القول بتفاوته بتفاوت الإخلاص في العمل فمن كان إخلاصه أكثر كان فضل اللّه عليه أكثر و بالعكس و عليه فقوله بعشر أمثالها ليس للتّحديد واقعاً بل المراد به أقلّ مراتب الفضل و أمّا نهايته فلا يعلمها إلاّ اللّه تعالىٰ، أو أنّ المراد به مجرّد إعلام الكثرة و يدّل عليه قوله: **فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** وكيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى و العلم بأنّ الفضل بيده يعطي العبد كيف يشاء على مراتب قرب العبد في العبّودية و بعده عنها و اللّه أعلم.

روى في أصول الكافي بأسناده عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام فهل للمؤمن فضل على المُسلم في شيءٍ من الفضائل و الأحكام والحدود غير ذلك فقال عليه السلام: لا هما يجريانٍ في ذلك مجرىٰ واحد و لكن للمؤمن فضل علىٰ المُسلم في أعمالهما و ما يتقرّبان به الىٰ اللّه عزّ وجلّ قلت أليس اللّه عزّوجلّ يقول: مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا و زعمت أنّهم مجتمعون على الصّلاة و الزّكاة و الصّوم والحجّ مع المؤمن قال عليه السلام أليس قد قال اللّه عزّ وجلّ: فَيُضَاعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً فالمؤمنون هم الّذين يضاعف اللّه عزّوجلّ لهم حسناتهم لكلّ حسنةٍ سبعين ضعفاً فهذا فضل المؤمن و يزيده اللّه في حسناته علىٰ قدر صحّة إيمانه أضعافاً كثيرة ويفعل اللّه بالمؤمنين ما يشاء من الخَير والحديث طويل أخَذنا منه موضع الحاجة[١].

و أنت اذا تأمّلت في هذا الحديث لعلمت صحّة ما قلناه في تفسير الآية.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا قال هي للمسلمين عامّة و الحسنة الولاية فمن عمل حسنة كتبت له عشرة و الأحاديث كثيرة.

■

١- تفسير نور الثّقلين، ج ١، ص ٧٨٣.

قُلْ إِنَّنِي هَدٰينِى رَبِّىٓ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا
قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفًا وَ مٰا كٰانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلاٰتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيٰايَ وَ
مَمٰاتِي لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لٰا شَرِيكَ لَهُ وَ
بِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ
أَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لٰا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاّٰ عَلَيْهٰا وَ لٰا تَزِرُ وٰازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرٰى ثُمَّ إِلٰى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلاٰئِفَ ٱلْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجٰاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مٰآ آتٰيكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
ٱلْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

◁ اللّغة

قِيَمًا، القَيِّم فيعل من قام، كسيّد من ساد و هو أبلغ من القائم قاله صاحب الكشّاف و معناه الثّابت أي ثابتاً مقوّماً لأمور معاشهم و معادهم، و قال الزّجاج هو مصدر بمعنى القيام و وصف الدّين به على سبيل المبالغة.

حَنِيفًا، الحَنف هو ميلٌ من الضّلال الى الإستقامة، و الجنف بالجيم ميل عن الإستقامة الىٰ الضّلال، فالخيف هو المائل الىٰ الإستقامة.

نُسُكِي، النُسُك العبادة.

أَبْغِي أي أطلب و أتّخذ.

وِزْرَ بكسر الواو الإثم.

خَلاۤئِفَ جمع خليفة كصحائف جمه صحيفة.

◁ الإعراب

دِينًا في نصبه ثلاثة أوجه:

الأوّل: هو بَدَل من الصّراط علىٰ الموضع.

الثّاني: أنّه منصوب بفعل مُضمر أي عرّفني ديناً.

الثّالث: أنّه مفعول، هداني.

قِيَمًا بالتّشدّيد صفة لدين مِلَّةَ بدل من دين أو على إضمار أعني حَنِيفًا حال أو علىٰ إضمار أعنى لِلّٰهِ أي ذلك كلّه للّه.

◁ التّفسير

قُلْ إِنَّنِي هَدٰىنِى رَبِّىٓ إِلٰى صِراٰطٍ مُسْتَقِيمٍ أي قل يا محمّد لهؤلاء النّاس إنّني هداني ربّي، و الهداية تطلق على معنيين.

أحدهما: إراءة الطّريق، و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **إِنَّا هَدَيْنٰاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِرًا وَ إِمّٰا كَفُورًا**(١).

ثانيهما: الإيصال الىٰ المطلوب واليه أشار بقوله: **إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاۤءُ**(٢) فقوله: **إِنَّنِي هَدٰىنِى رَبِّىٓ** إشارة الىٰ المعنَيين أي أنّ اللّه تعالى أراني طريق الحقّ و أوصلني الى المطلوب و الصّراط المستقيم هي الّتي لاعوج فيها.

و أن شئت قلت هي الطّريق الوسطىٰ فأنّ اليمين و الشّمال مضلّة و الجادة الوسطىٰ هي الحقّ الحقيق بالإتّباع و لذلك نقول في كلّ صلاةٍ، إهدنا الصّراط المستقيم و قد تكلّمنا في هذا الباب في سورة الحمد **دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْراٰهِيمَ**

١- الانسان = ٣ ٢- القصص = ٥٦

حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ الدِّين بكسر الدّال يقال للّطاعة و الجزاء و أستعير للشّريعة و الدّين الملّة لكنّه يقال إعتباراً بالطّاعة و الإنقياد للشّريعة، قاله الرّاغب في المفردات، و قوله: **قِيَمًا** قرأ إبن عامر و أهل الكوفة بكسر القاف و تخفيف اليّاء و فتحها، و الباقون بفتح القاف و تشدّيد الياء و هو الأشهر و عليه المصاحف، وقوله: **قِيَمًا** أي ثابتاً مقوِّماً لأمور معاشهم و معادهم.

و أمّا على القراءة الأخرىٰ، أعني بها قيماً فهو مخّفف عن قيام و قيل هو وصف نحو قومٌ عدي و سكانٌ سوىً، و المعنى أنّه تعالى عرّفني ديناً قيّماً.

و قال الفّراء هو نصب على المصدر كأنّه قال هداني إهتداءً و وضع ديناً موضعه، و الملّة بكسر الميم و فتح اللاّم كالدِّين و هو إسم لما شرع اللّه تعالىٰ لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به الى جوار اللّه و الفرق بينهما و بين الدّين أنّ الملّة لا تضاف إلاّ الىٰ النّبي و لا تكاد تُوجد مضافةً الىٰ اللّه و لا الى أحاد أمّة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و لا تستعمل إلاّ في حملة الشّرائع دون آحادها، فلا يقال، ملّة اللّه و لا يقال ملّتي و ملّة زيد كما يقال دين اللّه و دين زيد و ديني فكلّ ملّةٍ دين و لا عكس.

و أصل الملّة من أمللت الكتاب، و تقال الملّة إعتباراً بالشّئ الّذي شرعه اللّه و الدّين يقال إعتباراً بمن يقيمه إذ كان معناه الطّاعة، و معنى الآية أنّ اللّه تعالىٰ هداني و عرّفني ديناً قيّماً أي ثابتاً مقوّياً لأمور معاش النّاس و معادهم و هو دين إبراهيم الخليل الّذي كان حنيفاً أي مخلصاً لعبادة اللّه، أو مائلاً الى الإسلام ميلاً لازماً لا رجوع فيه فقوله: **حَنِيفًا** نصب علىٰ الحال من إبراهيم و أنّما وصف دين النّبي بأنّه ملّة إبراهيم ترغيباً فيه للعرب لجلالة إبراهيم في نفوسهم و غيرهم من أهل الأديان و قوله و ما كان من المشركين، مدحٌ لأبراهيم عليه السلام حيث شهد اللّه بأنّه عليه السلام لم يشرك باللّه طرفة عين و من كان

كذلك فهو موّحد و اقعاً و لذلك كان حقيقياً بالإتّباع و مفهوم الكلام أنّ المشرك لا يتَّبع مطلقاً لأنّ المشتقّ أعمّ عمّا أنقضى عنه المبدء و لا يشترط فيه التَّلبس بالفعل و حيث أنّ الوصّي بعد النّبي يجب متابعته و الإنقياد له فالحكم ثابت له أيضاً المطلوب **قُلْ إِنَّ صَلاٰتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيٰايَ وَ مَمٰاتِي لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ، لاٰ شَرِيكَ لَهُ وَ بِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ اَلْمُسْلِمِينَ** ثمّ أمَرَ اللّه نبّيه بأن يقول لهؤلاء الكفّار، إنّ صلاتي و نسكي و محياي و مماتي، كلّها لِلّه ربّ العالمين، قال بعضهم أنّ المراد بالصّلاة المفروضة و قيل صلاة اللّيل صلاة العيد لمناسبة النسّك و قيل غير ذلك و الكلّ لا دليل عليه و الحقّ أنّ المراد بها مطلق الصّلاة، و أمّا النسك، فقد قيل معناه العبادة و قيل الذَّبيحة والأحسن حمله على العموم أيضاً إذ الخصوص لا دليل عليه و معنى محياي و مماتي للّه أنّه لا يملكها إلاّ اللّه أو حياتي لطاعته و مماتي رجوعي الى جزاءه و المقصود أنّ العبادة للعبد لا تكون إلاّ بتوفيقٍ من اللّه كما أنّ الحياة و المماة لا تكونان إلاّ بإرادته تعالىٰ لإنّ اللّه هو الّذي يحيي و يميت واللاّم في قوله: **لِلّٰهِ** للإختصاص و فيه إشارة الىٰ أنّ العبادة خالصة له بمعنى أنّ غيره كائناً ما كان لا يليق أن يعبد و الىٰ هذه الدّقيقة أشار بقوله ربّ العالمين إذ لا ربّ للعالمين سواه.

ثمّ وصف اللّه ثانياً بأنّه لا شريك له أي أنّي أعبد ربّ العالمين الّذي لا شريك له في الملك **وَ بِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ اَلْمُسْلِمِينَ** أي أنّي مأمورٌ بعبادته كذلك و أنا أوّل المسلمين، المطيعين المنقادين له من هذه الأمّة أو من جميع الخلق لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوّل ما خلق اللّه نُوری **قُلْ أَغَيْرَ اَللّٰهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار أغير اللّه أبغي، و أطلب، و الهمزة للإنكار أي لا أبغي غير اللّه و لا أتّخذ ربّاً سواه، و هو ربُّ كلّ شيءٍ، أي و الحال أنّه تعالىٰ ربّ كلّ شيءٍ و السرّ فيه.

هو أنّه إذا ثبت أنّ اللّه ربّ كلّ شيءٍ فكلّ موجود سواه كائناً ما كان فهو مربوبٌ مخلوق له و العقل السليم يحكم بقبح إتّخاذ المربوب ربّاً مع وجود الرّب الخالق له و ذلك لأنّ المخلوق المربوب محتاج الى خالقه و ربّه محتاجٍ ممكن الوجود و عبادة الممكن للممكن من أقبح الأفعال لعدم الفرق بين العابد والمعبود في الفقر و الإحتياج و لذلك قال على سبيل الإنكار، قل أغير اللّه أبغي ربّاً و هو ربّ كلّ شيءٍ.

أنّ هذا لا يكون **وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا** أي لا يكون جزاء عمل كلّ نفسٍ إلاّ عليها، و وجه إتّصاله بما قبله أنّه لا ينفعني في إبتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك لأنّه ليس بعُذرٍ لي في إكتساب غيري له لأنّه **وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** و قيل أنّ الكفّار قالوا للنّبي ﷺ إتّبعنا و علينا وزرك أن كان خطأً فأنزل اللّه الآية **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** أي أنّكم ترجعون الى ربّكم بعد هذه الحياة الدّنيا لا محالة فهناك ينبّئكم و يخبركم اللّه بالحقّ فيما إختلفتم فيه من الباطل فيمتاز المحسن من المسيئ بما يزول معه الشكّ و الإرتياب و يقع منه النَّدامة في وقتٍ قد فات فيه إستدراك الخطيئة و أيّ خسرانٍ أعظم منه.

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

خلائف بفتح الخاء جمع خليفة و الخلافة هي النيّابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنه و أمّا لموته و أمّا لعجزه و أمّا لتشريف المستخلّف و علىٰ هذا الوجه الأخير إستّخلف اللّه أولياءه في الأرض و المعنىٰ أنّ اللّه تعالى هو الّذي جعلكم خلائف الأرض.

إمّا لأنّ أهل كلّ عصرٍ يخلفون أهل العصر الّذي قبله كلّما مضى واحد خلفه آخر على إنتظامٍ و إتّساقٍ و ذلك يدّل على مدّبرٍ حكيم أجراه على هذه الصِّفة.

و أمّا لأنّه تعالىٰ جعلهم خلفاء الجّان الّذين كانوا قبل آدم.

و قال قوم معناه أنّا جعلناكم خلفاء سائر الأمّم و كيف كان فقد ذكر اللّه تعالى هذا اللّفظ في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ**(٥).

و محصّل الكلام هو أنّ سنّة اللّه جرت على ذلك و فيه إشارة الىٰ أنّ الإنسان لابدّ له من الموت و اذا كان كذلك فينبغي له أن لا يعتمد على الدّنيا و ما فيها من المال و الجاه و الأولاد و غيرها فأنّها في معرض الفناء و الزّوال كان كذلك لا يعتمد عليه.

وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ أي جعلكم كذلك.

قال السُّدي معناه رفع بعضهم فوق بعضٍ في الرِزّق و قوّة الأجسام و حسن الصوّرة و شرف الإنسان و غير ذلك بحسب ما علم مِن مصالحهم، و يحتمل أن يكون المراد الرَّفعة في العلم و الإيمان و الفهم و غير ذلك و الجامع هو أنّ اللّه تعالى لم يخلقهم على السّواء في الصوّرة و السّيرة و الصّفة بل خلقهم مختلفين متمايزين من جهاتٍ شتّىٰ على ما يقتضيه النظّام، ففي نظام الكلّ كلٌّ منتظم، و في قوله تعالىٰ: **لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَيٰكُمْ** إشارة الىٰ أنّ هذا التّفاوت و

١- النّور = ٥٥
٢- الأعراف = ١٢٩
٣- الأعراف = ١٦٩
٤- الأعراف = ٦٩
٥- الاعراف = ٧٤

الإختلاف من حيث الغنى و الفقر و العلم و الجهل و هكذا ليس منشأه العجز و الضّعف و البُخل و أمثال ذلك ممّا لا يليق بجنابه بل أنّما هو لأجل الإبتلاء و الإختبار ليختبر الغنّي بالفقير و الفقير بالغنّى و العالم بالجاهل و الجاهل بالعالم و القّوي بالضّعيف و الضّعيف بالقوّي و هكذا مضافاً الى أنّ حفظ النظّام أيضاً يقتضي التّفاوت بينهم من تلك الجهات و هو واضحٌ **إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** قالوا أنّما وصف نفسه بأنّه سريع العقاب مع وصفه تعالى بالإمهال و مع أنّ عقابه في الآخرة من حيث كان كلّ آتٍ قريباً، فهو إذاً سريع كما قال: **وَ مَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْهُوَ أَقْرَبُ**(١)

و يحتمل أن يكون المراد أنّه سريع العقاب بمن إستّحقه في دار الدّنيا فيكون تحذير الواقع على الخطيئة على هذه الجهة، و قيل معناه أنّه قادر على تعجيل العقاب فأحذروا فعاجلته.

ثمّ قال: **وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** بعد قوله: **سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ** للدّلالة على أنّ اللّه مع أنّه سريع العقاب فهو غفورٌ و رحيمٌ أيضاً بمعنىٰ أنّه تعالى أرحم الرّاحمين في موضع العفو و المغفرة و أشدّ المعاقبين في موضع النّكال و النّقمة فينبغي أن يكون المؤمن بين الخوف و الرّجاء و أنّما قدّم العقاب على الغفران و الرّحمة في هذا المقام مع أنّه قد ثبت أن رحمته سبقت غضبه لأنّ الغفران و الرّحم لا ينحقّق إلاّ بعد إستحقاق العقاب ففي الآية دلالة علىٰ أنّ اللّه يغفر المذنبين المستحقّين للعقاب بعد التّوبة أو مطلقاً و بعبارةٍ أخرىٰ أن شاء عذّب و أن شاء غفر و هو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و المراد بالعقاب في الآية معناه العّام سواء كان في الدّنيا أم في الآخرة أو فيهما فأنّ الأمور بيده.

❊ ❊ ❊

١- النّحل = ٧٧

سُورة الأعراف

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتٰابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاٰ يَكُنْ فِي
صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرٰى لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٢﴾ اِتَّبِعُوا مٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا
مِنْ دُونِهِٓ أَوْلِيٰآءَ قَلِيلًا مٰا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِنْ
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا فَجٰآءَهٰا بَأْسُنٰا بَيٰاتًا أَوْ هُمْ قٰآئِلُونَ
﴿٤﴾ فَمٰا كٰانَ دَعْوٰيهُمْ إِذْ جٰآءَهُمْ بَأْسُنٰآ إِلّٰآ أَنْ
قٰالُوٓا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ
إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ
بِعِلْمٍ وَ مٰا كُنّٰا غٰآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَ ٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَ
مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا
أَنْفُسَهُمْ بِمٰا كٰانُوا بِـاٰيٰاتِنٰا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَ لَقَدْ
مَكَّنّٰاكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ
قَلِيلًا مٰا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

◁ اللّغة

فِي صَدْرِكَ: الصَّدر بفتح الصّاد الجارحة و جمعه صدور ثمّ أستعير لمقدّم الشّئ كصدر المجلس و الكلام و غيرهما.

حَرَجٌ: بفتح الحاء و الرّاء في الأصل مجتمع الشئ وتصّور منه ضيق ما بينهما فقيل للضّيق الحرج و يطلق على الإثم أيضاً.

بَأْسُنَا: البأس الشدّة و المكروه.

بَيَاتًا: البيات والتّبيت قصد العدّو لَيلاً.

◁ الإعراب

كِتَابٌ يجوز أن يكون خبراً لقوله، المص، و أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذا أو هو كتابٌ أُنْزِلَ صفة له مِنْهُ نعتٌ للحرج وَ ذِكْرَىٰ يمكن أن يكون منصوباً على الحالّية من الضّمير في أنزل، و ما بينهما معترضٌ، و أن يكون معطوفاً على موضع، لِتنذر، و قيل أنّه في موضع رفع بناءً على أنّه معطوف على، كتاب، أو على أنّه خبر إبتداءٍ محذوف أي و هو، ذكرى، و قيل مَوضعه جرّ عطفاً على موضع، تنذر مِنْ رَبِّكُمْ متعلّق، بأنزل، أو متعلّق بمحذوف و يكون حالاً أي أنزل اليكم كائناً من ربّكم، مِنْ دُونِهِ حال من أولياء وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ كم، مبتدأ، و من قرية تبيين و الخبر أَهْلَكْنَاهَا و تأنيث الضّمير لأنّ، كم، في المعنىٰ قرى و قيل أنّ أهلكناها، صفة لقريةٍ و الخبر فَجَاءَهَا بَأْسُنَا و هو غلط لوجود الفاء و قيل، أنّ، كم، في موضع نصب بفعلٍ محذوف دلّ عليه، أهلكناها، والتّقدير كثيراً من القرىٰ أهلكناها بَيَاتًا إسم للمصدر و هو في موضع الحال و قيل أنّه مفعول له، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ الجملة حال، وأو لتفصيل الجمل أي جاء بعضهم بأسنا ليلاً و بعضهم نهاراً دَعْوَاهُمْ يجوز أن يكون إسم كان و إِلَّا أَنْ قَالُوا الخبر و يجوز العكس بِعِلْمٍ في موضع الحال أي عالمين وَالْوَزْنُ مبتدأ ويَوْمَئِذٍ خبره الْحَقُّ صفة للوزن أو خبر مبتدأ محذوف بِمَا كَانُوا ما مصّدرية أي بظلمهم.

التّفسير

الٓمٓصٓ إختلفت كلمات المفسّرين في أوائل السُّور بالحروف المقطّعة فالمشهور أنّها أسماء للصوّر و قد مرّ الكلام في هذا الباب في أوّل سورة البقرة.

و نقل عن إبن عبّاس في هذا المقام أنّه قال معناه، أنا اللّه أعلم و أفصل، و اللّه أعلم.

كِتٰابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاٰ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

لا خلاف في أنّ المراد بالكتاب هو القرآن و التّقدير هذا كتابٌ أنزل اليك، من اللّه تعالىٰ: **فَلاٰ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ** قيل في معناه أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ، و قيل لا يضيق صدرك ألاّ يؤمنوا، فأنّما عليك البلاغ والإنذار. و أمّا إيمانهم أو كفرهم فهو ليس بيدك.

و قال مجاهد و قتادة أنّ الحرج هنا الشكّ و لكن ليس هذا شكّ الكفر هو شكّ الضّيق و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمٰا يَقُولُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَعَلَّكَ تٰارِكٌ بَعْضَ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ**(٢).

و قال الحسن أي لا يضيق صدرك لتشعّب الكفر بك خوفاً ألاّ تقوم بحقّه و أنّما أنزل اليك لتنذر به، و قال الفرّاء معناه لا يضيق صدرك بأن يكذّبوك **لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** أي أنمّا أنزلناه اليك لتنذر النّاس به وأن يكون الكتاب أو الإنذار ذكرى للمؤمنين فالذّكرى إسم للتّذكير.

قال بعضهم الإنذار للكافرين و الذّكرىٰ للمؤمنين لأنّهم المنتفعون به.

قال الرّازي في المقام ما هذا لفظه.

١- الحجر = ٩٧

٢- هود = ١٢

و البحث العقلي فيه أنّ النّفوس البشّرية على قسمين:

نفوسٌ بليدة جاهلة بعيدة عن عالم الغَيب غريقة في طلب اللّذات الجّسمانية و الشّهوات الجسدانيّة، و نفوس مشرقة بالأنوار الإلٰهّية مستعدّة بالحوادث الرّوحانية فبعث الأنبياء والرُّسل في حقّ القسم الأوّل إنذار و تخويف فأنّهم لمّا غرقوا في نوم الغفلة و رقدة الجهالة احتاجوا الى مواعظ يوقظهم و الىٰ منّبهٍ ينسبّهم.

و أمّا في حقّ القسم الثّاني فتذكير و تنبيهٌ و ذلك لأنّ هذه النّفوس بمقتضى جواهرها الأصلّية مستعدّة للإنجذاب الىٰ عالم القدس والإتّصال بالحضرة الصّمدية إلاّ أنّه ربما غشيها من عالم الجسم فيعرض لها ذهول و غفلة فإذا سمعت دعوة الأنبياء و أتّصل بها أنوار أرواح رسل اللّه تذكّرت مركزها و أبصرت مَنشأها و أشتاقت الى ما حصل هنالك من الرّوح و الرّاحة و الرّيحان فثبت أنّه تعالى إنّما أنزل هذا الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حقّ طائفة و ذكرى في حقّ طائفةٍ أخرىٰ و اللّه أعلم إنتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

و نحن نقول ما ذكره و سمّاه بالبحث العقلي لا ربط له بتفسير كلام اللّه و مع ذلك لا يحكم العقل به و ذلك لأنّ النّفوس الشّريفة المشرقة بالأنوار الإلٰهّية لا تكون كذلك إلاّ بمتابعة الأنبياء كما أنّ النّفوس البعيدة عن عالم الغيب الغريقة في طلب اللّذات الجّسمانية و الشّهوات الجّسدانية أيضاً لا تكون كذلك إلاّ بالتّمرد و مخالفة الأنبياء و اذا كان الأمر على هذا المنوال فنقول أنّ اللّه تعالىٰ أنزل الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حقّ الكلّ و تذكيراً كذلك:

قال اللّه تَعالىٰ: **اَلَّذي نَزَّلَ اَلْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمينَ نَذيرًا**(١).

قال اللّه تَعالىٰ: **وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلا كافَّةً لِلنّاسِ بَشيرًا وَ نَذيرًا**(٢) وأمثال ذلك من الأيات الكثيرة.

فالإنذار في حقّ طائفةٍ دون طائفة أخرى كلام لا معنىٰ له.

١- الفُرقان = ١   ٢- سبأ = ٢٨

و أن أراد الرّازي بقوله هذا أنّ اللّه تعالى خَلق بعض النّفوس مستعدّة مشرقة بالأنوار الإلٰهّية و بعضها بليدة خبيثة شريرة غير مستعدّة فنحن لا نقول به لأنّه عين الجبر.

نعم هذا يتّم علىٰ مسلك الرّازي لأنّه معتقدٌ به و ليت شعري كيف يقول العاقل أنّ بعض النّفوس لا يحتاج الىٰ الإنذار أليس معنى هذا الكلام أنّ الأنبياء إنّما بعثوا الى الجّهال دون العقلاء لأنّهم لا يحتاجون الىٰ الإنذار و من المعلوم أنّ من لا يحتاج الى الإنذار لا يحتاج الىٰ النّبي قطعاً إذا عرفت هذا فأعلم أنّ معنى الآية هو أنّ اللّه تعالى أنزل الكتاب على رسوله لينذر به المؤمنين و يذّكرهم و تخصيص المؤمنين بالذّكر مع أنّ الرّسول مبعوثٌ الىٰ المؤمن و غيره و منذِرٌ و مذّكرٌ للمؤمن و غيره لأنّ غير المؤمن لا ينتفع بالإنذار و بالتّذكير غالباً كما قال هدىٰ للمتّقين، و أمّا الإنذار في حقّ طائفةٍ و التّذكير في حقّ طائفة أخرى فلا يساعده العقل و النّقل و العرف.

اِتَّبِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ قَلِيلًا مٰا تَذَكَّرُونَ

أمر اللّه المكلّفين بمتابعة ما أنزل اليهم و هو القرآن و نهاهم عن متابعة غير اللّه تعالىٰ أو غير الكتاب و المآل واحد لأنّ متابعة الكتاب مُتابعة اللّه و بالعكس و الأولياء جمع ولّي و هو ضدّ العّدو و قوله: **قَلِيلًا مٰا تَذَكَّرُونَ** معناه الإستبطاء في التذّكر و خرج مخرج الخبر و فيه معنى الأمر، أي تذّكروا كثيراً ممّا يلزمكم من أمر دينكم و ما أوجبه اللّه عليكم ثمّ أخبر أنّهم قليلاً ما تذّكرون، و الماء زائدة **وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنٰاهٰا فَجٰاءَهٰا بَأْسُنٰا بَيٰاتًا أَوْ هُمْ قٰائِلُونَ** قالوا لفظة، كم، موضوعة للتكثير كما أنّ لفظة، ربّ، للتّقليل و ذلك لأنّ ربّ، حرف، و، كم، إسم و التّعليل ضربٌ من النّفي، إلاّ أنّ، كم، تدخل في الخبر بمعنىٰ التّكثير و أمّا في الإستفهام فلا، ثمّ إنّ اللّه تعالىٰ أَخبَر الكفّار على

وجه التّخويف و الإيعاد أنّه أهلك كثيراً من القرىٰ يعني أهلها لعصيانهم و كفرهم باللّه وقال: **فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا** أي جاء أهل القرية بأسَنا و عذابنا في اللّيل أمرهم قائلون، يعني وقت القيلولة و هو نصف النّهار و أصله الرّاحة لأنّ معنىٰ أقلته البيع أرحته منه بإعفائي إيّاه من عقده و إنّما نزّل العذاب كذلك لأنّ الأخذ بالشدّة في وقت الرّاحة أعظم في العقوبة فلذلك خصّ الوقتين بالذّكر.

قال الفّراء الفاء في قوله: **فَجَاءَهَا** بمعنىٰ الواو أي و جائها و قال الرّماني هذا يجوز إذا كان له دليل و إذ ليس فليس فالفاء بمعناها، و الحقّ أنّ الفاء ليست للتّعقيب و إنّما هي للتّفسير كقولهم توضّأ فغسل كذا ثمّ كذا، وكلمة، أو، للتّنويع أي جاء بالبأس مرّةً ليلاً كقوم لوط و مرّة وقت القيلولة كقوم شعيب، و قوله: **بَيَاتًا** نصب على الحال و هو مصدر أي فجائها بأسنا بائتين و هكذا قوله: **أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** جملة في موضع الحال و التّقدير، أو قائلين.

أن قُلت ظاهر قوله تعالىٰ: **فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا** هو أنّ البأس جاء بعد الإهلاك بدليل الفاء الّتي تفيد التّرغيب و التّأخير فإذا قلت جائني زيد فعمروٌ، معناه أنّ زيداً جاء قبل عمرو إلاّ أنّ الترتّيب كان متّصلاً بمعنى أنّ عمرو جاء بعد زيد و لكن كان مجيئه متّصلاً بمجئ زيد و هذا هو الفرق بينهما و بين، ثمّ، حيث أنّها للترتّيب الإنفصالي فقولنا جائني زيد ثمّ عمروٌ يدّل على أنّ عمرو كان مجيئه بعد زيد مُنفصلاً أي بعد لحظةٍ و ساعة مثلاً.

قال إبن مالك في الفيّته، والفاء للترتّيب بإتّصالٍ و ثُم إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالىٰ: **أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا** يدّل على مجيئ البأس و الشدّة بعد الإهلاك و هذا لا معنى له و قد أجيب عنه بوجوهٍ:

أحدهما: أنّ الفاء بمعنى الواو الّتي تفيد الجمع بين المعطوف و معطوف عليه و المعنى جائهم الإهلاك و البأس معاً.

ثانيها: أنّ التّقدير وكم من قريةٍ أردنا إهلاكها فجائها بأسنا الأية المعلوم أنّ البأس و العذاب بعد الإرادة.

ثالثها: أنّ الفاء للتّفسير لا للتّعقيب كما مرّ الكلام فيه.

رابعها: أنّ الهلاك وقع ببعض القوم أوّلاً و بالجمع ثانياً فالمعنى أهلكنا بعضهم فجائهم بأسنا جميعاً.

خامسها: أنّ التّقدير **كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا** في حكمنا **فَجَآءَهَا بَأْسُنَا**

سادسها: أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب فجائها بأسنا بالإستِئصال.

سابعها: أنّ المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إيّاهم في وقت كذا فمجيئ البأس علىٰ هذا هو الهلاك بعينه **فَمَا كَانَ دَعْوَيٰهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ إِلَّآ أَنْ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** قيل أنّ الدّعوى و الدّعاء واحد و فرّق قوم بينهما بأنّ في الدّعوىٰ إشتراكاً بين الدّعاء و الإدّعاء المال و غيره و أصله الطّلب.

و قال الرّاغب في المفردات الدُّعاء الى الشّئ الحثّ على قصده و الدَّعوة مختصّة بإدّعاء النّسبة و أصلها للحالة الّتي عليها الإنسان نحو القعدة و الجلسة أنتهىٰ.

قال بعضهم أن الدّعوى في الآية بمعنىٰ الإدّعاء أي وكان إدّعاءهم كذا كما أنّها بمعنىٰ الدُّعاء في قوله تعالىٰ: (و آخر دَعواهُم أنِ الحمدُ لِلّه ربّ العالمين).

و أنا أقول ما ذكروه في المقام و هو أنّ الدّعوىٰ بمعنى الإدّعاء لا يساعده العقل و لا النّقل و ذلك لأنّ الدُّعاء لمطلق الطَّلب و الإدّعاء لطلب إثبات الشّئ سواء كان محقّاً فيه أم لا كما يقال فلان يدّعي العلم أو المال فربّما يكون في إدّعاءه صادقاً محقّاً و ربما لا يكون و لذلك يقال البيّنة على المدّعي و اليمين على من أنكر، لأنّ المدّعي قد يطلب ما ليس له و هذا بخلاف الدُّعاء الّذي لا يكون إلاّ لمجرّد الطلب و لذلك قال بعض أهل اللّغة المدّعي من يكون في إثبات قضّية علىٰ غيره، و قد يطلق الدّعوى علىٰ القول و لا يبعد أن يكون المقام من هذا القبيل فمعنى قوله: **فَمَا كَانَ دَعْوَيٰهُمْ** فما كان قولهم الكلام في قوله و آخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين.

أي و آخر كلامهم و قولهم و أنّما قلنا ذلك لأنّ الدّعوىٰ بمعنى الإدّعاء أو بمعنىٰ الطّلب لا يستقيم في المقام، إذ لا معنىٰ لقولنا فما كان إدّعاءهم كذا و هو واضح لا خفاء فيه و عليه فمعنى الآية أنّ الكفّار لمّا وقعوا فيما وقعوا من العذاب و البأس ماكان قولهم عند رؤيتهم البأس و العذاب **إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ** أي أنّهم أقّروا بكفرهم و ظلمهم إلاّ أنّ الإقرار بعد الإنكار حين رؤية العذاب لا نفع فيه **فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ** النّون في قوله **ولنسئلن** في الموضعين للتأكيد يتلّقى به القسم و أنّما بنى المضارع مع نون التّأكيد لأنّه أنّما دخلت عليه طلباً للتّصديق، أقسم اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يسأل المكلّفين الّذين أرسل اليهم رسله و أقسم أيضاً أنّه ليسأل المرسلين و هم الأنبياء الّذين بعثوا اليهم فالسؤال عن الأنبياء عن الإبلاغ و عن المكلّفين عن الإمتثال والإنقياد و هذا لا ينافي علمه تعالى بماكان منهم لأنّه أنّما أخرجه مخرج التّهديد و التّوعيد و الزّجر ليتأهب العباد لذلك السؤال

(فلنقصنّ عليهم بعلم و ما كنّا غائبين) قسم آخر وفيه إخبار منه تعالىٰ أنّه يقصّ عليهم بما عملوه لعلمه بجميع ذلك و أنّما أتىٰ بنون الجمع إمّا لأنّ هذا على كلام العظماء من الملوك لأنّ أفعالهم تضاف الىٰ أولياءهم و أمّا لأنّ الملائكة تقصّ عليهم بأمر اللّه و أصل القصّ ما يتلوا بعضه بعضاً و منه المقصّ و في قوله بعلم ذكروا وجهين:

أحدهما: معناه بإنّا عالمون.

ثانيهما: بمعلوم كما قال و لا يحيطون بشئ من علمه، أي من معلومه و قوله: **كُنَّا غَآئِبِينَ** أي أنّه لا يخفىٰ علينا شئ لأنّ الغائب البعيد عن حضرة الشّئ قيل فيه دلالة على أنّه تعالىٰ ليس بجسم.

فعن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه أحوال القيامة وفيه، فيقام الرّسل فيسألون عن تأدّية الرّسالات الّتي حملوها الى أممهم فأخبروا أنّهم قد أدّوا ذلك الىٰ أممهم و تسأل الأمم فيجحدون

فيقولون ما جاءنا من بشيرٍ و لا نذيرٍ فتشهد الرُّسل رسول اللّه فيشهد بصدق الرّسل و بكذب من جحدها من الأمم فيقول لكلّ أمّةٍ منهم، بلى قد جاءتكم بشيرٌ و نذيرٌ واللّه علىٰ كلّ شيءٍ قدير.

أي مقتدر على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرّسل اليكم رسالاتهم و في تفسير علّي بن إبراهيم في هذه الآية قال الأنبياء عمّا حملوا من الرّسالة و في قوله فلنقصنّ عليهم الآية قال لم تغب عن أفعالهم.

و أعلم أنّ في المقام إشكالاً لابدّ من التّنبيه عليه و هو أنّه تعالىٰ قال هاهنا، **فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ** و لا خلاف في أنّ المراد بقوله أرسل اليهم هو النّاس، فهذا صريح في أنّهم مسؤلون غداً يوم القيامة مع أنّه صرَّح في موضع آخر بعدم السؤال:

قال اللّه تعالىٰ: **فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَآنٌّ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ** (٢) فكيف الجمع بينهما و قد أجيب عنه بوجوهٍ:

أحدهما: أنّه تعالى يسألهم سؤال توبيخ و تبكيتٍ و نفى أن يسألهم سؤال إسترشادٍ و إستعلامٍ.

الثّاني: نفىٰ السؤال عند حصولهم في العقوبة و أثبت السّؤال قبلها.

الثّالث: لا يسألون عن الأعمال لأنّ الكتب مشتملة عليها و لكنّهم يسألون عن الدّواعي الّتي دعتهم الى الأعمال و عن الصّوارف الّتي صرفتهم عنها.

و أقوى الوجوه الأوّل و هو أنّه يسألهم قبل دخولهم في النّار فإذا دخلوها إنقطع عنهم سؤالهم ثمّ أنّ السّؤال في اللّغة علىٰ أربعة أقسام:

أحدها: الإسترشاد و الإستعلام كقولك أين زيد و من عندك و من المعلوم عدم جوازه عليه تعالى لأنّه لا يخفى عليه شيءٍ و هو علاّم الغيوب فلا معنىٰ للإستعلام والإستفهام في حقّه.

١- الرّحمٰن = ٣٩ ٢- القصص = ٧٨

الثّاني: للتّوبيخ و التّقريع و هو خبر في المعنىٰ كقولك، ألم أحسن اليك فكفرت نعمتى:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِيٓ اٰدَمَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَكُنْ اٰياتي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ**[3].

و يعبّر عنه بالإستفهام الإنكاري الّذي هو في معنىٰ الإثبات و منه قول الشّاعر:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحٍ

و ذلك لأنّ الشّاعر لو كان سائلاً حقيقة لما كان مادحاً.

الثّالث: للتّخصيص و فيه معنى، ألا، كقولك هلاّ تقوم، و ألا تضرب زيداً أي قم و أضرب زيداً.

الرّابع: سؤال تقريرٍ بالعجز و الجهل كقولك للرّجل هل تعلم الغيب و هل تعرف ما يكون غداً و هل تقدر أن تمشي علىٰ الماء و منه قول الشّاعر:

و هل يصلح العطّار ما أفسد الدَّهر.

أي ليس يصلح إذا عرفت السّؤال و أقسامه فقد علمت أنّ سؤال الخالق عن العبد على سبيل الإستعلام و الإستخبار لا معنىٰ له لأنّه تعالى كان عالماً بأعمالهم قبل خلقهم فلا محالة يكون للتّوبيخ و التّقريع و أمّا سؤاله للمرسلين فهو توبيخ للكفّار و تقريع لهم حقيقة و أمّا بالنّسبة الى المرسلين فلا واللّه أعلم بحقيقة كلامه.

وَ ٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

١- يٰس = ٦٠ ٢- الأنعام = ١٣٠
٣- المؤمنون = ١٠٥

الوَزن معرفة قدر الشّيْ يقال وزَنتُه وَزَناً وَزِنة، لكّن المتعارف منه عند العامّة ما يقدّر بالقسط و القبّان قاله في المفردات و الموازين بفتح الميم جمع ميزان و هو ما يقدّر به الوزن أي أنّه سبب وآلة له و قال بعضهم الوزن في اللّغة هو مقابلة أحد الشّيئين بالآخر حتّىٰ يظهر مقداره و هو قريبٌ ممّا ذَكره الرّاغب ثمّ أنّ الوزن قد يستعمل في غير ذلك تشبيهاً به فيقال وزن الشعر بالعروض و منها قولهم فلان يزن كلامه أو لا وزن لكلامه و منه قول الشّاعر:

وإذا وضعت أباك في ميزانهُم رَجحوا وشال أبوك في الميزان

و من المعلوم أنّ هذا الإستعمال مجاز لا حقيقة، و أمّا كيفيّة الميزان يوم القيامة فلا نعلمها واقعاً فما قيل أو يقال مجرّد حدسٍ و وهم. و لذلك قال بعضهم الوزن في الآية كناية عن العدل في الآخرة و أنّه لا ظلم فيها على أحدٍ و يؤيّده ما رواه في الاحتجاج عن أبي عبد اللّه في حديث طويل و فيه قال السّائل أو ليس توزن الأعمال قال عليه السلام لا، لأنّ الأعمال ليست بإحسامٍ و إنّما هي صفة ما عملوا و إنّما يحتاج الىٰ وزن الشّئ من جهل عدد الأشياء يعرف ثقلها و خفّتها و أنّ اللّه لا يخفى عليه شئ قال فما معنىٰ الميزان قال عليه السلام العدل، قال فما معناه في كتابه **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** قال فمن رجح عمله، و في تفسير علّي بن إبراهيم في قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ** قال عليه السلام المجازاة بالأعمال أن خيراً فخير و أن شّراً فشّر و هو قوله فمن ثقلت موازينه الآية و عن كتاب الخصال عن محمّد بن موسىٰ قال سمعت أبا عبد اللّه يقول أنّ الخير يثقل على أهل الدّنيا على قدر ثقله في موازينهم يوم القيامة و أنّ الشّر خفّ على أهل الدّنيا على قدر خفّته في موازينهم يوم القيامة. فأن قيل ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالىٰ: **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** و من خفّت موازينه.

قلنا إنّما جمعه لأنّه أراد بالميزان الموزونات من الأعمال أو أنّه تعالىٰ جمعه لأنّه ميزان يقوم مقام موازين و يفيدنا فائدتها لأنّه يوزن به ذرّات الأعمال و ما كان منها في عظم الجبال.

أقول و قد ورد في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام السّلام على ميزان الأعمال، معناه أنّ اللّه تعالىٰ يوزن أعمال العباد بولاية أمير المؤمنين فما كان من الأعمال على أساس الولاية فهو حقّ و ما لم يكن فهو باطل فقوله تعالىٰ: **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** أي من ثقلت موازينه بولاية علّي و الأئمة من بعده **فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** و من خفّت موازينه بسبب عدم الولاية **فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** والىٰ هذا المعنىٰ أشار رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله يا علّي أنت قسيم الجنّة و النّار.

وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَظْلِمُونَ

قد ظهر معنى هذه الآية من الآية السّابقة و ذلك لأنّه إذا كان المفلحون من ثقلت موازينهم فلا محالة يكون الخاسرون من خفّت موازينهم و ذلك لأنّ الخفّة و الثّقل متضادان لا يمكن الجمع بينهما كما أنّ الفلاح و الخسران أيضاً كذلك فكلّ عملٍ يومئذٍ لا يخلو منهما فإذا كان الثّقيل من الأعمال يوجب الفلاح فيكون الخفيف منها موجباً للخسران لإستحالة إجتماعها و إرتفاعهما و أمّا قوله: **خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** ففيه دلالة على أنّ العاصي قد أضرّ بنفسه بسبب عصيانه بمعنى أنّ وباله عليه لا على غيره و قوله: **بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَظْلِمُونَ** فقالوا في معناه أي ظلمهم بآيات اللّه مثل كفرهم بها و جحدهم إيّاها.

أقول هكذا فسّروا كلام اللّه.

قال الرّازى، في المقام قال أكثر المفسّرين المراد من قوله: **وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ** الكافر و الدّليل عليه القرآن و الخبر و الأثر، أمّا القرآن فقوله تعالىٰ: **فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** و لا معنىٰ لكون الإنسان ظالِماً بآيات اللّه إلاّ كونه كافراً بها منكراً لها فدلّ هذا علىٰ أنّ المراد من هذه الآية أهل الكفر إنتهىٰ.

و لقائل أن يقول من أين علمت أنّ الظّلم بآيات اللّه الكفر بها والإنكار لها حتّى تكون الآية مختصّة بالكافر، و ما الدّليل علىٰ ما أدعيت فأن كان الدّليل هذه الآية فهو مصادرة بالمطلوب و إن كان غيرها فما هو و لا ينبغي لمن آمن باللّه و اليوم الآخر أن يفسّر كلام اللّه بمقتضى وهمه و خياله.

ثانياً: لو كان المراد بقوله: **وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ** الكافر فقط يلزم أن لا يكون من المسلمين من خفّت موازينه أحدٌ، و اذا كان كذلك فكلّهم ممّن ثقلت موازينه إذ لا واسطة بين الثّقل و الخفّة و لازم هذا القول هو أنّ المسلمين كلّهم مفلحون و الكفّار كلّهم خاسرون أمّا الكفّار فلا كلام في خسرانهم المسلمون فكيف يقال بفلاح كلّهم أليس لازم ذلك أن لا يدخل النّار أحد من المسلمين لأنّه ممّن ثقلت موازينه و أن فعل في الدّنيا ما فعل من المعاصي و القبائح، لأنّه لم ينكر الآية أو الأيات ولم يكفر بها، و هل يقول بهذه المقالة السّخيفة عاقل فضلاً عمّن يدّعي الإسلام إن قلت فما معنىٰ الآية قلنا معناها أنّ الظّالمين بها، علىٰ صنفين صنفٌ يكفر بها و ينكرها و هم الكفّار و صنفٌ لا يَكفُر بها و لا يَنكُرها بل يَعتقد بها و يتلوها في الأيّام و اللّيالي و يتيمن بها و يتبرّك بها في الظّاهر ولكن لا يعمل بها بل يعمل على خلافها و يدخل في هذا الصّنف كثير من المسلمين بل أكثرهم فالظّلم على الأيات لا ينحصر بالكُفر بها و الإنكار لها بل يشمل الكفر و الإعراض عنها عملاً:

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ اَلْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلّا كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيٰاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهٰا**(٤).

١- البقرة = ٨٣ ٢- الأنبياء = ٢٤
٣- الأنعام = ٤ ٤- الكهف = ٥٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**(١).

و أمثال ذلك من الآيات الدّالة علىٰ أنّ الإعراض عن الآيات عدّ من الظّلم بها كثيرة و من المعلوم أنّ المراد بالإعراض عنها هو الإعراض من حيث العمل لا من حيث الإعتقاد و القراءة و لا الإعراض بمعنى الكفر بها فحسب لأنّ الخطاب فيها للمسلمين فلو كانوا المراد بالظُّلم بها هو الكفر بها فقط كما زعمه الرّازي و أمثاله فما معنىٰ هذه الآيات و محصّل الكلام هو أنّ الظّلم بالآيات أعّم من الكفر بها أو الإعتقاد بها و العمل على خلافها كما هو كذلك بالنّسبة الى المسلمين و عليه فأكثرهم من مصاديق **فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** هذا كلّه إذا حملنا قوله تعالى بآياتنا، على الآيات القرآنية و أمّا إذا حملنا الآيات علىٰ الأعّم منها و من الآيات التّكوينية الكاملة أعني بها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمّة الأثني عشر بعده فالأمر أوضح على رغم الرّازي و أتباعه و المراد بالظّلم عليهم هو إنكار فضائلهم و عدم الإنقياد لهم و الرَّد عليهم و إيذائهم و قتلهم و سبَّهم و هكذا و لا يخفىٰ على المحقّق الخبير المنصف أنّ المسلمين فعلوا جميع أقسام الظّلم الجسمي و الرُّوحي في حقّهم مضافاً الى إنكارهم وصايتهم و إمامتهم بعد رسول اللّه و إيذائهم شخص رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بإيذاء بضعته فاطمة الزّهراء و ردّهم عليه صلى الله عليه و آله و سلم قوله: **من كنتُ مَولاه فهذا علّي مَولاه** الىٰ أخر الكلام.

و لعمري أنّ هذا الظّلم الّذي وقع منهم في حقّ الرّسول و أولاده من أكبر مصاديق الظّلم في الإسلام و سيعلم الذّين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون انّا للّه وإنّا اليه راجعون.

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ

١- السّجدة = ٢٢

أي و لقد ثبّتناكم و قدّرناكم في الأرض والمعايش عند جميع النّحويين لا يهمز و متى همز كان لحناً لأنّ الياء فيها أصلّية لأنّه من عاش يعيش و لم تعرض فيها علّة كما عرضت في أوائل و هى في (مدينة) زائدة ولذا تجمع علىٰ (مدائن) و محصّل المعنىٰ هو أنّه تعالىٰ أخبر على وجه الإمتنان على خلقه بأصناف نعمته أنّه مكّن عباده في الأرض ليتصرّفوا فيها بما شاءوا و أرادوا و أصل التّمكين إعطاء ما يصّح معه الفعل مع إرتفاع المنع لأنّ الفعل كما يحتاج الى القدرة يحتاج الى الألة و السّبب كما يحتاج الى رفع المنع فالتّمكين عبارة عن حصول جميع ذلك.

و من المعلوم أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان و مكّنه و هذا لا يحتاج الى مزيد بيان و فى قوله: **وَ جَعَلْنا لَكُمْ** أي في الأرض، معايش، إشارة الى نكتته أُخرىٰ و هي أنّ التّمكن فيها لأجل تحصيل المعيشة التّي تتوقّف عليها إدامة الحياة فأنّ الإنسان يحتاج الىٰ الغذاء و المسكن و اللّباس و غيرها و كلّ هذه من الأرض و قوله: **قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ** إشارة الىٰ أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و مع ذلك قليل من عبادي الشّكور و قد مرّ الكلام في معنى الشّكر سابقاً مفصّلاً.

■

وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَةِ
اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلآّٰ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ
اَلسّٰاجِدِينَ ﴿۱۱﴾ قٰالَ مٰا مَنَعَكَ أَلاّٰ تَسْجُدَ إِذْ
أَمَرْتُكَ قٰالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ
مِنْ طِينٍ ﴿۱۲﴾ قٰالَ فَاهْبِطْ مِنْهٰا فَمٰا يَكُونُ لَكَ
أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهٰا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ اَلصّٰاغِرِينَ ﴿۱۳﴾
قٰالَ أَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿۱۴﴾ قٰالَ إِنَّكَ مِنَ
اَلْمُنْظَرِينَ ﴿۱۵﴾ قٰالَ فَبِمٰآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرٰاطَكَ اَلْمُسْتَقِيمَ ﴿۱۶﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمٰانِهِمْ وَ عَنْ
شَمٰآئِلِهِمْ وَ لاٰ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شٰاكِرِينَ ﴿۱۷﴾ قٰالَ
اُخْرُجْ مِنْهٰا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۱۸﴾

◁ اللّغة

خَلَقْنٰاكُمْ، الخلق إحداث الشّيء علىٰ تقدير يقتضيه الحكمة لا زيادة عليه حتّىٰ يدخل في الإسراف و لا ناقصاً عنه فيدخل في الإقتار.

صَوَّرْنٰاكُمْ، التّصوير عبارة عن إثبات صورةٍ للمّادة فأنّ المادّة هي الأصل و الصُّورة فرعٌ عليها و من المعلوم أنّ الصّورة في كلّ مادّةٍ بحسبها.

اُسْجُدُوا، السّجود هو وضع الجبهة على الأرض في الشّرع و أمّا في أصل اللّغة فهو بمعنىٰ الإنخفاض من قول الشّاعر:

ترىٰ ألاكم فيها سجّداً للحوافر

ٱلصَّٰغِرِينَ، الصّاغر هو الذّليل بصغر القدر.

أَغْوَيْتَنِي، الإغواء الإهلاك.

مَذْءُومًا أي مَعيباً و قيل أي مذموماً.

مَدْحُورًا، الدّحر الطّرد أي مطروداً.

◁ الإعراب

لَمْ يَكُنْ في موضع الحال و قوله أَن لا أيضاً في موضع الحال و إذ ظرف لِتجُد خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ الجّار في موضع الحال أي خلقتني كائناً من نار مَذْءُومًا حال و مَدْحُورًا أيضاً حال من الضّمير في مذؤماً لَمَنْ في موضع رفع بالإبتداء

◁ التفسير

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ الخطاب لبني آدم و المعنى خلقنا جنسكم أي مادّته من الصّلصال و الحماء المسنون و هو الماء و الطّين اللاّزب المتغيّر الّذي خلق منه الإنسان الأوّل و هو أبونا آدم:

قال اللّه تعالىٰ: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ[١].

قال اللّه تعالىٰ: إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَاءٍ مَّسْنُونٍ[٢].

قال اللّه تعالىٰ: خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ[٣].

و الأصل فيه هو الماء الّذي يسّمىٰ بالمني و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله: خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ،يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَ ٱلتَّرَآئِبِ[٤].

أمّا قوله: ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ معناه جعلكم مصوّراً من تلك المادّة أي جعل اللّه منها صورة بشرٍ سوّي قابلاً للحياة.

١- الحَجر = ٢٦ ٢- الحَجر = ٢٨

٣- الرّحمٰن = ١٤ ٤- الطّارق = ٦ و ٧

و قال بعضهم المعنى قدَّرنا إيجادكم تقديراً ثمّ صوّرنا مادّتكم تصويراً و ذلك لأنّ معنى الخلق في أصل اللّغة التّقدير ثمّ أطلق على إيجاد الشّئ المقدّر على صفةٍ مخصوصة قال في أساس البلاغة على ما حكي عنه، خلق الخراز الأديم (أي الجلد) و الخيّاط الثّوب، قدَّره قبل القطع، و أخلق لي هذا الثّوب، ثمّ قال و من المجاز، خلق اللّه الخلق أي أوجده، على تقدير أوجبته الحكمة إلاّ أنّ هذا المجاز اللّغوي صار حقيقة شرّعية و هذا التّفسير أظهر من حيث اللّغة و ذلك لأنّ كلّ فردٍ من أفراد الإنسان يقدّر اللّه خلقه ثمّ يصّور المادّة التّي يخلقه منها في بَطن أمّه انتهىٰ كلامه.

أنا أقول ما ذكره في أساس البلاغة لا بأس به بل هو الحقّ الخقيق بالإتّباع و ذلك لأنّ مرحلة الإيجاد بعد التّقدير فأنّ الموجد لا يوجد شيئاً قبل تقديره و لو كان الخلق بمعنى الإيجاد لقال اللّه تعالىٰ ولقد أوجدناكم ثمّ صَوَّرناكم وحيث لم يقل ذلك فلا محالة فيه نكتته و هي أنّه تعالى لم يوجد شيئاً إلاّ بعد تقديرٍ أوجبته الحكمة و هذا هو الفرق بين الفعل العبث و غيره:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزَائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ**(٣) وأمثال ذلك من الأيات كثيرة.

و الدّليل عليه من العقل هو أنّه قد ثبت عند الفلاسفة أنّ شيّئية الشّئ بصورته لا بمادّته و ذلك لأنّ المادّة صرف القوّة لا فعلّية لها قبل الصُّورة كان الأمر على هذا المنوال فلا يعقل إيجاد المادّة قبل التّصوير بمعنىٰ أن يقال أنّه

١- الرّعد = ٨
٢- الحجر = ٢١
٣- القمَر = ٤٩

تعالى أوجد المادّة ثمّ صوَّرها لأنّ وجود المادّة بدون الصّورة محال بل الحقّ أنّ المادّة بدونها لا شئ محض و لذلك يقال أنّها صرف القوّة و حيث أنّ اللّه تعالىٰ قال: **خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ** فجعل التّصوير بعد الخلق و أتى بثُمّ، الّتي تفيد الترتّيب الإنفصالي الّذي يدّل على تأخير التّصوير عن الخلق بزمانٍ لا يعلمه إلاّ اللّه تعالىٰ نستكشف منه أنّ الخلق ليس بمعنىٰ الإيجاد بل هو بمعنىٰ التّقدير في علمه تعالى ثمّ تصويره على وفق المصلحة و مقتضىٰ الحكمة.

و أن شئت قلت إخراج المادّة من القوّة الىٰ الفعل و بذلك قد ظَهر لك أنّ ما روي عن ابن عبّاس من أنّهم خلقوا في أصلاب الرّجال و صوّروا في أرحام النّساء.

و عن غيره أنّهم خلقوا في ظهر أدم ثمّ صوّروا في الأرحام.

و عن ثالث أمّا خلقناكم فأدم و أمّا ثمّ صوَّرناكم فذرّيته و أمثال ذلك من الأقوال الّتي ذكرها المفسّرون.

لا محصّل له فالقول الفعل فيه هو أنّ التّقدير في علم اللّه و التّصوير في أرحام الأمّهات هذا ما فهمناه من الكلام.

ثُمَّ قُلْنٰا لِلمَلاٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلآّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسّٰاجِدِينَ

قد تقدّم البحث في حقيقة الملك في أوائل البقرة و هكذا الكلام في الشّيطان و السّجدة بما لا مَزيد عليه و قلنا هناك أنّ السّجدة في الأصل بمعنى الخضّوع و فى الشّرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض و سجدة الملائكة لأدم كانت من سِنخ الأوّل و أمّا السَّجدة بالمعنى الثّابت في الشّريعة فلا تجوز إلاّ للّه تعالىٰ لأنّها بهذا المعنى سجدة العبودّية و لا معبود سوىٰ اللّه تعالىٰ.

بقي في المقام شئ لم نَذكره فيما مضى و لم يذكره المفسّرون أيضاً و هو أنّه تعالىٰ قال في حقّ إبليس، **لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسّٰاجِدِينَ** و لم يقل، ولَم يسجد

مثلاً مع أنّه أوفق بسياق الكلام ظاهراً و التّحقيق أنّ قوله تعالىٰ: **لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ** أوفق و أنسب بسياق الآية من غيره رعايةً للسّجع.

ثانياً: أنّ ما ذكره تعالى يدّل علىٰ خروج إبليس ممّن أمروا بـالسّجدة و المعنىٰ أنّه لم يكن ممّن سجد مع أنّه كان مأموراً بها هذا كلّه مع أنّ المأل فيهما واحد.

قٰالَ مٰا مَنَعَكَ أَلّٰا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قٰالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

أي قال اللّه تعالى لإبليس ما منعك أي أيُّ شئٍ منعك من السّجود لأدم و عليه فاللاّم في قوله: **أَلّٰا تَسْجُدَ**، زائدة تُفيد التّحقّيق و التّوكيد كما في قـوله تعالىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **لِئَلّٰا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتٰابِ**(١) ومعناه ليعلم.

قال اللّه تعالىٰ: **لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوٰاقِعِ ٱلنُّجُومِ**(٣) أي أقسم بيوم القيامة و أُقسم بمواقع النّجُوم وأيضاً يدّل علىٰ زيادتها.

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ يٰآ إِبْلِيسُ مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**(٤).

حيث لم يذكر كلمة (لا) و هذا قول الكسائي و الفّراء و الزّجاج و الأكثرين و عليه قول الشّاعر:

أبى جوده لا البخل وإستعجلت به   نعم من فتىٰ لا يمنع الجود قـاتله

معناه أبىٰ جوده البُخل.

و قيل أنّه ليست بزائدة بل هي مفيدة و التّقدير أيّ شئٍ منعك عن تـرك السّجود فيكون الإستفهام على سبيل الإنكار و معناه ما منعك عن ترك السّجود.

١- الحديد = ٢٩   ٢- القيامة = ١

٣- الواقعة = ٧٥   ٤-ص = ٧٥

و قيل معناه، ما دعاك أن لا تسجد، و في المقام قول ثالث و هو أنّ معنى، ألاّ تسجد، ما الحال ألاّ تسجد أو ما أحوجك اليه.

و قال الفرّاء لمّا تقدّم الجَحد في أوّل الكلام أكّد بهذا كما قال الشّاعر:

ما إن رأينا مثلهنّ لمعشرٍ سود الرّؤوس فوالج ومنول

فكلمة، ما، للنّفي و هكذا كلمة (إن) ومع ذلك جمع بينها تأكيداً.

أن قلت كيف **قَالَ مَا مَنَعَكَ** والحال أنّه لم يكن ممنوعاً كغيره من الملائكة.

قلتُ المنع بمعنى الصَّرف و قد ثبت أنّ الصّارف عن الشّئ بمنزلة المانع منه كما أنّ الدّاعي اليه بمنزلة الحامل عليه هكذا قيل.

و لقائل أن يقول لا موقع لهذا السّؤال أصلاً لأنّ المفروض أنّ الإستفهام للإنكار و التّقدير عدم وجود المانع في الأصل و هو ظاهرٌ فتقدير الكلام أنّه لم يكن لك مانعٌ عن السّجود.

و نقل الرّازي في المقام عن القاضي أنّه قال ذكر اللّه المنع و أراد الدّاعي فكأنّه قال و ما دعاك الى أن لا تسجد لأنّ مخالفة أمر اللّه تعالى حالة عظيمة يتعجّب منها و يسأل عن الدّاعي اليها.

أنا أقول لا فرق بين أن يكون المقدّر هو الدّاعي أو غيره كما لا يخفى.

نعم لنا مع الرّازي في المقام بحث و هو أنّه بل جميع الأشاعرة يقولون بأنّ أفعال العباد و أن كانت مستندة اليهم في الظّاهر إلاّ أنّها في الواقع أفعال اللّه و المخلوق ليس إلاّ ألة واسطة للفعل و لأجل هذه العقيدة الرّديئة السّخيفة ترى الرّازي في كتابه هذا كثيراً ما يصرّح بأنّ الموجد و الخالق للدّاعي في العبد هو اللّه تعالى و معنى كلامه هذا أنّ العبد لا يقدر على الشّئ لأنّ فعله مستند الىٰ الدّاعي والدّاعي ممّا أوجده اللّه تعالىٰ في العبد فهو مقهورٌ مغلوب في فعله.

و هذه الآية و أمثالها تدّل على خلاف ما إعتقده اذ لو كان الدّاعي الى ترك السّجود في الشّيطان ممّا أوجده اللّه فيه بمعنىٰ أنّه كان خارجاً عن إختياره كما هو المفروض فما معنى ذمّ إبليس علىٰ ترك السّجود و لم لم يقل في جواب

اللّه تعالى حيث **قَالَ مَا مَنَعَكَ** الخ أنّي لم أقدر على السّجود لأنّ الدّاعي على ترك السّجود أوقعني فيه وأنت يا ربّ أوجدت الدّاعي في نفسي فلم تذمّني على ترك السّجود و حيث أنّه تعالى ذمّه عليه و هو أجاب بغير ذلك الذّي ذكرناه علمنا أنّه ترك السّجود بسوء سريرته و خبث ذاته و إختياره المطلوب.

ثمّ أنّ الرّازي جعل الدّاعي قوله: **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** و لم يعلم أنّ قول إبليس ليس من الدّاعى بل حكاية عن جواب ابليس حين ذمّه تعالىٰ علىٰ الإمتناع من السّجود و ذلك لأنّ هذا الجواب غير مطابق للسّؤال لأنّه تعالىٰ لم يسأل عن إبليس أيّكما افضل أنت أو أدم، بل سأل عن علّة تركه السّجُود لأدم فكان يجب علىٰ إبليس الجواب عمّا سُأل عنه.

فقوله في الجواب **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** الخ لا ربط له بالسّؤال أصلاً ومع ذلك نتكلّم في كلامه هذا فنقول:

قوله: **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** أي من أدم وإستدّل على ذلك بقوله: **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** و هذا الإستدلال يتمّ بناءً علىٰ كون النّار خير من طينٍ أوّل الكلام اذ لم يدّل دليل من العقل أو النّقل عليه بل الدّليل ثابت على عكسه و قد تكلّمنا فيه سابقاً بما لا مزيد عليه في سورة البقرة و الأصل في هذا الكلام هو أنّه قد ثبت قبح تقديم المفضول على الفاضل عقلاً فلو ثبت أنّ النّار أفضل من طينٍ فلا محالة ما يوجد من النّار أفضل ممّا يُوجد من طينٍ و حيث أنّ إبليس مخلوقٍ من نارٍ و أدم من طينٍ فينتج أنّ إبليس أفضل من أدم و لازم ذلك هو أن يسجد أدم لإبليس و إلاّ يلزم تقديم المفضول علىٰ الفاضل و هو كما ترى و الجواب أنّ القاعدة العقلّية و هى قبح تقديم المفضول علىٰ الفاضل ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في إثبات الأفضّلية نعم اذا ثبت المدّعىٰ فالقاعدة تنطبق عليها و أنّى له و لغيره إثبات ذلك.

وإعلم أنّه تعالىٰ ذكر قصّة أدم مع قصّة إبليس في القرأن في سبعة مواضع:

أحدها: في سورة البقرة.

ثانيها: في هذه السُّورة.

ثالثها: في سورة الحجر.

رابعها: في سورة بني إسرائيل.

خامسها: في سورة الكهف.

سادسها: في سورة طه.

سابعها: في سُورة ص.

أمّا الكلام في هذه السّجدة فنقول فيها ثلاثة أقوال، فقيل أنّ المراد منها مجرّد التّعظيم لا نفس السّجدة.

و قيل المراد منها السَّجدة إلاّ أنّ المسجود له في الحقيقة هو اللّه تعالىٰ فكان أدم بمنزلة القبلة.

والقول الثّالث: هو أنّ المسجود له هو أدم واقعاً كما هو ظاهر الآية و الأقوىٰ عندي هو القول الأوّل.

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ أمر اللّه تعالىٰ إبليس بالهبوط من الجنّة أو من السّماء على إختلاف القولين فيه.

قال بعض المفسّرين الهبوط و النزّول واحد و الفرق بينهما بالإعتبار فأن كان السّقوط يقتضي التّنزل الى جهة السّفل بمنزلة بعد منزلة يعبّر عنه بالنزّول و أن كان على جهة الإنحدار فى المرُور الىٰ السِّفل دفعةً واحدة يسمّىٰ بالهبوط.

و قال الرّاغب في المفردات الهبوط الإنحدار علىٰ سبيل القهر كهبوط الحجر و الإنزال يقال في الأشياء الّتي له اشرف و مجد كإنزال الملائكة و القرأن و المطر و غير ذلك انتهى وكيف كان فقوله تعالىٰ فأهبط منها، يدّل علىٰ سقوطه.

و أمّا قوله تعالىٰ: **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** فالمشهور عند المفسّرين أنّ كلمة، ما، نافية و المعنى ليس لك أن تتكبّر فيها فهو أي التّكبّر بمنزلة العلّة للسّقوط و الهبوط له قال الرّاغب في المفردات التّكبّر يقال على وجهين:

أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة و زائدةً على محاسن غيره و علىٰ هذا وصف اللّه تعالىٰ بالتّكبّر فقال العزيز الجبّار المتكبّر.

الثّاني: أن يكون متكلّفاً لذلك متشبّعاً و ذلك في وصف عامّة النّاس نحو قوله: **فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ**(١) انتهىٰ.

أقول الكبرياء التّرفع عن الإنقياد و ذلك لا يستّحقه غير اللّه تعالىٰ اذ هو الذّي لا ينقاد لغيره و ما سواء منقاد له تعالىٰ.

روي عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال عن اللّه تعالىٰ، الكبرياء ردائي و العظمة إزاري فمن نازعني في واحدٍ منهما قصمته انتهى.

أقول حيث أنّ إبليس لعنه اللّه لبس رداء الكبرياء بزعمه و جعل نفسه أفضل من أدم و لذلك ترك السّجود له فقد قصم اللّه ظهره و قال له **فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ** و الصّاغر هو الذّليل بصغر القدر يقال تصاغرت اليه نفسه ذلاً و مهانةً، والأصل الصِّغر.

قَالَ أَنْظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ

حكى اللّه تعالىٰ عن إبليس أنّه سأل اللّه تعالىٰ أن ينظره الى يوم يبعثون قيل فيه دلالة على أنّ إبليس كان مقرّاً بالبعث و أيضاً كان عالماً بأنّ أدم سيكون له ذرّية و نسل يعمرون الأرض ثمّ يموتون و أنّ منهم من ينظر فيكون طلبه الانظار بأن يغويهم و يوسوس اليهم فالضّمير في قوله: **يُبْعَثُونَ**، عائد علىٰ ما دلَّ عليه المعنىٰ اذ ليس في اللّفظ ما يعود اليه.

١- الزمر = ٧٢

و قال قوم الإنظار الى وقت البعث و هو وقت النّفخة الثّانية حين يقوم النّاس لربّ العالمين ومقصوده أنّه لا يذوق الموت فلم يعطه اللّه ذلك بل **قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ** و قيل أنظره الىٰ النّفخة الأولى لأنّه قال في أيةٍ أُخرىٰ أنّك من المنظرين الىٰ يوم الوقت المعلوم والمراد منه اليوم الذّي يموت فيه الأحياء كلّهم.

و قال أخرون لم يوقّت اللّه تعالىٰ له أجَلاً بل **قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ**.

و أمّا قوله في الآية الأخرى الىٰ يوم الوقت المعلوم المراد منه الوقت المعلوم في علم اللّه و نقل عن السُّدي أنّه تعالىٰ لم يجبه الىٰ يوم يبعثون، لأنّه يوم القيامة و هو يوم بعث لا يوم موت و لكن أنظره الىٰ يوم الوقت المعلوم عند اللّه قال و يقوّي ذلك قوله: **إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ** و ليس لأحدٍ أن ينظر أحداً الى يوم القيامة على هذا المعنىٰ، قال بعض المفسّرين أنّ إبليس سأل تأخير الجزاء بالعقوبة الىٰ يوم يبعثون لمّا خاف من تعجيلها فأنظّر علىٰ هذا.

و قال آخرون أنظر الى يوم القيامة و هذا الوجه قوّاه أكثر المفسّرين و إستدّلوا عليه بأنّه لا يجوز أن يعلم اللّه أحداً من المكلّفين الّذين ليسوا بمعصومين أنّه يبقيهم الىٰ وقت معيّن لأنّ في ذلك إغراء له بالقبح من حيث أنّه يعلم أنّه باق علىٰ ذلك الوقت فيرتكّب القبيح فإذا قارب الوقت جدّد التّوبة فيسقط عَنه العقاب.

إن قُلت كيف أجيب إبليس الى الأنظار و أنّما طلب الإنظار ليفسدا أحوال عباد اللّه تعالىٰ و يغويهم.

قُلت الوجه فيه هو إبتلاء العباد و إختبارهم و أيضاً لما في مخالفته من عظم الثّواب و نظير ذلك ما خلقه اللّه تعالى في الدّنيا من أصناف الزّخارف وأنواع الملاذ و الملاهي و ما ركبه من الأنفس من الشّهوات ليمتحن بها عباده و سيأتي الكلام منّا في في هذا البحث في مقامٍ آخر بوجهٍ أبسط إن شاء اللّه تعالىٰ.

قٰالَ فَبِمٰآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَاٰتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمٰانِهِمْ وَ عَنْ شَمٰآئِلِهِمْ وَ لاٰ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شٰاكِرِينَ

إختلفوا في الباء في قوله: **فَبِمٰآ** فقيل أنّها للقسم مصدّرية و المعنى، فأقسم بأغوائك لأقعدنّ و أنّما أقسم بالإغواء لأنّه كان تكليفاً و التّكليف من أحسن أفعال اللّه لكونه تعريضاً لسعادة الأبد فكان جديراً بأن يقسم به.

و قيل ما، للإستفهام كأنّه قيل بأيّ شئ أغويتني ثمّ إبتدأ، لأقعدنّ، المقام إحتمال ثالث و هو أن تكون الباء للسّببية أي فبسبب إغواءك أيّاي لاقعدنّ لهم أو بسبب وقوعي في الغّي لأجتهدّن في إغواءهم حتّىٰ يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم ذكر هذه الوجوه الزّمخشري في الكشّاف ثمّ لنا في المقام أبحاث لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

أحدها: قوله: **فَبِمٰآ أَغْوَيْتَنِي** إختلفوا في المراد بالإغواء فقال بعضهم معنىٰ أغويتني.

أضلَلتَني و قيل معناه، لعنتني و قيل أهلكتني، أو خيبتني، و قيل ألقيتني خاوياً و قيل جعلتني في الغَّي و قيل غير ذلك و قال قوم يجوز أن يكون أراد أنّك إمتحنتني بالسّجود لآدم فغويت عنده قال الرّاغب في المفردات، الغيّ جهلٌ من إعتقادٍ فاسد الىٰ أن قال و قيل معنى غوى فسد عيشه من قولهم غوى الفصيل انتهىٰ.

أقول الإغواء الإضلال فقوله أغويتني أي أوقعتني في الضّلالة و ذلك لأنّك أمرتني بالسّجود لآدم فلولا أمرك إيّاي بالسّجود له لما وقعت فيما وقعت من الطَّرد و اللّعن و العذاب و أنّما نسب الأغواء الىٰ اللّه تعالى لما ذكرناه من الوجه و لم يعلم أنّه كان مختاراً في السّجود و عدمه و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه تعالىٰ أمر الملائكة بالسّجود و كان إبليس داخلاً في الحكم أعني به الأمر فأطاع الكلّ و عصىٰ هو وحده فلو كان الجبر حاكماً كان حاكماً على الكلّ على

الكلّ ولو كان الإختيار حاكماً فكذلك فكيف يقول القائل بالجبر أنّ إبليس كان مجبوراً و أمّا غيره ممّن كانوا مأمورين بالسّجود كانوا مختارين.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

أمّا أصحابنا فقالوا الإغواء إيقاع الغيّ في القلب و الغيّ هو الإعتقاد الباطل و ذلك يدّل على أنّه كان يعتقد أنّ الحقّ و الباطل أنّما يقع في القلب من اللّه تعالىٰ انتهىٰ كلامه.

و نحن نقول ايقاع الحقّ و الباطل في القلب لا يوجب الجبر لأنّ الإختيار واسطة بين ما وقع في القلب و ما صدر عن الفاعل في الخارج اذ لو لم يكن الإختيار يلزم إيجاد ما في القلب في الخارج قهراً و ليس كذلك ألا ترىٰ أنّ الملائكة سجدوا لأدم فأن كان إيقاع الحقّ و الباطل في القلب من اللّه تعالىٰ فلا وجه لطاعة بعضٍ و مخالفة بعض اذ الكلّ كانوا في نمطٍ واحد في هذا المضمار و المفروض عدم وجود الإختيار في الكلّ.

فأن قلت أنّ اللّه تعالىٰ أوقع في قلب إبليس الحقّ و الباطل و أجبره على الفعل دون غيره من المأمورين بالسّجود.

قلتُ كيف يعقل ذلك أليس أمرهم بالسّجود واحد و أعجب من ذلك قول الرّازي بعد ما نقلناه عنه حيث قال أنّا نقيم البرهان اليقيني على أنّ المغوي لإبليس هو اللّه تعالى و ذلك لأنّ الغاوي لابدّ له من مغوٍ كما أنّ المتحرّك لابدّ له من محرّكٍ و السّاكن لابدّ له من ساكنٍ و المهتدي لابدّ له من هادٍ فلمّا كان إبليس غاوياً فلابدّ له من مغوٍ و المغوي له أمّا أن يكون نفسه أو مخلوقاً أخر أو اللّه تعالى و الأوّل باطل لأنّ العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية.

الثّاني: باطل و إلاّ لزم أمّا التّسلسل و أمّا الدّور و الثّالث هو المقصود انتهىٰ كلامه.

و الجواب أنّا نختار الشقّ الأوّل من الوجوه و هو أن يكون المغوي نفسه قوله لأنّ العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية نقول في جوابه لا

إشكال عقلاً في إختيار العقل الغواية مع العلم يكونها غواية اذا غلب هواه على عقله و صار مفتوناً بالدّنيا و زخارفها كما هو شأن أهل الدّنيا فأن قلنا بأنّهم ليسوا من العقلاء يلزم تخصيص الأكثر.

و أن قلنا بأنّهم إختاروا الغواية مع عدم العلم بها فهو أيضاً كذلك بل نقول أنّ الّذين إختاروا الغواية مع العلم بها بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كانوا أكثر من الجهّال الّذين إختاروها من غير علم بها و يكفيك في إثبات المدّعىٰ قول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المعروفة بالشّقشقية حيث قال:

أَمٰا وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقَمصَّهَا ابْنُ اَبِی قُحافَةَ و اِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلِّی مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰی، يَنْحَدِرُ عَنِّی السَّيْلُ وَ لاٰ يَرْقٰی اِلَیَّ الطَّيْرُ الخ.

فأن قال الرّازي كلامنا في الغواية وإختيارها مع العلم بها وأبو بكر كان معتقداً بعدم الغواية و أنّ الخلافة حقٌّ له.

نقول في جوابه ليس الأمر كما زَعَمت فأنّ حبّ الشّيئ يعمي و يصمّ و للبحث فيه مقام أخر.

و محصّل الكلام هو أنّ قوله العاقل لا يختار الغواية مع العلم بها كلام لا طائل تحته و عليه فكان إبليس غاوياً و المغوِي له نفسه و هو المطلوب فنسبة الإغواء الىٰ اللّه تعالىٰ كفرٌ و إلحاد.

ثانيها: قوله: **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرٰاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** قيل قعوده على الصّراط معناه أنّه يقعد على طريق الحقّ ليصّد عنه بالإغواء حتّىٰ يصرفه الى طريق الباطل عداوةً له وكيداً.

و أمّا الصّراط المستقيم فقد مرَّ الكلام فيه عند قوله تعالىٰ: **اَهْدِنَا اَلصِّرٰاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ** في سورة الحمد.

ثالثها: **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمٰانِهِمْ وَ عَنْ شَمٰآئِلِهِمْ** في تفسير هذه الجهات الأربع قولان:

أحدهما: قال ابن عبّاس و قتادة و إبراهيم بن الحكم و السُّدي و غيرهم قالوا معناه لأتينَّهم من قبل دنياهم و أخرتهم و من جهة حسناتهم و سيّئاتهم فالأيدي كناية عن الأخرة و الخلف عن الدّنيا و الأيمان عن الحسنات و الشّمائل عن السّيئات.

ثانيهما: قال مجاهد من حيث يبصرون و من حيث لا يبصرون.

و في المقام قول ثالث نسب الىٰ أبي علّي قال معناه لاتيّنهم من كلّ جهة يمكن الإحتيال عليهم بها.

أقول هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع و ذلك لأنّ القول الأوّل و الثّاني لا دليل عليهما و الظّاهر أنّ التّعبير بالأيدي والخَلف والأيمان و الشّمائل كناية عن الإحتيال من كلّ جهةٍ.

و قال الرّازي بعد نقله الأقوال من المفسّرين و أمّا حكماء الإسلام فقد ذكروا فيها وجوهاً أخرىٰ:

أوّلها: و هو الأقوى الأشرف أنّ في البدن قوى أربعة هي الموجبة لفوات السّعادات الرّوحانية:

أحدها: القوّة الخيالّية التّي يجتمع فيها مثل المحسوسات و صورهاموضوعة في البَطن المقدّم من الدّماغ و صور المحسوسات أنّما ترد عليها من مقدّمها واليه الإشارة بقوله من بين أيديهم.

ثانيتها: القوّة الوّهمية التّي تحكم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة لها و هى موضوع في البطن المؤخّر من الدّماغ و اليها الإشارة بقوله و من خلفهم.

الثّالثة: الشّهوة و هى موضوعة في الكبد و هى من يمين البدن.

والقوّة الرّابعة: الغضب و هو موضع في البطن الأيسر من القلب فهذه القوى الأربع هي الّتي تتولّد عنها أحوال توجب زوال السّعادات الرّوحانية و الشّياطين الخارجة ما لم تستعن بشيءٍ من هذه القوىٰ الأربع لَم تقدر على إلقاء

الوسوسة فهذا هو السّبب في تعيين هذه الجهات الأربع و هو وجهٌ حقيقي شريف انتهىٰ كلامه.

ثمّ نقل بعد ذلك وجوهاً إستّحسانية إستخراجية من خيالات باطلة و أوهام كاسدة الّتي لا يمكن الإعتماد عليها عقلاً ونقلاً و لا سيّما في تفسير كلام اللّه الذّي قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فيه من فسرّ القرأن برأيه فليتّبوأ مقعده من النّار.

و العجب من الرّازي و أمثاله حيث لم يفرّقوا بين كتاب اللّه و كتاب أرسطو و أفلاطون و غيرهما من الفلاسفة و لم يعلموا أنّ تفسير القرأن لابدّ له أن يؤخذ من أهله و من يضلل اللّه فما له من هادٍ مضافاً الىٰ أنّ ما ذكره الرّازي و نقله عن حكماء الإسلام فعلى فرض صحّة النّقل لا ربط له بالتفسّير و إنطباق كلام اللّه عليه.

روي الطبرسي قدس سره في مجمع البيان عن أبي جعفر عليه السلام قال: **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ** ثمّ لأتيّنهم من بين أيديهم، معناه أهون عليهم أمر الأخرة، و من خلفهم أمرهم بجمع الأموال و البخل بها عن الحقوق لتبقىٰ لورثتهم، و عن أيمانهم، أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضّلالة و تحسين الشُّبهة، وعن شمائلهم، بتحبيب اللّذات اليهم و تقليب الشّهوات على قلوبهم انتهىٰ

و في نهج البلاغة من كتاب له الى زياد بن أبيه و قد بلغه أنّ معاوية قد كتب اليه يريد خديعته بإستلحاقه.

و قد عرفت أنّ معاوية كتب اليك يستَّزلُ لبّك و يستفّل غربك فإحذره فأنّما هو الشّيطان يأتي المرء من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله ليقتحم غفلته و يستلب غرّته انتهىٰ.

و في روضة الكافي بأسناده عن زرارة قال قلتُ له قوله عزّ وجلّ: **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ** قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: يا زرارة أنّما عمد لك و لأصحابك فأمّا الأخرون فقد فرغ منهم انتهىٰ.

و في تفسير القمّي في هذه الأية، ما لفظه إمّا **بَيْنِ أَيْدِيهِمْ** فهو من قبل الآخرة لأخبرتهم لا جنّة و لا نار و لا نشور، و امّا **خَلْفِهِمْ** يقول من قِبل دنياهم

آمرهم بجمه الأموال و آمرهم أن لا يصلوا في أموالهم رحيماً و لا يعطوا منها حقّاً و آمرهم أن يقلّلوا على رزياتهم و أخوفهم عليهم الضّيعة، و أمّا **عَنْ أَيْمَانِهِمْ** يقول من قبل رينهم فأن كانوا علىٰ ضلالةٍ زينّتها لهم وأن كانوا علىٰ هدىٰ جهدت عليهم حتّى أخرجهم منه، و أمّا **عَنْ شَمَآئِلِهِمْ** يقول من قبل اللّذات و الشّهوات يقول اللّه: **وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ**(١) إنتهىٰ موضع الحاجة منه.

أقول فهذه الرّوايات الواردة في تفسير الآية هي المعتمد عليها في بيان معنىٰ المراد فيها و علىٰ اللّه التوّكل و به الإعتصام.

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ

حكى عن عاصم (لِمَن) بكسر اللاّم بحذف الخبر و تقديره لمن تبّعك النّار، و هذه القراءة متروكة و المشهور هو فتح اللاّم كما عليه المصاحف و المعنى قال اللّه تعالىٰ لأبليس لمّا إستكبر وعَصىٰ **ٱخْرُجْ مِنْهَا** أي من الجنّة أو من السّماء، مذؤماً، أي معيباً و قيل مذؤماً **مَدْحُورًا** أي مطروداً و قال قتادة، مذؤماً، أي لعيناً الكلبي، ملوماً، و الكلّ متقارب المعنىٰ.

وأعلم أنّ قوله: **مَذْءُومًا**، بالهَمز و هو من ذأمته إذا عِبته و يقرأ مذؤماً، بالواو من غير همز بنأٍ علىٰ أن يكون أصله مديماً لأنّ الفعل منه ذأمه يذيمه ذيماً فأبدلت الياء واواً كما قالوا في مكيل مكول و فى ثيب مثوب و كيف كان فالمعنى واضح لا خفاء فيه و قد روي في بعض القراءات مذموماً، بالميم و معناه واحد **لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُم** أي من أولاد آدم **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ** أي لامّلأنّ جهّنم منك و ممّن تبّعك أجمعين أعاذنا اللّه من متابعته و وفّقنا على مخالفته بحقّ محّمدٍ و آله الأطهار آمين، ربّ العالمين.

■

١- سبا = ٢٠

وَ يَآ اٰدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلاٰ مِنْ
حَيْثُ شِئْتُمٰا وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونٰا مِنَ
ٱلظّٰالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطٰانُ لِـيُبْدِيَ
لَهُمٰا مٰا وُرِىَ عَنْهُمٰا مِنْ سَوْاٰتِهِمٰا وَ قٰالَ مٰا
نَهيٰكُمٰا رَبُّكُمٰا عَنْ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلآّٰ أَنْ تَكُونٰا
مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونٰا مِنَ ٱلْخٰالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَ قٰاسَمَهُمٰآ
إِنِّى لَكُمٰا لَمِنَ ٱلنّٰاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلّٰيهُمٰا بِـغُرُورٍ
فَلَمّٰا ذٰاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمٰا سَوْاٰتُهُمٰا وَ طَـفِقٰا
يَخْصِفٰانِ عَلَيْهِمٰا مِنْ وَرَقِ ٱلْـجَنَّةِ وَ نٰـاديٰهُمٰا
رَبُّهُمٰآ أَلَمْ أَنْهَكُمٰا عَنْ تِلْكُمَا ٱلشَّـجَرَةِ وَ أَقُـلْ
لَكُمٰآ إِنَّ ٱلشَّيْطٰانَ لَكُمٰا عَدُوٌّ مُـبِينٌ ﴿٢٢﴾ قٰـالاٰ
رَبَّنٰا ظَلَمْنٰآ أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَـرْحَمْنٰا
لَـنَكُونَنَّ مِـنَ ٱلْـخٰاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قٰـالَ ٱهْـبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَ مَتٰاعٌ إِلٰى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قٰالَ فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا
تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ﴿٢٥﴾

◁ اللّغة

فَوَسْوَسَ، الوَسوَسة الدُّعاء الىٰ أمرٍ بضربٍ خفّي كالهمهمة قال الشّاعر:

وسوس يدعوا مخلصاً ربّ الفلن　　　سِّـــراً وقـد أوَّن تأويـن العـقق

لِيُبْدِيَ، الإبداء الإظهار و ضدّه الإخفاء و كلّ شيءٍ أزيل عنه السّاتر فقد أبدي.

وُرِىَ، المُوارِاة جَعل الشّئ وراء ما يستره و مثله المساترة و ضدّه المكاشفة.

سَوْآتِهِمَا، قيل للفرج سوأة لأنّه يسوء صاحبه إظهاره و قيل كلّما قبح إظهاره سوأة.

وَ قَاسَمَهُمَآ، المقاسمة لا تكون إلاّ بين أثنين و القسم كان من إبليس لأنّ أدم مقسم له و أنّما قال قاسمهما، لأنّه من قبيل عاقبت اللص و طارقت النَّبل و ناولت الرّجل و غير ذلك لأنّ في الجميع معنى المقابلة فكأنّ إبليس قابل أدم في المنازعة باليمين قال الشّاعر:

و قاسمهما باللّه جهداً لأنتم ... ألّذ من السَّلوىٰ اذا ما نشورها

بِغُرُورٍ: الغُرور بضمّ الغين المعجمة إظهار النُّصح مع إبطان الغّش و أصله الغُّر لما فيه من إظهار حالٍ و إخفاء حالٍ و منه الغرر لخفاء ما لا يؤمن فيه.

ٱهْبِطُوا: الهبُوط النُّزول بسرعةٍ والباقي واضح.

◁ الإعراب

فَدَلّٰيهُمَا الألف بدل من ياء مبدلة من لام والأصل دلّلهما، من الدّلال أجيز إبدال اللاّم لما إجتمع في الكلمة ثلاث لامات بِغُرُورٍ في موضع الحال من الضّمير المنصوب أي وهما مغترين طَفِقَا في حكم كاد و معناها الأخذ في الفعل و الإعراب في باقي الكلمات واضح.

◁ التّفسير

وَ يَآ ادَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ قد مرَّ تفسيرها في سورة البقرة أية (٣٥) فراجع أن شئت و الّذي نقول به في المقام هو أنّ النّهي في الآية نهي تَنزيهٍ دون حظرٍ و تحريم لعصمة الأنبياء.

و أمّا علىٰ مذهب أهل السنّة فالنّهي للتّحريم و أنّما الإختلاف بينهم في أنّ

الذّنب الصّادر عن أدم و حوّاء كان كبيراً أو صغيراً و علىٰ فرض كونه صغيراً هل وقع من أدم سهواً و نسياناً أو من باب الخطأ في التّأويل بمعنى أنّ المنهي عنه كان جنس الشّجرة فحمله أدم علىٰ شجرةٍ بعينها فأخطأ في التّأويل و الحقّ ما ذكرناه عن كون النّهي للتّنزيه فقط و قد فصّلنا الكلام في المراد بالنّهي وسائر ما يتعلّق من المباحث حول الآية هناك فلا وجه للإعادة ثانياً.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا

أي فوسوس لأدم و حوّاء الشّيطان بمعنى أنّه ألقى اليهما الوسوسة أي تكلّم معهما كلاماً خفّياً.

أن قلت أليس الشّيطان مطروداً كما قال اللّه تعالىٰ: **ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا** فأن قلنا أنّ الضّمير في قوله: **مِنْهَا** راجع الىٰ الجنّة فالمعنى أخرج منها و إن قلنا أنّه راجع الى السّماء فالمعنى أخرج من السّماء و علىٰ التّقدّيرين كان خارجاً من الجنّة فكيف وسوس لَهما و من أين صدرت منه الوسوسة.

قال بعض المفسّرين أنّه كان يوسوس من الأرض الىٰ الجنّة أو الىٰ السّماء بالقوّة الفوّقية التّي جعلها اللّه تعالىٰ له.

و قال أخرون بل كان أدم و إبليس في الجنّة لأنّ هذه الجنّة كانت بعض جنّات الأرض، و ذهب بعضهم الى أنّ إبليس دخل في جوف الحيَّة و دخلت الحيّة في الجنّة.

و في المقام قول رابع و هو أنّ أدم و حوّاء ربما قرباً من باب الجنّة إبليس واقفاً من خارجها علىٰ بابها فيقرب أحدهما من الأخر و تحصل الوسوسة هناك.

و الظّاهر أنّ اللاّم فى قوله: **لِيُبْدِيَ** لام التّعليل و قيل لام كي، لأنّه قصد إبداء سوأتهما و قال قوم أنّها لام الصّيرورة لأنّه لم يكن له علمٌ بهذه العقوبة المخصوصة فيقصدها و قيل لام العاقبة من قبيل قوله تعالىٰ: **فَالْتَقَطَهُ اٰلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا**[1] ثمّ أنّهم إختلفوا في تخصيص السَّوأة بالذّكر.

١- القصص = ٨

فقال الزّمخشري فيه دليل على أنّ كشف العورة من عظائم الأمور و أنّه لم يزل مستهجناً في الطّباع مستقبحاً في العقول والحقّ أنّ الأمر وأن كان كذلك إلاّ أنّ المراد بهما ليس خصوص الفرج و الدُّبر بل المراد بهما جميع بدنهما أو أنّهما ذكرا على سبيل الكناية أو لأنّ السَّوأة أقبح ما يظهر من بني أدم.

وَ قَالَ مَا نَهَيٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ كلمة، ما نافية و المعنىٰ أنّ الشّيطان قال لأدم وحوّاء ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة المخصوصة أي أنّ النّهي لم يتعلّق بها **إِلَّآ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ** قيل الإستثناء مفرغ من المفعول من أجله أي ما نهاكما ربّكما لشئ إلاّ كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين في الجنّة و المعنى أنّ الشّيطان أوهمهما أنّهما اذا أكلا من هذه الشَّجرة تغيّرت صورتهما الى صورة الملك و أنّ اللّه تعالىٰ قد حكم بذلك و بأن لا يبيد حياتهما إلاّ اذا أكلا منها.

و نقل الطّبرسيِ ﵀ في تفسيره عن المُرتضىٰ ﵀ أنّه قال يحتمل أن يكون المراد بقوله: **إِلَّآ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ** أنّه أوهمهما أنّ المنّهي عن تناول الشّجرة الملائكة خاصّة و الخالدين دونهما.

وَ قَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ

أي المخلصين النّصيحة في دعاءكما الى التّناول من هذه الشّجرة و لذلك تأكّدت الشّبهة عندهما اذ ظنّا أنّ أحداً لا يقدم على اليمين باللّه تعالىٰ إلاّ صادقاً فدعاهما ذلك الىٰ تناول الشّجرة.

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ

أي أوقعهما الشّيطان في المكروه بأن غرَّهما بيمينه.

و قيل معناه دلاّهما من الجنّة الىٰ الأرض.

و قيل معناه أخذلهما و خلاّهما.

و قيل حطّهما عن درجتهما بغروره و المأل واحد، و الجامع أنّه غرّهما بسبب اليمين فلمّا ذاقا الشّجرة، أي إبتدأ أدم و حوّاء بالأكل و نالا منها شيئاً يسيراً لأنّ الذّوق إبتداء الأكل و الشّرب لتعرف الطّعم قيل و فيه دلالة على حرمة ذوق الشّيء المحرّم فضلاً عن إستيفاءه و قضاء الوطر منه.

أقول هو كذلك بعد العلم بالحرمة بسبب النّهي و أمّا في صورة الجهل فلا، و حيث أنّ آدم و حّواء كانا عالمين بها بسسببه فلا جرم تعّلق الذّم بهما قوله: **بَدَتْ لَهُمَا سَوْاٰتُهُمَا** معناه ظهرت لهما عوراتهُما أي ظهر لكلّ واحدٍ منهما عورة صاحبه،(وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة) أي أخذا يجعلان ورقة ليسترا سوآتهما و هذا أنّما كان لأنّ المصلحة إقتضَت إخراجهما من الجنّة و إهباطهما الىٰ الأرض لا على وجه العقوبة فأنّ الأنبياء لا يستّحقّونهاوَ **نَاديٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** أي و نادى اللّه تعالىٰ آدم وحّواء و قال: لهما ألم أنهكما، و الإستفهام لِلإنكار أي نهيتُكما عن تلكما الشّجرة لكنّه لمّا خاطب إثنين قال تلكما والكاف حرف الخطاب، و أقل لكما، أي ألم أقل لكما، أي قلت **لَكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** و ذلك لأنّه إمتنع من السّجود لآدم و قال: **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ**.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ

أي قال آدم و حوّاء ربّنا ظلمنا أنفسنا، بمخالفة النّهي وإن لم تغفر لنا و ترحمنا أي و أن لم ترحمنا لنكنّنَ من الخاسرين.

و قال صاحب الكشّاف و سميّاذ منهما و أن كان صغيراً مغفوراً، ظلماً علىٰ عادة الأولياء في إستعظامهم الصّغير من السّيئات انتهىٰ.

وكيف كان أنّهما قد أقرّاً و إعترفا بذنبهما و طلبا التّوبة و المغفرة و هذا يدّل

على صلاحهما وحسن عاقبتهما و أنّهما لم يقصدا بذلك التَّمرد و الطّغيان قال بعضهم سعد آدم بخمسة أشياء و شقي إبليس بخمسة أشياء.

أمّا آدم:

١ - فقد إعترَف بالمُخالفة.

٢ - و ندم عليها.

٣ - و لام نَفسه.

٤ - و سارع الىٰ التّوبة.

٥ - و لم يقنط من الرّحمة.

أمّا إبليس:

١ - لم يقرّ بالذّنب.

٢ - و لم ينَدم.

٣ - و لم يسلم نفسه بل أضاف الىٰ ربّه الغواية.

٤ - و قنط من الرّحمة.

٥ - و لم يسارع الىٰ التّوبة.

قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ

أي قال اللّه تعالىٰ لهؤلاء الثّلاثة إهبطوا الىٰ الأرض بعضكم لبعضٍ عدّو يعني أنّ العداوة ثابتة بينكم لا تزول البتّة و قوله: **وَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** قيل المراد بالمستقرّ هو أنّ الأرض موضع إستقرار لكم معناه الإستقرار بعينه لأنّ المصدر يجيئ علىٰ وزن المفعول نحو قوله: **وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا**[1] أي إدخالاًكريماً و قوله و متاعٌ الى حين، فالمراد أنكم تنتفعون و تستلذون بما في الأرض من الأمتعة و الأغذية و الألبَسة و غيرها الى الحين قصيراًكان أو طويلاً

١- النساء = ٣١

و قيل معناه الى القيامة **قٰالَ فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ** و المعنىٰ واضح.

لأنّ الحياة و الموت و الخروج للبعث يوم القيامة في هذه الأرض قال اللّه تعالىٰ: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ** (١)

و قوله: **إِلىٰ حِينٍ** قال الرّاغب الحين وقت بلوغ الشّيء و حصوله و هو مبهم المعنىٰ و يتخصّص بالمضاف اليه نحو قوله ولات حين مَناص.

تنبيهٌ:

قال بعض المفسّرين قد أكثر المفسّرون المتكلّمون في هذه القصّة من إستخراج الإشكالات و الجواب عنها بأنواعٍ من التّمحلات و هي مبنيّة على ما جروا عليه من أنّ آدم كان نبّياً و رسولاً و أنّ الرّسل معصومون من معاصي اللّه فكيف وسوس له الشّيطان فأغواه وكيف أقسم له فصدقه فيما يخالف خبر اللّه وكيف أطمعه في أن يكون ملكاً أو خالداً فطمع و هو يستلزم إنكار البعث كان لم يصدّق فكيف أطاعه و هل الأمر له بالأكل من الجنّة أمر وجوب أم إباحة و هل النّهي للشّجرة للتّحريم أو الكراهة الىٰ آخر ما هنالك حتّىٰ زعم بعضهم أنّ معصية كانت صوريّة و زعم بعض الصّوفية أنّ حقيقة هذه المسألة لا تعرف إلاّ بالكشف أو إلاّ في الأخرة و سياق الكلام الىٰ أن قال أنّ آدم لم يكن نبّياً عند بدء خلقه إتفاقاً و لا موضع للرّسالة في ذلك الطّور و الظّاهر من الأيات الواردة في الرّسل و من بعض الأحاديث الصّحيحة أنّه لم يكن رسولاً مطلقاً و أنّ أوّل الرّسل نوح عليه السلام و عصمة الأنبياء من كلّ معصيةٍ قبل النبوّة و بعدها لم ينقل إلاّ عن بعض الرّوافض و لا يظهر دليل العصمة و لا حكمتها فيه.

ثمّ قال هذا ما ألهمه اللّه تعالىٰ من بيان معاني هذه الأيات بما يدلّ عليه الأسلوب العربي مَع مراعاة سنن اللّه تعالىٰ في الخليفة انتهى موضع الحاجة من كلامه (٢).

١- طه = ٥٥

٢- تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٥٤.

ثمّ ذكر صاحب الكتاب من الإسرائليات في قصّة آدم فصلاً مشبعاً من أراد الإطّلاع عليه فليرجع الى كتابه.

و نحن نقول أمّا في إستخراج الإشكالات من المفسّرين في هذه القِصّة و الجواب عنها فهذا ممّا لا كلام لنا فيه و ذلك لأنّ حقيقة الأمر في هذه القصّة علينا مجهولة لا علم لنا بكيفيّة الأمر و دقائقها وخفاياها إلاّ ما يدّل عليه ظاهر الأيات.

و أمّا قوله و آدم لم يكن نبّياً و رسولاً عند بدء خَلقه إتفاقاً فهو أيضاً حقّ لا مرية فيه و الأخبار تدّل عليه إلاّ أنّ الرّسالة غير النبوّة فقوله أنّ أوّل الرّسل نوح عليه‌السلام لا ينافي كون آدم و بعده الى زمان نوح أنبياء و لم يقل أحد بأنّ آدم كان رسولاً فكأنّ المتشكل لم يفرق بين النّبي و الرّسول وكيف كان فنحن أيضاً نقول بمقاله إجمالاً.

و أمّا قوله و عصمة الأنبياء من كلّ معصيةٍ قبل النبوّة و بعدها لم ينقل إلاّ عن بعض الرّوافض.

فنقول مراده عن بعض الرّوافض، هو الشّيعة الإمامية الأثنىٰ عشرية لأنّهم إتّفقوا على عصمة الأنبياء قبل النبوّة و بعدها بل يقولون بعصمة الأوصياء أيضاً و قد إستدّلوا علىٰ ذلك من العقل و النّقل بما لا مزيد عليه و لولا خوف الإطاعة لذكرنا بعض الأدّلة العقليّة و النّقلية في المقام رغماً لأنوف المخالفين.

و أمّا في قصّة آدم فالظّاهر من آثار أهل البيت أنّه لم يكن نبيّاً عند بدء خلقه و لذلك لا يضّره هذا المقدار من الذّنب الصّغير الّذي نعبّر عنه بترك الأولى ولو كان غير ذلك لما كان صالحاً للنبوّة أصلاً لأنّ النّبي كما لا يجوز عليه الذّنب بعد النبوّة لا يجوز عليه قبلها لقوله تعالىٰ: **لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ**[1] و قد ثَبت أنّ المشتقّ أعمّ عمّا إنقضى عنه المبدء.

١- البقرة = ۶۴

فعن عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرّضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السّلام بأسناده عن علّي بن محمّد بن الجهم قال حضرتُ مجلس المأمون وعنده الرّضا عليه السلام فقال له المأمون يابن رسول اللّه أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون قال عليه السلام: بلى، قال: فما معنى قول اللّه عزّ وجلّ: وَ عَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ[1] قال عليه السلام أنّ اللّه قال لأدم: ٱسْكُنْ أَنتَ وَ زَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ[2] و أشار لهما الىٰ شجرة الحنطة فتكونا من الظّالمين و لم يقل و لا تأكلا من هذه الشّجرة و لا ممّا كان من جنسها فلم يقربا تلك الشّجرة و أنّما أكَلا من غيرها لما أن وسوس الشّيطان اليهما ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة و أنّما نهاكما أن تقربا غيرها و لم ينهكما عن الأكل منها إلاّ أن يكونا ملكين أو تكونا من الخالدين و قاسمهما أنّي لكما لمن النّاصحين و لم يكن أدم و حوّاء شاهدا قبل ذلك من يحلف باللّه كاذباً فدَّليهما بغرورٍ، فأكلا منها ثقةً بيمينه باللّه و كان ذلك من أدم قبل النبوّة ولم يكن ذلك بذنبٍ كبيراً إستحقّ به دخول النّار و أنّما كان من الصّغائر الموهوبة التّي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلمّا إجتباه اللّه تعالى و جعله نبيّاً كان معصوماً لا يذنب صغيرة و لا كبيرة.

قال اللّه تعالىٰ: وَ عَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثمّ إجتباه ربّه فتاب عليه و قال عزّ وجلّ: إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ[3] انتهىٰ.

١- طه = ١٢١
٢- البقرة = ٣٥
٣- آل عمران = ٣٣

و عن تفسير علّي بن إبراهيم، حدَّثني أبي رَفعه قال سُأل الصّادق عليه السلام عن جنّة أدم أمن جنان الدّنيا كانت أم من جنان الأخرة فقال عليه السلام كانت من جنان الدّنيا تطلع فيها الشّمس و القمر و لو كان من جنان الأخرة ما خرج منها أبداً قال عليه السلام فلمّا أسكنه اللّه الجنّة أتى جهالة الىٰ الشّجرة لأنّه خلق خلقةً لا تبقى إلاّ بالأمر و النّهي و الغذاء و اللّباس و الأكنان و التّناكح و لا يدرك ما ينفعه ممّا يضّره إلاّ بالتّوفيق فجاء إبليس فقال له أنكما إن أكلتما من هذه الشّجرة التّي نهيكما اللّه عنها صرتما ملكين و بقيتما في الجنّة أبَداً و إن لَم تأكلا منها أخرجكما من الجنّة و حلف لهما أنّه لَهما ناصح كما قال حكاية عنه ما نهيكما ربّكما عن هذه الشّجرة الىٰ قوله: لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ فقبل أدم قوله فأكلا من الشّجرة و كان كما حكى اللّه، بَدت لهما سوأتهما، و سقط عنهما ما ألبسهما اللّه من لباس الجنّة و أقبلا يستتران بورق الجنّة، وناديٰهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة و أقل لكما أنّ الشّيطان لكما عدوٌ مبين فقالا كما حكىٰ اللّه ربّنا ظلمنا أنفسنا الآية فقال اللّه لهما، ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قال عليه السلام الىٰ يوم القيامة انتهىٰ.

و رُوي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال لمّا أخرج اللّه أدم من الجنّة نزل عليه جبرئيل فقال يا أدم ألَيس اللّه خلقك بيده و نفخ فيك من روحه و أسجد لك ملائكته و زوجك أمته حوّاء و أسكنك الجنّة و أباحها لك و نهاك مشافهةً أن لا تأكل من هذه الشّجرة فأكلت منها و عصيت اللّه فقال أدم يا جبرئيل أنّ إبليس حلف لي باللّه أنّه لي ناصح فما ظنّنتُ أحداً من خلق اللّه يحلف باللّه كاذباً انتهىٰ.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي البصائر و الدّراية اذ لا مَلَجأ لنا في حلّ مشكلات الكتاب إلاّ الأخذ من العترة الطّاهرة الّتي جعلها النّبي عدلاً للكتاب في قوله كتاب اللّه و عترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضّلوا أبداً فهذا ما يظهر لنا من الأخبار في قصّة أدم و حوّاء و ما وراء ذلك فهو داخل في قولهم أسكتوا عمّا سكت اللّه عنه فأنّ أسرار كلام اللّه لا يعلمها إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم و ما نقلناه من الأخبار نقلناه عن تفسير نور الثّقلين[١] والحمد للّه ربّ العالمين.

١- ج ٢، ص ١١ الى ص ١٣.

يٰا بَنِيٓ اٰدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباسًا يُوارِي
سَوْاٰتِكُمْ وَ رِيشًا وَ لِباسُ ٱلتَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ
مِنْ اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يٰا بَنِيٓ اٰدَمَ لٰا
يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطٰانُ كَمٰآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ
يَنْزِعُ عَنْهُمٰا لِبٰاسَهُمٰا لِيُرِيَهُمٰا سَوْاٰتِهِمٰآ إِنَّهُ
يَرٰيكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لٰا تَرَوْنَهُمْ إِنّٰا جَعَلْنَا
ٱلشَّيٰاطِينَ أَوْلِيٰآءَ لِلَّذِينَ لٰا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَ إِذٰا
فَعَلُوا فٰاحِشَةً قٰالُوا وَجَدْنٰا عَلَيْهٰآ اٰبٰآءَنٰا وَ ٱللّٰهُ
أَمَرَنٰا بِهٰا قُلْ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰآءِ أَتَقُولُونَ
عَلَى ٱللّٰهِ مٰا لٰا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي
بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ
ٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمٰا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ
﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدٰى وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلٰالَةُ
إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيٰاطِينَ أَوْلِيٰآءَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

◁ اللّغة

يُوٰارِي يقال واريت كذا اذا سترته و توارای، إستتر.

سَوْاٰتِكُمْ أي عوراتكم و قد مرّ الكلام فيها.

وَ رِيشًا ريش الطّائر معروف و هو للطّائر كالثّياب للإنسان و لذلك قد يستعار منه و قد يستعار لإصلاح الأمر يقال رشتُ فلاناً فإرتاش أي حسن حاله.

يَفْتِنَنَّكُمُ الفتنة هي الإختبار والإبتلاء.
يَنْزِعُ النَّزع قلع الشّيء من موضعه الّذي هو ملابس له.

◁ الإعراب

قرأ أهل المدينة و ابن عامر والكسائي وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ بالنّصب و الباقون بالّرفع فمن نصبه عطفه علىٰ قوله رِيشًا و ذَٰلِكَ و خَيْرٌ خبره و الجملة خبر لباس و قيل لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ خبر مبتدأ محذوف تقديره و ساتر عوارتكم لباس التّقوى أو على العكس أي و لباس التّقوىٰ ساتر عوارتكم يَنْزِعُ عَنْهُمَا الجملة في موضع الحال من ضمير الفاعل في، أخرَج، أو من الأبوين هُوَ وَ قَبِيلُهُ هو توكيد لضمير الفاعل ليحسن العطف عليه وَ أَقِيمُوا معطوف علىٰ موضع القسط على المعنى أي أمر ربّي فقال أقسطوا و أقيموا و قيل في الكلام حذف تقديره فأقبلوا وأقيموا و ٱلدِّينَ منصوب بمخلصين كما، الكاف نعتٌ لمصدر محذوف أي تعودون عوداً كبدأكم.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ الأوّل منصوب بـهدىٰ والثّاني بفعل محذوف تقديره و أضَّل فريقاً و يحتمل أن يكون فريقاً في الموضعين حال و هدىٰ وصفٌ للأوّل حَقَّ عَلَيْهِمُ وصف للثّاني.

◁ التّفسير

يَا بَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ قصّة أدم و فيها ستر السّوأت و جعل له في الأرض مستّقراً و متاعاً ذكر ما إمتّن به علىٰ أولاد أدم و ما أنعم به عليهم من اللّباس الذّي يواري السّوأت و الرّياش الّذي يمكن به إستقرارهم في الأرض و إستمتاعهم بما خوّلهم.

قيل هذه الآية نزلت و هكذا الثّلاث بعدها فيمن كان من العرب يتعرّى في البيت في طوافه و قيل أنّها نزلت في مقام الإمتنان علىٰ بني أدم و أنّ اللّه تعالىٰ أنعم اللّه عليهم بما ذكر فيها كما أنعم عليهم بغيره و الدّليل على ما ذكرناه هو أنّ المخاطب بها كلّ بني أدم و كيف كان فقد ذكر في الآية أنّه أنزل عليهم اللّباس من السّماء كما هو المستفاد من الإنزال و ظاهر الأمر أنّه ليس كذلك.

قيل في الجواب أنّه ذكر المسَّبب و أراد به السَّبب و ذلك لأنّه ينبت بسبب نزول المطر من السّماء ما يتَّهيأ منه اللّباس، و قيل أنّه بمعنىٰ خلق كما في قوله تعالىٰ و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، أي خلق و قوله: **وَ أَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**[١] أي خلقنا و الحاصل أنّ البركات تنسب الىٰ أنّها تأتي من السّماء و ما نحن فيه من هذا القبيل فهذه الآية خطاب منه تعالىٰ لأهل كلّ زمانٍ من أولاد أدم و المراد باللّباس كلّما يصلح للّبس من ثوب و غيره من نحو الدّرع يغشي به البيت من نطع أو كسوة.

و أمّا الرّيش فقيل هو اللّباس الفاخر الذّي يلبس للزّينة و منه ريش الطّائر.

و قال بعضهم الرّيش عبارة عن سعة الرّزق و رفاهيّة العيش وأكثر أهل اللّغة علىٰ أنّ الرّيش ما يستر من لباسٍ أو معيشةٍ و قال قوم المراد به الأناث قال صاحب الكشّاف لباس الزّينة أستعير من ريش الطّائر لأنّه لباسه و زينته أي أنزلنا عليكم لباسين، **لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ** ولباساً يزّينكم لأنّ الزّينة غرضٌ صحيحٌ انتهىٰ.

و لا يخفىٰ أنّ عطف الرّيش على اللّباس يقتضي المغايرة و أنّه قسيم له و الأقوال في الباب كثيرة و الحقّ أنّ المراد بالرّياش المتاع و المال و باللّباس كلّ ما يلبس فأنّ المال يُستر به العرض كما أنّ اللّباس يستر به الجسد قال اللّه تعالىٰ: **ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**[٢].

١- الحديد = ٢٥
٢- الكهف = ٤٦

لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ إختلفوا في لباس التّقوىٰ أيضاً، فقال ابن زيد هو ستر العورة.

و قال زيد بن علّي الدّرعي و المغفر و السّاعدان لأنّه يُتَّقىٰ بها في الحرب.

و قيل الصُّوف و لبس الخشن، و قيل ما يقي من الحرّ و البرد، و قيل لباس المتّقين في الأخرة.

و عن ابن عبّاس أنّه العمل الصّالح، و قيل العِّفة، و قيل الإيمان، و أقوى الأقوال و أحسنها هو أنّ المراد به العفاف و ذلك لأنّ العفيف لا تبدوا له عورة و أن كان عارياً من الثّياب و الفاجر باد العَورة و أن كان كاسياً من الثّياب.

ثمّ قال تعالىٰ ذلك، أي أنّ الذّي فعلناه بكم من حجج اللّه الّتي دلَّتكم على توحيده من اللّه، لعلَّهم يذّكرون، أي لكي يتفكّروا فيها و يشكروا على ما أنعم اللّه عليهم من النِّعم الّتي لا تحصىٰ فتحصّل لنا من الآية أنّ اللّه تعالىٰ أنزل أي خلق و جعل لأولاد أدم لباساً يواري به سوأته، و لباساً يستر به عرضه و هو المال و المتاع. و لباساً يستر به قبائحه و هو الدّين و العفاف و يعبّر عن الأوّل باللّباس و عن الثّاني بالرّيش و عن الثّالث بالتَّقوىٰ فمنهم من حصل له واحداً منها و منهم من حصل له أثنان و منهم من حصل له الثّلاثة و هو الموّفق المؤيّد من عند اللّه و ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

يَا بَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ

لمّا ذكر قصّة أدم و بيّن فيها عداوة الشّيطان لأدم و أولاده أتبعها بتحذير أولاده من قبول و سوسة الشّيطان و خديعته و مكره و ذلك لأنّه بوسوسته و مكره صار سبباً لخروج أدم و حوّاء من الجنّة و من كان قادراً على إخراج أدم أبو البشر و هو هو، فهو على إخراج أولاده أقوىٰ و أقدر و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **يَا بَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ** أي لا يوقعكم الىٰ المعاصي من الجهة الّتي تميل اليها النّفوس و تشتهيه كما هو دأبه وديدنه.

كما أخرج أبويكم من الجنّة أي كما أغوىٰ أبويكم حتّىٰ خرجا من الجنّة و أنّما نسب الإخراج اليه لما كان بإغواءه و جرىٰ ذلك مجرىٰ ذمّ اللّه تعالىٰ فرعون بأنّه يذّبح أبناءهم و أنّما أمر بذلك و تحقيق الذّم فيها راجع الىٰ فعل القتل المذموم.

يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا أي نازعاً عنهما لباسهما و ذلك لأنّه في موضع الحال من الشّيطان و أنّما فعل ذلك لكي تبدو سوأتهما فيرياها و غرضه في ذلك هو أن يغمّها ذلك و يسوءهما أن تبدوا و لغيرهما كما بدا لهما لأنّ ذلك صفة كلّ من له مرّؤة و أمّا لباسهما.

فقيل كان لباسهما الظّفر و قيل كان لباسهما نوراً و قيل كان من ثياب الجنّة.

إِنَّهُ يَرَيٰكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ يعني أنّ الشّيطان يراكم و المراد بقبيله قيل هو نسله و ذرّيته و عليه فالمعنى أنّ الشّيطان و ذرّيته يرونكم و أنتم لا ترونهم إمّا لأنّ أبصارهم أحدًّ من أبصارنا و إمّا لأنّ أجسامهم شفافة و أجسامنا كثيفة.

و قال بعضهم أنّ اللّه تعالىٰ خلق في عيونهم إدراكاً و لذلك يرون الإنس ولم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس و لذلك لا يرونهم.

إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**(١)

و قد حكىٰ اللّه تعالىٰ عنه أنّه قال: **لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ،إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**(٣).

١- البَقرة = ٢٥٧
٢- الحجر = ٣٩ و ٤٠
٣- ص = ٨٢ و ٨٣

قال القاضي معنىٰ قوله جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون، هـو أنّـا حكمنا بأنّ الشّياطين أولياء لمن لا يؤمن و معنى قوله أرسلنا الشّياطين على الكافرين هو أنّا خلَّينا بينهم و بينهم انتهىٰ.

و إعترض عليه الرّازي و قال، اذا قال القائل أنّ فلاناً جعل هذا الثّوب أبيض أو أسود لم يفهم منه أنّه حكم به بل يفهم منه أنّه حصل السّواد أو البياض فيه فكذلك هاهنا وجب حمل الجعل على التّأثير والتّحصيل لا على مجرّد الحكم انتهىٰ.

و أنا أقول تفسير الجعل بالحكم لا يخلو عن مسامحة و الأحسن تـفسيره بالعلم أي علمنا ذلك اللّهم إلاّ أن يقال أنّا حكمنا بذلك لأنّا علمنا به فالمراد بالحكم ليس معناه المصطلح الذّي لا مرَّد له.

و أمّا قول الرّازي بحمل الجعل على التّأثير و التّحصيل ففيه أنّه يتمّ اذا كان الجعل مرّكباً لا بسيطاً و الجعل في المقام بسيط فكأنّه لم يفرق بين الجعلين فقال ما قال و عليه فالمعنىٰ أنّا أوجدنا الشّياطين كذلك لا جعلناهم كـذلك حتّىٰ لا يقدر الشّيطان على خلاف ذلك فالإغواء والإضلال مقتضىٰ جبلّيته و طينته و ماهيّته لا مقتضى وجوده فإفهم فأنّه دقيقٌ.

وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

الفحش و الفحشاء و الفاحشة ما عظُم قبحه من الأفعال و الأقوال، قيل أنّها و ما بعدها نزلت في قوم من المشركين الذّي كانوا يبدون سوأتهم في طوافهم و لذلك قال ابن عطّية و الفاحشة و أن كان اللّفظ عامّاً إلاّ نّ المراد بها كشف العورة في الطّواف و قيل المراد بها هـنا الشِّـرك و قـيل البـحيرة والسّـائبة و الوصيلة و الحامي و قيل الكبائر كلّها و هو الحقّ اذ حمل اللّفظ على الخصوص لا دليل عليه وكَيف كان فاذا قيل لهم لم تفعلون هذا قالوا وجدنا عليه أباءنا، و اللّه أمرنا بها، أي أنّ أباءنا كانوا كذلك فلولا أمر اللّه ما فعلوه قطعاً.

فقال تعالى لنبيّه: **قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ وَ ٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**[٣] والأيات كثيرة.

نعم هذا أي الأمر بالفحشاء من الشّيطان وأتباعه:

قال تعالىٰ فيه: **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ ٱلْفَحْشَآءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَآءِ**[٥].

و السِّر فيه هو أنّ الفحشاء قبيح و اللّه تعالىٰ منزّهٌ عن القبائح قولاً وعلاً لأنّ القبح عيبٌ و نقص و الواجب تعالىٰ كاملٌ بالذّات و الصّفات فلا يتّصف بالقبائح و من كان كذلك كيف يأمر به.

و أمّا الشّيطان و أتباعه فالأمر فيهم بالعكس و قد ثبت أنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون أل ترىٰ أنّ العادل يأمر بالعدل و الظّالم يأمر بالظُّلم و السّارق يأمر بالسّرقة و هكذا و الىٰ هذه النكتته أُشير بقوله أتقولون علىٰ اللّه ما لا تعلمون نعم أنّ اللّه تعالى متّصف بالعدل و لذلك يأمر به كما قال: **قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ** فهو أمر بالقسط لأنّه بذاته قائمٌ به:

قال اللّه تعالىٰ: **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ**[٦].

١- النّحل = ٩١
٢- الأعراف = ٨٠
٣- النُّور = ١٩
٤- البَقرة = ١٦٩
٥- البقرة = ٢٦٨
٦- أل عمران = ١٨

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدآءَ لِلّٰهِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ ٱلْكِتابَ وَ ٱلْمِيزانَ لِيَقُومَ ٱلنّاسُ بِالْقِسْطِ**[3].

و قد روىٰ أبو بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: من زَعم أنّ اللّه يأمر بالفَحشاء فقد كَذب علىٰ اللّه و مَن زَعم أنّ الخير والشّر اليه فَقد كَذب علىٰ اللّه انتهىٰ.

و عن كتاب التّوحيد بأسناده عن أبي عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مَن زَعَم أنّ اللّه تعالىٰ يأمر بالسُّوء والفحشاء فقد كَذب علىٰ اللّه الحديث.

و عن تفسير علّي ابن إبراهيم في هذه الآية قال الّذين عبدوا الأصنام فَرّد اللّه عليهم:

فقال قُلْ إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ[4].

وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ هُنا بحثان:

أحدهما: في قوله **وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**.

ثانيهما: في قوله **وَ ٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**.

١- النّساء = ١٣٥
٢- المائدة = ٤٢
٣- الحديد = ٢٥
٤- تفسير نور الثّقلين، ج ٢، ص ١٧.

أمّا الأوّل: فقيل فيه وجوه:

أحدها: ما ذَهب اليه مجاهد والسُّدي وابن زيد قالوا معناه توَّجهوا الىٰ قبلة كلّ مسجد في الصّلاة علىٰ إستقامةٍ.

ثانيها: قال الرّبيع أي توَّجهوا بالإخلاص للّه لا للوثن و لا لغيره.

ثالثها: قال الفَرّاء معناه اذا دَخل عليك وقت الصّلاة في مسجد فصل فيه و لا تقُل آتى مسجد قومي.

أقول هذه الوجوه و أن إعتمدوا عليها في التّفاسير إلاّ أنّها لا ترجع الىٰ مُحصّل كما هو ظاهر و الحقّ أنّ الكلام خرج مخرج الإستعارة و ذلك لأنّ الوجه لا يصحّ عليه القيام و عليه فالمعنىٰ فوَّجهوا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ و يجوز أن يكون معنى ذلك، فتوَّجهوا بجملتكم نحو كلّ مسجد لأنّ وجه الشّئ عبارة عن جملته.

و قيل أراد بالإقامة تحرّي الإستقامة و بالوجه التوجّه نقله الرّاغب في المفردات و ما ذكرناه أولىٰ.

البَحث الثّاني: في تفسير قوله **وَ ٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ** أمرهم بالدّعاء و التَّضرع اليه تعالىٰ على وجه الإخلاص و أصل الإخلاص على ما قيل هو إخراج كلّ شائبٍ من الخبث و المراد به في لسان الشّرع هو توجيه العبادة الى اللّه تعالىٰ خالصاً و قد أُشير الىٰ هذا المعنىٰ في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ**(٣).

١- الزّمر = ٣
٢- الزّمر = ٢
٣- الزّمر = ١١

قال اللّه تعالىٰ: **قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ**[2].

قال بعض العُرفاء الإخلاص تصفية العمل من كلّ شوبٍ و هو علىٰ ثلاث درجات:

الأُولىٰ: إخراج رؤية العمل من العمل و الخلاص من طلب العوض على العمل و النُّزول عن الرّضا بالعمل.

أقول المراد بإخراج رؤية العمل هو أن لا يعتدّ بعمله و لا يرىٰ أنّه من كسبه بل هو بتوفيقٍ من اللّه و من المعلوم أنّ العمل إذا صدر هكذا فأنّ العامل لا يرى فيه إستحقاق الثّواى بل يراه محض الموهبة أجراه اللّه على يده و بهذا يخلص من طلب العوض اليه.

والدرّجة الثّانية: الخجل من العمل مع بذل المجهود و توفير الجهد بالإحتماء من الشُّهود و رؤية العمل في نور التّوفيق من عين الجود.

والدّرجة الثّالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل، و لتوضيح هذه الكلمات مقام آخر.

و عن المحاس عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال عليه‌السلام: في قوله تعالىٰ: حَنيفاً مُسلماً أي خالصاً مخلصاً لا يشوبه شئ انتهىٰ.

و من كتاب روضة الواعظين قال النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: أنّ لكلّ حقٍّ حقيقة و ما بلغ عبدٌ حقيقة الإخلاص حتّىٰ لايُحبّ أن يحمد علىٰ شئٍ من عمل اللّه.

و منه أيضاً قال أبو عبد اللّه عليه‌السلام: قال اللّه عزّ وجلّ: أنا خير من أشرَك معي في عمل عمله لا أقبلُه إلاّ ما كان لي خالصاً انتهىٰ.

و قال: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من أحبّ أن يعلم ماله عند اللّه فليعلم ما لِلّه عنده انتهىٰ[3].

۱- الزّمر = ۱۴ ۲ - البيّنة = ۵

۳- مشكاة الأنوار، باب الإخلاص، ص ۱۰.

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ إختلفوا في المراد منه علىٰ أقوال.

أحدها: معناه كما بدأكم اللّه حفاة عراة كذلك نعيدكم حفاة عراة روي عن النبّي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ قال يحشرون عراة حفاة عزّلاً.

ثانيها: ما روي عن إبن عبّاس و جابر أنّهم يبعثون على ما ماتوا عليه المؤمن على إيمانه و الكافر على كفره.

ثالثها: ما نقل عن الزّجاج قال كما أحياكم في الدّنيا أوّل مرّة كذلك يحييكم في الأخرة و ليس بعثكم بأشدّ من إبتداء إنشاءكم و هذا إحتجاج عليهم في إنكارهم البَعث.

رابعها: أنّه إعلام من اللّه بأنّ من كتب عليه أنّه من أهل الشّقاوة و الكفر في الدّنيا هم أهل ذلك في الأخرة وكذلك من كتب له السّعادة و الإيمان في الدّنيا هم أهل ذلك في الأخرة لا يتبدّل شيئ ممّا أحكمه و دبَّره و يؤيّد هذا المعنى قراءة أبّي تعودون فريقين فريقاً هدىٰ و فريقاً حقّ عليهم الضّلالة و على هذا يكون الوقف علىٰ، تعودون، غير حسنٍ لأنّ فريقاً نصب على الحال و فريقاً عطف عليه و الجملة من هدى، و من حقّ، في موضع الصّفة لما قبله.

أقول أحسن الأقوال هو القول الثّالث فأنّ ظاهر الآية يقتضي ما ذكره الزّجاج و هو أنّ العود مثل البدأ ففي الحقيقة تكون الآية حجّة على منكري البعث و سيأتي الكلام في هذا الباب مُفصّلاً في محلّه إن شاء اللّه تعالىٰ: **فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ** قد مرّ في بحث الإعراب وجه النَّصب في فريقاً، في الموضعين و أنّ فريقاً.

الثّاني منصوب بفعل مقدّر أي و أضلَّ أو خذل فريقاً حقّ عليهم الضّلالة قال في الكشّاف، فريقاً هدىٰ، و هم الّذين أسلموا أي وفقّهم للإيمان وفريقاً حقّ عليهم الضّلالة أي كلمة الضّلالة و علم اللّه أنّهم يضلّون و لا يهتدون.

و قال الرّازي في المقام إحتجّ أصحابنا بهذه الآية علىٰ أنّ الهدىٰ و الضّلال

من اللّه تعالى، أقول لا دلالة للأية على ما ذكره أصلاً و ذلك لأنّه تعالى قد أخبر بهذا الكلام أنّ النّاس علىٰ صنفين.

صنف منهم علىٰ الهدىٰ و صِنف آخر على الضّلال ولم يقل أنّهما من اللّه تعالى فيهم بأنّ اللّه خلقهم كذلك و من المعلوم أنّ الأخبار و الإعلام حاكيان عن علم المخبر بما أخبر به و قد ثبت أنّ العلم الأزلي لا يكون علّة للفعل عند العقلاء و لذلك قال تعالىٰ: **إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** فلو كان الأمر كما زعمه الرّازي من أنّ الهدىٰ و الضّلال بيده تعالىٰ فلا وجه لقوله: **إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ** إذ المفروض أنّه تعالىٰ خلقهم كذلك بل للشّيطان أن يقول ياربِّ أنت خلقتهم كذلك فما ذنبي و هو واضح لمن أنصف و تجّنب عن العناد واللّجاج و العجب من الرّازي و أمثاله و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ علّل كلامه هذا بأنّهم إتّخذُوا الشّياطين أولياء و هو يقول غير ذلك و أمّا قوله: **وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** أي هؤلاء الكفّار يظنون كذلك و لم يعلموا أنّ متابعة الشّيطان أصل الضّلالة و مخّ الشّقاوة كما أنّ متابعة الدّين أصل السّعادة و الهداية و هذا ممّا لا خفاء فيه

نعم في الآية دلالة على عدم كفاية الظّن في الدّين و أنّه لابدّ فيه من الإعتقاد الجازم و هو لا يحصل إلاّ بمتابعة النّبي في كلّ عصر و زمان هذا في الأصول و أمّا الفروع فقد يكفي فيها الظّن.

يٰا بَنِىٓ اٰدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا
وَ ٱشْرَبُوا وَ لٰا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُ لٰا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ
﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ
ٱلطَّيِّبٰاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا فِى
ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا خٰالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْاٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّىَ
ٱلْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ ٱلْإِثْمَ
وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللّٰهِ مٰا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللّٰهِ مٰا لٰا
تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰآءَ أَجَلُهُمْ لٰا
يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لٰا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

◁ اللّغة

يٰا بَنِىٓ،بنى جمع إبن و أنّما نصب لأنّه نداء مضاف والأبن هو الولد الذّكر و البنت هو الولد الأنثىٰ فقوله يا بني آدم يشمل الكلّ من الذّكور والإناث.

ٱلْفَوٰاحِشَ جمع فاحشة و قد سبق الكلام فيها و الباقي واضح.

◁ الإعراب

عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ظرف لخذوا و ليس بحالٍ للزّينة قُلْ هِىَ هي مبتدأ و خٰالِصَةً خبره يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ ظرف لخالصة مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ بدلان من الفواحش و بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ متعلّق بالبغي جٰآءَ أَجَلُهُمْ هو مفرد في موضع الجمع و قرأ إبن سيرين آجالهم علىٰ الأصل.

◁ التّفسير

يٰا بَنِيٓ اٰدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ قال المفسّرون المراد بالزّينة الثّياب و ذلك لأنّ المشركين كانوا يتّعرون عند طوافهم ببيته الحرام و يبدون عوارتهم فقال تعالىٰ خذوا زينتكم من الكساء و اللّباس عند كلّ مسجد.

قال الطّبري أنّ النّساء كنّ يطفّن بالبيت عراة بغير ثياب إلاّ أن تجعل المرأة على فرجها خِرقة فنزلت الآيـة **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** و روي فـي ذلك أخباراً كثيرة كلّها ناظرة الىٰ هذا المعنى، و قال صاحب الكشّاف خذوا زينتكم أي ريشكم و لباس زينتكم عند كلّ مسجد وكانوا يطوفون عراة.

و قال البيضاوي **خُذُوا زِينَتَكُمْ** ثيابكم لمواراة عوراتكم عند كلّ مسجدٍ لطوافٍ أو صلاة، و قال الرّازي نقلاً عن إبن عبّاس أنّ أهل الجاهلّية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرّجال بالنّهار و النّساء بـاللّيل و كـانوا إذا وصلوا الى مسجد منى طرحوا ثيابهم و أتوا المسجد عراة و قالوا لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذّنوب و ساق الكلام الىٰ أن قال فأنزل اللّه تعالى هذه الآية أي إلبسوا ثيابكم و قال في موضع آخر المراد من الزّينة لبس الثّياب و الدّليل عليه قوله تعالىٰ: **وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ**(١) يعني الثّياب و قال في موضع آخر و أيضاً فقد أجمع المفسّرون علىٰ أنّ المراد بالزّينة هاهنا لبس الثّوب الّذي يستر العَورة انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

و قال في تفسير روح البيان الزّينة و أن كانت إسماً لما يتزّين به من الثّياب الفاخرة إلاّ أنّ المفسّرين أجمعوا على أنّ المراد بها هاهنا الثّياب الّتي تستر العورة إستدلالً بسبب نزول الآية و هو أنّ حاصل أهل الجاهلّية مـن قـبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الىٰ آخر ما قال.

١- النور = ٣١

و قال الألوسي، في تفسير روح المعاني **خُذُوا زِينَتَكُمْ** أي ثيابكم لموارات عوراتكم عند كلّ مسجد أي طوافٍ أو صلاة، وبه قال الشّيخ قدّس سرّه في التبّيان و الطّبرسي في المجمع و غيرهما من المفسّرين مِنّا و منهم و لم أجد فيما بأيدينا مخالفاً و الحاصل أنّهم أجمعوا وإتّفقوا على أنّ المراد بالزّينة الثّياب و أخذها لبسها عند كلّ مسجدٍ للصّلاة أو الطّواف و إستفادوا من الآية وجوب السّاتر عند كلّ صلاةٍ و قال صاحب تفسير الميزان أخذُ الزّينة عند كلّ مسجد هو التّزيين الجميل عند الحضور في المسجد و هو أنّما يكون بالطّبع للصّلاة و الطّواف فيرجع المعنى الى الأمر بالتّزيين الجميل للصّلاة و نحوها الى آخر ما قال إذا عرفت هذا فنقول.

ما ذكروه في معنىٰ الزّينة و أنّ المراد بها الثّياب و اللّباس لا نفهم وجهه و ذلك لأنّه لو كان المراد بها ما ذكروه فلم لم يقل خذوا ثيابكم أو لباسكم عند كلّ مسجدٍ و بعبارةٍ أخرى ما الوجه في العدول عن الثّياب أو اللّباس بالزّينة الدّليل على هذا العدول مع أنّ لفظ الزّينة لا يطلق علىٰ الثّياب أصلاً بل الزّينة أمرٌ طار على الثّياب لا نفس الثّياب يقال ثوبٌ مزّين أو لباس كذلك ولم يقل أحد من أهل اللّغة أنّ الزّينة تطلق علىٰ الثّوب و اللّباس و عليه فقول المفسّرين في هذا المقام لا دليل عليه.

أن قلت كلام المفسّرين في تفسير الآية حجّة و لا سيّما إتّفاقهم عليه.

قُلت كلاّ إلاّ إذا كان كلامهم مؤيداً باللّغة أو النّص أو دليل العقل و الكلّ في المقام مفقود و على المدّعي الإثبات و الّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ المراد بالزّينة في الآية الشّريفة هو معناها المتعارف عندهم و هو السّلاح و ذلك لأنّهم كانوا في عهد الجاهلية متلّبسين بالسّلاح في جميع الأمكنة وكانوا يعدّون حمل السّلاح زينة لأنفسهم وكانوا إذا دخلوا المسجد الحرام دخلوا مسلحين فنهاهم اللّه تعالىٰ عن دخول المسجد كذلك فقال: **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** فأنّ حكم الأمثال واحد و أنّما أمرهم بذلك

تشريفاً للمساجد وأنّها بيوت العبادة و الخضوع لا مكان الحرب و السّلاح و هذا لا ربط له بما ذكروه من وجوب السّتر في الصّلاة فأنّ وجوبه فيها علمٌ بدليلٍ آخر كغيره من شرائط الصّلاة و عليه فقوله تعالىٰ: **خُذُوا زِينَتَكُمْ** معناه إتركوها عند دخول المساجد أي لا تدخلوها متزيّنين بالسّلاح متلبّسين به فأنّ المسجد ليس معركة القتال حتّى يحتاج الىٰ السّلاح بل السّلاح في المسجد عبارة عن الدّعاء كما ورد أنّ سلاح المؤمن الدّعاء هذا ما خلج ببالي في معنىٰ الآية واللّه أعلم بمراده منها.

وَ كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ

هذا حكم آخر حكم اللّه به علىٰ عباده و هو الأمر بالأكل و الشُّرب في جميع الأمكنة والأزمنة سواء كان في المسجد أم في غيره و النهي عن الإسراف في الأكل و الشُّرب و من المعلوم أنّ الأمر للإباحة لا للوجوب ثمّ أنّ المراد بالإسراف هو الخُروج عن حَدّ الإستواء في زيادة المقدار و قيل المراد الخروج عن الحلال الىٰ الحرام و هذا ليس بشئٍ و المعنى الأوّل هو الصّحيح.

قال الرّاغب في المفردات السَّرف تجاوز الحَدّ في كلّ فعلٍ يفعَه الإنسان و يقال تارةً إعتباراً بالقدر و أخرىٰ بالكيّفية و لذا قيل ما أنفق في غير طاعة اللّه فهو سرف و أن كان قليلاً، و قد ذمّ اللّه تعالىٰ المسرفين في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ**(٥).

١- غافر = ٢٨
٢- غافر = ٣٤
٣- المائدة = ٣٢
٤- الأعراف = ٨١
٥- يونس = ٨٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ**(١).

والأيات كثيرة ويستفاد منها أنّ الإسراف يطلق علىٰ العصيان ومنه.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ**(٢).

و علىٰ الكفر والبقاء عليه ومنه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ**(٣).

و في إستيفاء الحقّ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**(٤).

و علىٰ الإسراف في المال حتّىٰ في الإنفاق.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا**(٥).

و علىٰ الظُّلم فأنّه أيضاً تجاوزٌ عن الحدّ كما.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ**(٦).

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ ٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ

قيل زينة اللّه ما حسنته الشّريعة و قرّرته ممّا يتّجمل به من الثّياب و غيرها و أضيف الى اللّه لأنّه تعالىٰ أوجدها و أباحها و الطيّبات هي المستلذّات من المأكول و المشروب.

و قيل هي المحلّلات ومعنىٰ الإستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء و توبيخ محرّميها و ذلك لأنّهم في عهد الجاهّلية كانوا يحرّمون أشياء على أنفسهم من لحوم الطّيبات و ألبانها فقال اللّه تعالى ردّاً عليهم و إنكاراً لفعلهم قُل لهم يا

١- غافر = ٤٣
٢- الزّمر = ٥٣
٣- طه = ١٢٧
٤- الإسراء = ٣٢
٥- الفرقان = ٦٧
٦- يُونس = ٨٣

محمّد من حرَّم زينة اللّه التّي أخرج لعباده من الثّياب و الطّيبات من الرّزق من الأطعمة و الأشربة و لذلك قالوا الأصل في الأشياء الإباحة.

و أمّا الحرمة فتحتاج الى دليل **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** قيل معناه قل يا محمّد هي، أي الطّيبات و الزّينة، **لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** أي هي للمؤمنين فيها بمعنى أنّهم أحقَّ بها من غيرهم و فى قوله خالصةً يوم القيامة، وجهان:

أحدهما: أنّهم لا يعاقبون عليها يوم القيامة.

ثانيهما: أنّها خالصةً للمؤمنين يوم القيامة دون المُشركين و أن كانوا يشركهم فيها في الحياة الدُّنيا.

فعن أمالي الشّيخ قدس سره بأسناده الىٰ أمير المؤمنين عليه السلام و الحديث طويل يقول عليه السلام فيه « أعلموا يا عباد اللّه أنّ المتّقين جازوا عاجل الخير و أجله شاركوا أهل الدّنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدّنيا في أخرتهم أباحهم اللّه في الدّنيا ما كفاهم به و أغناهُم قال اللّه عزّ وجلّ: **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**، سكنوا الدّنيا بأفضل ما أكلت شاركوا أهل الدّنيا في دنياهم فأكلوا في دنياهم معهم من طيّبات ما يأكلون و شربوا من طيّبات ما يشربون ولبسوا من أفضل ما يلبسون و سكنوا من أفضل ما يسكنون و تزَّوجوا من أفضل ما يتزوّجون و ركبوا من أفضل ما يركبون و أصابوا لذّة الدّنيا مع أهل الدّنيا و هم غداً جيران اللّه يتمنّون عليه فيعطيهم ما يتمنّون لا تردّ لهم دعوة و لا ينقص لهم نصيب من اللّذة فإلىٰ هذا يا عباد اللّه يشتاق اليه من كان له عقل انتهىٰ[1].

١- نور الثّقلين، ج ٢، ص ٢٣.

أقول الأحاديث الواردة في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لتفسير الآية فلا نحتاج الىٰ أكثر منه و إلاّ فقد ورد في الأخبار أنّ الأئمّة عليهم السّلام كانوا يلبسون الثّياب الفاخرة حابّة خزّ وطيلسان خزّ فاذا قيل لهم فيه قالوا: **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ**.

فعن يوسف بن إبراهيم قال دخلت على أبي عبد اللّه و علّي كجبّة خزٍّ و طيلسان خزٍّ فنظر إلّي فقلت جعلت فداك علّي جبّة خزّ و طيلسان خزٍّ ما تقول فيه قال، و لا بأس بالخزّ قلت و سداه إبريسم فقال عليه السلام لا بأس به فقد أصيب الحسين بن علّي عليه السلام و عليه جبّة خزٍّ انتهىٰ.

و عن أحمد بن محمّد عن أبي الحسن عليه السلام قال: كان علّي بن الحسين يلبس الثّوب بخمس مائة دينار و المطرف بخمس مائة دينار يشتو فيه فاذا ذهب الشّتاء باعه و تصدّق بثمنه انتهىٰ.

و في خبر عمر بن علّي عن أبيه عن الحسين عليه السلام أنّه كان يشتري الكساء الخزّ بخمسين ديناراً الحديث و الأخبار كثيرة[١].

ثمّ قال تعالىٰ: **كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** أي لمن يعلم معنى الأيات.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ ٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

لمّا أنكر اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة على من حرّم زينة اللّه الّتي أخرج لعباده و الطّيبات من الرّزق على ما مرّ تفصيل الكلام فيه أفاد في هذه الآية ما حرّمه عليهم فقال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم قل يا محمّد أنّما حرّم ربّي الفواحش الآية و المحرّمات فيه خمسة هي الأصول لجميع المحرّمات:

١- ص ٢٣.

أحدها: الفَواحش واليه أشار بـقوله: **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ** و قد مرّ تفسير الفاحشة و أنّها عبارة عن كلّ فعلٍ أو قولٍ قبيح و لا فرق فيها بين الفاحشة الظّاهرة و غيرها لأنّ الملاك فيها القُبح موجود في الجلّية و الخفيّة.

و قال قوم المراد بها الكبائر من الذّنوب كما أنّ الإثم عبارة عن صغائرها و هذا القول لا يعتمد عليه اذ يلزم أن لا يكون الزّناء و السّرقة و الكفر من الإثم و لا يقول به أحد.

قال بعض المفسّرين أنّ الفاحشة و أن كانت بحسب أصل اللّغة إسماً لكلّ ما تفاحش و تزايد في أمرٍ من الأمور إلاّ أنّه فى العرف مخصوص بالزّناء و الدّليل عليه أنّه تعالىٰ قال في الزّناء أنّه كان فاحشة و لأنّ لفظ الفاحشة اذا أُطلق لم يفهم منه إلاّ ذلك فوجب حمل الفاحشة على الزّناء فقط ثمّ حمل ما ظهر منها على الزّناء علانية و ما بطن منها ما يقع على سبيل العشق و المحبّة، أو أنّ المراد بها ظهر منها الملامسة والمعانقة، و ما بطن منها الدُّخول انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و لقائلٍ أن يقول لو كان المراد بالفواحش الزّناء فقط فحقّ الآية أن يقال قل أنّما حرَّم ربّي الفاحشة و حيث أتى بصيغة الجمع نفهم من اللّفظ معناه العامّ الشّامل للزّناء و غيره هذا أوّلاً و ثانياً نمنع كون الفاحشة في العرف مخصوص بالزّناء نعم هو من أجلىٰ مصاديقها في العرف و إلاّ فاللّواط أيضاً فاحشة إستدلاله بأية الزّناء حيث عبَّر عنه بالفاحشة فهو لا يدّل على مدّعاه لأنّ إطلاق الفاحشة على الزّناء ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في الإنحصار والآية لا تدّل عليه و هو ظاهر.

و منه يعلم فساد ما رتّبه على تحقيقه فأنّ الملامسة و المعانقة ليستا من الزّناء لا عرفاً و لا لغةً و لا شرعاً.

كما أنّ العشق و المحبّة أيضاً كذلك و من أطلق على العاشق و المحبّ و الملامس الزّاني فكلامه هذا ليس من التّفسير بشيءٍ بل هو خارج عن طور العرف و اللّغة و العقل.

قال في المفردات الفُحش و الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال و هو معنىً عامّ و تخصيصه بالزّناء فقط يحتاج الى دليل و اذ ليس فليس.

اذا عرفت هذا فمعنى كلام اللّه هو أنّ اللّه حرَّم الفواحش قولاً و فعلاً ظاهراً و باطناً أي علانيةً و خفيّةً فمن فسَّر قوله: **وَ مَا بَطَنَ** بما في الضّمير و القلب فقد تعسّف لأنّ نيّة الذّنب و إضماره لا يعدُّ ذنباً فضلاً عن كونه فاحشة و لذلك لا يعاقب عليه فهو إشارة الىٰ المعاصي الّتي يرتكبها العبد في الخفاء.

ثانيها: الإثم و هو إسم للأفعال المبطئة عن الثّواب و جمعه أثام قال اللّه تعالىٰ: **فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ**(١) أي في تناولهما إبطاء عن الخيرات أعمّ من الفحش و الفاحشة و لذلك قالوا تسمية الكذب إثماً لكونه من جملة الإثم كتسمية الإنسان حيواناً لكونه من جملته و كيف كان فهو أيضاً من المحرّمات كالفواحش قال اللّه تعالىٰ: **يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَ ٱلْعُدْوَٰنِ**(٢) و عليه فكلّ فعلٍ أو قولٍ فيه إبطاءٌ في الخيرات فهو إثم.

ثالثها: البغي بغير الحقّ قال بعض المفسّرين أن كان المراد بالفواحش جميع الكبائر و بالإثم جميع الذّنوب فالبغي و الشّرك لابدّ و أن يكونا داخلين تحت الفواحش و الأثم إلاّ أنّ اللّه تعالىٰ خصّهما بالذّكر تنبّيهاً على أنّهما أقبح أنواع الذّنوب و أن كان المراد بالفواحش الزّناء و بالإثم الخَمر و الشّرك على هذا التّقدير غير داخلين تحت الفواحش والإثم.

وأنا أقول البغي عبارة عن طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أولم يتجاوزه قاله الرّاغب في المفردات و عليه فالبغي ليس معناه مطلق الطّلب إذا لم يقيّد بالتّجاوز و هو على قسمين:

١- البقرة = ٢١٩ ٢- المائدة = ٦٢

ممحدوحٌ و مذمومٌ، فالممدوح هو تجاوز العدل الىٰ الإحسان و الفرض الى التّطوع، و المذموم هو تجاوز الحقّ الىٰ الباطل أو تجاوزه الىٰ الشُّبه و لأجل ذلك قال تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** (١) فخصّ العقوبة ببغيه بغير الحقّ يقال أبغيتُك على طلبه إذا عرفت معنى البغي فقد علمت أنّ البغي علىٰ إطلاقه غير مذموم و لأجل ذلك قيّده اللّه تعالىٰ بغير الحقّ فقال البغي بغير الحقّ و هذا هو المذموم المحرّم، أطلقوا الباغي على أصحاب الجمل و النّهروان و صفّين وكلّ من خرج على الإمام فهو باغ بغير الحقّ فالخلفاء الغاصبين كلّهم باغون إذ طلبهم الخلافة لم يكن بحقٍّ و حيث لم يفرق الجمهور بين البغي بالحقّ و البغي بغير الحقّ زعموا أنّ كلّ مَن خرج علىٰ السُّلطان فهو باغ قال الرّازي و أيضاً قد يراد بالبغي الخروج على سلطان الوقت، و لم يعلم أنّ الخروج علىٰ سلطان الوقت إذا كان بحقٍّ فهو ليس من البغي بل هو من الواجبات و ذلك فيما إذا كان السّلطان ظالماً جائراً غير واجدٍ لشرائط الإمارة ألا ترىٰ أنّ الحسين إبن علّي عليه‌السلام خرج علىٰ سلطان وقته و هو يزيد الملعون فَمن زعم أنّ هذا الخروج كان من مصاديق البغي المنّهي عنه فقد خرج عن الإسلام و محصّل الكلام هو أنّ البغي بغير الحقّ الّذي أشير اليه في الآية هو الّذي يعبّر عنه بالفساد في الأرض أحياناً و مصاديقه أكثر من ان تحصىٰ لأنّ الباغي بهذا المعنى هو الظّالم بعينه فأنّ الظّلم عبارة عن وضع الشّئ في غير محلّه و ما نحن فيه من هذا القبيل و لا شكّ أنّ الظّلم و الفساد و البغي كذلك حرام محرّم و قد أشار اللّه تعالىٰ في كثير من الأيات بقبحه و ذمّه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّآ أَنجَيٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** (٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** (٣).

١- الشّورىٰ = ٤٢
٢- يُونس = ٢٣
٣- الشّورىٰ = ٤٢

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَحْسِنْ كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ**(١).

و غيرها من الأيات.

رابعها: قوله **وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** لا شكّ أنّ الشّرك من المحرّمات بل هو أقبحها و أخبثها، و هو علىٰ قسمين:

كبيرٌ و صغيرٌ، والأوّل عبارة عن الشّرك باللّه تعالىٰ بإثبات شريك له يقال أشرك فلان باللّه و ذلك أعظم كفرٍ بحيث قال اللّه تعالىٰ فيه.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ**(٤)

والأيات كثيرة.

الثّانى: الشّرك الصّغير و هو مراعاة غير اللّه معه في بعض الأمور و قد يعبّر عنه بالرّياء والنفّاق والىٰ هذا أشار بقوله.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ ٱلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**(٧).

و أمثالها من الأيات و من المعلوم أنّ المحرّم في الشّريعة المطّهرة هو كلا القسمين إلاّ أنّ أحدهما أعظم من الآخر و هذا ممّا لاكلام فيه و الأدلّة العقّلية

١- القصص = ٧٧
٢- النّساء = ٤٨
٣- النّساء = ١١٦
٤- المائدة= ٧٢
٥- يوسف = ١٠٦
٦- النّحل = ١٠٠
٧- الكهف = ١١٠

و النّقلية من الكتاب و السُّنة كلّها حاكم بقبحه و ما كان قبيحاً عقلاً و شرعاً فهو حرام مضافاً الى إجماع الأمّة و إنّما الكلام في قوله: **مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰانًا** حيث أنّ اللّه تعالىٰ قيّد الشّرك المحرّم في المقام به، قال الرّازي و فيه سؤال و هو أنّ هذا يوهم أنّ في الشّرك باللّه ما قد أنزل به سلطاناً، و جوابه المراد منه أنّ الإقرار بالشّيئ الّذي ليس علىٰ ثبوته حجّة و لا سلطان ممتنع فلّما إمتنع حصول الحجّة و التّنبيه علىٰ صحّة القول بالشّرك فوجب أن يكون القول به باطلاً علىٰ الإطلاق و هذه الآية من أقوى الدّلائل علىٰ أنّ القول بالتّقليد باطل إنتهىٰ كلامه.

أقول السُّلطان، الحجّة و البرهان و المقصود من الكلام هو أنّ العاقل لا يتّبع في إعتقاده ما لا حجّة و لا برهان له علىٰ إثباته و حيث أنّ الشّرك باللّه داخل فيما لا حجّة علىٰ صحّته ينبغي أن لا يعتقد به و ليس لهذا الكلام مفهومٌ ليؤخذ به بل هو أصلٌ من الأصوُل العقلية و فيه ردّ علىٰ من قال أو يقول.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا وَجَدْنٰآ اٰبٰآءَنٰا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلَىٰ اٰثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالُوا وَجَدْنٰآ اٰبٰآءَنٰا لَهٰا عٰابِدِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ اٰبٰآءَنٰآ**(٣) وأمثالها من الأيات.

فيقال لهم أنتم قلّدتم آباؤكم لا حجّةٍ و برهان و هذا هو السِّر في عدم جواز التّقليد في الأصول ألا ترى أنّ اللّه تعالىٰ قال في كتابه.

قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ أَمٰانِيُّهُمْ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ اٰلِهَةً قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **ءَإِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ**(٦).

١- الزّخرف = ٢٣ ٢- الأنبياء = ٥٣
٣- لُقمان = ٢١ ٤- البقرة = ١١١
٥- الأنبياء = ٢٤ ٦- النّمل = ٦٤

و إذ ليس لكم برهان علىٰ ما إعتقدتم به فأنتم من السّفهاء و صورة القياس هكذا، الشّرك باللّه لم ينزّل به سلطان و لا حجّة، وكلّ شئ لا حجّة فيه لا ينبغي الإعتقاد به فالشّرك لا ينبغي الإعتقاد به.

خامسها: قوله **وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** و ذلك لأنّه مستلزم للكذب على اللّه تعالىٰ و هو من كبائر الذّنوب ألا ترىٰ أنّه يبطل الصّوم و مع ذلك يوجب الكفّارة إذا كان عن عمدٍ و لا يختصّ الكلام بالشّرك فقط بل هو محرّم في جميع الأمور و هو واضح.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ

الأمّة كلّ جماعةٍ يجمعهم أمر ما أمّا دينٌ واحد أو زمان واحدٌ أو مكانٌ واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو إختياراً و جمعها أممٌ.

و لا تختصّ هذه اللّفظة بالإنسان فقط.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مِنْ دٰابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ**(١).

أي كلّ نوعٍ منها علىٰ طريقةٍ قد سخّرها اللّه عليها بالطّبع فهي من بين ناسجةٍ كالعنكبوت و بانية كالسّرفة و مدّخرة كالنّمل و معتمدة على قوت وقته كالعصفور و الحمام الىٰ غير ذلك من أنواع الحيوانات و أصنافها فقوله تعالىٰ: **وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ** يشمل الكلّ حيث أنّه تعالى قد قضى على الجميع بالموت:

قال اللّه تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ،وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلاٰلِ وَ ٱلْإِكْرٰامِ**(٢).

و أمّا قوله: **فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ** ألخ **الأَجَل** بفتح الجيم المدّة المضروبة للشّئ و لذلك يقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان أجل فيقال دنا أجله عبارة عن دنّو

١- الأنعام = ٣٨ ٢- الرّحمٰن = ٢٦ و ٢٧

الموت و أصله إستيفاء الأجل أي مدّة الحياة فقوله تعالیٰ: **وَ بَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِیٓ أَجَّلْتَ لَنَا**(۱) أي حدّ الموت و قيل حدّ الهرم و هما في التّحقيق واحد قاله الرّاغب في المفردات و قال بعض المفسّرين الأجل الوقت المضروب لإنقضاء المهل لأنّ بين العقد الأوّل الّذي يضرب لنفس الأجل و بين الوقت الآخر مهلاً مثل أجل الدّين و أجل الوعد و أجل العمر و قال أبو علّي في الآية دلالة على أنّ الأجل واحد لأنّه لا يجوز أن يكون الظّالم بقتل الإنسان قد إقتطعه عن أجله وكيف كان فمعنى الآية هو أنّ الأجل اذا جاء فلا تقديم فيه و لا تأخير و ليس لمن جاء أجله أن يطلب التقدّيم أو التّأخير.

أن قلت ما معنى قوله: **وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ** فأنّ حضور الأجل إمتنع عقلاً و قوعه في الوقت المتقدّم عليه.

قلتُ معنى قوله: **فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ** اذا قرب أجلهم كما تقول العرب جاء الشّتاء اذا قرب وقته و مع مقاربة الأجل يصّح التقدّم عليه تارةً و التّأخر عنه أخرىٰ.

و أمّا ذكر السّاعة فهو كناية عن عدم التقدّيم و التّأخير لأنّ هذا اللّفظ أقل أسماء الأوقات و ليس المراد بها معناها الحقيقي لأنّ التّقديم و التّأخير فيه لا يمكن ولو بلحظة فضلاً عن ساعةٍ و هو واضح بل محسوسٌ مشهود.

■

۱- الانعام = ۱۲۸

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ
نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا
يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا
فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ
ضِعْفٌ وَ لَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَ قَالَتْ أُولَاهُمْ
لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ
الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ
فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

◁ اللّغة

نَصِيبُهُمْ النَّصيب الحظّ.

ٱدَّارَكُوا بتشديد الدّال و ألف بعدها و أصلها، تدارکوا فأبدلت التّاء دالاً و أسكنت ليصّح إدغامها ثمّ أجلبت لها همزة الوصل ليصّح النطق بالسّاكن و قرئ في الشّاذ، تداركوا، علىٰ الأصل أي أدرَكَ بعضهم بعضاً، و قرئ اذ إدّاركُوا بقطع الهَمزة عمّا قبلها وكسرها على نيّة الوقف على ما قبلها و الإبتداء بها، و قرئ، اذا إدراكوا، بألف واحدة ساكنة و لكلّ وجهٌ.

يَلِجَ الولوج الدّخول.

◁ الإعراب

مِنْ قَبْلِكُمْ ظرف لخلت و قيل صفة لأمم ومِنَ ٱلْجِنّ حال من الضّمير في خلت أو صفة أخرىٰ لأمم، فِي ٱلنَّارِ متعلّق بأدخلوا جَمِيعًا حال ضِعْفًا صفة لعذاب و هو بمعنى مضّعف أو مضاعف و كَذٰلِكَ في موضع نصب نَجْزِى على أنّه وصف لمصدر محذوف غَوَاشٍ جمع غاشية و التّنوين فيها للصَّرف أو بدل من الياء من غواشي.

◁ التّفسير

يَا بَنِى ادَمَ قد مرّ الكلام فيه و قلنا أنّه جمع ابن علىٰ ما سبق تفصيله إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ أصله، إن، ما، فإن حرف شرطٍ دخلت عليه، ما، و لدخولها دخلت النّون الثّقيلة في، يَأْتِيَنَّكُمْ ولو قال أن يأتينكم لم يجز لأنّ، ما جعلته في حكم غير الواجب هكذا قيل رُسُلٌ جمع رسول و أنّما جمع لأنه علىٰ تقدير يأتين لكلّ أمّةٍ فصار كأنّه خطاب لجميع المكلّفين يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ القصص وصل الحديث بالحديث في وصل الحديث الممتنع بحديثٍ مثله.

و هذا خطاب من اللّه تعالى لجميع بني أدم المكلّفين منهم أنّه يبعث اليهم رُسلاً من أنفسهم أي من جنس البشر يقصُّون عليهم أيات اللّه و هو ما أنزله عليهم من كتبه و نصب لهم من أدلّته و لذلك قال: **ءَايَاتِي** ثمّ قال تعالىٰ: **فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَ أَصْلَحَ** أي من أخذ منكم بالتّقوىٰ و أصلح من حيث العمل و فيه إشارة الىٰ أنّ مجرّد الإعتقاد لا يكفي اذا لم يكن مقروناً بالعمل الصّالح فالمُتّقي من عمل صالحاً موافقاً للشّريعة المقدّسة و من كان كذلك **فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** أي من إتّقىٰ معاصي اللّه و إجتنبها و أصلح بأن فعل الصّالحات لا خوف عليهم و لا هم يحزنون فيها.

و حيث أنّ الإتّصاف بالتّقوىٰ لا يمكن إلاّ بمتابعة الشّريعة و هي موقوفة علىٰ متابعة الأنبياء فصّح أن نقول في الآية حثٌّ علىٰ التّأسي بالأنبياء في أقوالهم و أفعالهم اذ لا يمكن تحصيل المراد بدون ذلك و هو ظاهر و لذلك قال تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَ ٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** و ذلك لأنّ تكذيب الأيات يوجب تكذيب الرُّسل و تكذيب الرُّسل يوجب تكذيب اللّه تعالى كما أنّ الإستكبار عنها أيضاً كذلك و من المعلوم أنّ تكذيب اللّه كفرٌ به و الكافر مخلّد في النّار قطعاً.

و أمّا ما ذهب اليه بعض المفسّرين من أنّ الآية تدّل بالمفهوم على أنّ الفاسق لا يخلّد فيها لأنّه ليس بمكّذبٍ و لا بمستكبرٍ فهو كلام لا طائل تحته و ذلك لأنّ إثبات الخلود في النّار للمكذّبين والمستكبرين لا ينفي وجوده لغيرهم أيضاً فأنّ إثبات الشّئ لا ينفي ما عداه هذا أوّلاً.

وأمّا ثانياً: ففي كثير من الأيات قد حكم اللّه بالخلود فيها لغير المكذّبين و المستكبرين.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**[1].

١- الزّخرف = ٧٤

قال اللّه تعالىٰ: **لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاَ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئًا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزٰآؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِدًا فِيهٰا**(٢).

و أمثالها من الأيات كثيرة و من المعلوم أنّ المجرم والقاتل قد يكون مسلماً و هو ظاهر.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اَفْتَرٰى عَلَى اَللّٰهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ

الفاء للتّفريع وكلمة، من، للإستفهام الإنكاري و المراد به الأخبار عن عظم جرم من يفتري على اللّه كذباً أوكذّب بأيات اللّه و فيه دلالة علىٰ أنّ تكذيب اللّه أو تكذيب آياته لأنّه يرجع الى تكذيبه، من أقبح أنواع الظّلم و أفحشها لأنّه يرجع الى الكفر، فقوله: **مِمَّنِ اَفْتَرٰى عَلَى اَللّٰهِ كَذِبًا** معناه يقول علىٰ اللّه ما لم يقله و قوله: **أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ** معناه كذّب ما قاله اللّه و الأوّل هو الحُكم بوجود ما لم يوجد مثل القول بالشّريك له تعالى أو إثبات البّنات و البنين له.

الثّاني: هو الحكم بإنكار ما يوجد مثل إنكاركون القرأن كتاباً منزلاً من عند اللّه و مثل إنكار النبوّة و الإمامة و هذا لا يختصّ بالكفّار فقط بل يشمل كثير من المسلمين ممّن إفتروا على اللّه كذباً في أحكامه فقالوا هذا حكم اللّه مثلاً أو قالوا بالتّجسم في حقّه، أوكذّبوا بأيات اللّه التّي أنزلها في كتابه أو على لسان نبيّه.

و قد أشار اللّه تعالىٰ الىٰ كثير منها في كتابه فمن المفترين من إدّعى الوّحي و لم يوح اليه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اَفْتَرٰى عَلَى اَللّٰهِ كَذِبًا أَوْ قٰالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**(٣).

و منهم من يضلّ النّاس بغير علمٍ.

١- المجادلة = ١٧ ٢- النّساء = ٩٣

٣- الأنعام = ٩٣

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هٰذَا حَلَالٌ وَ هٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ**(٢).

و الأيات كثيرة جدّاً. و عليه فنقول جميع المـذاهب الّتي وجـدت بـعد رسول اللّه غير مذهب أهل البيت من مصاديق هذه الآية و نظائرها لأنّ رؤساء المذاهب و أئمّتهم قالوا فيها ما شاءوا حكموا فيها من عند أنفسهم أو إستندوا أحكامهم الىٰ من لا يعتمد عليه في الشّرع المعلوم أنّ الحكم في الدّين كذلك من أظهر مصاديق الإفتراء و هذا ممّا لا يخفىٰ علىٰ أهل الإنصاف.

أُولَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أي أولئك الذّين إفتروا علىٰ اللّه أو كذّبوا بأياته ينالهم نصيبهم من الكتاب و إختلفوا في معناه فقيل المراد هو ما ذكره اللّه تعالى في كتابه من أنواع العذاب للمكذّبين.

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظّىٰ، لَا يَصْلٰيهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى، ٱلَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلّىٰ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ**(٤).

و غير ذلك ممّا كتب اللّه في اللّوح المحفوظ.

و قيل المراد به، الرّزق و العمر و العمل من الخير و الشّر في الدّنيا.

و قيل جميع ما كتب اللّه لهم و عليهم.

و قيل معناه ينالهم نصيبهم من خيرٍ أو شرٍ في الدّنيا.

و نقل الرّازي عن ابن عبّاس و مجاهد و سعيد بن جبير أنّ معناه ينالهم ما سبق لهم في حكم اللّه و فى مشيّئة من الشّقاوة و السّعادة فأن قضىٰ اللّه لهم بالختم على الشّقاوة و أبقاهم علىٰ كفرهم و أن قضىٰ لهم بالختم علىٰ السّعادة نقلهم الى الإيمان و التّوحيد و قيل غير ذلك ممّا لا فائدة كثيرة في نَقله.

١- الأنعام = ١٤٤
٢- النّحل = ١١٦
٣- اللّيل = ١٤ و ١٥ و ١٦
٤- أل عمران = ١٠٦

أقول لا يُفهم معنىٰ الكلام حتّى يُعلم معنىٰ الكتاب لأنّه تعالىٰ قال: **أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ** فأن كان المراد به القرأن فيحكم بصّح القول الأوّل و هو أنّ المراد من النّصيب ما أوعدهم اللّه في كتابه من أنواع العذاب في الأخرة و هكذا سائر الأقوال بناءً على أنّ ما ذكره في القرأن مطابق لما أثبته في اللّوح المحفوظ و هذا ممّا لا إشكال فيه ظاهراً.

و أمّا ما ذكره الرّازي و نسبه الى إبن عبّاس و مجاهد و سعيد إبن جبير فلا يمكن المساعدة عليه إلاّ على القول بالجبر و نحن لا نقول به لأنّ ضرورة الدّين قاضية ببطلانه و صريح العقل يحكم بفساده كما مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ هذا كلّه على مذاق القوم وأنّ المراد بالكتاب هو اللّوح المحفوظ.

و التّحقيق أنّ الكتاب يطلق على معان، منها ما قدَّره اللّه تعالىٰ من الحكمة.

و منه قوله تعالىٰ: **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**[١].

و منها التّقدير والقضاء:

و منه قوله: **لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**[٢] أي ما قدَّره و قضى.

و منها العِلم:

و منه قوله: **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**[٣].

و قوله: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ**[٤].

أي في علم اللّه و حكمه.

و منها الحُجّة الثّابتة من جهة اللّه:

و منه قوله: **وَ مِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**[٥] أي بغير حُجّةٍ وبُرهان و غير ذلك من المعاني اذا عرفت هذا فنقول:

١- الانعام = ٥٤
٢- التوبة = ٥١
٣- الرعد = ٣٨
٤- التوبة = ٣٦
٥- الحج = ٨

حمل الكتاب في قوله: **يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ** علىٰ علم اللّه أو على تقديره و قضاءه أولى من حمله علىٰ القرأن أو على اللّوح المحفوظ و المعنى أولئك الذّين يفترون على اللّه كذباً أو كذّبوا بأيات اللّه ينالهم نصيبهم و حظّهم ممّا علم اللّه في حقّهم أو قدّره لهم و الأحسن حمله على الحجّة و البرهان لأنّ اللّه تعالى قد أرسل اليهم الرّسول و بذلك قد تمّت حجّته عليهم فلم يبق لهم عذراً في تكذيب اللّه و تكذيب أياته و يدّل عليه قوله: **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** و المراد بالرُّسل الملائكة الّتي تنزل عليهم لقبض أرواحهم قالوا أي قالت الملائكة لهم أين ماكنتم تدعون في الحياة الدُّنيا من دون اللّه من الأوثان و الأصنام التّي لم ينفعوهم في هذه الحال فقولهم لهؤلاء المكذّبين أين ما كنت تدعون، إشارة الى أنّ الأصنام و الأوثان التّي عبدوها لم تقم حجّة على صحّة الإعتقاد بهم بل الأمر بالعكس و اذا كان كذلك فلا محالة ينالهم نصيبهم من تكذيبهم اللّه أو تكذيب أياته و حيث أنّهم يعجزون عن الجواب يقولون في جواب الملائكة **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** أي ضلَّ من كنّا ندعُوه من دُون اللّه عنّا **وَ شَهِدُوا** هؤلاء الكفّار والمكذّبين **عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ** أي أقرُّوا عليها **أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** جاحدين باللّه وكافرين لنعمه بعبادتهم الأنداد من دون اللّه و قد ثبت أنّ المقر يؤخذ بإقراره فما ينالهم من العذاب نصيبهم حسب الإقرار و الإعتراف بذنبهم و ما ربّك بظلّام للعبيد.

قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ

هذا حكاية عن قول اللّه تعالى للكفّار يوم القيامة و أمره لهم بالدّخول في النّار في جملة الأمم الذّين تبعوا من قبلهم من الجنّ و الإنس و ذلك لأنّ حكم الأمثال واحد.

كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا

أي كلّما دخلت طائفة من هؤلاء المكذّبين في النّار لعنت أختها، أي لعنت طائفة أخرى الّتي أضلّتهم بزعمهم الفاسد و قيل يعني في دينها لا في نسبها و المعنى أنّ أهل النّار لعن بعضهم بعضاً و يعادي بعضهم بعضاً كما قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**[1].

حَتَّىٰ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا حتىٰ غاية لما قبلها و المعنى أنّهم يدخلون النّار فوجاً ففوجاً لاعناً بعضهم بعضاً الى إنتهاء تداركهم و تلاحقهم و إجتماعهم في النّار.

قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ

يعني قالت الفرقة المتأخّرة التّابعة للفرقة المتقدّمة المتبوعة و تشير اليها هؤلاء أضلُّونا، عن طريق الحقّ و أغوونا **فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا** و الضِّعف المثل الزّائد على مثله فاذا قال القائل أضعف هذا الدِّرهم معناه أجعل معه درهماً أخر لا ديناراً و كذلك أضعف الأثنين إجعلها أربعة و حكي أنّ المضّعف في كلام العرب ما كان ضعفين و المضاعف ما كان أكثر من ذلك.

و الحاصل أنّ هذا الكلام دعاء منهم عليهم قال اللّه في جوابهم، لكلٍّ ضعفٌ أي أنتم مثلهم و هؤلاء مثلكم في الإستحقاق للعذاب و الخلود في النّار و في قوله: **وَ لَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ** إشارة الى عدم علم كلّ طائفةٍ من عذاب الأخرىٰ و قرئ أبو بكر عن عاصم (ولكن لا يعلمون) بالياء و المعنىٰ واحد و أنّما يفترق بالخطاب و الغيبة.

١- العنكبوت = ٢٥

وَ قَالَتْ أُولٰيهُمْ لِأُخْرٰيهُمْ فَمٰا كٰانَ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

لمّا حكى اللّه تعالى عن الفرقة المتأخّرة ما قالت لها حكىٰ عن الأمّة المتقدّمة أنّها قالت للفرقة المتأخّرة (فما كان لكم عَلينا من فضلٍ في ترك الضّلال علىٰ قولٍ أو لمساواتكم لنا في الكُفر علىٰ قولٍ أخر و بعبارةٍ أخرىٰ لا فضل لكم علينا و أنّا متساوون في إستحقاق الضِّعف

إِنَّ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اَسْتَكْبَرُوا عَنْهٰا لاٰ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوٰابُ اَلسَّمٰاءِ

لمّا حكم اللّه تعالى فيما مضى أنّ من إفترى على اللّه كذباً أو كذّب بأياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حكم في هذه الآية بأنّ المكذّبين و المستكبرين المعرضين عن أيات اللّه إستكباراً و عناداً لا تفتّح لهم أبواب السّماء و قرئ بغير التشدّيد أيضاً و كيف كان ففي تفسيره أقوال:

أحدها: معناه لا تفتح لأعمالهم و لا لدعاءهم و لا لما يريدون به طاعة اللّه أي لا يصعد لهم صالح فتفتح أبواب السّماء له و هذا منتزعٌ عن قوله تعالىٰ: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ اَلْكَلِمُ اَلطَّيِّبُ وَ اَلْعَمَلُ اَلصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ**(١)

ثانيها: لاٰ تفتح لهم أبواب اَلسَّمٰاَء.

ثالثها: لا تفتح لهم أبواب السّماء في القيامة ليدخلُوا منها الىٰ الجنّة أي لا يؤذون لهم في الصُّعود الى السّماء.

أقول القول الثّاني هو الحقّ و قد روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم و أرواحهم الىٰ السّماء فتفتح لهم أبوابها و أمّا الكافر فيصعد بعمله و روحه حتّىٰ اذا بلغ الىٰ السّماء نادى منادٍ أهبطوا الىٰ سجّين و هو وادي حضرموت يقال له برهوت انتهىٰ.

١- فاطر = ٩

و عن عليّ عليه السلام و قد سأله بعض اليهود عن مسائل، أمّا أقفال السّموات فالشّرك باللّه و مفاتيحها قول لا إله إلاّ اللّه انتهىٰ.

و عنه عليه السلام قال تفتّح أبواب السّماء في خمس مواقيت، عند نزول الغيث، و عند الزحف، و عند الأذان، و عند قراءة القرأن مع زوال الشّمس و عند طلوع الفجر.

وَ لَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ

أي لا يدخلون فيها هؤلاء المكذّبين بأيات اللّه و المستكبرين عنها.

قال بعض المفسّرين سواء كانوا معاندين في ذلك أو غير عالمين بذلك و أنّما تساوياً فيه لأنّ من ليس بعالم قد أزيحت علّته باقامة الحجّة و نصب الأدلّة على تصديق آيات اللّه و ترك الإستكبار عنها إنتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إذا كان الجاهل مقصّراً و أمّا إذا كان قاصراً فلا.

لأنّ المقصّر في حكم العامد بخلاف القاصر كما ثبت في موضعه قوله: **حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ.**

أعلم أنّ اللّه تعالىٰ قد علّق دخول هٰؤلاء المكذّبين بآيات اللّه المستكبرين عنها في الجنّة علىٰ ولوج الجمل في سمّ الخياط و من المعلوم أنّ ولوج الجمل في سمّ الخياط محال فدخولهم الجنّة محال لأنّ المعلّق على المحال محال و توضيحه، أنّ الجمل من أكبر الحيوانات عند العرب جسماً و سمّ الخياط معناه ثقب الإبرة و قرأ إبن سيرين بضمّ السّين و قال صاحب الكشّاف يروي سمّ بالحركات الثّلاث و من المعلوم أنّ ولوج الجمل في تلك الثّقبة الضّيقة من المحال و الموقوف على المحال محال فيجب أن يكون دخولهم الجنّة محالاً مأيوساً منه قطعاً و هو المطلوب و أمّا قوله: **وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ** فمعناه واضح لا خفاء فيه.

قال اللّه تعالىٰ في وَصفهُم: **إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا**[٢].

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ

جَهَنّم بفتح الجيم و الهاء و النّون إسم للِنار اللّه الموقِدة قيل و أصلها فارّسي معرّب و هو جهنام واللّه أعلم، و المهاد كالمهد الفراش ما تهَيّ للصّبي قال في المفردات المهد و المهاد المكان الممهّد الموَّطأ يقال مهدّت لك كذا، هيأته و سوّيته و الغواش جمع غاشية و هى اللّباس المجلّل و منه غاشية السّرج، و معنى الآية هو أنّ اللّه تعالىٰ هيّأ لهؤلاء المكذّبين المستكبرين من جهنّم مهاد أي موضع المهاد.

و قيل فراش من نارٍ و من فوقهم غواش أي لباس مجلَّل من النّار.

و قال بعضهم الغوشي هي اللُّحف و هى أزر اللّيل محشوّة كانت أو غير محشوّة و أنّما يجزون كذلك لظلمهم من حيث أنّهم كذّبوا أيات اللّه و إستكبروا عنها و الىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله: **وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ**

و قال بعض المفسّرين في قوله: **وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ** هذه إستعارة فكأنّه جعل لهم من النّار أمهدة مفترشة و أغشية مشتملة فيكون إستظلالهم بحرّها كإستقرارهم علىٰ جمرها نعوذ باللّه من ذلك و فى قوله: **وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ** أي مثل ما نجزي هؤلاء المكذّبين المستكبرين عنها نجزي كلّ ظالم و كلّ كافرٍ والوصف بالظّالم يقتضي لحوق الذّم به في العرف فاذا تحقّق الوصف تحقّق ما أوعده اللّه عليه.

■

١- طه = ٧٤

٢- مَريم = ٨٦

وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلّا وُسْعَهآ أُولٰئِكَ أَصْحابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فيها
خالِدُونَ ﴿۴۲﴾ وَ نَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهارُ وَ قالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ
ٱلَّذي هَدينا لِهٰذا وَ ما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلآ أَنْ
هَدينَا ٱللّٰهُ لَقَدْ جآءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوآ
أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿۴۳﴾ وَ نادىٰ أَصْحابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحابَ ٱلنّارِ أَنْ
قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما
وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ
لَعْنَةُ ٱللّٰهِ عَلَى ٱلظّالِمينَ ﴿۴۴﴾ ٱلَّذينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبيلِ ٱللّٰهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ
كافِرُونَ ﴿۴۵﴾ وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى ٱلْأَعْرافِ
رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسيماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ
ٱلْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ
يَطْمَعُونَ ﴿۴۶﴾ وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقآءَ
أَصْحابِ ٱلنّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظّالِمينَ ﴿۴۷﴾

◁ اللّغة

وَ نَزَعْنا، النّزع الجذب من مقرّه كنزع القوس عن كبده و يستعمل ذلك في الإعراض و منه نزع العداوة و المحبّة من القلب.

مِنْ غِلٍّ، الغَلَل أصله تدّرع الشّيء و توسطه و منه الغلل للماء الجاري بين الشّجر والغُلّ بضمّ الغين مختصّ بما يقيّد به والغِلّ بكسر الغين العداوة.

ٱلْأَعْرَافِ سور بين الجنّة والنّار.

قال بعضهم الأعراف المكان المرتفع أُخذ من عرف الفرس و منه الدّيك و كلّ مرتفعٍ من الأرض يسمّىٰ عرفاً لأنّه بظهوره أعرف ممّا إنخفض.

و قال بعض أهل اللّغة هو جمع، عرف و العرف ما إرتفع من رملٍ أو مكانٍ.

◁ الإعراب

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مبتدأ و لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ خبره و التّقدير، منهم فحذف العائد مِنْ غِلٍّ هو حال من، ما تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الجملة في موضع الحال من الضّمير المجرور بالإضافة و العامل فيها معنىٰ الإضافة وَمَا كُنَّا الواو للحال و قيل أنّها مستأنفة أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ في أن، وجهان:

أحدهما: هي بمعنىٰ، أي، و لا موضع لها و هي تفسير للنّداء.

الثّاني: أنّها مخفّفة من الثّقيلة و إسمها محذوف و الجملة بعدها خبرها أي ونودوا أنّه تلكم الجنّة و الهاء ضمير الشّأن وموضع الكلام كلّه نصب بنودوا، و جرّ على تقديره، بأنّه.

أَنْ قَدْ وَجَدْنَا يجوز أن تكون بمعنى أي، وأن تكون مخفّفة حَقًّا يجوز أن تكون حالاً وأن تكون مفعولاً ثانياً نَعَمْ حرف يجاب به عن الإستفهام في إثبات المستفهم عنه ونونها و عينها مفتوحتان.

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ يجوز أن تكون جرّاً و نصباً و رفعاً أَنْ سَلَامٌ أي أنّه سلام أو أيُّ سلامٍ.

◁ التّفسير

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ

لمّا أخبر اللّه تعالىٰ فيما مضىٰ من الأيات ما أعدّ للمكذّبين المستكبرين

يوم القيامة من العذاب أخبر في هذه الآية و ما بعدها بما أعدّ للمؤمنين الصّالحين يوم القيامة من النِّعم و الدَّرجات العاليات في الجنّة فقال والّذين أمنوا، باللّه و برسوله و بجميع ما أتىٰ الرّسول به ثمّ بعد ذلك عملوا الصّالحات و في قوله هذا إشارة بل دلالة على أنّ مجرّد الإعتقاد باللّه و برسوله لا يكفي اذا لم يقترن بالعمل الصّالح و بعبارةٍ أخرىٰ الإيمان إعتقاد و عمل كما هو مذهب أهل البيت عليهم السّلام لا مجرّد الإعتقاد كما ذهب اليه الجمهور فقوه و عملوا الصّلحات معطوف علىٰ قوله: **وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا**.

و قد ثبت أنّ المعطوف و المعطوف عليه كالكلمة الواحدة **لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ** كأنّه جواب عن سؤالٍ مقدّر.

و حاصل السّؤال هو أنّه اذا كان الإيمان مشروطاً بالعمل الصّالح فما حدّ العمل و مقداره، فقال تعالىٰ في الجواب **لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ** أي لا نكلّف مكلّفاً في تكاليفه المقرّرة في الشّريعة إلاّ بقدر وسعه أي إمكانه و قدرته فما خرج عن قدرة المكلّف لا نريده منه و من هنا نقول:

أنّ القدرة شرط في التّكليف فأنّ التّكليف بما لا يطاق غير معقول فمن الواجبات مثلاً الصّلاة، فاذا قدر المكلّف على الإتيان بها قائماً يجب عليه القيام و اذا لم يقدر على القيام يجب عليه القعود و اذا لم يقدر على القعود يجب عليه الإضطجاع و الإستلقاء و هكذا و كذا الكلام في الصّوم و الحجّ و الجهاد و هذا في الواجبات.

و أمّا المستحبّات فبطريقٍ أولىٰ و في ذلك دلالة على بطلان قول المجبّرة حيث قالوا أنّ اللّه تعالىٰ كلّف العبد ما لا قدرة له عليه و لا يطيقه.

أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ أي أولئك المؤمنون الّذين إقترن إيمانهم بالعمل الصّالح أصحاب الجنّة هم فيها خالدون.

وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ أي خلّصناهم في الجنّة من الغِلّ.

قال بعضهم نزع الغِلّ في الجنّة تصفية الطّباع و إسقاط الوساوس و إعطاء كلّ نفسٍ مناها و لا يتمنّىٰ أحد ما لغيره.

و قال الأخر، أي أزلنا الأحقاد التّي كانت لبعضهم علىٰ بعضٍ في دار الدّنيا.

نقل الرّازي في تفسيره لهذا الكلام ما يفضي الىٰ التعجّب فأنّه بعد نقله ما نَقلناه عنه في معنىٰ الغِلّ و هو إزالة الأحقاد التّي كانت لبعضهم علىٰ بعضٍ في دار الدّنيا قال ما لفظُه:

و معنى نزع الغلّ تصفية الطّباع و إسقاط الوساوس و منعها من أن ترد على القلوب فأنّ الشّيطان لمّا كان في العذاب لم يتفرّغ لإلقاء الوساوس في القلوب و الى هذا المعنى أشار علّي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال أنّي لأرجو أن أكون أنا و عثمان و طلحة و الزبير من الّذين قال اللّه تعالىٰ فيهم، و نزعنا ما في صدروهم من غلٍّ انتهى كلامه.

وأنا أقول هذا الّذي ذكره الرّازي و نسبه الى أمير المؤمنين كذبٌ محض و إفتراءٌ عليه بلاكلام ووزره عليه ألم يعلم الرّازي أنّ عليّاً تقاعد عن نصرة عثمان لما حوصر بالمدينة و أنّ طلحة و الزّبير نكثا بيعته و سلاّ سيف البغي عليه في حرب الجمل فلو لم يكن في قلوبهما غلّ فكيف أقدما علىٰ ما أقدما من النّكث و الحرب معه عليه السلام و قد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **يا علّي حَربك حَربي وسِلمك سِلمي** ولو لم يكن في قلب علّي عليه السلام منهما شئ فكيف أمر بقتلهما و حارب أصحاب الجمل و من المعلوم أنّ قلب المؤمن و طبعه خال من الغلّ بالنسّبة الى المؤمن لا الى المنافق و حيث أنّ علّياً كان مع الحقّ و الحقّ معه و أعداءه كائناً من كان على الباطل و من المعلوم أنّ الحقّ و الباطل لا يجتمعان فلو فرضنا أنّ قلب الطَّرفين كان خالياً من الغلّ يلزم إجتماع النقَّيضين في شئٍ واحد و العاقل لا يقول به و لم يتفرّد الرّازي بنقل ذلك بل نقله عن تفسير الكشّاف للزّمخشري و هو نقله عن الطّبري فهو أوّل من نقل ذلك ثمّ تبعه عليه غيره من مفسّري العامّة الّذين لا يعلمون في نقلهم الأحاديث إلاّ التّقليد واحداً

بعد واحدٍ كما حكى اللّه تعالىٰ عن المشركين حيث قال حكايةٍ عنهم إنّا وجدنا آباؤنا علىٰ ذلك الآية ولم يعلموا أنّ من أمر بقتال النّاكثين كيف يقول ما نسبوه اليه و أنّما تعجبّت من الرّازي دون غيره لأنّه أعقلهم و أعلمهم و مع ذلك هو من أهل المعقول فكيف يقول بما هو خارج عن العقل السّليم نعوذ باللّه من الهفوات ثمّ أنّ الرّازي ذكر في المقام وجهاً آخر و هو أنّ المراد منه أنّ درجات أهل الجنّة متفاوتة بحسب الكمال و النّقصان فاللّه تعالىٰ أزال الحسد عن قلوبهم حتّىٰ أنّ صاحب الدّرجة النّازلة لا يحسد صاحب الدّرجة الكاملة.

قال صاحب الكشّاف هذا التأويل أولىٰ من الوجه الأوّل حتّىٰ يكون هذا في مقابلة ما ذكره اللّه من تبرُّيء أهل النّار من بعضٍ انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول أنّي راجعت الكشّاف ولم أر فيه ما نقله الرّازي ونسبه اليه ولعلّه ذكره في موضع آخر أقول يظهر من الأخبار الواردة في المقام أنّ المراد بالغلّ العدواة تنزع من قلوب المؤمنين في الجنّة **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ وَ قَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي هَدَيٰنَا لِهٰذَا** ذكر اللّه تعالىٰ في وصف الجنّة أنّ الأنهار تجري من تحت أقدامهم فإذا رأو هذه النّعم الوافرة **قَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي هَدَيٰنَا** و أرشدنا بسبب أنبياءه، لهذا الّذي يَكون فيه **وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَيٰنَا ٱللّٰهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** أي لولا هداية اللّه و إرشاده لنا بسبب أنبيائه لما بلغنا الىٰ هذا المقام الرّفيع لقد جاءت رسل ربّنا بالحّق و لم يقولوا إلاّ بالحّق و لم يأمروا إلاّ بالحّق و اذا كان كذلك فَمن تبعهم فأولئك هم الفائزون و من خالفهم هم الخاسرون **وَ نُودُوٓا أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** أي نودوا هٰؤلاء المؤمنين من قبل اللّه تعالىٰ فيقال لهم أن تلكم الجنّة كأنّها صارت ميراثاً لكم بسبب أعمالكم فهذه إستعارة خفّية غير جلّية و ذلك لأنّ الإستعارة على قسمين:

خفّية و جلّية و إنّما قلنا أنّها خفّية لأنّ حقيقة الميراث في الشّرع هو ما أنتقل الىٰ الإنسان من ملك الغير بعد مَوته على جهة الإستحقاق و أمّا صفة اللّه تعالى بأنّه الوارث لخلقه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُنّٰا نَحْنُ اَلْوٰارِثِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ**[٢].

فهو مُجاز والمراد أنّه الباقي بعد فَناء خَلقه وتَقوّض سَمائه وأرضه و قد أُستعمل ذلك أيضاً في نزول قومٍ ديار قومٍ بعدهم وأخذ قومٍ أموال قومٍ بعد اجلائهم وحَربهم فقال سبحانه.

وَ أَوْرَثْنَا اَلْقَوْمَ اَلَّذِينَ كٰانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ اَلْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا اَلَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا[٣].

قال اللّه تعالىٰ في مَوضع آخر: **وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيٰارَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَؤُهٰا**[٤].

و ليس يصّح إيراث الجنّة مثل هٰذه المعاني الّتي ذَكرناها لأنّ الجنّة لا يسكنها قوم بعد قوم قد فارقوها و أنتقلوا عنها و علىٰ هذا فقوله سبحانه: **أَنْ تِلْكُمُ اَلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهٰا** على الأصل الذّي قدّمناه إستعارة و يكون المعنىٰ أنّ هٰؤلاء المؤمنين لمّا عملوا في دار الدّنيا أعمالاً إستّحقوا بها الجّزاء و الثّواب و لم يصّح أن يوّفر عليهم ذلك إلاّ في الجنّة و هي من الدّار الآخرة فكأنّهم إستحقّوا دخولها فحسن من هذا الوجه أن يوصفوا بأنّهم أورثوها و أن لم يكن سكناهم لها بعد قوم آخرين إنتقلوا عنها وسوّغ ذلك أيضاً إختلاف حال الدّارين و إنتقالهم من الأولى الىٰ الآخرة فكأنّ ما عملوا في الدّار الأولىٰ كان سبباً لما وصلوا اليه في الدّار الآخرة كما يستحقّ الميراث بالسّبب هكذا حقّقه بعض المحقّقين.

١- القَصص = ٥٨
٢- آل عُمران = ١٨٠
٣- الاعراف = ١٣٧
٤- الأحزاب = ٢٧

وَ نَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا

أصحاب الجنّة هم المؤمنون الّذين وصفهم اللّه بالإيمان و العمل الصّالح و نزع الغلّ من صدورهم و أمّا أصحاب النّار فهم المكذّبون بآيات اللّه و المستكبرون عنها فلّما إستقرّ كلّ طائفة في مقرّها من الجنّة و النّار فنادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار أي قالوا لهم أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا من دخول الجنّة و الإلتذاذ بنعمها حقّاً فهل أنتم وجدتم ما وعد ربّكم من العذاب في النّار حقّاً قالوا نعم و الظّاهر أنّ الإستفهام للانكاري أي قد وجدنا و وجدتم ما وعد اللّه و أوعد عليه قوله حقّاً إشارة الىٰ أنّ وعد اللّه حقّ لا خلاف فيه أو المراد أنّ دخول الجنّة حقّ المؤمن كما أنّ دخول النّار حقٌّ للكافر.

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

الأذان الإعلام أي فأعلم معلمٌ و هو ملك يأمره اللّه تعالىٰ فينادي بينهم يسمع أهل الجنّة و أهل النّار، و قيل هو إسرافيل صاحب الصّور و قيل جبرائيل ثمّ أنّه تعالىٰ وصف الظّالمين الملعونين.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ

ذكر من أوصاف الظّالمين ثلاثة:

أحدها: أنّهم **يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** والصّد المنع أي يمنعون النّاس عن قبول الحقّ و الكلام خرج مخرج الإستعارة و ذلك لأنّ سبيل اللّه دينه و معنى يبغونها عوجاً أي يبتغون عنها المتحاول و يطلبون منها الفسح و المخارج و يوهمون بالشّبهات أنّها معوجة غير قويمة و مضطربة غير مستقيمة هكذا قيل.

ثانيها: قوله **وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجًا** أي يطلبون لها العوج بالشُّبه الّتي يلبسونها و يوهمون أنّها تقدح فيها فأنّ **العِوَج** بكسر العين قد يكون في الطّريق و قد يكون في الدّين و بعبارةٍ أخرىٰ هم أصحاب الشُّبه.

ثالثها: أنّهم بالآخرة هم كافرون أي أنكروا الآخرة و من أنكر الآخرة أنكر المعاد و منكر المعاد كافر لأنّه من ضروريّات الدّين و هو واضح.

و إنّما عبّر تعالىٰ عن هٰؤلاء الظّالمين لأنّ الظّلم عبارة عن وضع الشّئ في غير محّله من كان كذلك فهو ظالم حقّاً.

وَ بَيْنَهُمٰا حِجٰابٌ وَ عَلَى ٱلْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمٰاهُمْ وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ و بينهما، أي بين أصحاب الجنّة وأصحاب النّار حجابٌ.

و **الحِجاب** بكسر الحاء المهملة الحاجز المانع من الإدراك و قيل بين الجنّة و النّار حجاب و القول الأوّل أشهر و أوفق بالقواعد الأدبية **وَ عَلَى ٱلْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمٰاهُمْ** الأعراف المكان المرتفع أخذ من عرف الفرس و منه عرف الدّيك وكلّ مرتفع من الأرض يسّمى عرفاً لأنّه بظهوره أعرف ممّا أنخفض قال الشّاعر:

وظلت باعراف تغالىٰ كأنّها رِماحٌ   نـحاها وجـهة الرّمـح راكـزُ

و عليه فالمراد بالأعراف المكان المرتفع و قال قوم أنّها سور بين الجنّة و النّار عن مُجاهد و السّدي، و قيل هو أحد ممثّل بين الجنّة و النّار و أمثال ذلك من الأقوال ثمّ أنّهم أختلفوا في الّذين هم علىٰ الأعراف أعني بهم الرّجال في قوله و على الأعراف رجال فقال بعضهم هم فضلاء المؤمنين و عن الجبائي هم الشّهداء، و قيل هم عدول الأخرة و قال أبو جعفر عليه السلام هم الأئمة و منهم النّبي ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

أقول إختلفت كلمات مفسّري العامّة في معنىٰ الرّجال علىٰ أقوال مختلفة متشتّة لا يمكن الإعتماد عليها إذ لا دليل علىٰ صحّتها أو صحّة بعضها من العقل و النّقل ما يمكن الوثوق به قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية هم قوم من بني آدم واستوت حسناتهم و سيّئاتهم فجعلوا هنالك الىٰ أن يقضي اللّه فيهم ما يشاء ثمّ يدخلهم الجنّة بفضل رحمته أيّاهم.

ثمّ نقل عن حذيفة و عن سعيد بن جبير و إبن مسعود و أمثالهم روايات على إثبات مدّعاه، و قال أيضاً، هم قوم غزوا في سبيل اللّه عصاة لأباءهم فقتلوا فأعتقهم اللّه من النّار بقتلهم في سبيله و حبسوا عن الجنّة بمعصية آباءهم فهم آخر من يدخل الجنّة و ذكر أحاديث.

و قال أيضاً أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء، و قال آخرون بل هم ملائكة و ليسوا ببني آدم و ذكر بعد هذه الأقوال أحاديث و لم يعلم أنّ هذه الأقوال بعيدة عن الصّواب لأنّ اللّه تعالىٰ يقول: **وَ عَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ** و من كان كذلك لابدّ من أن يكون نبيّاً أو وصيّاً لا من كان إستوت حسناته سيّئاته أو من غَزوا في سبيل اللّه عُصاة لأباءهم و أمثال ذلك من الأباطيل الّتي لا يقبلها العقل السّليم.

و إذا كان الطّبري و هُو بين العامّة و تفسيره من أحسن التّفاسير بإتّفاقهم أخذوا في تفاسيرهم منه ما أخذوا و نقلوا عنه ما نقلوا هذا حاله و حال كتابه فما ظّنك بأمثال السّيوطي و الرّازي و صاحب الكشّاف و الألوسي و غيرهم و لذلك تراهم كالغريق يتشبّث بكلّ حشيش في تفسير كلام اللّه فكأنّهم لم يسمعوا كلام الرّسول حيث قال من فسّر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النّار و ليت شعري ما التفسّير بالرّأي و الّذي نقول في تفسير كلام اللّه هو أنّ المراد بالرّجال النّبي و الأئمة عليهم السّلام لا غيرهم كائناً من كان ويدّل عليه العقل و النّقل.

وأمّا العقل:

فمعلوم لأنّ هذا المقام من أعلىٰ الدّرجات بحيث لا يكون فوقه مقام و هذا شأن النّبي و أوصياءه.

وأمّا النّقل:

ففي تفسير القُمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: الأعراف كثبان بين الجنّة والنّار والرّجال الأئمة عليهم السّلام يقفون علىٰ الأعراف مع شيعتهم و قد سيق المؤمنون الى الجنّة بلا حساب فيقول الأئمّة لشيعتهم من أصحاب الذّنوب أنظروا الىٰ أخوانكم في الجنّة قد سِيقوا اليها بلا حساب.

و عنه عليه السلام: كلّ أُمّةٍ يحاسبها إمام زمانها ويعرف الأئمّة أولياءهم و أعداءهم بسيماهم و هو قوله تعالىٰ: وَ عَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمرّوا الىٰ الجنّة بلا حساب و يعطوا أعداءهم كتابهم بشمالهم فيمرّوا الىٰ النّار بلا حساب.

و عن كتاب معاني الأخبار في خطبة لعلّي عليه السلام يذكر فيها نعم اللّه عزّ وجلّ و فيها يقول ونحن أصحاب الأعراف أنا و عمّي و أخي و إبن عمّي فالق الحبّ و النّوىٰ لا يلج النّار لنا محبّ و لا يدخل الجنّة لنا مبغض لقول اللّه عزّ وجلّ: وَ عَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ

و في أُصول الكافي بأسناده عن صفوان قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: جاء إبن الكوّا الىٰ علّي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، و علىٰ الأعراف رجال يعرفون كّلاً بسيماهم، فقال عليه السلام: نحن الأعراف نعرف أنصارنا بسيماهم و نحن الأعراف الّذين لا يعرف

اللّه عزّ و جلّ إلاّ بسبيل معرفتنا و نحن الأعراف يعرفنا اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة علىٰ الصّراط فلا يدخل الجنّة إلاّ من عرفناه و لا يدخل النّار إلاّ من أنكرنا و أنكرناه انتهىٰ.

و عن كشف المحجّة لأبن طاووس رضي الله عنه عن أمير المؤمنين عليه السلام و الحديث طويل و فيه: فالأوصياء قوام عليكم بين الجنّة و النّار لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم و عرفوه و لا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم وأنكروه لأنّهم عرفاء العباد عرَّفهم اللّه أيّاهم عند أخذ المواثيق عليهم بالطّاعة فوَصَفهم في كتابه فقال عزّ وجلّ: وَ عَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ و هم الشّهداء علىٰ النّاس و النّبيون شهداءهم بأخذلهم مواثيق العباد بالطّاعة انتهىٰ.

و عن تفسير العياشي بأسناده عن علّي عليه السلام قال: أنا يعسوب المؤمنين و أنا أوّل السّابقين و خليفة ربِّ العالمين و أنا قسيم الجنّة و النّار و أنا صاحب الأعراف.

و عن هشام و عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ: و علىٰ الأعراف رجال يَعرفون كّلاً بسيماهم، قال عليه السلام: ألستم تعرفون عليكم عرفاً علىٰ قبائلكم لتعرفون مَن فيها من صالحٍ أو طالحٍ قلت بلى قال عليه السلام فنحن أولئك الرّجال الّذين يعرفون كّلاً بسيماهم انتهىٰ.

و عن زادان عن سلمان قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلّي عليه السلام أكثر من عشر مرّات، يا علّي أنّك و الاوصياء من بعدك أعراف بين الجنّة و النّار يدخل الجنّة إلاّ من عرفكم و عرفتموه و لا يدخل النّار إلاّ من أنكركم و أنكرتموه انتهىٰ.

و عن سعد بن طريف عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية و علىٰ الأعراف رجال الخ.

يا سعد هم آل محمّد عليهم السّلام لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم و عرفوه و لا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم و أنكروه انتهىٰ.
و عن الثمالي قال سأل أبو جعفر عليه السلام: **وَ عَلَى ٱلْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ** فقال أبو جعفر عليه السلام: نحن الأعراف الّذين لا يعرف اللّه إلاّ بسبب معرفتنا و نحن الأعراف الّذين لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفنا و عرفناه يدخل النّار إلاّ من أنكرنا و أنكرناه ذلك بأنّ اللّه لو شاء أن يعرّف النّاس نفسه لعرّفهم و لكن جعلنا سببه و سبيله وبابه الّذي يؤتىٰ انتهىٰ.
أقول الأحاديث الّتي نقلناها في المقام نقلناها عن[١].
و نقلها المجلسي قدس سره في البحار أيضاً و قد خصّ المجلسي قدس سره باباً لذلك و ذكر فيه أحاديث كثيرة.
رواه بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱلْأَعْرافِ رِجالٌ** ألخ.
قال النّبي و علّي إبن أبي طالب و فاطمة و الحسن و الحسين - عليهم السّلام- على سور بين الجنّته و النّار يعرفون المحّبين لهم ببياض الوجوه والمبغضين لهم بسواد الوجوه إنتهى.
و بأسناده عن أبي عبد اللّه و قد سُئل عن قول اللّه عزّ وجلّ و بينهما حجاب فقال: سور بين الجنّة و النّار قائم عليه مُحّمد و علّي عليه السلام و فاطمة و الحسن و الحسين و خَديجة - عليهم السّلام - فينادون أين محّبونا أين شيعتنا فيقبلون اليهم فيعرفونهم بأسمائهم و أسماء آبائهم و ذلك قوله تعالىٰ: **يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ** فيأخذون بأيديهم فيجوزون بهم على الصّراط و يدخلونهم الجنّة[٢] إنتهىٰ.

١- تفسير نور الثّقلين، ج ٢، ص ٣٢.
٢- ج ٧، ط كمباني، ص ١٤٣.

و في الباب أحاديث كثيرة إن شِئت الإطّلاع عليها فراجِعه و قد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ المراد بالرّجال الّذين علىٰ الأعراف، ليس إلاّ النّبي و الأئمة عليهم السّلام و هو المطلوب.

وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ

فمعناه أنّ هٰؤلاء الرّجال الّذين على الأعراف، نادوا أصحاب الجنّة و يقولون لهم سلامٌ عليكم و أمّا قوله: **لَمْ يَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ** فقد إختلفوا في معناه.

قال الرّازي معناه أنّ أهل الأعراف لم يدخلوا الجنّة و مع ذلك فهم يطمعون في دخولها.

و قال بعضهم، يطمعون بمعنى يتيقنون أي و هم يتّيقنون ما أعدَّ لهم من الزُّلفىٰ.

و قال صاحب الكشّاف أنّه إستئناف كأنّ سائلاً سأل عن أصحاب الأعراف فقيل **لَمْ يَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ** يعني حالهم أنّ دخولهم الجنّة إستأخر عن دخول أهل الجنّة فلم يدخلوها لكونهم محبُوسين و هم يطمعون لم ييأسوا انتهىٰ كلامه.

و به قال الطّبري و القرطبي و غيرهم من مفسّري العامّة.

و قال الطّبرسي قدّس سرّه في قوله: **لَمْ يَدْخُلُوهٰا** أي لم يدخل الجنّة بعد و هم يطمعون أن يدخلوها.

و قال الشّيخ في التّبيان، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنّة و هم يطمعون أن يدخلهم اللّه بشفاعة النّبي و الإمام عليه السلام انتهىٰ.

أقول و هذا هو الحقّ بالإتّباع لا ما ذكره الطّبري و أمثاله من العامّة من أنّ أهل الأعراف لم يدخلوها و مع ذلك فهم يطمعون في دخولها خصوصاً على ما فسَّرنا أهل الأعراف و قلنا أنّ المراد بهم النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة (عليهم

السّلام) اذ علىٰ هذا القول كيف يمكن أن يقال أنّهم لم يدخلوها و مع ذلك فهم يطمعون و من المعلوم أنّ الّذي يطمع أن يدخل الجنّة هو المذنب العاصي فقول الشّيخ في التّبيان هو المتّبع. واللّه أعلم.

وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ

هذا إخبار عن اللّه تعالىٰ عن الرّجال الذّين علىٰ الأعراف فقال و اذا صرفت أبصارهم، الصَّرف هو العدول بالشّيء من جهةٍ الىٰ جهةٍ أي هؤلاء الذّين على الأعراف اذا توَّجهوا بأبصارهم تلقاء أصحاب النّار و هي جهة المقابلة لهم قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظّالمين، أي لا تجعلنا و أيّاهم في النّار و أنّما قالوا ذلك مع علمهم بأنّ اللّه لا يفعل بهم ذلك لما لهم في ذلك من السُّرور فيجوز لهم أن يسألوا السّلامة من العذاب و هو واضح لا خفاء فيه.

■

وَ نادىٰ أَصْحابُ ٱلْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ
بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما
كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿۴۸﴾ أَهٰؤُلاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا
يَنالُهُمُ ٱللّٰهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لا خَوْفٌ
عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿۴۹﴾ وَ نادىٰ أَصْحابُ
ٱلنّارِ أَصْحابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ ٱلْماءِ
أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ ٱللّٰهُ قالُوا إِنَّ ٱللّٰهَ حَرَّمَهُما عَلَى
ٱلْكافِرِينَ ﴿۵۰﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً
وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا فَٱلْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما
نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هٰذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا
يَجْحَدُونَ ﴿۵۱﴾

◁ اللّغة

أَفِيضُوا، الإفاضة اجراء المائع من علٍ و منه قولهم أفاضوا في الحديث أي أخذوا بينهم من أوّله لانّه بمنزلة أعلاه.

لَهْوًا، اللّهو بفتح اللاّم و سكون الواو و ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه و يهمّه يقال لهيت عن كذا إشتغلت بلهوٍ و قد يعبّر عن كلّ ما به إستمتاع باللّهو.

لَعِبًا يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً.

غَرَّتْهُمُ، الغُرور كلّ ما يغرّ الإنسان من مالٍ و جاهٍ و شهوةٍ و شيطانٍ و قد فُسّر بالشّيطان اذ هو أخبث الغارّين وبالدّنيا لأنّها تغُر وتضُر وتمُر والغرر الخَطَر من الغَّر.

◁ الإعراب

مآ أَغْنىٰ يجوز أن تكون ما، نافية وأن تكون إستفهاماً أَنْ أَفِيضُوا يجوز أن تكون، أن، مصدّرية و أن تكون تفّسيرية ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ يجوز فيه الجرّ

و النّصب و الرّفع **لَهْوًا** مفعول ثانٍ و التّفسّير ملهُّواً به و ملعوباً به (**علىٰ علمٍ**) حال من الهاء أو من الفاعل أي فضّلناه عالمين (**هُدىً ورَحمةً**) حالان أي ذا هدىٰ و ذا رحمة و قرئ بالرّفع علىٰ أنّه خبر لمبتدأ محذوف.

◁ التّفسير

وَ نَادَىٰٓ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ

قد مرّ الكلام في أصحاب الأعراف و أنّما قال ونادىٰ، بصيغة الماضي مع أنّ هذا النّداء لا يكون إلاّ في المستقبل و هو يوم القيامة لأنّ المستقبل اذا كان محقّق الوقوع فهو في حُكم الماضي أو أنّه علىٰ وجه الحكاية والحذف، والتّقدير اذا كان يوم القيامة نادىٰ أصحاب الأعراف.

قالوا أنّ النّداء معناه الدّعاء إلاّ أنّ في النّداء إمتداد الصّوت و رفعه و ليس كذلك الدّعاء لأنّه قد يكون بعلامةٍ كالإشارة من غير صوتٍ و لا كلام ثمّ أنّ في هذه الآية أخبار و حكاية من اللّه تعالىٰ أنّ أصحاب الأعراف ينادون قوماً من الكفّار الّذين يعرفونهم بسيماهم من سواد الوجوه و ضروب من تشويه الخلق يَفترقون به من أهل الجنّة و يقولون لهم **مَآ أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** فعلى القول بكون، ما، نافية معناه ما نفعكم عنكم يوم القيامة جمعكم الأموال و العدد في الدّنيا أو ما نفعكم جماعتكم الّتي إستندتُم اليها في دار الدّنيا.

و أمّا علىٰ الإستفهام فالمعنىٰ أيّ شئٍ نفعكم ممّا جمعتم و أمّا ما، في قوله: **وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** فهي مصدّرية قطعاً أي و كونكم تستكبرون و قرأت فرقة تستكثرون بالثّاء مثّلثة من الكثرة و هى شاذّة و محصّل الكلام في الآية هو أنّه ما أغنى عنكم جمعكم و إستكباركم عن الإيمان في الدّنيا يوم القيامة بل أوقعكم في العذاب و العقاب و الىٰ هذا المعنىٰ أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلآ أَوْلادُهُمْ مِنَ ٱللّهِ شَيْئًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَ لَوْ كَثُرَتْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يُغْني عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئًا وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّهِ أَوْلِيآءَ**(٣).

أَهٰؤُلآءِ ٱلَّذينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ ٱللّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لآ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

إختلفوا في القائل لهذا القول فقيل هُم أصحاب الأعراف و عليه أكثر المفسّرين و المعنىٰ أنّهم يقولون هذا مشيرين الىٰ أهل الجنّة و هذا يدّل علىٰ عظم شأن أصحاب الأعراف و أنّهم ذو المنازل الرّفيعة.

القول الثّاني: أنّه من قول اللّه في أصحاب الأعراف قال بعض المفسّرين فقوله: **أَهٰؤُلآءِ ٱلَّذينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ ٱللّهُ بِرَحْمَةٍ** من كلام أصحاب الأعراف و قوله: **ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ** من كلام اللّه تعالىٰ ولابدّ هاهنا من إضمارٍ و التّقدير فقال اللّه لهم هذا.

أقول الحقّ أنّ أدخلوا الجنّة أيضاً كلام أصحاب الأعراف اذ لا دليل على الإضمار و التّقدير لأنّه من المجاز و هو خلاف الأصل و عليه فقول أصحاب الأعراف أدخلوا الجنّة، خطاب للمؤمنين بدخلوهم الجنّة و المعنى أدخلوها لا خائفين و لا محزونين و فائدة الآية تقريع الزّائرين على ضعفاء المؤمنين حتّى حلفوا أنّهم لا خير لهم عند اللّه فقيل لهم أدخلوا الجنّة علىٰ أكمل سرورٍ و أتّم كرامةٍ.

وَ نادىٰ أَصْحابُ ٱلنّارِ أَصْحابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفيضُوا عَلَيْنا مِنَ ٱلْمآءِ أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ ٱللّهُ

١- أل عمران = ١٠ و ١١٦
٢- الأنفال = ١٩
٣- الجاثية = ١٠

حكى اللّه تعالىٰ عن أصحاب النّار هُم المُخلّدون في عذابها أنّهم ينادون أصحاب الجنَّة و يقولون لهم أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم اللّه من نعيم الجنّة و الإفاضة إجراء المائع من كلٍ و منه قولهم أفاضوا في الحديث أي أخذوه بينهم من أوَّله لأنّه بمنزلة أعلاه **قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ** هذا جواب أهل الجنّة لأهل النّار فقولهم: **حَرَّمَهُمَا** أي منعهما فهو تحريم المنع لا تحريم العبادة.

قال بعض المفسّرين و أنّما لم يدرك أهل الجنّة مع خيريتهم رقّة علىٰ أهل النّار لأنّ من الخيرية القسوة علىٰ أعداء اللّه و أعداءهم و ذلك من تهذيب طباعهم كما يبغض المسئ و يحبّ المحسن انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول الحقّ في عدم الرِّقة عليهم هو أنّ اللّه تعالىٰ حرَّم طعام أهل الجنّة علىٰ أهل النّار و عليه فأهل الجنَّة لا يؤذن لهم الإفاضة على أهل النّار و أن شئت قلت لا يقدرون عليها و هو واضح و لذلك قال تعالىٰ حكاية عنهم أنّ اللّه حرَّمهما علىٰ الكافرين.

ثمّ أنّه تعالىٰ بيَّن حال الكافرين فقال: **ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا** يحتمل أن يكون هذا الكلام في موضع جرٍّ بأن يكون صفة للكافرين كما قلنا و يحتمل أن يكون ذلك من قول أهل الجنّة و تقديره أنّهم **قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ** الذّين كانوا كذلك و فى المقام إحتمال ثالث.

و هو أن يكون إخباراً من اللّه تعالىٰ لهم على وجه الذّم و عليه فالكلام في موضع رفع وكيف كان فالمعنىٰ أنّهم إتّخذوا في دار الدّنيا دينَهم لِلَّهو واللّعب بمعنىٰ أنّهم طلبوا صرف الهَم بالتَّهزئ بالدّين و عيب المؤمنين.

قال الرّاغب اللّهو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه و يهمّه يقال لهوت بكذا و لهيت عن كذا إشتغلت عنه بلهوٍ و قد يعبّر عن كلّ ما به إستمتاع باللّهو.

و قال، و لعب فلان اذا كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً انتهىٰ.

أقول ذكر الرّازي في تفسير الكلام وجهين:

أحدهما: أنّ الّذي إعتقدوا فيه أنّه دينهم تلاعبوا به و ماكانوا فيه مجدّين.

الثّاني: أنأهم إتّخذوا اللّهو و اللّعب ديناً لأنفسهم انتهىٰ.

و الذّي حصل لنا في معنى الكلام هو أنّ الكفّار لم يكن لهم دينٌ أصلاً أن كان المراد بهم المشركين اللّهم إلاّ أن يقال المراد بالدّين في المقام هو كلّ ما يتدّين به و يعتقد به الإنسان حقّاً كان أو باطلاً كما:

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا والمعنىٰ أنّ الحياة صارت سبباً لغرورهم لأنّ الحياة الدّنيا لا تغرّ في الحقيقة و الغرور بضمّ الغين كلّ ما يغُر الإنسان من مالٍ و جاهٍ و شهوةٍ و شيطان و قد فسّر بالشّيطان لأنّه أخبث الغارّين و بالدّنيا لما قيل أنّ الدّنيا تغُر و تضُر و تمّر:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ٱرْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِٱللّٰهِ ٱلْغَرُورُ**(٣)

و الأيات كثيرة.

قال بعضهم الغرور تزيين الباطل للوقوع فيه و أنّما إغترّوا بالدّنيا لظنّهم البقاء فيها و لم يعلموا أنّ الدّنيا فانية و حيث أنّ العقل يحكم بعدم الإعتماد علىٰ ما لا بقاء له فلا غرور أخبث و أفسد من الإعتماد على الدّنيا و زخارفها فأنّ الدّنيا منشأ الشّرور و الأفات و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئةٍ.

١- الحديد = ١٤ ٢- الأنعام = ٧٠

٣- لقمان =٣٣ وفاطر =٥

ثمّ أنّ أعظم الأفات و أشدّ البّليات لمن غرّته الحياة الدّنيا الغفلة عن الأخرة و الإعراض عن ذكر اللّه و قد يعبّر عنها بالنّسيان لأنّهما متلازمان و الى هذا المعنىٰ أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **فَالْيَوْمَ نَنْسيٰهُمْ كَمٰا نَسُوا لِقٰآءَ يَوْمِهِمْ هٰذٰا وَ مٰا كٰانُوا بِاٰيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ** و المراد باليوم هو يوم القيامة.

و أمّا نسيان اللّه إيّاهم فقيل معناه نتركهم من رحمتنا بأن نجعلهم في النّار، فسمّي الجزاء على تركهم طاعة اللّه، نيساناً كما قال: **وَ جَزٰآؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا**(١).

و الجزاء ليس سيّئة، و قيل معناه أنّه تعالى يعاملهم معاملة المنّسيين في النّار لأنّه لا يجاب لهم دعوة و لا يرحم لهم عبرة.

ثمّ قال تعالى كما نسوا لقاء يومهم هـذا، أي نسيـاننا إيّـاهم متفرّعٌ علىٰ نسيانهم يوم القيامة فكأنّ نسيانهم صار سبباً و علّة لنسياننا إيّاهم و ذلك لأنّ نسياننا إيّاهم بمنزلة الجزاء لنسيانهم لقاء هذا اليوم الّذي لابدّ لكلّ أحدٍ الوُرود عليه.

و أمّا قوله: **وَ مٰا كٰانُوا بِاٰيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ** فهو من لوازم الغفلة و النّسيان أي أنّهم كانوا في درا الدّنيا من الجاحدين بأياتنا و الجحد الإنكار أعاذنا اللّه منه و أمّا كلمة، ما، في قوله كما نسوا، و فى قوله: **وَ مٰا كٰانُوا** مصّدرية و التّقدير كنسيانهم لقاء يومهم هذا وكونهم جاحدين لأياتنا.

■

١- الشّورىٰ = ٤٠

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدًى وَ
رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا
تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ
قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ
شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنّا
نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَ
ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ وَ ٱلنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا
لَهُ ٱلْخَلْقُ وَ ٱلْأَمْرُ تَبارَكَ ٱللّٰهُ رَبُّ ٱلْعالَمِينَ ﴿٥٤﴾
ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَ لا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلاحِها وَ ٱدْعُوهُ خَوْفًا وَ طَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
ٱللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

◁ اللّغة

فَصَّلْناهُ، التّفصيل ضدّ الأجمال.

تَأْوِيلَهُ، التّأويل مصدر باب التّفصيل يقال أوّلَ تأويلاً نحو صرَّف تصريفاً و هو من الأول يقال آلَ إذا رجع و عليه فالتأويل الإرجاع.

شُفَعاءَ، جمع شَفيع و الشَّفيع من يشفع لغيره و أصل الشّفاعة الإنضمام الى آخر ناصراً له و سائلاً عنه و أكثر ما يُستعمل في إنضمام من هو أعلىٰ حرمةٍ و مرتبةً الى من هو أدنى و منه الشّفاعة في القيامة.

يَفْتَرُونَ، الإفتراء الإفساد و قيل معناه إفتراءً، عليه الكذب إختلقه و الفرية الكذب و إختلاقه.

ٱسْتَوَىٰ أي إستولى قال الشّاعر.

قد إستوىٰ بِشرٌ علىٰ العراق   من غير سيفٍ ودَمٍ مِهراقٍ

أي إستولىٰ علىٰ العراق بدونهما.

يُغْشِي: التّغشية التّغطية.

◁ الإعراب

عَلَىٰ عِلْمٍ يجوز أن يكون، فصَّلناه مشتملاً علىٰ علم فيكون حالاً من الهاء، و يجوز أن يكُون حالاً من الفاعل أي فصَّلناه عالمين أيّ علىٰ علم منّا هُدًى وَ رَحْمَةً حالان أي ذا هدىٰ وذا رحمة و قرأ بالرّفع علىٰ أنّ خبر مبتدأ محذوف يَوْمَ يَأْتِي هو ظرف ليقول فَيَشْفَعُوا لَنَآ هو منصوب على جواب الإستفهام أَوْ نُرَدُّ المشهور الرّفع لأنّه معطوف على موضع من شفعاء تقديره، أو هل نرَّد يُغْشِي ٱلَّيْلَ في موضعه وجهان:

أحدهما: هو حال من الضّمير في خلق، و خبر إن علىٰ هذا ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ.

الثّانى: أنّه مستأنف يَطْلُبُهُ حال من اللّيل أو من النّهار و حَثِيثًا حال من اللّيل لأنّه الفاعل و يجوز أن يكون من النّهار فيكون التّقدير، يطلب اللّيل النّهار محثوثاً، و أن يكون صفة لمصدرٍ محذوف أي طلباً حثيثاً وَ ٱلشَّمْسَ يقرأ بالنَّصب والتّقدير و خلق الشَّمس، و من رفع إستأنف خُفْيَةً بضمّ الخاء وكسرها و هما لغتان و المصدران حالان و يجوز أن يكون مفعولاً له و مثله، خوفاً و طمعاً قَرِيبٌ خبر إنّ.

◁ التّفسير

وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ أي و لقد جئنا هؤلاء الكفّار الّذين تقّدم ذكرهم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ قيل المراد بالكتاب القرآن و أصل الكتاب صحيفة فيها

كتابة و الكتابة حروف مسطورة تدّل بتأليفها علىٰ معانٍ مفهومة و قوله: **فَصَّلْنٰاهُ** أي ميَّزنا معاني الكتاب علىٰ وجهٍ يزول معه اللَّبس و قوله: **عَلٰى عِلْمٍ** معناه نحن عالمون به.

و قال بعض المفسّرين معناه، فصَّلناه بإيضاح الحقّ من الباطل، و قيل نزلّناه في فصولٍ مختلفةٍ، و قرأ إبن محيص و الجحدري، فضّلناه بالضّاد المنقوطة و عليه فالمعنى فضلناه على جميع الكتب عالمين بأنّه أهلٌ للتّفضيل عليها

أقول هذه قراءة شاذّة لا يعبابها و الحقّ فيها هو الصّاد المهملة كما عليه المصاحف.

و أمّا قوله: **هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** أي أنّ القرآن كذلك و أنّما جعله هدىً و رحمةً للمؤمنين دون غيرهم مع أنّه نعمة على جميع المكلّفين من حيث أنّهم عرضوا به للهداية غير أنّ المؤمن لمّا إهتدى به كانت النّعمة بذلك عليه أعظم فأضيف اليه و غير المؤمن لم يتعرّض للهداية فلم يهتد فالمؤمنون علىٰ صفةٍ زائدة قاله الشّيخ في التّبيان و قال الرّازي وقوله: **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** يدّل علىٰ أنّ القرآن جعل هدىً لقومٍ مخصوصين و المراد أنّهم هم الّذين إهتدوا به دون غيرهم فهو كقوله تعالىٰ في أوّل سورة البقرة **هُدىً لِلْمُتَّقِين** و إحتّج أصحابنا بقوله: **فَصَّلْنٰاهُ عَلٰى عِلْمٍ** علىٰ أنّه تعالىٰ عالم بالعلم خلافاً لما يقوله المعتزلة من أنّه ليس للّه علم انتهىٰ كلامه.

وأنا أقول ما ذكره الرّازي من أنّ قوله: **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** يدّل علىٰ أنّ القرآن جعل هدىً لقومٍ مخصوصين، لا يصّح إلاّ علىٰ القول بالجبر كما هو مذهبه و مذهب غيره من الأشاعرة و ذلك لأنّ القرآن لو جعل كذلك فلا يمكن لغير المؤمن الإهتداء به لأنّه ليس من المخصوصين بالإهتداء و المفروض أنّه مكلّف به مسؤل عنه يوم القيامة و لا نعني بالجبر إلاّ هذا.

و الحقّ في حلّ الإشكال هو أن يقال أنّ القرآن جعل هدىً لجميع النّاس إلاّ أنّ الإهتداء به مشروط بالإيمان فغيرُ المؤمن لا يهتدي به لفقد الشّرط فيه

الإيمان و من المعلوم أنّه تحت قُدرته فتخصيص الإهتداء بالمؤمن ليس من أجل أنّ غير المؤمن لا يقدر عليه بل تخصيصه به لأجل أنّه أي المؤمن أوجد الشّرط و هو الإيمان بإختياره و غيره لم يوجد كذلك.

و أمّا قوله و إحتّج أصحابنا بقوله: **فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** علىٰ أنّه تعالىٰ عالمٌ بالعلم خلافاً لما يقوله المعتزلة من أنّ ليس للّه علم، فلانفهم معناه و أنّه تعالىٰ كيف يكون عالماً بالعلم، و ما معناه فأن كان مراده أنّ اللّه تعالىٰ عالم بجميع الأشياء بسبب العلم فهو من تحصيل الحاصل و أن كان المراد أنّه تعالىٰ عالم بعلمه بمعنى أنّه عالمٌ و يعلم أنّه عالمٌ فهو أيضاً لا خفاء فيه اذ لو لم يعلم أنّه عالمٌ فهو جاهل واقعاً والواجب منزّه عنه و كيف كان هذا الكلام منه مطرودٌ مردودٌ.

و أمّا بالنّسبة الىٰ المعتزلة من أنّه ليس للّه علم، فالظّاهر أنّ مرادهم من نفي العلم الزّائد علىٰ ذاته و أمّا نفي العلم بالكلّية فلا يقول عاقل به اذ نفي العلم عين الجهل و هو كما ترىٰ والّذي يختلج بالبال في تفسير الكلام هو أنّ قوله: **عَلَىٰ عِلْمٍ** إشارة الى نكتته خفيّةٍ و هى أنّه تعالىٰ كان عالماً بأنّ الكفّار لايؤمنون و مع ذلكَ أنزل الكتاب و فَصَّله بذكر القصص و الأحكام و المواعظ إتماماً للحجّة ليهلك من هلك عن بَيّنةٍ و يحيىٰ من حيّ عنها فكأنّه قال و لقد جئنا هؤلاء الكفّار بكتاب كذلك علىٰ علمٍ منّا بأنّهم لا يؤمنون بسوء سريرتهم و خبث طينتهم و عنادهم للحقّ.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ

أي هل ينتظرون لأنّ النّظر قد يكون بمعنىٰ الإنتظار قال أبو عليّ معناه هل ينتظر بهم أو هَل ينتظر المؤمنون بهم إلاّ ذلك و أنّما أضافه اليهم مجازاً لأنّهم كانوا جاحدين لذلك غير متوقّعين و أنّما كان ينتظر بهم المؤمنون لإيمانهم بذلك و إعتراضهم به.

و قال بعض المفسّرين معناه هل ينتظرون إلاّ مأل أمره و عاقبته و قيل مأله يوم القيامة و قال السُّدي في الدّنيا كوقعة بدر و يوم القيامة أيضاً.

و قال الزّمخشري ما يؤول اليه من تبيين صدقه و ظهور صحّته ما نطق به الوعد و الوعيد **يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** إخبار عن اللّه تعالىٰ عن الكفّار و إعترافهم بالإعراض عن حجج اللّه و بيّناته و الإقرار بتوحيده و نبوّة أنبياءه و إقرارهم بأنّ ما جاءت به الرُّسل كان حقّاً ثبت أنّ الحقّ ما شهد بصّحته العقل كما أنّ الباطل ما شهد العقل بفساده و المراد بالنّسيان في الآية هو أنّهم حيث أعرضوا عنه في الدّنيا فكأنّه صار منّسياً، أو أنّهم تركوا العمل به فكأنّهم نسوه.

و محصّل الكلام هو أنّه لمّا تبيَّن لهم الخَطأ و الإنحراف عن الحقّ ندموا لا محالة على عدم متابعة الرُّسل و الإعراض عمّا جاءوا به فقالوا كما حكى اللّه عنهم.

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

و حيث أنّ الشّفيع هو السّائل لصاحبه إسقاط العقاب و العذاب عن المشفع فيه و العفو عن خطيئته فلاجرم قالوا فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا عند اللّه ليسقط عنّا العقاب أو نرّد، و نرجع الىٰ الدّنيا فنعمل فيها غير ما عَملِنا فيها قبل الموت فهو من قبيل قولهم: **رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلّيَ أَعْمَلُ صالِحًا فيما تَرَكْتُ**(١).

و الجواب الجواب هو قوله تعالىٰ: **كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها**(٢) و لذلك قال: **قَدْ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ** و أيّ خسران للإنسان أقبح و أفحش من الخسران في الدّين و توضيح ذلك هو أنّ الخسر و الخسران إنتقاص رأس المال و قد ينسب ذلك الىٰ الإنسان فيقال خسر فلان و قد ينسب الىٰ الفعل فيقال خسرت تجارته.

١- المؤمنون = ٩٩ و ١٠٠ ٢- المؤمنون = ١٠٠

قال الرّاغب في المفردات بعد نقله ما نقلناه عنه و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدّنيا و هو الأكثر.

و في المقتنيات النّفسية كالصّحة و السّلامة و العقل و الإيمان و الثّواب الذّي جعله اللّه تعالىٰ الخسران المبين و قال: **ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ**(١) انتهىٰ.

أقول لاشكّ أنّ خسران المال والجاه بالنّسبة الىٰ خسران النّفس حقير لا يُعبأ به لأنّ المال والجاه في معرض الزّوال ومع ذلك قد تكون في زوالها مصلحة للعبد مضافاً الىٰ أنّ زوالهما قابل للجبران حتّىٰ في الدّنيا فعلىٰ هذا لا ينبغي للإنسان التّأسف علىٰ زوالهما كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصّيته للحسن و الحسين عليهما السلام.

أُوصِيكُما بِتَقْوَىٰ اللّهِ وأنْ لاَتَبْغِيا الدُّنْيا و إنْ بَغَتْكُما و لا تأسَفا عَلىٰ شَيءٍ مِنْها زُوِيَ عَنْكُماْ. بل نقول أنّ ذهاب المال أو الجاه ليس في الحقيقة من الخُسران بالنّسبة الى الإنسان بل هو خُسرانٌ في ماله وجاهه والمال و الجاه غير الإنسان قطعاً و أنّما الخسران في الحقيقة ما ينسب الىٰ النّفس النّاطقة القدّسية التّي هي الإنسان حقيقة فأنّ شيّئية الشّيئ بصورته لا بمادّته و النّفس هي الصُّورة الإنسانية كما ثبت و قرّر في محلّه و لاجل هذه الدّقيقة جعل اللّه تعالىٰ الخسران المبين في المقتنيات النّفسية فقط دون المقتنيات الخارجته:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَ كَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**(٥).

١- الشّورىٰ = ٤٥
٢- العنكبوت = ٥٢
٣- الزّمر = ٦٣
٤- المجادلة = ١٩
٥- المنافقون = ٩

قال اللّه تعالىٰ: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ اَلْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي اَلْآخِرَةِ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ[1] والأيات كثيرة اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** إشارة الىٰ هذه الدّقيقة أي أنّهم سقطوا عن مقام الإنسانية و وقعوا في مراتع الحيوانية.

و قوله: **وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** إشارة الىٰ أنّ إفترائهم صار موجباً لخسرانهم لأنّهم بالإفتراء تركوا العمل و لا نعني بالخسران إلاّ هذا.

قال بعض المفسّرين في الآية دلالة علىٰ فساد مذهب المجبّرة من وجهين:

أحدهما: أنّهم كانوا قادرين على الإيمان و العمل في الدّنيا فلذلك طلبوا تلك الحال ولو لم يكونوا قادرين لما طلبوا الرّد الىٰ الدّنيا و الى مثل حالهم الأولىٰ.

و الأخر بطلان مذهبهم في تكليف أهل الأخرة اذ لو كانوا مكلّفين لما طلبوا الرّجوع الىٰ الدّنيا ليؤمنوا بل كانوا يؤمنون في الحال انتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به و إلاّ فالقول بالجبر باطل عقلاً و نقلاً و للبحث فيه مقام أخر.

إِنَّ رَبَّكُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ

إعلم أنّ اللّه تعالىٰ لمّا ذكر أمر المعاد عقّبه بذكر الدّلائل الدّالة علىٰ ربّوبيته و خالقّيته وكمال قدرته و علمه و أنّه تعالىٰ هو الذّي خلق الخلق و أوجدهم من العدم فهو الخالق العليم القادر الذّي أوجد الممكنات فقال: **إِنَّ رَبَّكُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ** ففي الآية مسائل:

أحدها: أنّ خالق الكلّ واحد و به يثبت التّوحيد ذاتاً و فعلاً و أنّما قلنا ذلك لأنّه تعالىٰ قال: **إِنَّ رَبَّكُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ** أي أنّ

١- أل عمران = ٨٥

الذّي رباكم هو اللّه الّذي خلق السّموات و أنّما قال في حقّنا، رباكم، السّموات و الأرض، خلق، لنتته و هي أنّ الرّب في الأصل التّربية و هو إنشاء الشّئ حالاً فحالاً الىٰ حدَّ التّمام فهو مستعارٌ للفاعل و لا يقال الرَّب مطلقاً إلاّ للّه تعالىٰ المتكفّل لمصلحة الموجودات.

و أمّا بالإضافة فيقال له تعالىٰ و لغيره فيقال ربّ العالمين و يقال ربّ الدّار و ربّ الفرس و علىٰ هذا قوله تعالىٰ حكايةً عن يوسف **أذكرني عند ربّك**.

و على المعنىٰ الأوّل قال و لا يأمركم أن تتّخذوا الملائكة و النبيّين أرباباً، أي ألهة و تزعمون أنّهم البارئ و مسّبب الأسباب و المتولّي لمصالح العباد.

و أمّا الخلق فهو التّقدير المستقيم و ليستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ و لا إحتذاءٍ فقوله: **رَبُّكُمُ ٱللَّهُ**، أي أنّه تعالىٰ أنشأكم حالاً فحالاً والى هذا المعنىٰ أشار بقوله:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طينٍ،ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا اٰخَرَ فَتَبارَكَ ٱللّٰهُ أَحْسَنُ ٱلْخالِقينَ[1].

و هذا لا يختَّص بالإنسان فقط بل يشمل الحيوانات و النّباتات و الجمادات و غيرها لأنّه تعالىٰ هو المتكفّل لمَصلحة الموجودات كلّها.

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعالَمينَ**.

قال اللّه تعالىٰ: **رَبِّ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمآ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنينَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **فَتَعالَى ٱللّٰهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لآ إِلٰـهَ إِلّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَريمِ**[3] والأيات كثيرة.

۱- المؤمنون = ۱۲ و ۱۳ و ۱۴ ۲- الدّخان = ۷

۳- المؤمنون = ۱۱۶

و السِّر في الجميع هو أنّ المخلوق كائناً ما كان حادث وكلّ حادثٍ متغيّر فيصدق عليه الإنشاء حالاً فحالاً اذ لا نعني بالتّغير إلاّ هـذا فـهو تـعالىٰ ربّ العالمين بل كلام.

أن قلت لو كان الأمر كذلك فَلِم قال خلق السّموات و الأرض و المفروض أنّه تعالىٰ ربّ السّموات و الأرض و العرش أيضاً.

قلتُ لعلَّ الوجه في تخصيص السّموات والأرض بالذّكر هو أنّه تعالىٰ خلق السّموات و الأرض على وجه الإبداع من غير أصلٍ و لا إحتذاءٍ فكأنّه أمرنا بالتّفكر فيه لأنّه أعظم و أكبر.

قال اللّه تعالىٰ: **لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**(١).

و أمّا قوله: **فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ** مع أنّه كان قادراً علىٰ إنشاءها دفعةً واحدةً فقد قيل فيه وجوه:

أحدها: أنّ تدبير الحوادث علىٰ إنشاء شئٍ بعد شئٍ علىٰ ترتيب أدَّل علىٰ كون فاعله عالماً قديراً يصرفه علىٰ إختياره و يجريه علىٰ مشيّئته.

ثانيها: قال الرّماني يجوز أن يكون الإعتبار بتصوّر الحال فـي الأخـبار و معناه اذا أخبر اللّه تعالىٰ بأنّه **خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ** كان فيه لطفٌ للمكلّفين وكان ذلك وجه حسنه.

ثالثها: قال أبو علّي ذلك لإعتبار الملائكة بخلق شئٍ بعد شئٍ، ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال الطّبري في تفسيره يقول تعالىٰ أنّ سيدكم و مصلح أموركم أيّها النّاس هو المعبود الذّي له العبادة من كلّ شئٍ **ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ** و ذلك يوم الأحَد والأثنينَ والثّلاثاء و الأربعاء و الخميس و الجمعة.

١- غافر = ٥٧

ثمّ نقل عن مجاهد أنّه قال بدء الخلق العرش و الماء و الهواء و خلقت الأرض من الماء و كان بدء الخلق يوم الأحد و الأثنين و الثّلاثاء و الأربعاء و الخميس و جمع الخلق يوم الجمعة و تهَّودت اليهود يوم السَّبت و يوم من السِّتة الأيّام كألف سنةٍ ممّا تعدُّون انتهىٰ.

و قال الشّيخ الطّنطاوي في تفسيره المسمّىٰ بالجواهر في هذا المقام ما هذا لفظه، فأنظر كيف ذكر أنّه خلق السّموات والأرض في أوقات ستّة بحيث أدار المادّة اللّطيفة المسمّاة (بالأثير) و حركها في أزمان قديمة العهد جدّاً فكان منها شموس و شموس ثمّ دارت الشّموس و منها شمسنا الأناً والأناً من السّنين فإنفصلت منها الكواكب السّيارة و منها أرضنا و إنفصل القمر من الأرض ثمّ كان المعدن و النّبات و الحيوان و الإنسان فهذه هي الأيّام السِّتة الّتي خلق اللّه فيها السّموات والأرض فأوّلها الشّمس فالأرض و معها السّيارات فالمعدن فالنّبات فالحيوان فالإنسان هذه هي الأيّام السِّتة التّي خلق اللّه فيها عالمنا انتهىٰ كلامه

و قال البيضاوي، **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** أي في ستّة أوقات كقوله و من يولّهم يومئذٍ دبره، أو في مقدار ستّة أيّام فأنّ اليوم المتعارف زمان طلوع الشّمس الىٰ غروبها ولم يكن حينئذٍ و فى خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة علىٰ إيجادها دفعةً دليل للإختيار و إعتبار النّظائر و حثٌّ على التّأني في الأمور انتهىٰ.

و قال السّيوطي في الدّر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال بدأ اللّه بخلق السّموات و الأرض يوم الأحد و الأثنين و الثّلاثاء و الأربعاء و الخميس و الجمعة و جعل كلّ يومٍ ألف سَنة.

و بأسناده عن أبي هريرة قال أخذ رسول اللّه بيدي فقال يا أبا هريرة أنّ اللّه خَلَق السّموات والأرض و ما بينهما في ستّة أيّام ثمّ إستوىٰ على العرش فخلق التّربة يوم السَّبت و الجبال يوم الأحد و الشّجر يوم الأثنين و أدم يوم الثّلاثاء و النُّور يوم الأربعاء و الدّواب يوم الخميس و أدم يوم الجمعة أخر ساعةٍ من النّهار انتهىٰ.

و نقل صاحب كشف الأسرار عن سعيد بن جبير أنّه قال قدَّر اللّه تعالىٰ خلق السّموات و الأرض في لمحةٍ أو لحظةٍ و أنّما خلقهنّ في ستّة أيّام تعليماً لخلقه الرِّفق و التَّثبت في الأمور قال و علَّمنا بالسِّتة الحساب الّذي لا سبيل الىٰ معرفة شيءٍ من أمر الدّنيا والدّين إلاّ به كما قال لتعلموا عدد السّنين و الحساب ثمّ أنّ أصل جميع الحساب من ستّة و منها يتفرّع سائر العدد بالغاً ما بلغ انتهىٰ.

و قال الرّازي أنّ المراد أنّه تعالىٰ خَلَق السّموات والأرض في مقدار ستّة أيّام و هو كقوله: **وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهٰا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا**(١) والمراد علىٰ مقدار البُكرة و العشّي في الدّنيا لأنّه لا ليل ثمّ و لا نهار.

أقول هذه الأقوال الّتي نقلناها عن تفاسيرهم تدّل علىٰ أنّهم لم يأتوا بشيءٍ في تفسير الآية فالإشكال باقٍ بحاله.

و قال القُرطبي و ذكر هذه المدّة ولو أراد خلقها في لحظةٍ لفعل اذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون و لكنّه أراد أن يعلم العباد الرِّفق و التَّثبت في الأمور و لتظهر قدرته و للملائكة، شيئاً بعد شيءٍ ثمّ قال و حكمة أخرىٰ خلقها في ستّة أيّام لأنّ لكلّ شيءٍ عنده أجلاً و بيَّن بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب لأنّ لكلّ شيءٍ عنده أجلاً و هذا كقوله و لقد خلقنا السّموات والأرض و ما بينهما في ستّة أيّامٍ و ما مسَّنا من لغوب انتهىٰ.

و قد يقال أنّ تدبير الحوادث علىٰ إنشاء شيءٍ بعد شيءٍ علىٰ ترتيبٍ أدَّل على كونه فاعلاً قديراً عالماً يصرفه على إختياره و يجريه علىٰ مشيّئته.

و قال أبو علّي، ذلك لإعتبار الملائكة بخلق شيءٍ بعد شيءٍ، و قيل غير ذلك و أنت تعلم أنّ هذه الوجوه كلّها إستحسانات و إستخراجات ظنّية لا يمكن الإعتماد عليها في تفسير الآية و سيأتي الكلام في هذا المعنىٰ في المستقبل في سورة طه إن شاء اللّه.

١- مريم = ٦٢

و أمّا قوله: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** فقيل أنّ المراد بالإستواء الإستيلاء و المعنى إستولى عليه كما قال الشّاعر:

ثـمّ إسـتوىٰ بشـرُ عـلىٰ العـراق مــن غـير سـيفٍ ودم مـهراقٍ

و قال بعضهم معناه إستوىٰ أمره أي أنّه مستوٍ علىٰ العرش و قد صحّ الوصف بأنّه مستوٍ علىٰ العرش لأنّه لم يكن عرشاً قبل وجوده.

قال بعضهم ولَفظة العَرش مشتركة بين معانٍ كثيرة.

فالعرش سرير الملك و منه قوله تعالىٰ: **وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ**(١).

و العرش السَّقف وكلّ ما علا و أظَّل فهو عرش.

و العرش الملك و السُّلطان و العزّ و منه قول الشّاعر:

إن يَـقتلُوك فَـقد قَـلَلت عُـروشهم بـعتيبة إبـن الحـارث بـن شـهاب

و العرش الخشب الذّي يطوي به البئر بعد أن يطوي أسفلها بالحجارة.

و العرش أربعة كواكب صغار أسفل من العواء يقال لها عجز الأسد و يسمّىٰ عرش السّماك.

و العرش ما يلاقي ظهر القدم وفيه الأصابع ثمّ قال و كلمة إستوى، أيضاً تستعمل بمعنىٰ إستَّقر، و بمعنى علا، وبـمعنىٰ قَـصد، و بـمعنى سـاوى، و بمعنى تساوى و قيل بمعنى إستولى و أنشدوا فيه قول الشّاعر:

هــما إسـتويا بـفضلهما جـميعاً عـلىٰ عـرش المـلوك بغير زورٍ

و نقل عن ابن الأعرابي أنّه قال لا نعرف إستوىٰ بمعنى إستولىٰ انتهىٰ.

أقول أمّا ما ذكره من معاني العرش فلاكلام لنا فيه و ذلك لأنّ أكثر الألفاظ لها وجوه مختلفة بحسب الإستعمالات و أمّا قوله لا نعرف إستوىٰ بمعنى إستولىٰ، فهو خلاف ما صرَّح به أكثر اللّغويين.

قال في المنجد، إستوىٰ علىٰ سرير المُلك كناية عن التَّملك، و التَّملك هو التَّسلط بعينه.

١- يوسف = ١٠٠

نعم قد يجيئ بمعنى الإستقامة و الإستقرار و القصد و أمثال ذلك و كيف كان فلنرجع الىٰ تفسير الكلام فنقول:

أمّا حقيقة العرش ففي غاية الخفاء اذ لا علم لنا و لا لغيرنا بها في حقّه تعالىٰ.

نعم العَرش بمعناه اللّغوي لا خفاء فيه و هو غير مرادٍ قطعاً في المقام اذ لا مَقَّر له تعالىٰ عقلاً وشرعاً و هو واضح و اذا كان كذلك فلا محالة يحمل علىٰ ما هو المناسب في المقام من كونه كناية أو إشارة الىٰ مملكته و سلطانه و إستيلاءه و إحاطته تعالىٰ بجميع الممكنات.

قال بعض المفسّرين من العامّة سأل رجل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال كيف إستوى، فأطرق رأسه ملّياً و علته الرّحضاء ثمّ قال الإستواء معلوم و الكيف غير معقول و الإيمان به واجب و السّؤال عنه بدعة و ما أظُّنك إلاّ ضّالاً ثمّ أمر به فأخرج انتهىٰ.

أقول أنظر الىٰ إمام أهل السنّة و مبلغ علمه و جوابه عن سؤال السّائل و حمل كلام السّائل على البدعة و نسبته الضّلالة اليه و الأمر بإخراجه عن المجلس فإعتبروا با أولي الأبصار فلو قال في الجواب لا أعلم معناه كان أولى له إلاّ أنّ هذا و أمثاله من ثمرات السَّقيفة الملعُونة و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و لنعم ما قيل:

اذا كان الغراب دليل قومٍ سيهديهم سبيل الهالكين

يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا التَّغشية التَّغطية و المعنىٰ أنّه يُذهب اللّيل نور النّهار ليتّم قوام الحياة في الدّنيا بمجيئ اللّيل و النّهار فاللّيل لِلسّكُون و النّهار للحركة و فحوىٰ الكلام يدّل علىٰ أنّ النّهار يغشيه اللّيل و هما مفعولان لأنّ التّضعيف و الهمزة معدّيان.

و قال بعضهم معناه يجلّل اللّيل النّهار أي يدخل عليه و قيل معناه أقبل عليه و قوله: **يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا** معناه أنّه مستمّر علىٰ منهاج واحدٍ و طريقةٍ واحدة

من غير فتور يوجب الإضطراب كما يكون في السّوق الحثيث و قيل أنّ معنى الحثيث السَّريع بالسُّوق قال أهل اللُّغة، الحثيث و الحثوث السّريع يقال ولّى حثيثاً أي مسرعاً، ثمّ أنّ نسبة الطّلب الى اللّيل مجازيّة و هو عبارة عن تعاقبه اللاّزم فكأنّه طالب له لا يدركه بل هو في أثره بحيث يكاد يدركه هذا كلّه بناءً على رفع اللّيل و نصب النّهار كما هو الظّاهر و عليه المشهور من المفسّرين و قيل بالعكس بأن يكون اللّيل مفعولاً و النّهار فاعلاً أي يغشي النّهار اللّيل قال الرّازي في المقام ما هذا لفظه.

يطلبه حثيثاً يحتمل أن يكون المراد يلحق اللّيل بالنّهار و أن يكون المراد النّهار باللّيل و اللّفظ يحتملهما معاً و ليس فيه تغيير والدّليل علىٰ الثّاني قراءة حميد بن قيس يغشي اللّيل النّهار بفتح الياء و نصب اللّيل و رفع النّهار أي يدرك النّهار اللّيل و يطلبه حثيثاً انتهىٰ.

أقول هذه القراءة مردودة مطروحة.

أمّا أوّلاً: فلأنّها خلاف المشهور بل لا نعلم موافقاً لها في القرّاء فهي شاذّة نادرة في حكم العدم.

ثانياً: اللّفظ المتقدّم هو الفاعل في أمثال المقام كما في قولك ضرب موسىٰ عيسىٰ إلاّ أن يدلّ دليل على خلافه وإذ ليس في المقام فليس.

ثالثاً: أنّ نسبة التّغطية الىٰ اللّيل أولىٰ منها الى النّهار لأنّ الغطاء نوع من الظّلمة فلا يقال يغشى النّهار اللّيل كما لا يقال أنّ النّور يغشى الظُّلمة نعم النّور يرفع الظّلمة و الفرق بين الرّفع والتغطية واضح.

رابعاً: لو قلنا بهذه القراءة لزم فتح الياء في، يغشى، كما إعترف به القائل و عليه فيكون الفعل لازماً و اذا كان كذلك فحقّ الكلام أن يقال يغشى باللّيل النّهار و لا يقول به أحد فتحصّل ممّا ذكرناه أنّ المعنى يطلب اللّيل النّهار سريعاً على سبيل الكناية فأنّ تغطية اللّيل النّهار كناية عن طلبه فكأنّ أحدهما يطلب

الآخر بسرعةٍ و مع ذلك لا يصل أحدهما الىٰ الآخر فهو نظير قوله تعالىٰ: **لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَآ أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَ لَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**[١].

ثم قال: **وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ وَ ٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ** كأنّه جواب عن سؤال مقدّر و هو أنّه لم يكون كذلك فقال تعالى في الجواب ما قال والوجه في صحّة الجواب ظاهر لأنّ المخلوق تحت قدرة الخالق و لا يمكن له الفرار من حكومته و حثيث ثبت أنّ الشّمس و القمر و النّجوم و غيرها من جنس المخلوق فلا محالة تكون تحت قدرة الخالق و لا نعني بالتّسخير إلاّ هذا و لذلك قال تعالىٰ: **أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَ ٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ** يمكن أن يراد بالخلق و الأمر عالم الخلق و عالم الأمر و يمكن أن يراد بهما معناهما اللّغوي و من المعلوم أنّ الجمع مهما أمكن أولىٰ من الطّرح و عليه فالمعنى أنّ اللّه تبارك و تعالى موجد العالمين أعني بهما عالم التّكوين وعالم التّشريع كما أنّ له الايجاد و من له الإيجاد فله الأمر و محّصل الكلام هو أنّ الأمر بيده مؤثّر في الوجود إلاّ هو تبارك اللّه ربّ العالمين فيفعل ما يشاء و يحكم ما يُريد و هو علىٰ كلّ شيءٍ قدير.

ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ

خُفية بضّم الخاء و بكسرها و هما لغتان و المشهور فيها الضّم، و التضّرع التذلّل و هو إظهار الذُّل في النّفس، أمر اللّه تعالىٰ عباده المكلّفين أن يدعوه و الدّعاء طلب الفعل و المعنىٰ أدعوا ربّكم تذّللاً و فى الخفاء دون العلانية.

ثمّ أن الظّاهر أنّ الدّعاء هو مناجاة اللّه بندائه لطلب أشياء و لدفع أشياء و قيل أنّ الدّعاء في المقام العبادة أي أعبدوا ربّكم متضرّعين و مخفين.

١- يس = ٤٠

و قد ورد في بعض الأحاديث أنّكم لستم تدعون أصّم و لا غائباً أنّكم تدعون قريباً وكان الصّحابة حين أخبرهم الرّسول بذلك قد جهروا بالذّكر أمر اللّه تعالى بالدّعاء مقروناً بالتذلُّل و الإستكانة و الإختفاء إذ ذاك أدعىٰ للإجابة و العبد عن الرّياء و الدّعاء خُفية أفضل من الجهر و لذلك أثنى اللّه على زكّريا عليه السلام **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا**[1] و فى الحديث خير الذّكر الخَفي و قواعد الشّريعة مقرّرة أنّ السِّر فيما لم يفترض من أعمال البّر أعظم أجراً من الجهر.

و قد روي بعض المفسّرين أنّ النّبي كان في غُزاة فأشرف علىٰ وادٍ فجعل النّاس يهلّلون و يكبّرون ويرفعون أصواتهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أيّها النّاس أربعوا علىٰ أنفسكم أما أنّكم لا تدعون أصَّم و لا غائباً أنّكم تدعون سميعاً قَريباً أنّه معكم انتهىٰ.

و قد روي سليمان بن عَمر و قال سمعتُ أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: أنّ اللّه لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساهٍ فاذا دَعَوت فأقبل بقلبك ثمّ إستَيقن الأجابة.

و عن السّكوني عن أبي عبد اللّه عليه السلام عن أباءه عليهم السّلام قال: مرَّ النّبي علىٰ رجلٍ و هو رافع بَصَره الىٰ السّماء يدعوا فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم غضّ بصرك فأنّك لن تراه و قال عليه السلام ومرَّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ رجل رافع يديه الى السّماء و هو يدعو فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أقصر من يديك فأنّك لَن تناله.

و عن الرّضا عليه السلام عن أباءه عليهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ موسىٰ بن عمران لمّا ناجىٰ ربّه قال أبعيد أنت منّي فأناديك أم قريبٌ فأناجيك فأوحى اللّه جلّ جلاله اليه أنا جليس من ذكرني الحديث.

١- مريم = ٣

و السِّر فيه هو أنّ اللّه تعالى أقرب الينا من حبل الوريد و مع ذلك أنّه يعلم السِّر و أخفى و اذا كان كذلك فالصّوت الجلّي و رفع اليد الى السّماء و هكذا رفع الرّأس و البصر اليها لا تأثير لها في أصل المدّعىٰ و أنّما هي تحكي عمّا في القلب فالقلب هو الأصل.

في هذا المقام و قد قال تعالىٰ أنا عند قلوب المنكسرة فاذ توّجه القلب اليه بالخضوع و التّذلل فهو يكفي في الوصول الىٰ المقصد مُضافاً الىٰ أنّه أبعد من الرّياء المذموم و فى قوله: **إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** إشارة الى نكتته خَفيّةٍ لابدّ للدّاعي من التوجّه اليها و هى أن لا يتعدّى و لا يتجاوز حدَّ الحقّ و الإعتدال في دعاءه مث أن يطلب منه تعالىٰ منازل الأنبياء أو ما لا يجوز أن يعمل به في الدّنيا لإختلاله بالنّظام وأمثال ذلك ممّا هو خارج عن حدّ الإعتدال فأنّ الإعتداء و هو تجاوز حدّ الحقّ مذموم عند اللّه علىٰ كلّ حالٍ.

وَ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَ ٱدْعُوهُ خَوْفًا وَ طَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ

نهىٰ اللّه تعالىٰ عباده عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، و الفساد فيها يحصل بالإضرار بما تمنع الحكمة منه كما أنّ الإصلاح النَّفع بما تدعو الحكمة اليه و قيل إفساد الأرض بالقتل للمؤمنين و الإعتداء عليهم، و العمل فيها بمعاصي اللّه كما أنّ إصلاحها العمل فيها بطاعة اللّه.

قال بعض المفسّرين من العامّة هذا نهيٌ عن إيقاع الفساد في الأرض و إدخال ماهيّته في الوجود فيتعلّق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض كإفساد النّفوس و الأنساب و الأموال و العقول و الأديان و معنىٰ بعد إصلاحها بعد أن أصلح اللّه خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق و مصالح المكلّفين.

و ما روي عن المفسّرين من تعيين نوع الإفساد و الإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التّمثيل اذ إدّعاء تخصيص شئ من ذلك لا دليل عليه كالظّلم بعد العدل أو الكفر بعد الإيمان أو المعصية بعدَ الطّاعة فيمسك اللّه المطر و يهلك

الحرث بعد إصلاحها بالمطر و الخصب أو يقتل المؤمن بعد بقاءه أو بتكذيب الرُّسل بعد الوحي أو بتغوير الماء المعين و قطع الشّجر و الثّمر ضراراً و هكذا.

و قال الرّازي معناه و لا تفسدوا شيئاً في الأرض فيدخل فيه المنع من إفساد النّفوس بالقتل و بقطع الأعضاء و بإفساد الأموال بالغصب و السّرقة و وجوه الحيل و إفساد الأديان بالكفر و البدعة وإفساد الأنساب بسبب الإقدام علىٰ الزّناء و اللواطة و بسبب القذف و إفساد العقول بسبب شرب المسكرات لأنّ المصالح المعتبرة في الدّنيا هي هذه الخَمسة النّفوس و الأموال و الأنساب و الأديان و العقول.

فقوله: **وَلَا تُفْسِدُوا** منعٌ عن إدخال ماهيّة الإفساد في الوجود و المنع من إدخال ماهيّة الإفساد في الوجوه يقتضي المنع من جميع أنواعه و أصنافه فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة ثمّ قال.

و أمّا قوله: **بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** فيحتمل أن يكون المرا بعد أن أصلح خلقها على الوجه المطابق لمنافع الخلق الموافق لمصالح المكلّفين و يحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الرُّسل و إنزال الكتب كأنّه قال تعالىٰ، لمّا أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء و إنزال الكتب و تفصيل الشّرائع فكونوا منقادين لها و لا تقدموا على تكذيب الرّسل و إنكار الكتب و التّمرّد عن قبول الشّرائع فأنّ ذلك يقتضي وقوع الاختلال في الأرض فيحصل الإفساد بعد الإصلاح و ذلك مستكره في بداهة العقول انتهىٰ كلامه.

و قال الطّبري معناه لا تشركوا باللّه في الأرض و لا تعصوه فيها و ذلك هو الفساد فيها ثمّ قال بعد إصلاحها يقول بعد إصلاح اللّه إيّاها لأهل طاعته بإبتعاثه فيهم الرُّسل دعاة الىٰ الحقّ و ايضاحه حججه لهم انتهىٰ.

و قال الطّبرسي ﵀ معناه النّهي عن قتل المؤمنين و إضلالهم و العمل بالمعاصي في الأرض بعد أن أصلحها اللّه بالكتب و الرُّسل عن السُّدي و الحسن و الضّحاك و الكلبي و قيل بعد أن أمر بالإصلاح فيها.

قال الحسن و إصلاحها إتّباع أوامر اللّه تعالى الىٰ أخر ما قال.

أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا إشكال فيه اذ الفساد يصدق عليه قطعاً في الواقع و نفس الأمر و ذلك لأنّ الفساد عبارة عن خروج الشّئ عن حدّ الإعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً و يضادّه الصّلاح و يستعمل ذلك في النّفس و البدن و الأشياء الخارجة عن الإستقامة فكلّ من أخرج شيئاً عن حدّ إعتداله و إستقامته فهو مفسد فقوله تعالىٰ: **وَ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ** معناه لا تخرجوا الأشياء أيّ شئٍ كان عن حدّ إعتداله الّذي جعله اللّه فيه فأنّ اللّه تعالى جعل لكلّ شئٍ قدراً وّ وضعه في موضعه الّذي يليق به والى هذا المعنى أشير بقوله بعد إصلّاحها فأنّ إصلاح الأرض عبارة عن نظامها.

قال بعض مفسّري العّامة سأل أبوبكر بن عيّاش عن قوله تعالىٰ: **وَ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** فقال أنّ اللّه تعالىٰ بعث محمّداً الىٰ أهل الأرض و هم في فسادٍ فأصلحهم اللّه بمحمّدٍ فمن دعىٰ الىٰ خلاف ما جاء به محمّدٍ فهو من المفسدين في الأرض.

ثمّ قال و الإفساد بعد الإصلاح أظهر قبحاً من الإفساد علىٰ الإفساد فأنّ وجود الإصلاح أكبر حجّةً علىٰ المفسد إذ هو لم يحفظه و يجري على سننه فكيف إذ هو أفسد و أخرجه عن موضعه و لذلك خصّه بالذّكر و إلاّ فالإفساد مذموم و منهي عنه في كلّ حال فحّجة اللّه علىٰ الخلوف و الخلائف من المسلمين المفسدين لما كان من إصلاح السّلف الصّالحين أظهر من حجّته على الكافرين الّذين هم أحسن حالاً من سلفهم الغابرين انتهى كلامه.

و أنا أقول أن كان الأمر كذلك فأوّل من دعى الىٰ خلاف ما جاء به محمّدٍ ﷺ هو أصحاب السّقيفة حيث أنكروا الولاية و ما جاء به النّبي في غدير خم بقوله من كنت مولاه فهذا علّي مولاه الخ.

و أبو بكر حيث قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث و هو مخالف لصريح كتاب اللّه و عمر حيث قال بحرمة المتعة على خلاف قول رسول اللّه ﷺ و هكذا و هكذا و للبحث فيه مقام آخر.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ ٱدْعُوهُ خَوْفًا وَ طَمَعًا** فهو أمرٌ منه تعالىٰ لهم أن يدعوه خائفين من عقابه طامعين في ثوابه و الخوف يكون بالعصيان و الأمن بالإيمان و الطَّمع توّقع المحبوب و نقيضه اليأس و هو القطع بإنتفاء المحبوب **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** الرّحمة بفتح الرّاء رِقّةٌ تقتضي الإحسان الى الموحوم و قد تستعمل في الرِّقة المجرّدة و تارةً في الإحسان المجرّد عن الرِّقة فإذا وصف به البارئ فليس يراد به إلاّ الإحسان المجرّد دون الرِّقة و علىٰ هذا روي أنّ الرّحمة من اللّه أنعام و أفضال و من الأدميّين رقّة و تعطُّف و حيث أنّ الرّحمة منطوية علىٰ معنيين، الرِّقة و الإحسان رَكَز تعالى في طبائع النّاس الرِّقة و تفرّد بالإحسان إذا عرفت هذا فمعنى الآية أنّ إحسان اللّه قريبٌ من المحسنين و ذلك لأنّ جزاء الإحسان ليس إلاّ الإحسان.

قال اللّه تعالى: **هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ**[1].

قال اللّه تعالى: **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**[2].

قال اللّه تعالى: **وَ أَحْسَنُوا وَ ٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ**[3].

و في المقام بحثان:

الأوّل: أن الرّحمة مؤّنثة فقياسها أن يُخبر عنها أخبار المؤّنث فيقال قريبة، و قد أجيب عنه.

أمّا أوّلاً: بأنّ الرّحمة بمعنىٰ الإحسان.

ثانياً: بأنّها مصدر و حقّ المصدر التذّكير كقوله تعالىٰ: (فمن جاءَه مَوعِظة).

ثالثاً: بأنّ الرّحمة و الرّحم واحد و هى بمعنىٰ العفو و الغفران.

رابعاً: بأنّ ما لا يكون تأنيثه حقيقيّاً جاز تذكيره.

خامساً: بأنّ الرّحمة هنا المطر قاله الأخفش.

١- الرّحمٰن = ٦٠
٢- الإسراء = ٧
٣- المائدة = ٩٣

الثّاني: لم قال تعالىٰ قريبٌ من المحسنين و لم يقل واصلٌ اليهم مثلاً و نحن بعد الفحص في التفاسّير لم نجد شيئاً في هذا المعنى و الّذي يختلج بالبال في التّعبير بالقرب هو أنّ المحسن إذا كان إحسانه علىٰ سبيل الإخلاص له تعالى فهو يحسن اليه وأن كان بغير ذلك فلا و عليه فالمحسن أقرب الىٰ إحسان اللّه من حيث أنّه أتىٰ بالفعل و أمّا غير المُحسن فهو أبعد من إحسانه لأنّه لم يأت به و نظير ذلك:

قال اللّه تعالى: **اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْ تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى**[2].

و اللّه تعالى أعلم بكلامه اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الرّحمة أنما تحصل بعد الموت وحيث أنّ الدّنيا تزداد بعداً في كلّ ساعةٍ و أنّ الأخرة تزداد قرباً في كلّ ساعةٍ فصّح أن يقال أنّ رحمة اللّه قريب من المحسنين فتعالىٰ اللّه.

■

١– المائدة = ٨

٢– البقرة = ٢٣٧

وَ هُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ
مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
ٱلثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿٥٧﴾ وَ ٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ
ٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَ لَٰكِنِّي
رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ
رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَ
أَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
عَمِينَ ﴿٦٤﴾

◁ اللّغة

ٱلرِّيَاحَ بفتح الرّاء جَمع ريح و هو على ما قيل الهواء المتحرّك، و أمّا الرِّيح بكسر الرّاء فقد إختّص بالنّتن.

بُشْرًا بضمّ الباء و سكون الشّين و يقرأ بفتح الباء و سكون الشين مصدر بشرته إذا بشرته و يقرأ بالنّون و الشّين مضمومتين و هو جمع و فى واحده وجهان.

أحدهما: نُشور مثل صبور و صبر و على هذا يجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل أي ينشر الأرض، و يجوز أن يكون بمعنىٰ مفعول كركوب بمعنىٰ مركوب أي منشورة بعد الطَّي و يجوز أن يكون جمع ناشر مثل نازل و نزل.

أَقَلَّتْ، الإقلال حَمل الشّئ بأسره حتّىٰ يقل في طاقة الحامل بقوّة جسمه يقال إستَّقل بحَمله إستقلالاً.

سَحَابًا السّحاب الغيم الجاري في السّماء مشتقّاً من الأسحاب يقال سحبه سحباً و أسحبه.

ثِقَالًا، الثّقال جمع ثقيل.

سُقْنَاهُ، السَّوق حثّ الشّئ في السّير حتّى يقع الإسراع فيه يقال ساقه يسوقه سوقاً.

نَكِدًا، النَّكِد العسر بشدّةٍ الممتنع من إعطاء الخير علىٰ وجه البخل.

نُصَرِّفُ التّصريف التّغيير.

ٱلْمَلَأُ الجمع.

فِي ضَلَالٍ، الضّلالة ضدّ الهداية و باقي اللّغات لا خفاء فيه.

◁ الإعراب

يَخْرُجُ نَبَاتُهُ يقرأ الفعل بفتح الياء على صيغة المعلوم و عليه فالنّبات فاعله و يقرأ بضمّ الياء على صيغة المجهول، و يقرأ بضمّ الياء وكسر الرّاء من باب الأفعال و نصب النّبات على المفعولّية و الأشهر هو القول الأوّل المصاحف بِإِذْنِ رَبِّهِ متعلّق بيخرج إِلَّا نَكِدًا بفتح النّون وكسر الكاف و هو الحال ويُقرأ بفتحها على أنّه مصدر أي ذا نكد و يقرأ الفعل بضمّ الياء و كسر الرّاء و نكداً

مفعوله مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ قيل، من، زائدة، و إله، مبتدأ و لكم، الخبر الخبر محذوف و غيره، بالرّفع فيه وجهان:

أحدهما: هو صفة لإله، علىٰ الموضع.

الثّاني: هو بدل من الموضع مثل لا اله إلاّ اللّه.

مِنْ قَوْمِهِۦٓ حال من الملاء و لَنَرَىٰكَ من رؤية العين فيكون فِي ضَلَٰلٍ حالاً و يجوز أن يكون من رؤية القلب فيكون مفعولاً ثانياً أُبَلِّغُكُمْ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون صفةً لرسول على المعنى لأنّ الرّسول هو الضّمير في، لكنّي، و يجوز أن يكون حالاً وَ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ بمعنى أعرف فيتعدّى الى مفعولٍ واحد و هو ما، و هي بمعنى، الّذي أو نكرة موصوفة مِنْ رَبِّكُمْ صفة لِذكرٍ عَلَىٰ رَجُلٍ يجوز أن يكون حالاً أي نازلاً علىٰ رجلٍ و أن يكون متعلّقاً بجاءكم على المعنىٰ لأنّه في معنى نزل اليكم و فى الكلام حذف مضاف أي علىٰ قلب رجل أولسان رجل فِى ٱلْفُلْكِ حال من، من، أو من الضّمير المرفوع في، معه عَمِينَ و الأصل فيه عميين فسكنت الأولى و حذفت.

◁ التّفسير

لمّا أخبر اللّه تعالىٰ فيما مضىٰ أنّه خلق السّموات والأرض و خلق الشّمس و القمر و النّجوم مسخّرات الىٰ أخر ما قال عطف على ذلك بقوله: وَ هُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ.

وَ هُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ

أي أنّ الّذي خلق السّموات و الأرض و ما فيهما هو الّذي يرسل الرّياح بشراً بين يَدي رحمته.

قيل الإرسال هو الإطلاق بتحميل معنى كما تقول أرسلت فلاناً أي حملته رسالة، والرّياح بفتح الرّاء جمع ريح و هو معروف مشهود، بشرىٰ أي ذات

بشارة أو نشرى، أي ينشر الأرض أو نشرى، بفتح **النّون** و هو مصدر، نشر بعد الطَّي أو من قولك، أنشر اللّه الميت فنشر أي عاش و نصبه علىٰ الحال علىٰ جميع التّقادير **بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ** معناه قدّام رحمته كما يقدم الشّئ بين يَدي الإنسان كما قال تعالىٰ: **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ** (١) أي تولّيت خلقه كما يقول الإنسان عملت بيدي، والرَّحمة يراد بها الغيث و عليه فمعنى الكلام هو الّذي يرسل الرّياح ذات بشارةٍ بين يدي رحمته و فيه إشارة الى أنّ الرّياح من أعظم النِّعم و هو كذلك.

و توضيحه هو أنّه تعالى لمّا ذكر الدّلائل على كمال الاهيّته و قدرته و علمه من العالم العلوي أتبعها بالدّلائل من العالم السّفلي و هى محصورة في أثار العالم العلوي و منها الرّيح و السّحاب و المطر و فى المعدن و النّبات و الحيوان و يترتّب على نزول المطر أحوال النّبات و ذلك هو المذكور في الأية المعلوم أنّ بقاء الحيوان و الإنسان بالنّبات و هى من بركات الأمطار و هى من بركات السّحاب و إنتشار السّحاب لا يكون إلاّ بسبب الرّياح فثبت أنّ الرّياح من أعظم النّعم و هو المطلوب.

و إعلم أنّا قد ذكرنا قولهم أنّ الرّيح هو الهواء المتحرّك و هذا المعنىٰ ممّا إتّفقوا عليه فنقول كلّ متحرّكٍ لا يكون تحرّكه لذاته و لا للوازم ذاته و إلاّ لدامت الحركة بدوام ذاته فلابدّ له من محرّك غير ذاته ثمّ أنّ هذا المحرّك الفاعل لابّد من أن يكون فاعلاً مختاراً إذ في الفاعل الإضطّراري يعود المحذور الفاعل المختار هو اللّه تعالىٰ فَوجود الرّياح و نشرها على النّظام الأحسن يدّل على وجود خالقها و محرّكها و هو المطلوب و أمّا ما قالت الفلاسفة في سبب الرّياح فلا يعتمد عليه.

١– ص = ٧٥

فعن الاحتجاج قال الصّادق عليه السلام للزّنديق الّذي سَأله مسائل الرّيح، لو حبست أيّاماً لفسدت الأشياء جميعاً و تغيّرت و سأله عن جوهر الرّيح فقال عليه السلام الرّيح هواء إذا تَحّرك سُمّي ريحاناً فإذا سكن سمّي هواء وبه قوام الدّنيا و او كفّت الرّيح ثلاثة أيّامٍ لفسد كلّ شئ على وجه الأرض و نتن و ذلك أنّ الرّيح بمنزلة المروحة تذوبّ و تدفع الفساد عن كلّ شئ و تطيبه فهي بمنزلة الرّوح إذا خرج عن البدن نتن البَدن وتَغيّر تبارك اللّه أحسن الخالقين إنتهىٰ.

و في الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام أنّ للّه عزّ وجلّ رياح رَحْمة و رياح عذاب فأَن شاء اللّه أن يجعل الرّياح من العذاب رحمة فعل قال عليه السلام و لن يجعل اللّه.

الرّحمة من الرّيح عذاباً و ذلك أنّه لم يرحم قوماً قطّ أطاعوه وكانت طاعتهم إيّاه وبالاً عليهم إلاّ من بعد تحوّلهم عن طاعته قال و كذلك فعل بقوم يونس لمّا آمنوا رحمهم اللّه الحديث (١)

أقول يظهر من هذا الحَديث و أمثاله أنّ الرّياح علىٰ أقسامٍ و سيأتي البحث فيها **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ** لمّا ذكر في صدر الآية أنّه: **وَ هُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ** فكأنّه قيل ولم أرسلها، فقال تعالىٰ: **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ** ألخ أي أرسلها الإقلال السّحاب الثّقال أي حملها و انتقالها من موضعٍ الىٰ موضع و مكانٍ الى مكانٍ و فائدة هذا الإقلال هي سوقها الىٰ بلدٍ ميّت الّذي أندرست مشاربه و تعّفت مزارعه و الهاء في، به، راجع الىٰ السّحاب أي فأنزلنا بسبب السّحاب ماء و يظهر من هذا الكلام أنّ سبب الماء هو السّحاب و هو كذلك فأنّ اللّه تعالىٰ أبى أن يجزي الأمور الاّ بأسبابها **فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ** أي فأخرجنا بسبب الماء الماطر علىٰ الأرض

١- بحار الأنوار، ج ١٤، ط كمباني، ص ٢٨٥.

أقسام الثّمرات و أنواعها **كَذٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** أي كما أخرجنا الثّمرات كذلك نخرج الموتى بعد موتها نحييها لَعلّكم تذكرون أي لكي تذكرون بأن تتذكروا و تتفكّروا و تعتبروا فأنّ من قدر علىٰ إنشاء الأشجار و الثّمار في البلد الّذي لا ماء فيه و لا زرع فأنّه يقدر علىٰ إحياء الموتى بأن يعيدها على ما كانت عليه بأن يخلق فيها الحياة و القدرة.

وَ ٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ ٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ البلد الطّيب ما فيه أسباب التلذّذ و ضدّه الخبيث و هو ما فيه أسبابً النكرة، و البلد هو الأرض الّتي تجمع الخلق الكثير و المقصود أنّ الأرض تنقسم بحسب ذاتها الىٰ قسمين:

قسمٌ منها طيّب و قسمٌ آخر خبيث فالطّيب منها يخرج نباته بإذن ربّه و الخبيث لا يخرج إلاّ نكداً و هذا أمرٌ مشهود و محسوس بالنّسبة الىٰ الأرض فإنّا نرى بعض الأرض لا ينبت شيئاً و بعضها ينبت القليل الّذي لا ينتفع به هو المسّمىٰ بالنّكد و بعضها ينبت أنواع الأشجار و الثّمار و الرّياحين قال بعضهم أنّ في هذه الآية قولان:

أحدهما: و هو المشهور أنّ هذا مثلٌ ضربه اللّه تعالىٰ للمؤمن و الكافر بالأرض الخيرة و الأرض السّنخة و شبّه نزول القرآن بنزول المطر فشّبه المؤمن بالأرض الخيرة الّتي نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار و الثّمار الأرض السّنخة فهي و أن نزل المطر عليها لم يحصل فيها من نبات إلاّ النّزر القليل فكذلك الرّوح التّقية الطّاهرة عن شوائب الجهل و الأخلاق الذّميمة إذا أتّصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع من الطّاعات و المعارف و الأخلاق الحميدة و الرّوح الخبيثة الكدرة و أن أتّصل به نور القرآن لم يظهر فيه من المعارف و الأخلاق الحميدة إلاّ القليل.

القول الثاني: أنّه ليس المراد من الآية تمثيل المؤمن و الكافر و إنّما المراد أنّ الأرض السّنخة يقّل نفعها و ثمرها و مع ذلك فأنّ صاحبها لا يهمل أمرها بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعا منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة فمن طلب هذا النّفع اليسير بالمشّقة العظيمة فلأنّ يطلب النّفع العظيم الموعود به في الدّار الأخرة بالمشقّة الّتي لابدّ من تحملها في إداء الطّاعات كان ذلك أولىٰ إنتهىٰ.

أقول قد ثبت في محّله أنّ لكلّ آيةٍ من آيات القرآن تنزيلاً و تأويلاً ففي المقام يكون نزُول الآية في الأرض و بيان أنّ لها خاصّيتين.

خبيثة و غير خبيثة و أمّا تأويلها فهو يشمل الإنسان و ذلك لأنّ الإنسان خلق منها، لقوله تعالىٰ: **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ** و اذا كانت مادّة خلقة الإنسان الأرض و التّراب فما ثبت فيها ثبت في الإنسان قهراً و هذا أمرٌ معقول لا يحتاج الىٰ تجشّم الإستدلال و هو واضح.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

المسئلة الثّانية: هذه الآية دالّة علىٰ أنّ السّيد لا ينقلب شيئاً و بالعكس و ذلك لأنّها دلّت على أنّ الأرواح قسمان:

منها، ما تكون في أصل جوهرها طاهرة نقّية مستعدّة لأن تعرف الحقّ لذاته و الخير لأجل العمل به و منها تكون في أصل جوهرها غليظة كدرة بطيئة القبول للمعارف الحقيقّية و الأخلاق الفاضلة كما أنّ الأراضي منها ما تكون سَبخة فاسدة و ساق الكلام الىٰ أن قال و ممّا يقوى هذا الكلام إنّا نرىٰ النّفوس مختلفة في هذه الصّفات فبعضها مجبولة علىٰ حبّ عالم الصّفاء و الألٰهيات منصرفة عن اللّذات الجسّمانية كما قال تعالىٰ: **وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**[1].

١- المائدة = ٨٣

و منها، قاسية شديدة القسوة و النفّرة عن قبول هذه المعاني كما قال: **فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**[1].

و منها، ما تكون شديد الميل الىٰ قضاء الشّهوة متباعدة عن أحوال الغضب.

و منها، ما تكون شديد الميل الىٰ إمضاء الغضب و تكون متباعدة عن أعمال الشّهوة بل نقول من النّفوس ما تكون عظيمة الرّغبة في المال دون الجاه.

و منها، ما يكون بالعكس الىٰ أن قال و اذا تأملت في هذا النّوع من الإعتبار تيقّنت أنّ أحوال النّفوس مختلفة في هذه الأحوال إختلافاً جوهريّاً ذاتـيّاً لا يمكن إزالته و لا تبديله و اذا كان كذلك إمتنع مـن النّـفس الغـليظة الجـاهلة المائلة بالطّبع الىٰ أفعال الفجور أن تصير نـفساً مشـرقة بـالمعارف الإلٰـهية و الأخلاق الفاضلة و لمّا ثبت هذا كان تكليف هذا النّفس بتلك المعارف اليقينة و الأخلاق الفاضلة جارياً مجرى تكليف ما لا يطاق فثبت بهذا البيان أنّ السَّعيد من سعد في بطن أمّه و الشّقي من شقي في بطن أمّه و أنّ النّفس الطّاهرة يخرج نباتها من المعارف اليّقينة و الأخلاق الفاضلة بإذن ربّها و النّـفس الخـبيثة لا يخرج نباتها إلاّ نكداً قليل العائدة و الخير كثير الفضول و الشّر انتهىٰ كلامه.

و نحن نقول قياس النّفوس بالأرض قياس مع الفارق و ذلك لأنّ التكلّيف لا يتعلّق بالأرض و يتعلّق بالنّفس فلو كان بعض النّفوس بمقتضىٰ خلقته و جبلّته غير قابل للإهتداء و لا يمكن إزالته و لا تبديله فكيف يكون متعلّقاً للتكلّيف ثمّ كيف يعاقب أو يثاب و قد قال اللّه تعالىٰ: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**[2] مضافاً الىٰ حكم العقل بقبحه أليس فيه بطلان الثّواب و العقاب و تـعطيل الأحكام و الشّرائع الإلٰهية، هذا كلّه مضافاً الىٰ أنّ القول بأنّ النّفوس سعيدة و شّقية بحسب الخلقة و أصل الإيجاد لا معنىٰ له و الحديث مطعون فيه سنداً و مطرودٌ عقلاً و لا يقول بهذه المقالة إلاّ المعتقد بالجبر الّذي دلّ علىٰ بطلانه العقل و النّقل و للبحث فيه مقام آخر.

۱- البقرة = ۷۴ ۲- البقرة = ۲۸۶

كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ أي يشكرون علىٰ تلك النِّعم الجليلة و المواهب العظيمة الّتي يعجز الإنسان عن شكرها لكثرتها و كثرة منافعها الّتي لا يعلمها إلاّ خالقها و الإقرار بالعجز عن الشُّكر كمال الشّكر و الحمد لِلّه ربّ العالمين.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

إعلم أنّه تعالىٰ لمّا بيّن فيما مضىٰ ما دلّ علىٰ وجود الصّانع و علمه و قدرته و حكمته و قرّر الدّلائل الظّاهرة و البيّنات القاهرة و البراهين الباهرة في تقرير المبدأ و المعاد إتبعها بذكر قصص الأنبياء عليهم السّلام بعد ذكر قصّة آدم في أوائل سورة البقرة و بدأ بقصّة نوح عليه السلام لأنه أوّل المرسلين من أولي العظم الّذين عليهم مدار النبوّة و الرّسالة فقال: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا** الخ و يقع البحث في مسائل.

الأولىٰ: أنّه إسم منصرف مع العجمة و التّعريف لسكون وسطه كلوط سمّي نوحاً لأنّه كان ينوح علىٰ نفسه خمس مائة عام و نحي نفسه عمّا كان فيه قومه من الضّلالة قيل و هو أوّل نبّي بعد إدريس و كان نجّاراً و رأيت في بعض التّواريخ أنّ إسمه كان عبد الغفار و سمّي نوحاً لما مرّ ذكره و ولد في العام الّذي مات فيه آدم و بعث في الألف الثّانية و هو إبن أربع مائة و قيل بعث و هو إبن خمسين سنة و فى الحديث عن الصّادق عليه السلام عاش نوح ألفي سنة و خمس مائة سنة منها ثمان مائة و خمسون قبل أن يبعث و ألف سنة إلاّ خمسين عاماً في قومه يدعوهم و سبع مائة بعد نزوله من السّفينة و نضب الماء و مصر الأمصار و أسكن ولده في البلاد، و أمّا نسبه، فهو إبن لامك بن متوشخ بن أُخنوخ و هو إدريس النّبي بن مهلائيل بن برد بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام.

المسألة الثّانية: أنّ اللّه تعالىٰ أشار الى قصة نُوح في مواضع كثيرة منها سورة يونس، منها سورة هود، منها سورة الأنبياء، منها سورة المؤمنين، منها سورة الشّعراء، منها العنكبوت، منها الصّافات، منها القمر، منها التّحريم، منها الحاقة و منها نوح و سنتكلم فيها إن شاء اللّه تعالىٰ في مواضعها.

المسألة الثّالثة: قرأ الكسائي، غيره بكسر الرّاء علىٰ أنّه نعت للإله علىٰ اللّفظ و الباقون بالرّفع علىٰ أنّه صفة له علىٰ الموضع لأنّ التّقدير ما لكم إلهٌ غيره و قال صاحب الكشّاف قرأ غير بالحركات الثّلاث و قال أمّا النّصب فعلىٰ الإستثناء و أمّا الرّفع والجرّ كما تقدّم.

المسألة الرّابعة: نقل الرّازي في المقام عن الواحدي أنّه قال في الكلام حذف و هو خبر، ما، لأنّك إذا جعلت، غيره، صفة لقوله، إله، لم يبق لهذا المنّفي خبر و الكلام لا يستقلّ بالصّفة و الموصوف لأنّك إذا قلت زيد العاقل و سكّت لم يفد ما لم تذكر خبره و يكون التّقدّير ما لكم من إله غيره في الوجود انتهىٰ كلام الواحدي.

و قال الرّازي في الجواب إتّفق النحوّيون علىٰ أنّ قولنا لا إله إلاّ اللّه لابدّ فيه من إضمار و التّقدير لا إله في الوجود، أو لا إله لنا إلاّ اللّه و لم يذكروا علىٰ هذا الكلام حجّة فإنّا نقول لم لا يجوز أن يقال دخل حرف النّفي علىٰ هذه الحقيقة و على هذه المآهية فيكون المعنى أنّه لا تحقّق لحقيقة الإلٰهية إلاّ في حقّ اللّه و إذا حملنا الكلام على هذا المعنى إستغنينا عن الإضمار الّذي ذكروه فأن قالوا صرف الى الماهّية لا يمكن لأنّ الحقائق لا يمكن نفيها فلا يمكن أن يقال لا سواد بمعنى إرتفاع هذه الماهّية و أنّما الممكن أن يقال أن تلك الحقائق غير موجودة و لا حاصلة.

و يجب إضمار الخبر فنقول هذا الكلام بناءً علىٰ أنّ الماهّية لا يمكن إنتفاؤها و إرتفاعها و ذلك باطل قطعاً إذ لو كان الأمر كذلك لوجب إرتفاع رفع

الوجود لأنّ الوجود أيضاً حقيقة من الحقائق و ماهيّة فلم لا يمكن إرتفاع سائر الماهّيات فأن قالوا إذا قلنا لا رجل و عنينا به رفع كونه موجوداً فهذا النّفي لم ينصرف الىٰ ماهيّة الوجود و أنّما إنصرف الىٰ كون ماهيّة الرّجل موصوفة بالوجود فنقول تلك الموصّوفية يستحيل أن تكون أمراً زائداً على الماهيّة و علىٰ الوجود إذ لو كانت الموصّوفية ماهيّة والوجود ماهيّة أخرى لكانت الماهّية موصوفة أيضاً بالوجود و الكلام فيه كما قبله فيلزم التّسلسل و يلزم أن لا يكون الموجود الواحد موجوداً واحداً بل موجودات غير متناهية و هو محال ثمّ نقول موصوّفية الماهّية بالوجود.

أمّا أن يكون أمراً مغايراً للماهيّة والوجود.

و أمّا أن لا يكون كذلك فأن لم يكن أمراً مغايراً لها.

يكون لذلك المغاير ماهيّة و وجود و ماهيّة لا تقبل الإرتفاع.

و يعود السؤال المذكور فثبت بما ذكرنا أنّ الماهيّة أن لم تقبل النّفي و الرّفع إمتنع صرف حرف النّفي الىٰ شيءٍ من المفهومات فأن كانت الماهّية قابلة للنّفي و الرّفع فحيئذٍ.

يمكن صرف كلمة، لا، في قولنا **لا اِلٰه اِلاّ اللّه** الىٰ هذه الحقيقة و حيئذٍ لايحتاج الىٰ إلتزام الحذف و الإضمار الّذي يذكره النحويّون فهذا كلامٌ عقلي صِرف وقع في هذا البحث الّذي ذكره النحوّيون انتهىٰ كلام الرّازي بألفاظه و عباراته.

و أنّما نقلنا كلامه بطوله مع أنّه لا فائدة فيه لتعلم أنّ الرّجل دأبه التشكّيك في الحقائق ولأجل ذلك سمّي بإمام المشكلين و إلاّ فأيّ نفعٍ فيما ذكره في المقام ثمّ كيف تعلّق النّفي بالماهّية مع قطع النّظر عن الوجود و هى إعتبارية محضة لا حكم لها إلاّ بإعتبار وجودها فالمنّفي فيها مع قطع النّظر عن وجودها لا معنى له فأنّها من حيث هي ليست إلاّ هي لا موجوّدة و لا معدومة و ما لا يكون موجودة و لا معدومة فكيف يحكم عليه بالنّفي أو الإثبات و محصّل

الكلام هو أنّ الماهّية قبل إتّصافها بالوجود لا حكم لها نـفياً و إثـباتاً و بـعده يحكم عليها بإعتبار وجودها لا من حيث هي هي و على هذا، فصرف كلمة، لا، في قولنا **لا اِلٰه اِلاّ الله** الىٰ الحقيقة أو الماهيّة كما إدّعاه الرّازي مع قطع النّظر عن وجودها كلام لا طائل تحته و المفروض أنّه لا حكم لها، فنحتاج الى إلتزام الحذف و الإضمار و هو المطلوب، هذا كـلّه مـضافاً الىٰ أنّـه تـعالىٰ صـرف الوجود و لا ماهّية له إلاّ إنّيته أعني بها الماهّية بالمعنىٰ الأعمّ الّتي يعبّر عنها بالذّات فلو فرضنا إنفكاك الماهّية عن الوجود في الواجب تعالىٰ و قلنا بتعلّق النّفي بالماهّية دون الوجود لزم التّركيب في ذاته و هو كما ترىٰ فـالحقّ فـي المقام هو الإضمار و هو المطلوب.

المسألة الخامسة: أنّ قوله: **لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إِلى قَوْمِهِ** يفيد إثـبات التكلّيف للبَشَر في كلّ عصرٍ و زمـانٍ و ذلك لأنّ الرّسـول يـقال تـارةً للـقول المحتَّمل كقول الشّاعر:

ألا أبـــلغ أبـــا حـــفصٍ رسُـولاً وتارةً لمتَّحمل القـول والرّسـالة

و أمّا قوله: **ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ** فهو يدّل علىٰ التّوحيد و فيه إشعار بأنّ الرّسول أو النّبي مأمورٌ من عند اللّه بذلك و هو الأصل في جميع التّكاليف لأنّ أوّل الّدين معرفته وكمال معرفته التصدّيق به وكمال التصدّيق به توحيده الخ.

فالتّوحيد أصل الشّجرة و النبوّة و الأمانة فَرعها و هذا واضح لا خلاف فيه.

المسألة السّادسة: قوله: **إِنِّيَ أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** المراد به يوم القيامة و المقصود أنّ العذاب مترتّبٌ علىٰ ترك العبادة في دار الدّنيا بعد تماميّة الحجّة و حيث كان كذلك فقوله: **إِنِّيَ أَخافُ عَلَيْكُمْ** معناه إتـيَّقن أو أقطع فالخوف ليس علىٰ وجه الشكّ بل علىٰ وجه اليـقين لأنّ الخـوف قـد يكون مع اليقين كما يكون مع الشكّ ألا ترىٰ أنّ الإنسان يخاف من الموت و لا يشكّ في كونه.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

إختلفوا في المراد بالمِلاَء فقال قوم أنّهم الجماعة من الرّجال سمّوا بذلك لأنهّم يملأون المحافل.

و قيل أنّهم الأشراف و السّادة و قيل أنّهم الرّؤوساء لأنّهم يملأون الصَّدر بعظم شأنهم و منه قوله تعالىٰ: (أُولئك المَلاء من قريش) و عليه فالمعنىٰ قال جمعٌ من أشراف قومه أنّا لنراك في ضلالٍ مبين.

و إختلفوا في معنىٰ الرّؤية علىٰ أقوالٍ:

أحدها: أنّه مِن رؤية القلب الذّي هو العلم.

ثانيها: أنّه من رؤية العين فكأنّهم قالوا نراك بأبصارنا علىٰ هذه الحال.

ثالثها: أنّه من الرّأي الّذي هو غالب الظنّ فكأنّه قال أنّا لنظنّك في ضلالٍ مبين أي خطأ ظاهرٍ و قيل أنّهم أرادوا بالضّلال هاهنا العدول عن الصّواب الىٰ الخطأ فيما زعموا مخالفتهم أيّاه فيما دعاهم اليه من إخلاص العبادة.

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

أي قال نوح في جوابهم ليس بي ضلالة كما تزعمون و ذلك لأنّ الضّلالة هي العدول عن الحقّ الى الباطل و أنّا أدعوكم من الباطل الىٰ الحقّ و هذا ضدّ الضّلالة و ضدّ الضّلالة لا يكون إلاّ حقّاً و يستفاد هذا المعنىٰ من قوله: **وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** و ذلك لأنّ الرّسول من جانب الحقّ لا يقول إلاّ حقّاً لأنّه يؤدّي عن اللّه تعالىٰ كما هو معنىٰ الرّسالة و صورة القياس هكذا أنا رسول من اللّه تعالىٰ اليكم، وكلّ رسولٍ لا يقول إلاّ حقّاً فأنا لا أقول إلاّ حقّاً المطلوب.

و أن شئت قلت معنىٰ، من، هاهنا لإبتداء الغاية و معناه أنّ اللّه هو الّذي إبتدأ بالرّسالة وكلّ مبتدئ بفعلٍ فذلك الفعل منه.

أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ

في هذا الكلام توضيح لما مضىٰ و المعنىٰ أنّي أبلّغكم ما أرسلت به من جانب الحقّ اليكم من التّوحيد و النبوّة و المعاد و لا أقول لكم ما أقول، مِن عند نفسي و أنصح لكم فأنّ فيه خير الدّنيا والأخرة و أنتم لا تعلمون.

قال الرّاغب في المفردات النُّصح تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاح صاحبه و هو من قولهم نصحت له الودّ أي أخلصته و ناصح العسل خالصه انتهىٰ.

و من المعلوم أنّ النّبي في كلّ زمانٍ أنصح لأمّته من كلّ أحدٍ لأنّه يأتي لهم من الّله ما فيه صلاح الأمّة في الدّنيا و الأخرة و حيث أنّ أكثر النّاس لا علم لهم بذلك أنكروا رسالته و نبوّته و هذا كالمريض الجاهل بالنّسبة الي طبيبه.

و قيل النّصيحة إخلاص النّية من شائب الفساد في المعاملة و هـو أيـضاً يرجع الى ما ذكرناه و أيُّ شخصٍ أخلص نيّةً من الرّسول المعصوم المؤيّد من عند اللّه قولاً وفعلاً.

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

الواو في قوله: **أَوَعَجِبْتُمْ**، لِلعطف دخل عليها ألف الإستفهام ففي هذه الآية تقريع من نوح لقوله علىٰ صورة الإستفهام بأنّهم عجبوا أن جاءهم ذكر من ربّهم على يد رجلٍ منهم و المعنى أو عجبتم يا قوم أن جاءكم ذكرٌ من ربّكم على رجلٍ منكم، أراد به نفسه، كأنّهم إستبعدوا أن يكون للّه رسولٌ الىٰ خلقه لأجل أنّهم إعتقدوا أنّ المقصود من الإرسال التّكليف لا منفعة فيه للمعبود لكـونه متعالياً عن النّفع و الضّرر أو أنّهم جوّزوا التكلّيف إلاّ أنّهم قالوا ما علِم حُسنه بالعقل فعلناه و ما علم قبحه تركناه، أو أنّهم إعتقدوا أنّه لابدّ من الرّسول إلاّ أنّه من جنس الملائكة أولى منه من جنس البشر و على فرض أن يكون من جنس البشر فلِم لا يكون من الأغنياء و الأشراف و الكلّ محتمل و المراد بالذّكر.

قيل هو حضور المعنىٰ للنّفس و هو علىٰ وجهين:

ذكر البيان و ذكر البرهان فذكر البيان إحضار المعنى للنّفس و ذكر البرهان الشّهادة بالمعنى في النّفس وكلا الوجهين يحتمل في الآية هكذا قيل.

أقول الظّاهر أنّ المراد بالذّكر في الآية هو التّوحيد و النبوّة و المعاد وأن شئت قلت هو شريعة نوح التّي جاء بها من عند اللّه كما قال أبلّغكم رسالات ربّي فكأنّه قال لا تعجبوا ياقوم أن جاءكم دين من ربّكم لتهتدوا به على رجل منكم يعني على رجلٍ من جنس البشر أو من طائفتكم و قبيلتكم و ذلك لأنّ فيه مصلحة عظيمة و حيث أنّ في المقام مظّنته سؤالٍ و هو أنّه ما الفائدة في هذا الإرسال فيقال له فوائد:

أحدها: الإنذار و التّخويف من عذاب اللّه يوم القيامة والى هذا المعنى أشير بقوله: **لِيُنْذِرَكُمْ**.

ثانيها: الإرشاد الى التّقوىٰ التّي هي رأس كلّ فضيلةٍ و اليه أشير بقوله: **وَ لِتَتَّقُوا**.

ثالثها: شمول رحمة اللّه لهم في الدّنيا و الأخرة كما قال: **وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** أي لكي ترحمون و فيه إشارة الىٰ أنّ رحمة اللّه لا تشمل مَن لا يخاف و من لا تناله التّقوىٰ أنّ رحمة اللّه قريب من المحسنين، و المحسن هو الخائف المتّقي لا غير و فى الكلام دلالة علىٰ أنّ اللّه أراد منهم الإيمان و التّقوىٰ خلافاً للمجبّرة حيث قالوا بأنّ اللّه لم يرد منهم الإيمان.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ

أي أنّ قوم نوح لم يقبلوا منه النُّصح فتمرّدوا و عصوه فصارت عاقبة أمرهم الى الهلاك في الدّنيا و العذاب في الأخرة تكون عاقبة المكذّبين و أمّا نوح و من كان معه و صدَّقه فأنجيناهم من العذاب و في هذه الآية أشار اللّه تعالىٰ الى الطُّوفان و لنذكر كيفيّته إجمالاً:

فنقول روي في البحار بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال، بقي نُوح في قومه ثلاث مائة سنة يدعوهم الى اللّه فلم يجيبوه فهمّ أن يدعوا عليهم فوافاه عند طلوع الشّمس أثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة سماء الدّنيا و هم العظماء من الملائكة فقال لهم نوح من أنتم فقالوا نحن أثني عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السّماء الدّنيا و أنّ مسيرة غلظ سماء الدّنيا خمس مائة عام و من سماء الدّنيا الىٰ الدّنيا مسيرة خمس مائة عامٍ و خرجنا عند طلوع الشّمس و وافيناك في هذا الوقت و نسألك أن لا تدعو علىٰ قومك.

قال نوح أجلّتهم ثلاث مائة سنة فلمّا أتىٰ عليهم ست مائة سنة و لم يؤمنوا همَّ أن يدعوا عليهم فوافاه أثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السّماء الثّانية فقال نوح من أنتُم قالوا نحن أثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السّماء الثّانية و غلظ سماء الثّانية مسيرة خمس مائة عامٍ و من سماء الثّانية الىٰ سماء الدّنيا مسيرة خمس مائة عامٍ و غلظ سماء الدّنيا مسيرة خمس مائة عامٍ و من سماء الدّنيا الىٰ الدّنيا مسيرة خمس مائة عامٍ خَرجنا عند طلوع الشّمس و وافيناك ضحوه نسألك أن لا تدعو علىٰ قومك فقال نُوح قد أجلّتهم ثلاث مائة سنة فلّما أتى عليهم تسع مائة سنة و لم يؤمنوا همَّ أن يدعو عليهم فأنزل اللّه عزّوجلّ أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد أمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون فقال نُوح ربّ لا تذر علىٰ الأرض من الكافرين دياراً، أنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك و لا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً، فأمره اللّه عزّ وجلّ أن يغرس النَّخل فأقبل يغرس النّخل فكان قومه يمّرون به فيسخرون منه و يستهزؤن به و يقولون شيخ قد أتى له تسع مائة يغرس النّخل وكانوا يرمونه بالحجارة فلما أتى لذلك خمسون سنة و بلغ النّخل و إستحكم أمر بقطعه فسخروا منه و قالوا بلغ النّخل مبلغه قطعه أنّ هذا الشّيخ قد خرف و بلغ منه الكبر و هو قوله تعالىٰ وكلّما مرَّ عليه ملاء من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون فأمره اللّه أن يتَّخذ السّفينة و أمر جبرئيل أن ينزل عليه و يعلّمه

كيف يتَّخذها فقدَّر طولها في الأرض ألف و مائتي ذراع و عرضها ثمان مائة ذراع و طولها في السّماء ثمانون ذراعاً فقال ياربّ من يعينني علىٰ إتّخاذها فأوحىٰ اللّه اليه نادِ في قومك من أعانني عليها و نجر منها شيئاً صارماً ينجره ذهباً و فضّةٍ فنادى نوح فيهم بذلك فأعانوه عليه وكانوا يسخرون منه و يقولون يتَّخذ سفينة في البَرّ.

قال أبو عبد اللّه عليه السلام لمّا أراد اللّه عزّ وجلّ هلاك قوم نُوح عقم أرحام النسّاء أربعين سنة فلم يلد فيهم مولود فلمّا فرغ نوح مِن إتّخاذ السّفينة أمره اللّه أن ينادي بالسّريانية لا يبقىٰ بهيمة و لا حيوان إلاّ حضر فأدخل من كلّ جنسٍ من أجناس الحيوان زوجين في السّفينة و كان الّذين أمنُوا معه من جميع الدّنيا ثمانين رجلاً و كان بحر السّفينة في مسجد الكوفة فلمّا كان في اليوم الذّي أراد اللّه هلاكهم كانت إمرأة نوح تخبز في الموضع الذّي يعرف بفار التّنور في مسجد الكوفة و كان نُوح إتَّخذ من كلّ ضربٍ من أجناس الحيوان موضعاً في السّفينة و جمع لهم فيها ما يحتاجون اليه من الغذاء و صامت إمرأته لمّا فار التَّنور فوضع عليها طيناً و ختمه حتّى أدخل جميع الحيوان السّفينة ثمّ جاء الىٰ التَّنور ففَّص الخاتم و رفع الطّين وإنكسفت الشّمس و جاء من السّماء ماء منهمرٍ علىٰ أمرٍ قد قدر، وحَملناه على ذات ألواحٍ ودسر

و ساق الحديث الىٰ أن قال فَدارت السّفينة وضَربتها الأمواج حتّىٰ و افت مكّة و طافت بالبيت و غرق جميع الدّنيا إلاّ موضع البيت و أنّما سمّي البيت العتيق لأنّه أعتق من الغرق فبقى الماء ينصّب من السّماء أربعين صباحاً الأرض العيون حتّىٰ إرتفعت السّفينة فسحة السّماء فرفع نوح يده ثمّ قال يارحمان أتقن، و تفسيرها ربّ أحسن فأمر اللّه الأرض أن تبلع ماءها و هو

قوله: **وَ قِيلَ يٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي**[1] أي أمسكي وغيض الماء و قضي الأمر وإستوت علىٰ الجوديّ فبلعت الأرض ماءها و إستَوت السّفينة على جبل الجوّدي بالموصل جبل عظيم الحديث.

و أمّا قوله: **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ** العمي الضّلال عن طريق الهدىٰ فَهُم كالعمي في أنّهم لا يبصرون طريق الرّشد فهم عمي عن الحقّ و سيأتي الكلام في قصّة نوح في خلال الأيات بوجهٍ أبسط فأنّ الأيات الواردة في الباب كثيرة جدّاً و فيها عبرة و موعظة للمتّقين والحمد للّه ربّ العالمين.

■

١- هود = ٤٤

وَ إِلىٰ عادٍ أَخاهُمْ هُودًا قالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ
ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنّا لَنَرٰيكَ فِي سَفاهَةٍ وَ
إِنّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ
بِي سَفاهَةٌ وَ لٰكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ
﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسالاٰتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ ٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ
بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاٰءَ ٱللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ ٱللّٰهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ
آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصّادِقِينَ
﴿٧٠﴾ قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ
غَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ
وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ ٱللّٰهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا
إِنّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْناهُ وَ
ٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَ قَطَعْنا دابِرَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

◁ اللّغة

ٱلْمَلَأُ بفتح الميم جماعة من النّاس و قيل أشرافهم وأعيانهم و قد مرّ الكلام فيه.

سَفٰاهَةٍ مصدر قولك سفه سَفهاً وسفاهةً وسفاهاً. قال الرّاغب السَّفه خفّة في البدن و أستعمل في خفّة النّفس لنقصان العقل و فى الامور الدّنيوية و الأخرّوية فقيل سفه نفسه.

خُلَفٰآءَ جمع خليفة.

بَسْطَةً، البَسط السّعة يقال بسط الشّئ نشره.

رِجْسٌ، الرّجس الشّئ القذر يقال رجل رجس و رجال أرجاس.

دٰابِرَ قال الرّاغب و الدّابر يقال للمتأخّر و للتّابع إمّا بإعتبار المكان أو بإعتبار الزّمان أو بإعتبار المرتبة.

◁ الإعراب

هُودًا بَدل من، أخاهم، منصوب بفعل محذوف أي و أرسلنا الىٰ عاد و كذلك أوائل القصص الّتي بعدها نٰاصِحٌ أَمِينٌ هو فعيل بمعنى مفعول فِى ٱلْخَلْقِ يجوز أن يكون حالاً من بَسْطَةً و أن يكون متعلّقاً بزادكم آلاٰءَ جمع واحدها ثلاث لغات:

إِلىٰ بكسر الهَمزة و ألف واحد بعد اللاّم، و بفتح الهَمزة كذلك وبكسر الهمزة و سكون اللاّم و ياء بعدها وَحْدَهُ هو مصدر محذوف الزّوائد و فى موضعه وجهان:

أحدهما: هو مصدر في موضع الحال من اللّه أي لنعبد اللّه مفرداً موحداً، و قيل هو حال من الفاعلين أي موّحدين له.

الثّانى: أنّه ظرف أي لنعبد اللّه علىٰ حياله.

مِنْ رَبِّكُمْ يجوز أن يكون حالاً من رجس و أن يتعلّق، بوقع فِىٓ أَسْمٰآءٍ أي ذوي أسماء أو مسمّيات مٰا نَزَّلَ ٱللّٰهُ ما نافية.

◁ التّفسير

إعلم أنّ هذا هو القصّة الثّانية و هى قصّة هود عليه السلام مع قومه فقوله: وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُودًا الواو للعطف أي و أرسَلنا الىٰ قوم عاد أخاهم و التّقدير لقد

أرسلنا نوحاً الى قومه و أرسلنا الى عاد أخاهم هوداً.

قيل أنّ التّطاول بينهما لا يضرّ لأنّ تفصيل القصص يقتضي ذلك ثمّ أنّهم إتّفقوا علىٰ أنّ هوداً ماكان أخاً لهم في النّسب و لا في الدّين بل كان واحداً من تلك القبيلة.

و قيل معناه أنّه كان من بني أدم و من جنسهم لا من جنس الملائكة القدر يكفي في تسمية هذه الأخوة و عليه فالمعنىٰ أنّا بعثنا الى عاد واحداً من جنسهم و هو البشر ليكون الفهم و الأنس بكلامه أكمل و ما بعثنا اليهم من غير جنسهم مثل ملك أو جنّي و أمّا نسب هود فقيل هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح.

و أمّا عاد فقالوا أنّهم كانوا باليمن بالأحقاف، و الأحقاف الرّمل الذّي بين عمّان الىٰ حضرمُوت.

قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ

أي قال هو لقومه أعبدوا اللّه الّذي ليس إلاّ هو أفلا تتّقون منه و أنّما قال ذلك لأنّ حقيقة العبادة لا يستحقّها غيره تعالىٰ فاذا كان الإلٰه في الوجود منحصراً به فلا محالة لا يعبد غيره.

و أمّا قوله: **أَفَلاَ تَتَّقُونَ** فهو وأن كان بصورة الإستفهام إلاّ أنّ معناه، فهلاّ تتّقون لأنّ المراد حضّهم علىٰ تقوىٰ اللّه وإتّقاء معاصيه لا الإستفهام واقعاً.

قَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرٰيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ

قد مرَّ الكلام في معنى المَلاء في الآية السّالفة[1] أنّ المراد به الجماعة و قيل الأشراف و الأعيان من النّاس وكيف كان قالوا في جواب هود ما قالوا في جواب نوح و الفرق أنّ قوم نوح قالوا في جواب نوح أنّا لنراك في ضلالٍ مبين.

١- ٥٩

و في المقام قالوا أنّا لنراك في سفاهةٍ و المأل واحد و اللّفظ مختلف لأنّ الضّال يكون سفيهاً و بالعكس غالباً، و فرق أخر بين المقامين و هو أنّ الملاء من قوم نوح لم يكونوا متّصفين بالكفر و أمّا في قوم هود فكانوا متّصفين به، ألا ترىٰ أنّه قال هناك قال الملاء من قومه و في المقام قال: **قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِۦٓ** مع أنّ ظاهر الأمر يقتضي كفر الجميع و أنّي بعد الفحص في كلمات المفسّرين لم أجد وجهاً لذلك والّذي يختلج بالبال هو أنّ قوم نوح كانوا كافرين لأنّهم لم يؤمنوا به أصلاً و أمّا قوم هود الّذين قالوا ما قالوا، أمنوا به ثمّ كفروا بَعد إيمانهم و ذلك لأنّ ظاهر قوله: **قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** يقتضي ما ذكرناه و العلم عند اللّه.

ثمّ أنّ قوم نوح نسبوه الىٰ الضّلالة و قوم هود نسبوه الىٰ السّفاهة.

قال بعض المفسرّين في الفرق بين الصُّورتين أنّ نوحاً كان يخوِّف الكفّار بالطّوفان العام وكان أيضاً مشتغلاً بإعداد السّفينة فعند هذا قال قومه أنّا لنراك في ضلالٍ مبين و لم يظهر شيئ من العلامات الّتي تدّل علىٰ ظهور الماء في تلك المفازة و أمّا هود عليه السلام فما ذكر شيئاً إلاّ أنّه زيّف عبادة الأوثان ونسب من إشتغل بعبادتها الىٰ السّفاهة و قلّة العقل فلمّا ذكر هود هذا الكلام في أسلافهم قابلوه بمثله ونسبوه الىٰ السّفاهة ثمّ قالوا: **إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ** في إدّعاء الرّسالة إنتهىٰ.

أقول ما ذكره في الفرق لا يرجع الى محصّل و ذلك لأنّ الجامع في الصّورتين هو إنكارهم الرّسالة و أمّا المقابلة بالمثل و أمثال ذلك من الإحتمالات و الإستخراجات الظّنية فلا دليل عليه و الحقّ أن يقال أنّ الضّلالة هي الإنحراف من الحقّ الىٰ الباطل و السّفاهة هي الخِّفة في العقل، و حيث أنّ قوم نوح كانوا معتقدين بضلالة نوح و أنه أنحرف عن الحقّ فقالوا: إنّا لنراك في ضلالة، و أمّا قوم هود كانوا معتقدين بسفاهة هود و أنّه خفيف العقل فقالوا إنّا لنراك في سفاهة هذا هو الّذي يقتضيه ظاهر الكلام و أمّا قولهم: **إِنَّا لَنَظُنُّكَ**

مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ فقالوا أنّ تكذيبهم إيّاه كان علىٰ الظنّ دون اليقين، و قال بعضهم أنّهم أرادوا بالظنّ العلم و المعنىٰ إنّا لنعلم أنّك من الكاذبين، و الحقّ أنّ ظاهر الكلام يقتضي الأوّل لأنّ حصول العلم و اليقين في أمثال هذه الموارد بعيد جدّاً فأنّ الخبر بما هو هو يحتمل الصّدق و الكذب فمن أين حصل لهم العلم و اليقين بكذبه و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَ لٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

أي قال هود في جواب قومه يا قوم ليس بي سفاهة كما تزعمون و لكّني رسول من ربّ العالمين) و من المعلوم أنّ الرّسول من أعقل النّاس فمن كان رسولاً لا يكون سفيهاً و من كان سفيهاً لا يكون رسولاً هذا أوّلاً.

ثانياً: مقتضى الرّسالة أنّ الرّسول لا يقول إلاّ من اللّه تعالىٰ فقولي لكم أعبدوا اللّه، أن كان دليلاً على السّفاهة فلم تقولون أنّي سفيه بل قولكم هذا يرجع الىٰ سفاهة اللّه لأنّه أمرني أن أقول لكم ما أقول و نسبة السّفاهة الى اللّه تعالى كفر و زندقة و محصّل الكلام هو أنّ الرّسول لا يدعو من عند نفسه بل يدعو الى اللّه بأمرٍ منه لقوله تعالىٰ: **وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**(١).

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ

هذا الكلام بمنزلة التّفسّير لقوله: **وَ لٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ** أي لمّا ثَبت رسالتي من عند اللّه فلا محالة أبلّغكم رسالاته و فى قوله: **نَاصِحٌ أَمِينٌ** إشارة الىٰ أمرين:

أحدهما: أنّ النّبي لا يكون إلاّ ناصحاً لأمّته لأنّه الواسطة بين الخالق و المخلوق فهو مبلّغ عن اللّه ما أمره اللّه به و كلّما أمر اللّه به فهو نافع للأمّة في

١- النجم = ٣ و ٤

الدّنيا و الأخرة و لا نعني بالنّصيحة إلاّ هذا فالنّبي ناصحٌ للأمّة و هو المطلوب.

ثانيها: أنّ النّبي أمينٌ و مقضتى الأمانة هو تأدّية الحكم الىٰ الخلق بلا زيادةٍ و لا نقصان.

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ

قد مرّ مثل هذا الكلام في قصّة نوح و قلنا هناك أنّ المراد بالذّكر، الدّعوة الىٰ الحقّ، و المعنىٰ أو عجبتم أن يدعوكم الى ربّكم رجل منكم، أي من قبيلتكم أو من جنس البشر لينذركم من عذاب اللّه و سخطه.

وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوٓا الَآءَ ٱللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

خلفاء بضّم الخاء و فتح اللاّم جمع خليفة و هو الكائن بدل غيره ليقوم بالأمر مقامه في تدبيره و خلفاء جمعه علىٰ التّذكير مثل ظريف و ظرفاء ولو جمعه علىٰ اللّفظ لقال خلائف نحو كريمة و كرائم و ورد ذلك في القرأن قال تعالىٰ **هُوَ ٱلَّذي جَعَلَكُمْ خَلَآئِفَ** [١].

و المقصود أنّ قوم هود كانوا بقايا قوم نوح قد مَنَّ اللّه عليهم ببقاءهم حين أهلكهم اللّه بالغرق ثمّ مكنّهم في الأرض و زادهم في الخَلق بسطة أي قوّة و شوكة.

و قيل المراد بالبسط بسط اليدين اذا فتحت على أبعد أقطارها و لذلك قال: **فَاذْكُرُوٓا الَآءَ ٱللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** و الحاصل أنّ شكر المنعم و اجب عقلاً و حيث أنّ اللّه تعالىٰ قد أنعم عليكم بالبقاء بعد قوم نوح و جعلكم خلفاء من بعدهم و زادكم في الخلق بسطة فيجب عليكم الشّكر و هو يحصل بالإنقياد و الطّاعة فلا تكونوا من الغافلين لأنّ الغفلة توجب سلب النّعمة و حكم الأمثال و

١- فاطر = ٣٩

احد فكما أنّ العصيان و التَّمرد في قوم نوح أفناهم عن صفحة الأرض فكذلك أنتم و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ

قالوا أي قال القوم لنبيّهم هُود، أجئتنا لنعبد اللّه وحده و نذر أي نترك ما كان يعبد أباءنا من الأصنام و الأوثان، فأتنا بما تعدنا، من العذاب أن كنت من الصّادقين و أنّما قالوا ذلك لأنّ هوداً عليه السلام دعاهم الىٰ التّوحيد و ترك عبادة الأصنام بالدّليل القاطع و هو أنّ الأصنام جمادات و الجماد لا قدرة له علىٰ شئٍ قطعاً و ظاهر أنّ العبادة نهاية التّعظيم و هي لا تليق إلاّ لمن يصدر عنه نهاية الأنعام و لذلك كان يجب عليهم أن يعبدوا اللّه و يتركوا عبادة الأصنام.

و حيث لم يكن للقوم دليل على بطلان قول هود وصحّة ما إعتقدوه من عبادة الأصنام قالُوا أجئتنا لنعبد اللّه وحده الخ و هذا الّذي قالوه في جواب هود عاطل باطل لا يعتمد عليه في مقام الإستدلال بل يدّل على أنّهم كانوا مقلّدين لأباءهم ولم يعلموا أنّ التّقليد في الإعتقادات باطل و يظهر من ظاهر الكلام أنّهم أي قوم هود لم ينكروا عبادة اللّه بالكلّية و انّما أنكروا توحيده في العبادة.

و أمّا قوله: **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ** فالمشهور بينهم أنّ المراد ما تعدنا، من العذاب و لقائلٍ أن يقول أن كان المراد بالعذاب الموعود المذكور في هذه الآية هو قوله: **قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ** كما هو ظاهر المفسّرين فهو ما كان حاصلاً في ذلك الوقت وأن كان المراد به غيره فما هو.

قال بعضهم معناه أنّه تعالىٰ أحدث إرادة في ذلك الوقت بوقوع العذاب لأنّ بعد كفرهم و تكذيبهم حدثت هذه الإرادة.

و قال بعضهم و المعنىٰ إرادة إيقاع العذاب عليكم حصلت من الأزل الىٰ الأبد لو لم تؤمنوا به و أمثال ذلك من الأقوال و الإحتمالات كثيرة.

والحقّ أن يقال أنّ العذاب المذكور في قولهم يستفاد من قوله عليه‌السلام و أذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح الخ حيث أنّ في هذا الكلام إشعار بالعذاب تلويحاً و أن لم يذكر تصريحاً لأنّ قوم نوح وقعوا فيما وقعوا من العذاب بسبب العصيان و عدم إطاعتهم عن نبيّهم وحكم الأمثال واحد و اذا كان كذلك فكأنّ هوداً عليه‌السلام أوعدهم و حوفهم و هددهم بهذا الكلام فقالوا في جوابه: **فَأْتِنا بِما تَعِدُنآ**.

و هذا الّذي ذكرناه وأن لم يكن مصرّحاً به في كلامه عليه‌السلام إلاّ أنّه ليس ببعيدٍ.

قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ

أي قال هُود عليه‌السلام لقومه قد وقع عليكم بسبب إنكاركم و عصيانكم من ربّكم رجسٌ و غضبٌ و الغضب معنىٰ يدعو الىٰ الإنتقام و نقيضه الرّضا و هو معنى يدعو الىٰ الإنعام.

و قيل الغضب هو إرادة العقاب بمستحقّيه و مثله السَّخط و محصّل الكلام هو أنّكم صرتم مستحقّين لغضب اللّه و سخطه **أَتُجادِلُونَني فيٓ أَسْمآءٍ سَمَّيْتُمُوهآ أَنْتُمْ وَ آباۤؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ** الإستفهام للإنكار و المعنىٰ لا تجادلونني اذ لا حجّة لكم في هذه المجادلة الّتي تنحصر بأسماء سميتموها أنتم و أباءكم و هذه الأسماء أي أسماء الأصنام و الأوثان لا مسمّىٰ لها واقعاً لأنّ مسمّاها جماد و هو لا يكون معبوداً قطعاً.

و أنّما قال لهم ذلك لأنّهم أنكروا التّوحيد كما مرَّ و جعلوا الأصنام شركاء للّه تعالىٰ أو أنكروا المعبود الحقيقي رأساً و إعتقدوا بألوهيّة الأصنام و كيف كان لا ينبغي للعاقل أن يتشبّث بهذه الموهومات في باب الإعتقادات والدّيانات.

و قوله: **مٰا نَزَّلَ ٱللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ** معناه من برهانٍ أي ما أنزل اللّٰه بها من برهانٍ و لا نصب عليها حجّة و توضيح ذلك هو أنّ البّينة علىٰ المدّعي و حيث أنّكم تدّعون في هذه الأسماء ما تدّعون و لا تقدرون علىٰ إقامة الحجّة علىٰ مدّعاكم فدعواكم باطلة من رأسها.

و أمّا أنا فأتيكم بسلطانٍ مبينٍ أنّ اللّٰه تعالىٰ هو المعبود وحده دون من سواه و أنّي رسوله و من المعلوم أنّ المجادلة بين من لا يجد دليلاً علىٰ مدّعاه يجد دليلاً عليه لا معنىٰ لها و لأجل هذا قال: **أَتُجٰادِلُونَنِي** الخ علىٰ سبيل الإنكار إشعاراً بأنّ هذا خارج عن قانون الجدال.

فَانْتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ أي اذا خرجتم عن قانون الصّواب و ركبتم مركب العناد و اللّجاج و أنكرتم الحقّ فإنتظروا عذاب الّله فأنّه نازل بكم قطعاً فأنّي معكم من المنتظرين.

فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ قَطَعْنٰا دٰابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا وَ مٰا كٰانُوا مُؤْمِنِينَ

أي فأنجينا هوداً والذّين معه ممّن أمنوا به برحمةٍ منّا، و قطعنا دابر الّذين كذّبوا قيل معناه قطعنا أصلهم و قيل إستأصلناهم عن أخرهم.

و الدّابر الكائن خلف الشّئ و نقيضه القابل فيكون القابل الأخذ للشّي من قبل وجهه و فى قوله: **كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا وَ مٰا كٰانُوا مُـؤْمِنِينَ** إشارة الىٰ علّة إستأصالهم و هلاكهم و هى تكذيبهم الأيات و عدم الإيمان بها و هكذا تكون عاقبة المجرمين فإعتبروا يا أولي الأبصار من عاقبة الظّالمين الكافرين.

و لنذكر قصّة قوم عاد و نزول العذاب عليهم على سبيل الإختصار روى في البحار عن الصّدوق بأسناده عن وهب أنّه قال كان من أمر عاد أنّ كلّ رَملٍ علىٰ ظهر الأرض وضعه اللّٰه لشئٍ من البلاد كان مساكن في بلادها و قد كان الرّمل قبل ذلك في البلاد و لكن لَمّ يكن كثيراً حتّىٰ زمان عاد و أنّ ذلك الرّمل كانت

قصوراً مشيدّة و حصوناً و مدائن و مصانع و منازل و بساتين وكانت بلاد عاد أخصب بلاد العرب و أكثرها أنهاراً فلمّا غضب اللّه عليهم و عتوا علىٰ اللّه تعالىٰ وكانوا أصحاب الأوثان يعبدونها من دون اللّه فأرسل اللّه عليهم الرّيح العقيم و أنّما سميّت العقيم لأنّها تلقحت بالعذاب و عقمت عن الرّحمة و طحنت تلك القصور و الحصون و المدائن و المصانع حتّى عاد ذلك كلّه رملاً رقيقاً تسفيه الرّيح وكانت تلك الرّيح ترفع الرّجال و النّساء فتهب بهم صعداً ثمّ ترمى بهم من الجوّ فيقعون علىٰ رؤوسهم منكّسين وكانت عاد ثلاثة عشر قبيلة وكان هود في حسب عاد و ثروتها وكان أشبه ولد آدم بآدم صلوات اللّه عليها وكان رجلاً أدم كثير الشّعر حسن الوجه ولم يكن أحد من النّاس أشبه بآدم منه إلاّ ماكان من يوسف بن يعقوب فلبث هود فيهم زماناً طويلاً يدعوهم الىٰ اللّه و ينهاهم عن الشّرك باللّه تعالىٰ وظلم النّاس و يخوّفهم بالعذاب فلجّوا وكانوا يسكنون أحقاف الرّمال و أنّه لم يكن أمّة أكثر من عاد و لا أشدّ منهم بطشاً فلمّا رأوا الرّيح قد أقبلت اليهم قالوا لهود أتخوّفنا بالرّيح فجمعوا ذراريهم و أموالهم في شعب من تلك الشّعاب ثمّ قاموا على باب ذلك الشّعب يردّون الرّيح عن أموالهم و أهاليهم فدخلت الرّيح من تحت أرجلهم بينهم و بين الأرض حتّى قلعتهم فهبّت بهم صعداً ثمّ رمت بهم من الجوّ ثمّ رمت بهم الرّيح في البحر و سلّط اللّه عليهم الذّر فدخلت في مسامعهم و جاءهم من الذّر ما لا يطاق قبل أن يأخذهم الرّيح و سيَّرهم من بلادهم و مال بينهم و بين موادهم حتّى أتاهم اللّه فقد كان سخّر لهم من قطع الجبال و الصُّخور و العمد و القوّة على ذلك و العمل به شيئاً لم يسخّره لأحدٍ كان من قبلهم و لا بعدهم و أنّما سمّيت ذات العماد من أجل أنّهم يسلخون العمد من الجبال فيجعلون طول العمد مثل طول الجبل الّذي يسلخونه منه من أسفله الى أعلاه ثمّ ينقلون تلك العمد فينصبونها ثمّ يبنون فوقهم القصور و قد كانوا ينصبون تلك العمد إعلاماً في الأرض علىٰ قوارع الطّريق وكان كثرتهم بالدّهناء (بالمُهّنا خ) و بيرين و عالج

الیٰ الیمن الیٰ حضرموت و سأل وهب عن هود أكان أبا الیمن الّذي ولدهم فقال لا و لكنّه أخو الیمن الّذي في التّوارية تنسب الیٰ نوح فلمّا كانت العصَّبية بين العرب و فخرت مضّر بأبيها إسماعيل أدّعت اليمن هوداً أباً ليكون لهم أباً و والداً من الأنبياء وليس بأبيهم ولكنّه أخوهم ولحق هود و من آمن معه بمكّة فلم يزالوا بها حتّیٰ ماتوا و كذلك فعل صالح بعده و قد سلك فجّ الرّوحاء سبعون ألف بنّى حجاجاً عليهم ثياب الصُّوف محظمين إبلهم بجبال الصُّوف يلبّون اللّه بتلبية شتّیٰ منهم هود وصالح و إبراهيم و موسیٰ و شعيب و يُونس صلوات اللّه عليهم وكان هود رجلاً تاجراً انتهیٰ [١].

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال عليه‌السلام: لمّا بعث اللّه تعالیٰ هوداً أسلَمَ له العقب من ولد سام و أمّا الأخرون فقالوا من أشدّ منّا قوّة فأهلكوا بالرّيح العقيم و أوصاهم هود وبشّرهم بصالح انتهیٰ.

و بأسناده عنه عليه‌السلام قال: كانت أعمار قوم هود أربع مِائة سَنة و كانوا يُعذَّبون بالقحط ثلاثين سنة فَلم يرجعوا عمّا رأوا ذلك بعثوا وفداً لهم الیٰ جبال مكّة و كانوا لا يعرفون موضع الكعبة فمضوا و إستسقوا فرفعت لهم ثلاث سحابات فقالوا هذه حفاً يعني الّتي ليس فيها ماء و سمّوا الثّانية فاجياً وإختاروا الثّالثة الّتي فيها العذاب قال و الرّيح عصفت عليهم و كان رئيسهم يقال له الخلجان فقال يا هود ما تریٰ الرّيح إذا قبلت أقبل معها خلق كأمثال الأباعر معها أعمدة هم الّذين يفعلون بنا الأفاعيل فقال أولئك الملائكة فقال أترى ربّك أن نحن آمنّا به يديلنا منهم فقال لهم هود أنّ اللّه تعالیٰ لا يديل أهل المعاصي من أهل الطّاعة فقال له الخلجان و كيف لي بالرّجال الّذين هلكوا فقال له هود يبدلك بهم من هو خير لك منهم فقال لا خير في الحياة بعدهم فأختار اللّحاق بقومه فأهلَكَه اللّه.

١- بحار الأنوار ط كباني ج ٥ص ٩٩

و بالأسناد عن الصّدوق بسنده عن وهب، قال لمّا تمَّ لهود أربعون سنة أوحى اللّه اليه أن أئت قومك فأدعهم الىٰ عبادتي و توحيدي فأن أجابوك زدتهم قوّة و أموالاً فبينا هم مجتمعون إذ أتاهم هود فقال **يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ** فقالوا يا هود لقد كنت عندنا ثقة أميناً، قال فأنّي رسول اللّه اليكم دعوا عبادة الأصنام فلمّا سمعوا ذلك منه بطشوا به و خنقوه و تركوه كالمّيت فبقى يومه و ليلته مغشّياً عليه فلمّا أفاق قال يا ربّ أنّي قد عملت ترى ما فعل بي قومي فجاء جبرائيل و قال يا هود أنّ اللّه يأمرك أن لا تفتر عن دعاءهم و قد وعدك أن يلقى في قلوبهم الرُّعب فلا يقدرون علىٰ ضربك بعدها فأتاهم هود فقال لهم قد تجبَّرتم في الأرض و أكثرتم الفساد فقالوا يا هود أترك هذا القول فإنّا أن بطشنا بك الثّانية نسيت الأولىٰ فقال دعوا هذا و أرجعوا الى اللّه و توبوا اليه فلمّا رأى القوم ما لبسهم من الرّعب علموا أنّهم لا يقدرون على ضربه الثّانية فأجتمعوا بقوّتهم فصاح بهم هود صيحة فسقطوا لوجوههم.

ثمّ قال هود يا قوم قد تماديتم في الكفر تمادى قوم نوح و خليق أن أدعوا عليكم كما دعى نوح على قومه فقالوا يا هود أنّ آلهة قوم نوح كانوا ضعفاء وأنّ آلِهتنا أقوياء و قد رأيت شدّة أجسامنا و كان طول الرّجل منهم مائة و عشرين ذراعاً بذراعهم و عرضه ستّون ذراعاً و كان أحدهم يضرب الجبل الصّغير فيقطعه فمكث على هذا يدعوهم سبع مائة و ستين سنة فلمّا أراد اللّه هلاكهم حقّف الأحقاف حتّى صارت أعظم من الجبال فقال لهم هود ألا ترون هذه الرّمال كيف تحقّقت أنّي أخاف أن تكون مأمورة فأغتّم هود عليه‌السلام لمّا رأىٰ من تكذيبهم و نادته الأحقاف قرّ يا هود دعينا فأنّ لعاد منّا يوم سوء فلمّا سمع هود ذلك قال يا قوم إتّقوا اللّه و أعبدوه فأن لم تؤمنوا صارت هذه الأحقاف عليكم عذاباً و نقمة فلمّا سمعوا ذلك أقبلوا علىٰ نقل الأحقاف فلا تزيد إلاّ

كثرة فرجعوا صاغرين فقال هود يا ربّ قد بلّغت رسالاتك فلم يزدادوا إلاّ كفراً فأوحىٰ اللّه اليه يا هود أنّي أمسك عنهم المطر فقال هود يا قوم قد وعدني ربّي أن يهلككم و مرّ صوته في الجبال و سمع الوحش صوته و السّباع و الطّير فأجتمع كلّ جنسٍ منها يبكي و يقول يا هود أتهلكنا مع الهالكين فدعى هود ربّه في أمرها فأوحى اللّه اليه أنّي لا أهلك من لم يعص بذنب من عصاني تعالىٰ اللّه علوّاً كبيراً انتهىٰ[1].

أقول إختلفوا في موضع قبر هود فقيل أنّه بغارٍ بحضرموت و روي المؤرخون عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ قبره على تلٍّ من رمل أحمر بحضرموت و قيل أنّه دفن في مكّة في الحِجر و قيل أنّه دفن قريباً من أمير المؤمنين عليه السلام و اللّه أعلم بحقائق الأمور مضافاً الىٰ أنّه لا يهمّنا البحث فيه و هو واضح.

■

١- بحار الأنوار ج ٥ ص ١٠٠

وَ إِلىٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحًا قٰالَ يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا
ٱللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جٰاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ هٰذِهِ نٰاقَةُ ٱللّٰهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهٰا تَأْكُلْ
فِيٓ أَرْضِ ٱللّٰهِ وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿۷۳﴾ وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفٰآءَ مِنْ
بَعْدِ عٰادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ
سُهُولِهٰا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ ٱلْجِبٰالَ بُيُوتًا
فَاذْكُرُوٓا آلاٰءَ ٱللّٰهِ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿۷۴﴾ قٰالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صٰالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قٰالُوٓا إِنّٰا بِمٰآ أُرْسِلَ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿۷۵﴾ قٰالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنّٰا بِالَّذِيٓ
آمَنْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ ﴿۷۶﴾ فَعَقَرُوا ٱلنّٰاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قٰالُوا يٰا صٰالِحُ ٱئْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰآ إِنْ
كُنْتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿۷۷﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ ﴿۷۸﴾ فَتَوَلّٰى عَنْهُمْ
وَ قٰالَ يٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسٰالَةَ رَبِّى وَ نَصَحْتُ
لَكُمْ وَ لٰكِنْ لاٰ تُحِبُّونَ ٱلنّٰاصِحِينَ ﴿۷۹﴾

◁ اللّغة

ثَمُودَ بفتح الثّاء إسم قبيلةٍ و قيل أنّه إسم لحي مذّكر، فعلىٰ الأول هو غير منصرف و علىٰ الثّاني منصرف.

نَاقَةُ ٱللَّهِ،النّاقة الأنثىٰ من الجمال والأصل فيها التّوطئة و التذلّيل من قولهم بعيرٌ منوَّق أي موطّئاً مذّلل.

ءَايَةً، الآية العلامة.

وَ لَا تَعْثَوْا أي لا تضطربوا.

فَعَقَرُوا، العقر الجرح الّذي يأتي علىٰ أصل النّفس.

عَتَوْا أي تجاوزوا.

ٱلرَّجْفَةُ بفتح الرّاء و سكون الجيم هي حركة القرار المزعجة لشدّة الزّعزّعة يقال رجف بهم السّقف رجوفاً إذا إضطرب من فوقهم و قيل هي الصَّيحة قاله المجاهد والسّدي.

◁ الإعراب

ءَايَةً حال من النّاقة مِنْ سُهُولِهَا يجوز أن يكون حالاً من، قصوراً، و أن يكون مفعولاً ثانياً لتتّخذون (و من) لإبتداء الغاية لِمَنْ ءَامَنَ هو بدل من قوله، للّذين إستضعفوا، بإعادة الجارّ.

◁ التّفسير

لمّا أهلك اللّه تعالىٰ قوم عاد بعد قوم نوح بسبب عصيانهم و طغيانهم و عبادتهم الأصنام علىٰ ما مَرَّ ذكره و بيانه شرع في قصّة قوم ثمود فقال: وَ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ذكرنا وجه التّعبير بالأخ في قصّة عاد و قلنا أنّ هوداً لم يكن أخاً لهم نسباً و أنّما كان من قبيلتهم ففي المقام أيضاً نقول أنّ صالحاً كان من قبيلة ثمود و الواو للعطف أي و أرسلنات الىٰ ثمود أخاهم صالحاً قيل في وجه تسميتهم أنّما سمّيت القبيلة ثموداً لقلّة ماءها من الثَّمْد و هو الماء القليل و قيل سمّيت ثموداً لأنّه إسم أبيهم الأكبر و هو ثمُود بن عاد بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام وكيف كان قالوا أنّ ثموداً كانت في سعة من العيش، فخالفوا أمر اللّه

و عبدوا غيره و أفسدوا في الأرض فبعث اللّه لهم صالحاً نبيّاً وكان من أفضلهم حسباً و هو صالح بن أصِف بن كاشج بن أروم بن ثمود بن جائر بن أرم بن سام بن نوح بعث اليهم و هو ابن ستّة عشر سنة وكان لقوم ثمود سبعون صنماً يعبدونها من دون اللّه فلمّا رأىٰ ذلك منهم قال لهم:

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

و هو اللّه الواحد الأحد الفرد الصَّمد الذّي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد فهو الذّي خلقكم و جعل لكم أسماعاً و أبصاراً و أفئدة لعلّكم تشكرون فما هذه التّماثيل التّي أنتُم لها عاكفون و سمّيتموها ألهة و تعبدونها فلم يجيبوه إلاّ بالإنكار و الطّغيان كما هو شأن المعاند في كلّ زمانٍ فإتّبعوا أباءهم و أسلافهم من قوم نوح و هود في الكفر و الإلحاد و لم يعتبروا ممّا وقع عليهم من أنواع العذاب المسّبب عن الكفر فوقعوا فيما وقعوا من الخسران و الوبال

قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

أي أية ظاهرة جلّية شاهدة علىٰ صدق مقالي و صحّة نبّوتي بحيث لا تقدرون علىٰ إنكارها و هى **هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً** أي أنّ البيّنة الّتي تشهد بصحّة نبوّتي عبارة عن هذه النّاقة الّتي هي لكم أية و علامة علىٰ صدق مقالي.

و لمّا أبهم في قوله قد جاءتكم بيّنة من ربّكم بيَّن، ما الأية، فكأنّه قيل له ما البيّنة على صدق مدّعاك فقال صالح في الجواب هذه ناقة اللّه و أضافها الىٰ اللّه تشريفاً و تخصيصاً كما يقال بيت اللّه و روح اللّه أو لأنّ اللّه تعالىٰ خلقها بغير واسطة ذكرٍ أو أنثىٰ و لأنّه لا مالك لها غير اللّه و أتأها حجّة علىٰ القوم ولما أودع اللّه فيها من الأيات و كيف كانت لاشكّ أنّها كانت من أيات اللّه و عجائب صُنعه.

فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ أي أتركوها بحالها و لا تَتَّعرضوا لهـاقوله تأكُل في أرض اللّه إشارة الىٰ أنّها تأكُل ممّا خَلَق اللّه تعالىٰ في أرضه فَليس في بقاءها مَشّقة عليكم.

وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

نَهاهم عن مَسَّها بشيٍ من الأذىٰ و هذا تنبيهٌ بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ اذاكان قد نَهاهم عن مَسَّها بسُوء إكَراماً لأية اللّه فنَهيه عن نَحرها وعَقرها ومَنعها عن الماء والكِلاء أوَلىٰ وأحَرىٰ و المَّس والأخذ هنا إستعارة و فى هذا وعيدٌ شديد لِمَن مَسَّها بسُوء، والعذاب الأليم هو ما حَلَّ بهم اذ عَقروها و ما أعَدَّ لهم في الأخرة أشدّ و أخزىٰ.

روىٰ فى البحار بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام أنه قال: قد كان بَعِث اللّـه صالحاً فدَعاهم الىٰ اللّه فَلم يَجيبُوه وعَتوا عليه فقالوا له أن كنتَ كما تَزعم نَبيّاً رسولاً فأدعُ اللّه يخرج لنا ناقة من هـذه الصَّـخرة وكـانت صـخرة يَـعظَمونها ويُذبّحُون عندها في رأس كلّ سنة ويجتمعون عندها فأخرَجها لهم كما طَلبوا منه و أوَحىٰ اللّه الىٰ صالح أن قُل لهُم أنّ اللّه جَعَل لهذه النّاقة شرب يوم ولكم شرب يوم فكانت النّاقة اذا شَربت يومها شربت الماء كلّه فيكون شرابهم ذلك اليوم من لَبنها فَيحلبُونها فلا يبقىٰ صغير و لا كبير إلاّ شَرب من لَبنها يومه ذلك فاذا كان اللّيل و أصبحوا غدوا الىٰ ماءهم فشربوا ذلك اليوم و لا تشرب النّاقة فمكثوا بذلك ما شاء اللّه حتّىٰ عتوا و دبَّروا في قتلها فبعثوا رجلاً أحمر أشقر لا يعرف له أبٌ ولد الزّنا يقال له قدار ليقتلها فلمّا توّجهت النّاقة الىٰ الماء ضَربها ضربة ثمّ ضربها أخرىٰ فقتلها و مرَّ فصيلها حتّىٰ صعد الى جبلٍ فلم يبق منهم صغير و لاكبير إلاّ أكل منها فقال لهم صالح أعصيتم ربّكم أنّ اللّه يقول أن تبتم قبلت توبتكم و إن لَم ترجعوا بعثت اليكم للعذا في اليوم الثّالث.

فقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا أن كنت من الصّادقين.

فقال لهم أنّكم تصبحون غداً وجوهكم مصفّرة و اليوم الثّاني محمّرة و اليوم الثّالث مسوّدة فإصّفرت وجوههم فقال بعضهم يا قوم قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاة لا نسمع ما يقول صالح ولو هلكنا وكذلك في اليوم الثّاني والثّالث فلمّا كان نصف اللّيل أتاهم جبرئيل فصرخ صرخةً خرقت أسماعهم و فلقت قلوبهم فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم ثمّ أرسل اللّه عليهم ناراً من السّماء فأحرقتهم انتهىٰ.

وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

ذكّر صالح قومه بما ذكّر به هود فذكر أوّلاً نعماً خاصّة و هى جعلهم خلفاء بعد الأمّة التّي سبقتهم و إسكانهم اللّه في الأرض فأنّ المباءة المنزل فيها.

تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا أي تبنون من سهول الأرض قصوراً و ذلك لأنّ القصور الّتي كانت أجزاءها متّخذة من لين الأرض كالجيار و الأجر و الجصّ **وَ تَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا** النّحاتة ما يسقط من المنحوت يقال نحت الخشب و الحجر و نحوهما من الأجسام الصّلبة و المقصود أنّ اللّه تعالىٰ أقدركم على إنحات الجبال **فَاذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** أي إذاكان اللّه تعالىٰ جعلكم خلفاء و أسكنكم أرضه و أقدركم علىٰ الإستفادة منها بأحسن الوجه فأذكروا آلاء اللّه و نعمائه و لا تعثوا أي تضطربوا في الأرض مفسدين، فأنّ الفساد و الإفساد من أشنع المعاصي و أقبح الكفران و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**(١).

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ

أي قال المستكبرون الكافرون للمستضعفين المؤمنين بصالح النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم **أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** أي

١- إبراهيم = ٧

قال المتكبّرون للمؤمنين المستضعفين أتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربّه أم لا تعلمون و غرضهم بذلك الإستعباد لأنّ صالحاً كان نبّياً مرسَلاً من عند اللّه فأجابوهم وقالوا انّا بما ارسل صالح به من عند ربّه مومنون معتقدون لا شكّ فيه.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ

اى قال الّذين استكبروا عن العبوديّة و اتبعوا الشيطان لهؤلاء الضعفاء المؤمنين نحن كافرون بما آمنتم به من التوحيد والنُّبوة والمعاد.

فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَ عَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ

في هذه الآية أخبار من اللّه تعالى عمّا فعل المستكبرون من قوم صالح و أنّهم عقروا النّاقة الّتي هي آية اللّه في الأرض ذكرنا تفصيله و فى قولهم: **يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** إشعار بأنّك أن لَم تأتنا بما تعدنا من العذاب فلست من المرسلين كما هو مفهوم الكلام و ذلك لأنّ النّبي لا يكون إلاّ صادقاً، نقل عن السّدي أنّه قال كانت النّاقة في اليوم الّذي تشرب فيه الماء تمُّر بين الجبلين فتعلوهما ثمّ تأتي فتشرب فتحلب ما يكفي الكّل و كأنّها كانت تصّب اللّبن صَبّاً و فى اليوم الّذي يشربون الماء فيه لا تَأتيهم معها فصيل لها فقال لهم صالح يولد في شهركم هذا غلام يكون هلاككم علىٰ يديه فذبح تسعة نفر منهم أبنائهم ثمّ ولد العاشر فأبىٰ أن يذبحه أبوه فنبت نباتاً سريعاً و لمّا كبر الغلام جلس مع قوم يصيبون من الشّراب فأرادوا ماء يمزجونه به وكان يوم شرب النّاقة فما وجدوا الماء و أشتدّ ذلك عليهم فقال الغلام هل لكم في أن أعقر هذه النّاقة فشدّ عليها فلّما بصرت به شدّت عليه فهرب منها الىٰ خلف صخرة فأحاشوا عليه فلّما مرّت به تناولها فعقرها فسقطت فذلك

قوله فنادوا صاحبهم فتعاطىٰ و عقر، و أظهروا كُفرهم و عتوا عن أمر ربّهم فقال لهم صالح أنّ آية العذاب أن تصبِحوا غداً حمراً الىٰ آخر القصة و قد مضىٰ الكلام فيها و الى هذا المعنىٰ أشير بقوله تعالىٰ: **فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ** أي فأخذتهم الإضطراب الشّديد فأصبحوا في دارهم جاثمين أي لزموا مكانهم فلم يبرحوا منه يقال جثم الطّائر و الأرنب يجثم جثوماً و هو كالبروك من البعير و كيف كان هو إستعارة للمُقيمين و ذلك لأنّهم لمّا علموا بالعذاب بعد مشاهدة آثاره تحنّطوا و تكفّنوا فماتوا في طرفة عين كبيرهم و صغيرهم فلم يبق اللّه منهم ثاغية و لا راغية و لا شيئاً يتنفّس إلاّ أهلكها فأصبحوا في ديارهم موتى ثمّ أرسل اللّه عليهم النّار مع الصّيحة من السّماء فأحرقتهم أجمعين، عن الثّعلبي في تفسيره بأسناده عن النّبي ﷺ قال يا علّي أتدري من أشقى الأوّلين قال قلت اللّه و رسوله أعلم قال ﷺ عاقر النّاقة ثمّ قال ﷺ أتدري من أشقىٰ الآخرين قال قلت اللّه و رسوله أعلم قال ﷺ قاتلك إنتهىٰ موضع الحاجة منه.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّى وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لٰكِنْ لا تُحِبُّونَ ٱلنّاصِحِينَ

أخبر اللّه تعالىٰ أنّ صالحاً تولّىٰ و أعرض عن قومه بعد ما عقروا النّاقة ولم يتوبوا عمّا فعلوا و قال لهم يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي و قلت لكم يا قوم إعبدوا اللّه و نصحت لكم و قلت هذه ناقة اللّه فذروها تأكل في أرض اللّه و لا تمسّوها بسوءٍ ثمّ قلت لكم بعد عقر النّاقة توبوا الى اللّه فلم تقبلوا فإنّي بعد ذلك قد علمتُ أنّكم لا تُحّبون النّاصحين) قال الرّازي.

فأن قيل ما الفائدة في تخصيص تلك النّاقة بأنّها ناقة اللّه.

قُلنا فيه وجوه قيل أضافها الىٰ اللّه تشريفاً و تخصيصاً كقوله بيت اللّه.

و قيل لأنّه تعالىٰ خلقها بلا واسطة.

و قيل لأنّها لا مالك لها غير اللّه

و قيل لأنّها حجّة اللّه علىٰ القوم و ساق الكلام الىٰ أن قال وعن النّبي ﷺ أنّه قال يا علّي أشقىٰ الأوّلين عاقر النّاقة و أشقىٰ الآخرين قاتلك إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

وأنا أقول أنّ اللّه تعالىٰ قد أجرى الحقّ علىٰ لسان الرّازي حيث نقل عن النّبي أنّ قاتل على الشقى الآخرين ما منهم فانّه منه عجيبٌ وقع ذالک كلامه هذا حجّة عليه و على امثاله يوم القيامة و امّا ما قاله فى وجه التخصيص فلا اشكال فيه و هو كذالک و لاكن قد غاب عنه احسن الوجوه الدّال على انّها ناقة اللّه و هو انّ هذه النّاقة من آيات اللّه في الدّنيا و الآخرة و بعبارةٍ أخرىٰ هذه ناقة اللّه في الآخرة أيضاً لما روى سعيد بن جبير عن إبن عبّاس أنّه قال: قال رسول اللّه ﷺ ذات يومٍ و هو آخذ بيد علّي بن أبي طالب و هو يقول يا معشر الأنصار يا معشر يني هاشم يا معشر بني عبد المطّلب أنا محمّد رسول اللّه ﷺ أنّي خلقت من طينةٍ موحومة في أربعة من أهل بيتي أنا و علّي و حمزة و جعفر، فقال قائل يا رسول اللّه هٰؤلاء معك ركبان يوم القيامة فقال ﷺ أنّه لن يركب يومئذٍ إلاّ أربعة أنا و علّي و فاطمة و صالح نبّي اللّه فأمّا أنا فعلى البراق، و أمّا فاطمة إبنتي فعلى ناقة الغضباء و أمّا صالح فعلىٰ ناقة الّتي عقرت، و أمّا علّي فعلى ناقة من نور زمامها من ياقوت عليه حلّتان خضراوتان إنتهىٰ تفسير[1].

أقول هذه الرّواية رواها المجلسي قدّس سرّه في البحار أيضاً بطرق مختلفة ثمّ أنّ صالحاً بعث و هو ابن ستّة عشر سنة و مات و هو ابن عشرين و مائة سنة أكثر واللّه أعلم.

■

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٤٧

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ «۸۰» إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ «۸۱» وَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ «۸۲» فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ «۸۳» وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ «۸۴»

◁ اللّغة

لُوطًا بضمّ اللاّم إسمٌ علم و إشتقاقه من لاطَ يَلُوطُ لَوطاً وَلِيطاًالحديث الولد ألوط أي ألصق بالكبد، و هذا أمرٌ لا يلتاط بعنصري أي لا يلتّصق بقلبي، ولطت الحوض بالطّين لوطاً ملطته به و قولهم تلَّوط فلان اذا تعاطى فعل قوم لوط فمن طريق الإشتقاق فأنّه أشتقّ من لفظ لوط النّاهي عن ذلك لا من لفظ المتعاطين له قاله الرّاغب في المفردات.

الْفَاحِشَةَ، الفُحش والفَحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال.

أُنَاسٌ بضمّ الألف لُغة في النّاس.

مِنَ الْغَابِرِينَ الغابر الماكث بعد مضّي ما هو معه.

◁ الإعراب

وَ لُوطًا أي و أرسلنا لوطاً، و أذكر لوطاً مَا سَبَقَكُمْ بِهَا في موضع الحال من الفاحشة أو من الفاعل في، أتأتون، تقديره مبتدأين شَهْوَةً مفعول من أجله أو

مصدر في موضع الحال مِنْ دُونِ ٱلنِّسَآءِ صفة لرجال مَطَرًا هو مفعول أمطرنا و المطر هنا الحجارة.

◁ التّفسير

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ

الواو للعطف أي و أرسلنا لوطاً، أو للإستئناف و التّقدير أذكر لوطاً و الأوّل أقوى و أظهر بسياق الكلام فأنّ اللّه تعالىٰ ذكر قصّة نوح أوّلاً و قصّة هود ثانياً و قصّة صالح و ثمود ثالثاً فهذه قصّة رابعة.

قال النّحويون أنّما صرف لوط و نوح لخفّته فأنّه مرّكب من ثلاثة أحرف مساكن الوسط، قال لوط لقومه الذّين بعث اليهم أتأتون الفاحشة يعني أتفعلون السّيئة القبيحة التّي ما سبقكم بها أحدٌ من العالمين.

قال صاحب اكشّاف من الأولى زائدة لتّوكيد النّفي و إفادة معنىٰ الإستغراق و الثّانية للتّبعيض.

قال الرّازي فأن قيل كيف يجوز أن يقال ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين مع أنّ الشّهوة داعية الى ذلك العمل أبداً.

والجواب أنّا نرى كثيراً من النّاس يستقذر ذلك العمل فاذا جاز في الكثير منهم إستقذاره لم يبعد أيضاً إنقضاء كثير من الأعصار بحيث لا يقدم أحد من أهل تلك الأعصار عليه.

قال و فيه وجهٌ أخر و هو أن يقال لعلّهم بكلّيتهم أقبلوا علىٰ ذلك العمل و الإقبال بالكلّية علىٰ ذلك العمل ممّا لم يوجد في الأعصار السّابقة انتهىٰ.

أقول و فيه وجه أخر و هو أنّهم أي قوم لوط كانوا لا ينكحون إلاّ الغرباء و هذا ممّا لم يسبقهم اليه أحد في الأعصار السّابقة و كيف كان لا شكّ أنّ نفس العمل مع تلك الخصوصيّات و الكيفيّات ممّا لا يسبقهم اليه أحد من الأمم.

ذكروا في وجه ذلك أنّ قوم لوط كان من أفضل قوم خلقهم اللّه عزّ و جلّ فطلبهم إبليس لعنه اللّه الطّلب الشدّيد و كان من فضلهم و خيرهم أنّهم اذا أخرجوا الىٰ العمل خرجوا بأجمعهم و تبقى النسّاء فأتىٰ إبليس وكان يعتادهم عبادتهم و كانوا اذا رجعوا ضرب إبليس ما يعملون قال بعضهم لبعضٍ تعالوا نرصد هذا الّذي يخرب متاعنا فرصدوه فاذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان فقالوا أنت الّذي تخرب متاعنا فقال نعم مرّة بعد مرّة و إجتمع رأيهم علىٰ أن يقتلوه فبيّتوه عند رجل فلمّا كان اللّيل صاح فقال مالك فقال كان أبي ينومني على بطنه فقال نعم فنم على بطني قال فلم يزل بذلك الرّجل حتّىٰ علَّمه أن يعمل بنفسه فأوّلاً علَّمه إبليس و الثّانية علّمه هو ثمّ إنسّل ففرّ منهم فأصبحوا فجعل الرّجل يخبر بما فعل بالغلام و يعجبهم منه شئ لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتّى إكتفى الرّجال بعضهم ببعضٍ ثمّ جعلوا يرصدون مارّ الطّريق فيفعلون بهم حتّىٰ ترك مدينتهم النّسا ثمّ تركوا نساءهم فأقبلوا علىٰ الغلمان فلمّا رأى إبليس لعنه اللّه أنّه قد أحكم أمره في الرّجال جاء في دار النسّاء فصَّير نفسه إمرأة ثمّ قال أنّ رجالكم يفعلون بَعضهم ببعض قالوا نعم قد رأينا ذلك و علىٰ ذلك يعظهم لوط و يوصيهم حتّى إستّكفت النّساء بالنّساء.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

لا شكّ أنّ المراد بالفاحشة في الآية هو اللّواط بدليل قوله تعالىٰ: **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً** و من المعلوم أنّ هذا لا يتحقّق إلاّ باللّواط والإتيان كناية عن الوطي و العمل بهم و فى قوله: **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** إشارة الىٰ تجاوزهم عن حدّ الإعتدال و قيل معناه أنتم مسرفون في كّل الأعمال فلا يبعد منكم أيضاً إقدامكم على هذا الإسراف المذمومالشّيخ في التّبيان معناه الإضراب عن الأوّل الى جميع المعايب من عبادة الأوثان و إتيان الذّكران و ترك ما قام به البرهان و تقديره أنّكم مستوفون لجميع المعايب إتيان الذّكران و

غيره و يحتمل أن يكون معناه، بل أنتم لإسرافكم لا تفلحون و الإسراف الخروج عن حدّ الحقّ الىٰ الفساد إنتهىٰ.

وَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَنْ قَالُوٓا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية بما أجاب به قوم لوط حين قال لهم أنّكم لِتأتون الفاحشة كأنّه قال بعضهم لبعضٍ، إخرجوهم، يعني لوطاً و أهله الّذين آمنوا به، من قريتكم، أي من مدينتكم، أنّهم أناسٌ يتطّهرون، قيل في معناه أنّهم يتطّهرون من إتيان الرّجال في الأدبار فعابوهم بما يجب أن يمدحوا به، و قيل أُريد بالتطّهر التنزّه أي أخرجوهم لأنّهم يتنزّهون عن أفعالكم فلا يفعلون ما تفعلون **فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ** أي فأنجينا لوطاً و أهله يعني المختصّين به إلاّ إمرأته أي زوجته كانت من الغابرين، الباقين في عذاب اللّه **وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ** أي و أمطرنا على قوم لوط مطراً من السّماء و قال في آية آخرى و أمطرنا عليهم حجارةً من سجّيل فأنظر كيف كان عاقبة المجرمين.

عن أبي جعفر عليه السلام و أمّا القرية الّتي أمطرت مطر السُّوء فهي سدوم قرية قوم لوط أمطر اللّه عليهم حجارةٍ من سجّيل يقول من طين و سيأتي تفصيل الكلام في قصّة لوط في سورة هود إن شاء اللّه.

■

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْبًا قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا
النّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلاحِها ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿۸۵﴾
وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجًا وَ
اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ
كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿۸۶﴾ وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ
مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ
يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّٰى يَحْكُمَ اللّٰهُ بَيْنَنا وَ هُوَ
خَيْرُ الْحاكِمِينَ ﴿۸۷﴾ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ
كُنّا كارِهِينَ ﴿۸۸﴾ قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا إِنْ
عُدْنا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّٰينَا اللّٰهُ مِنْها وَ ما
يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلّا أَنْ يَشاءَ اللّٰهُ رَبُّنا
وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا
افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ
الْفاتِحِينَ ﴿۸۹﴾ وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخاسِرُونَ ﴿۹۰﴾

◁ اللّغة

مَدْيَنَ بفتح الميم و سكون الدّال المهملة و فتح الياء على وزن مريم، إسم قبيلة و قيل أصله، مديان، و هو مديان بن إبراهيم و هؤلاء ولده، و مدين لا ينصرف للتّصريف و العجمّية.

تَبْخَسُوا، البَخس النَّقص.

تَصُدُّونَ الصَّد المنع.

تَبْغُونَهَا، البَغي الطَّلب.

ٱلرَّجْفَةُ بفتح الرّاء الإضطراب و القلق و الزَّلزلة.

جَاثِمِينَ الجثوم البروك على الرّكبة و قد مرَّ الكلام فيه.

◁ الإعراب

تُوعِدُونَ حال من الضّمير في تقعدوا مَنْ ءَامَنَ مفعول تصدّون وَ تَبْغُونَهَا حالاً إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ المصدر في موضع نصب على الإستثناء الذّين كذّبوا شُعيباً فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: مبتدأ و فى الخَبر وجهان:

أحدهما: (كان لمَ يغنوا فيها) و ما بعده جملة أخرىٰ أوّل بدل من الضّمير في يغنوا أو نصب بإضمار أعنى.

الثّانى: أنّ الخبر، الذّين كذّبوا شعيباً كانوا، وكان لم يغنوا علىٰ هذا حال من الضّمير في كذّبوا.

والوجه الثّانى: أن يكون صفة لقوله ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ.

الثّالث: أن يكون بَدلاً منه و علىٰ الوجهين يكون، كأن لم، حالاً.

◁ التّفسير

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

إعلم أنّ هذا هو القصّة الخامسة و هى قصّة شعيب والواو للعطف أي و

أرسلنا الىٰ مدين أخاهم شعيباً و قد إتّفقوا علىٰ أنّ هذه الأخوة كانت في النّسب لا في الدّين و قيل في نسب شعيب هو شعيب بن مكيل بن سجن بن مدين بن إبراهيم و قيل هو شُعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم و كيف كان لمّا أرسله اللّه الىٰ قومه و هم قبيلة مدين قال لهم: **يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ** فلا تعبدوا غيره من الأصنام والأوثان الّتي لا شعور لها فما أقبح بالرّجل العاقل أن يعبد الجماد و النّبات و أمثال ذلك **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** يعني أتتكم حجّة من اللّه و معجزة دالّة علىٰ صدق قولي و بذلك قد تمّت الحجّة عليكم من اللّه تعالىٰ فلا عذر لكم عنده **فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَ ٱلْمِيزَانَ وَ لَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** أَمَر شُعيب قومه أوّلاً بإيفاء الكيل و الميزان و الكيل مصدر كنّي به عن الآلة الّتي يكال بها كما أنّ الميزان عبارة عن الآلة الّتي يوزن بها، ثمّ نهاهم عن شئ عامّ و هو قوله أشيائهم و البخس و النّقص.

قال الرّاغب في المفردات: البخس نقص الشّئ علىٰ سبيل الظُّلم، ثمّ نهاهم عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، و قد مرّ الكلام فيه و قلنا الفساد هو خروج الشّئ عن الإعتدال قليلاً كان الخروج أو كثيراً والّذي يخرجه عنه يسّمىٰ بالمفسد و إنّما نهي عنه عقلاً و شرعاً لأنّه من مصاديق الظُّلم ثمّ قال ذلكم أي إيفاء الكيل و الميزان و عدم التّنقيص في الأشياء و عدم الإفساد في الأرض، خير لكم في الدّنيا و الآخرة أن كنتم مؤمنين باللّه و بالمعاد أمّا في الدّنيا فلأنّه يوجب حفظ النّظم و أمّا في الآخرة فلأنّه يوجب الدّخول في الجنّة و أمّا أن لم تكونوا مؤمنين فلا كلام لنا معكم.

وَ لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا

قيل أنّهم كانوا يقعدون علىٰ طريق من مقصد شعيباً للإيمان به فيخوّفونه بالقتل، و قيل معناه نهاهم عن قَطع الطّريق، و الظّاهر الأوّل بدليل قوله: **وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ اٰمَنَ بِهِ** و ظهور الآية ممّا لا ينكَر و يعلَم منه أنّهم أي قوم شعيب كانوا يقعدون في الطّريق ليصدّوا النّاس عن الإيمان كما هو شأن المعاندين في كلّ عصرٍ و زمان ألا ترىٰ أنّ مشركي قريش لم يؤمنوا برسول اللّه و لم يقنعوا بذلك بل كانوا يخوّفون و يقتلون من آمن به كما قتلوا ياسر و سمّية و أمثالهما و لأجل ذلك وقعت الهجرة الىٰ الحبشة بل الىٰ اللمدينة فكانت هجرتهم من مكّة عن إضطرارٍ لا عن إختيار و هو واضح و هكذا كان الأمر في عصر كلّ نبيٍ فأنّ عدم الإيمان بالنّبي شئ و منع الغير عن الإيمان به شئ آخر و الثّاني أقبح و أشنع من الأوّل.

وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ

أي و أذكروا نِعمة اللّه عليكم إذ كثّر عددكم، و قيل إذ كثّركم بالغنى بعد الفقر، و قيل كثّركم بالقدرة بعد الضَّعف، فأشكروا اللّه علىٰ هذه النّعمة و لا تكفر بها بالعصيان و الإفساد في الأرض و أنظروا كيف كان عاقبة المفسدين، من الأمم الماضية كقوم نوح و قوم هود و قوم صالح حيث أنّهم لمّا كفروا بنعمة اللّه و أفسدوا في الأرض وقعوا فيما وقعوا من العذاب في الدّنيا و لعذاب الآخرة أشدّ و أبقى.

وَ إِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ اٰمَنُوا بِالَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَآئِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللّٰهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ

الطّائفة الجماعة من النّاس، قسّم القوم علىٰ قسمين:

قسمٌ منهم أمنوا به و قسمٌ لم يؤمنوا به و بقوا علىٰ كُفرهم مقال للمؤمنين و غير المؤمنين فأصبروا حتّىٰ يحكم اللّه بيننا و هو خير الحاكمين لأنّه لا يحكم

إلاّ بالعدل و أنّما قال ذلك لأنّ الّذين لم يؤمنوا كانوا يستهزؤن بالمؤمنين و يؤذونهم فكأنّه قال أصبروا حتّىٰ يحكم اللّه فانّ يوم الفصل كان ميقاتاًاليوم الّذي يقول الكافر فيه يا ليتني كنت تراباً أعاذنا اللّه منه بحقّ محمّدٍ وأله الطّاهرين.

هذا أخر المجلّد الثّامن في تفسير الجزء الثّامن و يتلوه الجزء التّاسع أوّله قال: **قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا**.

■

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ

قد مرّ الكلام في المَلاء و قلنا هم الجماعة من الأشراف و الرّؤوساء و هم لّذين قالوا لشعيب ما قالوا و كان منشأ هذا القول إستكبارهم وإمتناعهم عن قبول الحقّ فقالوا لشعيب لنخرجنَّك و الذّين أمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا، معنى، لتعودنَّ قولان:

أحدهما: على توَّهمهم أنّه كان فيها علىٰ دين قومه.

الثّانى: أنّ الذّين إتَّبعوا شعيباً قد كانوا فيها.

قال بعضهم و فى الإخراج والعود طباق معنوي، و عاد لها إستعمالان:

أحدهما: أن تكون بمعنىٰ صار.

الثّانى: بمعنىٰ رجع الىٰ ما كان عليه فعلىٰ الأوّل لا إشكال في قوله: **أَوْ لَتَعُودُنَّ** اذ صار فعلاً مسنداً الىٰ شعيب و أتباعه و لا يدّل على أنّ شعيباً كان في ملّتهم.

و علىٰ المعنى الثّاني يشكل لأنّ شعيباً لم يكن في ملّتهم قطّ لكن أتباعه كانوا فيها و أجيب عنه بوجوهٍ:

أحدها: أن يراد بعود شعيب في الملّة حال سكوته عنهم قبل أن يبعث لا حالة الضّلال فأنّه كان يخفي دينه الىٰ أن أوحى اللّه اليه.

الثّانى: أن يكون من باب تغليب حكم الجماعة علىٰ الواحد لمّا عطفوا أتباعه على ضميره في الإخراج سحبوا عليه حكمهم في العود و أن كان شعيب بريئاً ممّا كان عليه أتباعه قبل الإيمان.

الثّالث: أنّ رؤوساءهم قالوا ذلك علىٰ سبيل التَّلبيس على العامّة و الإيهام أنّه كان منهم **قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** أي قال شعيب لهؤلاء المستكبرين، أيقع منكم أحد هذين الأمرين و هو الإخراج عن القرية أو العود الى ما كان القوم

عليه أوَ لو كنّا كارهين لذلك، الهمزة للإستفهام والواو واو الحال تقديره أتعيدوننا في ملّتكم في حال كارهتنا و مع كوننا كارهين، و بعبارةٍ أُخرىٰ معنىٰ الكلام، هو أنّا مع كراهتنا لذلك مع ما عرفناه من بطلانه لا نرجع.

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا ٱللَّهُ مِنْهَا

و هذا أيضاً إخبار من اللّه عمّا قال شعيب لقومه و حاصله أنّا إن عدنا في ملّتكم كما تقولون اذاً قد إفترينا علىٰ اللّه كذباً، و ذلك لأنّ شعيباً كان رسولاً من اللّه اليهم والذّين أمنوا به و إتَّبعوه إعتقدوا برسالته و أنّه علىٰ الحقّ و اذا كان الأمر على هذا المنوال فالرّجوع الى الكفر بعد إدّعاء الرّسالة معناه تكذيب نفسه و إنّ ما إدَّعاه كان كذباً و أنّ اللّه لم يرسله اليهم و لا نعني بالإفتراء علىٰ اللّه إلاّ هذا.

و أمّا قوله: **بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا ٱللَّهُ مِنْهَا** ففيه إشارة الىٰ أنّ الخروج من الكُفر الى الإيمان لا يكون إلاّ بتوفيقٍ منه وحيث أنّ اللّه وفقّنا للإيمان و نجَّيْنا عن القوم الكافرين فكيف نرجع الىٰ مِلّتكم.

وَ مَا يَكُونُ لَنَآ أَنْ نَعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا

إخبار عن قول شعيب لهم أنّه ليس له ولمن أمن معه أن يعودوا في ملّتهم و يرجعوا فيها إلاّ بعد مشيّئة اللّه ذلك و قيل في معنىٰ هذه المشيّئة مع حصول العلم بأنّه تعالىٰ لا يشاء عبادة الأصنام و الأوثان وجوهٌ:

أحدها: أنّ في ملّتهم أشياء كان يجوز أن يتَّعبد اللّه بها فلو شاءها منهم لوجب عليهم الرّجوع فيها

الثّاني: أنّه اذا فعل ما شاء اللّه كان ذلك طاعة اللّه تعالىٰ

الثّالث: أنّه علّق ما لا يكون بما علم أنّه لا يكون علىٰ وجه التّبعيد كما قال الشّاعر:

اذا شـاب الغـراب أتيت أهـلى   وصـار القـار كـاللّبن الحـليب

و هذا كما قال اللّه تعالىٰ: **حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ**[١].

قالوا في وجه ذلك أنّه كما لا يشاء اللّه عبادة الأصنام و القبائح لأنّ ذلك لا يليق بحكمته كذلك لا أعود في ملّتكم.

الرّابع: أنّ الهاء في قوله، فيها، راجعة الىٰ القرية فكأنّه قال و ما لنا أن نعود في قريتكم غانميم لكم ظاهرين عليكم بعد إذ نجَّيْنا اللّه منها بخروجنا منها سالمين إلاّ أن يشاء اللّه أن ينصرنا عليكم و يشاء منّا الرّجوع فيها وذهه الوجوه ذكرها الشّيخ في التّبيان.

وأن أقول لا شكّ أنّ، ما، في قوله: **وَ مَا يَكُونُ** نافية بمعنى ليس و الضّمير في قوله، فيها، يرجع الىٰ الملّة ظاهراً فالمعنىٰ ليس لنا أن نعود في ملّتكم إلاّ أن يشاء اللّه ربّنا، علّق الرّجوع على المشيّئة أي أن يشاء اللّه نرجع و أن لم يشاء لا نرجع و ذلك لأنّ العبد تابع لأمر مولاه إلاّ أنّ في الرّجوع إحتمالين:

أحدهما: الرّجوع ظاهراً و هو أقوىٰ إحتمالاً.

ثانيهما: الرّجوع واقعاً و هو الذّي لا يوافق حكمة اللّه.

و أمّا من قال أنّه من قبيل التعلّيق على المحال فهو في فسحةٍ عن الإشكال لأنّ معنى الكلام على هذا الفرض هو أنّ رجوعنا الٰى ملتّكم موقوف علىٰ مشيّئة اللّه لقوله إلاّ أن يشاء اللّه وحيث أنّ هذه المَشيّئة أي الرّجوع عن الحقّ الى الباطل محال لأنّه لا يوافق حكمته فالرُّجوع الىٰ ملّتكم محال.

هذا كلّه اذا قلنا أنّ الضّمير في قوله: **فِيهَآ** يعود الىٰ المِلّة أمّا لو قلنا بهَوده الىٰ القرية كما هو أحد الإحتمالين فالإشكال مندفع من أصله لأنّ العود الىٰ القرية لا ينافي الإيمان و هو ظاهر و قد أطال الكلام في المقام بعض المفسّرين من العامّة.

و ذكر أدّلة الأشاعرة و المعتزلة في إستدلال كلّ واحدٍ من الفريقين علىٰ مدّعاه من الجَبر و الإختيار و الإنصاف أنّ الآية بمعزلٍ عن الجبر و للبحث فيه مقام أخر.

١- الأعراف = ٤٠

و أمّا قوله: **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** ففيه مسألتان:

الأُولىٰ: أنّه تعالىٰ عالم بكُلّ الأشياء لا يخفىٰ عليه شئ ظاهراً و باطناً ممّا لا كلام لنا فيه لأنّه مؤيّد بالعقل والنَّقل.

الثّانية: في تعلّق هذا الكلام بالكلام الأوّل و أن شئت قلت في وجه الرّبط بين الكلامين أعني قوله إلاّ أن يشاء اللّه ربّنا، و قوله: **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** فنُقل عن القاضي أنّه قال أنّ قول شعيب إلاّ أن يشاء اللّه معناه إلاّ أن يخلق المصلحة في تلك العبادات فح يكلّفنا بها و العالم بالمصالح ليس إلاّ من وسع علمه كلّ شيٍ فلذلك أتبعه بهذا القول انتهىٰ.

و فيه أنّ المصلَحة ليست من المخلوقات في الأفعال بل هي موجودة في نفس الفعل و ليست بجعل جاعلٍ فقوله إلاّ أن يخلق المصلحة في تلك العبادات لا معنىٰ له و توضيحه أنّ كلّ فعلٍ من الأفعال لا يخلو من أمرين:

أحدهما: أنّ فعله أولى من تركه.

ثانيهما: بالعكس فأن كلّ الفعل أولى فهو كاشف عن وجود المصلحة في ذاته و أن كان التَّرك أولى فهو كاشف عن وجود المفسدة في ذاته فما فيه المصلحة لا يكون إلاّ كذلك و هكذا في جانب المفسدة و لا يمكن تغيير الشّئ عمّا هو عليه بحسب ذاته اذا عرفت هذا فقوله إلاّ أن يخلق فيه المصلحة، لا نفهم معناه.

و قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن القاضي ما هذا لفظه:

و قال أصحابنا وجه تعلّق هذا الكلام بما قبله هو أنّ القوم لمّا قالوا لشعيب أمّا أن تخرج من قريتنا و أمّا أن تعود الىٰ ملّتنا فقال شعيب وسع ربّنا كلّ شيٍ علماً، فربما كان في علمه حصول قسم ثالث و هو أن نبقىٰ في هذه القرية من غير أن نعود الى ملّتكم بل يجعلكم مقَهورين تحت أمرنا ذليلين خاضعين تحت حكمنا وهذا الوجه أولى ممّا قاله القاضي لأنّ قوله علىٰ اللّه توكّلنا لائق بهذا الوجه لا بما قاله القاضي انتهىٰ كلامه.

أقول هذا الرّجل لا يعلم ما يقول في كثيرٍ من الموارد و منها هذا المورد لأنّ ما إحتمله في المقام أيّ ربطٍ بينه و بين قوله إلاّ أن يشاء اللّه مضافاً الىٰ أنّ حصول القسم الثّانى و هو البقاء في القرية خارج عن الإحتمال لأنّ الأمر دائرٌ بين الإخراج و العود و هو واضح لا خفاء فيه و الّذي يختلج بالبال في وجه الرّبط هو أنّ المشيّئة هاهنا بمعنى العلم لا بمعنى الإرادة و عليه فالمعنى أنّ اللّه تعالىٰ عالم بحقيقة الأمر و لذلك قال بعد هذا الكلام.

عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ

أي على اللّه توّكلنا في جميع الأُمور و من يتوكّل علىٰ اللّه فهو حسبه و قوله: **رَبَّنَا ٱفْتَحْ** الخ فيه رغبة منه اليه تعالىٰ أنّ يحكم بينه و بين قومه بالحَقّ فأنّه تعالى أحكم الحاكمين.

و قال بعض المفسّرين معناه أنزل بهم ما يستحقّون من العقوبة لكفرهم باللّه، و أنتّ ترى أنّ الكلام لا يدلّ عليه أصلاً.

وَ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ

حكى اللّه تعالى عن الجماعة الكافرة الجاحدة بأيات اللّه و نبوّته شُعيب للباقين منهم حيث أقسموا عليهم و قالوا لهم لئن إتّبعتم شُعيباً و صدَّقتم بنبوّته أنّكم اذاً لخاسرون و الخسران ذهاب رأس المال فكأنّهم قالوا متابعتكم إيّاه بمنزلة رهاب رأس المال لأنّكم لا تنتفعون بإتّباعه فتخسرون في إشتغالكم بما لا تنتفعون به و بإنقضاء عمركم اذ لم تكسبوا فيه نفعاً لأنفسكم.

و قيل معناه أنّكم اذاً لهالكون، و قيل لمفتونون والمأل واحد و هو أي أنّكم اذاً لخاسرون جواب القسم.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ
﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى
عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ اٰسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ
﴿٩٣﴾ وَ مَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ
أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَ ٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ
قَالُوا قَدْ مَسَّ اٰبَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَ ٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ
اٰمَنُوا وَ ٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ
أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾
أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللّٰهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ
مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَنْ لَوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ
نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

◁ اللّغة

ٱلرَّجْفَةُ بفتح الرّاء و سكون الجيم و فتح الفاء الإضطراب و الزّلزلة و هى حركة تزلزل الأقدام و توجب الهلاك لشدّتها.

فَأَصْبَحُوا، الأصباح الدّخول في الصبّاح كما أنّ الإمساء الدّخول في المساء.

جَاثِمِينَ، الجُثوم البروك علىٰ الرّكبة يقال جثم هذا الأمر علىٰ قلبي أي ثَقُل عليه لثبوته على تلك الحال.

يَغْنَوْا، غَنَىٰ بالمكان إذا قام به يغني غناءً وغنّياً و المعنى لم يقيموا إقامة مستغنٍ بها عن غيرها.

فَتَوَلّىٰ أعرض عنهم.

اٰسىٰ، الأَسَىٰ شدّة الحزن أي أحزُن.

بَأْسُنَا، البأس العذاب.

◁ الإعراب

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا حالٌ من الضّمير في كذّبوا أو صفة لقوله، ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا أو بَدل منه حَتّى عفَوْا أي الىٰ أن عفوا أي كثروا فَأَخَذْنَاهُمْ معطوف على عفواً أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ يقرأ بفتح الواو علىٰ أنّها للعطف دخلت عليه همزة الإستفهام و يقرأ بسكونها و هى لأحد الشّيئين بَيَاتًا حال من بأسنا أَنْ لَوْ نَشَآءُ أن مُخففّة من الثّقيلة و قد يُقرأ بالنّون وكيف كان فهو فاعل لقوله أَوَ لَمْ يَهْدِ و قيل فاعله ضمير إسم اللّه.

◁ التّفسير

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قد مضىٰ تفسيرها فلا معنىٰ لأعادته ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ الّذين الأولى في موضع رفع علىٰ أنّه مبتدأ و خبره، كأن لم يغنوا فيها، أخبر اللّه تعالىٰ عن الّذين كذّبوا شعيباً و شبّههم بمن لم يغن فيها و المعنى كأن لم يقيموا ناعمي البال رخي العيش في دارهم و فيها قوّة الأخبار عن هلاكهم و حلول

المكروه بهم و التّنبيه علىٰ الإعتبار بهم كقوله: **فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**(١) وكقول الشّاعر:

كأن لم يكُن بين الحجون الىٰ الصّفا أنيسٌ و لم يسمر بمكّة سامرُ

و قال إبن عبّاس كأن لم يعمروا، و قال قتادة كأن لم ينعموا.

و قال الأخفش كأن لم يعيشوا، و قيل كأن لم يكونوا و الكلّ قريب المعنىٰ صاحب الكشّاف في هذا الإبتداء معنى الإختصاص كأنّه قيل: **ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا** المخصوصون بأن أهلكوا أو إستؤصلوا كأن لم يقيموا في دارهم لأنّ الّذين إتّبعوا شعيباً قد أنجاهم اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ** هذا أيضاً مبتدأ و خبر و فيه أيضاً معنى الإختصاص أي هم المخصوصون بالخسران العظيم دون إتباعه فأنّهم هم الرّابحون و في هذا الإستئناف لهذا الإبتداء و هذا التكرير مبالغةٌ في ردّ مقالة الملاء لأشياعهم و تسفيةٌ لرأيهم و إستهزاءٌ بنصحهم لقومهم و استعظامٌ لما جرى عليهم، و هاتان الجملتان منبئتان عن ما فعل اللّه بهم في مقالتهم حيث قالوا، لنخرجَّنك يا شعيب، فجاء الإخبار بإخراجهم بالهلاك و أيّ إخراجٍ أعظم من إخراجهم، و قالوا لإن إتبّعتم شعيباً إنّكم إذاً لخاسرون، فحكم اللّهّ تعالىٰ عليهم بالخسران ثمّ أنّ وجه التّشبيه في قوله: **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا**.

أنّ حال المكذّبين يشبه حال من لم يكن قطّ في تلك الدّيار لمّا أخذتهم الرَّجفة بالهلاك و هذا ممّا يتحسّر عليه النّاس أعظم الحسرة كما قال الشّاعر:

بلىٰ نحن أهلها فأبادنا صُروف اللّيالي والجُدود العوائر

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ

هذا إخبار عن شعيب النّبي عليه السلام مع قومه لمّا أبلغهم رسالات ربّه فلم

١- يُونس = ٢٤

يقبلوها بل كذّبوها و جحدوا ما أتىٰ به و لمّا رأى من القوم ذلك فتوّلى شعيب و أعرض عن قومه المكذّبين و قال لهم لقد أبلغتكم رسالات ربّي و نصحت لكم، أي أنّي لم آل جهداً في نصيحتكم و إرشادكم الىٰ الحقّ فلم تقبلوا منّي ما كان فيه خيركم و صلاحكم في الدّارين و وقعتم من الهلاك و العذاب و أنّما قال شعيب ذلك لمن هلك تحسّراً و تحزّناً عليهم و لذلك قال: **فَكَيْفَ اٰسٰى عَلٰى قَوْمٍ كٰافِرِينَ** أي فكيف أحزن علىٰ قوم كافرين.

و المقصود من هذا الكلام هو أنّ ما نزل بكم من العذاب و أن كان عظيماً ألاّ أنّه كان حقّاً و مطابقاً للعدل لأنّه كان بعد إتمام الحجّة مضافاً الى أنّه كان بسبب جنايتكم على نفسكم فلا ينبغي أن أحزن عليكم كيف و الباعث على نزول العذاب أنتم و أنفسكم لا غيركم فلا يلومّن إلاّ نفسه فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد.

وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلآّٰ أَخَذْنٰآ أَهْلَهٰا بِالْبَأْسٰآءِ وَ الضَّرّٰآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ

القَرية بفتح القاف مجتمع النّاس في المنازل المتجاورة ممّا هو دون المدينة وكذلك تسّمىٰ المدينة أيضاً قرية، و النّبي مشتقّ من النّباء و هو الخبر سمّي به لأنّه يؤّدي و يخبر عن اللّه تعالى بلا واسطة من البشر.

و قيل هو من كان ينبئ بالوحي عنه تعالى و أمّا البأساء و الضّراء ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: البأساء الجوع و الضّراء الآلام من الأمراض و الشدّائد.

ثانيها: ما نالهم من الشدّة في أنفسهم و الضّراء ما نالهم في أموالهم.

ثالثها: أنّ البأساء الجوع و الضّراء الفقر.

قالوا و فى معنى، لعلّل قولان:

أحدهما: أنّما عاملناهم معاملة الشّاك في إيراد أسباب التّضرع مظاهرة عليهم في الحجّة.

الثّاني: أن يكون بمعنى اللاّم وتقديره ليضرّعوا، و أصل يضرَّعون يتَّضرعون فأدغمت التّاء في الضّاد و معنى الآية علىٰ ما قيل هو إخباره تعالىٰ فيها أنّه لم يرسل رسولاً الى أهل قريةٍ إلاّ و أخذ أهلها بالبأساء و الضّراء تغليظاً في المحنة و تشديداً للتّكليف ليلّين قلوبهم و لكي يتضرّعوا الى ربّهم في كشف ما نزل بهم في ذلك لعلمه بما لهم من الصّلاح لكي يتضرّعوا.

و قال الآخرون لمّا ذكر تعالى ما حلّ بالأمم السّالفة من بأسه و سطوته عليهم أخر أمرهم حين لا تجدى فيهم الموعظة ذكر تعالى أنّ تلك عادته في إتباع الأنبياء إذ اصرّوا على تكذيبهم والّذي نفهم منها هو أنّ اللّه تعالىٰ يُحبّ التَّضرع و الدّعاء من العبد لأنّه رابطة بينه و بينه و من المعلوم أنّ التّضرع لا يكون إلاّ بعد البأس و الضَّر و الشدّة و المِحنة و هو لا يكون إلاّ بعد التكلّيف و هو لا يكون إلاّ بعد إرسال الرّسول فينتج أنّ إرسال الرّسول لأجل التّضرع و سوق العَبد الى مقام القرب وكيّفية العبودّية و هذا من أنفع الأمور الّتي تتوّقف علىٰ بعث النّبي الىٰ النّاس.

و يحتمل أن يكون المراد هو إتمام الحجّة علىٰ النّاس أي إنّا لا نعذّب أحداً إلاّ بعد إتمام الحُجّة الظّاهرة و هى الرّسول.

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَ ٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ

كلمة، ثمّ، تفيد التّراخي أي بعد التّضرع الى اللّه بدَّلنا مكان السّيئة الحسنة و التبديل وضع أحد الشّيئين مكان الآخر فلمّا رفعت السّيئة عنهم و وضعت الحسنة كانت السّيئة مبدلة بالحسنة.

و قال إبن عبّاس و مجاهد و قتادة المراد بالسَّيئة و الحسنة هاهنا الشدّة و الرّخاء و قال أبو علّي جرى في هذا الموضع على سبيل المثل.

و الّذي يظهر من الكلام هو أنّ اللّه بعد تضَّرع العبد اليه يستجيب دعوته لقوله

تعالىٰ: **ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**[١] و بعد الإستجابة يبدّل سيّئاته بالحسَنات، حتّى عفوا، أي حتّىٰ كثروا، و أصله التّرك من قوله تعالىٰ: **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**[٢].

أيّ ترك له وعفوا تركوا حتّى كثروا و قيل حتّى كثروا و تناسلوا، و قال مجاهد كثرت أموالهم و أولادهم و قال إبن بحر أي حتّى أعرضوا من قولهم عفى عن ذنبه أي أعرض عنه **وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَ ٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ** أي أنّ الكفّار قال بعضهم لبعضٍ أنّ هكذا عادة الدّهر فكونوا على ما أنتم عليه من الكفر كما كان آباؤكم فلم ينفكّوا عن تلك الحال فينتقلوا فأخذناهم بالعذاب بغتَةً أي فجأةً و هم لا يشعرون، أي لم يشعروا بنزول العذاب إلاّ بعد حلوله.

أقول يظهر من ذيل الآية و هو قوله تعالىٰ: **وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَ ٱلسَّرَّآءُ** الخ.

أنّ المراد بالسَّيئة الشّدة و بالحسنة الرّخاء كما ذَهب اليه إبن عبّاس فمعنى الكلام، ثمّ بعد تضَّرع المتضرّعين بدلنا شدّتهم بالرّخاء أي فقرهم بالغناء و ذلّهم بالعزّ و هكذا حتّى كثروا فيه أي وقعوا في الرّخاء كثيراً و غرقوا في نعم اللّه فلمّا رأوا ذلك أي خرجوا من الشدّة و دخلوا في الرّخاء أخذهم الغرور و الطّغيان و التمرّد و العصيان فرجعوا الىٰ ما كانوا عليه قبل التَّضرع من الكفر و إستدلّوا علىٰ ذلك **وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَ ٱلسَّرَّآءُ** كما قَد مسَّنا و ليس هذا بشيٍ جديد فكما أنّهم لم يخرجوا عن عقيدتهم فكذلك نحن لا نترك ما إعتقدنا عليه فصاروا كافرين بأنعم اللّه فأخذناهم بغتةً وهُم لا يشعرون أي هؤلاء الكفّار لم يشعروا بالعذاب إلاّ بعد حلوله و فى هذه الآية إشارة الىٰ أنّ عذاب اللّه في الدّنيا و الأخرة ثمرة الكفر و العصيان و التَّمرد والطُّغيان ففي الحقيقة يكون العذاب معلولاً لأعمال العباد و الى هذا المعنى أُشير.

١- غافر = ٦٠ ٢- البقرة = ١٧٨

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرىٰٓ اٰمَنُوا وَ ٱتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ

قرأ ابن عامر **لَفَتَّحنا** بتشدّيد التّاء و الباقون بتخفيفها و عليه المصاحف مضافاً الىٰ أنّ التشدّيد في التّاء لا وجه له، و معنىٰ، لو، إمتناع الشّيئ لإمتناع غيره كما أنّ لولا، معناه إمتناع الشّيئ لوجود غيره.

يقول اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرىٰٓ** التّي أهلكناها و هم قوم لُوط و صالح و شعيب و غيرهم أمنوا باللّه و برسوله و إتّقوا بفعل الواجبات و ترك المحرّمات لفتحنا عليهم بركات و هى الخيرات النّامية و أصله الثّبوت فنُّمو الخير يكون كناية عن ثبوته بدوامه فبركات السّماء بالمطر و بركات الأرض بالنّبات و الثّمار كما وعد نوح بذلك أمّته قال، **يُرْسِلِ ٱلسَّمٰآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰارًا**(١) و قيل بركات السّماء إجابة الدّعاء و بركات الأرض تيسير الحوائج و لكن لم يؤمنوا و لم يتّقوا بل كذّبوا رسلي فأخذناهم بما كانوا يكسبون بأعمالهم و أقوالهم و ليس جزاء الكفر إلاّ العذاب، و الأصل فيه هو أنّ اللّه تعالىٰ لم يخلق عباده للعذاب و العقاب بل خلقهم ليعرفوه و اذا عرفوه عبدوه و اذا عبدوه إستغنوا بطاعته عن طاعة ما سواه.

و هذا هو كمال الإنسان في الدُّنيا و لأجل ذلك أرسل الأنبياء و أنزل الكتب السّماوية و قرّر الدّين و جعل التّكاليف و هو المقصود الأصلي من خلق الإنسان قال تعالىٰ: **وَ مٰا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْإِنْسَ إِلّٰا لِيَعْبُدُونِ**(٢) أي ليعرفُون، ثمّ انّه قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ اللّه تعالى جواد علىٰ الإطلاق غنّي عمّا سواه رؤوف بعباده، فاذا كان العبد عمل بوظيفة العبودّية كما هو مقرّر في الشّريعة المقدّسة فلا جرم تنزل عليه بركات من السّماء و الأرض كما هو مقتضىٰ الأصل و هو ظاهر.

١- هُود = ٥٢ ٢- الذاريات = ٥٦

ثمّ أفاد اللّه تعالىٰ أنّ العذاب قد يكون في حال اليقظة و قد يكون في حال النّوم و الغفلة.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَآئِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ

الإستفهام في المقامين للإنكار عليهم أي لا ينبغي أن يأمنوا عذابه في جميع الأحوال، و الأمن سكون النّفس الىٰ الحال المنافية لإنزعاجها و الأمن و الثّقة و الطّمأنينة نظائر و ضدّ الأمن الخوف.

و البأس العذاب و المقصود أنّه تعالى خوّفهم بنزول العذاب في الوقت الّذي يكونون فيه غاية الغفلة و هو حال النّوم باللّيل و الى ذلك أشار بقوله: **بَيَاتًا وَ هُمْ نَآئِمُونَ** و حال الضُّحى بالنّهار لأنّه الوقت الّذي يغلب علىٰ المرء التشّاغل بالكسب و الأكل و أمثال ذلك واليه الإشارة بقوله: **ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ** أي يشتغلون بأمور الدّنيا الّتي هي لعبٌ و لهو و تفاخرٌ، و أنّما أتى في الآية الأولىٰ بالفاء و قال: **أَفَأَمِنَ**.

و في الثّانية: بالواو فقال، أَوَأَمِنَ، لأنّ الفاء تدّل علىٰ أنّ الثّاني أدى اليه الأوّل كأنّه قيل أفأمنوا أن يأتيهم بأس اللّه من أجل ما هم عليه من تَضييع أمر اللّه لأنّه يشبه الجواب و ليس كذلك الواو بل هي لمجرّد العطف.

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ

قالوا أنّما دخلت الفاء في أفأمَنوا بعد الواو في أَو أَمِنَ لأنّ فيها معنىٰ بعد كأنه قيل أبعد هذاكلّه أمنوا مكر اللّه ثمّ صار الفاء في **فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ** كأنّها جواب لمن قال قد أمِنوا، **والمَكر** بفتح الميم أخذ العبد بالضّر من حيث لا يشعر إلاّ أنّه قد كثر إستعماله في الحيلة عليه.

قال الخليل المكر الإحتيال بإظهار خلاف الإضمار.

قال الرّاغب في المفردات المكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ ضربان، محمود، و مذموم، فالمحمود أن يتحرّىٰ بذلك فعل جميلٍ و على ذلك قوله: **وَاللّٰه خَيْرَ الْمٰاكِرِين** و المذموم أن يتحرّىٰ به فعل قبيح و منه قوله و لا يَحيق المكر السَّيّئ إلاّ بأهله، و قال في الأمرين و مكروا مكراً و مكرنا مكراً و قال بعضهم من مكر اللّه إمهال العبد و تمكينه مِن إعراض الدّنيا و لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام من وسع عليه دنياه و لم يعلم أنّه مكر به فهو مخدوعٌ في عقله انتهىٰ كلامه في المفردات.

قال بعض المفسّرين في قوله: **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللّٰهِ** أنّ المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون قاله على وجه التحذير و سمّي هذا العذاب مكراً توّسعاً لأنّ الواحد منّا إذا أراد المكر لصاحبه فأنّه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر به فسمِّي العذاب مكراً لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، و من المعلوم أنّه لا يأمن نزول عذاب اللّه على هذا الوجه إلاّ القوم الخاسرون و هم الّذين لغفلتهم و جهلهم لا يعرفون ربّهم فلا يخافونه و من هذه سبيله فهو أخسر الخاسرين في الدّنيا و الأخرة لأنّه أوقع نفسه في الدّنيا في الضّرر و فى الأخرة في أشدّ العذاب انتهىٰ كلامه.

أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِأَهْلِهَآ أَنْ لَوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ

الواو للعطف والهَمزة للإستفهام الإنكاري و الهداية الدّلالة المؤدّية الىٰ البغية و المعنى أولم نبيِّن للّذين متَّعناهم في الأرض بعد إهلاكنا من كان قبلهم فيها و جعلنا آباؤهم المالكين لها بعدهم إنّا لَو شئنا أصبناهم بعقاب ذنوبهم و أهلكناهم بالعذاب كما أهلكنا الأمم الماضية.

أقول الهداية لها معنيان:

أحدهما: الإيصال الى المطلوب و هذا هو الّذي ذكروه في المقام.

الثّاني: إراءة الطّريق بدون الإيصال و المناسب لتفسير الآية و غيرها من الأيات هو المعنى الثّاني أعني به إراءة الطّريق بسبب إرسال الرّسل و إنـزال الكتب.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**(١).

و أنّما رجحنا المعنى الثّاني لأنّ العبد بعد الوصول الىٰ المطلوب لا يرجع الىٰ الكفر و أنّما يرجع اليه من لا يصل اليه فقوله: **أَوَ لَمْ يَهْدِ** معناه أولم يُبيّن لهم الحقّ بواسطة الأنبياء أنّ حكمهم حكم من كان من قبلهم فكما أخذنا الأمم الماضية بذنوبهم كذلك نأخذ الأمم اللاّحقة.

و أمّا قوله: **وَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**.

فقال الرّازي إستدّل أصحابنا علىٰ أنّه تعالى قد يمنع العبد من الإيمان بقوله: **وَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** و الطّبع الختم و الرّين و الكنان و الغشاوة والصّد والمنع واحد علىٰ ما قرّرناه في آيات كثيرة انتهىٰ كلامه.

أقول ما ذكره الرّازي من أنّ الطّبع و الختم الىٰ آخره واحد لا يصّح فأنّ الطّبع و الختم يقال علىٰ وجهين:

أحدهما: أنّهما مصدران من قولك ختمت و جعلت و معناهما على هذا تأثير الشّئ كنقش الخاتم والطّابع.

الثّاني: الأثر الحاصل عن النّقش و يتجوّز بذلك تارةً في الإستيثاق من الشّئ و المنع منه إعتباراً بما يحصُل من المنع بالختم على الكُتب والأبواب.

و تارةٌ في تحصيل أثرٍ عن شئٍ إعتباراً بالنّقش الحاصل و تارةٌ يعبّر منه بلوغ الآخر و منه قوله ختمت القرآن أي إنتهيت الىٰ آخره إذا عرفت هذا فنقول.

أنّ الإنسان إذا تناهى في إعتقادٍ باطلٍ أو إرتكاب محظورٍ و لا يكون منه

١- الانسان = ٣

تمسُّكن بوجهٍ الى الحقّ يورثه ذلك هيئَّة تمرَّنَه على إستحسان المعاصي و كأنّما يختم بذلك علىٰ قلبه و هذا ممّا أجرىٰ اللّه به العادة فقوله تعالىٰ: **نَطْبَعُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ** و قوله: **أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللّٰهُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ**(١) و قوله: **خَتَمَ ٱللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ**(٢).

و أمثال ذلك ممّا ورد في كلام اللّه تعالىٰ ليس معناه أنّ اللّه تعالىٰ قد منع وصدّ القلوب عن قبول الحقّ و مع ذلك كلَّفهم فأنّ هذا ممّا لا يقبله العقل السّليم و علىٰ هذا النّحو إستعارة الإغفال:

في قوله تعالىٰ: **وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا**(٣).

و إستعارة الكِّن:

في قوله: **وَ جَعَلْنٰا عَلٰى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**(٤).

و إستعارة القساوة:

في قوله: **وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً**(٥) وأمثال ذلك من الأيات.

فثبت و تحقّق أنّ هذه الألفاظ أنّما أستعملت على سبيل الكناية و عليه فمعنى قوله: **وَ نَطْبَعُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ** ليس معناه نمنع و نصُّد قلوبهم عن إستماع الحقّ كما قال الرّازي و من تبعه من المجبّرة بل معناه أنّهم تمرَّنوا على المعاصي و أداموا عليها حتّى صارت المعاصي عندهم مستحسنة بحيث لا يرون قبحها فكأنّه طبع على قلوبهم و هذا كما يقال لمن يكذب دائماً أو غالباً طبع على قلبه الكذب.

و علىٰ البخيل طبع علىٰ قلبه البخل و على الرّحيم طبع على قلبه الرَّحمة و هكذا و اللّه أعلم بحقائق الأمور.

١- النحل = ١٠٨
٢- البقرة = ٨
٣- الكهف = ٢٨
٤- الانعام = ٢٥
٥- المائدة = ١٣

قال بعض المحّققين ختمه شهادته تعالىٰ عليه أنّه لا يؤمن و عليه فمعنى قوله: **خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** أو نطبع على قلوبهم معناه أنّ اللّه يشهد و يعلم أنّه لا يؤمن باللّه و هذا أيضاً لا يرجع الىٰ محصّل فأنّ مجيئ الختم و الطّبع بمعنى الشّهادة ممّا لا يساعده العقل و لا اللغّة و هو واضح فتأمّل.

■

تِلْكَ ٱلْقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبآئِها وَ لَقَدْ
جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما
كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ
ٱلْكافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَ إِنْ وَجَدْنآ أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ
بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِآياتِنآ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ
فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿١٠٣﴾ وَ قالَ مُوسىٰ يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ
رَبِّ ٱلْعالَمينَ ﴿١٠٤﴾ حَقيقٌ عَلىٰ أَنْ لآ أَقُولَ
عَلَى ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرآئيلَ ﴿١٠٥﴾ قالَ إِنْ كُنْتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهآ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ
﴿١٠٦﴾ فَأَلْقىٰ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضآءُ لِلنّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قالَ
ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذا لَساحِرٌ عَليمٌ
﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَماذا
تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

◁ اللّغة

ٱلْقُرىٰ بضمّ القاف جمع قَرية و هى مجتمع النّاس دون البلد و قد تطلق علىٰ أهل البلد و قد مرّ الكلام فيها.

نَقُصُّ، القصص إتباع الحديث يقال فلان يقصّ الأثر أي يتبعه.

أَنْبَآئِهَا، الأنباء جمع النَبَّأ و هو الخبر عن أمرٍ عظيم الشّأن و بهذا يفترق عن الخبر و منه أخذ إسم النّبي لأنّه يخبر عن اللّه تعالى.

مِنْ عَهْدٍ، العَهد العقد الّذي تقدّم لتوطين النّفس علىٰ إداء الحقّ.

وَ مَلَإِيْهِ، قد تقدّم الكلام في معنى الملاء و قلنا أنّه جماعة من الأشراف أو مطلق الجماعة.

عَصٰاهُ، العَصا عود كالقضيب يابس و أصله الإمتناع بيبسه يقال عصى يعصي إذا إمتنع.

ثُعْبٰانٌ بضمّ الثّاء حيَّةٌ ضخيمةٌ طويلة و قيل هو أعظم الحيّات و هو الذّكر و الكلام فيه طويل.

نَزَعَ، النَّزع هو إزالة الشّيء عن مكانه الملابس له المتمكن فيه كنزع الرّداء عن الإنسان و هو و القلع و الجذب نظائر.

فَإِذٰا هِيَ بَيْضٰاءُ إذا هاهنا للمفاجاة و البيضاء ضّد السّوداء.

◁ الإعراب

لِأَكْثَرِهِمْ هو حال من عَهْدٍ و من زائدة أي مٰا وَجَدْنٰا عهداً لأكثرهم وَ إِنْ وَجَدْنٰآ إن مخفّفة من الثّقيلة و إسمها محذوف أي و إنّا وجدنا كَيْفَ كٰانَ كيف في موضع نصب خبر كان عٰاقِبَةُ إسمها و الجملة في موضع نصب بقوله، فأنظر حَقِيقٌ مبتدأ أَنْ لآ أَقُولَ خبره على قراءة من شدّد الياء في علّي، و علّي متعلّق بحقيق فَإِذٰا هِيَ إذا للمفاجاة و هى مكان و ما بعدها مبتدأ و ثُعْبٰانٌ خبره.

◁ التّفسير

لمّا ذكر اللّه تعالى قصّة نوح و هود و صالح و شعيب علىٰ مرّ تفصيله أخبر عن أهل القرى الّتي ذكرها سابقاً و أشار بقوله تلك، اليها فقال: تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ

الّتي مرّت الأيات الواردة فيها **نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآئِهٰا** الكاف في قوله: **عَلَيْكَ** إشارة الىٰ النّبي ﷺ أي نقصّها عليك أيّها النّبي **وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ** من المعجزات و خوارق العادات **فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ** اختلفوا في تفسير هذا الكلام فقال بعضهم معناه ما كانوا ليؤمنوا اليوم بما كذّبوا من قبل يوم الميثاق، و قال إبن عبّاس ما كانوا ليخالفوا علم اللّٰه فيهم، و قال الآخر ما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا أسلافهم من الأمم الخالية، و قيل في معناه **جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ** الّتي إقترحوها فما كانوا ليؤمنوا بعدها بما كذّبوا به قبلها.

و قال الكرمانى: من قبل يعود علىٰ الرّسل تقديره من قبل مجيئ الرّسل لم يسلب منهم إسم الكفر و التّكذيب بل بقوا كافرين مكذّبين كما كانوا قبل الرّسل.

و قال الزمخشرى: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيئ الرّسل بالبيّنات بما كذّبوه من آيات اللّٰه قبل مجيئ الرّسل و الأقوال كثيرة متشتّة في متون التفاسير.

وأنا أقول لعّل منشأ هذا الإختلاف هو قوله: **مِنْ قَبْلُ** و أنّه يعود علىٰ أيّ شيئ، فأن قلنا أنّه يعود علىٰ الرُّسل فالمعنى ما كانوا هؤلاء الكفّار ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل مجيئ الرُّسل من التوحيد و النُّبوة و المعاد أي كان ينبغي لهم أن يؤمنوا بعد مجيئ الرُّسل لمّا رأوا المعجزات، و أن قلنا أنّه يعود على العذاب، فمعناه ما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به قبل مجيئ العذاب فلا محالة وقعوا في العذاب و ذلك لأنّه كان في معلومنا أنّهم لا يؤمنون، و هذا المعنى الأخير ممّا إختلج بالبال و اللّٰه أعلم بكلامه **كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ الْكٰافِرِينَ** قد مرَّ الكلام في الطّبع و الختم على القلوب بما لا مزيد عليه و وجه التّشبيه ظاهر أي مثل ذلك الطّبع علىٰ قلوب أهل القرىٰ حين أنتفت عنهم قابليّة الإيمان بسبب طغيانهم و تمرّدهم و تمرّنهم على المعاصي و

تساوي أمرهم في الكفر قبل المعجزات و بعدها يطبع اللّه علىٰ قلوب الكافرين ممّن أتىٰ بعدهم لوحدة الملاك فيهم جميعاً.

وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنٰآ أَكْثَرَهُمْ لَفٰاسِقِينَ

كلمة، **ما**، نافية و أختلفوا في المراد بالعهد فقيل هو الّذي عوهدوا عليه في صلب آدم.

و قيل: هو الإيمان بدليل قوله: إلاّ من إتّخذ عند اللّه عهداً، و هو لا إلٰه إلاّ اللّه.

وقيل: المراد به ما جعله اللّه في عقولهم من وجوب شكر المنعم والقيام بحقّه.

و قيل: ما عهد اليهم مع الأنبياء أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً.

أقول: قد ورد في كثير من الأيات ما يدلّ على هذا:

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ عَهِدْنَآ إِلىٰ اٰدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**(١).

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِيٓ اٰدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطٰانَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ**(٣).

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ**(٤) و غيرها من الأيات.

إنّما قال لأكثرهم ولم يقل لجميعهم لأنّ في بني آدم من يفي بعهده و هو ممّا لا ينكر **وَ إِنْ وَجَدْنٰآ أَكْثَرَهُمْ لَفٰاسِقِينَ** ان مخفّفة من الثّقيلة و إسمها محذوف أي و إنّا وجدنا أكثرهم أي أكثر النّاس لفاسقين.

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِاٰيٰاتِنٰآ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهٰا فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ

١- طه = ١١٥
٢- يٰس = ٦٠
٣- النّحل = ٩٢
٤- البقرة = ٢٧

هذا هو القصّة السّادسة من القصص الّتي ذكرها اللّه تعالىٰ لنبّيه لتعتبر بها أمّته الىٰ يوم القيامة و هى قصّة موسىٰ بن عمران عليه السلام فقال: **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ** أي من بعد الأنبياء الّذين كانوا قبل موسىٰ من آدم عليه السلام الىٰ موسىٰ و يحتمل أن يكون المراد نوح و هود و صالح و شعيب الّذين بعثوا الىٰ النّاس فكذّبوهم و أنزل اللّه العذاب عليهم و أهلكهم جميعاً و هكذا قوم بني إسرائيل وكيف كان فقد بعث موسىٰ الىٰ قومه، و قد ذكر اللّه في قصّة موسىٰ ما لم يذكره في سائر القصص و ذلك لأنّ معجزات موسىٰ كانت أقوىٰ من معجزات غيره من الأنبياء وكما أنّ عدّوه فرعون كان أقوىٰ من أعداء سائر الأنبياء و أيضاً جهل قومه كان أفحش و أعظم من سائر الأقوام و في قوله تعالىٰ: **بِآيَاتِنَا** إشارة الىٰ أنّ النّبي لابّد له من آية و معجزة بها يمتاز عن غيره إذ لو لم يكن مخّتصاً بها لم يكن قبول قوله أولىٰ من قبول قول غيره بل لم يكن قبوله أولى من عدمه و الآيات جمع الآية و هى العلامة سمّيت بها لأنّها علامة صدق النّبي و أنّه مبعوث من قبل اللّه فهي تدّل علىٰ أنّ النّبي له رابطة بعالم الغيب و إنّما أتىٰ بها بصيغة الجمع فقال بآياتنا لأنّه تعالىٰ أعطاه آيات كثيرة و معجزات كثيرة **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فِرعَون**، بكسر الفاء وسكون الرّاء وفتح العين إسم أعجّمي و قد إعتبر أرامته فقيل تفرعن فلان إذا تعاطى فعل فرعون كما يقال أبلس و تبلّس و منه قيل للطّغاة الفراعنة و الأبالسة و المراد بالملأ الجماعة من إتّباع فرعون أو من خواصّه و أقاربه **فَظَلَمُوا بِهَا** أي جحدوا بالآيات و أنكروها و قيل جعلوا بدل الإيمان الكفر بها لأنّ الظّلم وضع الشّئ في غير موضعه الّذي هو حقّه و لمّا كان حقّ المعجزة القبول بمقتضى العقل فإنكارها بمنزلة وضعها في غير محّلها **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** و التّعبير بالمفسدين، للإشعار بأنّ فرعون و ملائه كانوا من المفسدين في الأرض و هو كان كذلك بل هو من أعظم مصاديق المفسدين فيما نعلم و عاقبة الفساد و الإفساد هو الخسران بلا كلام **وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ**

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ مبعوث إليك و الىٰ قومك، و، من، في قوله من ربّ العالمين لإبتداء الغاية لأنّ المرسل المبتدأ بالرّسالة وإنتهاءها المرسل اليه، و **موسىٰ** علىٰ وزن مفعل والميم فيه زائدة لكثرة زيادتها كالهَمزة الّتي صارت أغلب من زيادة الألف أخيراً، و هو أي، موسىٰ، إسم لا ينصرف للعجمة و المعرفة و فرعون كذلك **حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَنْ لَآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ** أي قال موسىٰ لفرعون بعد إعلامه الرّسالة من اللّه ربّ العالمين، **حَقِيقٌ عَلَىٰٓ** أي أنّ الرّسول لا يقول إلاّ الحقّ فكأنّه قال أنا رسول اللّه اليك و الى قومك و الرّسول لا يقول إلاّ الحقّ ينتج إنّي لا أقول إلاّ الحقّ و صورة القياس هكذا، أنا رسول اللّه، وكلّ رسول لا يقول إلاّ الحقّ، فأنا لا أقول إلاّ حقّاً و هو المطلوب، أمّا الصّغرىٰ فثابتة لقوله: **إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**.

و أمّا الكبرىٰ و هى أنّ الرّسول لا يقول إلاّ الحقّ فهي ثابتة عقلاً و نقلاً لأنّ الرّسول لابّد أن يكون معصوماً مأموناً عن الخطأ قولاً و فعلاً و إلاّ لا يعتمد عليه.

قال المفسّرون: حقيقٌ علّي، أي واجب علّي أن لا أقول علىٰ اللّه إلاّ الحقّ و قال بعضهم أي جدير و خليق علّي كذا لأنّي نبّيٌ من ربّ العالمين و شأن المخبر عن اللّه أن لا يقول إلاّ الحقّ، و قال قوم تمّ الكلام عند قوله: **حَقِيقٌ** و قوله: **عَلَىَّ أَنْ لَآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ** مبتدأ و خبر **قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** هذا الكلام كأنّه جواب عن سؤال مقدّر و هو أنّ موسىٰ عليه السلام لمّا قال لفرعون يا فرعون إنّي رسول من ربّ العالمين الىٰ قوله: **إِلَّا ٱلْحَقَّ** كأنّه قال فرعون في جواب موسىٰ ما الدّليل علىٰ صدق مدّعاك فقال موسىٰ قد جئتكم ببيّنةٍ من ربّكم، تدّل علىٰ صدق مقالتي لو كنتم تعقلون و إنّما قال من ربّكم ولم يقل من ربّي إشعاراً بأنّ لك ربٌّ فكيف تدّعي الألوهّية و أنت مخلوق له فقولك إنّا ربّكم الأعلىٰ كذبٌ محض ودعوى بلا برهان ثمّ قال له، فأرسل معي بني إسرائيل، أي أطلق عنهم و خلّهم فرعون قد

إستخدمهم في الأعمال الشّاقة مثل ضرب اللّبن و نقل التّراب و الأحجار الثّقيلة و عند ذلك قال فرعون لموسىٰ فأت بالبّينة الّتي تدّعيه كما حكى اللّه عنه.

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

و هذا أعني المطابقة بالبّينة حقّ لاكلام فيه لأنّ البيّنة على المدّعي و حيث أنّ موسىٰ كان مدّعياً للرّسالة فالبيّنة عليه و لذا لم يرّد علىٰ فرعون في قوله هذا بل أتى بها كما قال تعالىٰ: **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ.**

إعلم أنّ فرعون طلب من موسىٰ آية من الأيات الدالّة علىٰ صدق مدّعاه و الطّبيعة الكلّية توجد بوجود فردها كما أنّها تعدم بعدم جميع الأفراد فلو أتى موسىٰ بآيةٍ واحدة كانت كافية وافية و لكّنه أتىٰ بآيتين بدل الواحدة إتماماً للحجّة و إفحاماً للخصم فأنّ دلالة آيتين، على المدّعي أشّد و أثبت من دلالةِ آيةٍ واحدة فأتى موسىٰ بهما ليهلك من هلك عن بيّنةٍ.

فالبّينة الأولىٰ: هي صيرورة العصا ثعباناً.

الثّانية: نزع اليد و هى بيضاء للنّاظرين، و إنّما بدأ موسىٰ بالعصا دون سائر المعجزات لأنّها تحتوي علىٰ معجزات كثيرة.

منها، أنّه ضرب بها باب فرعون ففزع من قرعها فشاب رأسه فخضب بالسّواد فهو أوّل من خضب بالسّواد.

و منها، إنقلابها ثعباناً و إنقلاب خشبته لحماً و دماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز و يحصل من إنقلابها ثعباناً من التّهويل ما لا يحصل في غيره.

و منها، ضربه بها الحجر فينفجر عيوناً.

و منها، ضربه بها فتنبت.

و منها، محاربته بها اللّصوص و السّباع القاصدة غنمه.

و منها، إشتعالها في اللّيل كإشتعال الشَّمعة.

و منها، صيرورتها كالرّشا لينزح بها الماء من البئر العميقة.

و منها، تلّقفها الحبال و العصي التّي للسحرة و إبطالها لما صنعوه من كيدهم و سحرهم و غير ذلك من الأثار المترّتبة علىٰ العصا، و ليعلم أنّ الإلقاء حقيقةٌ هو في الإجرام و مجاز في المعاني نحو ألقى المسئلة.

قال ابن عبّاس و السُّدي صارت العصا حيَّة عظيمة شعراء فاغرة فاها ما بين لحيتها ثمانون ذراعاً و قيل أربعون نقل أنّها وضعت أحد لحيتها بالأرض و الأخر علىٰ سور القصر و ذكروا من إضطراب فرعون و فزعه و هربه و وعده موسىٰ بالإيمان أن عادت الىٰ حالها.

فعن العيّاشي عن عاصم رفعه قال أنّ فرعون بنىٰ سبع مدائن يتَّحصن فيها من موسىٰ و جعل فيما بينها أجاماً و غياضاً و جعل فيها الأسد ليتَّحصن بها من موسىٰ فلمّا بعث اللّه موسىٰ الىٰ فرعون فدخل المدينة فلمّا رأه الأسد تبصبصت و وَّلت مدبرة قال ثمّ لم يأت مدينة إلاّ إنفتح له بابها حتّى انتهى الى قصر فرعون الّذي هو فيه قال فقعد علىٰ بابه و عليه مدرعة من صوف و معه عصاه فلمَّا خرج الإذن قال له موسىٰ إستأذن لي على فرعون فلم يلتفت اليه قال فمكث بذلك ما شاء اللّه يسأله أن يستأذن له فلَّما أكثر عليه قال له أما وجد ربّ العالمين من يرسله غيرك قال فغضب موسىٰ فضرب الباب لعصاه فلم يبق بينه و بين فرعون بابٌ إلاّ إنفتح حتّىٰ نظر اليه فرعون و هو في مجلسه فقال أدخلوه فدخل اليه و هو في قبّة له مرتفعة كثيرة الإرتفاع ثمانون ذراعاً قال فقال موسىٰ له أنّي رسول ربّ العالمين اليك فقال فرعون فأت بها أن كنت من الصّادقين قال فألقى عصاه و كان له شفتان فاذا هي حيَّة قد وقع إحدى الشَّفتين في الأرض والشَّفة الأُخرىٰ في أعلىٰ القُبّة قال فنظر فرعون في جوفها و هى تلتهب نيراناً قال، و أهوت اليه ما حدث و صاح يا موسىٰ خذها انتهى[1].

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ٥٤

وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ قال الطّبرسي في المجمع قيل أنّ فرعون قال له هل معك آيةٌ أخرىٰ قال موسىٰ نعم فأدخل يده في جيبه و قيل تحت إبطه ثمّ نزعها أي أخرجها منه و أظهرها فاذا هي بيضاء أي لونها أبيض نوري و لها شعاع تغلب نور الشّمس وكان موسىٰ عليه السلام أدم فيما يروي ثمّ أعاد اليد الىٰ كمّه فعادت الىٰ لونها الأوّل انتهى كلامه.

و عن ابن عبّاس قال، صارت نوراً ساطعاً يضيئ له ما بين السّماء و الأرض له لمعان مثل لمعان البرق فخرّوا على وجوههم.

و قال الطّبري في تفسيره أخرج يده من جيبه فرأها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص ثمّ أعادها الىٰ كمّه فعادت الى لونها الأوّل و ذكر في الباب روايات كلّها بهذا المضمون.

أقول قد مرّ الكلام في قصّة موسىٰ و بني إسرائيل في سورة البقرة مفصّلاً و ذكرنا هناك نسب موسىٰ و قومه و قصّة فرعون و ملائه فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً و سيأتي عند تفسير الأيات الواردة في قصّة موسىٰ و فرعون في المستقبل أيضاً.

و أمّا قصّة العصا فقيل أنّه أعطاه ملك حين توّجه الى مدين و قيل أنّ عصا أدم من أس الجنّة حين أهبط و كان يدور بين أولاده حتّىٰ إنتهت النّبوة الى شعيب فكان ميراثاً له مع أربعين عصا كانت لأباءه فلمّا إستأجر شعيب موسى أمره بدخول بيت فيه العصا و قال له خذ عصاً من تلك العصى فوقع تلك العصا بيد موسى فإستردّه شعيب و قال خذ غيرها حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات في كلّ مرّةٍ يقع يده عليها دون غيرها فتركها في يده في المرّة الرّابعة فلمّا خرج من عنده متوّجهاً الىٰ مصر و رأى ناراً أتى الشّجرة فناداه اللّه أن يا موسىٰ أنّي أنا اللّه و أمره بإلقاءها فصارت حيّة فوّلى هارباً فناداه اللّه سبحانه خذها و لا تخف فأدخل يده بين لحيها فعادت عصا فلمّا أتىٰ فرعون ألقاها

بين يديه علىٰ ما تقدّم بيانه انتهىٰ ما ذكره الطّبرسي في قصّة العصا **قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** هذا ما حكاه اللّه تعالىٰ عن أشراف قوم فرعون أنّهم لمّا رأوا ما رأوا من الإعجاز قالوا أنّ هذا أي موسىٰ لساحرٌ عليم، حملوا إعجاز موسىٰ عليه السلام علىٰ السّحر كما هو دأب المعاند و الجاهل و فى قوله: **عَلِيمٌ** إشارة الى علم موسى بالسِّحر و مهارته فيه فأنّ العليم مبالغة في العلم و المعنىٰ أنّه وصل في هذا العلم الىٰ نهايته.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

أي يريد موسى أن يخرجكم من أرضكم، بإزالة ملككم بتقوية أعداءكم عليكم و قال بعضهم لبعضٍ ماذا تأمرون، و يحتمل أن يكون قالوا ذلك لفرعون علىٰ خطاب الملوك و يحتمل أن يكون هذا من كلام فرعون و أنّه خاطب الملاء من قومه و أتباعه و قال لهم ماذا تأمرون أن نفعل بموسىٰ.

■

قَالُوٓا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَ
جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا
نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوٓا يَا مُوسَىٰٓ إِمَّآ أَنْ تُلْقِىَ وَ
إِمَّآ أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ
أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَ
جَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾
فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَ ٱنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَ أُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ
ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

◁ اللّغة

أَرْجِهْ بفتح الألف أمرٌ من أَرجه الأمر اذا تأخّر عن وقته.

ٱلْمَدَآئِنِ جمع المدينة.

حَاشِرِينَ قيل هم أصحاب الشُّرط.

سَاحِرٍ إسم فاعل من السِّحر و أصل السِّحر خفاء الأمر منه خيط السّحارة لخفاء الأمر فيها.

وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ، الرَّهبَة والرُّعب مخافة مع تحَرّزٍ و إضطرابٍ.

صَاغِرِينَ، الصّاغِر الذّليل الحقير.

◁ الإعراب

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ و أرجئه يقرأ بالهَمزة ضمّ الهاء من غير إشباعٍ و هو الجَّيد و يقرأ بالإشباع و هو ضعيف لأنّ الهاء خفيّة فكان الواو التّي بعدها تتلوالهَمزةقريب من الجمع بين ساكنين و يقرأ بكسر الهاء مع الهَمز و هو أيضاً ضعيف لأنّ الهَمز حرف صحيح ساكن فليس قبل الهاء ما يقتضي الكسر إِمَّآ أَنْ تُلْقِيَ في موضع أن، و الفعل وجهان:

أحدهما: رفع أي أمرنا با الإلقاء.

الثّانى: نصب أي إمّا أن تفعل الإلقاء وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ التّاء للطّلب أي طلبوا إرهابهم و قيل هو بمعنىٰ إرهبوهم مثل، قرَّ و إستَّقر أَنْ أَلْقِ يجوز أن تكون، أن، مصدّرية و أن تكون بمعنىٰ، أي تَلْقَفُ مضارع و ماضيه، لقف مثل علم، و الأصل تتّلقف فأدغمت الأولىٰ و الثّانية و وصلت بما قبلها فأغنى عن هَمزة الوصل يقرأ بفتح اللاّم و تشديد القاف مع تخفيف التّاء مثل، تكّلم قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا يجوز أن يكون حالاً أي فإنقلبوا صاغرين قد قالوا و يجوز أن يكون مستأنفاً رَبِّ مُوسَىٰ بدل ممّا قبله، و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◁ التّفسير

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ

قرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً، سحّار بتشديد الحاء و ألف بعدها و الباقون ساحر على وزن الفاعل و معنى الآية. انّ قوم فرعون قالو بعد استشارته ايّامهم بان يوخّر و اخاه الى ان يرسل فى بلاد مملكته حاشرين.

و قال ابن عبّاس هم الشّرط و قال مجاهد و السُّدي يحشرون من يعلمونه من السّحرة و العالمين بالسِّحر ليقابل بينهم و بين موسىٰ جهلاً منهم بأن ذلك ليس بسحرٍ.

و قال محمّد بن إسحاق لمّا رأىٰ فرعون من أيات اللّه ما رأى قال لن نغالب موسى إلاّ بمن هو منه فإتَّخذوا غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم الى قرية.

قال البغوي هي الغر ما يعلّمونهم السّحر كما يعلّمون الصّبيان في المكتب فعلَّموهم سحراً كثيراً و واعد فرعون موسى ثمّ دعاهم و سألهم فقال ماذا صنعتم قالوا ما علَّمناهم من السِّحر ما لا يقاومهم به أهل الأرض إلاّ أن يكون أمراً من السّماء فأنّه لا طاقة لنا به.

و قال بعض المفسّرين، معناه و أرسل في مدائن صعيد مصر رجالاً يحشروا اليك ما فيها من السَّحرة و كان رؤساء السَّحرة بأقصى مدائن الصّعيد و قيل أنّهم أي السّحرة كانوا سبعين ساحراً سوى رئيسهم و كان الّذي يعلّمهم رجلاً مجوسيّاً من أهل نينوى بلدة يونس عليه‌السلام و هى قرية بالموصل.

قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه:

أقول هذا النَّقل مشكل لأنّ المجوس أتباع زرادشت و هو أنّما جاء بعد مجيئ موسى عليه‌السلام انتهى كلامه.

و أنا أقول أماً أنّ هذا النّقل مشكل فلاكلام لنا فيه اذ لا دليل عليه و أمّا قوله أنّ زرادشت جاء بعد مجيئ موسىٰ، ففيه أنّ زرادشت لم يثبت وجوده في العالم و على فرض وجوده لم يثبت نبّوته و على فرض الثّبوت لم يعلم زمان نبّوته فقوله جاء بعد مجيئ موسى يحتاج الى الإثبات و هو أشكل.

و أمّا قوله تعالىٰ: **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** فهو يدّل علىٰ أنّ السَّحرة كانوا كثيرين في ذلك الزّمان فقال بعضهم أنّ عدّتهم كان أثني عشر ألفاً و قيل بضعة و ثلاثون ألفاً و قيل سبعون ألفاً و قيل غير ذلك و الحقّ أنّ عدّتهم لا يعلمها إلاّ اللّه.

و عن إبن عبّاس أنّهم كانوا سبعين ساحراً **وَ جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ** أي لمّا أمر فرعون بإحضار السَّحرة فقالوا له أي لفرعون أنّ لنا لأجراً أي جعلاً أن كنّا نحنُ

الغالبين على موسى في سحرنا هذا فقال فرعون نعم و أنكم لمن المقرّبين عندنا و من المعلوم أنّ من كان مقرّباً عند السُّلطان فله ما يشاء.

قال بعض المفسرين في الآية دليل لقوم فرعون على حاجته و ذلّته لو إستدلّوا و أحسنوا النظر لنفوسهم لأنّه لم يحتجّ الى السَّحرة إلاّ لذلّةٍ و عجزٍ و كذلك في طلب السَّحرة الأجر دليل علىٰ عجزهم عمّا كانوا يدّعون من القدرة على قلب الأعيان لأنّهم لو كانوا قادرين علىٰ ذلك لإستغنوا عن طلب الأجر من فرعون و لقلّبوا الصَّخر ذهباً و لقلّبوا فرعون كلباً و إستَولوا علىٰ ملكه.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّآ أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّآ أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ أي قال السَّحرة لموسىٰ كذلك و قد أنصفوا في قولهم هذا **قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**

أي قال موسى لهم ألقوا أعطاهم موسىٰ التَّقدم في الإلقاء وثوقاً بالحقّ و علماً بأنّه تعالىٰ سيبطله فلّما ألقوا ما ألقوا من السِّحر سحروا أعين النّاس، أي أروا العيون بالحيل و التَّخيلات ما لا حقيقة له و فى هذا الكلام دلالة علىٰ أنّ السِّحر لا يقلّب عيناً و أنّما هو من باب التَّخيل و التَّمويه و قوله: **ٱسْتَرْهَبُوهُمْ** و إستفعل هنا بمعنىٰ أفعل و الرَّهبة الخوف و الفزع و أنّما وصف السّحر بعظيم لقوّة ما خيّل أو لكثرة ألاته من الحبال و العصي قيل أنّهم جاءوا بحبال من أدم و أخشاب مجوَّفة مملّوة زيبقاً و أوقدوا في الوادي ناراً فحميت بالنّار من تحت و بالشّمس من فوق فتحرّكت و ركب بعضها بعضاً و هذا من باب الشُّعبذة و قيل غير هذا و قال بعض المفسّرين و وصف السّحر بأنّه عظيم، لبعد مرام الحيلة فيه و شدّة التّمويه به فهو لذلك عظيم الشّأن عند من يراه من النّاس و لأنّه علىٰ ما ذكرناه من الخلاف في عدّة السَّحرة من سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً كان مع كلّ واحدٍ حبل و عصا فلمّا ألقوها و خيل الىٰ النّسا أنّها تسعى إستعظموا ذلك و خافوه فلذلك وصفه اللّه بأنّه سحرٌ عظيم انتهى كلامه.

قول الحقّ أن يقال أنّ ما جاءوا به كان عظيماً في أعين النّاس لا أنّه كان عظيماً واقعاً و ذلك لأنّ ما لا حقيقة له لا يوصف بالعظمة واقعاً و أنّما يوصف بها ظاهراً في أعين النّاس.

وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

أي لمّا أتوا بالسّحر العظيم أوحينا الى موسى أن ألق عصاك فألقى عصاه فصارت حيّة فاذا هي تلقف أي تبتلع تناولاً بفيها بسرعةٍ منها، ما يأفكون، الإفك هو قلب الشّئ عن وجهه و منه المؤتفكات، المنقلبات، و الإفك الكذب لأنّه قلب المعنىٰ عن جهة الصّواب و لذلك قال تعالى فوقع الحقّ و بطل ما كانوا يعملون، أي ظهر الحقّ على يد موسى فلا محالة بطل ما كانوا يعملون من التّخيلات و التّمويهات لأنّ الحقّ و الباطل لا يجتمعان قال اللّه تعالىٰ: **جَآءَ ٱلْحَقُّ وَ زَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا**(١).

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَ ٱنْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ، وَ أُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ، قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ، رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّه لمّا ألقى موسى عصاه و صارت حيّة و تلقّفت ما أفكت السَّحرة أنّهم أي غلبوا هنالك و أنقلبوا صاغرين، أي صاروا مغلوبين و رجعوا أذّلاء و الصّاغر الذّليل و المعنىٰ أنّهم غلبوا في مكان إجتماعهم أو ذلك الوقت و ذلك أنّ الإنقلاب أن كان قبل إيمان السَّحرة فهم شركائهم في ضمير إنقلبوا وأن كان بعد الايمان فليسوا داخلين في الضّمير و لا لحقهم صغار يصفهم اللّه به لأنّهم آمنوا و أستشهدوا و هذا إذا كان الإنقلاب حقيقة أمّا إذا لوحظ فيه معنى الصّيرورة فالضّمير في و أنقلبوا شامل للسَّحرة و غيرهم و لذلك فسّره بعض المفسّرين بقوله و صاروا أذّلاء مبهوتين **وَ أُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ** أي

١- الاسراء = ٨١

خرّوا سجّداً كأنّما ألقاهم فلقٍ لشّدة خرورهم، وقيل لم يتمالكوا ممّا رأوا فكأنّهم ألقوا، قالوا أنّ سجودهم كان للّه تعالى لمّا رأوا من قدرة اللّه فتيقّنوا بنبّوة موسىٰ عليه‌السلام و أستعظموا هذا النّوع من قدرة اللّه، ألقاهم اللّه سجّداً، و قيل سجدوا موافقة لموسى و هرون فأنّهما سجدا للّه شكراً على وقوع الحقّ و بطلان عمل السّحرة فوافقوهما إذ عرفوا الحقّ فكأنّما ألقياهم، قال قتادة كانوا أوّل النّهار كفّاراً سحرة و آخر النّهار شهداء، بررة.

أقول الحقّ أنّ السّجدة في قوله تعالىٰ: **وَ أُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰاجِدِينَ** ليست بمعنىٰ المصطلح عند المتشرّعة أعني به وضع الجبهة علىٰ الأرض تقرّباً اليه، بل المراد بها في المقام هو معناها اللّغوي و هو التّطامن و التّذلل و التّواضع و الخشوع في قبال عظمة اللّه و عليه فالمعنىٰ أنّهم أي السَّحرة قبل رؤيتهم قدرة اللّه تعالىٰ كانوا من المتكبّرين ثمّ صاروا بعدها متواضعين متذلّلين في جنب عظمته و قدرته وكيف كان فالآية تدلّ علىٰ خضوعهم و أنّهم صاروا منقادين مطيعين مؤمنين بربّ العالمين كما قال اللّه حكاية عنهم **قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** الّذي خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات فأنّ العالمين يصدق علىٰ جميع ما سوى اللّه و لقائلٍ أن يقول أنّ موسىٰ و هرون كانا داخلين في العالمين و لازم ذلك أنّ اللّه تعالى كان ربّهما كما كان ربّ غيرهما من الموجودات فمن آمن بربّ العالمين آمن بربّ موسى و هارون أيضاً فما وجه تخصيصهما بالذّكر حيث قال: **رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ**.

و الجواب أنّ اللّه تعالىٰ لم يكن ربّ العالمين في إعتقاد فرعون و أتباعه لأنه كان يقول لهم أنا ربّكم الأعلى، فلو قال السَّحرة **ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** وأكتفوا بهذا الكلام لقال فرعون و من تبعه أراد السَّحرة من كلامهم هذا فرعون فأنّه ربّ العالمين، و لمّا قالوا **رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ** أزالوا الشُّبهة عن قلوب الحاضرين، فهذا من قبيل ذكر الخّاص بعد العّام و يمكن أن يكون قولهم **رَبِّ**

مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ إشارة الىٰ نكتته خفّيةٍ دقيقة و هى إنّا آمنّا بـرّب مـوسى و هارون، الّذي أقدرهما على إبطال السِّحر بسبب المعجزة و من المـعلوم أنّ الرّب القادر علىٰ كلّ شئ هو إلٰه موسى و هارون.

و أمّا فرعون فأن كان قادراً علىٰ ذلك لكان قادراً علىٰ دفعه أيضاً و التّالي باطل فالمقدّم مثله فهو ليس بربّ العالمين و هو المطلوب و لنعم ما قيل:

قل للّـذي يَـدَّعي فـي العـلم فَـلسفةً حَفِظت شيئاً وغـابت عـنك أشـياء

■

قَالَ فِرْعَوْنُ اٰمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ اٰذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰـذَا
لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْـمَدِينَةِ لِـتُخْرِجُوا مِـنْهَآ
أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ
أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُـمَّ لَأُصَـلِّبَنَّكُمْ أَجْـمَعِينَ
﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُـنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَ مَا
تَنْقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ اٰمَنَّا بِاٰيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَ قَالَ
ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُـوسٰى وَ قَـوْمَهُ
لِيُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ اٰلِـهَتَكَ قَـالَ
سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ
قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسٰى لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ
وَ ٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَ ٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا أُوذِينَا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَـالَ عَسٰـى
رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَـدُوَّكُـمْ وَ يَسْـتَخْلِفَكُمْ فِـى
ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

◁ اللّغة

لَمَكْرٌ، المَكر قيل الإغترار بالحيلة الىٰ خلاف جهة الإستقامة و قيل هـو صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ.

تَنْقِمُ مضارع ماضيه نَقِم و النَّقم الإنكار يقال نقمت الشّيْ و نقمته اذا أنكرتَه أمّ باللّسان و أمّا بالعقوبة قاله الرّاغب في المفردات.

أَفْرِغْ، الفراغ خلاف الشُّغل يقال أفرغت الدَّلو صببت ما فيه.
ٱلْمَلَأُ الجماعة.

◁ الإعراب

ءَامَنتُمْ قد يقرأ بهمزتين على الإستفهام و قد يقرأ بهمزة واحدة علىٰ لفظ الخبر فيجوز أن يكون خبراً في المعنى و أن يكون بحذف همزة الإستفهام وَمَا تَنقِمُ بكسر القاف و فتحها يُورِثُهَا يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون حالاً من اللّه.

◁ التّفسير

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُمْ بِهِ أي قال فرعون للسَّحرة أمنتم به أي بربّ العالمين قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ أي أمنتم به من عند أنفسكم من غير إستئذان منّي إِنَّ هَٰذَا أي أنّ هذا الإيمان منكم لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ إحتلتموها أنتم و موسىٰ في مصر قبل أن تخرجوا منها الىٰ هذه الصّحراء و تواطأتم على ذلك لغرضٍ لكم و هو أن تخرجوا منها القبط و تسكنوا بني إسرائيل.

و أنّما قال فرعون ما قال تمويهاً علىٰ النّاس لئلاّ يتّبعوا السَّحرة في الإيمان فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ جزاء مكركم هذا منّي، قيل أنّ موسىٰ إجتمع مع رئيس السَّحرة شمعون فقال له موسىٰ أرأيت أن غلبتكم أتؤمنون بي فقال له نعم فعلم بذلك فرعون فقال ما قال.

و قال بعض المفسّرين أنّ فرعون لمّا رأى أنّ أعلم النّاس بالسّحر أقرَّ بنّبوة موسى عليه‌السلام عند إجتماع الخلق العظيم خاف أن يصير ذلك حجّة قوّية عند قومه على صحّة نبّوة موسى عليه‌السلام فألقى في الحال نوعين من الشّبهة الى أسماع العوام لتصير تلك الشّبهة مانعة للقوم من إعتقاد صحّة نبّوة موسى عليه‌السلام.

فالشّبهة الأولىٰ: قوله: **إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ** والمعنىٰ أنّ إيمان هؤلاء السَّحرة بموسىٰ عليه السلام ليس لقوّة الدّليل بل لأجل أنّهم تواطؤوا مع موسىٰ أنّه اذا كان كذا و كذا فنحن نؤمن بك و نقّر بنّبوتك فهذا الإيمان أنّما حصل بهذا الطّريق.

و الشّبهة الثّانية: أنّ غرض موسى و السَّحرة فيما تواطؤوا عليه إخراج القوم من المدينة و إبطال ملكهم و معلوم عند جميع العقلاء أنّ مفارقة الوطن و النّعمة المألوفة من أصعب الأمور فجمع فرعون اللّعين بين الشّبهتين اللّتين لا يوجد أقوى منها في الباب انتهىٰ.

و روي الطّبري عن السُّدي في حديث عن ابن عبّاس و ابن مسعود و غيرهما أنّ موسى و أمير السَّحرة إلتقيا فقال موسى عليه السلام أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي و تشهد أنّ ما جئت به الحقّ قال السّاحر لأتينّ غداً بسحرٍ لا يغلبه سحر فواللّه لأؤمننّ بك إن غلبتني و كان فرعون ينظر اليهما و يسمع قولهما فهذا هو قول فرعون **إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ** انتهى.

أقول ما رواه الطّبري عن السُّدي عن ابن عبّاس و غيره لا دليل عليه بل هو بالموهومات أشبه اذ كيف يعقل أن يتّكلم السّاحر بهذه المقالة و فرعون ينظر و يسمع و هو و كيف كانت القضّية لا شكّ أنّهم أمنوا بربّ موسى و هارون بصريح الآية بل نقول لا تدّل الآية علىٰ أنّهم أمنوا بنّبوة موسى اللّهم إلاّ من باب الملازمة بين الإيمان باللّه و الإيمان برسوله.

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

هدَّدهم فرعون بقطع الأيدي و الأرجل من خلاف و بعد ذلك بالصَّلب أمّا قطع الأيدي و الأرجل من خلافٍ، فقيل معناه هو القطع من جهتين مختلفتين إمّا من اليد اليمنى و الرّجل اليسرى أو من اليد اليسرى و الرّجل اليمنى و أمّا الصّلب فمعلومٌ لا خفاء فيه.

رَوىٰ في البحار عن الصَّدُوق بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال عليه السلام: أنّ فرعَون بَنىٰ سبع مَدائن فَتحَصّن فيها من موسىٰ فلمّا أمَره اللّه أن يأتي فرعَون جاءَه ودَخل المَدينة فلمّا رَأته الأسُود بَصبَصت بأذنابها ولم يأت مدينة إلاّ إنفتح له حتّىٰ انتهىٰ الىٰ التّي هو فيها فقَعد علىٰ الباب و عليه مِدرعَة من صُوف ومَعه عصاه فلمّا خَرَج الأذن قال له موسىٰ أنّي رسول ربّ العالمين اليك فَلَم يَلتفت فَضرب بعَصاه الباب فَلم يبق بينه وبَين فرعَون باب إلاّ إنفَتح فَدَخل عليه و قال أنا رسول ربّ العالمين فقال أئتِني بأيةٍ فَألقىٰ عَصاه وكان لها شعبتان فَوقعت إحدىٰ الشّعبتين في الأرض والشّعبة الأُخرىٰ في أعَلىٰ القُبّة فَنَظر فرعَون الىٰ جَوفها وهي تَلتَهب ناراً وأهَوت اليه فأحدث فرعَون وصاح يا موسىٰ خُذها و لَم يَبق أحَد من جلساء فرعَون إلاّ هَرَب فَلمّا أخذ موسىٰ العَصا هَمَّ فرعون بتصديقه فقام اليه هامان و قال بَينا أنت إلٰه تُعبَد لعبدٍ وإجتمع المَلاء وقالوا هذا ساحرٌ عليم فجمع السَّحرة لميقات يوم معلوم فلمّا ألَقوا حِبالهم وعصيّهم ألَقىٰ موسىٰ عَصاه فإلتَقمها كُلّهافي السَّحرة أثنان و سبعون شيخاً خرّوا سُجّداً ثمّ قالوا لفرعَون ما هذا سحر لو كانت سحراً لَبَقيت حبالنا وعَصيّنا الحديث(١).

و محصّل الكلام هو أنّ فرعون قطع أيديهم و أرجلهم بعد ذلك و صلبهم في جذوع النّخل علىٰ شاطئ نهر مصر.

قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ

أي قال السَّحرة لفرعون بعد تهديده أيّاهم بالقتل إنّا لا نخاف من القتل و ذلك لإنّا راجعون بالتّوحيد و الإخلاص و الإنقلاب الىٰ اللّه هو الإنقلاب الىٰ

١- ج ٥ ط كباني ص ٢٤٧

جزاءه و غرضهم التّسلي في الصّبر علىٰ الشدّة لما فيه من المثوبة مع مقابلة وعيده بوعيدٍ أشدّ منه و هو عقاب اللّه في الدّنيا و الآخرة.

وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ

السّحرة لفرعون و ما تنقم منّا، أي و ما تطعن علينا و لا تكرّه منّا إلاّ إيماننا باللّه و تصديقنا بآياته الّتي جاءتنا، ربّنا أفرغ علينا صبراً، أي أصبب علينا الصّبر عند القطع و الصَّلب حتّى لا نرجع كفّاراً بعد الإيمان **وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** لا كافرين و ذلك لأنّ الإنسان إذا رأى القطع و الصَّلب يرجع عمّا كان غالباً بوسوسة الشّيطان إلاّ أن يكون مؤيّداً من عند اللّه و لذلك **رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** أي إجعلنا صابرين علىٰ الشّدة والعذاب في طريق الحقّ و هو من أحسن الدّعاء.

ثمّ أنّ هذا الإستثناء في قوله و ما تنقم منّا إلاّ أن آمنّا بآيات ربّنا، شبيه بالإستثناء في قول الشّاعر:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيُوفهم ... بهّن فلولُ من قراع الكتائب

و إلاّ فالإيمان باللّه هو أصل المفاخر و المناقب على رغم أنف فرعون.

وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ

الظّاهر أنّهم قالوا في ذلك لفرعون بعذ قتل فرعون السَّحرة و صلبهم على جذوع النَّخل، و الملأ الجماعة و المراد بهم في الآية جماعة من قوم فرعون الّذين كانوا حاضرين في مجلسه و يعّبر عنهم بأعوان الظّلمة، فأنّهم قالوا لفرعون أتذر موسى، أي أتتركه و قومه من بني إسرائيل ليفسدوا في الأرض، أي في أرض مصر، و قيل لمّا أسلم السحّرة قالوا ذلك أي قبل قتل فرعون إيّاهم فقالوا له أتتركهم أحياء ليظهروا خلافك و يدعوا النّاس الى مخالفتك

ليغلبوا عليك فيفسد به ملكك و روي عن إبن عبّاس أنّه لمّا آمن السَّحرة أسلم من بني إسرائيل ست مائة ألف نفس و أتّبعوه و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ يَذَرَكَ وَ ءَالِهَتَكَ** فمعناه يذرك و آلهتك موسىٰ، أي يتركك و يترك آلهتك و أختلفوا في قوله **وَ ءَالِهَتَكَ** فقيل أنّ فرعون كان يعبد الأصنام و علىٰ هذا كان يعبد و يعبد كما حكى اللّه تعالىٰ عنه من قوله أنا ربّكم الأعلى، و قال السّدي كان فرعون يعبد ما يستحسن من البقر و على ذلك أخرج السّامري **عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَ إِلَٰهُ مُوسَىٰ**(١) و قال بعضهم إنّما كانت له أصنام يعبدها قومه تقّرباً اليه، و قرأ إبن عبّاس (ويذرك و آلهتك) بمعنى و عبادتك و قال كان فرعون يعبد و لا يعبد و قال آخرون، أنّ آلهتك، أنّما هو تأنيث إله و جمعه آلهتك كما قال الشّاعر:

تــرّوحنا مــن اللّــعباء قــصراً فأعــجَلنا الإلــهة أن تــؤوبا

يعني الشّمس، قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال المختلفة ما هذا لفظه الّذي يخطر ببالي أنّ فرعون أن قلنا أنّه ما كان كامل العقل لم يجز في حكمة اللّه تعالىٰ إرسال الرّسول اليه و أن كان عاقلاً لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالقاً للسّموات و الأرض ولم يجز في جمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك لأنّ فساده معلوم بضرورة العقل بل الأقرب أن يقال أنّه كان دهريّاً ينكر وجود الصّانع وكان يقول مدّبر هذا العالم السّفلي هو الكواكب.

و أمّا المجدي في هذا العالم للخلق و لتلك الطّاعة و المربّي لهم هو نفسه فقوله أنا ربّكم الأعلى أي مربّيكم و المنعم عليكم و المطعم لكم و قوله ما علمت لكم من إلهٍ غيري، أي لا أعلم لكم أحداً يجب عليكم عبادته إلاّ أنا و اذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يقال أنّه كان له أصناماً على صور الكواكب و يعبدها و يتّقرب اليها علىٰ ما هو دين عبدة الكواكب و على هذا التّقرير فلا إمتناع في حمل قوله تعالىٰ: **وَ يَذَرَكَ وَ ءَالِهَتَكَ** علىٰ ظاهره فهذا ما عندي في هذا الباب انتهى.

١- طه = ٨٨

وأنا أقول ما ذكره في تفسير الآية من الإستحسانات العقلية بل الوَهمية لا ربط له بالمقام و لا يؤيّده العقل الخالي عن شوائب الأوهام و ذلك لأنّ قوله و أن كان عاقلاً لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالقاً للسّموات و الأرض الخ. كلامٌ لا طائل تحته فأنّ مقام الإقرار اللّساني غير مقام الإعتقاد فأنّ الإنسان العاقل كثيراً ما يدّعي بلسانه ما يخاف إعتقاده و منشأ ذلك هو حبّ الدّنيا.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله حُبّ الدّنيا رأس كُلّ خطيئة.

فإذا كان الإنسان محبّاً للرّئاسة و الزّعامة و رأى أنّه لا يصل الى مطلوبه و محبوبه إلاّ بقلب الحقائق و الدّعاوي الكاذبة الباطلة فلا محالة يقول بلسانه ما ليس في قلبه و يدّعي ما ليس يعتقده في نفسه و هذا الأصل سارٍ و جارٍ في النّاس الى يوم القيامة إلاّ أنّ الدَّعاوي متفاوتة متغايرة فمنهم من يدّعي الألوهية و منهم من يدّعي النّبوة ومنهم من يدّعي الوصاية و الامامة و هكذا و المفروض أنّ جميعهم من العقلاء و محصّل الكلام هو أنّ مقام الأدّعاء اللّسانى غير المقام الإعتقاد القلبي فقول فرعون أنا ربّكم الأعلى لا ينافي إعتقاده على خلافه ألا ترى أنّ أبا بكر يدّعي خلافة رسول اللّه مع علمه بأنّ خليفة رسول اللّه أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السلام و الدّليل عليه قول علّي عليه السلام في الخطبة الشّقشقية حيث قال عليه السلام:

أَمٰا وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقمصَّهٰا ابْنُ أَبِی قُحافَةَ و اِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلِّی مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰی، الخ...

و قول أبي بكر، أقيلوني إقيلوني لست بخيركم و علّيٌ فيكم و أمثال ذلك من النّصوص الدّالة على كونه غاصباً لمقام الخلافة عالماً عامداً مع علمه و إعتقاده بعدم أهليّته لها حبّاً منه للرّئاسة و الخلافة و أشنع منه إدّعاء معاوية و أمثاله للخلافة أليس معاوية و غيره من الخلفاء في زمرة العقلاء، فأقض ما أنت قاض ثمّ أعجب.

قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ

أي قال فرعون للملاء سنقتّل أبناء بني إسرائيل و نستحي أي نستبقى نساءهم للمهنة و الخدمة من غير أن يكون لهم نجدة و لا عندهم منعة و الظّاهر أنّ هذا التّهديد وقع منه في غير الزّمان الأوّل و عليه فالمعنىٰ سنعيد عليهم ما كنّا فعلنا بهم من قبل من قتل أبناءهم و إستحياء نساءهم ليقتل رهطه الّذين يقع منهم الفساد و الفوقيّة هنا بالمنزلة و التّمكن في الدّنيا و قوله قاهرون، يقتضي تحقير موسىٰ و قومه و المعنىٰ إنّا كنّا غائبين قاهرين على موسى و قومه قبل هذا و الآن أيضاً كذلك.

أو المعنىٰ أنّ غلبة موسىٰ لا أثر لها في ملكنا و إستيلائنا و لئلا يتّوهم العّامة أنّه المولود الّذي تحدّث المنّجمون عنه و الكهنة بذهاب ملكنا على يده فيمنعهم ذلك عن طاعتنا و الحاصل إنّا على ما كنّا عليه من الغلبة و القدرة.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ ٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ ٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

لمّا توعدّهم فرعون جزعوا و تضجّروا و خافوا من سطوة فرعون فسكنهم موسى عليه السلام و أمرهم بالإستعانة و الإستمداد من اللّه تعالى و بالصّبر على الشّدائد في طريق الحقّ ثمّ سلاّهم و وعدهم بالنّصر و ذكرّهم ما وعد اللّه بني إسرائيل من إهلاك القبط و توريثهم أرضهم و ديارهم و قال لهم أنّ الأرض أي أرض مصر أو مطلق الأرض ليست خالصة لفرعون و أمثاله بل هي للّه تعالى يجعلها لمن يشاء من عباده، و العاقبة للمتّقين، أي النّصر و الظّفر لهم،الدار الآخرة، و قيل السّعادة و الشّهادة، و قيل الجنّة، و الجامع هو أنّ الخاتمة المحمودة للمتّقين.

و أنّما قال و العاقبة للمتّقين ولم يقل لكم مثلاً، لأنّ الملاك التّقوى فكأنّه قال تمسكوا بالتّقوىٰ فأنّ حسن العاقبة في الدّارين للمتّقين.

قَالُوٓا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

أي قال بني إسرائيل لموسىٰ أوذينا من قبل أن تأتينا، بإبتلاءنا بذبح أبناءنا مخافة ما كان يتّوقع فرعون من هلاك ملكه علىٰ يد المولود الّذي يولد منّا من قبل أن تأتينا، و أنّما قالوا ذلك لأنّ فرعون كان يعذّبهم بأنواع العذاب قبل مجيئ موسى فكان يقتل أبناءهم و يستخدم نساءهم.

و أمّا بعد مجيئ موسى كان فرعون يتوعّدهم و يأخذ أموالهم و يكلّفهم الأعمال الشّاقة و حاصل كلامهم إنّا لم ننتفع بمجيئك و هذا يدّل على أنّه جرى فيهم القتل و التعذيب مرّتين قال الحسن كان فرعون يأخذ منهم الجزية قبل مجيئ موسى و بعده و هذا كان إستبطاء منهم لما وعدهم موسىٰ من النّجاة فجّدد لهم الوعد و **قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** قال سبويه، لعلّ و عسى، طمع و إشفاق.

و قال الحسن، عسى من اللّه واجبة، و قال الفارسي، عسى، هاهنا يقين، و توضيح المقام إجمالاً هو أنّ موسى لمّا جاء وعدهم بالنّصر و الغلبة و زوال تلك المضّار فظّنوا أنّها تزول على الفور فلمّا رأووا أنّها ما زالت رجعوا اليه في معرفة كيّفية ذلك الوعد فبّين لهم موسىٰ أنّ اللّه سينجز لهم ذلك الوعد في الوقت الّذي قدّر له و بهذا التّقرير يندفع الإشكال و هو أنّ هذا القول من بني إسرائيل كفرٌ باللّه و إنكار و إكراه لمجيئ موسى و أمّا قوله: **فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** أي فينظر اللّه كيف تعملون بعد إستخلافكم في الأرض وفيه إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالى ينظر الى أعمال عباده و لا يغفل عنها فإذا وقعوا في النِّعمة و لم يشكروا عليها فهو تعالىٰ يزيل عنهم النّعمة و يلبسهم لباس النَّقمة، قيل أنّ معنى ينظر هاهنا، يعلم، و قيل معناه يرى وكلاهما مجاز لأنّ النظّر هو الطّلب لما يدرك و هذا لا يجوز عليه.

وَ لَقَدْ أَخَذْنَآ اٰلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ
ٱلثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ «۱۳۰» فَإِذٰا جٰآءَتْهُمُ
ٱلْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا
بِمُوسٰى وَ مَنْ مَعَهُ أَلَآ إِنَّمٰا طٰآئِرُهُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ
لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ «۱۳۱» وَ قٰالُوا مَهْمٰا تَأْتِنٰا
بِهِ مِنْ اٰيَةٍ لِتَسْحَرَنٰا بِهٰا فَمٰا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
«۱۳۲» فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفٰانَ وَ ٱلْجَرٰادَ وَ
ٱلْقُمَّلَ وَ ٱلضَّفٰادِعَ وَ ٱلدَّمَ اٰيٰاتٍ مُفَصَّلاٰتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ «۱۳۳» وَ لَمّٰا
وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قٰالُوا يٰا مُوسَى ٱدْعُ لَنٰا رَبَّكَ
بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ
لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ «۱۳۴» فَلَمّٰا
كَشَفْنٰا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلىٰٓ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ إِذٰا هُمْ
يَنْكُثُونَ «۱۳۵» فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ «۱۳۶»

◁ اللّغة

بِالسِّنِينَ، السِّنين بكسر السّين و النّون جمع سنة وهي تطلق على الحول و تطلق على الجدب ضدّ الخصب و بهذا المعنى تكون من الأسماء الغالبة و المراد بالسِّنين القموط و الجدوب.

يَطَّيَّرُوا أي يتّشأموا.

ٱلرِّجْزُ بكسر الرّاء العذاب.

◁ الإعراب

وَ نَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرٰاتِ تتّعلق بنقصٍ و المعنى و بتنَّقص الثّمرات يَطَّيَّرُوا أي يتَّطيروا و قرئ شاذاً تطَّيروا، علىٰ لفظ الماضي مَهْمٰا فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ، مه، بمعنىٰ أكفف و ما إسم للشّرط.

الثّاني: أنّ أصل مه، ما الشّرطية زيدت عليها، ما، كما زيدت في قوله، أمّا يأتينكم، ثمّ أبدلت الألف الأولى هاءً لئلّا تتوالى كلمتان بلفظٍ واحدٍ.

الثّالث: أنّها بأسرها كلمة واحدة غير مرّكبة و موضع الإسم علىٰ الأقوال كلّها النّصب تَأْتِنٰا و الهاء في، به، تعود علىٰ ذلك الإسم ٱلطُّوفٰانَ قيل هو مصدر هو جمع طوفانة و هو الماء المغرق الكثير وَ ٱلْجَرٰادَ جمع جرادة الذّكر و الأنثى سواء وَ ٱلْقُمَّلَ بتشديد الميم و ضمّ القاف و يقرأ بالتّخفيف مع فتح القاف و سكون الميم قيل هما لغتان و هو معروف في الثّياب و نحوها آيٰاتٍ حال من الأشياء المذكورة بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ يجوز أن تتّعلق الباء بأدع، أي بالشّئ الذّي علّمك اللّه الدّعاء به و يجوز أن تكون الباء للقسم إِذٰا هُمْ يَنْكُثُونَ هُم مبتدأ و ينكثون الخبر و اذ للمفاجأة.

◁ التّفسير

وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ أي أخذناهم بالقحط و الجّدب أصل الأخذ التّناول باليد و هو كناية عن إبتلاءهم في المدّة التّي كان أقام بينهم موسىٰ يدعوهم الىٰ اللّه قال ابن عبّاس أمّا السّنون فكانت لباديتهم و مواشيهم و أمّا نَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرٰاتِ فكان في أمصارهم و هذه سيرة اللّه في الأمم يبتليها بالنِّقم ليزدجروا و ليتّذكروا بذلك ماكانوا فيه من النِّعم فأنّ الشّدة تجلب الإنابة و الخشية ورقّة القلب و الرّجوع الىٰ طلب لطف اللّه و إحسانه و كذا فعل اللّه بقريش حين دعا عليهم رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و قال: **اللّهم أجعلها عليهم سِنين كسنّي يوسف.**

و روي أنّه يبس لهم كلّ شيئ حتّى نيل مصر و نقصوا من الثّمرات حتّى كانت النّخلة تحمل الثّمرة الواحدة، و قوله: **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** معناه لكي يتّفكروا في ذلك و يرجعوا الى الحقّ و أنّما قال لعلّهم و هى موصوفة للشكّ الذّي لا يجوز في كلام اللّه لأنّهم عوملوا معاملة الشّاك مظاهرة في القول كما جاء الإبتلاء و الإختبار مثل ذلك و الآية تدلّ علىٰ بطلان مذهب المجبّرة من أنّ اللّه تعالى يريد الكفر و المعاصي وجه الدّلالة أنّه تعالىٰ بيّن أنّه فعل بهم ذلك لكي يذّكروا و يرجعوا فقد أراد منهم الإذكار فكأنّه قال من أجل أنّهم يذّكروا.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ

قالوا المراد بالحسنة هاهنا النّعمة من الخصب و السّعة في الرّزق و العافية و السّلامة و المراد بالسّيئة النّقمة من الجدب و ضيق الرّزق و المرض و البلاء و فيه ضربٌ من المجاز لأنّ الحسنة في الحقيقة ما حسن من الفعل في العقل كما أنّ السّيئة ما قبح من الفعل و المعنى أنّه تعالى أخبر عن قوم فرعون أنّه اذا جاءهم الخصب و السّعة و النّعمة من اللّه قالوا لنا هذه، يعني أنّا نستّحق ذلك على العادة الجارية لنا من سعة أرزاقنا في بلادنا و لم يعلموا أنّه من اللّه فيشكروه عليه و يؤدّوا حقّ النّعمة، و أن تصبهم سيّئة يعني جدب و قحط و بلاء، يطّيروا بموسىٰ و من معه أي تشأموا به.

أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

معناه أنّ اللّه تعالى هو الّذي يأتي بطائر البركة و طائر الشّؤم من الخير والشّر و النّفع و الضّر فلو عقلوا طلبوا الخير و السّلامة من الشّر من قبله بسبب الطّاعة و الإنقياد:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَ ٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَ ٱلْأَرْضِ**(١).

١- الأعراف = ٩٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْرٰيةَ وَ الْإِنْجيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**[1].

محصّل الكلام هو أنّ أزمة الأمور بيد اللّه و هو الغنّي المطلق و ما سواه كائناً من كان محتاج اليه و هو القادر علىٰ كلّ شئ و غيره لا قدرة له واقعاً فاذا شاء أعطى و اذا شاء يمنع فالتّطير و التّشائم لا معنى له و لنعم ما قيل بالفارّسية:

چه خود میکنی اختر خویش را بد　　　مدار از فلک چشم نیک اختری را

قال الزّمخشري في الكشّاف معناه أنّ سبب خيرهم و شرّهم عند اللّه حكمته و مشيّئته و اللّه تعالى هو الذّي يشاء ما يصيبهم من الحسنة و السّيئة و يجوز أن يكون معناه إلاّ أنّما سبب شؤمهم عند اللّه و هو علمه المكتوب عنده يجري عليهم ما يسوءهم لأجله و يعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم اللّه تعالى في قوله: **اَلنّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها** ولا طائر أشأم من هذا.

و قال بعض المفسّرين سمّي ما عند اللّه من القدر للإنسان طائراً لما كان يعتقد أنّما كلّما يصيبه أنّما هو بحسب ما يراه في الطّائر فهى لفظة مستعارة.

وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ اٰيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنينَ

و المعنىٰ أنّ أل فرعون قالوا ذلك و فيه إشارة الى أنّ أخذهم بالجدوب و نقص الثّمرات لم يزدهم إلاّ طغياناً و كفراً و ذلك لأنّهم لم يكتفوا بنسبة ما يصيبهم من السّيئات إلاّ أنّ ذلك بسبب موسىٰ و من معه حتّىٰ و اجهوه بهذا القول الدّال على أنّه لو أتى بما أتى من الأيات فأنّهم لا يؤمنون بها و لذلك أتوا بمهما التّي تقتضي العموم.

ثمّ فسّروا بأية علىٰ سبيل الإستهزاء في تسميتهم ذلك أية و لذلك علّلوا الإتيان بقولهم: **لِتَسْحَرَنا** بها و بالغوا في إنتفاء الإيمان بأن صدّر الجملة بقولهم: **نَحْنُ** و أدخلوا الباء في، بمؤمنين، أي أنّ إيماننا لك لا يكون أبداً.

١- المائدة = ٦٦

أقول ما حكاه اللّه تعالىٰ عن قوم فرعون، يدّل على عنادهم للحقّ لا أنّهم كانوا يعرفونه فأنّ المعاند لا يقبل الحقّ لعناده لا لجهله به و العناد من أقبح الصّفات للإنسان مسلماً كان أو كافراً و لأجل ذلك قالوا العناد لا دواء له إلاّ الهلاك.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَ ٱلْجَرَادَ وَ ٱلْقُمَّلَ وَ ٱلضَّفَادِعَ وَ ٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ.

الفاء في قوله: **فَأَرْسَلْنَا** للتّفريع أي لمّا لم تنفعهم الموعظة و المعجزة لشّدة عنادهم و طغيانهم وصلت النّوبة الى إهلاكهم ينزول العذاب عليهم فأرسلنا عليهم الطّوفان و هو جمع طوفانة عند البّصريين و مصدر كالرُّجحان عند الكوّفيين و معناه الماء المفرق على قول ابن عبّاس و قال قتادة و ابن جبير و أبو مالك و الضّحاك هو المطر الذّي أرسل عليهم دائماً في اللّيل و النّهار ثمانية أيّام متواليات.

و قيل ذلك مع ظلمةٍ شديدة بحيث لا يرون شمساً و لا قمراً و لا يقدر أحد أن يخرج من داره، و قيل المراد بالطّوفان في المقام أنّ قوم فرعون أمطر اللّه عليهم حتّى كادوا يهلكون و بيوت القبط و بني إسرائيل مشتبكة فإمتلأت بيوت القبط ماءً حتّى قاموا فيه الى تراقيهم فمن جلس غرق ولم يدخل بيوت بني اسرائيل قطرة و فاض الماء علىٰ وجه أرضهم و ركد فمنعهم من الحرث و البناء و التّصرف و دام عليهم سبعة أيّام.

و قيل طمّ فيض النّيل عليهم حتّى ملأ الأرض سهلاً و جبلاً و قال ابن عطّية هو عامّ في كلّ شئ يطوف إلاّ أنّ إستعمال العرب له أكثر في الماء و المطر الشّديد و منه قول الشّاعر:

غــير الجــدّة مــن عــرفانه   خــرق الرّيــح وطــوفان المَـطر

و قيل هو هنا الموت الجارف ورَوته عائشة عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قيل هو الطاعون بلغة اليمن و روي عن ابن عبّاس في حديث أنّه معمّي عني به شئٌ أطافه اللّه بهم و الأقوال فيه كثيرة لا فائدة في ذكرها فأنّ المعنىٰ واضح لا خفاء فيه وكيف كان فقالوا لموسىٰ أدع لنا ربّك يكشف عنّا و نحن نؤمن بك فدعا فرفع عنهم فما أمنوا فثبت لهم في تلك السّنة من الكلاء و الزّرع ما لم يعهد مثله فأقاموا شهراً فنبعث اللّه تعالىٰ عليهم الجراد فأكلت عامّة زرعهم و ثمارهم ثمّ أكلت كلّ شئٍ حتّى الأبواب و سقوف البيت و الثّياب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شئٍ ففزعوا الى موسى و وعده التّوبة فكشف عنهم سبعة أيّام و خرج موسىٰ عليه السلام الى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق و المغرب فرجع الجراد الى النّواحي التّي جئن منها، فقالوا ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهراً فسَّلط اللّه عليهم القمَّل و إختلفوا في المراد به.

فقال ابن عبّاس و مجاهد و قتادة هو الدّباء و هو صغار الجراد قبل أن تثبت له أجنحة و لا يطير، و قال بعضهم هو السُّوس الذّي يقع في الحنطة.

و قال الحسن دوّاب سود صغار و قيل هو الجعلان و قيل هو ضربٌ من القردان، و قيل هو البراغيث و قيل غير ذلك.

أقول الحقّ أنّ الجراد يطير و يأكل الزّرع و يقال له بالفارسية ملخ، **والقُمَّل** بضمّ **القاف** وفتح الميم المشّددة لا يطير و يقال له بالفارسّية (شپش) قيل أنّ موسى عليه السلام مشى الى كثيب أهيل فضربه بعصاه فإنتشر كلّه قمّلاً بمصر فأكل ما أبقاه الجراد و لحس الارٰض وكان يدخل بين جلد القبطي و قميصه و يمتلئ الطّعام ليلاً و يطحن أحدهم عشرة أجزاء أجربة فلا يرد منها إلاّ يشيراً و سعىٰ في أبشارهم و شعورهم وأهداب عيونهم و لزمت جلودهم فضَّجوا و فزعوا الى موسى عليه السلام فرفع عنهم فقالوا قد تحقّقنا الأن أنّك ساحر و عزّة فرعون لا نصّدقك أبداً فأرسل اللّه عليهم بعد شهرٍ الضّفادع فملأت أنيتهم و طعامهم و مضاجعهم و رمت بأنفسها في القدور و هي تغلي و فى التّنانير و هى تفور و اذا تكلّم أحدهم و ثبت الى فيه.

قال ابن جبير و كان أحدهم يجلس في الضّفادع الى ذقنه فقالوا لموسى أرحمنا هذه المرّة و نحن نتوب التّوبة النّصوح و لا نعوذ عليهم العهود فكشف عنهم فنقضوا العهد فأرسل اللّه عليهم الدَّم.

قال الجمهور صار ماءهم دماً حتّى أنّ الإسرائيلي ليضع الماء في القبطي فيصير في فيه دماً و عطش فرعون حتّىٰ أشفى على الهلاك فكان يمصّ الأشجار الرّطبة فإذا مضغها صار ماؤها الطّيب ملحاً إجاجاً.

و قال سعيد بن المسيّب سال عليهم النيل دماً و أمّا قوله: **ءايٰتٍ مُفَصَّلٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ** فالمراد بالأيات المفصّلات هو المعجزات المبيّنات الظّاهرات الدّالات الواضحات الّتي أراهم اللّه علىٰ يد موسىٰ و بدون الواسطة كما مرّ تفصيل الكلام فيها إلاّ أنّهم إستكبروا و أعرضوا عنها لجاجاً و عناداً و التّعبير بالإستكبار لأنّ منشأ العناد الكبر فكل معاندٍ مستكبرٌ و من المعلوم أنّ من كان كذلك يكون مجرماً و أيّ جرم أفحش و أقبح من العناد الّذي يترّتب عليه العذاب في الدّنيا و الآخرة و ما ربّك بظّلام للعبيد.

قال إبن قتيبة سمّاها مفصّلات لأنّ بين الآية و لأية مفصلاً من الزّمان قيل كانت الآية تمكث من السّبت الىٰ السّبت ثمّ يبقون عقيب رفعها شهراً في عافية ثمانية أيّام و قيل غير ذلك و حكمة التّفصيل فيها بالزّمان أنّه يمتحن فيه أحوالهم في الوفاء و النّكث للعهود فتقوم عليهم الحجّة و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ لَمّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قٰالُوا يا مُوسَى ٱدْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيَ إِسْرٰآئِيلَ، فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ إِذٰا هُمْ يَنْكُثُونَ

الرِّجز بكسر الرّاء العذاب قال تعالى: **وَ لَمّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ** أي على قوم فرعون العذاب من الطوّفان والجراد و القمّل و غيرها قالوا يا موسى أدع لنا

ربّك بما عهد عندك من العذاب لأن كشفت أي أزلت و رفعت عنّا الرِّجز لنؤمنّن لك أي نقول بنبوّتك و لنرسلّن معك بني إسرائيل أي نطلقهم و نرفع اليد عنهم و ذلك لأنّهم كانوا يمنعون بني إسرائيل عن متابعة موسىٰ و يعذّبهم بأنواع العذاب، فلمّا كشفنا أي رفعنا و أزلنا عنهم الرِّجز و العذاب الى أجلٍ هم بالغوه، قيل أي أجل الموت و لا يبعد أن يكون المراد به الأجل المضروبة المغنّية من ناحيتهم إذا هم ينكثون، أي نكثوا عهودهم و مواثيقهم و رجعوا الى ما كانوا عليه من الكفر و الطغيان على ما مرّ تفصيل الكلام فيه و قال بعض المفسّرين الرِّجز هنا الطّاعون نزل بهم و مات منهم في ليلة سبعون ألف قبطي، و في قولهم: **ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ** و أضافة الربّ الى موسى دلالة على عدم الإقرار بأنّه ربّهم حيث لم يقولوا: **ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ** و في قولهم لنؤمنّن لك دلالة على أنّه أي موسى طلب منهم الإيمان كما أنّه طلب منهم إرسال بني إسرائيل و قدّموا الإيمان في كلامهم لأنّه المقصود الأعظم و أسندوا الكشف الى موسى دون اللّٰه تعالى فلم يقولوا لأن كشف اللّٰه عنّا الرِّجز لأنّهم لم يقرّوا بالتّوحيد و هو واضح.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ

الفاء للتّفريع أي أنّهم لمّا نكثوا عهدوهم و مواثيقهم غير مرّة فلا جرم أنتقمنا منهم، أي أحللنا بهم النّقمة و هى ضدّ النّعمة فأن كان الإنتقام هو الإغراق فتكون الفاء تفسّيرية و إلاّ كان المعنى فأردنا الإنتقام منهم و الباء في، بأنّهم، سببيّة و المراد بالأيات هي المعجزات الّتي ظهرت على يد موسى عليه السلام و الضّمير في، عنها، يعود الى الأيات أي غفلوا عنها، و قيل يعود الى النّقمة الدّال عليها قوله: **فَانْتَقَمْنَا** أي كانوا عن النّقمة و حلولها غافلين فالغفلة علىٰ القول الأوّل عني به الإعراض عن الشّئ لأنّ الغفلة عنه و التّكذيب لا يجتمعان لأنّها تستدعي عدم الشّعور بالشّئ و التّكذيب يستدعي معرفته.

و أمّا على القول الثّاني فهي بمعناها و معنىٰ الآية إنتقمنا من فرعون و قومه فأغرقناهم في اليّم وكان سبب ذلك تكذيبهم بآياتنا الّتي ظهرت على موسى و إعراضهم عنها بعدم قبولهم الأيات و فى الآية إشعار بأنّ اللّه تعالى لم ينتقم منهم إلاّ بعد تماميّة الحجّة كما هو مقتضى العدل.

قال بعض المفسّرين المراد بالإنتقام هو سلب النّقمة بالعذاب و اليّم البحر و نقل عن صاحب الكشّاف أنّه قال اليّم البحر الّذي لا يدرك قعره و قيل هو لجّة البحر و معظم ماءه، و قيل المراد باليّم هو بحر نيل و أمثال ذلك من الأقاويل الّتي لا دليل على صحتّها و لا يعلم مأخذها كثيرة و الّذي نعتقده بصريح الآية هو إغراقهم في اليّم و أمّا أنّ اليّم ما هو وكيف هو أين هو فاللّه أعلم.

■

وَ أَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ
مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ
تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ
بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ
قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَ جَاوَزْنَا بِبَنِيٓ
إِسْرَآئِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى ٱجْعَلْ لَنَآ إِلَٰهًا كَمَا
لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ
عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَ فِي ذَٰلِكُمْ بَلَآءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ
أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ
قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ
أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

◁ اللّغة

وَ أَوْرَثْنَا، الوارثة و الإرث في الأصل إنتقال قنية اليك عن غيرك من غير عقدٍ و لا ما يجري مجرى العقد و سمّي بذلك المنتقل عن الميّت فيقال للقنية المَوروثة ميراث و إرث قاله الرّاغب في المفردات.

يُسْتَضْعَفُونَ، الإستضعاف طلب الضّعف بالإستعانة و القهر و قد أستعمل إستضعفته بمعنىٰ وجدته ضعيفاً بإمتّحاني إيّاه.

بٰارَكْنٰا فِيهٰا ثبوت الخير الإلهي في الشّيْ.

وَ دمَّرْنٰا، التّدمير إدخال الهلاك على الشّيْ.

يَعْرِشُونَ بضم الرّاء و كسرها و الكسر أفصح و العرش في الأصل شيئ مسّقف و المراد.

به هنا ما كانوا يبغونه من الأبنية و القصور.

يَعْكُفُونَ، العَكُوف الإقبال على الشّيْ و ملازمته على سبيل التّعظيم له و منه الإعتكاف في الشّرع و هو الإحتباس في المسجد على سبيل القربة يقال عكفه على كذا أي حبسته عليه. مُتَبَّرٌ بضّم الميم و فتح التّاء والباء و تشديد الرّاء، و المهلك المدّمر عليه و التبار الهلاك.

يَسُومُونَكُمْ أصل السّوم مجاوزة الحّد و منه السّوم في البيع و هو تجاوز الحّد في السّعر الى الزّيادة و المعنى يولّونكم إكراهاً و يحملونكم إذلالاً.

وَ وٰاعَدْنٰا، المُواعدة الوعد من الطّرفين.

◁ الإعراب

وَ أَوْرَثْنَا يتّعدى الى مفعولين فالأوّل، القوم، و فى الثّاني ثلاثة أوجه:

أحدها: مشارق الأرض و مغاربها.

ثانيها: قوله: **الّتي بارَكنا** أي الأرض الّتي باركنا.

ثالثها: أنّ المفعول الثّاني محذوف و تقديره، الأرض، أو الملك مٰا كٰانَ يَصْنَعُ ما، بمعنىٰ الّذي و إسم، كان، هو ضمير، ما، وخبرها يصنع فرعون و العائد محذوف أي يصنعه كَمٰا لَهُمْ اٰلِهَةٌ في، ما، ثلاثة أوجه:

أحدها: هي مصدّرية و الجملة بعدها صلة لها.

الثّاني: أنّه بمعنى، الذّي، و العائد محذوف و ألهة بدل منه تقديره، كالّذي هو لهم و الكاف و ما عملت فيه صفة لإله، أي إلهاً مماثلاً للّذي لهم.

الثّالث: أن تكون ما كافّة لِلكاف مٰا هُمْ فِيهِ يجوز أن تكون، ما، مرفوعة بمتَّبرِ، و أن تكون، ما، مبتدأ و متَّبرِ خبر مقدّم.

أَغَيْرَ ٱللّٰهِ فيه وجهان:

أحدهما: هو مفعول أبغيكم و التّقدير أبغي لكم فحذف اللاّم، وإلٰهاً تمييز.

الثّاني: أنّ إلٰهاً مفعول أبغيكم غير اللّه صفة له قدّمت عليه فصارت حالاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ يجوز أن يكون حالاً و أن يكون مستأنفاً ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً هو مفعول ثانٍ لواعدنا و فيه حذف مضافٍ تقديره إتيان ثلاثين أو تمام ثلاثين و أَرْبَعِينَ لَيْلَةً حال تقديرها فتَّم ميقات ربّه كاملاً و قيل هو مفعول، ثمّ، لأنّ معناه بلغ و هٰرُونَ بدل أو عطف بيان.

◁ التّفسير

لمّا أهلك اللّه تعالى فرعون و قومه في اليّم جعل ما بقى منهم من الأموال و الأملاك و الضّياع و العقار و جميع ما كان فرعون حاكماً و مسلّطاً عليه و بالجملة جميع متروكاتهم و أملاكهم الحقّيقية و المجازّية لقوم بني إسرائيل فصار وارثين لفرعون و قومه وهذا الإرث لم يصل اليهم إلاّ بعد موت فرعون و قومه و لمّا كان اللّه تعالى هو الذّي أغرقهم في اليّم و أراح النّاس منهم قال.

وَ أَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كٰانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ ٱلْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا ٱلَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا

أي جعلنا ما بقي منهم إرثاً لقوم بني إسرائيل الّذين كانوا مستضعفين قبل ذلك و المراد بالأرض هو أرض مصر و قيل أرض الشّام و مصر.

و قيل أرض الشّام فقط و قال الزّجاج كان من بني إسرائيل داوود و سليمان

و هما ملكا جميع الأرض فيصدق قوله: **وَ أَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ** لأنّهما من القوم و المراد بالمشارق و المغارب التّي باركنا فيها، هو نواحي أرض مصر أو أرض مصر و الشّام على إختلافٍ في تفسير الأرض و البركة فيها بالماء و الشّجر أو بالخصب و الأنهار وكثرة الأشجار و طيب الثّمار.

و قيل المراد بالبركة البركة بإقدام الأنبياء وكثرة مقامهم بها و دفنهم فيها و على هذا يتخرج على من قال أرض الشّام لأنّ الأنبياء كانوا فيها حيّاً و ميّتاً و الدّليل عليه كثرة قبورهم فيها.

و قيل: **بٰارَكْنٰا**، جعلنا الخير فيها دائماً ثابتاً و هذا يشير الى أنّها مصر وكيف كان فمعنى الآية أنّا جعلنا قوم بني إسرائيل وارثين لأرض مصر و أطرافها و نواحيها التّي كانت مملّوءة بالخير و البركة.

وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنىٰ عَلىٰ بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ بِمٰا صَبَرُوا

إختلفوا في المراد بالكلمة، فقال قوم الكلمة الحسنىٰ، هي قوله تعالىٰ: **وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ ٱلْوٰارِثِينَ**[(١)] و عليه فالمعنىٰ أنّا وعدناهم سابقاً و أتممناه بهلاك فرعون و قومه و جعلناهم أئمّة و جعلناهم الوارثين و بذلك قد تمّت كلمة ربّك و أنّما وصفها بالحسنى و أن كانت كلمات اللّه كلّها حسنة لأنّه تعالى وعدهم بما يحبُّون.

و قال مجاهد المعنىٰ ما سبق لهم في علمه في الأزل من النّجاة من عدّوهم و الظّهور عليه، و قيل هي قوله تعالىٰ: **عَسىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ**[(٢)] و قيل الكلمة النّعمة و الحسنى تأنيث الأحسن و هى صفة للكلمة وكانت الحسنى لأنّها وعد بمحبوب و أمّا قوله: **بِمٰا صَبَرُوا** فهو بمنزلة العلّة و السّبب لإنتقال الملك و الأموال اليهم و عليه فالباء للسّببية أي أورثناهم كذلك بسبب صبرهم على الشّدة و المحنة في طريق الحقّ **وَ دَمَّرْنٰا مٰا كٰانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ**

١- القصص = ٥
٢- الاعراف = ١٢٩

وَ مٰا كٰانُوا يَعْرِشُونَ أي أهلكنا فرعون و ماكان يصنع من الإستعباد و الإفساد في أمر موسى و ما كانوا يعرشون، أي يبنونه من الأبنية و القصور و محصّل الكلام أنّا أهلكنا فرعون و قومه و أعمالهم و أثارهم بحيث لم يبق منهم عينٌ و لا أثر إلاّ اللّعنة في الدّنيا و العذاب في الأخرة فإعتبروا يا أولي الأبصار هذا أخر ما إقتّص اللّه تعالىٰ من نبأ فرعون و القبط و تكذيبهم بأيات اللّه و ظلمهم و ما نزل عليهم من العذاب ثمّ إتّبعه إقتصاص نبأ بني إسرائيل و ما أحدثوه بعد إنقاذهم من مملكة فرعون و إستعباده و معاينتهم الأيات العظام و مجاوزتهم البحر من عبادة البقرة و طلب رؤية اللّه جهرةً و غير ذلك من أنواع الكفر و المعاصي.

ليعلم حال الإنسان و أنّه كما وصف ظلومٌ جهول كفور إلاّ من عصمه اللّه قليل من عبادي الشّكور، و ليبلّي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ممّا رأى من بني إسرائيل بالمدينة و هكذا أمّته في كلّ عصرٍ و زمانٍ الى زماننا هذا و اللّه لا يهدي القوم الظّالمين.

وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنٰامٍ لَهُمْ قٰالُوا يٰا مُوسَى ٱجْعَلْ لَنآ إِلٰهًا كَمٰا لَهُمْ اٰلِهَةٌ قٰالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

المجاوزة الإخراج عن الحدّ يقال جاوز الوادي جوازاً اذا قطعه و خلّفه وراءه، أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أجاز قوم موسى و قطع بهم البحر و أنجاهم من العدّو و أغرق عدّوهم فرعون و قومه و أنّهم أي قوم موسى بلغوا بعد العبور عن البحر الى قومٍ عاكفين على أصنامٍ لهم و معنى العكوف اللّزوم للأمر بالإقبال عليه و المراعاة له و منه الإعتكاف لأنّ المعتكف يلازم المسجد و يراعي الوظائف المقرّرة له على طبق الشّريعة بقصد العبادة ثمّ أنّهم لمّا رأوا ذلك قالوا يا موسى أجعل لنا إلٰهاً نعبده كما لهؤلاء القوم ألهة قال لهم موسى أنّكم قوم تجهلون، و أنّما حكم موسى عليه السّلام بجهلهم لأنّ هذا الكلام منهم بعد

ما رأوا الأيات و المعجزات الّتي توالت علىٰ فرعون و قومه من إبطال السِّحر و اليد البيضاء و أمثالهما يدّل على جهلهم و أنّهم لم يؤمنوا واقعاً بموسى لتَّوهمهم أنّه يجوز عبادة غير اللّه ولم يعلموا أنّ موسى عليه السلام أنّما بعث ليدعوا النّاس الى عبادة اللّه الّذي لا إلٰه إلاّ هو لا شريك له في الملك.

و قال بعض المفسّرين أراد موسى بقوله: **تَجْهَلُونَ** أي تجهلون من صفات اللّه ما يجوز عليه و ما لا يجوز.

و قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ ذلك أي تجاوزهم البحر كان يوم عاشوراء فصاموا شكراً للّه، ولم يذكروا لهذا القول مأخذاً و دليلاً فهو كسائر أقوالهم المذكورة في تفاسيرهم و لا نعني بالتَّفسير بالرّأي إلاّ هذا وكيف كان فالعهدة على القائل به.

قال ابن جريح كانت تلك الأصنام التّي رأوها قوم موسى تماثيل بقربيان أوّل قصّة العجل.

قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عنه و إعلم أنّ من المستحيل أن يقول العاقل لموسى أجعل لنا إلهاً و خالقاً و مدَّبراً لأنّ الذّي يحصل بجعل موسى و تقديره لا يمكن أن يكون خالقاً و مدَّبراً له و من شكّ في ذلك لم يكن كامل العقل و الأقرب أنّهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يعيّن لهم أصناماً و تماثيل يتَّقربون بعبادتها الى اللّه و هذا القول هو الذّي حكاه اللّه عن عبدة الأوثان حيث قالوا ما نعبدهم إلاّ ليقربُّونا الى اللّه زلفى انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أنا أقول ما ذكره لا بأس به لأنّ عبادة غير اللّه كفرٌ على كلّ حال بإجماع جميع الأنبياء و العقلاء **إِنَّ هٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مٰا هُمْ فيهِ وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** التّبار الهلاك و المعنىٰ أنّ هؤلاء مهلك مدَّمر و قوله: **بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** قيل البطلان عدم الشّيئ أمّا بعدم ذاته أو بعدم فائدته و مقصوده و المراد من بطلان علمهم أنّه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع و لا دفع ضرر.

أقول لا نحتاج في تفسير البطلان الى هذه التّكلفات و ذلك لأنّه قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ ما سوى اللّه باطلٌ عاطلٌ كائناً ما كان كما قال لبيد:

ألا كُلّ شئٍ ما خَلا اللّه باطلُ وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

و نعني بالبطلان ما لا بقاء له في ذاته و من المعلوم أنّ ما سوى اللّه لا بقاء له بذاته لأنّه قائم بالغير و معلول له و اذا كان كذلك فهو باطلٌ و الباطل لا يعيد لأنّه في معرض الفناء و الدُّثور فكلّ معبودٍ في العالم غير الواجب تعالى باطل صنماً كان أو بقراً أو ناراً أو غير ذلك و هذا معنى قوله: و **بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** اى باطلٌ في حدّ ذاته و لا شكّ أنّ من عبد الباطل فهو جاهل و هو المطلوب.

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ

قالوا في معناه ءأطلب لكم غير اللّه تعالى و هو فضّلكم على العالمين أي و الحال أنّه فضَّلكم على العالمين و الحقّ أنّ البغي ليس بمعنى الطَّلب المطلق بل هو بمعنى طلب التّجاوز عن الحدّ و هذا هو الفرق بين البغي و الطَّلب و عليه فقولهم: **أَبْغِيكُمْ** أي أطلب لكم، معناه أطلب لكم ما لا ينبغي لي ولكم و ذلك لأنّ في هذا الطَّلب تجاوزٌ عن الحدّ أي عن حدّ العبوديّة أو المعبوديّة.

أمّا الأوّل: فواضح لأنّ حدّ المخلوق أن لا يشرك باللّه فمن أشرك به فقد تجاوز عن حدّه و دخل في الكفر.

أمّا الثّانى: فلأنّ المعبود في الحقيقة هو اللّه تعالى و أمّا غيره كائناً ما كان فليس بمعبود لأنّه مخلوق و تسمية المخلوق بالمعبود بعينه التّجاوز عن حدّه اذا عرفت هذا فنقول:

معنى الآية أغير اللّه أطلب لكم إلهاً و أكون متجاوزاً عاصياً في هذا الطَّلب و الحال أنّه تعالىٰ فضَّلكم على العالمين و فى قوله هذا إشارة الى نكتته و هى أنّ الألّوهية ثابتة لمن فضّلكم على العالمين و هو اللّه الواحد الأحد خالق

السّموات و الأرض و أمّا غيره فهو مخلوق مثلكم مردودٌ اليكم فكيف يكون خالقاً لكم.

ثانياً: أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و اللّه تعالى هو الذّي أنعم عليكم بأنواع النِّعم و أخرجكم من الشّدائد و المحن و أهلك عدّوكم في اليّم و ليس هذا إلاّ أنّه فضَّلكم على غيركم و من المعلوم أنّ تأدية الشّكر في التّوحيد و البراءة عن الكفر و الشِّرك و صورة القياس هكذا، أنّ اللّه فضَّلكم على العالمين وكلّ من كان كذلك فهو المعبود الذّي ينبغي أن يعبد فالّله تعالى هو المعبود و هو المطلوب و المراد بالعالمين هو عالمي زمانهم قاله الحسن أبو علّي.

وَ إِذْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذٰابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنٰآءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰآءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلآٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

قد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة[١] فلا نحتاج الى التّطويل في المقام و الحاصل أذكروا اذ نجَّيناكم من آل فرعون أي خلَّصناكم لأنّ النّجاة الخلاص ممّا يخاف الى رفعة من الحال، و أصل السّوم مجاوزة الحدّ.

و المراد به في المقام هو تجاوز العذاب عن الحدّ و هو كناية عن شدّته ثمّ أشار بقتل أبناءهم و استحياء نساءهم أي إستبقاء نساءهم لأنّ فرعون كان يأمر بقتل الأبناء و إستبقاء النّساء للإستخدام و فى قوله: **وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلآٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** إشارة الىٰ عظم ما وقع بهم من المحنة و الشّدة على ما مرّ تفسيره هناك.

قال المفسّرون المراد بالبلاء هاهنا النّعمة، و قد يكون بمعنى النّقمة و أصله المحنة فتارةً تكون المحنة بالنّعمة و أخرى بالنّقمة و بالخير تارةً و بالشّر أخرىٰ.

١- آية ٤٩

وَ وٰاعَدْنٰا مُوسٰى ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قٰالَ مُوسٰى لِأَخِيهِ هٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ

قرأ أبو عمر و و وعدنا موسى بغير ألف و الباقون، واعدنا بـالألف عـلى المفاعلة و هو الأشهر و عليه المصاحف كلّها و قراءة أبو عمر و ضعيفة جدّاً و معنى، **وٰاعَدْنٰا** أنّ الوعد كان من الطّرفين كما هو مقتضى المفاعلة.

قال المفسّرون أنّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل و هو بمصر أن أهلك اللّه عدّوهم أتاهم بكتاب من عند اللّه فيه بيان ما يأتون و ما يذرون فلمّا أهلك اللّه فرعون سأل موسى ربّه تعالى الكتاب فأمره اللّه بصوم ثلاثين يوماً و هو شهر ذي القعدة و عشر ذي الحجّة ولو قال أربعين ليلة لم يعلم أنّه كان الإبتداء أوّل الشّهر و لا أنّ الأيّام كانت متوالية و لا أنّ الشّهر بعينه هذا قول القرّاء و أكثر المفسرين.

و قال الأخرون أنّ المعنى وعدناه ثلاثين ليلة يصوم فيها و يتّفرد للعبادة بها ثمّ أتمّت بعشر الى وقت المناجاة و قيل في العشر نزلت التّوراة فلذلك أفردت بالذّكر.

و في المقام قول ثالث و هو المنسوب الى أبي جعفر عليه السلام و هو أنّ أوّل ما قال لهم موسى أنّي أتأخر عنكم ثلاثين يوماً ليسهل عليهم ثمّ زاد عليهم عشراً و ليس في ذلك كذب لأنّه اذا تأخّر عنهم أربعين ليلة فقد تأخّر ثلاثين قبلها.

و قال الحسن كان الموعد أربعين ليلة في أصل الوعد كما قال في سورة البقرة: **وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** و فصّله هاهنا على وجه التّأكيد فقال ثلاثين ليلة و أتممناها بعشر و هذه الوجوه ذكرها في التّبيان.

و أمّا قوله: **فَتَمَّ مِيقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** فالميقات ما قدّر ليعمل فيه عمل من الأعمال و المعنى أنّ ميقات ربّ موسى قد تمّ بزيادة العشرة على الثلاثين و فيه إيماء الى أنّ عدد الأربعين عدد الكامل التّام.

وَ قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ

و أنّما كان ذلك بأمرٍ من اللّه تعالى فصار هارون خليفة لموسى في قومه في غيبته و قوله: **وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ** يعني الذّين كانوا يفسدون في الأرض و هذا الأمر إرّشادي لا غضاضة فيه.

روي السّيوطي في الدّر المنثور في تفسير هذه الآية بأسناده عن ابن عبّاس أنّه قال أنّ موسى قال لقومه أنّ ربّي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه و أخلف هارون فيكم فلّما فصل موسى الى ربّه زاده اللّه عشراً فكانت فتنتهم في العشر الّتي زاده اللّه الحديث و أيضاً بأسناده عن أبي العالية في قوله: **وَ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً** خلّف موسى أصحابه و أستخلف عليهم هرون فمكث على الطّور أربعين ليلة و أنزل عليه التّوراة في الألواح فقربّه الرّب نجيّاً و كلّمه و سمع حريف القلم و بلغنا أنّه لم يحدث في الأربعين ليلة حتّى هبط من الطّور إنتهى.

■

وَ لَمّا جاءَ مُوسىٰ لِميقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ
أَرِنيٓ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرىٰني وَ لٰكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى
ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرىٰني فَلَمّا
تَجَلّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسىٰ صَعِقًا
فَلَمّآ أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ
ٱلْمُؤْمِنينَ ﴿١٤٣﴾ قالَ يا مُوسىٰٓ إِنّي ٱصْطَفَيْتُكَ
عَلَى ٱلنّاسِ بِرِسالاتي وَ بِكَلامي فَخُذْ ما
آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ ٱلشّاكِرينَ ﴿١٤٤﴾ وَ كَتَبْنا لَهُ فِي
ٱلْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصيلًا لِكُلِّ
شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
بِأَحْسَنِها سَأُوريكُمْ دارَ ٱلْفاسِقينَ ﴿١٤٥﴾
سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ ٱلَّذينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا
بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبيلَ ٱلرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبيلًا وَ
إِنْ يَرَوْا سَبيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبيلًا ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلينَ ﴿١٤٦﴾ وَ
ٱلَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ
أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

◁ اللّغة

لِميقاتِنا، الميقات بكسر الميم ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال.

أَرِنيٓ أمرٌ من، أرىٰ.

فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ، الإستقرار الثّبات.

تَجَلّى أصل الجلو الكشف الظّاهر يقال رجل أجلى، إذا إنكشف بعض رأسه عن الشّعر ثمّ أنّ التّجلي قد يكون بالذّات نحو قوله و النّهار اذا تجّلى، و قد يكون بالأمر و الفعل كما في المقام.

دَكًّا، الدَّك بفتح الدّال الأرض اللّينة السَّهلة.

صَعِقًا، الصَّعقة الغَشية.

ٱصْطَفَيْتُكَ، الإصطفاء الإختيار.

ٱلْأَلْوَاحِ جمع لَوح بفتح اللاّم و أصل اللّمع يقال لاحَ يَلوح لَوحاً اذا لمع و تلألأ.

ٱلْغَيِّ بفتح الغين الضّلالة.

◁ الإعراب

جَعَلَهُ دَكًّا أي صيَّره فهو متّعدٍ الى إثنين فمن قرأ دكّاً جعله مصدراً بمعنى المدكوك و قيل تقديره ذا دكّ، و من قرأ بالمدّ جعله أرضٍ دكّاء أو ناقة دكّاء التّي لا سنام لها و صَعِقًا حال مقارنة سَأُوريكُمْ قرئ في الشّاذ بواو بعد الهمزة هي ناشئة عن الإشباع وفيه بُعد وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا مبتدأ و خبره حَبِطَتْ و يجوز أن يكون الخبر هَلْ يُجْزَوْنَ و حبطت حال من ضمير الفاعل في، كذّبوا.

◁ التّفسير

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ

قد مرَّ الكلام في معنى الميقات و أنّ اللّه تعالى دعاه الى الميقات فلمّا جاء موسى الى الميقات وكلَّمه ربّه، إختلفوا في تفسير هذا الكلام و أنّه كيف كان التَّكلم على أقوالٍ:

قال القاضي و هو من مفسّري العامّة سمع موسى و السَّبعون كلام اللّه.

و قال ابن عطيّة خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذّات القديمة الذّي هو صفة ذاتٍ.

و قال ابن عبّاس و ابن جبير أدنى اللّه تعالى موسى حتّى سمع صريف الأقلام في اللّوح المحفوظ.

و قال الزّمخشري كلّمه ربّه من غير واسطةٍ كما يكلّم الملك و تكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه محفوظاً في اللّوح.

و روي أنّ موسى كان يسمع الكلام في كلّ جهةٍ، و عن ابن عبّاس كلّمه أربعين يوماً و أربعين ليلة و كتب له الألواح و قيل أنّما كلّمه في أوّل الأربعين.

و قال الرّازي دلّت الآية على أنّه تعالى كلّم موسى عليه السلام و النّاس مختلفون في كلامه.

فمنهم من قال كلامه عبارة عن الحروف المؤلّفة المنتظمة.

و منهم من قال كلامه صفة حقّيقية مغايرة للحروف و الأصوات.

أمّا القائلون بالقول الأوّل فالعقلاء المخلّصون إتّفقوا على أنّه يجب كونه حادثاً كائناً بعد أن لم يكن.

و زعمت الحنابلة و الحشّوية أنّ الكلام مرّكب من الحروف و الأصوات قديم و هذا القول أخسّ من أن يلتفت العاقل اليه و ذلك أنّي قلت يوماً أنّه تعالى أمّا أن يتّكلم بهذه الحروف على الجمع و على التّعاقب و التّوالي.

الأوّل: باطل لأنّ هذه الكلمات المسموعة المفهومة أنّما تكون مفهومة اذا كانت حروفها متوالية و أمّا اذا كانت حروفها توجد دفعة واحدة فذالك لا يكون مفيداً البتّة.

الثّاني: يوجب كونها حادثة لأنّ الحروف اذا كانت متوالية فعند مجيء الثّاني ينقضي.

الأوّل: فالأوّل حادث لأنّ كلّما ثبت عدمه إمتنع قدمه.

الثّانى: حادث لأنّ كلّ ما كان وجوده متأخراً عن وجود غيره فهو حادث فثبت أنّه بتقدير أن يكون كلام اللّه عبارة عن مجرّد الحروف و الأصوات فهو محدث اذا ثبت هذا فنقول:

للنّاس هنا مذهبان:

الأوّل: أنّ محلّ تلك الحروف و الأصوات الحادثة هو ذات اللّه و هو قول الكرامية.

الثّانى: أنّ محلّها جسمٌ مباين لذات اللّه تعالى كالشّجرة و غيرها و هو قول المعتزلة.

أمّا القول الثّانى، و هو أنّ كلام اللّه صفة مغايرة لهذه الحروف و الأصوات فهو قول أكثر أهل السنّة و الجماعة و تلك الصِّفة قديمة أزليّة و القائلون بهذا القول إختلفوا في الشّئ الذّي سمعه موسى عليه السلام.

فقالت الأشعرية أنّ موسىٰ سمع تلك الصّفة الحقيقية الأزليّة قالوا وكما لا يتَّعذر رؤية ذاته مع أنّ ذاته ليست جسماً و لا عرضاً فكذلك لا يبعد سماع كلامه مع أنّ كلامه لا يكون حرفاً و لا صوتاً.

و قال أبو منصور الماتريدي الّذي سمعه موسى عليه السلام أصوات مقطّعة و حروف مؤلّفة قائمة بالشّجرة فأمّا الصّفة الأزليّة الّتي ليست بحرفٍ و لا صوتٍ فذاك ما سمعه موسى البتّة فهذا تفصيل مذاهب النّاس في سماع كلام اللّه انتهى كلام الرّازي.

و قال البيضاوي وكلَّمه ربّه، من غير وسط كما يكلّم الملائكة و فيما روي أنّ موسىٰ عليه السلام كان يسمع هذا الكلام من كلّ جهة تنبيهٌ على أنّ سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين انتهى كلامه.

أقول أقوال العامّة في تفاسيرهم و غيرها في المقام كثيرة و لكن فيما ذكرناه كفاية فأنّ البعرة تدلّ على البعير و الذّرة على الكثير مضافاً الى أنّ هؤلاء رؤوساء القوم و علماءهم الذّين أذعنوا بزعامتهم في هذا الميدان.

و قال الطّبرسي ﷺ منّا، و كلّمه ربّه، من غير سفير أو وحي كما كان يكّلم الأنبياء على ألسنة الملائكة و لم يذكر من أيّ موضع أسمعه كلامه و ذكر في موضع أخر أنّه أسمعه كلامه من الشّجرة فجعل الشّجرة محلّاً للكلام لأنّ الكلام عرض لا يقوم إلاّ بجسمٍ و قيل أنّه في هذا الموضع أسمعه كلامه من الغمام انتهى.

و قال الفيض ﷺ في الصّافي، و كلّمه ربّه، من غير واسطة كما يكّلم الملائكة.

و قال في تفسير الميزان، و المراد بالكلام هو ما شافه به اللّه سبحانه من غير واسطة ملك و بعبارةٍ أخرى هو ما يكشف به عن مكنون الغيب و أمّا أن يكون من نوع الكلام الدّائر بيننا معاشر الإنسان فلا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول هذه كلماتهم في تفاسيرهم حول الكلام في المقام و الذّي يختلج بالبال هو أنّ اللّه تعالى كلّم موسى و هذا ممّا صرّح القرأن به و لا بحث لنا فيه و أمّا أنّ كيفيّة التّكلم على أيّ نحوٍكان فهو أمرٌ مجهولٍ لنا بعد العلم بمغايرة كلام اللّه لكلام الأدميين و اللّه تعالىٰ أعلم بكيفيّة كلامه.

قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ أي قال موسى في الميقات بعد تكّلم اللّه معه ربّ أرني أنظر اليك، الظّاهر أنّ الرّؤية التّي سألها موسى كانت رؤية بالنّظر أعني بالحاسّة بقرنية قوله: **أَنظُرۡ** فأنّ النّظر لا يصدق على الرّؤية القلبية التّي يعبّر عنها بالبصيرة بل هو ظاهر في الرّؤية الظّاهرة بسبب الحاسّة و من المعلوم أنّ الرّؤية بهذا المعنى لا يجوز عليه تعالى بل هو مستحيل و اذا كان كذلك فكيف يجوز لموسى و هو من الأنبياء العظام أن يسألها ربّه و أجابوا عنه.

أمّا أوّلاً: بأنّه سأل الرّؤية لقومه حين قالوا له:

لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ (١).

و بدلالة قوله: **أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ**(٢).

١- البَقرة = ٥٥

٢- الأعراف = ٥٥

ثانياً: أنّه أي موسى سأل العلم الضّروري الذّي يحصل في الأخرة و لا يكون في الدّنيا ليزول عنه الخواطر و الشّبهات و الرّؤية تكون بمعنى العلم كما تكون الإدراك بالبصر:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**(١).

و للأنبياء أن يسألوا ما يزول عنهم الوساوس و الخواطر كما سأل إبراهيم ربّه:

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ(٢).

غير أنّ سأل ما يطّمئن قلبه الى ذلك و تزول عنه الخواطر و الوساوس فبيَّن اللّه تعالى له أنّ ذلك لا يكون في الدّنيا.

الثّالث: أنّه سأل آية من آيات الساعة الّتي يعلم معها العلم الذي لا يختلج فيه الشكّ كما يعلم في الآخرة و هذا قريب من الثّاني.

و قال الحسن و الرّبيع و السّدي أنّه سأل الرّؤية بالبصر على غير وجه التّشبيه، و هذه الوجوه ذكرها في التّبيان و أنت ترى بعد التّأمل فيها أنّها لا ترجع الى محصلٍ.

أمّا الجواب الأوّل: فهو خلاف ظاهر الكلام و ذلك لأنّ سؤال الرّؤية لقومه لأجل أنهم قالوا لن نؤمن لك حتّى نرى اللّه جهرة لا يدفع الإشكال.

أمّا أوّلاً: فلأنّ القوم لجهلهم قالوا ما قالوا و أمّا موسى عليه‌السلام لكونه من أعاظم الأنبياء و علمه بأنّ اللّه تعالى لا يرى كيف سأل ربّه هذا بل ينبغي له أن يقول لهم أنّ ربّي لا يرى.

ثانياً: لو كان الأمر علىٰ هذا المنوال لكان ينبغي لموسى أن يقول أنّ القوم يقولون كذا وكذا و يسألون الرّؤية ولمّا لم يقل ذلك بل **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**.

١- الفيل = ١ ٢- البقرة = ٢٦٠

علمنا أنّ السؤال لم يكن للقوم بل كان لموسى نفسه.

أمّا الجواب عن الثّانی: أنّ الرّؤية بمعنى العلم خلاف الظّاهر.

نعم الرّؤية القلبية قد تكون بمعنى العلم و ما نحن فيه ليس كذلك لأنّه قال بعد قوله: **أَرِنِيٓ أَنْظُرْ إِلَيْكَ** فأنّ ذكر النظر بعد قوله: **أَرِنِيٓ** قرينة على أنّ المراد بالرّؤية الرّؤية بالحاسّة.

هذا أوّلاً و ثانياً قوله أنّه سأل العلم الضّروري الّذي يحصل في الآخرة لا في الدّنيا.

لا نفهم معناه فأن كان المراد به الرّؤية فهي لن تحصل لا في الدّنيا و لا في الآخرة.

و أن كان المراد به غيرها فهو خارج عن البحث إذ الكلام في الرّؤية والسّؤال كان عنها لا عن العلم الضّروي أيّ علم كان.

الجواب عن الثّالث: فواضح لأنّ السؤال ليس من آيات السّاعة بل السّؤال عن الرّؤية في الدّنيا و أيّ ربطٍ بين الرّؤية و آية من آيات السّاعة.

و أمّا قول الحسن و الرّبيع و السّدي أنّه سأل الرّؤية بالبصر على غير وجه التّشبيه فهو كلام لا معنىً له لأنّ الرّؤية بالبصر على غير وجه التّشبيه محال في حقّه تعالى ففي الحقيقة أنّهم زادوا على أصل الإشكال إشكال آخر أصعب من الأوّل فهذه الوجوه كلّها باطالة عاطلة فاسدة.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية المسألة الثّانية قال أصحابنا أنّ هذه الآية تدّل على أنّه سبحانه يجوز أن يرى و تقريره من أربعة أوجه:

الأوّل: أنّ الآية دالّة على أنّ موسى عليه السلام سأل الرّؤية و لا شكّ أنّه كان عارفاً بما يجب و يجوز و يمتنع على اللّه تعالى فلو كانت الرّؤية ممتنعة على اللّه تعالى لما سألها و حيث سألها علمنا أنّ الرّؤية جائزة على اللّه تعالى قال القاضي الّذي قاله المحصّلون من العلماء في ذلك أقوال أربعة:

أحدها: ما قاله الحسن وغيره أنّ موسى عليه السلام ما عرف أنّ الرّؤية غير جائزة على اللّه تعالى ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً بربّه و بعدله و توحيده فلم يبعد أن يكون العلم بإمتناع الرّؤية و جوازها موقوفاً على السَّمع.

ثانيها: أنّ موسى عليه السلام سأل الرّؤية على لسان قومه فقد كانوا جاهلين بذلك يكرّرون المسألة عليه يقولون: **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً** (١) فَسأَلَ موسىٰ الرّؤية لا لنفسه فلمّا ورد المنع منها ظهر أنّ ذلك لا سبيل اليه و هذه طريقة أبي علّي و أبي هاشم.

ثالثها: أنّ موسىٰ سأل ربّه من عنده معرفة باهرة بإضطرار و أهل هذه التأّويل مختلفون فيه فمنهم من يقول سأل ربّه المعرفة الضّرورية و منهم من يقول بل سأله إظهار الآيات الباهرة الّتي عندها تزول الخواطر و الوساوس عن معرفته و أن كانت من فعله كما نقوله في معرفة أهل الآخرة و هو الّذي إختاره الكعبي.

رابعها: المقصود من هذا السّؤال أن يذكر اللّه تعالى من الدّلائل السّمعية ما يدّل على إمتناع رؤيته حتّى يتأّكد الدّليل العقلي بالدّليل السَّمعي و تعاضد الدّلائل أمرٌ مطلوب للعقلاء و هو الّذي ذكره أبو بكر الأصّم فهذا مجموع أقوال المعتزلة في تأويل هذه الآية.

ثمّ أنّ الرّازي أبطل هذه الأقوال الأربعة الّتي نقلها القاضي عن المعتزلة فقال:

أمّا الوجه الأوّل: فضعيف و يدلّ عليه وجوه:

الأوّل: إجماع العقلاء على أنّ موسى عليه السلام ما كان في العلم باللّه أقلّ منزلةً و مرتبةً من أراذل المعتزلة فلمّا كان كلّهم عالمين بإمتناع الرّؤية عليه تعالى و فرضنا أنّ موسى عليه السلام لم يعرف ذلك كانت معرفته باللّه أقلّ درجةً من معرفة كلّ واحدٍ من أراذل المعتزلة و ذلك باطل بإجماع المسلمين.

١- البقرة = ٥٥

الثّاني: أنّ المعتزلة يدّعون العلم بأنّ كلّ ما كان مرّئياً فأنّه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل فإمّا أن يقال أنّ موسى حصل له هذا العلم أو لم يحصل له فأن كان الأوّل كان تجويزه لكونه تعالى مرّئياً يوجب تجويز كونه حاصلاً في الحيّز و الجهة و تجويز هذا المعنى على اللّه تعالى يوجب الكفر عند المعتزلة فيلزمهم كون موسى عليه السلام كافراً و ذلك لا يقوله عاقل و أن كان الثّاني فنقول لمّا كان العلم بأنّ كلّ مرّئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل علماً بديّهياً ضرّورياً ثمّ فرضنا أنّ هذا العلم ما كان حاصلاً لموسىٰ لزم أن يقال أنّ موسىٰ لم يحصل فيه جميع العلوم الضّرورية و من كان كذلك فهو مجنون فيلزمهم الحكم بأنّه عليه السلام ما كان كامل العقل بل كان مجنوناً و ذلك كفر بإجماع الأمّة فثبت أنّ القول بأنّ موسى عليه السلام ما كان عالماً بإمتناع الرّؤية مع فرض أنّه تعالى ممتنع الرّؤية يوجب أحد هذين القسمين الباطلين فكان القول باطلاً و اللّه أعلم.

أمّا التّأويل الثّاني: و هو أنّه عليه السلام سأل الرّؤية لقومه لا لنفسه فهو أيضاً فاسد و يدلّ عليه وجوه:

الأوّل: أنّ الأمر لو كان كذلك لقال موسى ربّ أرنى ينظر و اليك و لقال اللّه تعالىٰ لن يروني فلمّا لم يكن كذلك بطل هذا التّأويل.

الثّاني: أنّه لو كان هذا السّؤال طلباً للمحال لمنعهم عنه كما أنّهم لمّا قالوا إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة منعهم عنه بقوله أنّكم قوم تجهلون.

الثّالث: أنّه كان يجب علىٰ موسىٰ إقامة الدّلائل القاطعة على أنّه تعالى لا تجوز رؤيته و أن يمنع قومه بتلك الدّلائل عن هذا السّؤال.

فأمّا أن لا يذكر شيئاً من تلك الدّلائل البتة مع أنّ ذكرها كان فرضاً مضيقاً كان هذا نسبة لترك الواجب الى موسى عليه السلام و أنّه لا يجوز.

الرّابع: أنّ أولئك القوم الّذين طلبوا الرّؤية أما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى أو ما آمنوا بها فأن كان الأوّل كفاهم في الإمتناع عن ذلك السّؤال الباطل

مجرّد قول موسى عليه السلام فلا حاجة الى هذا السّؤال الّذي ذكره موسى عليه السلام و أن كان الثّاني لم ينتفعوا بهذا الجواب لأنّهم يقولون له لا نسلّم أنّ اللّه منع من الرّؤية بل هذا قول إفتريته علي اللّه تعالى فثبت أنّ على كلا التقديرين لا فائدة للقوم في قول موسى **أَرِنِيٓ أَنْظُرْ إِلَيْكَ**.

أمّا التّأويل الثّالث: فبعيدٌ أيضاً و يدلّ عليه وجوه:

الأوّل: أنّ على هذا التقدير يكون معنى الآية أرني أمراً أنظر الى أمرك ثمّ حذف المفعول و المضاف إلاّ أنّ سياق الآية يدلّ على بطلان هذا و هو قوله: **أَنْظُرْ إِلَيْكَ** قال: لن تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل و لا يجوز أن يحمل جميع هذا على حذف المضاف.

الثّاني: أنّه تعالى أراه من الآية ما لا غاية بعدها كالعصا و اليد البيضاء و الطّوفان و الجراد و القمّل و الضّفادع و الدّم و إظلال الجبل فكيف يمكن بعد هذه الأحوال طلب أية ظاهرة قاهرة.

الثّالث: أنّه عليه السلام كان يتكلّم مع اللّه بلا واسطة ففي هذه الحالة كيف يليق به أن يقول أظهر لي أية ظاهرة قاهرة تدلّ على أنّك موجود و معلوم أنّ هذا الكلام في غاية الفساد.

الرّابع: أنّه لو كان المطلوب أية تدلّ على وجوده لأعطاه تلك الآية كما أعطاه سائر الأيات ولكان لا معنى لمنعه عن ذلك فثبت أنّ هذا القول فاسد.

أمّا التّأويل الرّابع: و هو أن يقال أنّ المقصود منه إظهار آية تقوي ما دلّ العقل فهو أيضاً بعيد لأنّه لو كان المراد ذلك لكان الواجب أن يقول أريد يا إلهي أن يقوّي إمتناع رؤيتك بوجوهٍ زائدة على ما ظهر في العقل و حيث لم يقل ذلك بل طلب الرّؤية علمنا أنّ هذه التّأويلات فاسدة.

الحجّة الثّانية: من الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدّالة على أنّه تعالى جائز الرّؤية و ذلك لأنّه لو كان مستحيل الرّؤية لقال لا أرى ألا ترى أنّه لو كان في يد رجلٍ حجر فقال له إنسان ناولني هذا لأكله فأنّه يقول له هذا لا يؤكل و لا

يقول له لا تأكل و لو كان في يده بدل الحجر تفّاحة لقال له لا تأكلها أي هذا ممّا يؤكل و لكنّك لا تأكله فلمّا قال تعالىٰ: **لن تَريٰني** ولم يقل لا أرى علمنا أنّ هذا يدلّ على أنّه تعالى في ذاته جائز الرّؤية.

الحجّة الثّالثة: من وجوه المستنبطة من هذه الآية أنّه تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائز و المعلّق على الجائز جائز فيلزم كون الرّؤية في نفسها جائزة أنّما قلنا أنّه تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائز لأنّه علّق رؤيته على إستقرار الجَبل بدليل قوله فأن إستَّقر مكانه فسوف تراني و إستقرار الجبل أمرٌ جائز الوجود في نفسه فثبت أنّه تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائز الوجود في نفسه اذا ثبت هذا وجب أن تكون رؤيته جائزة الوجود في نفسها لأنّه لمّا كان ذلك الشّرط أمراً جائز الوجود لم يلزم من فرض وقوعه محال فبتقدير حصول ذلك الشّرط أنّا أن يتّرتب عليه الجزاء الّذي هو حصول الرّؤية فأن ترتّب عليه حصول الرّؤية لزم القطع بكون الرّؤية جائزة الحصول و أن لم يتّرتب عليه حصول الرّؤية قدح هذا في صحيحة قوله متى حصل ذلك الشّرط حصلت الرّؤية و ذلك باطل.

فأن قيل أنّه تعالى علّق حصول الرّؤية على إستقرار الجبل حال حركته و إستقرار الجبل حال حركته محال فثبت أنّ حصول الرّؤية معلّق على شرطٍ ممتنع الحصول لا على شرطٍ جائز الحصول فلم يلزم صحّة ما قلتموه و الدّليل على أنّ الشرط هو إستقرار الجبل حال حركته أنّ الجبل أمّا أن يقال أنّه حالٌ ما، جعل إستقراره شرطاً لحصول الرّؤية كان ساكناً أو متحركاً فأن كان الأوّل لزم حصول الرّؤية بمقتضى الإشتراط و حيث لم تحصل علمنا أنّ الجبل في ذلك الوقت ما كان مستّقراً و لمّا لم يكن مستّقراً كان متحركاً فثبت أنّ الجبل حال ما جعل إستقراره شرطاً لحصول الرّؤية كان متحركاً لا ساكناً فثبت أنّ الشّرط هو كون الجبل مستقراً حال كونه ساكناً فثبت أنّ الشّرط الذّي علّق اللّه على حصوله حصول الرّؤية هو كون الجبل مستقراً حال كونه متحركاً و أنّه شرطٌ محال.

و الجواب هو أنّ إعتبار حال الجبل من حيث هو مغاير لإعتبار حاله من حيث أنّه متحرك أو ساكن وكونه ممتنع الخلّو عن الحركة و السكون لا يمنع إعتبار حاله من حيث أنّه متحرك أو ساكن ألا ترى أنّ الشئ لو أخذته بشرط كونه موجوداً كان واجب الوجود و لو أخذته بشرط كونه معدوماً كان واجب العدم ولو أخذته من حيث هو مع قطع النّظر عن كونه موجوداً أوكونه معدوماً كان ممكن الوجود فكذا هاهنا الّذي جعل شرطاً في اللفظ هو إستقرار الجبل و هذا القدر ممكن الوجود فثبت أنّ القدر الّذي جعل شرطاً أمرٌ ممكن الوجود جائز الحصول و هذا القدر يكفي لبناء المطلوب.

الحجّة الرّابعة: من الوجوه المستنبطة من هذه الآية في إثبات جواز الرّؤية قوله تعالىٰ: **فَلَمَّا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** و هذا التَّجلي هو الرّؤية و يدلّ عليه وجهان:

الأوّل: أنّ العلم بالشّئ يجلي لذلك الشّئ و إبصار الشّئ يجلّي لذلك الشّئ إلاّ أنّ الإبصار في كونه مجلّياً أكمل من العلم به و حمل اللّفظ على المفهوم الأكمل أولى.

الثّاني: أنّ المقصود من ذكر هذه الآية تقرير أنّ الإنسان لا يطيق رؤية اللّه بدليل أنّ الجبل مع عظمته لمّا رأى اللّه تعالى إندَّك و تفَّرقت أجزاءه و لولا أنّ المراد من التَّجلي ما ذكرناه لم يحصل هذا المقصود فثبت أنّ قوله تعالىٰ: **فَلَمَّا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** هو انّ الجبل لمّا رأى اللّه تعالى إندَّكت أجزاءه و متى كان الأمر كذلك ثبت أنّه تعالى جائز الرّؤية أقصى ما في الباب أن يقال أنّ الجبل جماد و الجماد يمتنع أن يرى شيئاً إلاّ أنّا نقول لا يمتنع أن يقال أنّه تعالى خلق في ذات الجبل الحياة و العقل و الفهم ثمّ خلق فيه رؤية متعلّقة بذات اللّه تعالى و الدّليل عليه أنّه تعالى قال يا جبال أوِّبي معه و الطّير وكونه مخاطباً بهذا الخطاب مشروط بحصول الحياة و العقل فيه فكذا هاهنا فثبت بهذه الوجوه الأربعة دلالة هذه الآية على أنّه تعالى جائز الرّؤية انتهى كلام

الرّازي و أنّما نقلناه بعين عباراته حفظاً للأمانة مضافاً الى ما فيه من الفائدة من جهة تقريره مسلك الأشاعرة في الباب و هو رئيسهم و علاّمتهم و ليس منهم من يوازيه في المعقول و المنقول و الإحاطة بالأقوال و الأراء اذا عرفت هذا فنقول:

أمّا ما قاله الرّازي في معنى الكلام وكيفيّته فلاكلام لنا فيه فعلاً و أنّما الكلام في حججه التّي أقام على جواز الرّؤية تأييداً لمذهبه الفاسد الكاسد في جواز الرّؤية و هى أربعة و قد نقلناها بطولها و تفصيلها من تفسيره لهذه الآية.

أمّا الحجّة الأولى: و هى أنّ الآية دالّة على سؤال موسى الرّؤية مع أنّه كان عارفاً بما يجب و يجوز و يمتنع على اللّه تعالى فلو كانت ممتنعة عليه تعالى لما سألها الخ.

فالجواب عنها من وجوهٍ:

أحدها: أنّ السّؤال أنّما كان بسبب قومه لا لنفسه لأنّه كان عالماً بإمتناعه أيّد هذا الجواب بوجوهٍ:

منها، حكاية طلب الرّؤية من بني إسرائيل في مواضع كقوله تعالى فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللّه جهرةً فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى ٱللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**(١)

و منها، أنّ موسى أضاف ذلك الى السّفهاء:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ ٱلسُّفَهآءُ مِنّآ**(٢).

و إضافة ذلك الى السّفهاء تدّل على أنّه كان بسببهم و من أجلهم حيث سألوا ما لا يجوز عليه تعالى.

١- البقرة = ٥٥
٢- الاعراف = ١٥٥

فأن قيل أن كان الأمر علىٰ هذا المنوال فلم أضاف السّؤال الى نفسه و وقع الجواب مختصّاً به.

قلنا لا يمتنع وقوع الإضافة على هذا الوجه مع أنّ السّؤال كان لأجل الغير اذ كانت هناك دلالة تؤمن من اللّبس فلهذا يقول أحدنا اذا شفع في حاجة في حاجة غيره للمشفوع اليه أسألك أن تفعل بي كذا و تجنبني الى ذلك و يحسن أن يقول المشفوع اليه قد أجبتك و شفعتك و ما جرى مجرى ذلك على أنّه قد ذكر في هذا الخبر ما يغني عن هذا الجواب فقول الرّازي في الحجّة الأولى و حيث سألها علمنا أنّ الرّؤية جائزة على اللّه تعالى، لا محصّل له نعم هذا يتّم لو كان موسى سائلاً لنفسه و قد عرفت أنّه ليس كذلك، و لا أقلّ من وجود الإحتمال و اذا جاء الإحتمال بطل الإستدلال و هو المطلوب.

أمّا الجواب عن الحجّة الثّانية: الّتي تمسّك بها الرّازي و غيره من الأشاعرة من أنّه تعالى لو كان مستحيل الرّؤية لقال في جواب موسى، لا أرى.

فنقول قوله تعالىٰ: **لَنْ تَرٰينِي** أدَّل و أثبت للمدّعى من قوله لا أرى، لوجود كلمة، لن، الّتي لنفي الأبد الشّامل للدّنيا و الآخرة، بخلاف، لا أرى، لأنّ هذا الكلام أي عدم الرّؤية منصَّرف الى الرّؤية في الدّنيا فقط أي لا أرى في الدّنيا.

و أمّا عدم الرّؤية في الآخرة فلا يستفاد من الكلام.

و أمّا تمثيله بالحجر و التّفاهة فهو من المغالطة، و ذلك لأنّ الإنسان إذا قال لغير ناولني هذا الحجر لآكله فأنّه يقول له هذا لا يؤكل و لا يقول له لا تأكل.

وجه المغالطة في هذا الكلام هو أنّ اللّه تعالى لم يقل لموسى لا ترى أو لا تراني بل قال **لَنْ تَرٰينِي** و وضع كلمة لا التّي للنّفي موضع كلمة، **لَنْ** الّتي لنفي الأبد مغالطة جدّاً و هكذا الكلام في تمثيله بالتُّفاحة فأنّ قول القائل لا تأكلّها غير قوله لن تأكلها لفظاً و معنىً.

ثانياً: نقول أيّ فرقٍ بين قول القائل هذا الحجر لا يؤكل، وقوله لن تأكله مثلاً ثمّ أيّ فرق بين قولنا إنّ اللّه لا يرى و قولنا لن تراه، إلاّ بالخطاب و عدمه و حيث كان موسى مخاطباً لهذا الكلام فقال تعالى لن تراني و هذا ظاهرٌ.

أمّا الحجّة الثّالثة: و هى أنّ اللّه تعالى علّق رؤيته على أمرٍ جائز و هو إستقرار الجبل و المعلّق على الجائز جائز، و تقريره أنّ إستقرار الجبل أمرٌ ممكنٌ في نفسه و المعلّق على الممكن ممكن فالرّؤية ممكنة.

و الجواب أنّ التّعليق يقع على قسمين:

أحدهما: أن يكون الغرض منه بيان وقت المعلّق و تحديد و قوعه بزمانٍ خاص مثل قولنا أن جاءك زيدٌ يوم الجمعة فأكرمه، أو مكانٍ خاصّ مثل أن يقول أن جاءك زيد في المسجد فأكرمه أو صفة خاصّة مثل أن يقال أن جاءك زيد قائماً أو راكباً أو آكلاً فأكرمه ففي هذه الموارد لانعني بالتّعليق إلاّ وجود الإكرام بعد تحقق هذه الأمور لا مطلقاً.

ثانيهما: أن يكون المطلوب فيه مجرّد بيان تحقّق الملازمة و علاقة الإستلزام بأن يكون لإفادة النّسبة الّتي بين الشّرط و الجزاء مع قطع النّظر عن وقوع شيئ من الطّرفين و عدم وقوعه.

و لا شكّ أنّ التّعليق بالمعنى الأوّل خارج عن مورد البحث و هو ممّا لا كلام لنا فيه و الخصم أيضاً لا يقول به في المقام.

و أمّا التّعليق بالمعنى الثّاني فهو محلّ البحث فنقول لا يخفى على العاقل أنّه لا علاقة بين إستقرار الجبل و رؤيته تعالى في نفس الأمر و لا ملازمة بينهما أصلاً مضافاً الى أنّ إفادة مثل هذا الحكم و هو تحقّق علاقة اللّزوم بين هاتين القضّيتين لا يليق بسياق مقاصد القرآن مع ما فيه من بعده عن مقام سؤال الكليم فأنّ المناسب لمّا طلب الرّؤية بيان وقوعه و لا قوعه لا مجرّد الإفادة بين الأمرين من علاقة اللّزوم فالصّواب أن يقال أنّ المقصود من هذا التّعليق بيان

أنّ الجزاء لا يقع أصلاً بتعليقه علىٰ ما لا يقع ثمّ هذا التّعليق أن كان مستلزماً للعلاقة بين الشّرط و الجزاء فوجب أن يكون إمكان الشّرط مستتبعاً لإمكان الجزاء لأنّ ماله هذه العلاقة مع المحال لا يكون ممكناً على ماهو المشهور من أنّ مستلزم المحال محال و إلاّ فلا وجه لوجوب إمكان الجزاء و الأوّل و إن كان شائع الإرادة من اللّفظ إلاّ أنّ الثّاني أيضاً مذهب معروف للعرب كثير الدّوران بينهم و هو عمدة البلاغة و دعامتها و من ذلك قول الشّاعر:

إذا شـاب الغـراب أتيتُ أهـلي وصـار القّـار كـاللَّبن الحَـليب

و معلوم أنّ مشيب الغراب وصيرورة القّار كالحَليب لا ملازمة بينهما وبين إتيان الشّاعر أهله و نظيره في القرآن تعليق خروج أهل النّار منها على ولوج الجمل في سمّ الخياط و العاقل لا يدّعي العلاقة بينهما وِذا كان هذا النّوع من التّعليق شائعاً كثير الوقوع في كلامهم فلا ترجيح للإحتمال الأوّل بل التّرجيح معنا فأنّ البلاغة في ذلك بل نقول إذا تحقّقت العلاقة في الواقع بينهما و علّق عليه لمكان تلك العلاقة فليس له ذلك الموضع من حسن القبول و أيضاً لا يخفى على ذي فطرةٍ أنّ إلتزام تحقّق علاقة لزومٍ بين إستقرار الجبل في تلك الحال و بين رؤيته تعالىٰ بحيث لو فرض وقوع ذلك الإستقرار إمتنع أن لا تقع رؤيته تعالى مستبعداً جدّاً يكاد يجزم العقل ببطلانه.

فإذاً المقصود من ذلك الكلام مجرّد بيان إنتفاءه بـتعليقه عـلى أمـرٍ غـير واقعي و يكفي في ذلك عدم وقوع المعلّق عليه و لا يستدعي إمتناع المعلّق إمتناعه ولو سلّم فنقول أنّ المعلّق عليه هو الإستقرار مطلقاً بل في المستقبل و عقيب النظّر بدلالة الفاء و، إن، و ذلك لأنّه إذا دخل الفاء علىٰ، إن، يفيد إشتراط التعقيب لا تعقيب الإشتراط فالشّرط هاهنا وقوع الإسـتقرار عـقيب النـظّر و النّظر ملزوم لوقوع حركة الجبل عقيبه فوقوع السّكون عقيبه محال لإشتماله وقوع الشّئ عقيب ما يستعقب منا في ذلك الشّئ و يستلزم و قوعه عقيبه و أمّا

أنّ النّظر لا يستلزم إندكاك الجبل و تزلزله و لا علاقة بينه و بينه و أنّما هو مصاحبة إتّفاقية فممنوعٌ و لعّل النّظر ملزوم للحركة كما أنّ إستقرار الجبل ملزومٌ لرؤيته تعالى و تحقّق العلاقة بين النّظر و الحركة ليس بأبعد من تحقّق العلاقة بين الإستقرار و الرّؤية.

أمّا الحجّة الرّابعة: فقد إدّعى فيها قوله أنّ التّجلي في قوله تعالىٰ: **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** هو الرّؤية و إستدّل عليه بوجهين:

و أفاد في الوجه الأوّل أنّ العلم بالشّئ يجلّي لذلك الشّئ و إبصار الشّئ أيضاً يجلّي و الإبصار في كونه مجلّياً أكمل من العلم به و حمل اللّفظ على المفهوم الأكمل أولى.

ففيه أمّا أوّلاً، فبأنّ الإبصار في كونه مجليّاً أكمل من العلم به، أوّل الكلام و أي دلّيل دّل على ذلك و على الخصم أوّلاً إثبات ذلك ثمّ حمل اللّفظ على المفهوم الأكمل بل نقول أنّ الأمر بالعكس لأنّ رؤية القلّبية أكمل و أتّم من رؤية البصر فحمل اللّفظ أعني به التَّجلي على العلم أولى، مضافاً الى كونه أوفق لظواهر الكتاب و السنّة من حمله على الإبصار الّذي يكذبه العقل و النّقل.

و أمّا ما أفاده في الوجه الثّاني من أنّ الجبل لمّا إندّك بعد التّجلي مع عظمته فالإنسان مع صغره مثلاًكيف يطيق رؤيته و هو دليل على الجواز في حدّ ذاته إلاّ أنّ الإنسان لا يطيق الرّؤية فأنّ عدم الطّاقة لا يلازم الإستحالة.

و الجواب أنّ عدم الطّاقة دليل على الإستحالة إذ لو كانت الرّؤية ممكنة في حدّ نفسها فلم لا يطيق الإنسان أيّاها و بعبارة أخرى أن كانت الرّؤية في حدّ نفسها ممكنة فلا معنى لعدم طاقة الإنسان الرّؤية و أن كانت غير ممكنة فثبت المطلوب: بل نقول أن كانت رؤيته تعالى ممكنة جائزة فهو تعالى في حدّ ذاته ممكن من الممكنات و ليس بواجب الوجود و التّالي باطل فالمقدّم مثله بيان الملازمة أنّ الرّؤية من صفات المرئي و إمكان الصّفة يستدعي إمكان الموصوف.

أمّا المقدّمة الأولىٰ: و هى كون الرّؤية من صفات المّرئي فلاكلام فيه لأنّ الرّؤية صفة وكلّ صفةٍ تستدعي موصوفاً.

أمّا المقدمة الثّانية: و هى أنّ امكان الصّفة يستدعي إمكان الموصوف لأنّ الموصوف لا يخلو حاله من الوجوب و الإمكان فأن كان ممكناً فهو المطلوب و أن كان واجباً فصفاته أيضاً واجبة لأنّ واجب الوجود بالذّات واجب الوجود من جميع الجهات و أن كان ممكناً فصفاته أيضاً ممكنة فأنّ الصّفة تابعة للموصوف في الوجوب و الإمكان و هذا كما ترىٰ.

و أيضاً لو كان الواجب جائز الرّؤية لكان في جهةٍ من الجهات إذ من شرائط تحقّق الرّؤية كون المرّئي في جهة وكلّ موجودٍ وقع في جهةٍ فهو ممكن محدود وكلّ ممكنٍ محدود فهو مخلوقٍ وكلّ مخلوقٍ ليس بواجب الوجود هف فثبت و تحقّق أنّه تعالى لا يرى و يمتنع أن يرى لخروجه عن كونه واجب الوجود الّذي هو منّزهٌ عن صفات المخلوقين من التّقابل و الوضوح و الجهة و غيرها.

و أيضاً، لو كان مرّئياً فلا محالة يكون متشكّلاً بشكلٍ و صورةٍ خاصّة صورةٍ تحتاج الى مادّةٍ لإستحالة وجود الصّورة بدون المادّة و لازم ذلك أن يكون المرّئي مرّكباً منهما وكلّ مرّكبٍ منهما جسم هذا خلفٌ و هكذا الكلام في الشّكل، لأنّه أيضاً يحتاج الى محلٍ يقع فيه.

أن قلت لا نسلّم أنّ المرّئي لابدّ له من صورةٍ و شكلٍ بل نقول أنّه يرى و لا صورة و لا شكل له.

قلنا هذا مستحيل و لا أظنّ أنّ الخصم يدّعي ذلك لأنّ وجود الصّورة أو الشكل بدون المادة محال بالضّرورة.

و أيضاً لابدّ لكلّ رؤية من إحاطة المدرك على المدرك و أن شئت قلت من إحاطة الرّائي علىٰ المرّئي فيكون الرّائي محيطاً و المرّئي محاطاً فيلزم أن يكون الواجب محاطاً لكونه مرّئياً وكلّ محاطٍ محدود إذ لا نعني بالمحاط إلاّ

المحدّودية و كلّ محدود متناه إذ لو لم يكن متناهياً لا يكون محدوداً و كلّ متناهٍ فهو ممكن فهو تعالى مكن هف.

و أيضاً يلزم الإنقلاب و ذلك لأنّ المدرك أعني به الرّائي لا يمكن له الإحاطة على المرئي الغير المتناهي و صيرورته غير متناهٍ و لازم ذلك صيرورة المتناهي غير متناهٍ و هكذا الكلام في المّرئي لأنّه محاطٌ على الفرض محاطٍ فهو محدود و كلّ محدودٍ فهو متناهٍ فيلزم صيرورة غير المتناهي متناهياً و لا نعني بالإنقلاب إلاّ هذا و قد أجمعوا على إستحالة الإنقلاب في الماّهية و الذّات.

نعم الإنقلاب في الصُّورة ممّا لا إشكال فيه كأنقلاب الماء هواء و ما نحن فيه ليس من هذا القبيل ضرورة أنّ غير المتناهي لا يكون متناهياً و بالعكس و مع حفظ التنّاهي و عدمه في الرّائي و المرّئي لا تتّحقق الرّؤية لعدم تحقّق المحاط و المحيط و هو معلوم فثبت أنّ الرّؤية غير ممكنة و هو المطلوب هذا كلّه في الإستدلال على عدم جواز الرّؤية عقلاً و أمّا الإستدلال عليه بالنّقل فمن وجوهٍ ثلاثة:

أحدها الكتاب، و ثانيها السُّنة و ثالثها، الإجماع فهي بضميمة العقل الّذي مرّ الكلام فيه، توجب إستحالة الرّؤية بالأدّلة الأربعة:

الكتاب، و السُّنة، و الإجماع و العقل و ما قامت على بطلانه الأدّلة الأربعة فهو باطل في حدّ ذاته، أمّا الكتاب.

فمنه قوله تعالى في هذه الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها حيث قال: **لَن تَراني يا موسىٰ** و قد ثبت في العّربية أنّ كلمة، لَن لنفي الأبد و قد تكّلمنا فيها بما لا مزيد عليه و أيّدناه بدليل العقل و غرضنا الآن نصّ الكتاب على عدم جواز الرّؤية.

و منها قوله تعالىٰ: **وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى اَللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ اَلصّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**[1].

١- البقرة = ٥٥

و قد مرّ الكلام فيها هناك و قلنا أنّ الرّؤية لو كانت ممكنة جائزة فلا معنى لقوله: **فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ** و إنّما أخذتهم الصّاعقة لإستدعائهم المحال الّذي يلزم منه الكفر.

و أمّا السُّنة، فالأخبار الواردة في الباب كثيرة جدّاً فمنها:

ما رواه في البحار بأسناده عن عبد اللّه بن عبّاس في قوله عزّ وجّل فلّما أفاق **قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** قال، يقول سُبحانك تُبتُ اليك من أن أسألك رؤية و أنا أوّل المؤمنين بأنّك لا ترى قال الصّدوق رحمه الله أنّ موسى عليه السلام علم أنّ اللّه تعالى لا يجوز عليه الرّؤية و إنّما سأل اللّه أن يريه ينظر اليه عن قومه حين ألحُّوا عليه في ذلك و ساق الحديث الى أن قال و الأخبار الّتي رويت في هذا المعنى و أخرجها مشايخنا رضي اللّه عنهم في مصنّفاتهم عندي صحيحة و إنّما تركت إيرادها في هذا الباب خشية أن يقرأها جاهل بمعانيها فنكذب بها فيكفر باللّه عزّ و جّل و هو لا يعلم و الأخبار الّتي ذكرها أحمد بن محمّد بن عيسى في نوادره و الّتي أوردها محمّد بن أحمد بن يحيى في جامعه في معنى الرّؤية صحيحة لا يرّدها إلاّ مكذّب بالحقّ أو جاهلٌ به و ألفاظها ألفاظ القرآن و لكلّ خبرٍ معنى ينفي التّشبيه و التّعطيل و يثبت التّوحيد و قد أمرنا الأئمة صلوات اللّه عليهم أن لا نكلّم النّاس على قدر عقولهم و معنى الرّؤية هنا الواردة في الأخبار، العلم، و ذلك لأنّ الدّنيا دار شكوك و إرتياب و خطرات فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات اللّه و أموره في ثوابه و عقابه ما تزول به الشّكوك و يعلم قدرة اللّه عزّ وجلّ و تصديق ذلك في كتاب اللّه، قوله لقد كنت في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاؤك فبصرك اليوم حديد فمعنى ما روي في الحديث أنّه عزّ و جلّ يرى، أن يعلم علماً يقيناً:

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ**(۱).

۱- الفرقان = ۴۵

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ**[١].

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ**[٢].

و أشباه ذلك كلّها من رؤية القلب و ليست من رؤية العين و أمّا قول اللّه عزّوجلّ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ** فمعناه لمّا ظهر عزّ وجلّ للجبل بآيةٍ من آيات الآخرة التي تكون بها الجبال سراباً و الّتي ينسف الجبال نسفاً تدكدك الجبل فصار تراباً لأنّه لم يطق حمل تلك الآية و قد قيل أنّه بدا له نور العرش و تصديق ما ذكرته ما حدّثنا به تميم القرشي عن أبيه عن حمدان بن سليمان عن محمّد بن الجهم قال:

حَضرتُ مَجلس المأمون وعنده الرّضا عليه‌السلام علّي بـن مـوسىٰ عليه‌السلام فقال: له المأمون يا بن رسـول اللّـه أَلـيس فـي قـولك أنّ الأنـبياء مَعصُومون قال عليه‌السلام بَلىٰ فَسأله عن آيات من القـرآن فكـان فـيما سَأَل أَن قال له فما معنىٰ قول اللّه عزّ وجّل فلّما جاء موسىٰ لِميقاتنا و كلّمه ربّه قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَيٰنِي كيف يَجوز أن يكون كليم اللّه موسىٰ بن عُمران لا يَعلم أنّ اللّه تعالىٰ لا يَجوز عليه الرّؤية حتّىٰ يَسأله عن هذا السّؤال، فقال الرّضا عليه‌السلام أنّ كليم اللّه موسىٰ بن عمران عَلِم أنّ اللّه تعالىٰ اعزُّ أن يُرىٰ بـالأبصار و لكّنه لمّا كلّمَه اللّه عزّ وجّل وقَرَّبه نَجّياً رَجع الىٰ قومه فَأخبرهم أنّ اللّه عزّ وجّل كَلّمه و قَرَّبه و ناجاه فقالوا لَن نُؤمن لك حتّىٰ نَسمع كلامه كما سَمِعتَ و كان القوم سبع مائة ألف رجل فأختار مـنهم سبعة آلافٍ ثمّ أختار منهم سبع مائة ثمّ أختار منهم سبعين رجلاً لِميقات ربّه فَخرج بهم الىٰ طور سيناء، فَأماتهم فـي سَـفح الجَـبل وصَعَد مـوسىٰ الىٰ الطُّـور وَسَأل اللّـه تَـبارك وتـعالىٰ أَن يُكّلمه

١- البقرة = ٢٥٨ ٢- الفيل = ١

ويُسمعهم كلامه فكَلّمه اللّه تعالىٰ ذكره وسَمعوا كلامه من فوق و أَسفل و يَمين و شمال و وراء و أمام لأنّ اللّه أَحدَثه في الشّجرة ثمّ جَعَله مُنبعثاً منها حتّىٰ سَمعوه من جميع الوجوه فقالوا لَن نُؤمن لك بأنّ هذا الّذي سَمعناه كلام اللّه حتّىٰ نَرىٰ اللّه جَهرةً فلّما قالوا هذا القول العظيم و أستكبروا وعَتَوا بَعَث اللّـه عـزّ وجّـل عـليهم صاعِقة فَأخذتهم بظلمهم فماتوا فقال موسىٰ يا ربّ ما أقول لِبَني إسرائيل إذا رَجعتُ اليهم و قالوا أنّك ذَهبتَ بهم فَقَتلتهم لأنّك لَم تَكُن صادقاً فيما أدعّيتَ من مُناجاة اللّه إيّاك فأحياهُم اللّه و بعَثهم معه فقالوا أنّك لَو سَئلت اللّه أَن يُريك تَنظر اليه لأجابك و كُنت تُخبرنا كيف هو فَنَعرفه حقّ معرفته فقال موسىٰ يا قوم أنّ اللّـه لا يُـرىٰ بالأبصار و لا كيفّية له و إنّما يُعرف بآياته و يُعلم بأعلامه فقالوا لَن نُؤمن لك حتّىٰ تَسئله فقال موسىٰ يا ربّ أنّك قد سَمعتَ مَقالة بني إسرائيل وأَنت أَعلم بصلاحهم فأوحىٰ اللّه جلّ جلاله اليه يا مُوسىٰ إسئلني ما سَألوك فلَن أُوآخِذُك بِجَهلهم فعند ذلك قال موسىٰ ربّ أَرِني أنظُر اليك قال لَن تَراني و لكن أُنـظر الىٰ الجَـبَل فأن إسـتّقر مكانه، وهو يهوىٰ، فَسوف تَراني، فلّما تَجّلىٰ ربّـه لـلـجَبَل، بآيـاته، جَعَله دَكّاً وخَّر موسىٰ صَعِقاً فلّما أفاق قال سُبحانك إنّي تُبتُ اليك، يقول رَجعتُ الىٰ مَعرفتي بك عن جهل قومي و أنا أوّل المـؤمنين منهم بأنّك لا تُرىٰ فقال المأمون لِلّه دَرّك يا أبا الحَسَن الخَبَر.

ما رواه في البحار أيضاً بأسناده عن ذي الرّياستين أنّه قال قُلت لأبي الحَسَن الرّضا عليه السلام جُعِلت فَداك أخبرني عمّا إختلف فيه النّاس مِن الرُّؤية فقال بعضهم لا يُرىٰ، فقال عليه السلام: يا أبا العبّاس مَن وَصَف اللّه بخلاف ما وَصَف به نفسه فقد أَعظم الفرية علىٰ اللّه قال اللّه لا تُدركه الأبصار و هو يُدرك الأبصاراللّطيف الخَبير، هذه الأبـصار

ليست هي الأعين إنّما هي الأبصار الّتي في القلوب لا تقَع عليه الأوهام و لا يُدرك كيف هو إنتهىٰ.

ما رواه أيضاً عن محمّد الحَلَبي أنّه سَأَل الصّادق عليه السلام فقال: رآىٰ رسول اللّه ربّه قال عليه السلام: نَعِم رآه بِقَلبه فأمّا ربّنا جّل جلاله فلا تُدركه أبصار حَدق النّاظرين و لا يُحيط به إسماع السّامعين.

و أيضاً سُئل عنه عليه السلام هل يَرىٰ اللّه في المعاد فقال عليه السلام: سُبحانه تَبارك وتعالىٰ عن ذلك عُلّواً كَبيراً أنّ الأبصار لا تُدرك إلاّ ماله لَون وكَيفّية واللّه خالق الألوان والكيفّية إنتهىٰ.

ما رواه بأسناده عن هشام قال كنتُ عند الصّادق جعفر بن محمّد اذ دَخَل عليه معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعَيُن فقال: له معاوية بن وهب يابن رسول اللّه ما تقول في الخَبر الّذي رُوي أنّ رسول اللّه رأىٰ ربّه علىٰ أيّ صورةٍ رآه.

و عن الحَديث الّذي رَووه أنّ المؤمنين يَرون ربّهم في الجنّة علىٰ أيّ صورةٍ يَرونه فَتَبَسم عليه السلام ثمّ قال: يا معاوية ما أقبَح بالرّجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يَعيش في مُلك اللّه ويأكل من نِعَمه لا يعرف اللّه حقّ معرفته ثمّ قال عليه السلام يامعاوية أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لَم يَر الرَّب بمشاهدة العيان وأنّ الرّؤية علىٰ وجهين: رؤية القَلب، ورؤية البَصر فَمن عني برؤية القَلب فهو مُصيب و من عني برؤية البَصر فقد كَفَر باللّه وبأياته تقول رسول اللّه من شَبّه اللّه بخَلقه فقد كَفَر ولقد حدَّثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علّي عليه السلام فقيل يا أخا رسول اللّه هَل رأيت ربّك فقال عليه السلام كيف أعبُد مَن لَم أرَه لم تَره العيُون بمشاهدة العيان و لكن رأته القلُوب بحقائق الإيمان فاذا كان المؤمن يرىٰ ربّه بمشاهدة البَصر فأنّ كلّ مَن جاز عليه البَصر والرّؤية فهو مخلوق ولابدّ للمخلوق من خالقٍ

فقد جعلته اذاً مُحدّثاً مخلوقاً و مَن شَبّهه بخلقه فقد إتّخذ مَع اللّه شريكاً و يَلهم أوَلَم يَسمعوا يقول اللّه لا تُدركه الأبصار و هو يُدرك الأبصار و هو اللّطيف الخَبير.

و قوله: لَنْ تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ و أنّما طَلع من نوره علىٰ الجَبل كضَوء يخرج من سَمّ الخَياط فدكدكت الأرض وصَعقت الجبال وخَرَّ موسىٰ صَعقاً أي مَيّتاً فلمّا أفاق ورَدَّ عليه رُوحه قال سُبحانك تُبت اليك مِن قَول مَن زَعَم أنّك تُرىٰ ورجعتُ الىٰ مَعرفتي بك أنّ الأبصار لا تُركك وأنا أوّل المؤمينن و أوّل المُقّرين بأنّك تَرىٰ و لا تُرىٰ وأنتَ بالمَنظر الأعلىٰ.

ثمّ قال عليه السلام أنّ أفضل الفرائض وأوَجَبها علىٰ الإنسان معرفة الرّب و الإقرار له بالعبُودّية وحدّ المَعرفة أن يعرف أنّه لا إلٰه غيره و لا شَبيه لَه و لا نَظير و أنّه قديم مُثبَت وجوده غير مُقيّدٍ (فقيد خ ل) موصوف من غير شبيه و لا مُبطل ليس كمثله شيً و هو السّميع البَصير و بعده معرفة الرّسول والشّهادة بالنّبُوة و أدنىٰ معرفة الرّسول الإقرار بنبّوته و أنّ ما أتىٰ به من كتاب أو أمرٍ أو نهيٍ فذلك من اللّه عزّ وجلّ و بعده معرفة الإمام الذّي به تأتّم (يأتم خ ل) بنَعته وصفته و إسمه في حال العُسر واليُسر وأدنىٰ معرفة الإمام أنّه عدِل النّبي إلاّ درجة النّبوة و وارثه وأنّ طاعته طاعة اللّه وطاعة رسوله والتّسليم له في كلّ أمرٍ والرّد اليه والأخذ بقوله و يعلم أنّ الإمام بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله علّي بن أبي طالب و بَعده الحَسن ثمّ الحُسين ثمّ علّي بن الحُسين ثمّ محمّد بن علّي ثمّ أنا ثمّ بعدي موسىٰ ابني علّيٌ إبنه و بعده محمّد إبنه و بعده علّيٌ إبنه وبعد علّي الحَسَن إبنه والحجّة من وُلد الحَسن.

ثمّ قال عليه‌السلام يامعاوية جُعلت لك أصلاً في هذا فإعمل عليه فلو كُنتَ تَمُوت علىٰ ما كُنت عليه لكان حالك أسَوء الأحوال فلا يَغرنك قول من زَعم أنّ اللّه تعالىٰ يُرىٰ بالبَصَر قال عليه‌السلام وقد قالوا أعَجب من هذا أوَلَم يُنسبوا آدم الىٰ المَكروه أوَلَم يُنسبوا إبراهيم الىٰ ما نَسَبُوه وَلَم يُنسبوا داود الىٰ ما نَسَبُوه من حديث الطّير أوَلَم يُنسبوا يوسف الصّديق الىٰ ما نسبُوه من حديث زليخا أوَلَم يُنسبوا موسىٰ الىٰ ما نَسَبُوه من القَتل أوَلَم يَنسبُوا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله الىٰ ما نَسَبُوه من حديث زيد أوَلَم يُسنبُوا علّي ابن أبي طالب عليه‌السلام من حديث القَطيفة أنّهم أرادوا بذلك توبيخ الإسلام ليَرجعُوا علىٰ أعقابهم أعَمىٰ اللّه أبَصارهم كما أعَمىٰ قلُوبهم تعالىٰ اللّه عنه علّواً كَبيراً انتهىٰ.

أقول و أنّما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفائدة وأن كان فيه ما هو خارج عن محلّ البحث و الأحاديث التّي ذكرناها نقلناها(١).

ثمّ أنّ الأخبار الواردة في الباب كثيرة و لنكتفي بذكر هذا المقدار من السنّة حذراً عن الإطناب و الإطالة.

أمّا الإجماع من المسلمين على عدم الرّؤية فهو موجود ولم يخالف فيه من يعبأ به إلاّ الأشاعرة و حيث أنّ المخالف في الإجماع معلومٌ لنا فلا يضّر بالإجماع مضافاً الى أنّهم أي الأشاعرة أنكروا كثيراً من الأصول المسلّمة بل أنكروا الحسن و القبح العقلّيين و إعتقدوا جواز الظلم عليه تعالى و قالوا بالجبر الّذي هو محكوم في الإسلام بل القائل به في حدّ الكفر باللّه و أمثال ذلك من الأباطيل والخرافات التّي لا ينبغي لنا التّعرض لها و ما نحن فيه من هذا القبيل و محصّل الكلام في المقام هو أن الإماميّة والمعتزلة و جميع أهل السنّة يقولون بعدم جواز الرّؤية و إستحالتها و الأشاعرة و المشّبهة قالوا بجوازها و

١- البحار ج ١ ط كمباني ص ١١٨

لتفصيل الكلام مقامٌ أخر فأنّه خارج عن موضوع الكتاب و هذا المقدار كاف في رفع الشُّبهة لمن كان له عقل سليم و فطرة مستقيمة و لنرجع الى تفسير كلامه تعالى بحوله و قوّته.

قَالَ لَنْ تَرَىٰنِي وَ لَٰكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي

قوله: **لَنْ تَرَىٰنِي** جواب من اللّه تعالى لموسى أنّه لا يراه على الوجه الّذي سأله و فيه دلالة على أنّه تعالى لا يرى في الدّنيا و الأخرة لأنّ كلمة، لن، لنفي الأبد كما قال تعالىٰ: **وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا**[١].

و قوله: **فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ** أي فأنّ إستّقر الجبل مكانه بعد التّجلي في حال ما جعله دكّاً منقطعاً و من المعلوم إستحالة كون الشّيئ متّحركاً و ساكناً في حالةٍ واحدةٍ، فكانت الرّؤية المعلّقة بذلك أيضاً محال لأنّه لا يعلّق بالمحال إلاّ المحال.

و أمّا قول من قال أنّ الجبل إعتبر مع قطع النّظر عن الحركة و السُّكون فهو شطط من الكلام بدليل قوله بعد ذلك **فَلَمَّا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** أي مستوياً بالأرض، أو مدقوقاً مع الأرض و هو دليل علىٰ أنّ الجبل لم يؤخذ مع قطع النّظر عن الحركة و السّكون و هذا واضح.

وَ خَرَّ مُوسٰى صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

قال ابن عبّاس و الجبائي و الحسن و ابن زيد أنّه وقع مغشّيا عليه من غير أن يكون مات بدليل قوله: **فَلَمَّآ أَفَاقَ** و لا يقال للميّت اذا عاش، أفاق.

و قال قتادة معناه، مات، و أمّا قوله سبحانك تبت اليك، فقيل فيه ثلاثة أقوال:

١- البقرة = ٩٥

أحدها: أنّه تاب لأنّه سأل قبل أن يؤذن له في المسألة و ليس ذلك.

ثانيها: أنّه تاب من صغيرة ذكرها.

ثالثها: أنّه قال ذلك علىٰ وجه الإنقطاع اليه و الرّجوع الى طاعته و أن كان لم يعص قال الشّيخ في التّبيان بعد نقل هذه الأقوال و هذا هو المعتمد عندنا دون الأوّلين على أنّه يقال لمن جوّز الرّؤية على اللّه تعالى اذا كان موسى أنّما سأل ما يجوز عليه فمن أيّ شئ تاب فلابدّ لهم من مثل ما قلناه من الأجوبة.

و أمّا قوله: **وَ أَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** فقيل معناه أنا أوّل المؤمنين بأنّه لا يراك شئ من خلقك و قيل أنا أوّل المؤمنين من بني إسرائيل.

قال الزّمخشري في الكشّاف و نعم ما قال في المقام ما هذا لفظة **فَلَمَّآ أَفَاقَ** من صعقته قال سبحانك، أي أنّزهك ممّا لا يجوز عليك من الرّؤية و غيرها **تُبْتُ إِلَيْكَ** من طلب الرّؤية **وَ أَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** بأنّك لست بمرئي و لا مدركٌ بشئ من الحوّاس.

فأن قلت فأن كان طلب الرّؤية للغرض الذّي ذكرته فممّ تاب.

قلت من إجراءه تلك المقالة العظيمة و أن كان لفرض صحيح على لسانه من غير إذنٍ فيه من اللّه تعالى فأنظر الى إعظام اللّه تعالى أمر الرّؤية في هذه الآية و كيف أرجف الجبل بطالبيها و جعله دكّاً و كيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان ذلك مبالغةً في إعظام الأمر وكيف سبّح ربّه ملتّجأً اليه و تاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه و قال: **أَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ثمّ تعجّب من المتّسمين بالإسلام المتّسمين بأهل السنّة و الجماعة كيف إتّخذوا هذه العظيمة مذهباً و لا يغرّنك تستّرهم بالبلكفة فأنّه من منصوبات أشياخهم و القول ما قال بعض العدليّة:

لَجماعة سَمّوا هواهم سُنّة   وجماعة همّت لعمري مُوكفه
قد شَبّهوه بخلقه وتَخوّفوا   شَنع الوَرىٰ فَتَستَروا بالبَلكَفة

ثّم قال و تفسير أخر و هو أن يريد بقوله: **أَرِنِىٓ أَنْظُرْ إِلَيْكَ** عرّفني نفسك تعريفاً واضحاً جليّاً كأنّها إراءة في جلاءها بأيةٍ مثل أيات القيامة التّي تضّطر الخلق الى معرفتك، و أنظر اليك أعرفك معرفة إضطرار كأنّي أنظر اليك **قَالَ لَنْ تَرَيٰنِي** أي لن تطيق معرفتي على هذه الطّريقة ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضّطرة أنظر الى الجبل فأنّى أورد عليه و أظهر له أية من تلك الأيات فأن ثبت لتّجليها و إستّقر مكانه و لم يتضعضع فسوف تثبت لها و تطيقها.

فَلَمَّا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ أي فلّما ظهرت له آية من آياته قدرته و عظمته **جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسٰى صَعِقًا** لعكم ما رآى **فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ** ممّا أقترحت و تجاسرت **وَ أَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** بعظمتك و جلالك و إن شئت لا يقوم لبطشكّ و بأسك إنتهى ما أوردنا نقله من كلامه.

و لاشكّ أنّه من أعيان علماء أهل السُّنة و قلّما يوجد بل لا يوجد مثله فيهم و إنّما نقلنا كلامه لتعلم أنّ مسألة إمتناع الرّؤية عليه تعالى لا إختصاص لها بالعدليّة فقط بل هي مخصوصة بكلّ من له عقل سليم من أيّة طائفة كانت و أمّا من كان عقله مشوباً بالوهم و الخيالات الفاسدة الكاسدة المنبعثة، من الوساوس الشيطانيّة فقد خفى عليه الحقّ فأنّ العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يشاء و ليس بكثرة التعليم و التعلُّم و الحمد للّه ربّ العالمين.

قَالَ يٰا مُوسىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسٰالاٰتِي وَ بِكَلاٰمِي فَخُذْ مٰا اٰتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ ٱلشّٰاكِرِينَ

قرأ أهل الحجاز، برسالتي، على التّوحيد و الباقون برسالاتي على الجمع، الإصطفاء إستخلاص الصَّفوة لما لها من الفضيلة، و الفضائل على وجوه كثيرة أجلّها قبول الأخلاق الكريمة و الأفعال الجميلة و لهذا المعنى إصطفى موسى حتّى إستّحق الرّسالة، و أمّا قوله برسالاتي و بكلامي، ففيه بيان ما به إصطفاه و هو أن جعله نبيّاً و خصّه بكلامه بلا واسطة و هما نعمتان عظيمتان إمتّن بهما

عليه و لذلك أمره اللّه تعالى بالشّكر عليهما فقال: **فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و شرعاً.

و المراد بالأخذ في قوله: فخذ، المواظبة عليهما حقّ المواظبة بتأديّة حقّ الرسالة و حفظ العبودية الكاملة و فى تقديم الرّسالة على الكلام إشعار بأنّ الرسالة من أجلّ المناصب الإلهيّة بل هي أشرف المقامات بعد الألوهيّة و لأجل ذلك قرن اللّه طاعة الرسول بطاعته و معصيته بمعصيته .

و أمّا قول بعضهم أنّ الرّسالة لمّا كانت أسبق زماناً فلذلك قدّمها فلا وجه له.

وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ

الألواح جمع لوح و اللّوح صحيفة مهيّأة للكتابة فيها قيل أنّ الألواح كانت من خشب نزلت من السّماء، و لا دليل عليه كما أنّ قولهم صعق موسى يوم الجمعة يوم عرفة و أفاق فيه و أعطي التّوراة يوم النّحر كلّ ذلك من الحدسيّات التي لا مأخذ لها.

قال الرّازي و ذكروا في عدد الألواح و فى جوهرها و طولها أنّها كانت عشرة ألواح و قيل سبعة و قيل أنّها كانت من زمردة جاء بها جبرئيل عليه السلام و قيل من زبرجدة خضراء و ياقوتة حمراء.

و أمّا كيفيّة الكتابة فقال ابن جريح كتبها جبرئيل بالقلم الذّي كتب به الذّكر و استّمد من نهر النّور ثمّ قال و إعلم أنّه ليس في لفظ الآية ما يدّل على كيفيّة تلك الألواح و على كيفيّة تلك الكتابة فأن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصلٍ قوّي وجب القول به و إلاّ وجب السكوت عنه انتهى كلامه و هو حقّ لا مرية فيه.

أقول معنى الآية و أثبتنا له أي لموسى في الألواح أو فرضنا و أوجبنا فيها من كلّ شئ موعظةً **وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ** أي فصَّلنا الأحكام فيها ثمّ أمر موسى بالأخذ بها أي بالألواح فقال فخذها بقوّةٍ و الأخذ بها كناية عن العمل بها و المواظبة عليها، و أمر قومك من بني إسرائيل يأخذوا بأحسنها قيل معناه أي بحسنها.

و قيل معناه مرهم يا موسى أن يحملوا أنفسهم على الأخذ بما هو أدخل في الحسن و أكثر للثّواب كقوله: **وَ اتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ** وقوله: **فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ**.

و قيل الحسن يدخل تحته الواجب و المندوب و المباح و أحسن هذه الثلاثة الواجبات و المندوبات.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ** يعني تمييزاً لكلّ ما يحتاجون اليه، و فى قوله، فخذها بقّوةٍ، معناه بجدٍّ و إجتهاد و قيل بصحّة عزيمة و لو أخذه بضعف نيّةٍ لأدّاه الى فتور العمل به و فى قوله: **وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** معناه يأخذوا بأحسن المحاسن و هى الفرائض و النوافل و أدونها في الحسن المباح لأنّه لا يستّحق عليه حمد و لا ثواب.

و قال الجبائي أحسنها النّاسخ دون المنسوخ المنّهي عنه لأنّ العمل به قبيح و قيل أريد بأحسنها الى ما دونه من الحُسن ألا ترىٰ أنّ إستيفاء الدّين حسن و تركه أحسن و القصاص حسن و العفو أحسن و إختاره الشّيخ في التّبيان.

و أمّا قوله عزّ وجلّ: **سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** فقال الحسن و مجاهد و الجبائي، يعني جهنّم و قال قتادة هي منازلهم لتعتبروا بها و بما صاروا اليه من النّكال فيها.

و قيل المعنى سأوريكم مصارع الكفّار و ذلك أنّه لمّا أغرق فرعون و قومه أوحي الى البحر أن أقذف أجسادهم الى السّاحل ففعل فنظر اليهم بنو إسرائيل فأراهم مصارع الفاسقين.

و قال الكلبي، ما مرّوا عليه اذا سافروا من مصارع عاد و ثمود و القرون الذّين أهلكوا، و قال ابن زيد هو من رؤية القلب أي سأعلمكم سير الأوّلين و ما حلَّ بهم من النّكال.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

لمّا ذكر سأوريكم دار الفاسقين ذكر ما يفعل اللّه بهؤلاء الفساق من صرفه و منعه إيّاهم عن أياته لفسقهم و خروجهم عن طورهم الى وصف ليس لهم ثمّ ذكر تعالى من أحوالهم ما إستَّحقوا به إسم الفسق ثمّ أنّهم إختلفوا في المصروف عنه فقال قتادة معناه سأصرفهم عن الإعراض و الطّعن و التحريف و التبديل و التغيير.

و قال ابن جبير سأصرفهم عن الإعتبار و الإستدلال بالدّلائل و الأيات على هذه المعجزات و بدائع المخلوقات.

و قيل معناه سأصرفهم عن دفع الإنتقام و قيل غير ذالك و أمّا الأيات فقيل هي التّسع التّي أعطاها، و المتّكبرون هم فرعون و قومه صرف اللّه قلوبهم عن الإعتبار بالأيات بما إنهمكوا فيه من اللّذات و الشّهوات في هذه الدّنيا الدنيّة قوله: **بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** إشارة الى أنّ التَّكبر قد يكون بالحقّ مثل تكّبر المسلم علىٰ الكافر و تكّبر الفقير على الغنّي.

وَ إِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وصف اللّه تعالى هؤلاء المتّكبرين بغير الحقّ بأنّهم إن يروا كلّ أيةٍ من أيات اللّه التّكوينية أو التّشريعية لا يؤمنوا بها لعنادهم و لجاجهم و من المعلوم أنّ التّكبر عن الإيمان من أقبح الصّفات لأنّ مرجعه الى التَّكبر على اللّه.

ثمّ وصفهم ثانياً بقوله: **وَ إِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** معناه أنّهم متى رأوا سبيل الصّلاح عدلوا عنه ولم يتَّخذوه طريقاً لهم بمعنى أنّهم لا يعلمون به.

ثالثاً: بقوله: **وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** يعني وإن يروا ضدّ الرُّشد و هو الغَّي و الضّلالة سلكوه و إرتكبوا معصية اللّه فيه **ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ** و المعنىٰ أنّهم إستمر كذبهم و صار لهم ذلك ديدناً حتّى صارت تلك الأيات لا تخطر ببالهم فحصلت الغفلة عنها و النسّيان لها حتّى كانوا لا يذكرونها و لا شيئاً منها، قيل أنّ الصَّرف كان مسّبباً عن التّكذيب و الغفلة من جميعهم و قيل بالعكس أي كان الصَّرف سبباً للتّكذيب و كيف كان فقوله: **وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ** إستئنافٍ أي من شأنهم أنّهم كانوا غافلين عن الأيات و التَّدبر فيها فأورثتهم الغفلة التّكذيب بها.

و قيل أنّ معنى الأية، سأصرف عن أياتي، و لا أظهرها لهم كما أظهرتها للمؤمنين و يريد بذلك المعجزات الباهرات، لعلمي بأنّ في إظهارها مفسدة لهم بها يزدادون عندها كفراً.

وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ

في هذه الآية أخبر اللّه تعالى عن عاقبة حال المكذّبين بأيات اللّه و البعث و النّشور في الأخرة بحبط أعمالهم التّي عملوا بها في دار الدّنيا و من حبط عمله فقد خسر خسراناً مبيناً ثمّ أشار بأنّ حبط أعمالهم ليس الاجزاء لأعمالهم فالإستفهام للإنكار و التّوبيخ و المعنى ليس يجزون إلاّ ما كانوا يعملون إن خيراً فخيراً و إن شّراً فشّراً و أعلم أنّ أصل الإحباط الفساد و هو مشتّق من الحبط و هو داءٌ يأخذ البعير في بطنه من فساد الكلاء عليه يقال حبطت الإبل تحبط إذا أصابها ذلك و اذا عمل الإنسان عملاً على خلاف الوجه الّذي أمر به يقال أحبط بمنزلة من يعمل شيئاً ثمّ يفسده فقوله تعالى: **حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ** إخبار منه تعالى أنّ من كذب بآياته و جحد البعث و النّشور تنحبط أعماله لوقوعها على خلاف الوجه الّذي أمر به و يستّحق بها المدح و

وَ ٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا
جَسَدًا لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا
يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿۱۴۸﴾ وَ
لَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَاسِرِينَ ﴿۱۴۹﴾ وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ
غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ
أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ
ٱسْتَضْعَفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ
ٱلْأَعْدَآءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿۱۵۰﴾
قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ
وَ أَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿۱۵۱﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا
ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿۱۵۲﴾ وَ ٱلَّذِينَ
عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوٓا إِنَّ
رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿۱۵۳﴾ وَ لَمَّا سَكَتَ
عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَ فِي نُسْخَتِهَا
هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿۱۵۴﴾

◁ اللّغة

حُلِيِّهِمْ قرأ حمزة و الكسائي بكسر الحاء و اللاّم و الباقون بضمّ الحاء و كسر اللاّم و تشديد الياء، و قرأ يعقوب بفتح الحاء و سكون اللاّم و تخفيف الياء و قال

أنّه إسم جنسٍ يقع على الكثير و التّعليل، مفرده حلية كتمر و تمرة و من قرأ بكسر الحاء و اللاّم أتبع الكسرة الكسرة وكره الخروج من الضّمة الى الكسرة و من قرأ بضمّ الحاء وكسر اللاّم فلأنّه جمع، حلى، نحو ثدي و ثدى.

عِجْلًا، **العجل** بكسر العين و سكون الجيم و اللاّم ولد البقرة القريب العهد بالولادة و هو العجول أيضاً و أنّما أخذ من تعجيل أمره لصغره.

جَسَدًا لَهُۥ خُوَارٌۚ، **الجسد** جسم الحيوان مثل البدن و **الخوار** بضمّ الخاء صوت الثّور و هو صوت غليظ كالجوأر، و بناء، فعال، يدلّ على الآفة كالطرخ و العوار و العطاش و النبّاح.

غَضْبَٰنَ أَسِفًا، **الغَضب** معنى يدعوا الى الإنتقام و هو يضّاد الرّضا و الأسف الغضب الّذي فيه تأسّف على فوت ما سلف و قيل آسفاً أي حزيناً.

سَكَتَ أي سكن.

◁ الإعراب

عِجْلًا مفعول إتّخذه و**جَسَدًا** نعت أو بدل أو بيان من حليّهم و يجوز أن يكون صفة لعجل قدّم فصار حالاً، و يجوز أن يكون متّعلقاً بإتَّخذ و المفعول الثّاني محذوف أي إلهاً **سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ** الجار و المجرور قائم مقام الفاعل و التّقدير سقط النّدم في أيديهم **غَضْبَٰنَ**(غضبان) حال من موسى و **أَسِفًا** حال آخر بدل من الّتي قبلها و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير الّذي في غضبان **يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ** يجوز أن يكون حالاً من موسى و أن يكون حالاً من الرّأس **قَالَ ٱبْنَ أُمَّ** بكسر الميم و الكسرة تدلّ على الياء المحذوفة **فَلَا تُشْمِتْ** الجمهور على ضمّ التّاء وكسر الميم و **ٱلْأَعْدَآءَ** مفعوله و**ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ** مبتدأ **إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** خبره و العائد محذوف أي غفورٌ لهم أو رحيمٌ بهم **وَفِى نُسْخَتِهَا** الجملة حال من الألواح **لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** في اللاّم ثلاثة أوجه:

أحدها: هي بمعنى من أجل ربّهم، فمفعول يَرْهَبُونَ على هذا محذوف أي يرهبون عقابه.

الثّاني: هي متّعلقة بفعل محذوف تقديره و الّذين هم يخشعون لربّهم.

الثّالث: هي زائدة.

◁ التفسّير

وَ ٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُۥ خُوَارٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن قوم موسى بعد مفارقة موسى أيّاهم و مضّيه الى ميقات ربّه أنّهم إتَّخذوا من حليهم عجلاً جسداً له خوار، و قيل في إضافة الحلي اليهم لكونهم ملكوه ممّا كان على قوم فرعون حين غرقوا و لفظهم البحر فكان كالغنيمة لهم و لذلك أمر هارون بجمعه حتّى ينظر موسى إذا رجع في أمره، أو ملكوه إذ كان من أموالهم الّتي إغتصبها القبط بالجزية الّتي كانوا وضعوها عليهم.

و قيل أنّ بني إسرائيل كان لهم عيد يتزّينون فيه و يستعيرون من القبط الحلي فإستعاروا على القبط لذلك اليوم فلمّا أغرق اللّه القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل فجمع السّامري تلك الحلّي وكان رجلاً مطاعاً فيهم ذا قدرٍ وكانوا قد سألوا موسىٰ أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه فصاغ السّامري عجلاً ثمّ إختلف النّاس فقال قوم كان أخذ كفّاً من تراب حافر فرس جبرائيل، فألقاه في جوف ذلك العجل فأنقلب لحماً و دماً و ظهر منه الخوار مرّةً واحدة فقال السّامري هذا إلهكم و إله موسى، و قال الآخرون أنّه كان قد جعل ذلك العجل مجوفاً و وضع في جوفه أنابيب على شكلٍ مخصوص وكان قد وضع ذلك التّمثال على مهّب الرّياح فكانت الرّيح تدخل في جوف الأنابيب و يظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل.

و قال بعض آخر أنّه جعل ذلك التّمثال أجوف و جعل تحته في الموضع الّذي نصب فيه العجل من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به النّاس فسمعوا الصّوت من جوفه كالخوار نقل الرّازي بعد نقله هذه الأقوال عن صاحب القول الأخير أنّه قال و النّاس قد يفعلون الآن في هذه التّصاوير الّتي يجرون فيها الماء على سبيل الفوّارات ما يشبه ذلك فهذا الطّريق و غيره أظهر الصّوت من ذلك التّمثال ثمّ ألقى الى النّاس أنّ هذا العجل إلههم و إله موسى انتهى.

و يظهر من الأخبار الواردة في الباب أنّ موسى عليه‌السلام كان يقول لبني إسرائيل إذا فرّج اللّه عنكم و أهلك أعداءكم آتيكم بكتابٍ من عند ربّكم يشتمل على أوامره ونواهيه و مواعظه و عبره و أمثاله فلّما فرّج اللّه عنهم أمره اللّه تعالى أن يأتي للميعاد و يصوم ثلاثين يوماً عند أصل الجبل فظّن موسى أنّه بعد ذلك يأتيه (يعطيه) الكتاب فصام ثلاثين يوماً فلمّا كان في آخر الأيام أستاك قبل الفطر فأوحى اللّه عزّ وجلّ اليه يا موسى أما علمت أنّ خلوف فم الصّائم أطيب عندي من ريح المسك صم عشراً آخر و لا تستك عند الإفطار ففعل ذلك موسى و كان وعده اللّه أن يعطيه الكتاب بعد أربعين ليلة فأعطاه أيّاه فجاء السّامري فشبّه على مستضعفي بني إسرائيل فقال وعدكم موسى أن يرجع اليكم من بعد ليلة عشرون ليلة و عشرون يوماً تمّت أربعون (خطا) موسى ربّه و قد أتاكم ربّكم أراد أن يريكم أنّه قادر على أن يدعوكم الى نفسه بنفسه و أنّه لم يبعث موسى لحاجةٍ منه اليه فأظهر لهم العجل الّذي كان عمله فقالوا كيف يكون العجل إلهنا قال لهم أنّما هذا العجل يكلّمكم منه ربّكم كما كّلم موسى من الشّجرة فلمّا سمعوا منه كلاماً قال الإله في العجل كما في الشّجرة فضّلوا بذلك و أضّلوا فلمّا رجع موسى الى قومه قال يا أيّها العجل أكان فيك ربّنا كما يزعم هؤلاء فنطق العجل و قال عزّ ربّنا أن يكون العجل حاوياً له أو شئ من الشّجرة و الأمكنة عليه مشتملاً لا و اللّه يا موسى و لكن

السّامري نصب عجلاً مؤخره الىٰ حائط وحَفر في الجانب الآخر في الأرض وأجلس فيه بعض مرددته فهو الّذي وضع فاه علىٰ دبره و تكّلم لمّا قال هذا إلهكم و إله موسى الخبر.

أقول الأقوال في الباب كثيرة و الأخبار في المقام مختلفة و الّذي لا خلاف فيه بين العّامة و الخّاصة هو وقوع أصل القضّية على ما نطق به القرآن.

و أمّا كيفيّتها فلا طريق لنا الى العلم بها و اللّه أعلم بحقائق الأمور **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ** الإستفهام للإنكار أخبر اللّه تعالى على وجه الإنكار عليهم و التّعجب من جهلهم فقال أولم يروا هؤلاء الجهّال أنّه أي العجل لا يكلمّهم و لا يهديهم الى سبيل الخير و مع ذلك إتّخذوه إلهاً و كانوا ظالمين بعبادتهم أيّاه أو في إتّخاذهم له إلهاً.

تَنبيهٌ:

إعلم أنّ اللّه تعالى يختبر النّاس و يمتحنهم في كل عصر و زمان الى يوم القيامة:

قال اللّه تعالىٰ: **أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هرُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ فَتَنّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ**(٣).

و الأيات كثيرة و ما نحن فيه أعني به قصّة السّامري و العجل أيضاً من هذا القبيل و المقصود أنّ اللّه تعالى إمتحن قوم موسى بالعجل و السّامري ليميز الخبيث من الطّيب و المؤمن الحقيقي من المستعار ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيَّ عنها و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد و هذا لا يختّص بقوم موسى و غيره

١- العنكبوت = ٢ و ٣ ٢- طه = ٩٠

٣- الأنعام = ٥٣

من الأنبياء قبل الإسلام بل هذه السيّرة المستّمرة باقية الى الآن و الى يوم القيامة إذا عرفت هذا فنقول.

ذكر اللّه تعالىٰ في القرآن قصصاً كثيرة في هذا الباب من آدم الىٰ آخر الأنبياء و ذَكر فيها أنواع الوقائع و الحوادث الواقعة علىٰ الأمم السّالفة و ليس غرضه من ذكر القضايا نقل القصّة و الحادثة فقط بل الغرض من ذكرها أن تعتبر الأمّة الإسلامية بها و توجَّهت أنّ الإشكال ليس في الإسم بل أساس الفتنة هو المسّمىٰ سواء سمّي بالسّامري و العجل أو بغيرهما فأنّ السّامري و العجل موجودان في كل زمانٍ بأسماء مختلفة إلاّ أنّ الإنسان الّذي يدّعي العقل و ألفهم و الإيمان لا ينبغي له أن يتبع كلّ ناهق ويَميل مع كلّ ريح بل ينبغي له أن يتفكّر في دينه و دنياه و يأتمّ بمن هو أهل للائتمام و يأخذ بحجزه من يرشده الىٰ اللّه و لولا مخافة الإطالة لأطنبت الكلام في هذه المقالة و لكن فيما أشرنا اليه كفاية لأولي الدّراية.

وَ لَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ

قيل معناه قوله: **سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ**، وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنّادم عند ما يجده ممّا كان خفي عليه و يقال أيضاً سقط في يديه أي صار الّذي كان يضربه في يديه.

و قال أبو عبيدة يقال لِمن نَدم علىٰ أمرٍ و عجز عنه سقط في يده.

قال الرّازي إعلم أنّهم إتّفقوا علىٰ أنّ المراد من قوله: **سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ** أنّه إشتّد ندمهم علىٰ عبادة العجل و إختلفوا في الوجه الّذي لأجله حسنت هذه الإستعارة ثمّ ذكر وجوهاً لا بأس بنقلها.

فالأوّل: قال الزّجاج معناه سقط النّدم في أيديهم أي في قلوبهم كما يقال حصل في يده مكروه و أن كان من المحال حصول المكروه الواقع في اليد إلاّ أنّهم أطلقوا علىٰ المكروه الواقع في القلب و النّفس كونه واقعاً في اليد فكذا هاهنا.

الوجه الثّاني: قال صاحب الكشّاف أنّما يقال لمن ندم سقط في يده لأنّ من شأن من إشتدّ ندمه أن يعِّض يده غمّاً فيصير ندمه مسقوطاً فيها لأنّ فاه قد وَقع فيها.

الوجه الثّالث: أنّ السّقوط عبارة عن نزول الشّئ من أعلى الىٰ أسفل و لهذا قالوا سقط المطر و يقال سقط من يدك شئ و أسقطت المرأة فمن أقدَّم علىٰ عملٍ فهو أنّما يقدم عليه لإعتقاده أنّ ذلك العمل خير و صواب و أنّه يورثه شرفاً و رفعة فإذا بأن له أنّ ذلك العمل كان باطلاً فاسداً فكأنّه قد إنحَّطَ من الأعلىٰ الى الأسفل و سقط من فوق الىٰ تحتٍ فلهذا السّبب يقال للرّجل إذا خطأ، كان ذلك منه سقط شبَّهوا ذلك بالسّقطة على الأرض فثبت أنّ إطلاق لفظ السّقوط علىٰ الحالة الحاصلة عند النّدم جائز مستحسن.

الوجه الرّابع: حكى الواحدي عن بعضهم أنّ هذا مأخوذ من السّقيط و هو ما يغشي الأرض بالغدوات شبه الثّلج يقال منه سقطت الأرض كما يقال من الثّلج ثلجت الأرض و ثلجنا أي أصابها الثّلج و معنى سقط في يده أي وقع في يده السّقيط و السّقيط يذوب بأدنىٰ حرارة و لا يبقى فمن وقع في يده السّقيط لم يحصل منه علىٰ شئ قطّ فصار هذا مثلاً لكلّ من خسر في عاقبته و لم يحصل من سعيه علىٰ طائل وكانت النّدامة أخر أمره.

الوجه الخامس: قال بعض العلماء النّادم أنّما يقال له سقط في يده لأنّه يتّحير في أمره و يعجز عن أعماله و الألة الأصلية في الأعمال في أكثر الأمر هي اليد و العاجز في حكم السّاقط فلمّا قرن السّقوط بالأيدي علم أنّ السّقوط في اليد أنّما حصل بسبب العجز التّام و يقال في العرف لمن لا يهتدي لما يصنع ضلّت يده و رجله.

الوجه السّادس: أنّ من عادة النّادم أن يطأطئ رأسه و يضعه علىٰ يده معتمداً عليه و تارةً يضعها تحت ذقنه و شطر من وجهه على هيئةٍ لو نزعت يده لسقط علىٰ وجهه فكانت اليد سقوطاً فيها لتَّمكن السّقوط فيها و يكون

قوله: **سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ** بمعنى سقط علىٰ أيديهم كقوله لأصلبنّكم في جذوع النّخل أي عليها والله أعلم انتهىٰ كلامه.

أقول أنّما نقلنا أقوال المفسّرين في المقام لتعلم أنّهم لم يأتوا بشئ يداوي به الدّاء والذّي يختلج بالبال في معنى المراد بعد الإذعان بكون الكلامَ جئ به علىٰ سبيل الكناية و الإستعارة هو أنّ السّقوط كناية عن الكفر و الشّرك بعبادة اللّه بسبب ما صنعه السّامري و متابعتهم إيّاه في أنّه إلههم و إلٰه مُوسىٰ و ظنّهم أنّهم و صلوا الىٰ ما و صلوا من التّوحيد فهذا هو الذّي كان في أيديهم بعد مفارقة موسى و إتّخاذهم العجل ربّاً من الإعتقاد ثمّ أنّهم لمّا رأوا أنّ ما إتّخذوه إلهاً باطل في نفسه فأنّ العجل و أمثاله لا يكون إلٰهاً فقد ندموا علىٰ ما فعلوا و إعتقدوا به فسقط ما في أيديهم من الإعتقاد الباطل و وقع الحقّ في موضعه فعبّر عن هذا بالسّقوط ألا ترىٰ أنّ الغنّي اذا صار فقيراً ليس في يده شئ من المال فهكذا الإعتقاد الباطل اذا ظهر فساده علىٰ المعتقد يقال سقط ما في يده خالية.

و الدّليل علىٰ ما إستظهرناه هو قوله: **وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا** أي رأوا أنّهم قد ضلّوا بإتّخاذهم العجل و متابعتهم السّامِري **قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** فيه إخبارٌ عمّا قال القوم حين تبيّن لهم ضلالهم و سقط ما في أيديهم، و ذلك لأنّهم إعترفوا بذنبهم وقالوا لئن لم يرحمنا ربّنا و يغفر لنا، لنكونّن من الخاسرين في الدّنيا و الأخرة فأنّ ذنب الكفر عظيم جدّاً أعاذنا اللّه منه و من جميع الذّنوب و من يغفر الذّنوب إلاّ اللّه و من يرحم العبد إلاّ خالقه و الى من يلتجئ العبد اذا عصى ربّه ثمّ أنّهم إختلفوا فيمن عبد العجل.

فقال بعض المفسّرين كلّهم عبدوا العجل إلاّ هارون بدليل قوله تعالى حكايةً عن موسى، ربّ أغفر لي و لأخي، و لو كان هناك مؤمن غيرهما لدعا له.

و قال الأخرون أنّما عبد العجل بعضهم بدلالة ما ورد من الأخبار عن النّبي في هذا المعنى و لا مشاحة فيه.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا

أي لمّا رجع موسىٰ من الميقات الىٰ قومه في حال الغضب و الأسف، روي أنّه لمّا قرب موسى من محلّة بني إسرائيل بعد رجوعه من الميقات سمع أصواتهم فقال هذه أصوات قوم لاهين فلمّا تحقّق عكوفهم علىٰ عبادة العجل داخله الغضب و الأسف و ألقى الألواح.

و قال الطّبري أخبره تعالىٰ قبل رجوعه أنّهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع غاضب و يدّل على هذا القول قوله تعالىٰ: **فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ**(١) و غضبان من صفات المبالغة و الغضب غليان القلب بسبب حصول ما يؤلم و ذكروا أنّ موسى عليه السلام كان سريع الغضب و كان هارون ألين منه خلقاً و لذلك كان أحبَّ الى بني إسرائيل منه.

و الأسف و الحزن **قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ** معناه بئس ما عملتّم خلفي، أي بعد مفارقتي إيّاكم **أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ** الإستفهام للإنكار.

قال الزّمخشري يقال عجل عن الأمر اذا تركه غير تامّ، روي أنّ السّامري قال لهم حين أخرج اليهم العجل هذا إلٰهكم و إلٰه موسىٰ أنّ موسىٰ لن يرجع و أنّه قد مات فبنوا أمرهم علىٰ موت موسىٰ و أنّ الميعاد قد بلغ أخره فحدّثوا أنفسهم بموت موسى و فعلوا ما فعلوا من عبادة العدل.

و قيل معناه أعجلتم ميعاد ربّكم أربعين ليلة، و قيل أعجلتم سخط ربّكم، و قيل أعجلتم بعبادة العجل **وَ أَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ**

أي و ألقى موسى ألواح التّوراة و كان حاملاً لها فوضعها على الأرض غضباً علىٰ ما فعله قومه من عبادة العجل و حميّةً لدين اللّه و كان على ما قيل شديد الغَضَب.

١- طه = ٨٥

و عن ابن عبّاس أنّ موسىٰ عليه السلام لمّا ألقاها تَكسّرت فرفع أكثرها الّذي فيه تفصيل كلّ شئٍ و بقي الّذي في نسخته الهدى و الرّحمة و هو الذّي أخذ بعد ذلك.

قال بعض المفسّرين الظّاهر أنّه ألقاها من يَده لأنّهما كانتا مشغولتين بهما (بها) وأراد إمساك أخيه وجَرَّه و لا يتأتىٰ ذلك إلاّ بفراغ يديه لجرّه و فى قوله تعالىٰ: **وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ** دليل على عدم تكسّرها ثمّ انّهم إختلفوا في قوله و أخذ برأس أخيه.

فقيل أخذ برأسه أي أمسك رأسه جارّه اليه، و قيل بشعر رأسه.

و قيل بذوائبه و لحيته و قيل بلحيته، و قيل بأذنه و كيف كان فالظّاهر أنّ سبب هذا الأخذ هو غضبه على أخيه وكيف عبدوا العجل و هو قد إستخلفه فيهم و أمره بالإصلاح و أن لا يتّبع سبيل المفسدين وكيف لم يزجرهم و يكفّهم عن ذلك.

و قال الزّمخشري أي بشعر رأسه يجرّه اليه بذوائبه و ذلك لشّدة ما ورد عليه من الأمر الذّي إستّفزه و ذهب بفطنته و ظنّاً بأخيه أنّه فرَّط في الكّف.

قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي

قرأ الحرميان و أبو عمرو و حفص، ابن أمَّ، بفتح الميم و عليه فأصله يابن أمّاه فحذفت الألف تخفيفاً كما حُذفت في يا غلام و أصله يا غلاماه و سقطت هاء السَّكت لأنّه درج فعلىٰ هذا الإسم معرب اذ الألف منقلبة عن ياء المتكلّم فهو مضاف اليه ابن.

و قال سيبويه هما إسمان بنيا على الفتح كإسم واحد كخمسة عشر، و قرأ باقي السّبعة بكسر الميم و عليه فأصله يابن أمّي، حذفت الياء و بقيت الكسرة للدّلالة على حذفها و على التقدّيرين لا خلاف في كونه منادى حذفت حرف النّداء من أوّل الكلام و الكسر أحسن من الفتح و أن كان الفتح أشهر و عليه

المصاحف ثمّ أنّ في هذا النّداء نوع إستضعافٍ و ترفّقٍ و كان هارون شقيقه و من عادة العرب التّلطف بذكر الأمّ كما قال يابن أمّي و يا شقيق نفسي.

و قال أخر، يابن أمّي فدتك نفسي و مالي و أنّما ذكر الأمّ دون الأب، قيل لأنّ أمّهما كانت مؤمنة و أمّا أبوه فكان مقطوعاً عن القرابة بالكفر.

أنا أقول هذا لا يصّح فى مذهبنا و أنّما يصّح علىٰ مذهب أهل السنّة لأنّ أباء الأنبياء كلّهم كانوا مؤمنين اذ لا يولد النّبي المعصوم من الكافر.

و أمّا أهل السنّة فلا يشترطون ذلك و لذلك حكموا بكفر عبد اللّه و أبوطالب و للبحث فيه مقام أخر.

بل الوجه في تخصيصه الأمّ بالذّكر هو أنّ حقّها أعظم من حقّ الأب لمقاساتها الشدّائد في حمله و تربيته و الشّفقة عليه ذكره بحقّها قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **أنّ الجنّة تحت أقدام الأُمّهات.**

و محصّل الكلام هو أنّ موسى لمّا أخذ برأس أخيه يجرّه اليه غضباً عليه ممّا فعله القوم في غيبته و هارون كان فيهم، قال هارون لموسى يابن أمّ، أنّ القوم إستضعفونني فلم يلتفتوا الىٰ نصحي و موعظتي بل قاربوا أن يقتلوني، و فيه دلالة علىٰ أنّ هارون قد بالغ في الإنكار عليهم حتّى همّوا بقتله و معنى إستضعفوني، أي إعتقدوني ضعيفاً.

و قيل معناه غلبوا علّي لكثرتهم و قد قال اللّه تعالىٰ: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** (۱) و المقصود أنّ هارون لم أل جهداً في قومه و لكن العوام اذا أرادوا شيئاً حقّاً كان أو باطلاً لا يمكن ردعهم و منعهم عمّا أرادوا و شاءوا، و هذا لا يختّص به بل موسىٰ أيضاً خاف من غلبة الجهّال.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما شككت في الحقّ مذ أريته لم يوجس موسىٰ عليه السلام خيفةً علىٰ نفسه بل أشفق من غلبة الجهّال و دول الضّلال، بل

۱- البقرة = ۲۸۶

نقول كلّ الأنبياء كانوا كذلك فضلاً عن أوصيائهم فهذا أمير المؤمنين عليه السلام وصّي رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم مع قدرته و شجاعته و هيبته و سطوته صار بعد رسول اللّه مظلوماً مقهوراً من غلبة الجهّال فأنّهم إستضعفوه وكادوا يقتلوه ألا ترى أنّه عليه السلام لمّا جعلوا الحبل في عنقه و جرّوه الىٰ المسجد ليبايع أبا بكر و رأىٰ عليه السلام القبر الشّريف إستشهد بهذه الآية فقال متوجّهاً الىٰ القبر يابن أمّ أنّ القوم إستضعفوني وكادوا يقتلونني، و أنّما قال عليه السلام ذلك لأنّه من رسول اللّه كان بمنزلة هارون من موسىٰ، لقوله صلى الله عليه و آله و سلم: **ياعليّ أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبّي بَعدي.**

و الحاصل أنّ هارون لم يكن مقصّراً و أنّما فعل موسى ما فعل بأخيه من الأخذ برأسه و جرّه اليه، لغضبه الّذي عرض عليه بسبب إنحراف القوم و عبادتهم العجل و هذا أمرٌ قهريٌ لكلّ مؤمنٍ له حميّة و غيرةٌ في دينه فلا لوم على هارون لعدم كونه مقصّراً و لا على موسىٰ لطريان الغضب النّاشئ عن الحميّة و الغيرة **فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** أي لا تفعل بي ما يوجب شماتة الأعداء و الشّماتة سرور العدّو بسوء العاقبة و لا تجعلني مع القوم الظّالمين، أي أنّي و أن كنت فيهم حين عبدوا العجل إلاّ أنّي ما كنت معهم فيما فعلوا أي ما كنت راضياً به و فرقٌ واضح بين الكون في النّاس و الكون مع النّاس.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: كن في النّاس و لا تَكُن مَعهم والىٰ هذه الدّقيقة أشير بقوله تعالى حكايةً عن موسىٰ حيث قال:

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ

فلمّا ظَهر لموسى براءة ساحة هارون بأن له عذراً عقلّياً و شرّعياً و هو خوفه على نفسه مع عدم تقصيره في الموعظة قال موسىٰ عند ذلك ربّ أغفر لي و

لأخي الآية و أنّما بدأ في الدّعاء بنفسه فقال: **ٱغْفِرْ لِي** ثمّ قال و لأخي، لأنّه عليه السلام كان ح نبيّاً مرسلاً فكان أفضل من هارون و أقرب الى اللّه منه و قد ورد أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا دعا بدأ بنفسه.

و السّر فيه هو أنّ الدّعاء اذا كان على هذا المنوال فهو أقرب الى القبول، اذ لا وسيلة الىٰ اللّه تعالى أقرب من الإنسان الكامل، ثمّ قال موسى **وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ** أي أدخلني و أخي في رحمتك الواسعة الّتي وسعت كلّ شيء وكيف لا تدخلنا في رحمتك و الحال أنت أرحم الرّاحمين.

وإعلم أنّ هذا الدّعا من موسى كان إنقطاعاً منه الى اللّه تعالى و تقرّباً اليه لا أنّه كان وقع منه أو من أخيه قبيحٌ صغيرٌ أو كبيرٌ ليحتاج أن يستغفر منه، فمن قال أنّ قوله: **رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي** دالّ على وقوع الذّنب منه أو منهما بدليل أنّ طلب الغفران لا يكون إلاّ عن العصيان و الذّنب و اذا كان كذلك فيجوز الخطأ علىٰ الأنبياء كغيرهم، فقد أخطأ خطأً فاحشاً.

أمّا أوّلاً: فلأنّه لا دليل على المدّعىٰ اذ لقائلٍ أن يقول من أين ثبت لكم أنّ الغفران يستدعي الذّنب و العصيان .

ثانياً: قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ الأنبياء كانوا معصومين عن الخطأ كيف و قد ورد أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول **أنّي لأستغفر اللّه في كلّ يومٍ سبعين مرّةً**، فعلىٰ قول الخصم يلزم أن يكون الرّسول من العصاة و أنّه إرتكب في كلّ يوم سبعين ذنباً يقول به عاقل فضلاً عن مسلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيا وَكَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ

قالوا في هذه الآية حذفٌ و تقديره أنّ الّذين إتّخذوا العجل إلٰهاً و معبوداً سينالهم الآية.

قلت لا نحتاج الى هذا التّقدير لدلالة القرينة على ما ذكروه اذ من المعلوم أنّ إتّخاذهم العجل كان لأجل المعبوديّة و القرينة الحاليّة أو المقالية تدّل عليه كان ففي الآية تهديد و وعيد من اللّه تعالىٰ على قوم بني إسرائيل الّذين عبدوا العجل بأنّه سينالهم من ربّهم غضبٌ و ذلّةٌ.

و في قوله: **وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ** أي الكاذبين و المتخرّصيين عليه الّذين بدّلوا نعمة اللّه وضيّعوها لأنّ الشّرك باللّه تعالىٰ كفر لأنّه تضييع لحقّ نعمة اللّه كتضييعه بالجحد للنّعمة في عظم المنزلة.

وَ ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ اٰمَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

لمّا توّعد اللّه قوم بني إسرائيل الّذين عبدوا مع اللّه غيره أي أشركوا به أو كفروا به بالإنكار و عبدوا العجل و عدهم في هذه الآية فقال: **وَ ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ اٰمَنُوٓا** أي تابوا بعد السّيئات يعني رجعوا الىٰ اللّه و ندموا علىٰ ما فعلوه من القبائح و المعاصي و عزموا علىٰ أن لا يعودوا الىٰ مثلها و آمنوا بما أوجب اللّه عليهم، **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ففي هذه الآية دلالة على أنّ اللّه تعالىٰ يغفر الذّنوب جميعاً بعد التّوبة بشرائطها الّتي وردت الأثار بها و سنتكلّم فيها في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ.

وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَ فِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ

أي و لمّا سكن غضب موسىٰ و رجع الى حال الإعتدال الّذي كان عليه قبل الغضب أخذ الألواح من الأرض.

قال بعضهم سمّي ذلك أي السّكون سكوتاً و أن كان الغضب لا يتكلّم لأنّه

لما كان بفورته دالّاً على ما في النّفس علىٰ المغضوب عليه كان بمنزلة النّاطق بذلك فإذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السّاكت عمّا كان متكلّماً به و السّكوت في هذا الموضع أحسن من السّكون لتَّضمنه معنى سكوته عن المعاتبة لأخيه مع سكون غضبه و كيف كان فقد عبّر عن السّكون بالسُّكوت مجازاً.

و أمّا قوله: **وَ فِي نُسْخَتِهٰا هُدىً وَ رَحْمَةٌ** أي في نسخة الألواح و ذلك لأنّ الألواح كانت حاوية لِما هو هدىً و حجّةً و بيان و رحمة للّذين هم لربّهم يرهبون، لا للعصاة الطُّغاة فأنّ المؤمن يخاف و العاصي لا يخاف.

■

وَ ٱخْتَارَ مُوسٰى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا
فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ
مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ
إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَآءُ وَ تَهْدِي
مَنْ تَشَآءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ٱرْحَمْنَا وَ أَنْتَ
خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ ﴿۱۵۵﴾ وَ ٱكْتُبْ لَنَا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَ فِي ٱلْاٰخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيَ
أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَ
ٱلَّذِينَ هُمْ بِاٰيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿۱۵۶﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي ٱلتَّوْرٰيةِ وَ ٱلْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰيهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ
ٱلطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ
إِصْرَهُمْ وَ ٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ
اٰمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ ٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ
ٱلَّذِيَ أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿۱۵۷﴾ قُلْ
يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ
يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَاٰمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ
ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ ٱتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿۱۵۸﴾

◁ اللّغة

ٱلرَّجْفَةُ بفتح الرّاء و الفاء و سكون الجيم الإضطراب الشّديد.

فِتْنَتُكَ، الفِتنة بكسر الفاء أصل الفتن إدخال الذّهب النّار لتظهر جودته من ردائته ثمّ استعملت في الإستيلاء و الإختيار و ذلك لأنّ الإنسان بسبب الإمتلاء و الإختبار تظهر جودته من رِدائته.

ٱلْخَبَٰٓئِثَ بفتح الخاء جمع خَبيث و هو النجّس، الردّي المستكره.

إِصْرَهُمْ، الإِصر عقد الشّيئ وحَبسه بقهره والمراد في المقام الأمور الّتي تثبطّهم و تقيّدهم عن الخيرات و عن الوصول الى الثّوابات، و قيل معناه الثقل.

عَزَّرُوهُ،التّعزير النُّصرة مع التَّعظيم.

◁ الإعراب

وَٱخْتَارَ إختار يتعدّى الىٰ مفعولين أحدهما بحرف الجَّر و قد حذف هاهنا و التّقدير من قومه أَتُهْلِكُنَا قيل هو إستفهام أي أتعمّنا بالإهلاك و قيل معناه النّفي أي ما نهلك من لم يذنب و مِنَّآ حال من السّفهاء تُضِلُّ بِهَا يجوز أن يكون مستأنفاً و يجوز أن يكون حالاً من الكاف في فتنتِك هُدْنَآ و هو من هاد يهود إذا تاب ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ في الّذين ثلاثة أوجه:

أحدها: هو، جَّر علىٰ أنّه صِفة للّذين يتّقون أو بَدل منه.

الثّاني: نصب علىٰ إضمار أعني.

الثّالث: رفع أي هم الّذين يتّبعون و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر، يأمرهم، و أولئك هم المفلحون يَجِدُونَهُ أي يجدون إسمه و مَكْتُوبًا حال و عِندَهُمْ ظرف لِمكتُوب أو يَجِدُونَهُ يأمرهم، يجوز أن يكون خبراً، للّذين، و أن يكون مستأنفاً، و أن يكون حالاً من النّبي أو من الضّمير في مكتوب إِصْرَهُمْ الجمهور على الإفراد و هو جنسٌ.

◁ التّفسير

وَ اخْتارَ مُوسىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا أي و إختار موسىٰ من قومه سبعين رجلاً و الإختيار إفتعالٌ من الخير، قيل و أنّما إختار إخراجهم للميقات و الميقات المذكور هاهنا الميقات المذكور أوّلاً، لأنّه في سؤال الرّؤية و قد ذكر أوّلاً و دَّل عليه ثانياً.

و قيل هو غيره لأنّه كان في التّوبة من عبادة العجل فعن إبن عبّاس أنّه إختار من كلّ سبطٍ ستّة رجال فكانوا إثنين وسبعين فقال ليتّخلف إثنان فأنّما أمرت بسبعين فتشاحوا فقال موسى من قعد فله أجر من حضر فقعد كالب بن يوقنا و يوشع بن نون و إستصحب السّبعين بعد أن أمرهم أن يصوموا و يتطّهروا و يطهّروا ثيابهم ثمّ خرج بهم الى طور سينا لميقات ربّه وكان أمر ربّه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل فلمّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتّىٰ تغشّى الجبل كلّه و دنا موسى و دخل فيه فقال للقوم أدنوا فدنوا حتّىٰ إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجدّاً فسمعوه و هو يكلّم موسىٰ يأمره و ينهاه إفعل و لا تفعل ثمّ إنكشف الغمام فأقبلوا اليه فطلبوا الرّؤية فوعظهم و زجرهم و أنكر عليهم فقالوا: **يا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً**[1].

قال بعض المفسّرين فقال موسىٰ: **رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ** يريد أن يسمعوا الرّدّ و الإنكار من جهته فأجيب، بلن تراني، و رجف الجبل بهم و صعقوا و الى هذا أشير بقوله تعالىٰ: **فَلَمّٰا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** أي الإضطراب الشدّيد.

قال ابن السّائب كان موسى لا يأتي ربّه إلاّ بأذنٍ منه و الذّي يظهر أنّ هذا الميقات غير ميقات موسى عليه السلام الّذي قيل فيه، و لمّا جاء موسى لميقاتنا و كلّمه ربّه، لظاهر تغاير القصّتين و ما جرىٰ فيهما اذ في تلك أنّ موسى كلّمه اللّه و سأله الرّؤية و أحاله للرّؤية على تجليته للجبل و ثبوته و إستقراره فلم يثبت و

۱- الاعراف = ۵۵

صار دكّاً و خرَّ موسىٰ صعقاً، و فى هذه أختير السَّبعون لميقات اللّه و أخذتهم الرَّجفة و لم تأخذ موسىٰ عليه السلام و للفصل الكثير الّذي بين أجزاء الكلام لو كانت قصّة و احدة انتهىٰ كلامه.

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ حكاية عمّا قال موسىٰ لِلّه تعالى و أنّه ناداه و قال يا ربّ لو شئت أهلكتني و إيّاهم من قبل هذا الوقت **أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ** قيل معناه النّفي و أن كان بصورة الإنكار كما تقول، أتشتمني و أسكت عنك، أي لا يكون ذلك فالمعنى أنّك لا تهلكنا بما فعل السّفهاء منّا فبهذا نسألك رفع المحنة بالإهلاك عنّا، ثمّ، أنّهم إختلفوا في سبب الرَّجفة فقال بعضهم سببها سكوتهم و إغضائهم على عبادة العجل.

و قيل عقوبةٍ على سؤالهم الرّؤية، و قيل عقوبة لتَّشططهم في الدّعاء المذكور، أو سببه سماع كلام هارون و هو ميّت.

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَآءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَآءُ

و الضّمير في، هي، يفسّره سياق الكلام أي أنت هو الّذي فتنتهم.

قال بعضهم لمّا أعلمه اللّه أنّ السّبعين عبدوا العجل تعَّجب موسى و قال إن هي إلاّ فتنتك، و قيل لمّا أعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل و بصفته قال ياربّ و من أخاره قال أنا قال موسى فأنت أضللتهم أن هي إلاّ فتنتك.

و قال الزّمخشري أي محنتك و بلاءك حين كلَّمتني و سمعت كلامك فإستَّدلوا بالكلام على الرّوية إستدلالاً فاسداً حتّى إفتتنوا و ضلُّوا تضلّ بها الجاهلين غير الثّابتين في معرفتك و تهدي العالمين الثّابتين بالقول الثّابت و جعل ذلك إضلالاً من اللّه و هدىً منه لأنّ محنته أنّما كانت سبباً لأن ضلُّوا و إهتدوا فكأنّه أضّلهم بها و هداهم على الإتّساع في الكلام انتهىٰ.

أَنْتَ وَلِيُّنَا القائم بأمرنا **فَاغْفِرْ لَنَا وَ ٱرْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ.**

تنبيهٌ:

يستفاد من هذه الآية أنّ اللّه تعالى هو العالم بالأسرار و الضّمائر لا غيره فهذا موسى بن عمران و هو من أعاظم الأنبياء إختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربّه فوقع خيرته على المنافقين حتّى عبّر عنهم بالسُّفهاء فقال أتهلكنا بما فعل السُّفهاء، و اذاكان إختياره موسى كذلك فما ظنّك بغيره كائناً من كان و لأجل ذلك قالت الإماميّة لابدّ أن يكون الوّصي منصوصاً من اللّه تعالى على لسان نبيّه إختيار للأمة بل و لشخص الرّسول في تعيين الوّصي.

و قد روي الصّدوق في كتاب إكمال الدّين و اتمام النّعمة بأسناده الىٰ سعد بن عبد اللّه القمي عن الحجّة القائم عليه السلام حديث طويل، و فيه قلتُ فأخبرني يابن مولاي عن العلّة التّي تمنع القوم من إختيار الإمام لأنفسهم، قال مُصلح أم مُفسد، قلتُ مُصلح قال فَهل يجوز أن تقع خِيرَتهم علىٰ المُفسد بعد أن لا يعلم أحَد ما يخطر ببال غيره من صلاحٍ أو فساد.

قلتُ:بلىٰ قال فهي العِلّة وأُوردها لك ببُرهان ينقاد لك عقلك ثمّ قال عليه السلام أخبرني عن الرُّسُل الذّين إصطفاهم اللّه عزّ وجلّ وأنزل عليهم الكُتب وأيدّهم بالوَحي والعِصمة وهم أعلام الأُمَم أهدىٰ الىٰ الإختيار منهم مثل موسىٰ عليه السلام وعيسىٰ عليه السلام هل يجوز مَع و فور عقلهما وكمال عِلمهما اذ هَمَّا بالإختيار أن تقع خيرتهما علىٰ المنافق و هُما يظُنّان أنّه مؤمن قلت لا. قال: هذا موسىٰ كليم اللّه مع وفور عقله وكمال عِلمه ونزول الوَحي عَليه إختار من أعيان قومه ووجوه عَسكره لميقات ربّه عزّ وجلّ سبعين رجلاً مِمّن لا يشكّ في إيمانهم وإخلاصهم فَوقع خيرتَه علىٰ المنافقين قال اللّه عزّ وجلّ: وَ ٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا الىٰ قوله: لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بظُلمهم، فلّما وَجدنا

إختيار من قد إصطَفاه اللّه عزّ وجلّ للنّبوة واقعاً علىٰ الأفَسد دُون الأصَلح و هو يَظنّ أنه الأصلح دُون الأفَسد عَلمنا أنّ الإخـتيار لا يجوز إلاّ لِمن يعلم ما تخفي الصّدُور و ما تَكّن الضّمائر ويتّعرف عليه السّرائر وأن لا خطر لإختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء علىٰ ذَوي الفساد لمّا أرادوا أهَل الصّلاح انتهىٰ.

إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهٰا مَنْ تَشٰآءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشٰآءُ

فليس من الحجج الظّاهرة على القدريّة كما نقل الرّازي عـن الواحـدي و ذلك لأنّ الفتنة بمعنى الإختبار والإمتحان و من المعلوم أنّه عـند الإمـتحان يكرم الرّجل أو يهان فالمعنى أن هي إلاّ إختبارك و إمتحانك لعبادك و أنّـما نسب الإضلال و الهداية اليه تعالىٰ لأنّ إختباره العباد صار سبباً لظهور ما في سرائرهم و ضمائرهم من الإيمان و الكفر لا أنّه تعالى أضلّهم على سبيل القهر و الجبر كما زعمت الأشاعرة و ذلك لأنّ إختيار العبد واسـطة بـين الإرادة و الفعل و قد إستّدل الرّازي على مدّعاه بوجوهٍ:

أحدها: أنّ القدرة الصّالحة للإيمان و الكفر لا يتّرجح تأثيرها فـي أحـد الطَّرفين على تأثيرها في الطَّرف الأخر إلاّ لأجل داعيةٍ مرّجحة و خالق تلك الدّاعية هو اللّه تعالى و عند حصول تلك الدّاعية يجب الفعل و اذا ثبت هذه المقدّمات ثبت أنّ الهداية من اللّه و أنّ الإضلال منه.

أقُول هذه الحجّة من أقوى حجج الرّازي في جميع الموارد و قد ذكـرها مراراً في كتابه و لم يبيّن تلك الدّاعية و أنّها ما هي و أيّ شئٍ أراد منها فأن أراد بها المصلحة التّي رأها الفاعل في الفعل أو التّرك فهي الإختيّار بعينه، و أن أراد بها الإرادة التّي خلقها اللّه تعالى للـعبد فـهي مـلحوقة بـالإختيار بـمعنى أنّ الإختيار واسطة بينها و بين الفعل، و إن أراد شيئاً أخر لا نعلمه فعليه بالبيان و الإظهار هذا.

ثانيها: قال أنّ أحداً من العقلاء لا يريد إلاّ الإيمان و الحقّ و الصّدق فلو كان الأمر بإختياره و قصده لوجب أن يكون كلّ واحدٍ مؤمناً محقّاً و حيث لم يكن الأمر كذلك ثبت أنّ الكلّ من اللّه.

الجواب عنه أنّه ما أراد بقوله من العقلاء، فأن كان مراده منهم العقلاء الواقعي الذّين ورد في حقّهم في الشّريعة أنّ العقل ما عبد به الرّحمن و أكتسب بها الجنّان، فهؤلاء العقلاء لا يريدون إلاّ الإيمان و الحقّ و الصّدق و هم مؤمنون حقّاً لا كلام لنا و له فيهم، و أن كان مراده من العقلاء الذّين يتسّمون بالعقل لدى العرف و العوام، فهم لا يريدون الإيمان و الصّدق و الحقّ دائماً بل قد يريدون و قد لا يريدون و ذلك لأنّهم عبيد الدّنيا و الدّين لعقٌ على ألسنتهم، فكلّ ما كان فيه مصلحة دنياهم يريدونه و إلاّ فلا.

فقوله لوجب أن يكون كلّ واحدٍ مؤمناً محقّاً، هو أوّل الكلام بل نقول أنّه لا يريد الإيمان مع علمه بأنّ الإيمان حقّ و لا يريد الصّدق مع علمه بأنّه حقّ و ليس ذلك إلاّ لأنّه مختار في فعله و العجب من الرّازي مع أنّه يدّعي العلم كيف يتّفوه بهذه الكلمات العاطلة الباطلة التّي لا قيمة لها نعوذ باللّه من الهفوات و لتفصيل الكلام في هذا البحث موضع أخر فثبت و تحقّق أنّ العبد مختار في فعله و ما ربّك بظّلام للعبيد فمن أحسن أحسن لنفسه و من أساء فعليها و هذا هو الحقّ.

وَ ٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِى ٱلْآخِرَةِ هذا تمام الأخبار عمّا قال موسى و قومه و أنّهم سألوا اللّه المغفرة و أن يكتب لهم في هذه الدّنيا حسنة و هي النّعمة.

و قال في المفردات الحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بدنه و أحواله و السّيئة تضّادها و أنّما سألوا أن يكتب لهم و لم يسألوا أن يجعل لهم لأنّ ما كتب من النّعمة أثبت هكذا قيل و قوله في الأخرة تقديره و أكتب لنا في الأخرة أيضاً النّعمة التّي هي الثّواب **إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ** الهود الرّجوع برفقٍ و منه التهويد و هو مشيٌ كالدّبيب و صار الهود في التّعارف التّوبة

و عليه فالمعنى أنّا تبنا اليك ممّا لنا عليه، **قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ وَ رَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٍ** في هذا الكلام إشارة الىٰ أمرين:

أحدهما: أنّ العذاب لا يتّوقف على العصيان بل يتّوقف على المّشيئة فالعبد العاصي يعذّب لو شاء اللّه و لا يعذّب أن لم يشاء.

ثانيهما: أنّ رحمته وسعت كلّ شيئ فقد ورد في الحديث يا من سبقت رحمته غضبه و أمّا قوله: **فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَ ٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ** فالضّمير في قوله: **فَسَأَكۡتُبُهَا** يرجع الىٰ الرّحمة و أنّها تكتب للمتّقين و الذّين يؤتون الزّكوة، و المؤمنين بأياته و أمّا غير هؤلاء فليس له في الأخرة نصيبٌ منها قيل ذكر الزّكاة لأنّها من أشّق الفرائض و قد ورد في الأثر، أنّ من منع قيراطاً من زكاة ماله فليمت أن شاء يهوديّاً و أن شاء نصرانيّاً، أي أنّ مانع الزّكاة خارج عن الإسلام و من كان كذلك فلا يدخل في رحمة اللّه لقوله تعالىٰ: **إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**[1].

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَ ٱلۡإِنجِيلِ

فكأنّه سأل سائلٌ عن مصاديق هؤلاء في الدّنيا فقيل في الجواب **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ** أي من تمام صفاتهم متابعة الرّسول الذي أوصافه مسطورة مذكورة في التّوراة و الإنجيل و المراد بهذا النّبي هو رسول الإسلام و الخطاب لأهل الكتاب من اليهود و النّصارى و محصّل الكلام هو أنّ الحجّة قد تمّت عليهم فلا عذر لهم في عدم الإيمان به يوم القيامة ثمّ أنّه تعالى وصف الرّسول بكونه أميّاً.

فقال بعضهم معناه أنّه لا يكتب، و قيل منسوب الى الأمّة و المعنى أنّه على جبلّة الأمّة قبل إستفادة الكتابة، و قيل أنّه منسوبٌ الى الأمّ و معناه أنّه على ما ولدته أمّه قبل تعلّم الكتابة.

۱- الاعراف = ۵۶

و عن أبي جعفر عليه‌السلام أنّه منسوب الى مكّة و هى أمّ القرى، و قيل أنّه نسب الى العرب لأنّها لم تحسن الكتابة و أمّا أنّهم أي أهل الكتاب كانوا يجدونه مكتوباً في التّوراة و الإنجيل فهو كذلك إلاّ أنّهم كتموا أوصافه المذكورة فيهما على العوام و لو أظهروها لهم لأتّبعوه قطعاً، قيل لمّا سمع إبليس، و رحمتي وسعت كلّ شيءٍ، تطاول لها إبليس فلمّا سمع قوله فسأكتبها للّذين يتّقون و يؤتون الزّكاة يئس و بقيت اليهود و النّصارى فلمّا تمادت الصّفة تبّين أنّ المراد أمّة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يئس النّصارى و اليهود من الآية.

و قال بعض المفسّرين عرض اللّه هذه الخلال (الخصال. غ. ل) على قوم موسى فلم يتّحملوها فلّما إنطلق وفد بني إسرائيل الى الميقات قيل لهم خطّت لكم الأرض مسجداً و طهوراً إلاّ عند محاض، أو قبر، أو حمام، و جعلت السّكينة في قلوبهم فقالوا لا نستطيع فأجعل السّكينة في التّابوت و الصّلاة في الكنيسة نقرأ التّوراة إلاّ عن نظرٍ و لا نصّلي إلاّ في الكنيسة فقال اللّه تعالى فسأكتبها للّذين يتّقون و يؤتون الزّكاة من أمّة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم.

قال بعض المفسّرين قوله تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ** من بقية خطابه تعالى لموسى و فيه تبشيرٌ له ببعثة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و ذكرٌ لصفاته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و إعلام له أيضاً أنّه ينزل كتاباً يسمّى الإنجيل و معنى الإتّباع الإقتداء فيما جاء به إعتقاداً قولاً و فعلاً و جمع هنا بين الرّسالة و النّبوة لأنّ الرّسالة في بني أدم أعظم و أشرف من النّبوة.

و قرأ يعقوب و غيره الأمّي بفتح الهمزة من أمَّ اذا قصد و المعنى أنّ هذا النّبي مقصد للنّاس و موضع أمٍّ، و أمّا قوله مكتوباً في التّوراة و الإنجيل.

قال التّبريزي في التّوراة، أي سأقيم له نبّياً من أخوتهم مثلك و أجعل كلامي في فيه و يقول لهم كلّما أوصيته فيها و أمّا النّبي فقد باركت عليه جدّاً و سأدّخره لأمّة عظيمة.

و في الإنجيل يعطيكم الفارقليط أخر يعطيكم معلم الدّهر كلّه.

و قال المسيح أنا أذهب و سيأتيكم الفارقليط روح الحقّ الذّي لا يتّكلم من قبل نفسه و يمدحني و يشهد لي، و غير ذلك من الأوصاف التّي هي مذكورة فيهما.

يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهيٰهُمْ عَنِ اَلْمُنْكَرِ الظّاهر أنّ هذه الأوصاف كلّها للنّبي صلّی الله علیه وآله وسلّم:

أحدها: أنّه يأمر النّاس بالمعروف و ينهاهم عن المنكر، و المعروف كلّ قولٍ أو فعلٍ يعرف حسنه عقلاً و شرعاً والمنكر بخلافه و هما من أصول الدَّعوة بل الدّين كلّه ليس إلاّ الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر لأنّ الأحكام الدّينية على المشهور خمسة يعبّر عنها بالأحكام الخمسة التّكليفية و هي الواجب والنّدب و المباح و الحرام و المكروه.

فالواجب و النّدب و المباح تعتدّ من المعروف و الحرام و المكروه من المنكر:

قال اللّه تعالیٰ: **وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى اَلْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**(۱).

قال اللّه تعالیٰ: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ**(۲).

قال اللّه تعالیٰ: **يا بُنَيَّ أَقِمِ اَلصَّلٰوةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اْنْهَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ**(۳) والأيات كثيرة و قد تكّلمنا فيها فيما مضى مفصّلاً.

ثانيها: و يحلّ لهم الطّيبات، الطّيب ما تستّلذه الحوّاس و ما تستّلذه النّفس و الطّعام الطّيب في الشّرع ما كان متناولاً من حيق ما يجوز و بقدر ما يجوز المكان الذّي يجوز فأنّه متى كان كذلك كان طيّباً عاجلاً و أجلاً لا يستوخم.

۱- أل عمران = ۱۰۴
۲- أل عمران = ۱۱۰
۳- لقمان = ۱۷

قال اللّه تعالىٰ: **فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلاَلًا طَيِّبًا وَ ٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يَسْئَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**(٣) و غيرها من الأيات.

ثالثها: وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ الخبيث ما يكره رداءةً و خساسةً محسوساً كان أو معقولاً و أصله الرَّدئ و ذلك يتناول الباطل في الأعتقاد و الكذب في المقال و القبيح في القعال و معنى قوله: **وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ** أي يحرّم الرّسول عليهم ما لا يوافق النّفس من المحظورات و من المعلوم أنّ التحليل و التحريم في الواقع من اللّه و أن كان ظاهراً من الرّسول كغيرهما من الأحكام في الشّريعة.

رابعها: و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التّي كانت عليهم، يعني يضع أي يرفع عن النّاس إصرهم يعني الثّقل (الثِّقل) بأمور محرّمة و فى تكليفها مشّقة كتحريم العروق و الغدد و تحريم السّبت و كانت كالأغلال في أعناقهم كما يقولون هذا طوق في عنقك.

و قيل المراد ما إمتحن به بنو إسرائيل من قبل نفوسهم و قرض ما يصيبه البول من أجسادهم و إلتزامٌ للمكاره في كلّ شئ يخالفون اللّه فيه.

فَالَّذِينَ اٰمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ ٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنْزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

و المعنى فالذّين صدَّقوا بهذا النّبي و عزَّروه أي عظّموه بمنعهم كلّ من أباد كيده و نصروه لساناً و فعلاً فعملوا بما أمرهم به و تركوا ما نهاهم عنه و إتَّبعوا

١- النّحل = ١١۴   ٢- البقرة = ۵٧

٣- المائدة = ۴

النُّور الّذي معه يعني القرأن سمّاه نوراً لأنّه يُهتدىٰ به كما يهتدى بالنُّور إلاّ أنّ النُّور الحسّي يهتدى به في المحسوسات والنُّور المعنّوي العقلي أعني به القرأن يهتدى به في المعقولات و السُّلوك الى اللّه فأنّ النُّور من خاصيّته أنّه ظاهر بالذّات و مظهر للغير و القرأن أيضاً كذلك فمن تمسّك به تمسّك بالعروة الوثقى التّي لا إنفصام لها أبداً ثمّ أخبر اللّه تعالى عنهم أي بأنّ من فعل ما قلناه فأولئك هم المفلحون الفائزون بثواب ربّهم في الآخرة.

قُلْ يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَاٰمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ كَلِمٰاتِهِ وَ ٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

أمر اللّه و رسوله أن يخاطب الخلق جميعاً و يقول لهم **إِنِّى رَسُولُ ٱللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** يعني أرسلني إليكم من له التّصرف في السّموات و الأرض بلا دافع و لا منازع لا إله إلاّ هو يحيي و يميت و اذا كان كذلك **فَاٰمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ** أمر النّبي الخلق بأن يؤمنوا و يصّدقوا بتوحيده و يقّروا بنّبوة النّبي الأمّي الّذي يؤمن باللّه وكلماته ثمّ أمَرهم بمتابعة الرّسول فقال: **وَ ٱتَّبِعُوهُ** أي و أتّبعوا الرّسول **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** أي لكي تهتدون و فى هذه الآية لطائف لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

أوّل: أنّ رسالته عامّة الى جميع الخلق بخلاف بعض الأنبياء بل أكثرهم لولا كلّهم على إختلاف فيه حيث أنّهم بعثوا لا الى جميع الخلق بل الى بعضهم واضح.

الثّاني: تعيينه المرسل الّذي أرسله الى الخلق و هو الّذي له ملك السّموات و الأرض و من المعلوم أنّه لا يكون إلاّ للّه تعالى.

الثّالث: الإشارة الى الإحياء و الإماتة و لا يقدر على ذلك إلاّ اللّه تعالى الّذي له ملك السّموات و الأرض و محّصل الكلام هو إنّي رسولٌ اليكم من قبل

هذا المعبود الّذي وصفته لكم و حيث أنّ هذه الأوصاف لا يوجد في غيره تعالى فهو الّذي يليق بأن يكون معبوداً لا غيره و هو المطلوب.

و إذا كان كذلك، **فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ** الفاء للتّفريع ظاهراً و المعنى لا عذر لكم في عدم الإيمان باللّه لأنّه متّفردٌ بالوحدّانية متّصرفٌ في ملكوت السّموات و الأرض يحيي و يميت و هو على كلّ شئٍ قدير.

الرّابع: أنّ من يدعوا غيره الى التّوحيد و الإيمانَ باللّه ينبغي أن يكون مؤمنا لأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و حيث أنّ النّبي في الحقيقة معطي طريق الإيمان الى الخلق فاللازّم له الإيمان أوّلاً ثمّ الدّعوة ثانياً و الى هذه النكتته أشار بقوله: **اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ كَلِمَاتِهِ**.

الخامس: أنّ الإهتداء في متابعة النّبي قولاً و عملاً و هو ممّا لا خلاف فيه فمن تبّع الرّسول كذلك فقد إهتدى قطعاً و لذلك فسّرنا، قوله: **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** بقولنا لكي تهتدون إذ التَّرجي في كلام اللّه لا معنى له مضافاً الى أنّ المتابعة و الإهتداء من قبل العلّة و المعلول و اللّه أعلم بكلامه.

■

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ
يَعْدِلُونَ ﴿۱۵۹﴾ وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً
أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ
اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا
عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا
عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوىٰ
كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ
لٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿۱۶۰﴾ وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ
اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ
قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿۱۶۱﴾ فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا
يَظْلِمُونَ ﴿۱۶۲﴾ وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ
حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا
تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ ﴿۱۶۳﴾ وَ
إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ
أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلىٰ
رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿۱۶۴﴾ فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا
بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

◁ اللّغة

يَعْدِلُونَ، العَدل ضدّ الظّلم أي لا يجورون.

أَسْبَاطًا، الأسباط أولاد الولد جمع سِبط.

أُمَمًا، الأُمَم جمع أُمّة وهي الجماعة.

فَانْبَجَسَتْ، الإنبجاس الإنفجار بضّم الألف قال الزّمخشري اسم جمع غير تكسير نحو رخاء و ثناء.

ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَى، المَّن بفتح الميم و تشديد النّون شئ كالطَّل فيه حلاوة يسقط على الشَّجر و السَّلوى بفتح السّين طائر.

حِطَّةٌ بكسر الحاء و فتح الطّاء المشّددة كلمة أمر بها بني إسرائيل و معناه حطّ عنّا ذنوبنا و قيل معناه قولوا صواباً.

خَطِيئَاتِكُمْ، الخَطيئات جمع الخطيئة و هى الذّنب مأخوذ من الخطأ.

رِجْزًا، الرّجز بكسر الرّاء في الأصل الإضطراب و المراد به هاهنا العذاب و العقوبة.

شُرَّعًا بضّم الشّين و فتح الرّاء المشددة جمع شارع.

عَتَوْا أية أعرضوا و الباقي واضح.

◁ الإعراب

قَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ فيه وجهان:

أحدهما: أنّ قطَّعنا بمعنى صيَّرنا فيكون أثنتي عشرة مفعولاً ثانياً.

الثّانى: أن كيون حالاً أي فرّقناهم فرقاً.

عَشْرَةَ بسكون الشّين و فتحها و كسرها، لغات قد قرئ بها أَسْبَاطًا بدل من أثنتي عشرة لا تمييز لأنّه جمع أُمَمًا نعت لأسباط أو بدل بعد بدل و أنّث أثنتي عشرة لأنّ التّقدير أثنتي عشرة أمّة أَنِ اضْرِبْ أن مصدريّة أو بمعنى، أي، إِذْ يَعْدُونَ قيل هو ظرف لحاضرة إِذْ تَأْتِيهِمْ ظرف ليصعدون وحِيتَانُهُمْ جمع حُوت أبدلت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها شُرَّعًا حال من الحيتان يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ظرف لقوله، لا تأتيهم، مَعْذِرَةً بالرّفع أي موعظتنا معذرةً وبالنّصب على المفعول له أي وعظنا للمعذرة و قيل هو مصدر أي لتعذره معذرةً، بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بفتح الباء وبعدها ياء ساكنة وبعدها همزة مفتوحة و روي مكسورة على وزن، فيعل، هو نعتٌ للعذاب مثل شديد، و قيل هو بفتح الباء و كسر الهَمزة و ياء ساكنة بعدها على وزن فعيل فهو أي بئيسٍ،على الأوّل وصف كضيغم و حيدر.

علىٰ الثّانى: مأخوذ من البأس.

◁ التّفسير

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ

كلمة، من، تبعيّضية أي بعضهم كانوا كذلك و إختلفوا في معناه.

فعن ابن عبّاس والسُّدي أنّهم قومٌ وراء الصّين.

و قال أبو جعفر هم قومٌ خلف الرّمل لم يغيّروا ولم يبدّلوا و محصّل الكلام هو أنّ قوم موسى كلّهم لم يكونوا ضلاّلاً بل كان منهم معتدون.

قال السّائب هم قوم من أهل الكتاب أمنوا بنبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم كعبد اللّه بن سلام و أصحابه.

و قال قوم هم أمّة من قوم موسى تمّسكوا بشرعه قبل نسخه ولم يبدّلوا و لم يقتلوا الأنبياء.

و قال الزّمخشري هم المؤمنون التّائبون من بني إسرائيل الذّين كانوا يهدون النّاس بكلمة الحقّ و يدّلونهم على الإستقامة و يرشدونهم بالحقّ و يعدلون بينهم في الحكم و لا يجورون.

و قال ابن جريح و غيره أنّهم قومٌ إغتربوا من بني إسرائيل و دخلوا سرياً مشوا فيه سنة و نصفاً تحت الأرض حتّى خرجوا وراء الصِّين فهم هناك يقيمون الشَّرع الى أخر ما نقلوه في كتبهم و لا ريب أنّه بالأسطورة أولى منه بالتّفسير اذ لقائل أن يقول أين كان هذا السّرب الذّي دخلوا فيه و مشوا سنة و نصفاً تحت الأرض، ولم يكن هناك مأكول و لا مشروب و العجب من الزّمخشري حيث قال ففتح اللّه لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة و نصفاً حتّى خرجوا من وراء الصّين و هم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا.

و ذكر عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّ جبرئيل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم فكلّمهم فقال لهم جبرئيل هل تعرفون من تكلّمون قالوا لا قال هذا محمّد النّبي الأمّي فأمنوا به و قالوا يا رسول اللّه أنّ موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منّي السّلام فردّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على موسى عليه السلام السّلام ثمّ أقرأهم عشر سور من القرأن نزلت بمكّة ولم تكن نزلت فريضة غير الصّلاة و الزّكاة و أمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا و يتركوا السَّبت.

و عن مسروق قرئ بين يدي عبد اللّه فقال: رجل أنّي منهم الى أخر ما ذكره من الأباطيل التّي لا يقبلها العقل السّليم.

و الّذي نقول في معنى الآية هو أنّ أمّة موسى كانوا على صنفين:

صنف منهم كانوا من الأشقياء الذّين كفروا بنعمة ربّهم و جحدوا أياته وأعرضوا عن شريعة موسى و إشتغلوا بعبادة العجل و أنكروا التّوحيد و النّبوة و المعاد.

و صنفٌ أخر لم يكونوا كذلك بل كانوا يهدون بالحقّ و به يعدلون،الّذي ذكرناه لا يختّص بأمّة موسى فأنّ كلّ أمّةٍ كانت كذلك و هذا واضح لا خفاء فيه فلا نحتاج الى تلك الأساطير التّي ذكروها في تفاسيرهم.

و قد ورد عن أبي عبد اللّه عليه السلام: **لمّا سُأل عن تفسير الآية أنّه قال قوم موسىٰ هُم أهَل الإسلام، يعني الذّين أسَلموا واقعاً.**

وَ قَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا أي فرَّقناهم و ميَّزناهم فأنّ التّقطيع التّفريق و أنّما فرَّقهم ليكون رجوع أمر كلّ سبطٍ الى رئيسه ليَّخف أمرهم على موسى عليه السلام و لئّلا يتحاسدوا فيقع الهرج و لهذا فجَّر لهم أثنتي عشرة عيناً لئّلا يتنازعوا و يقتّتلوا على الماء و لهذا جعل لكلّ سبطٍ نقيباً ليرجع بأمرهم اليه و السِّبط بكسر السّين ولد الولد و المقصود فرَّقناهم أثنتى عشرة أسباطاً أمماً، لإختلاف رتبتهم و جعلنا في رأس كلّ فرقةٍ سبطاً منهم لئّلا يختلفوا فصاروا بذلك أمماً أثنتى عشرة أسباطاً.

وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ

أي لمّا إستسقى قوم موسى أي طلبوا منه الماء أوحينا اليه أن أضرب بعصاك الحجر فضرب مسوى بعصاه الحجر **فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** بعدد أسباط بني إسرائيل و الإنبجاس الإنفجار و قيل في الفرق بينهما أنّ الإنبجاس خروج الماء الجاري بقلّةٍ و الإنفجار خروجه بكثرةٍ فلذلك ذكره هنا بالإنبجاس و في سورة البقرة بالإنفجار **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** أي قد علم كلّ جماعة من الأسباط مشربهم **وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَ ٱلسَّلْوَىٰ** أي جعلنا لهم من الغمام ظلّة تكنَّهم لمّا إحتاجوا الى ذلك في التّيه و ذلك لأنّ الظّلة السّترة التّي تقي من حرارة الشّمس و الأغلب عليها العلّو المَّن و السّلوى فقد قلنا في شرح اللّغات أنّ المَّن شئ كالطَّل فيه حلاوة يسقط على الشَّجر و السَّلوىٰ طائر و المقصود أنّه تعالى سهّل عليهم الشّراب و الطّعام قال: **كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** من الطّعام و الشّراب **وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** والمقصود إنّا أنعمنا على بني إسرائيل بأنواع النّعم المعنّوية العقّلية و المادّية و قد ثبت أنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً إلاّ أنّهم

لم يشكروا عليها بل كفروا بها و بذلك ظلموا على أنفسهم لأنّهم لو لم يكفروا بها وكانوا من الشّاكرين لكثرناها عليهم و لكنّهم لم يشكروا عليها.

فلا محالة وقعوا فيما وقعوا من العقوبات في الدّنيا و الآخرة.

و أنّما قال تعالىٰ: **وَ مٰا ظَلَمُونٰا** و ما ظلمونا لأنّ اللّه تعالى غنيّ عن كلّ ما سواه فلا تنفعه طاعة من أطاعه كما لا تضُره معصية من عصاه و عليه فمن أطاع لنفسه و من عصى فعليها و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ٱدْخُلُوا ٱلْبٰابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئٰاتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ

أي إذا قيل لقوم موسى أعني بهم بني إسرائيل إسكنوا هذه القرية، و هى بيت المقدّس على قول بعضهم و أرض الشّام علىٰ قول آخرين وكانوا مأمورين بدخولها و إخراج من فيها من الكفّار و بذلك أمرهم اللّه و وعدهم أن يوسّع عليهم الرّزق فيها ليأكلوا من حيث شاؤوا ما يريدون من أنواع الأغذية و الرّزق.

و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ كُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ.**

أي في كلّ ناحيةٍ منها، و قولوا: **حِطَّةٌ** أي قولوا حطّ عنّا ذنوبنا و هو بمنزلة الإستغفار و التّوبة، و قرأ الحسن حطّةً، بالنَّصب على المصدر، و يجوز أن ينتصب بقولوا على حذف التّقدير أي و قولوا قولاً حطّة فحذف، ذا، و صار حطّة وصفاً للمصدر المحذوف كما تقول قلت حسناً و قلت حقّاً ثمّ أمرهم ثانياً بعد السُّكون في القرية و الأكل من أنواع الأغذية و الرِّزق و الإستغفار و التّوبة و الدّعاء بحطّ الذُّنوب، بالدُّخول من باب معيّنٍ في هذا الموضع الّذي كانوا فيه فقال **لَهُمُ** و أدخلوا الباب سجداً، يعني متواضعين قيل و كان ذلك قبل دخولهم الى بيت المقدّس.

و قال إبن عبّاس كان هناك بابٌ ضيق أمروا بأن يدخلوه ركّعاً فدخلوه على أستاههم، و قوله: **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئٰاتِكُمْ** جواب الأمر و فيه معنى الجزاء و التّقدير إن فعلتم ذلك الّذي أمرناكم به غفرنا لكم خطيئاتكم.

و قرأ أبو عمرو، خطاياكم على وزن قضاياكم و المعنى واحد، **سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ**، منكم نعماً و فضلاً في الدّنيا و الأخرة و لا يقتصر لهم على نعم هذه القرية.

قال بعض المفسّرين، رفع حطّة، على تقدير مسألتنا حطّة أو مطلوبنا حطّة و أن نصب جاز بمعنى حطّ عنّا حطّة. ثمّ قال و قوله: **سُجَّدًا** نصب على الحال من دخول الباب.

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عنهم أنّهم بدّلوا ما قال اللّه لهم و أمرهم به و التّبديل تغيير الشّئ برفعه الى بدلٍ.

فقال الحسن أنّهم قالوا حنطة بدل حطّة فبدّلوا كلام اللّه بقولهم حنطة،قوم أنّهم قالوا قولاً ينافي في الإستغفار و يخالف التّوبة و قالوا ما يدلّ على الإصرار و قيل غير ذلك من الأقوال.

و الحقّ أنّ هذه الأقوال لا دليل عليها من الأخبار و الذي تدلّ عليه الآية هو مجرّد التّبديل و أمّا أنّه بأيّ شئ كان فلا أثر له في الآثار.

نعم دلّت الآية على أنّهم بدّلوا القول الّذي قيل لهم بقولٍ آخر و به تحقّق العصيان منهم فصاروا مستحقين بنزول العذاب عليهم بذلك و اليه الإشارة بقوله: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ** أي على المبدلين رجزاً، أي عذاباً و عقوبةً من السّماء بما كانوا أي بسبب ما كانوا يظلمون و أنّما عبّر عن التّبديل بالظّلم لأنّ تبديل حكم اللّه بحكمٌ آخر مخالفة و معصية له و من المعلوم أن معصية اللّه ظلمٌ على النّفس لأنّها سببٌ للعذاب و العقوبة في الدّارين فصّح أن يقال: **وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لٰكِنْ كَانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**.

قال بعضهم أنّ أصل الرجزّ الميل عن الحقّ فمنه الرّجازة و ما يعدل به الحمل إذا مال عن خفّةٍ و لذلك يعبّر عن عبادة الوثن بالرجز.

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا

أمر اللّه نبيّه أن يسألهم، أي بني إسرائيل الّذين كانوا في زمان النّبي عن القرية الّتي كانت حاضرة البحر قيل أنّ بعض اليهود المعارضين للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قالوا له لم يكن بني إسرائيل عصيان و لا معاندة لما أمروا به فنزلت هذه الآية موّبخة لهم و مقرّرة كذبهم و معلمةً ما جرىٰ على أسلافهم من الإهلاك و المسخ وكانت اليهود تكتم هذه القصّة فهي ممّا لا يعلم إلاّ بكتابٍ أو وحيٍ فاذا أعلمهم بها من يقرأ كتابهم علم أنّه من جهة الوحي و قوله: **عَنِ ٱلْقَرْيَةِ** فيه حذفٌ أي عن أهل القرية ثمّ أنّهم إختلفوا في إسمها فقيل هي، أيلة، قاله ابن مسعود و أبو صالح عن ابن عبّاس.

و قيل، مدين، و قيل هي، مقنى، بالقاف ساكنة و قال ابن زيد هي، مقناة،طبريّة، و قيل أريحا، و بيت المقدّس و قيل قرية بالشّام لم تسمّ بعينها، و معنىٰ حاضرة البحر بقرب البحر مبنيّةً بشاطئه و قيل يحتمل أن يريد معنىٰ الحاضرة على جهة التّعظيم لها أي هي الحاضرة في قرى البحر فالتّقدير حاضرة قرى البحر أي يحضر أهل قرى البحر اليها لبيعهم و شراءهم و حاجتهم و قوله اذ يعدون في السّبت أي يجاوزون أمر اللّه في العمل يوم السّبت و هذا مراد من فسّر الكلام بالظُّلم فقال معناه اذ يظلمون في السّبت.

و أنّما قال اللّه ذلك لأنّه قد تقدّم منه توالي النّهي عن العمل فيه و الإشتغال بصيد أو غيره إلاّ أنّه في هذه النّازلة كان عصيانهم، و قرئ، يعدُّون، بتشديد الدّال من الإعداد و ذلك لأنّهم كانوا يعدُّون ألات الصّيد يوم السّبت و هم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة.

قال الزّمخشري، **السَّبت** بفتح السّين و سكون الباء مصدر سبت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصّيد و الإشتغال بالتّعبد فمعناه يعدون في تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله تعالىٰ: **يَوْمَ سَبْتِهِمْ** يوم تعظيمهم و قوله: **إِذْ تَأْتِيهِمْ**

حيتانهم معناه سلهم اذ عدوا في وقت إتيان الحيتان، و **الحيتان** بكسر الحاء جمع حوت و قوله، **شرّعاً** بضم الشّين و فتح الرّاء المشدّدة أي ظاهرةً، و المقصود أنّ الحيتان تأتي ظاهرة فكانوا يحتالون بحسبها يوم السّبت ثمّ يأخذونها في يوم الأحد و قال قومٌ جاهروا بأخذها يوم السّبت **وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ** قال بعضهم في كيفيّة القضّية أنّهم تطّرقوا الى المعصية بأن حضروا حفراً يخرج اليها ماء البحر على إخدودها فإذا جاء الحوت يوم السّبت و حصل في الحفرة ألقوا في الأخدود حجراً فمنعوه الخروج الى البحر فاذاكان الأحد أخذوه فكان هذا أوّل التّطريق.

و قال ابن رومان كانوا يأخذ الرّجل خيطاً و يضع فيه وهقة و ألقاها في ذنب الحوت و فى الطّرف الأخر مضروبٌ و تركه كذلك الى أن يأخذ، في الأحد ثمّ تطّرق النّاس حين رأوا من يصنع هذا لا يبتلي حتّى كثر صيد الحوت و شرابه في الأسواق و أعلن الفسقة بصيده و قالوا ذهبت حرمة السّبت.

و في قوله تعالىٰ: **كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ** إشارة بل صراحة بانّ ذلك كان إمتحاناً لهم من اللّه تعالى و هو كذلك فأنّ اللّه تعالى يختبر عباده كيف يشاء.

قال الزّجاج يحتمل أن يكون **وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ** أي لا تأتيهم شرّعاً و يكون، نبلوهم، مسأنفاً، و الأوّل قول أكثر المفسّرين.

قال بعض المفسّرين و الوجه في تشديد المحنة الّتي هي التّكليف أنّ اللّه تعالى أمر بني إسرائيل بإمساك السّبت و التّفرغ فيه للعبادة و أن لا يتشاغلوا فيه بشيءٍ من أمر الدّنيا فتهاون قوم ممّن يسكن هذه القرية و لم يقوموا بما وجب عليهم فشدّد اللّه على من أخذوه.

قال الحسن كانت تشرع على أبوابهم كأنّها الكباش البيض فيعدون فيأخذونها و تبعد عنهم في باقي الأيّام و أمرهم أن لا يصطادوا يوم السّبت فكان ذلك تشديداً للتّكليف و تغليظاً للمحنة و البلوىٰ وكان ذلك عقوبةً علىٰ تهاونهم بما أوجب اللّه عليهم فخالفوا فأرسلوا الشّباك يوم السّبت و أخرجوها يوم الأحد.

وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

الأُمّة الجماعة أي و اذ قالت جماعة منهم أي من بني إسرائيل الذّين جرَّبوا الوعظ فيهم فلم يروه يجدي، و إختلفوا في هذه الفرقة التّي قالت: **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ** هل كانت من النّاجية أو من الهالكة عن الإعتداء في السَّبت.

قال ابن عبّاس نجت الطّائفتان من الهلاك النّاهية، و التّي قالت لها لم تعظون.

و به قال السُّدي و قال قوم الفرقة التّي قالت: **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ** كانت من الفرقة الهالكة.

و عن قتادة هم ثلاث فرق، التّي وعظت و الموعظة فنجت الأولى، و هلكت الثّانية و أمّا الثّالثة فاللّه أعلم و هم الذّين قالوا لم تعظون و إختاره الجبائي.

و قال الكلبي هما فرقتان الواعظة و الموعظة و كيف كان فقد قالت فرقة منهم لم تعظون قوماً اللّه مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً، و إنّما قالوا ذلك لأنّ الموعظة لم تكن نافعةً لهم، لما رأواكثرة تكرّرها عليهم و عدم قبولهم لها، قالوا في الجواب، معذرةً الى ربّكم، أي وعظناهم معذرةً الى اللّه و لعلّهم يّتقون.

و المقصود إنّا وعظناهم، لأجل اداء الوظيفة الّتي هي الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، **وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** إشارة الىٰ أنّه ليس من المحال تأثير الوعظ فيهم إذ من المتمل أن يتّعظوا بالموعظة و يدخلوا في زمرة المتّقين.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَ أَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

الضّمير في، نسوا للمّنهيين أي فلّما تركوا ما ذكرهم به الصّالحون فجعل التّرك نسياناً مبالغة إذا قوى أحوال التّرك أن ينسىٰ المتروك و ما، موصولة بمعنى، الّذي، و المعنىٰ فلّما لم يقبلوا الموعظة و تركوها، أنجينا الّذين ينهون عن السّوء، أي أنجيناهم من العذاب لأنّهم كانوا من الصُّلحاء و النّاهين عن المنكر، و أخذنا الّذين ظلموا ولم يقبلوا النُّصح و الموعظة و أصّروا على الكفر و الفسق، بعذابٍ بئيسٍ، قد مرّ الكلام في شرح اللّغات و نقلنا الأقوال في قوله: **بَئِيسٍ** و الأقوى أنّه مشتّق من البأس من قولهم بؤس يئبوس إذا كان شديد البأس أو أنّ التّقدير من عذاب ذي بئيس أي عذاب ذي بؤس وكيف كان فقد أخبر اللّه تعالى أنّه لمّا ترك أهل هذه القرية الرّجوع عن إرتكاب المعصية بصيد السّمك يوم السّبت بعد أن ذكّرهم الواعظون أخذناهم بعذابٍ شديد بسبب ظلمهم و فسقهم و ثباتهم على المعصية و عدم قبولهم الحّق و قد قيل أنّ هذا العذاب لحقّهم قبل أن يمسخوا قردةً خاسئين و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

أي فلّما أصّروا على عصيانهم و طغيانهم ولم يقبلوا النُّصح من النّاصحين و أن شئت قلت فلّما أعرضوا عن الحّق و تمّردوا في معصية مسخهم اللّه قردةً خاسئين و ذلك لأنّ العاتي الشّديد الدّخول في الفساد و المتّمرد الّذي لا يقبل موعظة.

و قوله: **خَاسِئِينَ** معناه مبعدين، من قولهم خسأت الكلب إذا قصيته فخسأ أي بعد و لهذا يقال للكلب إخسأ، قال اللّه تعالى لأهل جهّنم إخسأوا فيهاتكلّمون، ثمّ أنّ في هذا الكلام دلالة بل صراحة على أنّ اللّه تعالى مسخهم مسخاً و جعلهم قردة.

قال الرّاغب، المسخ تشويه الخلق و الخلق و تحويلهما من صورةٍ الى صورةٍ قال بعض الحكماء المسخ على ضربان:

مسخٌ خاصّ يحصل في القنية و هو مسخ الخلق و مسخٌ قد يحصل في كلّ زمانٍ و هو مسخ الخلق و ذلك أن يصير الإنسان متخلّقاً بخلقٍ ذميم من أخلاق بعض الحيوانات نحو أن يصير في شدّة الحرص كالكلب و فى الشّره كالخنزير و في الغمارة كالثّور إذا عرفت هذا فنقول، قوله تعالىٰ: **كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** إشارة الى القسم الأوّل منهما و هو مَسخ الخَلق أي تحويلهم و تغييرهم من صورة الإنسانيّة الى صورة القردة و الخنازير و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ المادّة في هذا التّغيير باقية بحالها فليس هذا من الإنقلاب في الماهيّة الّذي إتّفقوا على إستحالته ألا ترى أنّ في صيرورة الماء بخاراً تكون مادّة المـّائية باقية و صورة الماء يتحوّل بصورة البخار نقل بعض المفسّرين عن إبن عبّاس أنّه قال أنّ شبابا القوم صاروا قردة و الشيّوخ خنازير.

أقول هذا لا يصّح لأنّ الآية لا تدلّ على هذا التّفصيل الّذي ذكره و فى الأخبار و الأثار ليس منه عينٌ و لا أثر.

و أعلم أنّ قوله: **كُونُوا قِرَدَةً** صيغة الأمر و المراد به الأخبار بأنّه تعالى جعلهم قردةً على وجه يسهل عليه ولم يتعب به ولم ينصب:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ**(٢).

قالوا و لم يكن هناك أمرٌ لأنّه تعالى لا يأمر المعدوم و إنمّا هو أخبارٌ عن تسهيل الفعل.

■

١- النّحل = ٤٠

٢- فصّلت = ١١

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلٰى يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ
مَنْ يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذٰابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ
ٱلْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «۱۶۷» وَ قَطَّعْنٰاهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ ٱلصّٰالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ
ذٰلِكَ وَ بَلَوْنٰاهُمْ بِالْحَسَنٰاتِ وَ ٱلسَّيِّئٰاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ «۱۶۸» فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا
ٱلْكِتٰابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا ٱلْأَدْنٰى وَ يَقُولُونَ
سَيُغْفَرُ لَنٰا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ
يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثٰاقُ ٱلْكِتٰابِ أَنْ لٰا يَقُولُوا عَلَى
ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَ دَرَسُوا مٰا فِيهِ وَ ٱلدّٰارُ ٱلْاٰخِرَةُ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلٰا تَعْقِلُونَ «۱۶۹» وَ ٱلَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِالْكِتٰابِ وَ أَقٰامُوا ٱلصَّلٰوةَ إِنّٰا لٰا
نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ «۱۷۰» وَ إِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ
فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُ وٰاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مٰآ
اٰتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مٰا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
«۱۷۱» وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ اٰدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلٰىٓ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
قٰالُوا بَلٰى شَهِدْنٰآ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنّٰا كُنّٰا
عَنْ هٰذٰا غٰافِلِينَ «۱۷۲» أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمٰآ أَشْرَكَ
اٰبٰآؤُنٰا مِنْ قَبْلُ وَ كُنّٰا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنٰا
بِمٰا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ «۱۷۳» وَ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْاٰيٰاتِ
وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «۱۷۴» وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ

ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿۱۷۵﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ
لَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا
فَاقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿۱۷۶﴾

◁ اللّغة

تَأَذَّنَ على وزن تصِّرف قيل هو من الأذان و هو الإعلام و قيل معناه، حتم، وقيل، وعد، و قيل أخبر.

يَسُومُهُمْ، السَّوْم بفتح السّين أصله الذّهاب في إبتغاء الشّئ فهو لفظٌ مرّكبٌ من حيث المعنى من الذّهاب و الإبتغاء.

قَطَّعْنَاهُمْ، التَّقطيع التَّفريق.

أُمَمًا جمع أُمّة و هى الجماعة.

بَلَوْنَاهُمْ: الإبتلاء الإختبار.

فَخَلَفَ، خَلَفَ ضدّ تقدَّم و سلف و المتأّخر لقصور منزلته يقال له خلف.

ٱلْأَدْنَىٰ العاجل.

دَرَسُوا، أي قرؤوا.

نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ أي رفعناه قال في المفردات نتق الّشئ جذبه و نزعه حتّى يسترخي كنتق عرى الحمل.

يَلْهَثْ يقال لهث الكلب إذا دلع لسانه من العطش.

◁ الإعراب

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ يتّعلق بتأذّن أو بيعبث و هو الأوجه وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مفعول ثانٍ أو حال مِنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ صفة لأمم أو بدل منه دُونَ ذَٰلِكَ ظرف أو خبر وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ نعتٌ لخَلف يَأْخُذُونَ حال من الضّمير في وَرثوا و دَرَسُوا۟ معطوف على ورثوا وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ مبتدأ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ خبره فَوْقَهُمْ ظرف لنتقنا أو حال من الجبل مِن ظُهُورِهِمْ بدل من بني آدم أَن تَقُولُوا۟ مفعول له أي مخافة أن تقولوا و كذلك، أو تقولوا.

◁ التّفسير

إعلم أنّه تعالى لمّا ذكر بعض مصالح أعمال اليهود وقبائح أفعالهم ذكر في هذه الآية و هي قوله: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ أنّه حكم على اليهود بالذّل و الصّغار الى يوم القيامة و ذلك لأنّهم كفروا بأنعم ربّهم و أنكروا الحقّ و إتّبعوا الباطل فقال تعالىٰ: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أي وإذ اعلم أو حتم أو وعد علماء بني إسرائيل و قيل أنبياءهم، ليبّعثن، أي ليسلّطن على قوم موسى و غيرهم من بني إسرائيل الى يوم القيامة مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ و فيه إشارة الى داوم العذاب و عدم إنقطاعه عنهم لكونهم مستّحقين له.

و قال بعضهم أنّ الضّمير في، عليهم، عائد الى اليهود و النّصارى جميعاً،عائد الى نسل الممسوخين و الذين بقوا منهم، و قيل عائد الى يهود قريظة و خيبر و النّضير و قيل غير ذلك و الجمع مهما أمكن أولى من الطَّرح مضافاً الى عدم وجود دليلٍ على هذه الأقوال، ثمّ أنّهم إختلفوا في المبعوث عليهم، فقال أكثر المفسّرين أنّه بخت نصر و من أذّلهم بعده الى يوم القيامة.

و قيل المجوس كانت اليهود تؤدّي الجزية اليهم الى أن بعث اللّه محمّداً رسول اللّه فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم الى آخر الدّهر.

و قيل العرب كانوا يجبون الخراج من اليهود و على هذا فالمراد، به **سُوٓءَ ٱلْعَذَٰبِ** الجزية المضروبة عليهم، و قال بعضهم، الإخراج و الإبعاد عن الوطن وكيف كان فهذه الآية تدلّ على أن لا دولة لليهود و لا عزّ، و أنّ الذُّل و الصّغار لا يفارقهم أبداً ثمّ أشار اللّه تعالى الى أنّه سريع العقاب و مع ذلك غفورٌ رحيمٌ.

فالأوّل: بالنّسبة الى المتّمرد العاصي المصّر على عصيانه.

الثّاني: بالنّسبة الى التّائب الرّاجع من الذّنب الى الطّاعة و الإنـقياد فـهو تعالى أشدّ المعاقبين و أرحم الرّاحمين.

أقول هذه الآية من معجزات القرآن و ذلك لأنّ اللّه تعالى أخبر فيها بالذُّل و الصّغار على اليهود الى يوم القيامة و الإنصاف أنّهم كانوا مستحقين لذلك و لذا ترى اللّه تعالى قد ذمّهم في كثيرٍ من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَ ٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَ ٱللَّهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ ٱللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَ ٱلْخَنَازِيرَ وَ عَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ، وَ إِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِٱلْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ، وَ تَرَىٰ**

١- المائدة = ٦٤ ٢- المائدة = ١٣

كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ**(۲).

و غيرها من الأيات الّتي أعرضنا عن ذكرها مخافة الأطناب بل لا نرى في الكتاب أمّة أكثر ذمّاً و قدحاً من اليهود و ذلك لكفرهم و عنادهم و ظلمهم و نفاقهم و بالجملة جميع الرّذائل موجود فيهم فلا عهد لهم و لا ميثاق و الامانة لهم رحم يأكلون الحرام و يرتكبون الخبائث و من كان كذلك فهو مستّحق للعذاب في الدّارين و ما ربّك بظّلام للعبيد و لذلك تراهم في زماننا هذا متشتّتين متفرّقين في الأرض ليس لهم إجتماعٌ و لا حكومة منبغوضين لجميع الملل المختلفة في العالم منفورين مطرودين من مجالسهم و مجامعهم و هكذا و هكذا، و الى هذا المعنى الأخير شاء اللّه تعالى بقوله بعد هذه الآية.

وَ قَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذٰلِكَ وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

و المعنى فرّقناهم و شتّتناهم في الأرض لئّلا يجتمعوا في مكان واحدٍ وكثر بذلك فسادهم و ذلك لأنّ في إجتماع المفسدين خطرٌ عظيم.

ثمّ أشار اللّه تعالى بأنّ منهم الصّالحون و منهم دون ذلك، و هذا لا ينافي أصل الحكم لأنّ الحكم يصدر بإعتبار الأغلب و الأكثر فلا ينافي خروج الأقلّ منه و لذلك يقال ما من عامّ إلاّ و قد خصّ و لا شكّ أنّ الصّالحين كانوا منهم و هم الّذين آمنوا باللّه و رسله و أمّا قوله: **وَ مِنْهُمْ دُونَ ذٰلِكَ** فقيل أنّما وَصَفهم بذلك لما كانوا عليه من قبل إرتدادهم عن دينهم و قبل كفرهم بربّهم و ذلك قبل أن يبعث فيهم عيسى عليه السلام و قوله: **وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ**

۱- المائدة = ۶۰ و ۶۱ و ۶۲ و ۶۳ ۲- المائدة = ۷۸

فقال بعض المفسّرين معناه إختبرناهم بالرّخاء في العيش و الخفض في الدّنيا و الدّعة و السّعة في الرّزق و هى الحسنات، و يعني بالسّيئات الشّدائد في الحبس و المصائب في الأنفس و الأموال، لعلّهم يرجعون، أي لكي يرجعوا الى طاعته و ينيبوا الى إمتثال أمره و ذلك لأنّهم ولدوا على الفطرة و هى دين الحقّ الّذي يلزمهم الرّجوع اليه.

قال تعالىٰ: **وَ قَطَّعْنٰاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا** لمّا **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتٰابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا ٱلْأَدْنىٰ**

أي فرَّقناهم في البلاد أفاد في هذه الآية أنّه خلف من بعدهم خلف، يعني أولاد الّذين فرَّقهم في الأرض فأنّ الخلف بسكون اللاّم الأولاد، الواحد و الجميع فيه سواء و أمّا **الخَلَف** بفتح اللاّم البدل ولداً كان أو غريباً و قال إبن الإعرابي، الخلف، بفتح اللاّم الصّالح و بالجزم الطّالح، قال لبيد:

ذهب الّذين يُعاش في أكنافِهم　　　وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب

و منه قيل لِلرّديّ من الكلام، خَلف و منه المثل السّائر، سكت ألفاً و نطق خلفاً، فخلفٌ في الذّم بالإسكان، و خلف بالفتح في المدح هذا هو المستعمل المشهور و قد يستعمل كلّ واحدٍ منهما موضع الآخر، قال حسّان بن الثّابت:

لنا القدم الأولىٰ اليك وخلفنا　　　لأوّلنا في طاعة اللّه تابعُ

و قال آخر:

أنّا وجدنا خلفاً بئس الخلف　　　أغلق عنّا بابه ثمّ حلف

لا يدخل البوّاب إلاّ من عرف　　　عبداً اذا ما ناء بالحمل وقف

قال الفرّاء يقال أعطاك اللّه خُلفاً ممّا ذهب لك فأنت خلف صدقٍ و خلف سُوءٍ قال تعالىٰ: **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضٰاعُوا ٱلصَّلٰوةَ** (١).

١- مريم = ٥٩

و أكثر ما يجئ في المَدح بفتح اللاّم و في الذّم بسكونها، وكيف كان فمعنىٰ الكلام هو أنّه تعالىٰ قد أخبر أنّه خلف بعد القوم الّذين كانوا فرَّقهم في الأرض، خَلفٌ وهم قوم نشأوا بعدهم من أولادهم و نسلهم وَ ورثوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنىٰ.

قيل أنّهم كانوا يرتشون علىٰ الأحكام ويحكمون بجورٍ و قال أخرون كانوا يرتشون و يحكمون بحقٍّ.

و قال بعضهم أنّهم ورثوا كتاب اللّه فقرأوه و علموه وخالفوا حكمه وأتوا محارمه مع دراستهم له فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً ثمّ أخَبر اللّه تعالىٰ أنّهم كانوا يأخذون عرض هذا الأدنىٰ أي كانوا يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدّنيا لشّدة حِرصهم عليها، ومَعنىٰ هذا الأدني هذا العاجل **وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا** الظّاهر أنّهم كانوا يتّمنون المغفرة من غير توبةٍ و ليس هذا منهم إلاّ تمَّنياً للأباطيل كما:

قال اللّه تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ**(1).

وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ و العرض متاع الدّنيا، بفتح الرّاء بإسكانها ما كان من المال سوى الدّراهم والدّنانير و الإشارة في هذه الآية الىٰ الرّشا و المكاسب الخبيثة و العجب من قولهم: **سَيُغْفَرُ لَنا** و أنهم بحالٍ اذا أمكنتهم ثانية إرتكبوها فقطعوا بإغترارهم بالمغفرة و هم مصرّون علىٰ ما كانوا عليه من غير توبةٍ و لا ندامةٍ.

قال القرطبي في هذا المقام ماهذا لفظه:

قلتُ و هذا الوصف الذّي ذمّ اللّه تعالىٰ به هؤلاء موجود فينا.

۱- البقرة = ۷۹

أسند الدّارمي أبو محمّد حدّثنا محمّد بن المبارك حدّثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكّنىٰ أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال سيبلىٰ القرأن في صدور أقوامٍ كما يبلى الثّوب فيتهافت، يقرأونه لا يجدون له شهوةً و لا لذة، يلبسون جلود الضّان علىٰ قلوب الذّئاب أعمالهم طمع لا يخالطه خوف أن قصّروا قالوا سنبلغ و أن أساؤا قالوا سيغفر لنا أنّا لا نشرك باللّه شيئاً انتهىٰ.

أقول ما نقله القرطبي عن معاذ بن جبل حقّ لا مرية فيه إلاّ أنّ قوله سيبلىٰ القرأن في صدور أقوامٍ الخ يظهر منه تبرءة شخص معاذ عن الحكم الذّي حكم به و عدم شموله له نفسه لأنّه قال في صدرو أقوامٍ ولم يقل في صدورنا الأن كذلك مع أنّ الأخلاف ورثوا ذلك من الأسلاف فلو كان معاذ و أمثاله في صدر الإسلام عاملين بالقرأن ولم يلبسوا جلود الضّان على قلوب الذّئاب لم تكن الأمّة بعدهم موصوفين بهذه الصّفة فهم كانوا في ذلك إمامنا و نحن نقتدي بهم و أن شئت قلت أنّهم كانوا بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذون عرض هذا الأدنى من الغاصبين لخلافة الرّسول لشدّة حرصهم علىٰ الدّنيا والفرق بينهم و بين اليهود هو أنّ علماء اليهود كانوا يرتشون علىٰ الأحكام و علماء الإسلام كانوا يرتشون على تأييد الخلافة المغصوبة فهما مشتركان في أخذهم عَرض هذا الأدنىٰ و العجب كلّ العجب من معاذ بن جبل حيث قال ما قال لَو صحّ النّقل عنه، و هو في رأس المشيّدين لأساس الخلافة بعد الرّسول و إنتزاعها من أهل البيت الذّين طهّرهم اللّه تطهيراً مضافاً الىٰ النّصوص الواردة عن النّبي في هذا الباب أَلَم يَقرأ معاذ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ اٰمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ**(١).

١- المائدة = ٥٥

و غيرها من الأيات. ألم يسمع قول النّبي من كُنتُ مولاه فهذا علّيٌ مولاه و غيره من النّصوص.

و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ ءَاتَيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَيٰكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا**(۱).

فأن قرأ الأيات و سمع النّصوص الواردة كما هو كذلك فما جوابه غداً يوم القيامة عند اللّه.

و قد روي في الأثار المروية عن أهل البيت أنّ فاطمة الزّهراء عليها السلام بعد ما غصب أبوبكر حقّها أعني به فدكاً، دخلت علىٰ معاذ بن جبل وطلبت منه النّصُرة فلم يجبها ولم ينصرها، مع أنّه كان قادراً على نصرتها، فاذا كان كذلك فالسّكوت لَه أولىٰ.

ثمّ قال تعالىٰ على سبيل التّوبيخ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ** الإستفهام للإنكار و المعنى بلىٰ، قد أُخذ عليهم الميثاق قيل المراد بالكتاب التّوراة و عليه فالمعنىٰ ألم يؤخذ على اليهود ميثاق الكتاب، و الحقّ الحقيق بالإتّباع هو أنّ هذا الميثاق قد أخذ به في جميع الكتب السّماوية إلاّ أنّ مورد الآية خاصّ بالتّوراة و قوم يهود و قد ثبت أنّ خصوص المورد لا ينافي عموم الحكم اذا كان هناك إشتراك في التّكليف و لا شكّ أنّ الحقّ و التّقول به و العمل به أمرٌ مشترك بين جميع الأمم و عليه فالمراد بالكتاب جميع الكتب السّماوية في الواقع و أن كان المراد به التّوراة في الظّاهر.

وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

ففيه إشارة الىٰ أنّ أهل الكتاب لم يفوا بعهدهم و ميثاقهم عن علم و عمدٍ وذلك لقوله: **وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ** أي قرأوا ما فيه و درسوه فضيّعوه و تركوا العمل

۱- الحشر = ۷

به والدَّرس تكرُّر الشّئ يقال درس الكتاب اذا كرَّر قراءته و من المعلوم أنّ الدَّرس بهذا المعنى يوجب العلم لأنّ العامّي الجاهل لا يقدر على درس الكتاب و نقض العهد و الميثاق من العالم أقبح و أشنع منه من الجاهل، ثمّ قال: **وَ ٱلدَّارُ ٱلْأٰخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** المعاصي و يحذرون عقابه و قوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** خطاب لهم و لجميع العقلاء، فمن قرأ بالياء معناه أفلا تعقل هذه الطّائفة الّتي تقدّم ذكرها و هم الذّين كانوا يأخذون هذا العرض الأدنى على أحكامهم و من قرأ بالتّاء معناه، قل لهم، أفلا تعقلون و المقصود أنّ العاقل لا يترك الأخرة لأجل الدّنيا لأنّ الدّنيا دار مجاز و الأخرة دار قرارٍ و بقاء و الباقي خيرٌ من الفاني إلاّ أنّ العاقل قليل جدّاً.

وَ ٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِـالْكِتٰابِ وَ أَقٰـامُوا ٱلصَّـلٰوةَ إِنّٰـا لٰا نُـضِيعُ أَجْـرَ ٱلْمُصْلِحِينَ

الظّاهر أنّ المراد بالكتاب التّوراة و حمل اللّفظ على العموم أولىٰ و معنى التَّمسك به هو الأخذ بما فيه من الحلال والحرام و العمل به فالمعنى الّذين يعملون بما في الكتاب و يقيمون الصَّلاة خصَّها بالذّكر مع أنّها داخلة في التَّمسك به لجلالة موقعها و شدّة تأكّدها و عظم شأنها ثمّ قال تعالىٰ: **إِنّٰا لٰا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ** كما هو مقتضى العدل و فى تخصيص المصلحين بالذّكر إشارة الى نكتته و هي أنّ من كان غير مؤمن و أصلح فأجره ساقط لأنّه يوقعه علىٰ خلاف الوجه الذّي يستحقّ به الثّواب هكذا قيل و الإنصاف أنّ الكلام لا يدّل عليه و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ يقول: **إِنّٰا لٰا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ** مؤمناً كان أو غيره فالكلام يحمل علىٰ معناه العام و تخصيصه بالمؤمن يحتاج الىٰ دليل و اذ ليس فليس و يؤيّده قوله تعالىٰ: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**[1] مضافاً الىٰ أنّ العدل أيضاً يقتضي العموم، فقوله فأجره ساقط، ساقطٌ من أصله.

١- الزلزال = ٧

وَ إِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوٓا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مٓا اٰتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ ٱذْكُرُوا مٰا فيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

النَّتق، بفتح النّون و سكون التّاء و القاف الرّفع و النّاتق الرّافع، هذا خطاب لنبيّنا محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و المعنىٰ، أذكر يا محمّد الوقت الّذي نتقنا الجبل أي رفعناه فوقهم كأنّه ظلّة.

و قال بعضهم، النَّتق، الجذب بشدّةٍ و فسَّره بعضهم بغايته و هو القطع و تقول العرب نتقت الزّبدة من فم القربة، و النّاتق الرّحم التّي تقلع الولد من الرّجل قال النّابغة:

لم يحرموا حسن الفداء وأُمّهم صفحت عليك بناتقٍ مذكار

و في الحديث عليكم بزواج الأبكار فأنّهن أنَتق أرحاماً و أطيب أفواهاً و أرضى باليسير، و عليه فالمعنى و أذكر يا محمّد الوقت الّذي نتقنا الجبل، أي جذبناه و قلعناه من الأرض و جعلناه فوقهم كأنّه ظلّة، و قيل فوقهم، حال مقدّرة و العامل فيها محذوف و تقديره كائناً فوقهم، و **الظُلّة**، بضّم الظّاء ما أظَّل من سقيفةٍ أو سحابٍ، فينبغي أن يحمل التّشبيه على أنه بظلّة مخصوصة لأنّه اذا كان كلّ ما أظَّل يسمّىٰ ظلّة فالجبل فوقهم صار ظلّة و اذا صار ظلّة فكيف يشبه بظلّة فالمعنى كأنّه حالة إرتفاعه عليهم ظلّةٌ، من الغمام و هى الظلّة التّي ليست تحتها عمدٌ بل إمساكها بالقدرة الإلٰهية و أن كانت أجراماً، بخلاف الظلّة الأرضّية فأنّها لا تكون إلاّ على عمدٍ فلمّا دانت هذه الظلّة الأرضّية فوقهم بلا عمدٍ شبّهت بظلّة الغمام الّتي ليست بلا عمدٍ.

قيل في سبب رفع الجَبَل عليهم أنّ موسى عليه السلام لمّا أتاهم بالتّوراة و وقفوا على ما فيها من الأحكام و الحدود و التّشديد في العبادة أبوا أن يقبلوا ذلك و أن يتمسّكوا به و أن يعملوا بما فيه و قالوا أنّ ذلك يغلظ علينا فرفع اللّه الجبل كالظُّلة عليهم و عرّفهم موسىٰ أنّهم أن لم يقبلوا التّوراة ولم يعلموا بما فيها وقع عليهم فأخذوا بالتّوراة و قبلوا ما فيها و صرف اللّه نزول الجبل عنهم.

قال ابن عبّاس فلذلك صارت اليهود تسجد علىٰ قرنها الأيسر لأنّهم سجدوا كذلك ينظرون الىٰ الجبل و كأنّها سجدة نصبها اللّه و أنّما إتّخذت النّصارىٰ المشرق قبلة لأنّ مريم عليها السلام إتّخذت مكاناً شرّقياً حين حملت بعيسىٰ.

و قال مجاهد معناه، إن أخذتموه بجدٍّ و حسن نيّةٍ و إلاّ ألقىٰ الجبل عليكم أبو مسلم أنّ رفع الجبل كان ليظلّهم من الغمام.

أقول ما ذكروه لا يوافق الأُصول العقّلية التّي لا تقبل التّخصيص بقومٍ دون قومٍ و شريعةٍ دون شريعةٍ و ذلك لأنّ العبد مختار في طاعته و عبادته و الجبر محكوم عقلاً في جميع الملل و الأقوام و فى كلّ عصرٍ و زمانٍ و هذا ممّا لا خلاف فيه كان كذلك فكيف قال موسىٰ عليه السلام لقومه ما قال و عرّفهم إن لم يقبلوا التّوراة وقع عليهم، و لازم ذلك أنّهم كانوا مجبورين بأخذها و العمل بما فيها، و هذا ينافي الإختيار.

إن قلت لعلّ سلب الإختيار عن العبد في عبادته كان جائزاً قبل الإسلام و خصوصاً في شريعة موسىٰ عليه السلام.

قلت كلاّ لأنّ الجبر محكوم عقلاً و لا تخصيص في العقلّيات.

أن قلت فما معنىٰ الكلام.

قلتُ معناه أنّ اللّه تعالىٰ لمّا رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنّه ظلّة خافوا منه و ظنّوا أنّه واقعٌ بهم فالخوف كان منهم لا أنّ اللّه تعالى أخافهم بذلك و لعل رفع الجبل فوقهم كان لمصلحةٍ أخرى غير الاخافة و محصّل الكلام أنّ الكلام لا يدّل على ما ذكروه مضافاً الىٰ أنّه خلاف حكم العقل.

خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُمْ بِقُوَّةٍ وَ ٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

أي خذوا التّوراة بقوّةٍ أي بجدٍّ و حسن نيّةٍ وأذكروا ما فيه، أي و أعملوا بما فيه من الأحكام تتركوها لكي تتّقون.

و قيل معناه و أذكروا ما فيها من العهود و المواثيق **وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ**

إعلم أنّ البحث في هذه الآية يقع في مسائل:

المسألة الأُولىٰ: قرأ ابن كثير وأهل الكوفة، ذرّيتهم علىٰ التّوحيد و قرأ الباقون ذرّياتهم، علىٰ الجمع و قرأ أبو عمرو، و أن يقولوا، أو يقولوا بالياء فيهما و الباقون بالتّاء.

المَسألة الثّانية: الذرّية قد يكون جمعاً نحو قوله تعالىٰ: **وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ** و قوله: **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**(١) و قد يكون واحداً كقوله تعالىٰ: **هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**(٢) قالوا فَمن أفرد جعله إسماً وإستغنىٰ عن جمعه بوقوعه علىٰ الجمع، و من جَمَع قال لأنّه أن كان واقعاً علىٰ الواحد فلا شكّ في جواز جَمعه و أن كان جمعاً فهو أيضاً حسن لأنّه قد وردت الجموع المكسّرة جمعت نحو الطُّرقات و صواحبات يوسف.

و أمّا وزن، ذرّية، فقيل أنّه معلولة، من الذَّر فأبدلت من الرّاء التّي هي لام الفعل الأخيرة، ياء، كما أبدلت من، دهرّية، يدّلك علىٰ البدل فيه قولهم، دهرورة و يحتمل أن تكون فعلّية منه فأبدلت من الرّاء الياء كما تبدل من هذه الحروف في التّضعيف و أن وقع فيها الفصل.

و يحتمل، أن تكون، فعلّية، نسبته الىٰ الذّر و أبدلت الفتحة منها ضمّة كما أبدلوا في الإضافة الىٰ الدّهري فيقال في الدَّهر دهري و فى سهل سهلي.

و يحتمل، أن تكون، فعليّة، من ذرأ اللّه الخلق، أجمعوا علىٰ تخفيفها كما أجمعوا علىٰ تخفيف البَّرية.

١- الإسراء = ٣

٢- أل عمران = ٣٨

و يحتمل، أن تكون من قوله: **تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ**[1] أبدلت من الواو الياء لوقوع ياء قبلها.

قال الرّاغب في المفردات و الذرّية أصلها الصِّغار من الأولاد و أن كان يقع على الصّغار و الكبار معاً في التّعارف و يستعمل للواحد و الجمع و أصله الجمع الى أن قال و فى الذّرية ثلاثة أقوال:

قيل هُو مِن ذرأ اللّه الخلق فترك همزة نحو روّية و برّية.

و قيل أصله ذروية، و قيل هو فعّلية من الذّر نحو قمرية إنتهىٰ كلامه.

المسئلة الثّالثة: اختلفوا في معنى هذا الأخذ فيه و هذا الإشهاد فقيل أراد بذلك البالغين من بني آدم و إخراجه إيّاهم ذرّية قرناً بعد قرنٍ و عصراً بعد عصرٍ و إشهاده إيّاهم علىٰ أنفسهم تبليغه إيّاهم و إكماله عقولهم و ما نصب فيها من الأدلّة الدّالة بأنّهم مصنوعون و أن المصنوع لابّد له من صانع وبما أشهدهم ممّا يحدث فيهم من الزّيادة و النّقصان و الآلام و الأمراض الدّال بجميع ذلك علىٰ أنّ لهم خالقاً رازقاً تجب معرفته و القيام بشكره و ما أخطر بقلوبهم من تأكيد ذلك و الحّث على الفكر فيه ثمّ إرساله الرّسل و إنزاله الكتب لئلاّ يقولوا إذا صاروا الى العذاب إنّا كنّا عن هذا غافلين لم ينبّه علينا ولَم تَقُم لنا حجّة عليه و لم تكمل عقولنا فنفكّر فيه أو يقول قوم منهم، إنّما أشرك آباؤنا حين بلغوا و عقلوا فأمّا نحن فكنّا أطفالاً لا نعقل و لا نصلح للفكر و النّظر و التّدبير، و قال الجبائي أخذه ذرّياتهم من ظهورهم أنّه خلقهم نطفاً من ظهور الآباء ثمّ خلقهم في أرحام الأمّهات ثمّ نقلهم من خلقةٍ الى خلقةٍ و صورةٍ الى صورةٍ ثمّ صاروا حيواناً بأن أحياهم اللّه في الأرحام و أتّم خلقهم ثمّ أخرجهم من الأرحام بالولادة، و قوله: **وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ** يعني عند البلوغ وكما العقل و عندما عرفوا ربّهم فقال لهم على لسان بعض أنبيائه، **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**

١- الكهف = ٤٥

فقالوا: **بَلٰى شَهِدْنآ** بذلك و أقررنا به لأنّهم كانوا باللّه عارفين أنّه ربّهم انتهىٰ كلام التّبيان في المقام[١].

و قال صاحب الكشّاف من ظهورهم، بدل من بني آدم بدل البعض من الكلّ و معنىٰ أخذ ذريّاتهم عن ظهورهم إخراجهم من أصلابهم نسلاً و إشهادهم على أنفسهم و قوله: **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلٰى شَهِدْنآ** من باب التّمثيل و التّخييل و معنى ذلك أنّه نصب لهم الأدلّة على ربّوبيته و وحدّانيته و شهدت بها عقولهم و بصائرهم الّتي ركبها فيهم و جعلها مميّزة بين الضّلالة و الهدى فأنّه أشهدهم على أنفسهم و قرّرهم و قال: **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** وكأنّهم **قٰالُوا بَلٰى** أنت ربّنا شهدنا على أنفسنا و أقررنا بواحدانيّتك و باب التّمثيل واسع في كلام اللّه ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم و في كلام العرب و نظيره.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذآ أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ٱئْتِيٰا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قٰالَتآ أَتَيْنٰا طآئِعِينَ**[٣].

و معلوم أنّه لا قول ثمّ و أنّما هو تمثيل وتصوير للمعنى انتهى كلامه.

و قال القُرطبي، قال قوم معنى الآية أنّ اللّه تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعضٍ، قالوا ومعنىٰ **أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** دلّهم بخلقه علىٰ توحيده لأنّ كلّ بالغ يعلم ضرورةً أنّ له ربّاً واحداً، ألستُ بربّكم، أي قال فقام الأشهاد عليهم و الإقرار منهم، الىٰ أن قال، و قيل أنّه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد و أنّه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها انتهىٰ كلامه.

ثمّ قال، قلت و فى الحديث عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم غير هذين القولين و أنّه تعالى

١- ج ٥ص ٢٧
٢- النحل = ٤٠
٣- الفصلت = ١١

أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام و روي مالك في موصلئه أنّ عُمر بن الخطّاب سأل عن هذه الأية، **وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيَ اٰدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ** الى قوله: **غٰافِلِينَ** فقال عمر سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عنها فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنّ اللّه تعالى خلق آدم ثمّ مسح ظهره بيمينه فأستخرج منه ذرّية فقال خلقت هولاء للجنّة و بعمل أهل الجّنة يعملون ثمّ مسح ظهره فأستخرج منه ذرّية فقال خلقت هؤلاء للنّار و بعمل أهل النّار يعملون.

فقال رجل ففيم العمل قال فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ اللّه إذا خلق العبد للجّنة إستعمله بعمل أهل الجنّة حتّى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنّة فيدخله الجنّة و اذا خلق العبد للنّار إستعمله بعمل أهل النّار حتّى يموت على عمل من أعمال أهل النّار فيدخله النّار.

قال أبو عمرو هذا حديث منقطع الأسناد لأنّ مسلم بن يسار لم يلق عمر فيه يحيىٰ بن معين مسلم بن يسار يعرف بينه و بين عمر نعيم إبن ربيعة ذكره النّسائي و نعيم غير معروفٍ بحمل العلم لكن معنى هذا الحديث قد صّح عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عُمر إبن الخطّاب و عبد اللّه بن مسعُود و علّي بن أبي طالب وأبي هُريرة و غيرهم.

روي الترّمذي و صححّه عن أبي هريرة قال أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لمّا خلق اللّه آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلّ نسمة هو خالقها من ذرّيته الىٰ يوم القيامة و جعل بين عيني كلّ رجل منهم و بيصاً من نورهم (من نُورٍ) ثمّ عرضهم علىٰ آدم فقال يا ربّ من هؤلاء قال هؤلاء ذرّيتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه و بيص ما بين عينيه فقال أي ربّ من هذا فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريّتك يقال له داوود فقال ربّ كم جعلت عُمره قال ستيّن سنة قال أي ربّ زده من عُمري أربعين سنة فلمّا إنقضىٰ عُمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها إبنك داوود قال فجحد آدم فجدت ذريتّه و نسىٰ آدم فنسيت ذريّته، في غير الترّمذي.

فحينئذٍ أمر بالكُتّاب و الشّهود و فی رواية فرأیٰ فيهم الضّعيف و الغنّي و الفقير و الذّليل و المبتلی و الصّحيح فقال له آدم يا ربّ ما هذا إلاّ سوَّيت بينهم قال أردت أن أشكر.

و روي عبد اللّه بن عُمر عن النّبي ﷺ أنّه قال أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس و جعل لهم عقولاً كنملة سليمان و أخذ عليهم العهد بأنّه ربّهم و أن لا إله غيره فأقرّوا بذلك و إلتزموه و أعلمهم بأنّه سيبعث اليهم الرُسّل فشهد بعضهم على بعضٍ قال أبي بن كعب و أشهد عليهم السّمٰوات السّبع ما من أحدٍ يولد الیٰ يوم القيامة إلاّ و قد أخذ عليه العهد.

ثمّ قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه عنه و إختلف في الموضع الّذي أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال.

فقال إبن عبّاس ببطن نعمان وادٍ الیٰ جنب عرفة.

و روي عنه أنّ ذلك برهبا، أرضٌ بالهند الّذي هَبط فيه آدم و قال يحییٰ بن سلام قال إبن عبّاس في هذه الآية أهبط اللّه آدم بالهند ثمّ مسح علیٰ ظهره فأخرج منه كلّ نسمة هو خالقها الیٰ يوم القيامة ثمّ قال: **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** قال يحییٰ قال الحسن ثمّ أعادهم في صلب آدم عليه السلام.

و قال الكلبي بين مكّة و الطّائف، و قال السّدي في السّماء الدّنيا حين أهبط من الجنّة اليها مسح علیٰ ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنیٰ ذرّية بيضاء مثل اللؤلوء فقال لهم أدخلوا الجنّة برحمتي، و أخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرّية سوداء و قال لهم أدخلوا النّار و لا أبالي قال إبن جريح خرجت كلّ نفسٍ مخلوقة للجنّة بيضاء وكلّ نفس مخلوقة للنّار سوداء.

ثمّ نقل القرطبي عن إبن العربي أنّه قال، فأن قيل كيف يجوز أن يعذّب الخلق و هم لم يذنبوا أو يعاقبهم على ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقهم اليه.

قلنا و من أين يمتنع ذلك أعقلاً أم شرعاً.

فأن قيل لأنّ الرّحيم الحكيم منّا لا يجوز أن يفعل ذلك.

المسألة الرّابعة: في تفسير الآية علىٰ مسلك الخاصّة قال الطّبرسي ﷺ في المجمع إختلف العلماء من العامّ و الخاصّ في معنى الآية و في هذا الإخراج و الإشهاد على وجوه:

أحدها: أنّ اللّه أخرج ذرّية أدم من صلبه كهيئة الذّر فعرضهم على أدم أنّي آخذ على ذرّيتك ميثاقهم أن يعبدوني و لا يشركوا بي شيئاً و على أرزاقهم قال ألست بربّكم.

قالوا بلى شهدنا أنّك ربّنا فقال للملائكة أشهدوا فقالوا شهدنا و قيل أنّ اللّه جعلهم فهماء عقلاء سمعون خطابه و يفهمونه ثمّ ردَّهم الىٰ صُلب أدم و النّاس محبوسون بأجمعهم حتّى يخرج كلّ من أخرجه في ذلك الوقت و كلّ من ثبت على الإسلام فهو على الفطرة الأولى و من كفر و جحد فقد تغيّر علىٰ الفطرة الأولى عن جماعةٍ من المفسّرين و رووا في ذلك أثاراً بعضها مرفوعة و بعضها موقوفة يجعلونها تأويلاً للأية ورَّد المحقّقون هذا التّأويل و قالوا أنّه ممّا يشهد القرأن بخلافه لأنّه تعالىٰ قال و اذ أخذ ربّك من بني أدم و لم يقل من أدم و قال من ظهورهم و لم يقل من ظهره و قال ذرّيتهم ولم يقل ذرّيته ثمّ أخبر تعالى بأنّه فعل ذلك لئلا يقولوا أنّهم كانوا عن ذلك غافلين أو يقولوا أنّما أشرك أباءُنا و أنّهم نشأوا علىٰ دينهم و هذا يقتضي أن يكون لهم أباء مشركون فلا يتناول الظّاهر ولد أدم لصلبه و أيضاً فأنّ هذه الذّرية المستخرجة من صلب أدم لا يخلو إمّا أن جعلهم اللّه عقلاء أو لم يجعلهم كذلك فأن لم يجعلهم عقلاء فلا يصّح أن يعرفوا التّوحيد و أن يفهموا خطاب اللّه و أن جعلهم عقلاء و أخذ عليهم الميثاق فيجب ان يتّذكروا ذلك و لا ينسوه لأنّ أخذ الميثاق لا يكون حجّة علىٰ المأخوذ عليه إلاّ أن يكون ذاكراً له فيجب أن نذّكر نحن الميثاق و لأنّه لا يجوز أن ينسى الجمع الكثير و الجّم الغفير من العقلاء شيئاً كانوا عرفوه و ميزّوه حتّىٰ لا يذكره واحد منهم و أن طالَ العهد.

ألا ترىٰ أنّ أهل الجنّة يعرفون كثيراً من أحوال الدّنيا حتّىٰ يقول أهل الجنّة أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً ولو جاز أن ينسوا ذلك مع هذه الكثرة لجاز أن يكون اللّه تعالىٰ كلّف الخلق فيما مضى ثمّ أعادهم إمّا ليثيبهم و أمّا ليعاقبهم و نسوا ذلك و ذلك يؤدّي الىٰ التّجاهل و الى صحّة مذهب التّناسخية و حكى عن علّي بن عيسىٰ عن أبي بكر الأخشيدانة أنّه جوّز أن يكون خبر الذّر صحيحاً غير أنّه قال ليس تأويل الآية على ذلك و يكون فائدته أنّه أنما فعل ليجزوا علىٰ الأوصاف الكريمة في شكر النّعمة و الإقرار باللّه بالربّوبية كما رُوي أنّهم ولدوا علىٰ الفطرة.

الوجه الثّانى: أنّ المراد بالآية أنّه سبحانه أخرج بني أدم من أصلاب أباءهم في أرحام أمّهاتهم ثمّ رقّاهم درجةً درجةً علقة ثمّ مضغة ثمّ أنشأ كلاً منهم بشراً سوّياً ثمّ حيّاً مكلّفاً و أراهم أثار صنعه و مكّنهم من معرفة دلائله حتّى كأنّه أشهدهم و قال لَهُم أَلَستُ بربّكم قالوا بلى فعلىٰ هذا يكون معنىٰ أشهدهم على أنفسهم دلّهم بخلقه على توحيده و أنّما أشهدهم على أنفسهم بذلك لما جعل في عقولهم من الأدّلة الدّالة على وحدّانيته و ركب فيهم من عجائب خلقه و غرائب صنعته فكأنّه سبحانه بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم فكانوا في مشاهدة ذلك و ظهوره فيهم على الوجه الّذي أراده اللّه و تعذّر إمتناعهم معه بمنزلة المعترف المقر و أن لم يكن هناك إشهاد صورةً و حقيقةً و نظير ذلك قوله تعالىٰ: **فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ** و أن لم يكن منه سبحانه قول و لا منهما جواب الخ.

والوَجه الثّالث: أنّما عني بذلك جماعةً من ذرّية أدم خلقهم و أكمل عقولهم وقرَّرهم على ألسُن رسله بمعرفته و بما يجب من طاعته فأقرُّوا بذلك و أشهدهم علىٰ أنفسهم به لئّلا يقولوا يوم القيامة أنّا كنّا عن هذا غافلين فنبّه سبحانه على أنّه لا يعاقب من له عذر رحمةً منه لخلقه وكرماً و هذا يكون في قومٍ خاصٍّ من بني أدم فقد خرجوا من ذلك و هذا إختيار الجبائي و القاضي، و

قوله شهدنا حكاية عن قول الملائكة أنّهم يقولون ذلك انتهىٰ ما ذكره الطّبرسي في المقام ولم يحكم بشيءٍ دلَّ علىٰ إختياره من الأقوال التّي نقلها و هو دليل أو كاشف عن عدم إرتضاءه بها و اللّه أعلم.

أقول أقوال المفسّرين من الخاصّة في المقام متّقاربة كما أنّ أراء العامّة و أقوالهم في تفاسيرهم كذلك لا نحتاج الىٰ نقل كلماتهم أكثر ممّا نقلناه عنهم و من أراد الوقوف علىٰ جميع الأقوال فعليه بمراجعة التّفاسير.

والّذي حصل لنا في المقام من كلماتهم أنّهم عجزوا عن تفسير الآية لأنّها من المشكلات حقّاً و أنّما قالوا ما قالوا على أساس الظّن و الإحتمال و أنت تعلم أنّ الظّن لا يغني من الحقّ شيئاً و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلابدّ لنا في تفسيرها من التّمسك بالعترة الّتي جعلها رسول اللّه عدلاً للقرأن فقال **أنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهَل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لَن تضّلوا أبداً.**

روي الكليني قدّس سرّه **بأسناده عن جابر عن أبي جعفر** عليه السلام **قال: قلتُ له لم يسمّىٰ أمير المؤمنين قال** عليه السلام **سمّاه هكذا أنزل في كتابه وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ وأنّ محمّداً رسولي وأنّ عليّاً أمير المؤمنين انتهىٰ.**

و بأسناده عن داوُد الرّقي عن أبي عبد اللّه عليه السلام **أنّه قال: لمّا أراد اللّه أن يخلق الخَلق نثرهم بين يديه فقال لهُم من ربّكم فأوّل من نطق رسول اللّه** صلّى الله عليه وآله **وأمير المؤمنين** عليه السلام **والأئمّة عليهم السّلام فقالوا أنت ربّنا فحملهم العلم والدّين. ثمّ قال للملائكة هؤلاء حملة ديني و علمي و أمنائي في خلقي و هم المسؤلون ثمّ قال لبني أدم اقرّوا باللّه بالرُّبوبية و لهؤلاء النّفر بالولاية والطّاعة فقالوا ربّنا أقررنا فقال اللّه للملائكة أشهدوا فقال الملائكة شهدنا قال عليٌّ** عليه السلام **أن لا**

تقولوا غداً إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذا غافِلِينَ،أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ اٰبآؤُنا يـادُود ولايتنا مؤكّدة عليهم في الميثاق انتهىٰ.

و عن تفسير علّي ابن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام كيف أجابوا و هم ذرّ، قال عليه السلام جعل فيهم ما اذا سألهم أجابوه يعني في الميثاق انتهىٰ.

و عنه أيضاً بأسناده عن زرارة قال أنّ رجلاً سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ اٰدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ فقال عليه السلام وأبوه يسمع حدَّثني أبي أنّ اللّه عزّ وجلّ قبض قبضة من تراب التُّربة التّي خلق اللّه منها أدم فَصَّب عليها الماء العذب الفرات ثمّ تركها أربعين صباحاً ثمّ صبَّ عليها الماء المالح الأجاج فتركها أربعين صباحاً فلَّما إختمرت الطّينة أخذها فعَّركها عركاً شديداً فخرجوا كالذّر من يمينه وشماله و أمرهم جميعاً أن يقعوا في النّار فَدخل أصحاب اليمين فصارت عليهم برداً و سلاماً و أبى أصحاب الشّمال أن يدخلوها انتهىٰ.

محمّد ابن يحيىٰ بأسناده عن بكير ابن أعين قال كان أبو جعفر عليه السلام: يقول أنّ اللّه أخذ ميثاقنا (ميثاق شيعتنا) بالولاية لنا و هم ذّر يوم أخذ الميثاق على الذّر بالإقرار له بالرّبوبية و محمّد صلى الله عليه وآله بالنٌّبوة و عرض اللّه عزّ و جلّ على محمّد أمّته في الطّين و هم أظلّة و خلقهم من الطّينة الّتي خلق منها آدم و خلق اللّه أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفي عامٍ و عرضهم عليه و عرّفهم علّياً و نحن نعرفهم في لحن القول إنتهىٰ.

عِدّة مِن أصحابنا عن أحمد بن محمّد عن إبن محبوب عن صالح بن سهل عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّ بعض قريش قال لرسول اللّه صلى الله عليه وآله بأيّ شيٍ سبقت الأنبياء و أنت بعثت آخرهم و خاتمهم قال صلى الله عليه وآله:

أنّي كنت أوّل من آمن بربّي وأوّل من أجاب حين أخذ اللّه ميثاق النبيّين و أشهدهم على أنفسهم، ألستُ بربّكم قالوا بلىٰ! فكنت أنا أوّل نبيّ قال، بلىٰ فسبقتهم بالإقرار باللّه إنتهىٰ.

و في كتاب علل الشّرائع بأسناده عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ أخذ ميثاق العباد و هم أظلّة قبل الميلاد فما تعارف من الأرواح إئتلف تناكر منها إختلف إنتهىٰ.

و بأسناده عن زرارة قال: سئلت أبا جعفر عليه السلام عن قول اللّه عزّوجلّ: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ اٰدَمَ قال عليه السلام ثبتت المعرفة و نسوا الوقت و سيذكرونه يوماً و لولا ذلك لم يدر أحد من خالقه و من رازقه إنتهىٰ.

والأحاديث بهذا المضمون كثيرة و فيما ذكرناه كفاية[1].

أقول الإنصاف أنّ الآية الشّريفة من مشكلات الأيات كما اعترف به العلماء من المفسّرين من العامّة و الخاصّة، و أمّا الأخبار الواردة في الباب مع كثرتها أيضاً من المشكلات كما عرفت وجه الإشكال هو أنّ ظاهر الآية يدّل على إثبات عالم الذرّ و الأخبار أيضاً ناطقة به و حيث أنّ عقولنا عاجزة عن درك هذه الأمور لأنّ اللّه تعالىٰ قال: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**[2] ترىٰ المُفسّرين تشبثوا في حلّ معضلات الآية بأنواع التاويلات الباردة و الإستخراجات الظّنية الّتي لا يمكن الإعتماد عليها عقلاً و نقلاً و أصل الإشكال هو أنّ اللّه تعالىٰ كيف أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم الآية و المفروض عدم وجودهم و من لا وجود له لا عقل له و لا سمع له و هكذا و من لا يعقل و لا يسمع و لا يفهم فكيف يَصير مخاطباً بالخطاب ثمّ كيف يقول، بلىٰ في جواب قوله، أَلَستُ بِربّكم، فهذا هو الّذي صيّرهم أي المفسّرين حيارى حتّىٰ لا يدرون ما يقولون، قال السّيد المرتضىٰ رحمه الله في آماليه ما هذا لفظه قال اللّه تعالىٰ و إذ أخذ

۱- نُور الثّقلين، ج ۲ ص ۹۵ و ص ۹۶
۲- الاسراء = ۸۵

ربّك من بني آدم الىٰ قوله: **أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ** و قد ظَنَّ بعض من لا بصيرة له و لا فِطنة عنده أنّ تأويل هذه الآية أنّ اللّه تعالىٰ إستخرج من ظهور آدم عليه‌السلام جميع ذرّيته و هم في خلق الذّر فقرّرهم بمعرفته و أشهدهم علىٰ أنفسهم و هذا التّأويل مع أنّ العقل يبطله و يحيله ممّا يشهد ظاهر القرآن بخلافه لأنّ اللّه تعالىٰ قال: **وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ** وَلَم يقل من آدم و قال من ظهورهم و لم يقل من ظهره ذرّيتهم و لم يقل ذُرّيته ثمّ أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئّلا يقولا يوم القيامة أنّهم كانوا عن ذلك غافلين أو يعتذروا بِشرك آبائهم و أنّهم نشئوا علىٰ دينهم و سنّتهم يقتضي أنّ الآية لَم تتناول ولد آدم لصلبه و أنّها إنّما تناولت مِن كان له آباء مشركون و هذا يدّل علىٰ إختصاصها ببعض الذّرية من من بني آدم فهذه شهادة الظّاهر ببطلان.

تأويلهم فأمّا شهادة العقول فَمِن حيث لا تخلوا هذه الذُّرية الّتي إستخرجت من ظهور آدم فخوطبت و قرّرت من أن تكون كاملة العقول مستوفيةً لشروط التّكليف أو لا تكون كذلك فأن كانت بالصّفة الأولىٰ وجب أن يذكر هٰؤلاء بعد خَلقهم و إنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال و ما قررّوا به و أستشهدوا عليه لأنّ العاقل لا ينسى ما جرىٰ هذا المجرىٰ و أن بعد العهد وطال الزّمان و لهذا لا يجوز أن يتصرّف أحدنا في بلدٍ من البلدان و هو عاقلٌ كامل فينسى مع بعد العهد جميع تصرّفه المتقدّم و سائر أحواله و ليس أيضاً لتخلّل الموت بين الحالين تأثير لأنّه لو كان تخلّل الموت يزيل الذّكر لكان تخلّل النّوم و السّكر و الجنون و الإغماء بين أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم لأنّ سائر ما عددناه ممّا ينفي العلوم يجري مجري الموت في هذا الباب وليس لهم أن يقولوا إذا جاز في العاقل الكامل أن ينسىٰ ماكان عليه في حال الطّفولية جاز ما ذكرناه و ذلك إنّا إنّما أوجبنا ذكر العقلاء لما أدّعوه إذاكملت عقولهم من حيث جرى لهم و هم كاملوا العقول و لو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم يوجب عليهم ما أوجبناه على أنّ تجويز

النّسيان عليهم ينقض الغرض في الآية و ذلك أنّ اللّه تعالىٰ أخبر بأنّه إنّما قرّرهم و أشهدهم لئّلا يدّعوا يوم القيامة الغفلة عن ذلك و سقوط الحجّة عنهم فيه فإذا جاز نسيانهم له عاد الأمر الىٰ سقوط الحجّة و زوالها و أن كانوا على الصفّة الثّانية من فقد العقل و شرائط التّكليف قبح خطابهم و تقريرهم و إشهادهم و صار ذلك عبثاً قبيحاً.

يتعالىٰ اللّه عنه، فأن قيل قد أبطلتم تأويل مخالفيكم فما تأويلها الصّحيح عندكم.

قُلنا في هذه الآية وجهان:

أحدهما: أن يكون تعالىٰ إنّما عني جماعةً من ذرّية بني آدم عليه السلام خلقهم و بلّغهم و أكمل عقولهم و قرّرهم علىٰ ألسن رسله عليهم السّلام بمعرفته و ما يجب من طاعته فأقّروا بذلك و أشهدهم على أنفسهم به لئّلا يقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين أو يعتذروا بشرك آبائهم و إنّما أتي من أشتبه عليه تأويل الآية من حيث ظّن أنّ إسم الذُّرية لا يقع إلاّ علىٰ من لم يكن عقلاً (عاقلاً) و ليس الأمر كما ظنّ إنّا نسّمي جميع البشر بأنّهم ذرّية آدم و أن دخل فيهم العقلاء الكاملون.

و قد قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنٰا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنّٰاتِ عَدْنٍ اَلَّتي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ اٰبٰآئِهِمْ وَ أَزْواٰجِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ**[1].

و لفظ الصّالح لا يطلق إلاّ علىٰ من كان كاملاً عاقلاً فأن استبعدوا تأويلنا و حملنا الآية علىٰ البالغين المكلّفين فهذا جوابهم.

والجواب الثّاني: أنّه تعالىٰ لمّا خلقهم وركبهم تركيباً يدّل على معرفته و يشهد بقدرته و وجوب عبادته و أراهم العبر و الأيات والدّلائل في أنفسهم غيرهم كان بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم وكانوا في مشاهدة ذلك و معرفته و ظهوره فيهم على الوجه الّذي أراده تعالىٰ و تعذّر إمتناعهم منه و إنفكاكهم

١- غافر = ٨

من دلالته بمنزلة المقرّ المعترف وأن لم يكن هناك إشهاد و لا إعتراف على الحقيقة و يجري ذلك مجرىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ**(١).

و أن لم يكن منه تعالىٰ قول الحقيقة و لا منهما جواب و مثله قوله تعالىٰ: **شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ**(٢)

و نحن نعلم أنّ الكفّار لم يعترفوا بالكفر بألسنتهم و أنّما ظهر منهم ظهوراً لا يتمكّنون من دفعه كانوا بمنزلة المعترفين به و مثل هذا قولهم جوارحي تشهد بنعمتك، و حالي معترفة بإحسانك.

و ما روي عن بعض الخطباء سل الأرض من شقّ أنهارك و غرس أشجارك و جنى ثمارك فأن لم تجبك حوراً أجابتك إعتباراً و هذا باب كبيرٌ و له نظائر كثيرة في النّظم و النّثر يغني عن ذكر جميعها القدر الّذي ذكرناه منها انتهى كلامه رفع مقامه الأمالي(٣).

أقول ما ذكره قدس سره صريحٌ في إنكاره عالم الذّر على ما فسّره الجمهور و حيث إنّجر الكلام الى هنا لا بأس ينقل ما أفاده الفيض قدس سره في تفسيره الصّافي في هذا المقام.

قال قدس سره **وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** وقُرأ ذرّياتهم، أخرج من أصلابهم نسلهم علىٰ ما يتوالدون قرناً بعد قرنٍ يعني نشر حقائقهم بين يدي علمه فأستنطق الحقائق بألسنة قابلّيات جواهرها و ألسن إستعداد ذواتها، **وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ** أي و نصب لهم دلائل ربّوبيته و ركب في عقولهم ما يدعوهم الىٰ الإقرار بها حتّى صاروابمنزلة الأشهاد على طريق التّمثيل نظير ذلك قوله عزّ وجلّ:

١- فصّلت = ١١ ٢- التّوبة = ١٧

٣- ج ١ص ٢٨

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[١].

و قوله تعالى: **فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ**[٢].

و معلوم أنّه لا قول ثمّة و أنّما هو تمثيل و تصوير للمعنىٰ و ذلك حين كانت أنفسهم في أصلاب آباءهم العقّلية و معادنهم الأصّلية يعني شاهدهم و هم على رقائق في تلك الحقائق و عبّر عن تلك الآباء بالظّهور لأنّ كل واحدٍ منهم ظهروا فظهر لطائفة من النّفوس أو ظاهر عنده لكونه صورة عقلية نوّرية ظاهرة بذاتها، و أشهدهم على أنفسهم، أي أعطاهم في تلك النشّأة العّقلية و هويّاتهم النّورية فكانوا بتلك القوى العقلية يسمعون خطاب، **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** كما يسمعون الخطاب في دار الدّنيا بهذه القوىٰ البدّنية و قالوا بألسنة تلك العقول بلىٰ أنت ربّنا، الّذي أعطيتنا وجوداً قدسّياً ربّانياً سمعنا كلامك و أجبنا خطابك و لا يبعد أيضاً أن يكون ذلك النّطق باللّسان الملكوتي في عالم المثالي الّذي دون عالم العقل فأنّ لكلّ شيءٍ ملكوتاً في هذا العالم (ذلك العالم) كما أشير اليه.

بقوله سبحانه: **فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**[٣] و الملكوت باطن الملك و هو كلّه حياة و لكلّ ذرّةٍ لسان ملّكوتي ناطق بالتّسبيح و التّمجيد و التّوحيد و التّحميد و بهذا اللّسان نطق الحصى في كفّ النّبي و به تنطق الأرض يوم القيامة يومئذٍ تحدّث أخبارها و به تنطق الجوارح أنطقنا اللّه الّذي أنطق كلّ شّيءٍ انتهىٰ كلامه.

اقول و أنت ترى أنّ هذه الكلمات و التّأويلات لا يمكن الإعتماد عليها في تفسير كلام اللّه و بالجملة فالكلمات و التّأويلات حول الآية كثيرة جدّاً من

١- النحل = ٤٠
٢- الفصلت = ١١
٣- يس = ٨٢

العّامة و الخاصّة وليس ذلك إلاّ لقصور الفهم و الإدراك و نقصان العقل عن درك حقيقة كلامه تعالىٰ و أنّه تعالىٰ ما أراد بكلامه هذا فالأحسن و ارجاع علمه اليه و الإقرار و الإعتراف بالجهل في المقام و أمثاله فأنّه أنفع لنا في ديننا و دنيانا.

قد قال اللّه تعالىٰ: **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**[1].

أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ أي أنّا أخذنا من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم الخ.

لئّلا يقولوا يوم القيامة أنّا كنّا عن هذا غافلين، أو يقولوا **إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ** و محصّل الكلام هو أن الحجّة قد تمّت عليهم فلا مجال لهم بعدها أن يقولوا كذا وكذا و فى قوله: **أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ** إشارة الىٰ أنّ الذّرية حيث أخذوا الشّرك من آباءهم المشركين، فيقولون لا ذنب لنا لأنّ الآباء أسسّوا الشّرك و الكفر فالذّنب عليهم لا علينا.

والجواب أنّا أخذنا منكم العهود و المواثيق بالتّوحيد قبل الخلق لئّلا تقولوا لا ذنب لنا فالآية تدّل على أنّه قد كان قبلهم آباء مبطلون وكانوا هم بعدهم فقد بيَّن فيها أنّ هؤلاء الّذين أقرّوا بمعرفة اللّه و أخذ ميثاقهم بذلك كان قد سلف لهم في الشِّرك آباء فصّح بذلك أنّهم قومٌ مخصوصون من أولاد آدم جميعهم **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** أي غرضنا من تفصيل الأيات و تمييز بعضها من بعضٍ هو توبتهم و رجوعهم عن معاصيهم الى طاعته و من الكفر الىٰ الايمان به.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ

١- البقرة = ٢٨٦

هذا خطاب من اللّه تعالىٰ لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يأمره بأن يقرأ على بني إسرائيل و غيرهم من أمّته بناء الّذي أتاه اللّه حججه فأنسلخ و أعرض منها فأتبعه الشّيطان وكان من الخائنين الخاسرين في الدّنيا و الأخرة.

و أختلفوا في المراد بالموصول و أنّه، من هو، فقيل أنّه بلعم بن باعور من بني إسرائيل وقالوا معنىٰ أنسلخ، ما نزع منه من العلم.

و قيل أنّه أميّة بن أبي الصّلت و عليه فالآية نزلت فيه، و قيل بلعم بن باعور، و قيل هو رجل من الكنّعانيين.

و قيل لم يرد به شخص خاّص بل هذا مثل ضربه للكافر أتاه اللّه آيات دينه فأنسلخ منها، أي أعرض منها و تركها.

و قال الجبائي أراد به المرتّد الّذي كان اللّه أتاه العلم به و بآياته فكفر به وبها و بدينه من بعد أن كان به عارفاً فأنسلخ بذلك من العلم والإيمان.

أقول قال الشّيخ في التّبيان بعد نقله ما نقلناه عنه من الأقوال والوجه الّذي قاله الحسن يلٰيق بمذهبنا دون الّذي قاله الجبائي لأنّ عندنا لا يجوز أن يرتّد المؤمن الّذي عرف اللّه علىٰ وجهٍ يستحقّ به الثّواب انتهىٰ.

أقول مراده بما قاله الحسن هو أنّه لم يرد به شخص خاّص بل هذا مثل ضربه للكافر أتاه اللّه آيات دينه فأنسلخ و أعرض عنها.

و نحن نقول ما ذكره الحسن و أن كان أوفق بالمذهب بل و بسياق الكلام أيضاً إلاّ أنّ قول الجبائي أيضاً لا بأس به وقول الشّيخ لا يجوز أن يرتّد المؤمن الخ.

لا نفهم معناه، فأن أراد بعدم الجواز عدمه عقلاً بمعنى عدم إمكانه فهو في حَيّز المنع لأنّه أمرٌ ممكنٌ لا إشكال فيه فمن قال بعدم إمكانه أو عدم جوازه عقلاً لابدّ له من إقامة الدّليل عليه و إذ ليس فليس.

و أن أراد بعدم الجواز عدمه شرعاً و نقلاً فهو أيضاً ممّا لا دليل عليه و ذلك لأنّ المؤمن الّذي عرف اللّه و يستحقّ به الثّواب لا يجوز الإرتداد له ما دام كونه مؤمناً لإستحالة إجتماع الايمان و الكفر معاً.

و أمّا الإرتداد بمعنى خروجه عن الإيمان الّذي كان واجداً له فلا إشكال فيه عقلاً و شرعاً كما هو شأن الإيمان المستعار و لولا جواز ذلك لزم أن يكون المرتّد غير المؤمن دائماً و من كان كذلك فهو فاسق و لازم ذلك إختصاص الإرتداد بالفسّاق و هو بعيدٌ و مع ذلك كلّه فالحقّ أنّ المراد بالموصول أعني به (الّذي) هو شخص خاّص سواء كان من بني إسرائيل كما هو مقتضى سياق الآية أم من غير بني إسرائيل و ذلك لأنّه لو كان المراد ما قاله الحسن للزم أن يقال و أتلُ عليهم نبأ الّذين آتيناهم آياتنا بصيغة الجمع لأنّ الحكم يشمل جميع المعرضين ملا وجه الأتيان الموصول بصيغة المفرد و بعبارةٍ أخرى أن أريد بالآية شخصٌ خاّص فهو المطلوب و أنّ أريد بها المثل الّذي ضربه للكافر كما ذهب اليه الحسن فلا معنى لأفراد الموصول اللّهم إلاّ أن يراد به الجنس الّذي يشمل الفرد والأفراد واللّه أعلم بكلامه.

و أمّا قوله: **فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ** فمن قرأ بالتّخفيف جعل اللّفظ من الأتباع من إتبع إتباعاً و من قرأ بالتشدّيد جعله من الأتباع من باب الأفتعال فأن قلنا بأنّ التّخفيف و التشدّيد لغتان فالمعنىٰ فيها واحد.

و قال بعضهم، أن قلنا بالتّخفيف فمعناه، قفاه، و بالتّشديد معناه حذا حذوه قال صاحب الكشّاف، فأتبعه، أي لحقه الشّيطان و أدركه و صار قريناً له أو فأتبعه خطواته و قرئ فأتبعه بمعنىٰ فتبعه انتهى.

قال بعضهم بينهما فرق و هو أنّ تبعه إذا مشىٰ في أثره و أتبعه إذا و اراه مشياً.

وأنا أقول الظّاهر أنّ الأتّباع مشدّداً معناه غير الأتباع مخفّفاً، فعلىٰ القول بالتّشديد معناه صار الشّيطان تابعاً له كما هو معنى المتابعة علىٰ الثّاني معناه، أنّ الشّيطان جعله تابعاً لنفسه فصار من أتباع الشّيطان.

فَعَلىٰ الأوّل: هو فاعل، كان، أي فكان هُو، أي الّذي آتيناه الخ من الغاوين الضّالين.

علىٰ الثّاني: فالفاعل هو الشّيطان أي فكان الشّيطان من الغاوين، و الإحتمال الثّاني أقوىٰ من الأوّل، لأنّ الشّيطان دائماً يكون إماماً للغاوين لا مأموماً لهم فالمعنى جعله الشّيطان من أتباعه أي من أعوانه و أنصاره فصار إماماً له في الغواية.

في تفسير العياشي عن سليمان اللّبان قال: قال أبو جعفر عليه‌السلام: أتدري ما مثل المغيرة بن شعبة قال قلت لا قال عليه‌السلام مثله مثل بلعم الّذي أوتي الأسم الأعظم قال اللّه، ٱلَّذِيٓ قال اللّه، ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا.

و عنه عليه‌السلام قال: الأصل في ذلك بلعم ثمّ ضربه اللّه مثلاً لكلّ مؤثّرٍ هواه على هدى اللّه من أهل القبلة.

و في تفسير علّي إبن إبراهيم بأسناده عن أبي الحسن الرَّضا عليه‌السلام أنّه أعطي بلعم بن باعور الأسم الأعظم فكان يدعوا به فيستجيب له فمال الى فرعون في طلب موسى و أصحابه قال فرعون لبلعم أدع للّه على موسى عليه‌السلام و أصحابه ليحبسه علينا فركب حمارته ليمير في طلب موسى فأمتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها اللّه عزّ و جلّ فقالت ويلك على ماذا تضربني أتريد أن أجئ معك لتدعوا على نبّي اللّه و قوم مؤمنين فلم يزل يضربها حتّى قتلها و أنسلخ الأسم من لسانه و هو قوله تعالى: فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ[1].

وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَ لَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ١٠٢

إختلفوا في المشّية فقال الجبائي معناها، لو شئنا لرفعناه بإيمانه و معرفته قبل أن يكفر لكن أبقيناه ليزداد الإيمان، فكفر.

و قال البلخي هذا إخبارٌ عن قدرته أنّه لو شاء لحال بينه و بين الكفر و الإرتداد.

و قال الزّمخشري في الكشّاف معنى الكلام، لو شئنا لعظّمناه و رفعناه الى منازل الأبرار من العلماء بتلك الأيات، وكيف كان فالضّمير في قوله: **بِهٰا** يرجع الىٰ الأيات و الباء للسّببية أي لو شئنا لرفعناه قدره و مقامه بسبب الأيات الّتي آتيناه، و لكنّه أخلد الى الأرض، أي سكن بها و ركن اليها و قيل مال الى الدّنيا و رغب فيها ولم يسم الى الغرض الأعلى، و المقصود أنّه لم يعرف قدره و منزلته فسكن الى لذّات الدّنيا و أتبع هواه و باع آخرته بدنياه و هذا معنى الخلود الى الأرض.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ

قيل في معنى الكلام أنّ اللّه شبّهه بالكلب في تركه الأيات و العدول عنها لأنّ كلّ شئ يلهث فأنّما يلهث في حال الأعياء و الكلال إلاّ الكلب فأنّه يلهث في حال الرّاحة و التّعب و حال الصّحة و حال المرض و حال الرَّي و حال العطش و جميع الأحوال فكأنّه تعالى قال إن وعظته فهو ضالّ و إن لم تعظه فهو ضالّ إن أغنيته فهو ضالّ و أن كان فقيراً فهو ضالّ في صحتّه ضالّ و فى مرضه ضالّ و بالجملة هو في جميع الأحوال ضالّ و هذا بعينه حال الكلب أن طردته و زجرته فأنّه يلهث و أن تركته أيضاً يلهث و هو مثل قوله تعالى: **وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدٰى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوٰآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ** [1] و الى هذا المعنى أشار بقوله: **ذٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا** أي أنّ ما ذكرناه و أشرنا اليه لا يختّص بشخصٍ خاصّ مثل بلعم بن باعور و أمثاله بل يشمل جميع المكذّبين، و المستهزئين بأياتنا فإنّ حكم الأمثال واحد.

١- الأعراف = ١٩٣

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أي أذكر يا محمّد هذه القصص للنّاس لعلّهم يتّفكرون فيها و يتّعظون بها فأنّ من لم يتّفكر لم يتّعظ فقد خسر خسراناً مبيناً.

و إعلم أنّ هذه الآية من أحسن المواعظ لمن تدّبر فيها، و نحن نشير الى شطرٍ منها:

الأُولىٰ: أنّ الإنسان بحسب مقام ذاته قابلٌ للتّرقي و التكامل الى أرفع المقامات و أبلغ الغايات و الى هذا المعنى أشير بقوله: **وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ** تقريب الإستدلال أنّ ترفيع المقام متّرتبٌ و موقوفٌ على القابلّية فمن لم يكن قابلاً له لا يمكن ترفيعه لأنّ القابليّة في المعلول شرطٌ في تأثير العلّة فيه.

و أمّا قوله: **وَ لَوْ شِئْنَا** ففيه إشارة الى مقام الفاعليّة و العليّة و المقصود أنّ الرّافع هو اللّه تعالى و هو ممّا لا كلام فيه.

الثّانية: أنّ قوله تعالى: **بها** إشارة الى نكتته خفيّة و هى أنّ العلم و المعرفة باللّه من أسباب التّرفيع و اللّه تعالى قد أعطاه العلم و المعرفة، فالأسباب موجودة إلاّ أنّ الإنسان بسبب الإنغمار في الشّهوات النّفسانية يغفل عمّا أعطاه اللّه فيضيعه و يبطله فيسقط عن مقام الإنسانية و يدخل في زمرة الحيوانات.

ثالثها: الرّكون الى الدُّنيا و الإعتماد بها و الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ لٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ**.

رابعها: أنّ منشأ ذلك ليس إلاّ حبّ الدُّنيا قال رسول اللّه حبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة و منشأ حبّ الدُّنيا ليس إلاّ متابعة الهوى كما قال و إتّبع هواه.

خامسها: أنّ بعض النّاس مثلهم مثل الكلب و ذلك لأنّهم في جميع الحالات يلهثون، أي لا يقنعون بما أتاهم اللّه و لا يرضون بقضاءه و قدّره و أن شئت قلت غلب عليهم الحرص فلا يشبعون أبداً و لا يشكرون للّه تعالى أصلاً مع أنّهم مستغرقون في نعمه و لأجل هذا شبّههم اللّه بالكلب في حرصه و ولعه أعاذنا اللّه منه.

قال الرّازي في تفسيره ما هذا لفظه:

قال أهل المعاني المقصود منه بيان أنّ من أوتي الهدى فإنسلخ منه الى الضّلال و الهوىٰ و العمى و مال الى الدُّنيا حتّى تلاعب به الشّيطان كان منتهاه الى البوار و الرَّدى و خاب في الأخرة و الأولى فذكر اللّه قصّته ليحذّر النّاس عن مثل حالته.

و قوله: **وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بها** قال أصحابنا معناه للعمل بها فكان يرفع بواسطة تلك الأعمال الصّالحة منزلته، و لفظة، لو، تدّل على إنتفاء الشّيئ لإنتفاء غيره فهذا يدلّ على أنّه تعالى قد لا يريد الإيمان و قد يريد الكفر انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول قوله: أنّ اللّه قد يريد الإيمان و قد يريد الكفر، كفرٌ محض و ذلك لأنّ اللّه لا يريد الكفر أبداً اذ لو كان مريداً فلم بعث أنبياءه و رسله، و المعنى لو شئنا لرفعناه بأن نحول بينه و بين الكفر قهراً و جبراً إلاّ أنّ ذلك ينافي التّكليف فلا جرم تركناه مع إختياره و أنّما قلنا ذلك لأنّه لا كلام لأحدٍ في أنّه تعالى يقدر على كلّ شيئٍ إلاّ أنّ البحث في الوقوع لا في القدرة اذ لا يقول العاقل أنّ اللّه تعالى لا يقدرّ على أن يخلق الإنسان كافراً ملحداً لا يقبل الإيمان أصلاً أو يجعله كذلك، لأنّه تعالى فعّال لما يشاء و هو على كلّ شيئٍ قدير.

و أنّما الكلام في وقوعه و أنّه هل يجوز عقلاً خلقه كذلك مسلوباً عنه الإختيار، في دائرة التّكليف أو لا يجوز اذا المكّلف المجبور في فعله لا يكون مسؤلاً يوم القيامة عقلاً لأنّه ظلم و هو تعالى منّزهٌ عنه و هذه النكتته هي التّي دعتنا الى الأمر بين الأمرين.

قال بعض المفسّرين و هذه الآية من أشّد الأيات على أصحاب العلم لأنّه تعالى بعد أن خصَّ هذا الرّجل بأياته و بيناته و علّمه الإسم الأعظم و خصّه بالدَّعوات المستجابة لمّا إتَّبع الهوى إنسلخ من الدّين و صار في درجة الكلب و ذلك يدلّ على أنّ كلّ من كانت نعم اللّه في حقّه أكثر فاذا أعرض عن متابعة الهدى (الهدى) و أقبل على متابعة الهوى كان بعده عن اللّه أعظم و اليه

الإشارة بقوله عليه السلام من إزدادا علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من اللّه إلاّ بعداً كما قال تعالىٰ: **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**

قال اللّيث، اللهث هو أنّ الكلب اذا ناله الإعياء عند شدّة العدو عند شدّة الحرّ فأنّه يدلع لسانه من العطش.

و إعلم أنّ هذا التّمثيل ما وقع بجميع الكلاب و أنّما وقع بالكلب اللاّهث و أخسّ الحيوانات هو الكلب و أخسّ الكلاب هو الكلب اللاّهث فمن أتاه اللّه العلم و الدّين فمال الى الدُّنيا و أخلد الى الأرض كان مشبّهاً بأخسّ الحيوانات الكلب اللاّهث و فى تقرير هذا التّمثيل وجوه:

الأوّل: أنّ كلّ شيئ يلهث فأنّما يلهث من إعياء أو عطش إلاّ الكلب اللاّهث فأنّه يلهث في حال الإعياء و الرّاحة و فى حال العطش و الرّي فكان ذلك عادة منه و طبيعة و هو مواظب عليه كعادته الأصلّية و طبيعته الخسيسة لا لأجل حاجةٍ و ضرورةٍ فكذلك من أتاه العلم و الدّين و أغناه عن التّعرض لأوساخ أموال النّاس ثمّ أنّه يميل الى طلب الدّنيا و يلقي نفسه فيها كانت حاله كحال ذلك اللاّهث حيث واظب على العمل الخسيس و الفعل القبيح لمجّرد نفسه الخبيثة و طبيعته الخسيسة لا لأجل الحاجة و الضّرورة.

الثّانى: أنّ الرّجل العالم اذا توّسل بعلمه الى طلب الدّنيا فذاك أنّما يكون لأجل أنّه يورد عليهم أنواع علومه و يظهر عندهم فضائل نفسه و مناقبها و لا شكّ أنّ عند ذكر تلك الكلمات و تقرير تلك العبارات يدلع لسانه و يخرجه لأجل ما تّمّكن في قلبه من حرارة الحرص و شدّج العطش الى الفوز بالدّنيا فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الّذي أخرج لسانه أبداً من غير حاجةٍ و لا ضرورةٍ بل بمجّرد الطّبيعة الخسيسة.

الثّالث: أنّ الكلب اللاّهث لا يزال لهثه البتّة فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البتّة انتهى كلامه.

أقول في تفسير الكلام بحثٌ واسع لولا مخافة الإطالة.

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولٰٓئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَ لِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنٰى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَ مِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسٰىٓ أَنْ يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسٰيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً

يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿۱۸۷﴾

◁ اللّغة

ذَرَأْنَا، الذَّر الخلق أي خلقنا.

لِجَهَنَّمَ اللاّم لام العاقبة.

قُلُوبٌ جمع قلب سمّي بن لتّقلبه و تّطوره.

أَعْيُنٌ جمع عَين.

آذانٌ جمع أُذُن.

ذَرُوا أي إتركوا.

يُلْحِدُونَ، الإلحاد العدول عن الإستقامة و الإنحراف عنها.

يَعْدِلُونَ مأخوذ من العدل أي يعملون بالعدل و الإنصاف.

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ، الإستدراج أن تدرج الى الشّئ في خفيّة قليلاً قليلاً و لا تهجم عليه و أصله من الدّرجة و ذلك لأنّ الرّاقي و النّازل يرقى و ينزل مرقاة مرقاً.

أُمْلي، الإملاء التّأخير أي أؤخّرهم.

جِنَّةٍ بكسر الجيم و هى الجنون.

يَذَرُهُمْ أي يتركهم.

يَعْمَهُونَ العمة التّحير و التّردد في الكفر.

مُرْسٰيهٰا يقال أرساها اللّه أي ثبّتها، رَسِي يرسُوا اذا ثبت.

بَغْتَةً أي غفلة و فجأةً.

حَفِيٌّ يقال أحفى فلان بفلان في المسألة اذا أكثر عليه.

◁ الإعراب

سَآءَ هو بمعنى بئس و فاعله مغمر أي ساء المثل مَثَلًا مفسر ٱلْقَوْمُ أي مثل القوم قيل لابُّد من هذا التّقدير لأنّ المخصوص بالذّم من جنس فاعل بئس و الفاعل المثل و القوم ليس من جنس المثل فلزم أن يكون التّقدير مثل القوم فحذفه و أقام القوم مقامه لِجَهَنَّمَ يجوز أن يتعّلق بذرأنا و أن يتعلّق بمحذوف على أن يكون حالاً من كثير أي كثيراً لجهنّم مِنَ ٱلْجِنِّ نعتٌ لكثير وكذلك لَهُمْ قُلُوبٌ نعتٌ له ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ الحسنى صفة مفردة لموصوف مجموع و أنّثت لتأنيث الجمع يُلْحِدُونَ بضّم الياء وكسر الحاء و ماضيه الحَدَ و بفتح الياء و الحاء و ماضيه لَحَد و هما لغتان وَ مِمَّنْ خَلَقْنَآ نكرة موصوفة أو بمعنى، الّذي، وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا مبتدأ و سَنَسْتَدْرِجُهُمْ الخبر و أُمْلِي خبر مبتدأ محذوف أي و أنا أملي و يجوز أن يكون معطوفاً على نستدرج و أن يكون مستأنفاً مَا بِصَاحِبِهِمْ في، ما، وجهان:

أحدهما: نافية و فى الكلام حذف تقديره أولم يتفكّروا في قولهم به جنّة.

والثّانى: أنّها إستفهام أي أولم يتفكّروا أيّ شيٍْ بصاحبهم من الجنون.

أَنْ عَسَىٰٓ يجوز أن تكون المخفّفة من الثّقيلة و يجوز أن تكون مصدّرية و على كلا الوجهين هي في موضع جرٍّ عطفاً على ملكوت أَنْ يَكُونَ فاعل عسىإسم، يكون، مضمرٌ فيها و هو ضمير الشّأن قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ في موضع نصب خبر كان فَلاَ هَادِيَ في موضع جزم على جواب الشّرط وَيَذَرُهُمْ يقرأ بالرّفع على الإستئناف و الجزم عطفاً على موضع، فلا هادي، أَيَّانَ إسمٌ مبنيّ لتّضمنه حرف الإستهفام بمعنى، متى، و هو خبر لقوله مُرْسَىٰهَا و الجملة في موضع جّرٍ بدلاً من السّاعة تقديره يسئلونك عن زمان حلول السّاعة إِنَّمَا عِلْمُهَا المصدر مضاف الى المفعول و هو مبتدأ و إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الخبر كَأَنَّكَ حال من المفعول و حفّي بمعنى محفّو و يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل.

حَفِيٌّ فيه وجهان:

أحدهما: تقديره يسألونك عنها كأنّك حفّي.

الثّانى: أنّ، عن، بمعنى الباء أي حفّيٌ بها.

◁ التّفسير

سَآءَ مَثَلًا و التّقدير ساء مثلاً مثل القوم و حذف لدلالة الكلام عليه و ذلك فأنّ ساء بمعنى بئس و أصلها التّعدي تقول سائني الشّئ يسوؤني ثمّ لمّا أستعملت إستعمال بئس بنيت على فعل و جرت عليها أحكام بئس و قوله: **مَثَلًا** تمييز للضّمير المستكن في ساء فاعلاً و هو مفسر بهذا التّمييز و هو من الضّمائر الّتي يفسرها ما بعدها و لا يثّنى و لا يجمع على مذهب البصّريين و لابّد أن يكون المخصوص بالذّم من جنس التّمييز فأحتجّ الى تقدير محذوف، أمّا في التّمييز أي ساء أصحاب مثل القوم و أمّا في المخصوص أي ساء مثلاً مثل القوم و هذه الجملة موكدةٌ للجملة السابقة قال بعض المفسّرين ظاهره يقتضي أن يكون ذلك المثل موصوفاً بالسُّوء و ذلك غير جائزٍ لأنّ هذا المثل ذكره اللّه تعالى فكيف يكون موصوفاً بالسُّوء فوجب أن يكون الموصوف بالسُّوء ما أفاده المثل من تكذيبهم بآيات اللّه و إعراضهم عنها حتّى صاروا في التمثيل بمنزلة الكلب اللاّهث إنتهى.

أقول ما ذكره يتّم نبأ على أن تكون الآية مربوطة بما قبلها بأن يكون المراد بالقوم قوم بني إسرائيل و أمّا أن كان المراد بالآية بيان حكم كلّي و هو أنّ المكذّبين بآيات اللّه حكمهم كذا وكذا فلا نحتاج الى هذه التكّلّفات و هذا هو الحّق و ذلك لأنّ اللّه تعالى أشار في الأيات السّابقة أنّ قوم بني إسرائيل ومنهم بلعم بن باعور فعلوا ما فعلوا و قالوا ما قالوا فمنهم من آمن و أستدام على إيمانه و منهم من كفر و أعرض عن الإيمان ثمّ أنّ اللّه تعالى بيّن في هذه الآية و ما بعدها أنّ المكذّب لا يظلم إلاّ على نفسه كما أنّ المهتدي على عكس ذلك

و لا شكّ أنّ هذا من الأحكام الكلّية الّتي لا تختّص بقومٍ دون قوم و هو واضحٌ و عليه فمعنى الآية بئس مثل القوم، الّذين كذّبوا بآياتنا و ذلك لأنّ ضرر التّكذيب يرجع عليهم لأنّ اللّه تعالى غنيّ عمّا سواه مطلقاً فلا تنفعه طاعة من أطاعه كما أنّه لا تضّره معصية من عصاه و اذا كان كذلك فمن كذّب بآيات اللّه بالإعراض عنها إعتقاداً و عملاً فلا يظلم إلاّ على نفسه و الى هذا أشار بقوله و أنفسهم كانوا يظلمون ثمّ قال: **مَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخٰاسِرُونَ**.

قالت الأشاعرة أنّ اللّه تعالى هو خالق الهداية و الضلال في العبد بمعنى أنّ العبد لا يقدر على خلافه فمن خلق اللّه الهداية فيه أي جعله كذلك لا يكون ضاّلاً أبداً و من خلق اللّه فيه الضّلال بالعكس و قد تكلّمنا في هذا المعنى غير مرّةٍ أنّه يستلزم الجبر المحال عقلاً و شرعاً و أمّا المعتزلة من أهل السُّنة فقالوا بخلاف ذلك.

قال الجبائي معنى الآية من يهديه اللّه الى نيل الثّواب كما يهدي المؤمن الى ذلك و الى دخول الجنّة فهو المهتدي للإيمان و الخير لأنّ المهتدي هو المؤمن فقد صار مهتدياً الى الإيمان و الى نيل الثّواب و من يضلله اللّه عن الجنّة و عن نيل ثوابها عقوبةً على كفره أو فسقه **فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخٰاسِرُونَ** لأنّهم خسروا الجنّة و نعيمها و خسروا أنفسهم و الإنتفاع بها.

و قال البلخي المهتدي هو الّذي هداه اللّه فقبل الهداية و أجاب اليها و الّذي أضّله اللّه الضالّ الّذي اختار الضّلالة فأضلّه اللّه بمعنى خلّى بينه وبين ما إختاره و ترك منعه بالخير على أنّه اذا ضّل عن أمر اللّه عند إمتحانه و تكليفه جاز أن يقال أنّ اللّه أضلّه.

و قال بعضهم معناه من يحكم اللّه بهدايته فهو المهتدي و من حكم بضلالته فهو الخائب الخاسر.

و قال الرّازي بعد ما ذكر قول الجبائي و غيره من المعتزلة ما هذا لفظه:

و إعلم أنّا قد بيّنا أنّ الدّلائل العقليّة القاطعة قد دلّت على أنّ الهداية و الإضلال لا يكونان إلاّ من اللّه من وجوهٍ:

الأوّل: أنّ الفعل يتّوقف على حصول الدّاعي ليس إلاّ من اللّه فالفعل ليس إلاّ من اللّه.

الثّاني: أنّ خلاف معلوم اللّه ممتنع الوقوع فمن علم اللّه منه الإيمان لم يقدر على الكفر و بالضِّد.

الثّالث: أنّ كلّ أحدٍ يقصد حصول الإيمان و المعرفة فاذا حصل الكفر عقيبه علمنا أنّه ليس منه بل من غيره انتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا يرجع الى محصّل و لا يؤيّده العقل أصلاً.

و الجواب عن دليله الأوّل و هو أنّ الفعل يتّوقف على حصول الدّاعي و حصوله ليس إلاّ من اللّه فالفعل ليس إلاّ منه.

أمّا الأوّل: أنّ الفعل و إن كان متّوقفاً على حصول الدّاعي إلاّ أنّ توّقفه عليه ليس من قبيل توّقف المعلول على علّته التّامة بمعنى أنّه اذا وجد الفعل الدّاعی وجد الفعل لوجود الواسطة بين الدّاعي و الفعل و هی الإرادة أوّلاً و حركة العضلات ثانياً و لا شكّ أنّ الإرادة الجازمة على إيجاد الفعل لا تتّحقق إلاّ بعد إختيار الأصلح بحال الفاعل و هذا معلوم لا شكّ فيه و عليه فمجّرد حصول الدّاعي لا يكون علّة لوجود الفعل عن فاعله.

ثانياً: أنّ هذا الكلام منه ليس من الدّليل العقلّي بل هو بالسَّفسطة أشبه ضرورة أنّ اللّه تعالى خالق كلّ الأشياء و لازم ذلك أن يكون هو الفاعل في جميع الأفعال الصّادرة من العبد و عليه فالعبد لا يطيع اللّه و لا يعصيه و ذلك لأنّه تعالى خلقه و جعل فيه أسباب الطّاعة و العصيان فاذا نظر العبد الى الأجنبيّة ببصره الّذي خلقه اللّه فيه فهو لم يعص بل العاصي هو اللّه و هكذا الكلام في جميع الجوارح و الأعضاء و محصّل الكلام هو أنّ السَّبب غير العلّة

لأنّ السَّبب لا يلزم من وجوده المسَّبب نعم يلزم من عدمه عدمه و هذا بخلاف العلّة التّامة التّي يلزم من وجودها وجود المعلول و من عدمها عدمه و حصول الدّاعي في الإنسان من قبيل الأسباب لا من العلل الموجبة لإيجاد المعلول.

و الجواب عن دليله الثّاني و هو قوله، خلاف معلوم اللّه ممتنع الوقوع.

فنقول هو ممّا لا كلام لنا فيه إلاّ أنّ قوله فمن علم اللّه منه الإيمان لا يقدر على الكفر، مغالطة و ذلك لأنّ العلم الأزلي منه تعالى بوجود الإيمان أو الكفر في العبد لا يكون علّة لوجود الإيمان أو الكفر فيه بل معناه أنّه تعالى يعلم أنّ العبد بميله و إرادته و إختياره يكون مؤمناً أو كافراً و هذا من المقطوع به لأنّه تعالى عالم بكلّ الأشياء ظاهرها و باطنها، و ليس كلامنا فيه و أنّما البحث في أنّ العبد مختار في فعله أو غير مختار و العجب من الرّازي مع إدّعاءه التّوغل في العلوم العقليّة كيف يقول بهذه المقالة السخيفة الباطلة.

و الجواب عن دليله الثالث و هو أنّ كلّ أحدٍ يقصد حصول الإيمان و المعرفة فاذا حصل الكفر عقيبه علمنا أنّه ليس منه بل من غيره، هو أنّ حصول الكفر عقيبه ليس إلاّ منه قوله علمنا أنّه ليس منه بل من غيره يحتاج الى الإثبات لأنّ العبد قد يقصد الإيمان ثمّ يختار الكفر بعده و بالعكس.

فالكفر و الإيمان منه لا من غيره و بإختياره لا بإختيار غيره ألا ترى أنّ الإنسان قد يقصد شيئاً ثمّ ينصرف و يقصد شيئاً أخر و ذلك لأنّه اذا قصد لابدّ له من التّفكر فيما قصد هل هو بصلاحه أم لا و هذا هو الإختيار الذّي يكون بين القصد و الفعل فمن قصد و فعل ما قصد بدون التّأمل و التّفكر فهو سفيه فمن قصد الإيمان و علم أنّ الإيمان بصلاحه يؤمن لا محالة و من قصد الكفر كذلك إلاّ أنّه أصاب في إختياره في الإيمان و أخطأ في إختياره الكفر فالإيمان و الكُفر منه لا من غيره.

أن قلت كيف يعقل إختيار الكفر من العبد.

نقول دواعي الإختيار مختلفة فقد يكون الدّاعي و الباعث عليه حبّ الدُّنيا و قد يكون الدّاعي إلقاء الشّيطان الوسوسة في نفسه و قد يكون الدّاعي الحسد و أمثال ذلك وكيف كان لا شكّ أنّ الفعل بإختيار العبد و صادرٌ منه و هو المطلوب.

اذا عرفت هذا فنقول معنى الآية هو أنّ اللّه تعالى اذا أراد بعبدٍ خيراً يرشده و يهديه الى الحقّ بسبب أنبياءه و رسله و اذا لم يرد ذلك خلّى بين العبد و بين ما إختاره و هذا هو الضَّلال، لا بمعنى أنّ اللّه لا يرشده و لا يهديه بسبب أنبياءه بل بمعنى أنّ العبد لا يقبل الحقّ و من كان كذلك فلا محالة يقال ذرهم في خوضهم يلعبون.

و لازم ذلك هو الوقوع في الضّلال و أنّما نسب الإضلال الى نفسه لأنّه خلّى بينه و بين فعله، و صار هذا سبباً لوقوعه في الضّلال أعاذنا اللّه منه بحقّ محمّدٍ و أله.

لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ

الذَّرء بفتح الذّال و سكون الرّاء و الهَمزة مصدر بمعنى الخلق يقال ذرأ اللّه الخلق أي أوجد أشخاصهم و جهنّم، إسم لنار اللّه الموقدة قيل و أصلها فارّسي معرّب و هو جهنام و اللّه أعلم قاله الرّاغب في المفردات.

والجِنّ بكسر الجيم في الأصل ستر الشّيئ عن الحاسّة يقال جنّه اللّيل و أجنَّه فجنَّه ستره، و الإنس بكسر الألف خلاف الجنّ و جمع الإنس على أناسِّي، و المعنى و لقد خلقنا لجهنَّم كثيراً من الجنّ و الإنس، أي أنّهم يدخلونها لا محالة و يظهر من الآية أنّ الأجنبيّة أيضاً مكلّفون كالإنسان و ذلك لأنّ العقاب لا يكون إلاّ بعد التّكليف فمن لا تكليف له كالحيوان لا عقاب له في الأخرة و لا ثواب و حيث أنّ من شرائط صحّة التّكليف العقل فيعلم أنّ الجنّ من ذوي العقول و هو كذلك.

قال المفسّرون اللاّم لام العاقبة و الصّيرورة و ليست بلام الغرض و المعنى أنّه لمّا كانوا يصيرون اليها بسوء إختيارهم و قبح أعمالهم جاز أن يقال أنّه ذرأهم لها و الدليل عليه هو قوله: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا** الخ... فكأنّه قال أنّ عاقبة أمرهم إزدياد الإثم.

قال اللّه تعالى: **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا**[1].

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا**[2].

قال اللّه تعالى: **رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ**[3].

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ**[4].

قال اللّه تعالى: **لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ** الى قوله **لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**[5].

و أمثال ذلك من الأيات و قال الشّاعر:

لَـــه مَـــلَكٌ يـنادي كـلّ يـوم　　　لِدُوا للـــمَوت وأنـبُوا للـخراب

فأنّ اللاّم في الأيات المذكورة وكذا في الشِّعر للعاقبة أي مصيرهم الى هذا أو عاقبة أمرهم كذلك و قد أخطأ من قال أنّ اللاّم للغرض، لوجهين:

أحدهما: أنّ إرادة القبيح قبيحة و لا يجوز ذلك على اللّه فلو كانت اللاّم للغرض يصير معنى الكلام أنّا خلقناهم لهذا الغرض أي غرضنا و إرادتنا من خلق هؤلاء هو دخولهم في النّار و من المعلوم أنّ هذا الغرض قبيح في نفسه و ما كان قبيحاً فإرادته أيضاً قبيحة و اللّه تعالى منزّهٌ عن القبائح مطلقاً.

الوجه الثّاني: أنّ اللاّم اذا كان الغرض لكان الكفّار من الجنّ و الإنس مطيعين للّه لا محالة و ذلك لأنّهم فعلوا ما أراده و اذا كانوا كذلك فلا معنى لدخولهم النّار لأنّها للعاصين لا للمطيعين و هو ظاهرٌ هذا كلّه مضافاً الى قوله تعالى:

١- القصص = ٨
٢- أل عمران = ١٧٨
٣- يونس = ٨٨
٤- إبراهيم = ٣٠
٥- أل عمران = ١٥٦

وَ مٰا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْإِنْسَ إِلّٰا لِيَعْبُدُونِ[١].

قال الشّاعر:

وليس للإنسان إلاّ ما سَعىٰ — وكلّ ساعٍ سَعيه سَوف يُرىٰ

و محصّل الكلام في الآية هو أنّه تعالى خلق الخلق كلّهم إلاّ أنّ عاقبة كثير منهم تصير الى جهنّم بسوء إختيارهم من الكفر باللّه و إرتكاب معاصيه فلا نحتاج الى القلب بأن يقال تقدير الكلام و لقد ذرأنا جهنّم لكثيرٍ من الجنّ و الإنس، و ذلك لأنّ القلب لا يكون إلاّ في الشّعر وكلام اللّه منّزهٌ عنه مضافاً الىٰ أنّه خلاف الأصل و العقل و النّقل ثمّ أنّه تعالى لمّا قال ما قال كأنّه قائلٌ يقول لم كان كذلك أي لم يكون مصيرهم الى النّار.

لَهُمْ قُلُوبٌ لٰا يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لٰا يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لٰا يَسْمَعُونَ بِهٰآ أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغٰافِلُونَ

أي كأنّهم لم يفقهوا بقلوبهم و لم يبصروا بعيونهم ولم يسمعوا بأذانهم ما كانوا يؤمرون به كأنّهم صمّ بكمٌ عميٌ كما قال الشّاعر:

أعَمىٰ اذا ما جارتي خَرجت — حتّىٰ يُواري جارتي السَّتر

وأصَمَّ عمّا كان بينهما — سَمعي وما بي غيره وَقر

و من المعلوم أنّ من كان كذلك فهو حكم الأنعام فهو خارجٌ عن حدود الإنسانيّة تاركٌ للتكاليف الإلٰهيّة تابعٌ للشيّطان و الهواجس النّفسانية فلا جرم يكون مصيره الى النّار و في تشبيههم بالأنعام إشارة الى نكتته و هي أنّ الحيوان لا يهتّم إلاّ بالأكل و الشُّرب و هؤلاء أيضاً كذلك فأنّ من لا يتّفقه بقلبه و لا يعتبر بنظره يتّفكر بما يسمع فأيّ فرقٍ بينه و بين الحيوان و في قوله: **بَلْ هُمْ أَضَلُّ** إشارة الى أنّ هؤلاء الأشخاص من الجنّ و الإنس أضلَّ و أخسَّ من الحيوان.

١- الذاريات = ٥٦

أمّا أوّلاً: فلأنّ الحيوان لا عقل له.

ثانياً: أنّ الإنسان الموصوف بعدم التّفقه و التّفكر و الإعتبار يكون أضَّر و أخبث و أفسد من الحيوان قطعاً كما ترى في الكفّار و المنافقين و الظالمين و منشأ الكلّ هو الغفلة عمّا خلق الإنسان لأجله و الى هذا المعنى أشير بقوله تعالىٰ: **أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغٰافِلُونَ** أي غافلون عن أسرار الخلقة و أنّهم خلقوا للعبادة والطّاعة لا للطغيان و المعصية هذا.

قال بعض المفسرين يجوز أن يكون قوله تعالى: **ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ** معناه ميَّزنا يقال ذرأت الطّعام و الشّعير أي ميَّزت ذلك من التّين و المدر فلمّا كان اللّه قد ميَّز أهل النّار من أهل الجنّة في الدّنيا بالتّسمية و الحكم و الشّهادة جاز أن يقول ذرأناهم أي ميَّزناهم ثمّ وصفهم بصفةٍ تخالف أوصاف أهل الجنّة يعرفون بها فقال: **لَهُمْ قُلُوبٌ لٰا يَفْقَهُونَ بِهٰا** الى أخرها، و يجوز أن يكون قوله: **ذَرَأْنٰا** بمعنى سنذرأ، كما قال تعالى: **وَ نٰادىٰ أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحٰابَ ٱلنّٰارِ**(١) بمعنى سينادون، فكأنّه قال تعالى: سيخلقهم خلقاً ثانياً للنّار بأعمالهم التّي تقدّمت منهم في الدّنيا اذا كانوا إستّحقوا النّار بتلك الأعمال، و الحاصل أنّه لا يجوز خلقهم لجهنّم اذ لازم ذلك هو أن أراد منهم فعل المعصية ليدخلوا به النّار.

و قد قلنا أنّه غير معقول اذ كيف يعقل خلقهم لجهنّم:

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْمِيزٰانَ لِيَقُومَ ٱلنّٰاسُ بِالْقِسْطِ**(٢).

قال اللّه تعالى: **إِنّٰآ أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا،لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ**(٣).

و الأيات كثيرة و مع ذلك كلّه قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

١- الأعراف = ۴۴ ٢- الحديد = ٢۵

٣- الفتح = ٧ و ٨

هذه الآية هي الحجّة الثّانية في هذا الموضع على صحّة مذهبنا في مسألة خلق الأفعال و إرادة الكائنات و تقريره من وجوه:

الأوّل: أنّه تعالى بيّن باللّفظ الصّريح أنّه خلق كثيراً من الجنّ و الإنس لجهنّم و لا مزيد على بيان اللّه.

الثّاني: أنّه تعالى لمّا أخبر عنهم بأنّهم من أهل النّار فلو لم يكونوا من أهل النّار إنقلب علم اللّه جهلاً و خبره الصّدق كذباً وكلّ ذلك محال و المفضي الى المحال محال فعدم دخولهم في النّار محال و من علم كون الشّئ محالاً إمتنع أن يريده فثبت أنّه تعالى يمتنع أن يريد أن لا يدخلهم النّار بل يجب أن يريد أن يدخلهم في النّار و ذلك هو الذّي دلَّ عليه لفظ الأية.

الثّالث: أنّ القادر على الكفر أن لم يقدر على الإيمان فالّذي خلق فيه القدرة على الكفر فقد أراد أن يدخله في النّار و أن كان قادراً على الكفر و الإيمان معاً إمتنع رجحان أحد الطّرفين على الأخر لا لمرّجح و ذلك المرّجح أن حصل قبله لزم التسلسل وأن حصل من قبله تعالى فلمّا كان هو الخالق للدّاعية الموجبة للظّفر فقد خلقه للنّار قطعاً.

الرّابع: أنّه تعالى لو خلقه للجنّة و أعانه على إكتساب تحصيل ما يوجب دخول الجنّة ثمّ قدَّرنا أنّ العبد سعى في تحصيل الكفر الموجب للدّخول في النّار فحينئذٍ حصل مراد العبد و لم يحصل مراد اللّه فيلزم كون العبد أقدر و أقوى من اللّه تعالى و ذلك لا يقوله عاقلٌ.

الخامس: أنّ العاقل لا يريد الكفر و الجهل الموجب لإستحقاق النّار يريد الإيمان و المعرفة الموجبة لإستحقاق الثّواب و الدّخول في الجنّة فلمّا حصل الكفر و الجهل على خلاف قصد العبد و ضدّ جهده و إجتهاده وجب أن لا يكون حصوله من قبل العبد بل يجب أن يكون حصوله من قبل اللّه تعالى و ساق الكلام الى أن قال فثبت أنّ هذه البراهين العقليّة ناطقة بصحة ما دلّ عليه صريح قوله سبحانه: **لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ** انتهى كلامه.

أمّا الجواب عن الأوّل: فهو أنّ اللّفظ ليس صريحاً في مدّعاه لإحتمال أن يكون المعنى في، ذرأنا، أي ميَّزنا كما نقلناه عن بعضهم أو بمعنى، سنذرأ كما إحتمله الآخر و عليه فيكون اللّفظ من المتشابهات و اذا كان كذلك فلا صراحة فيه هذا مضافاً الى ما قلناه و حقّقناه من أنّ اللاّم لام العاقبة لا لام الغرض و قد فصلنا الكلام فيه و عليه فالمعنى مصيرهم الى جهنّم بسبب كفرهم و أعمالهم الّتي إرتكبوها في الدنيا بإختيارهم و إرادتهم.

أمّا الجواب عن الثّانى: فقد ثبت في العلوم العقليّة أنّ العلم الأزلي ليس علّة فكونه تعالى عالماً بمصيرهم الى جهنّم لا يكون علّة لدخولهم فيها بل معناه أنّه تعالى كان عالماً بعاقبة أمرهم و أنّهم يفعلون بإختيارهم في الدّنيا ما يوجب دخولهم النّار فلا يلزم الإنقلاب في علمه تعالى و لا يلزم الكذب أيضاً.

و أمّا الجواب عن الثّالث: أن المرجّح موجود في العبد و هو إختيار الفعل و أيّ مرجّح أقوى من تعلّق الإرادة بالفعل بعد الإختيار و قوله فلمّا كان هو الخالق للدّاعية الخ.

فقد مرَّ الجواب عنه مراراً فكأنّه لم يعلم شيئاً لإثبات مدّعاه غير الدّاعية الّتي لا تكون علّة لوجود الفعل أصلاً.

و الجواب عن الرّابع: أنّه تعالى لم يخلق أحداً للجنّة كما لم يخلق أحداً للنّار فليس للإنسان إلاّ ما سعى فقوله يلزم حصول مراد و العبد و عدم حصول مراد اللّه الى آخر ما ذكره لا معنى له.

و الجواب عن الخامس: أنّ العقل إن فسرّناه بأنّه ما عبد به الرّحمن و أكتسب به الجنان كما قاله الصّادق المصدّق فالعبد لا يختار الكفر و الفسق و العصيان و إن فسَّرناه على المعنى الّذي يعرفه العوام فلا إشكال في إختياره الكفر كما هو شأن الكفّار و الفسّاق من النّاس فقوله أنّ العاقل لا يريد الكفر و الجهل على الإطلاق لا معنى له إلاّ أن يقال أنّ الكفّار و الفسّاق خارجون من

العقلاء و هو كما ترى و حاصل الكلام أنّ العاقل بالمعنى المصطلح قد يختار الكفر و قد يختار الإيمان و قد يختار الخير و قد يختار الشّر هذا أوّلاً و ثانياً.

نقول كيف لا يختار العاقل الكفر و يختاره اللّه تعالى للعبد فأن كان عدم الإختيار من العبد لقبحه و أنّه لا يختار القبيح فكيف يجوز على اللّه تعالى إختياره للعبد مع قبحه.

و أن كان عدم إختيار العبد لشئ آخر فما هو غير الحسن لأنّ ما لا قبح فيه فهو حسن و اذا كان الكفر حسناً فلمَ لا يريده العاقل و بعبارةٍ أخرى أن كان عدم إختيار العبد الكفر لقبحه فهو من اللّه أقبح و أن كان عدم الإختيار لحسنه فالعبد مجنون إذ العاقل لا يترك الحسن فثبت و تحقّق أنّ البراهين الّتي تكون عقليّة بزعمه ليست من العقليّات أصلاً بل هي بالموهومات أشبه.

وَ لِلّٰهِ ٱلْأَسْمٰاءُ ٱلْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا وَ ذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمٰآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ

قرأ حمزة، **يَلحَدون** بفتح الياء و الحاء و الباقون بضمّ الياء من **ألحَدَ إلحاداً** و **الإلحاد** العدول عن الإستقامة و الإنحراف عنها و فى الآية مسائل.

الأولىٰ: أنّ كلمة، اللّه، علمٌ على الأصّح للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة و أصله **إله** فحذفت هَمزته و أدخل عليه الألف و اللاّم فخصّ بالباريْ تعالى و لتخصُّصه به قال اللّه تعالىٰ: **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**[١].

و أمّا الإله فقد جعلوه إسماً لكلّ معبودٍ لهم و لذلك سمَّوا الشّمس الآلهة لإتّخاذهم أيّاها معبوداً و قيل هو من إله أي تحَّير و تسميته بذلك إشارة الى ما قال أمير المؤمنين عليه السلام كلَّ دون صفاته تحبير الصّفات و ضلّ هناك تصاريف اللّغات و ذلك أنّ العبد إذا تفكّر في صفاته تحَّير فيها و لهذا روي، تفكّروا في آلاء اللّه تفكّروا في اللّه.

١- مريم = ٦٥

و قيل أصله ولاهٌ فأبدل الهَمزَة من الواو و تسميته بذلك لكون كلّ مخلوقٍ و الهاً نحوه أمّا بالتّسخير فقط كالجمادات و الحيوانات.

و أمّا بالتّسخير و الإرادة معاً كبعض النّاس و لذلك قال بعض الحكماء اللّه محبوب الأشياء كلّها و عليه دلّ قوله تعالىٰ: **وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**[1] أصله من لاه يلوه لياهاً أي إحتَّجب و ذلك إشارة الى قوله تعالى: **لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصٰارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصٰارَ**[2].

و أمّا الأسماء فهي جمع الأسم و هو ما يعرف به ذات الشّئ و أصله سموٌ بدلالة قولهم أسماء و سمّي و أصله من السُّمو و هو الّذي به رفع ذكر المسّمى فيعرف به و الأسم دال على المسّمى وكاشفٌ عنه و لذلك قيل أنّ معرفة الأسماء لا تحصل إلاّ بمعرفة المسّمى و المراد بالأسماء هنا ما ورد في الشّريعة المقدّسة لأنّ أسماء اللّه توقيفيه، و الحسنى بضمّ الحاء هي تأنيث الأحسن و وصف الجمع الّذي لا يعقل بما يوصف به الواحدة كقوله تعالىٰ: **وَ لِيَ فِيهٰا مَآرِبُ أُخْرٰى**[3] فصيح و قيل الحسنى مصدر وصف به و المراد هنا الألفاظ الّتي تطلق على اللّه تعالى و هي الأوصاف الدالّة على تغاير الصَّفات لا تغاير الموصوف كما تقول جاء زيد الفقيه الشّجاع الكريم الحليم و لا يطلق عليه تعالى إلاّ ما قرَّره الشّرع و نصَّ عليه في إطلاقه على اللّه.

المسألة الثّانية: في قوله: **فَادْعُوهُ بِهٰا** أي فأدعوا اللّه بتلك الأسماء الّتي جاءت من طريق الشّرع نحو اللّه، رحمن، رحيم، كريم، رازق، و أمثال ذلك و حيث إنّا أمرنا بأن ندعوا اللّه بها فلابدّ لنا من بيان أنّ الأسماء الّتي ندعوا اللّه بها هل هي عبارة عن الألفاظ الّتي يتّلفظ الإنسان بها أو هي عبارة عن المسّميات الّتي تنطبق الألفاظ عليها أو هي عبارة عن نفس التّسمية فالأقوال فيها ثلاثة:

١- الاسراء = ٤٤ ٢- الانعام = ١٠٣
٣- طه = ١٨

فقالت الأشاعرة أنّ الأسم نفس المسّمى و غير التّسمية و قالت المعتزلة أنّ الأسم غير التّسمية و غير المسّمى و قال الغزالي أنّ الأسم و المسّمى و التَّسمية أمور ثلاثة و كيف كان فلابدّ لنا من بيان أنّ الأسم ما هو و أنّ المسّمى ما هو و أنّ التَّسمية ما هي و ذلك لأنّ التّصديق لابدّ و أن يكون مسبوقاً بتّصور المحكوم عليه و المحكوم به فنقول أن كان الأسم عبارة عن اللّفظ الدّال على الشّئ بالوضع و كان المسّمى عبارة عن نفس ذلك الشّئ فالعلم الضّروري حاصل بأنّ الأسم غير المسّمى.

و أن كان الأسم عبارة عن ذات الشّئ و المسّمى أيضاً ذات الشّئ فهو هو نزاع فيه بين العقلاء فثبت أنّ الخلاف الواقع في هذه المسألة أنّما نشأ بينهم بسبب أنّ التّصديق لهم ما كان مسبوقاً بالتَّصور و القضّية ما إختلفوا فيها.

و الحقّ عندنا هو أنّ الأسم غير المسّمى من وجهٍ و غيره من وجهٍ آخر فمن حيث أنّه يحكي عن المسّمى و مرآت له فهو عينه و من حيث أنّه مظهرٌ له غيره لأنّ المظهر غير المظهر و أن كان القول بأنّ الحاكي أيضاً غير المحّكي عنه لا يخلو عن قوّة فالقول بأن الأسم غير المسّمى بقولٍ مطلق غير بعيدٍ و يمكن أن يحتجّ عليه بوجوهٍ:

أحدها: أنّ للّه تعالى أسماء كثيرة و هو ممّا لا شكّ فيه عند الكلّ مع أنّ المسّمى و هو الّذات الواجب الوجود واحد ليس بكثيرٍ و هو أيضاً ممّا لا كلام فيه فثبت أنّ الأسماء كثيرة دون المسّمى و بذلك تثبت المغايرة بين الأسم و المسّمى أيضاً.

فأن قلتَ ما ذكرتم من كون الأسماء كثيرة و أنّه ممّا لا شكّ فيه لا يساعده العقل و ذلك لوجود الفرق بين الأسماء و التّسميات و عليه فلقائلٍ أن يقول التَّسميات كثيرة.

و أمّا الأسماء فلا، سلمّنا أنّ الأسماء كثيرة لكن لا نسلّم أنّ المسّمى واحد لأنّ المفهوم من الخالق حصول الخلق و من الرّازق حصول الرّزق و بين

المفهومين فرق واضح، و الجواب أنّ تغاير المفهوم في الصّفات لا يدلّ على كثرة المسّمى فأنّه واحد و الأوصاف كثيرة و كيف لا يكون الأسم دون المسّمى مع أنّه لو كان الأسم عين المسّمى يلزم أن يكون الأسم موصوفاً لنفسه و هو غير معقول أو يكون إسماً لنفسه و هو أيضاً غير معقول هذا كلّه مضافاً الى أنّ الخالق ليس إسماً لحصول الخلق أو للخلق بل هو إسم للموجود الّذي يصدر عنه الخلق الرّزاق إسم للموجود الّذي يصدر عنه الرّزق.

و هما أي من يصدر عنه الخلق و من يصدر عنه الرّزق واحد.

الوجه الثّاني: أنّ الأسم قد يوضع للشّئ المعدوم في الخارج كالعتقاء مثلاً و اللاّثبوت و اللاّ تحقق و شريك الباريْ و أمثال ذلك فلو كان الأسم عين المسّمى يلزم أن يكون الأسم أيضاً معدوم و ليس كذلك.

الوجه الثّالث: أنّ اللّه تعالى يقول: **وَ لِلّٰهِ ٱلْأَسْمٰآءُ ٱلْحُسْنٰى فَادْعُوهُ بِهٰا** فلو كان الأسم عين المسّمى فالمعنى يدعوا اللّه مع أنّه قال: **فَادْعُوهُ بِهٰا** أي بالأسماء و هذا يقتضي المغايرة.

و أمّا القائلون بأنّ الأسم نفس المسّمى فأحتجّوا أيضاً بوجوهٍ:

الأوّل: قوله تعالىٰ: (سبّح إسم ربّك الأعلى، و قوله **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ**[١].

و قوله: **تَبٰارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلٰالِ وَ ٱلْإِكْرٰامِ**[٢] وجه الإستدلال بها أنّه تعالىٰ أمر بتسبيح إسم اللّه و العقل يدلّ على أنّ المسّبح هو اللّه تعالى لا إسمه و لا غيره و هذا تقتضي العينّية.

الثّاني: قوله تعالى: **مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلّآ أَسْمٰآءً سَمَّيْتُمُوهٰآ أَنْتُمْ وَ اٰبآؤُكُمْ**[٣].

١- الواقعة = ٧٤
٢- الرّحمٰن = ٧٨
٣- يوسف = ٤٠

أخبر اللّه أنّهم عبدوا الأسماء و القوم ما عبدوا إلاّ تلك الذّوات فهذا يدلّ على أنّ الأسم هو المسّمى.

الثّالث: إذا قال القائل محمّد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فلو كان إسم محمّدٍ غير محمّدٍ لكان الموصوف بالرّسالة غير محمّد و هو باطل وكذا قوله: **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ**[1] ولوكا إسم أبي لهب غير أبي لهب لكان الموصوف بالذّم غير أبي لهب و هو كما ترى.

و الجواب من الوجوه المذكورة واضح بأدنى تأمّلٍ و ذلك لأنّ المقصود بالمغايرة ليس أنّ الأسم أجنبيٌ عن المسّمى بل هو حاكٍ عنه مرآت له فهو هو بوجهٍ و أن كان غيره من وجهٍ آخر فقوله تعالى سبّح إسم ربّك الأعلى و نظائره لم يؤمر فيه بتسبيح الأسم من حيث هو إسم بل أمرٌ بتسبيح الأسم بإعتبار أنّه كاشف عن المسّمى و بعبارةٍ أخرى الأمر و أن تعّلق بتسبيح الإسم ظاهراً إلاّ أنّه تعلّق بالمسّمى واقعاً لأنّ الإسم كاشف عنه فالإسم صار متعلّقاً للأمر بإعتبار المسّمى لا من حيث أنّه إسم و هذا لا يخفى على المتّأمل.

المسئلة الثّالثة: إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية.

فنقول قوله تعالى: **وَ لِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** يأمرنا بأن ندعوا اللّه بتلك الأسماء الّتي بيّنها الشّرع لنا و حكم بثبوتها له تعالى، و هذا مؤيّد بالعقل و النّقل.

أمّا العقل فلأنّ العبد مخلوق و كلّ مخلوقٍ محتاج الى خالقه إحتياج المعلول الى علّته في جميع شؤنه و إن شئت قلت العبد فقير في ذاته و اللّه تعالى هو الغنّي الحميد و الفقير لابدّ له من السّؤال عند إحتياجه و لا نعني بالّدعاء إلاّ ذلك.

و أمّا النّقل فالأيات و الأخبار الواردة في فضل الدّعاء أكثر من أن تحصى و لنذكر شطراً منها تيّمناً فمن الأيات:

١- المسد = ١

قال اللّه تعالى: **وَ قٰالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ إِذٰا سَأَلَكَ عِبٰادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدّٰاعِ إِذٰا دَعٰانِ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبٰاطِلُ**[٣].

قال اللّه تعالى: **قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُنٰا وَ لاٰ يَضُرُّنٰا**[٤] و الأيات كثيرة.

و من الأخبار ما رواه في البحار بأسناده عن الرّضا عليه السلام عن آباءه قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: الدُّعاء سلاح المؤمن و عماد الدّين ونور السّموات و الأرض فعليكم بالدّعاء و أخلصوا النِّية انتهى.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ الدّعاء يَرَّد القضاء.

و بأسناده عن الصّادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله داو و مرضاكم بالصّدقة و أدفعوا أبواب البلاء بالدّعاء الخبر.

و بأسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال عليه السلام: أدفعوا أمواج البلاء عنكم بالدّعاء قبل ورود البلاء الخبر.

و بأسناده في خبر الشّامي أنّه سأل أمير المؤمنين عليه السلام أيّ الكلام أفضل عند اللّه عزّ وجلّ قال عليه السلام: كثرة ذكرة و التّضرع اليه و دعاءه.

وبأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: مامن شيءٍ أحَبَ الىٰ اللّه من أن يسأل و الأخبار أيضاً كثيرة.

وَ ذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمٰآئِهِ الخ.

١- غافر = ٦٠
٢- البقرة = ١٨٦
٣- الحجّ = ٦٢
٤- الأنعام = ٧١

قيل فيه تهديد للكّفار و أنّ اللّه تعالى سيعاقبهم على عدولهم عن الحقّ في تغيير أسماءه أي وأ تركوا تسمية الّذين يميلون عن الحقّ و الصّواب فيها فيسمّونه بغير الأسماء الحسنى.

و قال مجاهد معنى الإلحاد في أسماءه تسميتهم أوثانهم اللاّت نظراً الى إسم اللّه تعالى، و العزّى، نظراً الى العزيز و يسّمون اللّه أباً و أوثانهم أرباباً و نحو هذا.

و قال إبن عبّاس معنى يلحدون يكذبون، و قال قتادة يشركون و قوله تعالى: **سَيُجْزَوْنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** من المعاصي بأنواع العذاب **وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ** كلمة، من للتّبعيض أي بعض الخَلَق كذلك ممّا لاشكّ فيه لأنّ جميع أفراد الأمّة و الجماعة في كلّ عصر و زمان لم يكونوا على الضّلال كما أنّهم لم يكونوا على الحّق جميعاً فلا جرم كان بعضهم على الحّق و بعضهم على غير الحّق و طريق الحق واضح و طريق الباطل على خلافه.

نعم إتّباع الحّق أقلّ من إتباع الباطل كما قال تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ الشَّكُورُ**[1] و أمّا ما قاله بعض المفسّرين من العامة أنّ المراد بهم المهاجرون و الأنصار فلا دليل عليه بل الدّليل على خلافه موجود لأنّ بعضاً من المهاجرين و الأنصار كانوا أضّر بالإسلام من اليهود و النّصارى و المشركين فالقول بأنّ المهاجرين و الأنصار كلّهم ممّن يهدون بالحّق و به يعدلون، لا يقبله العقل السليم العاري عن التعّصب و العناد **وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لٰا يَعْلَمُونَ.**

قال أبو عبيدة، الإستدراج أن تدرج الى الشّئ في خفية قليلاً قليلاً و لا تهجم عليه و قال إبن قتيبة، هو أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً من حيث لا يعلمون يتابعهم به و لا يجاهرهم.

١- سبا = ١٣

و قال الأزهري أي سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون و ذلك أنّ اللّه تعالى يفتح لهم باباً من النّعمة فيغتبطون به و يركنون إليه ثمّ يأخذهم على غرتّهم اغفل ما يكون.

و قال الجبائي، سنستدرجهم الى العقوبات حتّى يقعوا فيها من حيث لا يعلمون.

و قال الزّمخشري، معناه سنستدينهم قليلاً قليلاً الى ما يهلكهم و يضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم و ذلك أن يواتر اللّه نعمه عليهم مع إنهماكهم في الغّي فكلّما جدّد عليهم نعمة إزدادوا بطراً و جددوّا معصية فيندرجون في المعاصي بسبب ترادف النّعم ظانّين أنّ مواترة النّعم أثرة من اللّه و تقريب و أنّما هي خذلان منه و تبعيد فهذا إستدراج اللّه نعوذ باللّه منه إنتهى.

قال الأعشي:

فَلو كُنت في جُبّ ثَمانين قامة ورَقيتُ أسباب السّماء بِسُلّمٍ

لِيَستدرجك القول حتّىٰ تَهِزّه وتَعلم إنّي عنكم غير مُفحمٍ

وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أي أؤخرّ هؤلاء الكفّار في الدّنيا و أبقيهم مع إصرارهم على الكفر و لا أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم لأنّهم لا يفوتوني يعجزوني و لا يجدون مهرباً و لا ملجأً و قوله أنّ كيدي متينٌ، معناه أنّ عذابي كذلك و سمّاه كيداً لنزوله عليهم من حيث لا يشعرون و قيل أنّه أراد جزاء كيدهم و سمّاه كيداً للإزدواج و قوله متين أي شديد.

أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

قالوا في سبب نزولها أنّ رسول اللّه ﷺ صعد ليلاً على الصّفا فجعل يدعوا قبائل قريش يا بني فلان يا بني فلان يحذّرهم و يدعوهم الى اللّه تعالى فقال بعض الكفّار حين أصبحوا هذا مجنون بات بصوتٍ حتّى الصّباح وكانوا

يقولون شاعر مجنون فنفي اللّه عزّ وجلّ عنه ما قالوه ثمّ أخبر أنّه ﷺ محذّر من عذاب اللّه و هذه الآية باعثة لهم على التفكُّر في أمر الرّسول ﷺ و إنتفاء الجنّة عنه و هذا الإستفهام و قيل معناه التّوبيخ و قيل التّحريض على التّأمل، و الجنّة بكسر الجيم الجنّ و قيل هي هيئة كالجلسة و الرّكبة أريد بها المصدر أي ما بصاحبهم من جنونٍ و فى قوله أولم يتفكّروا إشارة الى عدم تأملّهم و تدبّرهم فيما قالوا و المعنى أ و لم يتأملّوا و يتدبّروا في إنتفاء هذا الوصف عن الرّسول فأنّه منتفٍ لا محالة و لا يمكن لمن أمعن الفكر في نسبة ذلك إليه ثّم قال تعالى شأنه.

أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ

هذا الإستفهام لِلإنكار و قيل للتّوبيخ كسابقه، و الملكوت قيل هو مصدر ملك أدخلت فيه التّاء نحو رحموت و رهبوت و هو مختّص بملك اللّه تعالى و قيل هو الملك العظيم، و قال بعضهم هو باطن عالم الملك و كيف كان لمّا حضّهم على التفكر في أمر الرّسول و قال: **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ** وكانت الرّسالة متفرّعة على تقرير الدّليل على التّوحيد أعقَب الكلام بما يدلّ عليه و على وجود الصّالح الحكيم و قال لهم أ و لم يتفكّروا في ملكوت السّموات و الأرض، و عجيب صنعها فينظروا فيهما نظر مستدّلٍ و معتبرٍ فيعرفون بما يريدون من إقامة السّموات و الأرض مع عظم أجسامها و ثقلهما على غير عمدٍ و تسكينها من غير آلةٍ **وَ مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ** أي و ينظروا أيضاً فيما خلق اللّه تعالى من أصناف خلقه فيستدّلوا بذلك على أنّه تعالى خالق جميع الأجسام و أنّه أولى بالالهيّة من الأجسام المحدثة **وَ أَنْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** الواو للعطف و المعنى أ و لم يتفكّروا أو لم ينظروا في حياتهم و موتهم و أنّ الموت لا بّد منه و أن

عسى أن يكون قد إقترب أجلهم فيدعوهم ذلك الى أن يحتاطوا لدينهم و لأنفسهم فيما يصيرون اليه بعد الموت من أمور الآخرة و اذا كانوا كذلك فبأيّ حديث بعده أي بعد القرآن يؤمنون، و ذلك لوضوح دلالته على أنّه كلام اللّه و معجزاً لنبّيه بحيث لا يقدر أحدٌ أن يأتي بمثله و لو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً قوله: **حَدِيثٍ** إشارة الى كون القرآن محدثاً غير قديم لأنّ إثباته حديثاً ينافي كونه قديماً و محصّل الكلام في هذه الآية و أمثالها هو الحّث على التفكّر في آيات اللّه و التأمّل و التَّدبر في عجائب صنعه و مظاهر قدرته في أصناف خلقه ليستدلّ به على توحيده و أنّه لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ثمّ بعد ذلك التفكّر في حياته و موته و أنّه لا يبقى دائماً في الدّنيا و مصيره الى الموت لا محالة ثّم بعد الموت مسؤلٌ عن أقواله و أعماله الّتي صدرت منه في دار الدّنيا فالتفكّر في هذه الأمور يصير سبباً وباعثاً لليقظة عن نوم الغفلة و التّوجه الى المقصد و المنتهى.

مَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلاٰ هٰادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ

قرأ الكسائي و حمزة و خلف، يذرهم بالياء و الباقون بالنّون و ضّم الرّاء فمن قرأ بالنّون قال لأنّ الشّرط من اللّه فكأنّه قال من يضلل.

فنذرهم، و من قرأ بالياء ردّه الى إسم اللّه و تقديره اللّه يذرهم، فمن قرأ بالنّون لم يجعله جواباً و يجوز أن يكون أضمر المبتدأ و تقديره و نحن نذرهم فيكون في موضع الجزم، و أمّا من قرأه بالياء فجعله جواباً للشّرط لا محالة و قد تكلّمنا في معنى الضّلالة و الهداية غير مرّةٍ و قلنا المراد بإضلال اللّه ليس أن خلقه كذلك بمعنى أنّ اللّه جعل العبد مجبوراً على الضّلالة بل المراد أنّه تعالى وكله الى نفسه و خلّى بينه و بين الفعل و معنى الهداية إرشاد العبد الى الحّق بسبب الأنبياء و الشّرائع و الكتب السّماوية و إعطاء التّوفيق إيّاه على قبول الحّق و عليه فمعنى الآية واضح لا خفاء فيه و قوله: **فِي طُغْيٰانِهِمْ**

يَعْمَهُونَ فالطُّغيان الغُّلو في الكفر و العمه التَّحير و التَّردد في الفكر و أحتمل بعضهم أن يكون المعنى من يضلل اللّه عن الجنّة عقوبةً على كفره فلا هادي له اليها، و قيل معناه من حكم اللّه تعالى بضلاله و سمّاه ضّالاً بما فعله من الكفر و الضّلال فلا يقدر أحدٌ على إزالة هذا الإسم عنه و لا يوصف بالهداية.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ

الضّمير في يسئلونك لقريش قالوا يا محمّد إنّا قرابتك فأخبرنا بوقت السّاعة.

و قال إبن عبّاس الضّمير لليهود و المراد بالسّاعة القيامة و إنّما سألوا النّبي عن وقت قيامها و ثباتها و معنى، أيّان، متى، مرساها في موضع الرّفع بالإبتداء يقال رسى يرسوا إذا ثبت و قيل معناه الوقت الّذي يموت فيه جميع الخلق و معنى سؤالهم عنها أي متى وقوعها وكونها فأمر اللّه تعالى نبّيه أن يجيبهم و يقول لهم إنّما علمها عند اللّه لم يطّلع عليها أحد كما قال: **إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ**[(١)].

و قوله: **لَا يُجَلِّيهَا** أي لا يظهرها في وقتها إلاّ اللّه أقول وكلمة، إنّما، الّتي تُفيد الحصر أي حصر العلم بها على اللّه أقوى شاهدٍ على المدّعي، قال صاحب الكشّاف، السّاعة من الأسماء الغالبة كالنّجم للثّريا و سمّيت القيامة بالسّاعة لوقوعها بغتةً أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعةٍ واحدةٍ فسمّي بالسّاعة لهذا السَّبب أو لأنّها على طولها كساعةٍ واحدةٍ عند الخلق.

قال بعض المفسّرين السّاعة عبارة عن الوقت الّذي ينفح في الصُّور فيموت الخلق كلّهم ثمّ يحييهم اللّه للسؤال و الحساب وكيف كان لا شكّ أنّ علم السّاعة مختّص باللّه تعالى أي لا يعلم وقتها إلاّ هو و أمّا أنّها واقعة لا محالة في

١- لُقمان = ٣٤

وقت يعلمه اللّه تعالى فهو من ضرورياّت الأسلام لأنّ إنكارها إنكار القيامة بل هي هي، و قد أشار اللّه تعالى في كثير من الأيات بوقوعها:

قال اللّه تعالىٰ: **حَتَّىٰ إِذا جاءَتْهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلىٰ ما فَرَّطْنا فيها**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ تَأْتِيَهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَميلَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما أَمْرُ السّاعَةِ إِلّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السّاعَةَ لا رَيْبَ فيها**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظيمٌ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ**[٧].

قال اللّه تعالىٰ: **يَسْئَلُكَ النّاسُ عَنِ السّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللّهِ وَ ما يُدْريكَ لَعَلَّ السّاعَةَ تَكُونُ قَريبًا**[٨].

والأيات كثيرة فمنها ما يدلّ على أصل وقوعها و أنّها ممّا لابدّ منه.

و منها ما يدلّ على إنحصار العلم بها باللّه تعالى و أنّه ممّا أستأثره اللّه به و الّذي يجب علينا هو الإعتقاد بوقوعها و أمّا زمان وقوعها فلا يجب علينا التّفحص عنه مع أنّه لا فائدة فيه **ثَقُلَتْ فِي السَّمٰواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتيكُمْ إِلّا بَغْتَةً** في معنى المراد بالثقل قولان:

أحدهما: ما ذهب اليه السُّدي و غيره من أنّ المعنى ثقلت علمها على السّموات و الأرض.

١- الأنعام = ٣١ ٢- يُوسف = ١٠٧
٣- الحجر = ٨٥ ٤- النحل = ٧٧
٥- الكهف = ٢١ ٦- الحجّ = ١
٧- لقمان = ٣٤ ٨- الأحزاب = ٦٣

ثانيهما: ما ذكره إبن جريح و غيره قالوا، ثقل وقوعها على أهل السّموات و الأرض.

أقول ما نقلناه عن السُّدي و إبن جريح لا يرجع الى محصّل و لا يقبله العقل السّليم إذ لا معنى لثقل علمها على السّموات و الأرض فأن قال قائل المقصود ثقل علمها على أهل السّموات و الأرض نقول له هذا أيضاً لا معنى له وأيُّ ثقلٍ للعلم بها أو بغيرها على أهل السّموات و الأرض أي الملائكة و الإنسان فأنّ العلم كيفية نفسانيّة لا ثقل له أصلاً و بذلك ظهر فساد القول الثّاني أيضاً هذاكلّه مضافاً الى أنّه قال ثقلت في السّموات و الأرض، ولم يقل، ثقل فلوكان مرجع الضّمير في ثقلت الى العلم أو الى الوقوع لينبغي أن يقال، ثقل و هو واضح.

و قال بعضهم ثقلت، أي خفيت و المعنى خفيت علمها على السّموات و الأرض و هو أيضاً كسابقه مضافاً الى أنّا لم نجد من لغة العرب، الثِّقل بمعنى الخفاء و الحاصل أنّ هذه الأقوال لا يمكن الإعتماد عليها لما ذكرناه.

و الحقّ أنّ الكلام يحمل على ظاهره و هو أنّ الضمير المستتر في الفعل أعني به ثقلت، يرجع الى السّاعة نفسها لا الى العلم بها و لا الى الوقوع أي وقوعها و عليه فالمعنى أنّ السّاعة أعني بها القيامة ثقلت على السّموات و الأرض، أي صعبت فالثّقل كناية عن الصّعوبة و ذلك لأنّ كلّ ثقيلٍ يصعب حمله قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **أنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي** الحديث سمّي الكتاب و القوة بالثَّقلين لأنّ العمل بالكتاب و متابعة العترة صعبٌ مستصعب لا يقدر عليه إلاّ الاوحدي من النّاس اذا عرفت هذا فنقول:

قيام السّاعة صعبٌ على جميع الموجودات لأنّ السّاعة تفنيها بالكليّة بحيث لا يبقى من الموجودات عين و لا أثر و أيّ شئٍ أصعب و أشدَّ من الإهلاك و إزالة الوجود عن الموجود و هذا هو الثِّقل الذّي لا أثقل منه و الدليل على ما ذهبنا اليه في تفسير الأية:

قال اللّه تعالى: **اِذَا اَلسَّمٰآءُ اَنْفَطَرَتْ، وَ إِذَا اَلْكَواكِبُ اَنْتَثَرَتْ**[١].

قال اللّه تعالى: **إِذَا اَلسَّمٰآءُ اَنْشَقَّتْ، وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ إِذَا اَلْأَرْضُ مُدَّتْ، وَ أَلْقَتْ مٰا فِيهٰا وَ تَخَلَّتْ،وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ**[٣].

قال اللّه تعالى: **وَ إِذَا اَلْبِحٰارُ فُجِّرَتْ،وَ إِذَا اَلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ**[٤].

قال اللّه تعالى: **إِذٰا زُلْزِلَتِ اَلْأَرْضُ زِلْزٰالَهٰا، وَ أَخْرَجَتِ اَلْأَرْضُ أَثْقٰالَهٰا**[٥].

قال اللّه تعالى: **وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي اَلسَّمٰواتِ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ**[٦].

قال اللّه تعالى: **وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي اَلصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي اَلسَّمٰواتِ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ**[٧].

قال اللّه تعالى: **وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ اَلْوَعِيدِ**[٨].

و أمثالها من الأيات كثيرة فهذه الأيات كما ترى ترشدنا الى ثقل يوم السّاعة و صعوبتها و أنّ ذلك اليوم يوم عسير و هذا معنى قوله: **ثَقُلَتْ فِي اَلسَّمٰواتِ وَ اَلْأَرْضِ** يل نقول لا شيئ على السمّوات و الأرض و ما فيهما من الموجودات أثقل من يوم السّاعة و هذا التّفسير لم نجده في كلام المفسرين و أنّما هو خطر ببالي فكأنّه ممّا ألهمني اللّه تعالى أن كان حقّاً و العلم عند اللّه

و أمّا قوله: **لاٰ تَأْتِيكُمْ إِلاّٰ بَغْتَةً** فقد ظهر معناه ممّا ذكرناه و من المعلوم أنّ الشّيئ الذّي لا علم لنا بزمان وقوعه فاذا وقع بغتةً لا محالة.

يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اَللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ

١- الإنفطار = ١ و ٢
٢- الإنشقاق = ١ و ٢
٣- الإنشقاق = ٣ و ٤ و ٥
٤- الإنفطار = ٣ و ٤
٥- الزلزال = ١ و ٢
٦- الزّمر = ٦٨
٧- النّمل = ٨٧
٨- ق = ٢٠

في قوله: **يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا** أقوال:

أحدها: ما عن إبن عبّاس و السُّدي و مجاهد و هو أنّ المعنى كأنّك حفِّيٌ بسؤالهم أي محبٌّ له.

و قال إبن قتيبة معناه، كأنّك طالب علمها.

و قيل كأنّك يعجبك سؤالهم و قيل معناه كأنّك عالم بها.

و قيل كأنّك فرح بسؤالهم و قيل كأنّك أكثرت السّؤال عنها يقال أحفى فلان بفلان في المسألة اذا أكثر عليه وكثرة الأقوال و الإحتمالات في الكلام دليل على إضطرابهم في فهم معناه.

قال الرّاغب في المفردات الإحفاء في السّؤال التّنزع، في الإلحاح في المطالبة أو في البحث عن تّعرف الحال.

و قال بعضهم يقال أحفى فلان في المسألة اذا بالغ فيه و قيل أنّه من قولهم تحّفيت بفلان في المسألة اذا سألته سؤالاً يظهر فيه المسَّرة والمحبَّة قال الشّاعر:

سُؤالُ حَفّيُ عن أخيه كأنّه ... بذكرته وسنان أم مُقوانسٍ

و أحسن الأقوال في المقام هو أن يقال كأنّك حفِّيٌ عنها، معناه كأنّك بارٌّ لطيفٌ بهم لطيف العشرة معهم و منه قوله تعالى: **إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا** أي بارّاً لطيفاً، **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ذلك أي لا يعلمون أنّ علمه مختّص باللّه تعالى و لا علم لغيره به فلو علموا ذلك لم يلّحوا للسّؤال عنها.

■

قُلْ لآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَ لا ضَرًّا إِلاَّ ما شآءَ اللّٰهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمّا تَغَشّٰيها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمّآ أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللّٰهَ رَبَّهُما لَئِنْ اٰتَيْتَنا صالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّٰاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمّآ اٰتيٰهُما صالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكآءَ فِيمآ اٰتيٰهُما فَتَعالَى اللّٰهُ عَمّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَ لآ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدٰى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهآ أَمْ لَهُمْ اٰذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصّٰالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لآ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَ إِنْ

تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدٰى لاٰ يَسْمَعُوا وَ تَرٰيهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ ﴿۱۹۸﴾

◁ اللّغة

تَغَشّٰيهٰا، التّغَش و الغشيان و الإتيان كناية عن الجماع.

يَبْطِشُونَ، بكسر الطّاء و ضمّها و هما لغتان و الكسر أفصح و البطش تناول الشّئ بصولةٍ.

◁ الإعراب

لِنَفْسي يتعلّق بأملك أو حال من، نفع إِلاّٰ مٰا شٰآءَ ٱللّٰهُ إستثناء من الجنس لِقَوْمٍ يتعلّق ببشيرٍ عند البّصريين و بنذيرٍ عند الكوّفيين شُرَكٰآءَ يقرأ بالمدّ على الجمع و يقرأ شركاً بكسر الشّين و سكون الرّاء و التّنوين و فيه وجهان:

أحدهما: تقديره، جعلا لغيره شركاً أى نصيباً.

الثّانى: جعلا له ذا شرك فحذف المضاف في الموضعين أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ جملة إسميّة في موضع الفعليّة و التّقدير أدعوتموهم أم صمتم عِبٰادٌ خبر إنّ و أَمْثٰالُكُمْ نعت له و العائد محذوف و يقرأ، عباداً، بالنّصب و هو حال من العائد المحذوف و أَمْثٰالُكُمْ الخبر.

◁ التّفسير

قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعًا وَ لاٰ ضَرًّا إِلاّٰ مٰا شٰآءَ ٱللّٰهُ

قال ابن عبّاس قال أهل مكّة لرسول اللّه ألا يخبرك ربّك بالسّعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري و تربح و بالأرض التّي تجدب فترحل عنها الى ما أخصب فنزلت الآية و قيل لمّا رجع من غزوة المصطلق جاءت ريحٌ في

الطّريق فأخبرت بموت رفاعة و قال فيه غيظ المنافقين ثمّ قال أنظروا أين ناقتي فقال عبد اللّه إبن أبّي ألا تعجبون من هذا الرّجل يخبر بموت رجلٍ في المدينة و لا يعرف أين ناقته فقال عليه‌السلام أنّ ناساً من المنافقين قالوا كيت و كيت و ناقتي في الشَّعب و قد تعلّق زمامها بشجرة فوجدها على ما قال فنزلت انتهى.

أقول و كيف كان ففي الآية دلالة صريحة على أنّ الرّسول لا يعلم من عند نفسه شيئاً إلاّ ما علّمه اللّه تعالى و هذا ممّا لا ينكر و لم يقل أحدٌ من العقلاء فضلاً من العلماء أنّ الأنبياء كانوا عالمين من عند أنفسهم و الى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ** فكُنتُ أشتري ما أربح و أتجَّنب ما أخسر فيه فتكثر بذلك الأموال و الخيرات عندي و كنت أعدّه في زمان الخصب لزمان الجدب **وَ مَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** قيل معناه ما مسَّني الفقر و قيل ما مسَّني التّعذيب و قيل ما مسَّني جنون جواباً لهم حين نسبوه اليه.

و قيل **وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ** من العمل الصّالح قبل حضور الأجل.

و قيل لو كنت أعلم الغيب لكنت قديماً و القديم لا يمَّسه السُّوء لأنّ أحداً لا يعلم الغيب إلاّ اللّه ثمّ عرّف لهم نفسه و قال لست إلاّ مخوفاً من العقاب محذّراً من المعاصي و مبّشراً بالجنّة حاثّاً عليها لقومٍ يؤمنون بي أي برسالتي فيصدّقون بما أقول قالوا و إنّما خصّ الإنذار و التبشير بالمؤمنين لأنّهم ينتفعون بهما دون من لا يصدّق له كما قال هدىً للمتّقين قال بعض المفسّرين في الآية دلالة على أنّ القدرة قبل الفعل لأنّ قوله: **وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ** يفيد أنّه كان قادراً لأنّه لم تكن القدرة إلاّ مع الفعل لو علم الغيب لما أمكنه الإستكثار من الخير و ذلك خلاف الآية إنتهى.

أقول ما ذكره لا مرية فيه لما ذكره من الدّليل عليه و لأنّ الفعل مسبوق بالقدرة عليه عقلاً إذ بها يقدر عليه و هو واضح.

قال الرّازى، في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، إعلم أنّ القوم لمّا طالبوه بالأخبار عن الغيوب طالبوه بإعطاء الأموال الكثيرة و الدّولة العظيمة ذكر صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّ قدرته قاصرة و علمه قليل و بيّن أنّ كلّ من كان عبداً كان كذلك و القدرة الكاملة و العلم المحيط ليسا إلاّ للّه تعالى فالعبد كيف يحصل له هذه القدرة و هذا العلم و أحتجّ أصحابنا في مسئلة خلق الأعمال بقوله تعالى: **قُلْ لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ** و الإيمان نفعٌ و الكفر ضّرٌ فوجب أن لا يحصلا إلاّ بمشيئة اللّه تعالى و ذلك يدلّ على أنّ الإيمان و الكفر لا يحصلان إلاّ بمشيئة اللّه سبحانه و تقريره ما ذكرناه مراراً أنّ القدرة على الكفر إن لم تكن صالحة للإيمان فخالق تلك القدرة يكون مريداً للكفر و أن كانت صالحة للإيمان إمتنع صدور الكفر عنها بدلاً عن الإيمان إلاّ عند حدوث داعية جازمة فخالق تلك الداعيّة الجازمة يكون مريداً للكفر فثبت أنّ على جميع التقادير لا يملك العبد نفعاً ضراً إلاّ ما شاء اللّه إنتهى كلام الرّازي.

و أنا أقول ما ذكره الرّازي في المقام لا ربط له بالآية و ذلك لأنّ الآية ليست بصدد بيان أنّ الفعل الصّادر من العبد من اللّه أو من العبد حتّى يقال أنّ الفعل مسبوق بوجود الداعيّة و هى مخلوقة له تعالى فالعبد مجبور في فعله و كان الرّازي لم يعلم في إثبات مذهبه إلاّ تلك الداعيّة التّي تكرّرت منه في مورد كثيرة و غفل عن الإختيار الّذي يقع بين الدّاعية و الفعل و قد تكلّمنا في هذا الباب غير مرّةٍ و كيف كان فالآية بصدد بيان أنّ اللّه تعالى علاّم الغيوب و لا يعلم الغيب إلاّ هو من عند نفسه و فى حدّ ذاته و هذا ممّا لا كلام فيه.

و في قوله: **إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ** إشارة بل دلالة على أنّ المخلوق قد يعلم الغيب بأذنه تعالى و باعطاءه إياه و هذا أصلٌ من الأصول الإعتقاديّة و السّر فيه واضح و هو أنّ المخلوق كائناً من كان محتاج الى ربّه فقير في ذاته:

قال اللّه تعالیٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**[1].

و الفقر لا يختّص بالفقر المالي بل الفقر ثابت له في جميع شئونه كيف و هو محتاج في وجوده و بقاءه الى خالقه و العلم و القدرة و سائر الصفات من لوازم الوجود و شئونه فهو الذّي يعطي الوجود و القدرة و العلم و الإرادة و غيرها من الصفات فكلّما ثبت للمخلوق من الوجود و توابعه فهو من واهب العطيّات و معطي الخيرات و الآية و أمثالها ناظرة الى هذه الدقيقة التّي لا تخفى على أحدٍ من العقلاء.

و محصّل الكلام فيها هو أنّها لا تدلّ على نفي الغيب عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقولٍ مطلق بل تدلّ على نفيه من عند نفسه مع قطع النّظر ممّا أعطاه اللّه و لأجل هذا قال إلاّ ما شاء اللّه.

و الفرق بين النّفي المطلق و النّفي المقيّد واضح لا خفاء فيه و هذا هو الإعتقاد الصّحيح في علوم الأنبياء و الأئمّة المعصومين بالنّسبة الى الغيب و اللّه يهدي الى سبيل الرّشاد.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا لِيَسْكُنَ إِلَيْهٰا و فيها مسائل:

الأولىٰ قوله: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ** فقال جمهور المفسّرين فيه إخبار عن الّذي خلق البشر من نفسٍ واحدة و هى أدم، و المعنى أنّ اللّه تعالى هو الّذي خلقكم جميعاً من نفسٍ واحدة و هى نفس أدم باجماع من المفسرين و لم نجد فيه مخالفاً بعد التّفحص فيما بأيدينا من التّفاسير فكأنّه ممّا إتّفق عليه الكلّ ثمّ أنّ **النَّفس** بفتح النّون و سكون الفاء و السّين مصدر و جمعها أنفس و نفوس و هي أي النّفس تطلق على الرّوح، كما قال: **أَخْرِجُوٓا أَنْفُسَكُمُ** أي أرواحكم.

١- فاطر = ١۵

و على العين كما يقال أصابته نفسٌ أي عينٌ، و على الدَّم يقال دفق نفسه أي دمه.

و على الجسد يقال هو عظيم النَّفس أي الجسد.

و على الحقيقة كما يقال نفس الأمر أي حقيقته و هى مؤنّثة إن أريد بها الرّوح نحو خرجت نفسه و مذّكر إن أريد بها الشّخص نحو عندي خمسة عشر نفساً اذا عرفت هذا فنقول:

جمهور المفسّرين على أنّ المراد بالنَّفس في قوله تعالى: **نَفْسٍ واٰحِدَةٍ** أدم أبو البشر و عليه فالمعنى هو الّذي خلقكم من أدم، و هذا أنّما يتّم بناءً على كون الخطاب في قوله: **خَلَقَكُمْ** بغير أدم من أولاده الى يوم القيامة أي هو الّذي خلق أولاد أدم من أدم و أمّا لو قلنا بعموم الخطاب بحيث يشمل جميع البشر حتّى أدم أبو البشر فالمعنى لا يستقيم لأنّ أدم لم يخلق من أدم و أنّما خلق من تراب لقوله تعالى: **مِنْها خَلَقْناٰكُم**.

و عليه فالمراد بالنَّفس الواحدة هو التّراب و هذا ممّا لا إشكال فيه لأنّ النَّفس تطلق على حقيقة الشّئ و ذاته فيصير المعنى هو الّذي خلقكم من حقيقةٍ واحدة و هي التّراب و من المعلوم أنّ حمل الكلام على العموم أولى لا سيّما عند عدم التّخصيص ظاهراً.

المسألة الثّانية قوله: **وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها** قال المفسّرون المراد بالزّوج حوّاء و تأنيث الضّمير في قوله: **إِلَيْها** بإعتبار النَّفس أي جعل اللّه من النّفس الواحدة زوجها ثمّ أنّهم إختلفوا في كيفيّة خلق زوجها.

فقال صاحب الكشّاف هي حوّاء خلقها من جسد أدم من ضلعٍ من أضلاعه أو من جنسها كقوله تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواٰجًا**[1] انتهى.

و به قال البيضاوي و قال الرّازي خلقها اللّه من ضلع أدم عليه‌السلام من غير أذى.

۱- النحل = ۷۲

و به قال الطَّبري و السّيوطي في الدُّر المنثور و عليه إتِّفاق العامّة و لم نجد في تفاسيرهم الموجودة عندنا مخالفاً لهذه المسألة.

و الذّي ظهر لنا في المقام تبعاً لما ورد عن أهل البيت عليهم السّلام هو أنّ اللّه تعالى خلق حوّاء من فضل طينة أدم و أن شئت قلت خلق اللّه أدم و حوّاء من طينةٍ واحدة إلاّ أنّ أدم عليه السلام خلقه اللّه تعالى أوّلاً و خلق حوّاء ثانياً و أمّا الطّينة فيهما فواحدة.

روي المجلسي قدس سره بأسناده عن عمر و بن أبي المقدام عن أبيه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام من أيّ شيءٍ خلق اللّه حوّاء فقال عليه السلام أيّ شيءٍ يقول هذا الخلق.

قلتُ يقولون أنّ اللّه خلقها من ضلعٍ من أضلاع أدم فقال عليه السلام كذبوا أكان يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه فقلت جعلت فداك يابن رسول اللّه من أيّ شئ خلقها فقال عليه السلام: أخبرني أبي عن أباءه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنّ اللّه تبارك وتعالى قبض قبضته مِن طينٍ فخلطها بيمينه وكلتا يديه يمين فخلق منها أدم وفضلت فضلة مِن طينٍ فخلق منها حوّاء انتهى.

قال المجلسي قدس سره بعد نقله ما نقلناه عنه، فالأخبار السّابقة أمّا محمولة على التّقية أو على أنّها خلقت من طينة ضلعٍ من أضلاعه انتهى كلامه.

أقول هذا هو الحقّ الحقيق بالإتّباع لا غيره ثمّ أنّه تعالى قال و جعل منها زوجها، ولم يقل و خلق منها زوجها، لنكتته خفيت على المفسّرين و لذلك لم يتّعرضوا لها و هى أنّ الخلق أصله التّقدير المستقيم و يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ و لا إحتذاءٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **خَلْقِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** أي أبدعهما بدلالة قوله بديع السّموات و الأرض و قد يستعمل في إيجاد الشّئ من الشّي:

قال اللّه تعالى: **خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ**[١].

قال اللّه تعالى: **خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ**[٢] و هكذا.

و أمّا الجعل فهو عبارة عن تصيير الشّيئ على حالةٍ دون حالةٍ:

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا**[٣].

قال اللّه تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً**[٤].

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا**[٥].

قال اللّه تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**[٦].

و أمثال ذلك من الأيات كثيرة هذا هو الأصل في معنى الجعل و لا ينافي هذا إستعماله في غيره من المعاني من الخلق و الحكم و أمثال ذلك بالقرنية الحاليّة أو المقاليّه كما هو شائع في أكثر الألفاظ اذا عرفت هذا فنقول:

لمّا كان إيجاد أدم من التُّراب فعبّر عنه بالخلق لأنّه تعالى أوجد شيئاً من شيئٍ، أي أوجد أدم من التُّراب.

و أمّا إيجاد حوّاء فلمّا كان من التّراب بواسطة أدم لا بدون الواسطة فعبَّر عنه بالجعل و قال و جعل منها زوجها فلو كانت حوّاء مخلوقة من ضلعٍ من أضلاع أدم كما عليه الجمهور لقال اللّه تعالى و خلق منها زوجها لأنّه تعالى خلق شيئاً من شيئٍ أخر و لا نعني بالخلق إلاّ هذا ولم يقل هذا بل قال و جعل أي صيَّر هذا المخلوق كذلك و بعبارةٍ أخرى نقول:

خلق اللّه تعالى أدم من التّراب و هذا هو النَّفس الواحدة ثمّ جعل من النَّفس زوجها فالمخلوق من التّراب ليس إلاّ نفساً واحدة إلاّ أنّ هذه النّفس سميّت بأدم و حوّاء و عليه فالخلق تعلّق بأدم أوّلاً و بزوجه ثانياً و بالعرض بمعنى أنّ أدم لو لم يخلق لم يخلق زوجه أبداً و الدليل عليه قوله تعالى:

١- النحل = ٤
٢- المؤمنون = ١٢
٣- البقرة = ٢٢
٤- النحل = ٨١
٥- نوح = ١٦
٦- الزخرف = ٣

لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فاللاّم إمّا للتعليل و إمّا للغاية و على التقديرين فهي مخلوقة مجعولة لأجله و هذا معنى قوله عليه السلام في الخبر و فضلت فضلة من طينٍ فخلق منها حوّاء، فالجنس في هذا المخلوق واحد و النّوع يتفاوت بالذّكورية و الأنوثّية و عليه فالخطاب في قوله: **خَلَقَكُمْ** يشمل الجميع حتّى أدم و المراد بالنَّفس الواحدة مادّة الخلقة التّي خلق اللّه تعالى منها أدم و جعل منها زوجها و هى ليست إلاّ التّراب.

و لا إشكال فيه لأنّ النّفس كما مرّ الكلام فيها تطلق على حقيقة الشّئ و ذاته كما نطلق على غيرها فالنَّفس الواحدة عبارة عن الحقيقة الواحدة التّي هي مادّة الخلقة في الإنسان و هو المطلوب.

هذا بناءً على إرادة العموم من الخطاب و أمّا بناءً على الخصوص و هو أن يكون المراد به أولاده دونه فالمعنى أنّ اللّه خلقكم من أدم و حوّاء على ما مرّ تفصيله و من المعلوم أنّ حمل اللّفظ على معناه العامّ أولى و أنفع.

المسألة الثّالثة قوله: **فَلَمَّا تَغَشَّيٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ** التَّغشي و الغشيان و الإتيان كناية عن الجماع أي فلمّا و طأها و جامعها، و قيل تغشّاها بدُنوه بها لقضاء حاجته فقضى حاجته منها حملت يعني حملت حوّاء حملاً خفيفاً و معنى الِفّة أنّها لم تلق به من الكرب ما يعرض لبعض الحبالى و الحمل بفتح الحاء ما كان في بطنٍ أو على رأس الشّجرة و بالكسر ما كان على ظهرٍ أو على رأس غير شجرة.

قال إبن عطّية الحمل الخفيف هو المني الّذي تحمله المرأة في فرجها.

و أمّا قوله: **فَمَرَّتْ بِهِ** فقالوا في معناه أي إستَّمرت به و قامت و قعدت هذا على القلب أي فمَّر بها أي إستَّمر بها.

قال الزّمخشري يأ فمضت به الى وقت ميلاده من غير إخراج و لا إزلاق، المراد بالحمل الخفيف النَّطفة هذا كلّه بناءً على التّشديد و أمّا على التّخفيف.

كما نقل عن إبن عبّاس فهو من المرية فقوله فمرت به أي فشكت فيما أصابها أهو حملٌ أو مرض.

و قال الحسن أهو غلام أو جارية، وكيف كان لا إشكال و لا إبهام في معنى اللّفظ لأنّ الحمل في بدو الأمر يكون خفيفاً ثمّ يصير ثقيلاً تدريجاً و هذا أمرٌ محسوس للمرأة الحاملة و لا يحتاج الى مزيد بيان و أمّا تفصيل الكلام في هذا الباب فموكول الى محلّه إن شاء اللّه تعالى.

المسألة الرّابعة قوله: **فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ** والمعنىٰ فلمّا صارت حوّاء ذات ثقل، كما يقال أثمر، أي صار ذا ثمرٍ، و ذلك قرب ولادتها، أي لمّا قربت ولادتها، دعوا اللّه ربّهما، أي سألاه و قالوا لو أعطيتنا ولداً صالحاً يعني سليماً من الأفات.

و قيل معناه، صالحاً مطيعاً فاعلاً للخيرات لنكونّن من الشّاكرين، لك.

أن قلت ظاهر الآية يدلّ على أنّ السعادة و الشّقاوة في الإنسان بيد اللّه تعالى و أنّه تعالى هو الذي يعطي الولد السعيد و الشّقي و لذلك سأل أدم و حوّاء أن يكون ولدهما من الصُّلحاء و اذا كان كذلك فما ذنب الإنسان الّذي ولد من أمّه شقيّاً و هذا هو الجبر بعينه.

قلت ليس الأمر كذلك لأنّ السّعادة و الشّقاوة ليستا من الأمور الذاتيّة التّي لا تتّغير و لا تتبّدل و بعبارةٍ أخرى ليستا من المجعولات في عالم الرّحم بل هما ممّا تحصلان للعبد في دار الدّنيا بسوء سريرته و خبث طينته و سوء عمله بإختياره و إرادته و عليه فالمراد بالإعطاء الذّي سألاه من اللّه تعالى هو إعطاء التّوفيق منه تعالى بعد إيجاده الولد فيصير المعنى، لو أعطيتنا ولداً صالحاً أي موّفقاً بالصّلاح و السّداد لنكونّن من الشّاكرين على هذه النّعمة.

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

أقول هذه الآية من المشكلات و العويصات و لذلك ترى المفسرّين إختلفوا في تفسيرها إختلافاً شديداً ونحن نشير الى أصل الإشكال و ما قالوا في حلَّه ثمّ نردفه بما هو الحقّ عندنا في المقام بعون الملك الوَّهاب فنقول:

أمّا الأشكال فهو أنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ آدم و حوّاء قد أشركا باللّه تعالى بعد ما آتيهما اللّه ولداً صالحاً و ذلك لأنّ قوله: **جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ** معناه جعل آدم و حّواء له تعالى شركاء، و هكذا قوله: **فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** بصيغة الجمع الّتي تشمل آدم و حوّاء أيضاً و بعبارة أخرى قد تحقّق الشرّك وإلاّ فلا معنى لقوله: **فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** و اذا تحَقّ الشِّرك بصريح الآية فمن أشرك به تعالى غير آدم و حّواء و أولادهما، و لا يمكن تخصيص الشّرك بالأولاد و خروج آدم و حوّاء منه لأنّ قوله: **فَلَمَّآ ءَاتَيٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ** يدّل على دخولهما فيه بل إختصاص من الشّرك بهما و خروج أولادهما عنه كما هو مقتضى ظاهر الآية و اذا كان كذلك فيلزم عدم عصمة الأنبياء بل جواز كون النّبي مشركاً باللّه نعوذ باللّه منه هذا.

قال الشّيخ في التّبيان، و قوله: **فَلَمَّآ ءَاتَيٰهُمَا صَٰلِحًا** يعني فلمّا أتى اللّه آدم و حوّاء ولداً صالحاً، جعلا له شركاء، و إختلفوا في الكناية الى من ترجع في قوله: **جَعَلَا** ثمّ قال ﷺ في وجه التّفصي عن الإشكال ما هذا لفظه فقال قوم هي راجعة الى الذّكور و الإناث من أولادهما أو الى جنسي من أشرك من نسلهما و أن كانت الأدلّة تتعلّق بهما و يكون تقدير الكلام فلمّا أتى اللّه آدم و حّواء الولد الصالح الّذي تمّنياه و طلباه جعل كفّار أولادهما ذلك مضافاً الى غير اللّه و يقّوي ذلك قوله تعالى: **فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** فلو كانت الكناية عن آدم وحوّاء لقال عمّا يشركان و أنّما أراد اللّه تعالى عمّا يشرك هذان النّوعان أو الجنسان و جمعه على المعنى و قد ينتقل الفصيح من خطاب الى خطاب غيره و من كنايةٍ الى غيرها:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّآ أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا،لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ**[۱].

فأنصرف من مخاطبة الرّسول الى المرسل اليهم ثمّ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ**[۲].

يعني الرّسول ثمّ قال و تسبّحوه يعني اللّه تعالى قال الهذلي:

يا لَهف نفسي كان جدّه خالد   وبياض وجهك للتّراب الأصفر

و لم يقل و بياض وجهه الى آخر كلامه.

و قال الزّجاج و إبن الأخشاد جعل من كلّ نفسٍ زوجها كأنّه قال و جعل من النّفس زوجها على طريق الجنس و أضمر لتَّقدم الذّكر.

و قال أبو مسلم محمّد بن بحر الأصفهاني الكناية في جميع ذلك غير متّعلقة بآدم و حّواء و جعل الهاء في تغشّاها و الكناية في دعوا اللّه ربّهما و آتاهما صالحاً راجعين الى من أشرك و لم يتعلق بآدم و حواء إلاّ قوله: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ** و الإشارة بذلك الى جميع الخلق وكذلك قوله: **وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا** ثمّ خصّ بعضهم كما قال:

هُوَ اَلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِى اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ حَتّٰى إِذاٰ كُنْتُمْ فِى اَلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ[۳].

فخاطب الجماعة ثمّ خصّ راكب البحر فكذلك أخبر اللّه تعالى عن جملة أمر البشر بأنّهم مخلوقون من نفسٍ واحدة و زوجها و هما آدم و حّواء ثمّ عاد الذّكر الى الّذي سأل اللّه تعالى ما سأل فلمّا أعطاه أيّاه إدّعى له الشّركاء في عطّية انتهى.

و قال قوم يجوز أن يكون عني بقوله: **هُوَ اَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ** المشركين خصوصاً إذكان كلّ بني آدم مخلوقون من نفسٍ واحدةٍ كأنّه قال خلق

۱- الفتح = ۸ و ۹   ۲- الفتح = ۹

۳- يُونس = ۲۲

كلّ أحدٍ من نفسٍ واحدة و خلق من النّفس الواحدة زوجها و مثله كثير نحو قوله عزّ وجلّ: **فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**[1] و المعنى فأجلدوا كلّ واحدٍ منهم.

و قال قوم أنّ الهاء في قوله: **جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ** راجعة الى الولد لا الى اللّه و يكون المعنى أنّهما طلبا من اللّه تعالى أمثالاً للولد الصّالح فأشركا بين الطّلبتين كما يقول القائل طلبت منّي درهماً فلمّا أعطيتكه شركته بآخر أي طلبت آخر مضافاً اليه فعلى هذا يجوز أن تكون الكناية من أوّل الكلام الى آخره راجعة الى آدم و حوّاء انتهى. موضع الحاجة من كلامه.

أقول فهذه الوجوه المذكورة نقلناها عن التّبيان، و قد ذكرها في المجمع بأدنى تفاوتٍ في الألفاظ ثمّ أنّ العامة فأكثر مفسّريهم حملوا ألفاظ الآية على ظاهرها و قالوا أنّ آدم و حّواء جعلا للّه شريكاً في التّسمية دون العبادة و ذلك أنّهما أقاما زماناً لا يولد لهما فمرّ بهما إبليس و لم يعرفاه فشكوا اليه فقال لهما إن أصلحت حالكما حتّى يولد لكما تسّميانه بأسمى قالا نعم و ما أسمك قلا الحرث فولد لهما فسمّياه عبد الحرث ذكره ابن فضال و قيل أنّ حوّاء حملت أوّل ما حملت فأتاها إبليس في غير صورة فقال لها يا حوّاء ما يؤمنك أن تكون في بطنك بهيمة فقالت لأدم فقد أتاني أتٍ فأخبرني أنّ الّذي في بطني بهيمة و أنّي لأجد له ثقلاً فلم يزالا في همٍّ من ذلك ثمّ أتاها فقال أن سألت اللّه أن يجعله خلقاً سوّياً مثلك و يسّهل عليك خروجه أتسمّيه عبد الحرث و لم يزل بها حتّى غرّها فسمّته عبد الحرث برضا أدم و كان إسم إبليس عند الملائكة الحارث.

و نقل الرّازي في تفسيره ما هذا لفظه:

المرّوي عن إبن عبّاس هو الذّي خلقكم من نفسٍ واحدة و هى نفس أدم، و خلق منها زوجها أي حوّاء، خلقها اللّه من ضلع أدم عليه السلام من غير أذى فلمّا تغشّاها أدم حملت حملاً خفيفاً فلمّا أثقلت أي ثقل الولد في بطنها أتاها

١- النّور = ٤

إبليس في صورة رجل و قال ما هذا يا حوّاء أنّي أخاف أن يكون كلباً أو بهيمة و ما يدريك من أين يخرج أمن دبرك فيقتلك أو ينشُّق بطنك فخافت حوّاء و ذكرت ذلك لادم عليه السلام فلم يزالا في همٍّ من ذلك ثمّ أتاها و قال أن سألت اللّه أن يجعله صالحاً سوّياً مثلك و يسهل عليك خروجه تسميّه عبد الحرث و كان إسم إبليس في الملائكة الحرث فذلك قوله: **فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ** فيما أتاهما أي لمّا أتاهما اللّه ولداً سوّياً صالحاً جعلاً له شريكاً أي جعل أدم و حوّاء له شريكاً و المراد به الحرث هذا تمام القصّة.

ثمّ قال الرّازي في الجواب و إعلم أنّ هذا التّأويل فاسد و يدلّ عليه وجوه:

الأوّل: أنّه تعالى قال: **فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** و ذلك يدلّ على أنّ الذّين أتوا بهذا الشّرك جماعة.

الثّاني: أنّه تعالى قال بعده أيشركون ما لا يخلق شيئاً و هم يخلقون، و هذا يدلّ على أنّ المقصود من هذه الآية الرَّد على من جعل الأصنام شركاء للّه تعالى و ما جرى لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر.

الثّالث: لو كان المراد إبليس لقال أيشركون من لا يخلق شيئاً و لا يقل ما لا يخلق شيئاً لأنّ العاقل أنّما يذكر بصيغة، من، لا بصيغة، ما.

الرّابع: أنّ أدم عليه السلام كان من أشدّ النّاس معرفةً بإبليس وكان عالماً بجميع الأسماء كما قال اللّه تعالى: **وَ عَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** [1] فكان لابدّ وأن يكون قد علم أنّ إسم إبليس هو الحرث فمع العداوة الشديدة بينه و بين أدم و مع علمه يأنّ إسمه هو الحرث كيف سمّى ولد نفسه بعبد الحرث وكيف ضاقت عليه الأسماء حتّى أنّه لم يجد سوى هذا الإسم.

الخامس: أنّ الواحد منّا لو حصل له ولد يرجوا منه الخير و الصَّلاح فجاءه إنسان و دعاه الى أن نسمّيه بهذه الأسماء لزجره و أنكر عليه أشدّ الإنكار فأدم عليه السلام مع نبّوته و علمه الكثير الذّي حصل له من قوله: **وَ عَلَّمَ ءَادَمَ**

١- البقرة = ٣١

ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا و تجاربه الكثيرة الّتي حصلت له بسبب الزّلة الّتي وقع فيها لأجل وسوسة إبليس كيف لم ينبّه لهذا القدر و كيف لم يعرف أنّ ذلك من الأفعال المنكرة الّتي جيب على العاقل الإحتراز منها.

السّادس: أنّ بتقدير أنّ أدم عليه السلام سمّاه بعبد الحرث فلا يخلو إمّا أن يقال أنّه جعل هذا اللّفظ إسم علم له أو جعل صفة له بمعنى أنّه أخبر بهذا اللّفظ أنّه عبد الحرث و مخلوق من قبلَه فأن كان الأوّل لم يكن هذا شركاً باللّه لأنّ أسماء الأعلام و الألقاب لا تفيد في المسّميات فائدة فلم يلزم من التّسمية بهذا اللّفظ حصول الإشراك و أن كان الثّاني كان هذا قولاً بأنّ أدم عليه السلام إعتقد أنّ للّه شريكاً في الخلق و الإيجاد و التّكوين و ذلك يوجب الجزم بتكفير أدم عليه السلام و ذلك لا يقوله عاقل فثبت بهذه الوجوه أنّ هذا القول فاسد و يجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت اليه انتهى ما أفاده الرّازي في الجواب.

وأنا أقول ما ذكره لا بأس به بل هو حقّ لا مرية فيه من جهة إنكاره القصّة فأنّها من الإسرائيليات و المجعولات في عهد خلفاء الأموي و أمّا إنتسابها الى إبن عبّاس فهو بعيد في الغاية لأنّه أجلّ شأناً من هذه الأراجيف وكيف كان فلا شكّ أنّ العاقل المسلم لا يلتفت اليه كما ذكره الرّازي فأنظر الى ركاكة القصّة و كذبها و أنّها من المفتّريات أنّ الرّازي مع أنّه من العامّة ظاهراً أنكرها أشدَّ الإنكار و على هذا فلا نحتاج الى الجواب عن العامّة الّذين تمّسكوا بهذه القصّة في تفاسيرهم فأنّ ما ذكره الرّازي أتّم حجّةً عليهم اذا عرفت هذا فنقول:

قد ذكروا في تأويل الآية وجوهاً كثيرة:

منها، ما نقله الرّازي عن القفال و حكم بأنّه في غاية الصّحة و السّداد و هو أنّه تعالى ذكر هذه القصّة على تمثيل ضرب المثل و بيان أنّ هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم و قولهم بالشّرك و تقرير هذا الكلام كأنّه تعالى يقول: هو الذّي خلق كلّ واحدٍ منكم من نفسٍ واحدة و جعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانيّة فلمّا تغّشى الزّوج زوجته و ظهر الحمل دعا

الزّوج و الزوجّة ربّهما لئن أتيتنا ولداً صالحاً سوّياً لنكوننّ من الشّاكرين لألائك و نعمائك فلمّا أتاهما اللّه ولداً صالحاً سوّياً جعل الزّوج و الزّوجة للّه شركاء فيما أتاهما لأنّهم تارةً ينسبون ذلك الولد الى الطّبائع كما هو قول الطّبائعيين و تارةً الى الكواكب كما هو قول المنّجمين و تارةً الى الأصنام كما هو قول عبدة الأصنام.

ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** أي تنّزه اللّه عن ذلك الشّرك و هذا جواب في غاية الصّحة و السّداد انتهى كلامه.

أقول ما ذكره في الجواب و حكم بصحّته و أن كان صحيحاً في الواقع كما قال تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**[1] إلاّ أنّه لا يناسب ظاهر الآية و ذلك لأنّ حمل الآية على ضرب المثل بعيد جدّاً بعد التّأمل فيها مضافاً الى إجماع المفسّرين بأنّ المراد بالنّفس الواحدة أدم و بزوجها حوّاء فرفع اليد عن هذا الظّاهر و تأويل الآية بما ذكره نقلاً عن القفال لا يساعده العقل و النّقل.

الوجه الثّاني: ما ذكره بعض الأفاضل في المقام و حاصله أنّ القصّة من أوّلها الى أخرها في حقّ أدم و حوّاء و لا إشكال في ألفاظها إلاّ قوله: **فَلَمَّآ ءَاتَيٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ** فيما أتاهما فاذا قلنا تقدير الكلام فلمّا أتاهما ولداً صالحاً سوّياً جعلا له شركاء أي جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف و إقامة المضاف اليه مقامه وكذا فيما أتاهما أي فيما أتى أولادهما و نظيره قوله تعالى: **وَاسأَل الْقَرية** أي و إسأل أهل القرية.

و أمّا وجه التثنية في قوله: **جَعَلَا** حيث لم يقل، جعلوا له شركاء فلأنّ الولد قسمان ذكر و أنثى فقوله: **جَعَلَا** و المراد منه الذّكر و الأنثى مرّة عبَّر عنهما بلفظ التّثنية لكونهما صنفين و نوعين و مرّةً عبَّر عنهما بلفظ الجمع و هو قوله: **فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** انتهى.

۱- سبأ = ۱۳

أقول هذا الوجه أيضاً ممّا لا يمكن الإعتماد عليه لأنّه لا يتّم إلاّ على فرض ثبوت التّقدير و هو حذف المضاف و إقامة المضاف اليه مقامه و لا دليل عليه بل نقول الأصل عدم التّقدير و على المدِّعى الإثبات و مجرّد الإحتمال لا يكفي في الإستدلال مضافاً الى أنّ التّقدير في الكلام يحتاج الى المجوز العقلي أو النّقلي و اذ ليس فليس.

وإعلم أنّ التّأويلات في الآية كثيرة فمن أراد الوقوف على أكثر ممّا ذكرناه فعليه بمراجعة تفاسير القوم فأنّهم قد أطنبوا و أطالوا الكلام فيها و إستخرجوا ظنوناً و تخيّلات من الإسرائيليات التّي نقلوها في كتبهم و تفاسيرهم و قد غفلوا أنّ من فسَّر القرأن برأيه فليتَّبوأ مقعده من النّار اذا عرفت ما تلوناه عليك فلنرجع الى تفسير الآية.

ونقول ليس في الآية ما يدّل على أنّ المراد بالنّفس الواحدة أدم و بزوجها حوّاء فقولهم أنّ المراد بالنّفس الواحدة أدم و المراد بزوجها حوّاء كلام لا يدّل عله دليل لا عقلاً و لا نقلاً و ليت شعري من أين ثبت لهم هذا و ليس من أدم و لا من حوّاء في الآية المبحوثة عنها و لا فيما قبلها عينٌ و لا أثر و على هذا فالخطاب في قوله تعالى: **خَلَقَكُمْ** عامّ يشمل جميع البشر و المعنى **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ** أي حقيقة واحدة و هى التّراب:

كما قال تعالى: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فيهٰا نُعيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرٰى**[1].

و جعل منها، أي من الحقيقة التّرابية زوجها أي خلق اللّه من التّراب الذّكر و الأنثى فأنّ كلمة، من، في قوله: **مِنْهٰا** للتّبعيض أي جعل بعض التّراب بصورة الأنثى فالمادّة فيهما واحدة.

ثمّ قال: **لِيَسْكُنَ إِلَيْهٰا** أي ليسكن الذّكر الى الأنثى و يميل اليها و ليطّمئن قلبه بها فاللاّم في قوله: **لِيَسْكُنَ** للغاية، أو للتّعليل أنّما جعلنا زوجها منها

١- طه = ٥٥

للسكون و القرار و الأنس ليحصل به التوالد و التّناسل و يكثر به نسل البشر فلمّا تغشّيها، أي فلمّا جامع الذّكر الأنثى، حملت، الأنثى حملاً خفيفاً في بادئ الأمر فمّرت و إستّمرت الأنثى بهذا الحمل فلمّا أثقلت أي صارت الأنثى ذات ثقلٍ و ذلك بعد صيرورة النّطفة في الرّحم جنيناً.

دعوا اللّه ربّهما، أي الزّوج و الزّوجة دعوا ربّهما و سألاه الولد الصّالح فقالا لئن أتيتنا صالحاً لنكونّن من الشّاكرين.

و هذا الدُّعاء و السؤال بمقتضى الفطرة السليمة و العقل مركوزٌ في جميع الأذهان مطلوبٌ لكلّ واحدٍ من الأبوين فأنّ الولد الصّالح من أعظم النعم: **فَلَمَّآ ءَاتَيٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ** أي جعل الزّوجين له أي للّه شركاء فيما أتاهما **فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** أي فلمّا أتاهما اللّه ولداً صالحاً سلك الزّوجين أعني بهما الأب و الأمّ مسلك الطغيان و العصيان و نسيا ما سألا ربّهما من قولهما: **لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ**.

ففي الآية دلالة على أنّ البشر نوعاً كذلك قال اللّه تعالىٰ: **كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ،أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ**[1] و ليس الحكم كلياً بحيث يشمل آحاد جميع البشر حتى الأنبياء و الأوصياء و ذلك لأنّ الحكم ليس من الأحكام العقلية التي لا تقبل التخصيص بل من الأحكام العادية العرفية و هذه الأحكام صدورها بإعتبار الأغلب و الأكثر و محصل الكلام في الآية هو أنها ليست بصدد بيان خلقة آدم و حوّاء و أنهما جعلا للّه شركاء في أولادهما الى آخر ما قالوا فيها بل يستفاد منها و جوب شكر المنعم عقلاً هذا ما فهمناه من الآية و اللّه تعالى أعلم بما قال.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ

١- العلق = ٦ و ٧

الإستفهام للتّوبيخ و التعفيف للمشركين الّذين أشركوا باللّه و جعلوا المخلوق شريكاً لخالقه و هو عجيب بل دال على سفاهة القوم و حماقتهم حيث جعلوا المخلوق خالقاً و لم يعلموا أنّ ما لا يقدر على خلق شئٍ كيف يكون خالقاً و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ الموجود على قسمين:

واجبٌ و ممكن و لا ثالث لهما لأنّ الموجود أن كان وجوده بنفسه و لنفسه و من نفسه و وجوده عين ذاته فهو الواجب وأن كان وجوده من غيره عارض على ماهيته و ذاته فهو ممكن الموجود و بعبارةٍ أخرى الموجود أن لم يكن مسبوقاً بالعلّة فهو الواجب و أن كان مسبوقاً بها فهو الممكن و إنّما لا ثالث لهما لأنّ الشّئ الموجود لا يعقل أن يكون مسبوقاً بها و غير مسبوق بها للزم إجتماع النّقيضين يعقل أن لا يكون مسبوقاً بها و لا غير مسبوق بها للزوم إرتفاع النّقيضين وإستحالة الإجتماع و الإرتفاع من البديهيات العقلية، فثبت أنّ الممكن مخلوق كائناً ما كان لأنّه مسبوق بالعلّة و اذا كان كذلك فكلّ ما يعبد غير اللّه تعالى فهو مخلوق له تعالى لدخوله في الممكنات و اذا كان مخلوقاً فكيف يكون خالقاً و هو المطلوب.

و يظهر من الكلام أنّ المعبود الذّي يستّحق أن يعبد لابدّ له من وجود الشّرطين المذكورين في الأية:

أحدهما: أن يكون خالقاً لغيره أي موجداً إيّاه على سبيل الإبداع من غير رؤيةٍ ولا إحتذاءٍ.

ثانيهما: أن لا يكون مخلوقاً لغيره فأنّ المخلوق لا يكون خالقاً على الإطلاق و هذان الشّرطان لا يوجدان إلاّ في الواجب تعالى فهو المعبود لا غيره و حيث أنّ المشركين أثبتوا له شريكاً فاقداً للوصفين فلا محالة صاروا مستحقين للذّم.

وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَ لَآ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

فهو في الحقيقة بمنزلة التّعليل لقوله: **أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ** الخ فكأنّه قيل لم لا يكون المخلوق خالقاً معبوداً فقال في الجواب لأنّهم أي الشُّركاء لا يقدرون على نَصر غيرهم بل و لا على نصر أنفسهم و ما كان كذلك فكيف يكون خالقاً و توضيحه إجمالاً هو أنّ الخالق للعبد إمّا أن يكون قادراً أو ليس بقادرٍ فأن كان قادراً على كلّ شيْءٍ فهو المطلوب.

و ان لم يقدر فهو ضعيف، و الضعيف يحتاج الى غيره قهراً و المحتاج الى الغير مخلوق لأنّ الإحتياج من لوازم الإمكان بل هو عينه اذ لا نعني بالممكن إلاّ المحتاج الفقير و حيث أنّ ما سوى اللّه تعالى كائناً ما كان ضعيف في ذاته محتاج الى غيره في أفعاله و أقواله بالنّسبة الى ذاته فضلاً عن غيره فكيف يكون خالقاً معبوداً فمن أشرك باللّه و جعل الشّمس و القمر و النجوم و الأصنام و أمثالها شركاء للّه تعالى حكم على خلاف العقل و هو كما ترى.

و محصّل الكلام هو أنّ المقصود من هذه الآية إقامة الحجّة على أنّ الأوثان و غيرها من أصناف المخلوق لا تصلح للإلهية لأنّ ما لا يقدر على نصر نفسه فهو لا يقدر على نصر غيره بطريق أولى فأنّ المعطي للشّئ لا يكون فاقداً له واضح.

أن قلت كيف وحدّ، يخلق ثمّ جمع فقال: **وَ هُمْ يُخْلَقُونَ** و أيضاً كيف ذكر الواو و النّون في جمع غير النّاس.

قلتُ أجابوا عن الأوّل بأنّ لفظة، ما، تقع على الواحد و الأثنين و الجمع فوَّحد اللّه تعالى قوله: **يَخْلُقُ** رعايةً لحكم ظاهر اللّفظ و جمع قوله: **وَ هُمْ يُخْلَقُونَ** رعايةً لجانب المعنى.

عن الثّانى: بأنّ الجمع بالواو و النّون في غير ذوي العقول أنّما هو، بإعتقاد المشركين أنّها تعقل و تميز فورد هذا اللّفظ بناءً على إعتقادهم و نظيره قوله:

قال اللّه تعالى: **وَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي سٰاجِدِينَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **يآ أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسٰاكِنَكُمْ**[٣].

ذَكَره الرّازي في تفسيره ثمّ قال:

المسألة الثّانية: قوله **أَيُشْرِكُونَ مٰا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ** إحتجَّ أصحابنا بهذه الآية على أنّ العبد غير موجدٍ و لا خالقٍ لأفعاله قالوا لأنّه طعن في إلهّية الأجسام بسبب أنّها لا تخلق شيئاً و هذا الطّعن أنما يتّم لو قلنا إنّ بتقدير أنّها كانت خالقة لشيٍ لم يتّوجه الطّعن في إلهّيتها و هذا يقتضي أنّ كلّ من كان خالقاً كان إلهاً فلو كانّ العبد خالقاً لأفعال نفسه كان إلهاً و لمّا كان ذلك باطلاً علمنا أنّ العبد غير خالقٍ لأفعال نفسه انتهى كلامه.

أقول ما ذكره أشبه بشيٍ بالمغالطة و لا يرجع الى محصّلٍ، و ذلك لأنّ المراد بالخلق في المقام الخلق على سبيل الإبداع و الإستقلال لا الخلق على وجه التّسبيب و من المعلوم أنّ العبد خالق لأفعاله على وجه السَّببية لا على وجه الإستقلال و أن شئت قلت إنّ العبد سبب في الإيجاد لا أنّه مستّقلّ فيه يكون مستّقلاً فيه و هو مخلوق لغيره و محتاج اليه في جميع حركاته و سكناته فالعبد خالق لفعله موجد إيّاه بتوفيقٍ من خالقه فهو خالق بإعتبار نفسه غير خالقٍ بإعتبار خالقه و اذا كان كذلك فلا يكون إلهاً و معبوداً و هذا معنى الأمر بين الأمرين.

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدٰى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوٰآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ

بعد ما تبَّين في الآية السّابقة أنّه لا قدرة لهذه الأصنام بيَّن بهذه الآية أنّه لا علم لها بشيٍ من الأشياء فالمعنى أنّ هذا المعبود الّذي يعبده المشركون كما لا

١- يس = ٤٠ ٢- يوسف = ٤

٣- النمل = ١٨

ينفع و لا يضّر كذلك لا يسمع و لا يفهم اذا دعي الى الخير فلا يتّبع لما دعي اليه ثمّ قوّي هذا الكلام بقوله: **سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** هكذا قيل في معنى الآية و عليه فهو من قبيل قوله: **سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**[1].

و محصّل الكلام أنّ العاقل لا يعبد ما لا يعقل و من كان كذلك فهو ليس بعاقلٍ واقعاً و أن عدّ في عرف الحمقاء بالعاقل و هو واضح.

لأنّ المعبود الّذي لا ينفع و لا يقدر و لا يعلم و لا يسمع لا خير في وجوده أصلاً بل وجوده كالعدم أن لم نقل عدمه أولى من وجوده و لأجل ذلك أكدّ اللّه تعالى كلامه فقال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** المراد بالموصول الأصنام التّي كانوا يدعونها من دون اللّه و أنّما قال الّذين، لأنّها بزعمهم كانت تنفع و تضُّر فجاز أن يكنّى عن الحيّ و قد مرّ الكلام فيه.

و المعنى أنّ الأصنام التّي تدعونها من دون اللّه عبادٌ أي مخلوق أمثالكم، و كلمة، من، لإبتداء الغاية و فيه إشارة الى أنّ ما سوى اللّه كائناً ما كان مخلوق للّه تعالى لأنّ الموجود لا يخلو عن هذين القسمين على ما مرَّ تحقيقه فاذا ثبت أنّ الوجود عين ذاته فهو الخالق و إلاّ فهو مخلوق و حيث أنّ الخالق الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكمالّية هو اللّه تعالى بمعنى أنّ إسم، اللّه، علمٌ على الأصّح له قال تعالى: **مِنْ دُونِ ٱللَّهِ** و لم يقل من دون الخالق و الرّازق و الرّحمن و غيرها من الأسماء ففي التّعبير بكلمة، اللّه، إشعارٌ بأنّ المعبود الّذي يستّحق أن يعبد هو اللّه فقط و لأجل هذه الدّقيقة أتى بالفاء فقال: **فَادْعُوهُمْ** أي اذا كان الأمر على هذا المنوال فأدعوهم **فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** في دعواكم بمعبودّية الأصنام و غيرها من المخلوق و

١- البقرة = ٦

حيث لا تقدرون على الإستجابة فلا محالة أنتم كاذبون في دعواكم و أمّا من قال من الصُّوفية أنّ الأصنام تعبد اللّه على الحقيقة كما يبد العقلاء و أن كنّا لا نفقه فقد تجاهل في قوله هذا أو لم يعلم معنى العبوديّة و ذلك لأنّ العبادة ضربٌ من الشُّكر و الشُّكر هو الإعتراف بالنّعمة مع ضرب من التّعظيم و العبادة و أن كانت شكراً فأنّه يقارنها خضوعٌ و تذُّللٌ وكلّ ذلك يستحيل على الجماد هكذا حقَّقه بعض المفسّرين و الأولى أن يقال أنّ المعبود الذّي يستّحق أن يعبد هو الّذي يخلق و لا يخلق و يرزق و لا يرزق و ينفع و لا ينفع و هكذا و حيث قد ثبت أنّ ما سوى اللّه كائناً ما كان لا يكون كذلك بمعنى أنّ العابد و المعبود سواء في الفقر و الإحتياج فهو لا يستّحق أن يعبد لأنّ العاقل لا يعبد مثله ضرورة أنّ حكم الأمثال واحد و اليه الإشارة بقوله: **عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** أي لا مزيّة للمعبود على العابد بل الأمر بالعكس لأنّ العابد من ذوي العقول و المعبود جماد و هو كما ترى هذا كلّه مضافاً الى أنّ قاعدة الإمكان الأشرف تقتضي خضوع الأحسن للأشرف و لا شكّ أنّ أشرف الموجودات هو اللّه تعالى لأنّ الوجود منه و غيره موجودٌ به فالحقّ في المقام هو خضوع ما سواه له.

و أمّا الخضوع للأصنام فهو من خضوع الأشرف للأخس لأنّ الإنسان العاقل أشرف من الجماد ثمّ أنّ اللّه تعالى لم يقنع بما ذكره إجمالاً بل شرع في التّفصير حتّى لا يبقى في المقام شبهة:

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ

فقد أكدّ اللّه تعالى الحجّة على المشركين في هذه الآية فالإستفهام للإنكار أي ليس لهؤلاء الأصنام أرجلٌ يمشون بها و لا لهم أيدٍ يبطشون بها و لا أذانٌ

يسمعون بها و ما كان كذلك فهو دون منزلة الكفّار لأنّ الكفّار واجدون لهذه النِّعم بخلاف الأصنام فهؤلاء الكفّار أقدر على الأشياء من الأصنام فكيف يجوز أن يتَّخذوها مع ذلك ألهة لأنفسهم أليس هذا رجوعٌ الى القهقري و سقوطٌ من الإنسانية الى أخسَّ و أردء من الجماد.

ثمّ قال تعالىٰ: **قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ** أي الأوثان و الاصنام التّي تعبدونها و تزعمون أنّها ألهة و تشركونها في أموالكم فتجعلون لهم حظّاً من الأموال و المواشي و توّجهون عبادتكم اليها و أسألوهم أن يضُرّوني و أن يكيدوني معكم و لا تؤخّروا ذلك أن قدروا عليه و متى لم يتَّمكنوا من ذلك فأعلموا أنّها لا تستَّحق العبادة لأنّها في غاية الضّعف و العجز هكذا فسَّره الشّيخ في التّبيان.

و قال بعضهم قوله تعالى: **عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** إستهزاءاً بهم أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فأن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم ثمّ أبطل أن يكونوا عباداً أمثالكم، فقال ألهم أرجلٌ يمشون بها الى أخر الكلام أي لمّا لم يكن لهم أرجلٌ يمشون بها الخ فهؤلاء ليسوا أمثالكم .

و قرأ سعيد بن جبير في الآية السّابقة إنّ الّذين، بالتّخفيف على معنى النّفي أي ما الّذين تدعون من دون اللّه عباداً أمثالكم بناءً على أعمال إن النّافية عمَل ما الحجازيّة و على هذا القراءة فقوله تعالى: **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ** الخ... بمنزلة الدّليل على إثبات المدّعى أي لو كانوا عباداً أمثالكم لكان لهم الرِّجل و العين، و السَّمع و اليد لأنّ حكم الأمثال واحد و اذ ليس فليس.

أقول الحقّ أنّ المثليّة في قوله: **عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** أن كان المراد بها الإنسانيّة فتَّم ما ذكره، و أن كان المراد بها المخلوقيّة فلا إبطال في المقام لأنّ المثليّة ثابتة أمّا في أنّهم مخلوقون، أو في أنّهم مملوكون مقهورون و عليه فلم يبطل بقوله: **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ** الخ....

قوله: **عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** و لكن هذا الإحتمال بعيد و الأوّل أقوى لأنّ العبد لا يطلق على الجماد حتّى يكون مثل الإنسان و توضيحه أنّ المثليّة ناظرة الى

الصّفات و الخصوصيّات و لو كانت إعتباريّة لا الى الحقيقة و الذّات ألا ترى أنّه لا يقاس الفرس مثل الإنسان مع أنّهما مخلوقان للّه تعالى و يقال زيد مثل عمرو و هذا الفرس مثل هذا الفرس و هكذا و عليه فقول القائل أنّ المثليّة في قوله: **عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** ثابتة في أنّهم مملوكون مقهورون كلام بلا محصّل لا ينبغي الإلتفات اليه و اذا لم تكن المثليّة ثابتة فقوله تعالى ألهم أرجلٌ يمشون بها الخ مبطلٌ لقوله: **عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** و اذا كان الأمر على هذا المنوال فقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** لا يخلوا من وجهين:

أحدهما: أن تكون لفظة، إن، مخّففة نافية و المعنى ما الذّين تدعون من دون اللّه عباد أمثالكم و بعبارةٍ أخرى الأصنام التّي تعبدونها ليست أمثالكم اذ ليس لها رجل و لا يد و لا عين و لا سمع و لا غيرها من القوى و الأعضاء التّي هي موجودة فيكم و اذا لم تكونوا أمثالكم فإمّا أن تكونوا أشرف و أفضل منكم أو أخسّ و الأوّل لا يكون لأنّ الأشرف من الإنسان هو اللّه تعالى.

الثّاني: و هو الأخسيّة ثابتة لها فأنتم تعبدون الأخسّ و هو قبيح عقلاً و على هذا التوجيه فقراءة سعيد بن جبير و هى كون، إن، نافية لا بأس بها و أن كانت خلاف المشهور.

والوجه الثّاني: أن تكون، أنّ، مثقلّة كما هو المشهور و عليه المصاحف فالمعنى أنّ الّذين تدعون من دون اللّه من الأصنام و الأوثان عباد أمثالكم لا تنفع و لا تضُّر واقعاً خلافاً لما زعمتم في حقّها من أنّها تنفع و تضُّر فأدعوهم فليستجيبوا لكم أن كنتم صادقين في دعواكم و حيث أنّهم غير قادرين على الإستجابة لكونهم من الجماد واقعاً ألا ترون أنّه ليس لهم رجل و لا يد و لا عين و لا سمع و لا عقل، فكيف يكونون معبودين لكم و المعبود لا يكون جماداً جمهور المفسّرين و لازم ذلك أن يكون تقدير الكلام عباد أمثالكم بزعمكم.

و لقائلٍ أن يقول أن كان المراد بقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ** الأصنام و الأوثان كما عليه الجمهور فما معنى قوله: **عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** والعَبد لا

يطلق على الجماد قطعاً، و بعبارةٍ أخرى كيف يعقل أن يزعم المشرك أنّ الأصنام و الأوثان عباد أمثالهم و العبد لا يطلق على الحيوان فضلاً عن الجماد حتّى يقال في إبطال ما زعمه ألهم أرجل يمشون بها الخ.

و الّذي يقوّي في نفسي في تفسير الكلام هو حمله على معناه العامّ الشّامل لكلّ ما يدعى غير اللّه سواء كان بعنوان الإلوهية أم بغيره و عليه فالمعنى أنّ الّذين تدعون من دون اللّه سواء كان من الأصنام أم من غيرها عباد أمثالكم أي مخلوق مثلكم.

قال بعض المفسّرين أنّ بعض المشبّهة تمسّكوا بهذه الآية في إثبات هذه الأعضاء للّه تعالى فقالوا أنّ اللّه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء لهذه الأصنام دليلاً على عدم إلهيّتها فلو لم تكن الأعضاء موجودة للّه تعالى لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية و ذلك باطلٌ فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء له تعالى المطلوب.

و قد أجابوا عنه بأنّ المقصود من الآية بيان أفضليّة الإنسان و أكمليّته من الصّنم و أنّ إشتغال الأفضل الأكمل بعبادة الأخسّ الأدون جهل وليست الآية بصدد بيان إثبات الأعضاء للمعبود و عدمه و هو ظاهر لا خفاء فيه و لذلك قال تعالى: **قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ** ثمّ أنّ أبا عمرو و نافع أثبتا الياء في، كيدوني، و الباقون حذفوها و عليه المصاحف.

إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يقول للمشركين أن ولّي اللّه الّذي نزّل الكتاب و هو القرأن و هو يتّولى الصّالحين الذّين يطيعونه و يجتنبون معاصيه ففي هذا الكلام أشير الى أمرين:

أحدهما: أنّه تعالى نزّل الكتاب و لا شكّ أنّه من المعجزات الباقية الخالدة الى يوم القيامة.

ثانيها: أنّه يتَّولى الصّالحين الذّين أمنوا به و عملوا الصالحات و من كان كذلك فهو المستحق للمعبوديّة لا غيره كائناً ما كان ففي الآية دلالة على أنّ المعبود الّذي لا ينفع ليس بمعبودٍ واقعاً و تخصيص الكتاب بالذّكر إشارة الى أنّ الكتاب فيه نفعٌ كثير لمن عمل به اذ به تحصل سعادة الدّارين كما أنّ في توّلي الصّالحين عزّة الدّارين قال اللّه تعالى: **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ**[1] وأيُّ نفع أكبر من هذا:

وَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لَآ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

أي و الّذين تدعون من دون اللّه، و تريدون منهم النَّصر و الظَّفر، لا يستطيعون نصركم و لا أنفسهم ينصرون، أي أنّهم لا يقدرون على نصر أنفسهم فضلاً عن نصركم و هذه صفة الأصنام و الأوثان بل كلّ مخلوقٍ فأن المخلوق في جميع الشّئون محتاج الى خالقه لا يقدر على شئٍ من عند نفسه أبداً قالوا في وجه تكرير هذا المعنى أنّ الآية التّي مرَّت ذكرها سابقاً كانت على وجه التّقريع.

و أمّا في المقام فلإفادة الفرق بين صفة من تجوز له العبادة ممّن لا تجوز كأنّه قال أنّ نصري اللّه و لا ناصر لكم ممّا تعبدون.

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَ تَرَيٰهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ

قال الطبري يقول جلّ ثناءه لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم قل للمشركين و إن تدعوا أيّها المشركون آلهتكم الى الهدى و هو الإستقامة الى السّداد لا يسمعوا يقول لا يسمعوا دعاءكم و تراهم ينظرون اليك و هم لا يبصرون و هذا خطاب من اللّه لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول و ترى يا محمّد آلهتهم ينظرون اليك و هم لا يبصرون و

١- البقرة = ٢٥٧

لذلك وحّد و لو كان أمر النّبي بخطاب المشركين لقال و ترونهم ينظرون اليكم إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره الطبري، من أنّ الخطاب في قوله: **وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدٰى** للنّبي بتقدير، قل، لا دليل عليه بل الدّليل موجود على عدمه الأصل أي أنّ الأصل عدم التّقدير و عليه فالخطاب للنبي و لا تقدير في الكلام و المعنى أن تدعوا المشركين الى الهدى أي الى الإعراض عن عبادة الأوثان لا يسمعوا بمعنى لا يقبلوا و هم يرونه و لا ينتفعون برؤيته أي و ترى المشركين ينظرون اليك و هم لا يبصرون واقعاً و فيه إشارة الى وجود الفرق بين النّظر و بين البصيرة و الحاصل أنّ حمل الآية على ظاهر ممّا لا إشكال فيه فلا نحتاج الى هذه التكلّفات،بعضهم أنّ تناسق الضّمائر يقتضي أنّ الضّمير المنصوب في و أن تدعوهم، للأصنام و نفي عنهم السّماع لأنّها جماد لا تحّس و أثبت لهم النّظر على سبيل المجاز بمعنى أنّهم صوّرهم ذوي أعين فهم يشبهون من ينظر و من قلب صدقته للنّظر ثمّ نفى عنهم الأبصار إنتهى.

أقول كلّ ذلك لا يرجع الى محصّل إذ لا نحتاج الى هذه التّأويلات الباردة بعد إمكان حمل اللّفظ على ظاهره، و ما معنى تناسق الضّمائر و إثبات النّظر لهم على سبيل المجاز و أيّ مانع في المقام يمنع من حمل اللّفظ على معناه الحقيقي أنّ المشركين كانوا ينظرون الى الرّسول بأعينهم فهو أمرٌ محسوس و أمّا انّهم كانوا متصفين بعدم البصيرة فهو أيضاً ممّا لا شكّ فيه إذ لو كانوا من أهل البصيرة لم يشركوا باللّه طرفة عينٍ قال اللّه تعالىٰ: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهٰآ**[1] فَلَيس كلّ من يَرىٰ ويَنظُر و يبصر و إلاّ فالحيوان يرى و ينظر مع أنّه لا يبصر قطعاً هذا ما فهمناه من الآية و العلم عند اللّه.

■

١- الاعراف = ١٧٩

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْجاٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذٰا مَسَّهُمْ طٰآئِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطٰانِ تَذَكَّرُوا فَإِذٰا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لاٰ يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَ إِذٰا لَمْ تَأْتِهِمْ بِاٰيَةٍ قٰالُوا لَوْلاَ ٱجْتَبَيْتَهٰا قُلْ إِنَّمٰآ أَتَّبِعُ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هٰذٰا بَصٰآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَ إِذٰا قُرِئَ ٱلْقُرْاٰنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْاٰصٰالِ وَ لاٰ تَكُنْ مِنَ ٱلْغٰافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

◁ اللّغة

ٱلْعَفْوَ مصدر عَفىٰ أي صفح عنه و ترك ذنوبه.

الْعُرْفِ بضّم العين و سكون الرّاء و الفاء ضّد النّكر.

يَنْزَغَنَّكَ، النَّزغ الحركة تقول نزغته إذا حرّكته و قد جاء بمعنى الفساد أيضاً يقال نزغ فلان بيننا أفسد.

إِذٰا مَسَّهُمْ طٰآئِفٌ قيل الطّائف ما أطاف بك من وسوسة الباطل.

يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَيِّ أي يزيدونهم في الغواية و الإضلال.
ٱجْتَبَيْتَهَا أي اختلقتها و أقتلعتها من قبل نفسك و قيل الإجتباء الإختيار.
بَصَآئِرُ جمع بصيرة و هى البراهين الواضحة.
وَ أَنْصِتُوا، الإنصات الإصغاء لفهم الكلام.
خِيفَةً بكسر الخاء الخوف.
وَ ٱلْآصَالِ جمع أصل و الأصل جمع الأصيل فالآصال جمع الجمع و قيل هو جمع أصل و الأصل يقع على الواحد و الجمع و معناه العشيّات و هو ما بين العصر الى غروب الشمس.

◁ الإعراب

يَمُدُّونَهُمْ بفتح الياء و ضّم الميم من، مَدَّ يَمُدُّ و يقرأ بضّم الياء وكسر الميم من أَمَّده إمداداً.
فِى ٱلْغَيِّ يجوز أن يتعّلق بالفعل المذكور و يجوز أن يكون حالاً من ضمير المفعول أو من ضمير الفاعل فَاسْتَمِعُوا لَهُ يجوز أن تكون اللاّم بمعنى للّه أي لأجله و يجوز أن تكون زائدة أي فأستمعوه و يجوز أن تكون بمعنى، الى تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً مصدران في موضع الحال ودُونَ ٱلْجَهْرِ معطوف على تضّرع و التّقدير مقتصدين بِالْغُدُوِّ متعلّق بأدعوا وَ ٱلْآصَالِ جمع الجمع لأنّ الواحد أصيل و فعيل لا يجمع على إفعال بل على فعل ثمّ فعل على إفعال و الأصل أصيل و أصل ثمّ آصال و يقرأ شّاذاً، و الايصال بكسر الهمزة و ياء بعدها و هو مصدر أصلنا إذا دخلنا في الأصيل.

◁ التّفسير

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ

أمر اللّه تعالى نبيّه بالعفو عن المسيئين أوّلاً ثمّ أمره أن يأمر النّاس بالعرف ثانياً، و الاعراض عن الجاهلين ثالثاً، فالمباحث ثلاثة:

المبحث الأوّل: قوله **خُذِ ٱلْعَفْوَ** أمر اللّه نبيّه بالعفو و هو في الأصل إسقاط ما يستّحقه المذنب من قصاصٍ أو غرامة و هو ضّد الإنتقام المذموم عقلاً و شرعاً و معناه أن يفعل بالمذنب بمثل ما فعل به أو بالأزيد منه و إن كان محرّماً ممنوعاً في الشرع و هو من نتائج الغضب و قد ورد في ذّمه من الأيات و الأخبار ما لا يخفى و قد قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم: **إن إمرؤٌ عيَّرك بما فيك فلا تُعيّره بما فيه** و لاكلام لنا فعلاً فيه وكفى في ذّمه حكم العقل بقبحه كما حكم بحسن العفو:

قال اللّه تعالى: **وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوٓا**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْ تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ جَزٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا فَمَنْ عَفٰا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللّٰهِ**[٣].

قال اللّه تعالى: **فَاعْفُوا وَ ٱصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ ٱللّٰهُ بِأَمْرِهِ**[۴].

قال اللّه تعالى: **وَ هُوَ ٱلَّذي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئٰاتِ**[۵].

و الأيات كثيرة في مدحه كثيرة.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله العفو لا يزيد العبد إلاّ عزّاً فأعفوا يعزّكم اللّه و قال صلّى الله عليه و آله لعقبة، ألاأخبرك بأفضل أخلاق أهل الدّنيا و الأخرة، تصل من قطعك، و تعطي من حرمك، و تعفو عمَّن ظلمك.

و قال صلّى الله عليه و آله: قال موسى عليه السلام يا ربّ أيّ عبادك أعزّ عليك قال الذّي إذا قدر عفى.

و قال الباقر عليه السلام: النّدامة على العفو أفضل و أيسر من النّدامة على العقوبة.

١- النّور = ٢٢
٢- البقرة = ٢٣٧
٣- الشّورىٰ = ۴٠
۴- البقرة = ١٠٩
۵- الشّورىٰ = ٢۵

و قال الصّادق عليه السلام: ثلاث من مكارم الدّنيا والأخرة تعفو عمّن ظلمك الحديث و الأخبار كثيرة.

و قد روي من طريق العامّة عن معاذ بن جبل أنّه قال لمّا بعثني رسول اللّه صلى الله عليه وآله الى اليمن قال صلى الله عليه وآله: ما زال جبرائيل عليه السلام يوصيني بالعفو فلولا علمي باللّه لظننت أنّه يوصيني بترك الحدود انتهى.

و عن علّي عليه السلام أنّه قال: إذا قدرت على عدّوك فأجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

و قيل من عادة الكريم إذا قدر غفر و اذا رأى زلّة ستر، و لنعم ما قيل فيه:

إذا ما طاش حلمك من عدّوٍ — و هان عليك هجران الصّديق
فلست إذاً أخا عفوٍ و صفحٍ — ولا لأخٍ على عهدٍ وثيقٍ
إذا زلّ الرّفيق و أنت ممّن — بلا رفقٍ بقيت بلا رفيقٍ
إذا أنت إتّخذت أخاً جديداً — لما أنكرت من خلقٍ عتيقٍ
فما تدري لعلّك مستجيرٌ — من الرّمضاء فرَّ الى الحريق
فكم من سالكٍ لطريق آمنٍ — أتاه ما يحاذر في الطّريق

قيل إستأذن رهطٌ من اليهود على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فأذن لهم فقالوا السّام عليك يا محمّد فقال صلى الله عليه وآله وسلم: في الجواب و عليكم قالت عائشة لليهود بل السّام عليكم و اللعنة فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يا عائشة أنّ اللّه تعالى يحبّ الرّفق في الأمر كلّه فقالت ألم تسمع ما قالوا قال صلى الله عليه وآله وسلم قد قلت و عليكم، و قال محمود الورّاق:

سألزم نفسي الصَّفح عن كلّ مُذنبٍ — و ان عَظمتُ منه عَلَّي الجرائم
فما النّاس إلاّ واحدُ من ثلاثة — شريفُ ومشروفُ ومثلُ مقاومُ
فأمّا الّذي فوقي فأعرف قدره — و أتبع فيه الحقّ و الحقّ لازم
وأمّا الّذي دوني فأن قال صنت عن — إجابته نفسي و أن لام لائمُ
وأمّا الّذي مثلي فأن زلَّ أوهفا — تفضّلت أنّ الحرّ بالفضل حاكمُ

قال الأحنف بن قيس لأبنه يا بنّي إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه فأن أنصفك و الاّ فأحذره و من أمثال العرب، إحلم تسد و فيه قال الشّاعر:

لن يبلغ المجد أقوامُ و إن شرفوا حتّى يذّلوا و أن عزّوا لأقوام
و يشتموا فترى الألوان مسفرة لا صفح ذّلٍ ولكن صفح إكرامٍ

و الأمثال و الأشعار في الباب كثيرة جدّاً و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية.

المبحث الثّاني: قوله تعالى **وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ** و المراد بالعرف المعروف و هو كلّ فعلٍ أو قولٍ موافقٍ للعقل و الشّرع و يقابله المنكر فهو ضدّه وكيف كان ففي الكلام إشارة الى أنّ اللّه تعالى يحبّ المعروف و لذلك أمر نبيّه به و ينكر المنكر فنهاه عنه و من المعلوم المسلّم عند الكّل حسن المعروف و قبح المنكر تكلّمنا فيه سابقاً بما لا مزيد عليه و أثبتنا بالبراهين و الحجج أنّ أسلس الإسلام بل جميع الأديان على هذين الأصلين و ذلك لأنّ صلاح الجامعة يدور مدارهما و لذلك ورد في بعض الأخبار النبويّة قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **أنّ أمّتي إذا تهاونوا في الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر فليأذنوا بحرب من اللّه**، و من تأمّل في الأخبار و الآثار و أطلّع على التواريخ و السّير و قصص الأمم السّالفة و القرون الماضية حدّثت لهم من العقوبات يعلم أنّ كل عقوبةٍ سماويّة و أرضيّة من الطّاعون و الوباء، و القحط و الغلاء و حبس المياه و الأمطار و تسلّط الظّالمين و الأشرار و وقوع القتل و الغارات و حدوث الصواعق و الزلزال و أمثال ذلك تكون مسبوقة بترك الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر بين الناس.

المبحث الثّالث: قوله **وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** لا شكّ في قبح الجهل و دونه و لا نحتاج في إثباته الى الأيات و الآثار إذ يكفي في قبحه تنفّر جميع النّاس منه بحيث لا يرضى أحد أن يقال له أنّك جاهلٌ أو أحمق.

قال إبن الإعرابي الحماقة مأخوذة من حمقت السّوق إذا كسدت فكأنّه كاسد العقل و الرّأي قال بعضهم الحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة و هو داءٌ دواءه الموت كما قال الشّاعر:

لكــــلّ داءٍ دواءُ يســــتطّب بــه إلاّ الحماقة أعيت من يداويـها

و قد روي أنّ الأحمق أبغض الخلق الى اللّه إذ حرمه أعزّ الأشياء عليه العقل و قد يستدلّ على صفة الأحمق من حيث الصُّورة بطول اللحية لأنّ مخرجها من الدّماغ فمن أفرط في طول لحيته قلّ دماغه و من قلّ دماغه قلّ عقله و من قلّ عقله فهو أحمق.

و أمّا صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب، و ثقته بمن لا يعرفه و العجب و كثرة الكلام و سرعة الجواب و كثرة الإلتفات و الخلّو من العلم، و العجلة، و الخفّة، و السَّفه، و الظّلم، و الغفلة و السّهو، و الخيلاء إن إستغنى أبطر، و أن إفتقر قنط، و أن قال أفحش و أن سأل بخل، و أن سأل ألحّ، و أن قال لم يحسن، و أن قيل له لم يفقه و إن ضحك قهقه، و أن بكى صرخ.

قال عليه السلام: **عالجت الأكمه و الأبرص فأبرأتهما و عالجت الأحمق فأعياني** و عليه فالسّكوت عن الأحمق جوابه.

قال بعض الحكماء لمّا نظر الى أحمقٍ على حجرٍ، حجرا على حجر، و لأجل هذا قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ** و المراد بالإعراض هو عدم التعّرض لا قولهم و أفعالهم القبيحة و ذلك لعدم قبولهم النّصيحة و الإرشاد المعلوم أنّ المراد بالجاهل في الآية هو الجاهل المعاند لا مطلق الجّهال.

قال أمير المؤمنين عليه السلام النّاس ثلاثة:

فَعالِمٌ رَبّانِيٌ، ومُتعَلِّمٌ علىٰ سَبِيلِ النّجاة (نَجَاةٍ). وَهَمَجٌ رَعَاع أَتْباعُ كلِّ ناعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كلِّ رِيحٍ الخ ...

و عليه فالجاهل على صنفين:

صنفٌ متعلّم و صنف معاند و الّذي ينبغي الإعراض عنه هو المعاند الّذي قال اللّه تعالىٰ: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**(۱) و لنعم ما قيل:

۱- الانعام = ۹۱

إذا لم يكـن للـمرء عـقلٌ فأنّـه — وأن كان ذا بيتٍ علىٰ النّاس هَيّنُ
ومـن كـان ذا عـقلٍ أجَـلَّ لعقله — وأفـضَل عـقلٍ عقل مَـن يَـتَّدَين

وَ إِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

قلنا النَّزغ أدنى حركة، و المعنى أن نالك يا محمّد من الشيطان أدنى حركة من معاندةٍ و سوء عشرة فأستعذ باللّه أي سل اللّه أن يعيذك و يحفظك منه فأنّه سميعٌ للمسموعات و عالم بالخفيّات قاله الشيخ في التبيان.

و قال الطّبري من العّامة في تفسير الكلام معناه، و أمّا يغضبّنك من الشيطان غضب يصدّك عن الإعراض عن الجاهلين و يحملك على مجازاتهم فأستعذ باللّه يقول فأستجر باللّه من نزعه أنّه سميعٌ عليمٌ ثمّ نقل عن إبن زيد **أنّه قال لمّا نزل قوله خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين قال رسول اللّه** صلّى اللّه عليه و آله و سلّم **فكيف بالغضب يا ربّ قال تعالىٰ: وَ إِمَّا يَنزَغَنَّكَ.**

و قال الزّمخشري في الكشّاف في معناه، و أمّا ينخسّنك منه نـخس بأن يحملك بوسوسةٍ على خلاف ما أمرت به فأستعذ باللّه و لا تطعه إنتهى.

أقول و قد جاء النَّزغ بمعنى الفساد أيضاً و منه قـوله تـعالى حكـاية عـن يوسف الصّديق: **نَزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِيٓ** [١] و عليه فالمعنىٰ أَوضح كما ذهب إليه بعض المفسّرين وكيف كان ففائدة الإستعاذة ظاهرة إذ لا سبيل لدفـع وسـاوس الشـيطان إلاّ بـالإستعانة بـاللّه و الإستمداد مـنه و لا نـعني بالإستعاذة إلاّ هذا و لأجل هذا أمرنا بها قبل الشّروع في الصّلاة بل في جميع الواجبات و المستحبات إلاّ أنّ هذا الأمر ليس للوجوب و فى قوله أنّه سميعٌ عليمٌ، إشارة الى أنّه تعالى سميعٌ أي عالم بـالمسموعات و عـليمٌ أي عـالم بالخفّيات فضلاً عن غيرها.

١- يوسف = ١٠٠

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ

قرأ الكسائي و أهل البصرة و إبن كثير، طيف، بغير ألف و بغير هَمزه و الباقون بألف بعدها هَمزة قيل أنّ الطيف في كلام العرب أكثر من طائف و الطَّيف مصدر من قولهم طاف به الخيال يطيف طيفاً و يحتمل أن يكون من طاف يطوف، و قرأ باقي السّبعة، طائف و هو فاعل من طاف و قرأ إبن جبير طّيف بالتّشديد و هو يفعل وكيف كان فالطَّيف اللّهم و الطّائف ما طاف حول الإنسان قال الشّاعر:

وتصبح عن غبّ السّري و كأنّها ألّم بها من طائف الجّن أولق

قيل هذا تأكيد و تقرير لما تقّدم من وجوب الإستعاذة باللّه عند نزغ الشّيطان و أنّ المتّقين هذه عادتهم إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان و إلمام بوسوسته، قد تذّكروا ما أمر اللّه به و نهى عنه فأبصروا السّداد و دفعوا ما وسوس به إليهم و لم يتّبعوه أنفسهم و أمّا إخوان الشّياطين الّذين ليسوا بمتّقين فأنّ الشياطين يمدّونهم في الغَّي أي يكونون مدداً لهم فيه.

و قال بعض المفسّرين، وكان معنى الآية اذا مسّهم من ينظر لهم نظرة من الشيطان، تذّكروا، ما عندهم من المخرج و التّوبة، فاذا هم مبصرون، قد تابوا.

و قال مجاهد هم المؤمنون اذا مسَّهم طيف أي غضب تذَّكروا.

و قيل هو الرّجل يهّم بالذّنب فيذكر اللّه تعالى فيتركه.

أقول حاصل الكلام هو أنّ المتّقين الّذين يجتنبون معاصي اللّه اذا وسوس اليهم الشيطان و أغراهم بمعاصيه تذّكروا، ما عليهم من العقاب فيتركونه و بذلك يدخلون في رحمة اللّه و عنايته و هذا هو الفوز المبين الّذي يحصل بسبب البصيرة في الدّين.

وَ إِخْوٰانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَيِّ ثُمَّ لاٰ يُقْصِرُونَ

الظّاهر أنّ الضّمير في أخوانهم عائد على الجاهلين في قوله تعالىٰ: **وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْجٰاهِلِينَ**.

و قيل يرجع على ما دلّ عليه قوله، أنّ الّذين إتّقوا، و هم غير المتّقين لأنّ الشّئ قد يدلّ على مقابله فيضمر ذلك المقابل لدلالة مقابله عليه و عني بالأخوان على هذا التقدير الشياطين كأنّه قيلٰ و الشياطين الّذين هم أخوان الجاهلين أو غير المتقين يمدُّون الجاهلين أو غير المتقين في الغَّي و في يمدُّونهم ضمير الأخوان فيكون الخبر جارياً على من هو له و الضمير المجرور و المنصوب للكفّار و هذا قول قتادة.

و قال إبن عطيّة و يحتمل أن يعود جميعاً على الشياطين و يكون المعنى و أخوان الشياطين في الغَّي بخلاف الأخوة في اللّه.

و قال الطّبري في معناه، و أخوان الشّياطين تمدّهم الشياطين في الغّي يعني بقوله: **يَمُدُّونَهُمْ** يزيدونهم، ثمّ لا يقصرون، عمّا قصر عنه الّذين إتّقوا اذا مسَّهم طائف من الشيطان و أنّما هذا خبرٌ من اللّه عن فريقي الإيمان و الكفر بأنّ فريق الإيمان و أهل تقوى اللّه اذا إستَّزلهم الشيطان تذّكروا عظمة اللّه و عقابه فكفته رهبتهم عن معاصيه و ردَّتهم الى التّوبة و الإنابة الى اللّه ممّا كان منهم من زلّة و أنّ فريق الكافرين يزيدهم الشّيطان غيّاً الى غيّهم اذا ركبوا معصية من معاصي اللّه و لا يحجزهم تقوى اللّه و لا خوف المعاد اليه عن التمادي فيها و الزّيادة منها انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول الحقّ أنّ الضّمير في أخوانهم يرجع الى المتّقين المستفاد من قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا** و هكذا الضّمير في، يمدُّونهم و الفاعل هو الشيطان الذّي مرَّ ذكره في الآية السّابقة و أن شئت قلت، النّاس على صنفين:

صنفٌ منهم يفعلون الخيرات و يجتنبون السّيئات للّه تعالى و هم المتّقون.

و صنفٌ يتّبعون الشّهوات و الأميال النفسانيّة و هم الفاسقون.

فالصّنف الأوّل اذا مسّهم طائف من الشيطان تذّكروا ما ذكر اللّه لهم من الوعد و الوعيد فيرجون الوعد و يخافون الوعيد فيعملون بما فيه الوعد حذراً من العذاب و خوفاً من العقاب و لا نعني بالبصيرة ألاّ ترجيح ما فيه الوعد على ما فيه الوعيد و لذلك عبّر عنهم بأنّهم مبصرون.

و أمّا الأخرون و هم الصِّنف الثّاني أعني من ليس من أهل التّقوى فأمرهم بالعكس فلا محالة يمدُّونهم الشيطان بالغّي و الضّلالة و أنّما أتى الفعل و هو، يمدُّونهم، بصيغة الجمع لأنّ المراد بالشيطان جنسه و هو يطلق على القليل و الكثير، فالمعنى يمدُّونهم الشياطين في الغّي و أنّما قلنا ذلك لأنّ الشياطين كثيرة بل قد يقال لكلّ إنسانٍ شيطان.

و أمّا قوله: **ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ** فالمعنى أنّ الشّياطين لا يقصرون عن إستغواءهم ولا يرحمونهم بل يمدُّونهم في طغيانهم يعمهون، و على هذا فلا نحتاج في تفسير الكلام الى ما ذكره من التكليفات و الحمد للّه.

وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحىَ إِلَيَّ مِنْ رَبِّى

المخاطب بهذه الآية هو الرّسول و المعنى اذا لم تأتهم يا محمّد بأيةٍ قالوا أي الكفّار أو غير المتّقين، لولا إجتبيتها، الإجتباء الإختلاق و الإقتلاع و الضّمير يرجع الى الآية أي لولا إجتبيت الآية و إختلقتها من قبل نفسك.

و قال أبو عبيدة الإختراع مثل ذلك أي لولا إخترعتها من قبل نفسك وكيف كان يصير المعنى لولا تأتي بها من عندك، قل، يا محمّد لهم أنّما أتّبع ما يوحى إلّي من ربّي، و المقصود أنّ الإتيان بها موقوف على وجود المصلحة و لا يعلم بها إلاّ اللّه تعالى هو العالم بالمصالح و المفاسد و خفيّات الأمور فاذا علم بالمصلحة في شئٍ يأمرني به و إلاّ فلا.

و يستفاد من هذا الكلام أنّ القدرة موجودة في النّبي إلاّ أنّ أعمالها موكول بأذنه تعالى و أنّما قلنا ذلك لأنّه تعالى لم يقل، قل أنّي لا أقدر ذلك بل قال:

أَتَّبِعُ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ و السّر فيه هو أنّ الرّسول و لا سيّما خاتم المرسلين خليفة اللّه الأعظم في العالم و من كان كذلك فقد أودع اللّه في نفسه الشّريفة من العلم و القدرة و غيرهما من الصّفات ما يليق بشأن الخليفة إلاّ أنّ إظهار ما في علمه و قدرته و إرادته تابع للوحي أعني به الأذن من اللّه تعالى.

هٰذٰا بَصٰآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

قالوا، هذا، إشارة الى القرأن و المعنى أنّ هذا القرأن حجج و براهين و أدلّة من ربّكم، و أنّما قالوا ذلك لأنّ البصائر جمع بصيرة و هى البراهين الواضحة و الحجج النّيرة، و الحقّ أنّ البصيرة و الحجج نفسها بل البصيرة تحصل للإنسان بها و بعبارةٍ أخرى البراهين الواضحة توجب البصيرة في الإنسان لا أنّها نفسها فتفسير الكلام بها لا معنى له.

قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ الوحي كان يتأخر عن النّبي أحياناً فكان الكفّار يقولون هلا إجتبيتها أي تخيّرتها و إصطفيتها فقال النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في جوابهم **إِنَّمآ أَتَّبِعُ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّى** هذا بصائر من ربّكم، أي هذا الموحى

إلّي الّذي أنا أتّبعه لا أبتدعه و هو القرأن بصائر من ربّكم، أي حجج و بيّنات يبصر بها و تتّضح الأشياء الخفيّات.

و قال الجبائي، هذا بصائر، إشارة الى الأدلّة الدالّة على توحيده و صفاته و عدله و حكمته و صحّة نبوة النّبي و صحّة ما أتى به النّبي.

و إعلم أنّا بعد التّفحص الكامل في التّفاسير الموجودة عندنا من الخاصّة و العامّة لم نجد المشار اليه بقوله تعالى: **هذا** إلاّ القرأن فإنّهم قد أجمعوا على ذلك و إستّدلوا عليه بما مرّ ذكره ولكن في نفسي منه شئ و ملخّصه أنّ القرأن غير مسبوقٍ بالذّكر لا في هذه الآية و لا في قبلها فكيف يكون المشار اليه بقوله هذا و أيّ دليلٍ دلّ عليه أو أيّ قرينةٍ حاليّة أو مقاليّة دعتهم الى هذا التّفسير و

الذّي يقوّي في نفسي هو أنّ كلمة هذا، إشارة الى عدم إتيان النّبي بأيةٍ من عند نفسه و عليه فالمعنى هذا، أي عدم الإتيان بالآية و ترّتب الوحي فيها بصائر من ربّكم، لو كنتم تعقلون و توضيحه إجمالاً أنّ البصيرة في الدّين لا تحصل إلاّ بعد نزول الآية على وفق المصلحة من حيث الزّمان و المكان و غيرهما ممّا لا بدّ منه فى تحقّق المصلحة.

و أمّا اذا لم تكن الآية على هذا الأساس فلا أثر لها أصلاً بل ترك إيجادها أولى و بعبارةٍ أخرى قد تكون المصلحة في الفعل و قد تكون في التّرك و البصيرة تابعة لها فقد تحصل البصيرة من وجود الآية و قد تحصل من تركها و اذا مرضنا أنّ تشخيص المصلحة لا يمكن من المخلوق بل هو مختّص بالخالق فأن أذن الخالق بالإتيان بها فهو وإن لم يأذن فعدم الإذن كاشف عن عدم المصلحة فقوله هذا بصائر، معناه عدم الإتيان بها الكاشف عن عدم الأذن الكاشف عن عدم المصلحة يوجب البصيرة في دينكم أن كنتم تعقلون اذ تعلمون بذلك أنّ الأمور بيد اللّه و النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يخبر عنه لا من نفسه.

و أمّا قوله: **وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** فالوجه فيه واضح و ذلك لأنّ الأيات النّازلة تكوينيّة أو تشريعيّة لا تأثير لها بالنّسبة الى غير المؤمن لعدم لياقته و إستعداده فأنّ شرط تأثير العلّة في المعلول صلاحيّة المعلول للتّأثر.

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

أمر اللّه تعالى جميع المكلفين بأنّه اذا قرئ القرأن أن يستمعوا له و ينصتوا لتكونوا مشمولين لرحمة اللّه و عنايته، و أنّما أمر بذلك ليفهموا معانيه و يعتبروا بمواعظه و يتّدبروا في أياته و لذلك لم يقل فأسمعوا له ثمّ أنّهم إختلفوا في الوقت الّذي أمروا بالإنصات و الإستماع.

فقال بعضهم اذا كان المصلّي في الصّلاة خلف الإمام الّذي يأتّم به و هو يسمع قراءة الإمام فعليه أن ينصت و لا يقرأ و يتّسمع لقراءته.

و قال بعضٌ أخر، أنّهم كانوا يتّكلمون في صلاتهم و يسلّم بعضهم على بعضٍ و اذا دخل داخل و هم في الصّلاة قال لهم كم صلَّيتم فيخبرونه و كان التّكلم مباحاً في الصّلاة فنسخ ذلك ذهب اليه ابن مسعود و أبو هريرة و الزّهري و عطاء و غيرهم.

و قال قوم هو أمرٌ بالإنصات للإمام اذا قرأ القرأن في خطبة روي ذلك عن مجاهد.

و قيل هو أمر بذلك في الصّلاة و الخطبة جميعاً.

قال الشّيخ في التبيان بعد نقله الأقوال المذكورة، و أقوى الأقوال الأوّل لأنّه لا حال يجب فيه الإنصات لقراءة القرأن إلاّ حال قراءة الإمام في الصّلاة فأنّ على المأموم الإنصات لذلك و الإستماع له فأمّا خارج الصّلاة فلا خلاف أنّه لا يجب الإنصات و الإستماع.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه انصت في حال الصّلاة وغيرها و ذلك علىٰ وجه الإستحباب.

و قال الجبائي يحتمل أن يكون أراد الإستماع اذا قرأ النّبي عليهم ذلك فأنّه كان فيهم من المنافقين من لا يستمع.

و قال الزّجاج يجوز أن يكون الأمر بالإستماع للقرأن للعمل بما فيه و أن لا يتجاوزه كما تقول سمع اللّه لمن حمده بمعنى أجاب اللّه دعاءه لأنّ اللّه سميعٌ عليمٌ و الإنصات السُّكوت مع الإستماع ذكر هذه الأقوال في التبيان.

و قال الطّبري و تبعه أكثر المفسّرين من العامّة و الخاصّة ما هذا لفظه:

يقول تعالى ذكره، للمؤمنين به المصدقين بكتابه الّذين القرأن لهم هدىً و رحمة اذا قرئ عليكم أيّها المؤمنون القرأن فإستمعوا له يقول أصغوا له سمعكم لتفهموا أياته و تعتبروا بمواعظه و أنصتوا اليه لتعقلوه و تَدّبروه و لا تلغوا فيه فلا تعقلوه لعلّكم ترحمون يقول ليرحمكم ربّكم بإتّعاظكم بمواعظه و إعتباركم بعبره و إستعمالكم ما بيّنه لكم ربّكم من فرائضه في أية.

ثمّ إختلف أهل التّأويل في الحال التّي أمر اللّه بالإستماع لقارئ القرآن اذا قرأ و الإنصات له فقال بعضهم ذلك حال كون المصلّي في الصّلاة خلف إمامٍ يأتّم به و هو يسمع قراءة الإمام عليه أن يسمع لقراءته و قالوا في ذلك أنزلت الآية انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ثمّ نقل الأحاديث الواردة في الباب عن أبي هريرة و أمثاله و ملّخص الأثار الواردة هو أنّها نزلت في رفع الأصوات و هم خلف رسول اللّه في الصّلاة.

و إعلم أنّه لا كلام لنا في وجوب الإستماع عند قراءة الإمام في الصّلاة:

فقد روي زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: انّ اللّه يقول للمؤمنين و اذا قرئ القرأن يعني في الفريضة خلف الإمام فإستمعوا الآية.

و أيضاً عن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: و اذا قرئ القرأن في الفريضة خلف الإمام فإستمعوا له و أنصتوا لعلّكم ترحمون.

و عنه قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام: يقول يجب الإنصات للقرأن في الصّلاة وفي غيرها و اذا قرئ عندك القرأن وجب عليك الإنصات و الإستماع انتهىٰ.

و هكذا غيرها من الأخبار الواردة في الباب فثبت و تحقّق أنّ الإستماع و الانصات في الفريضة خلف الإمام واجب و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا في غير الصّلاة فالأمر يحمل على الإستحباب و قوله تعالىٰ: **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** معناه لكي ترحمون أي أنّ الإستماع و الإنصات سببٌ لنزول الرّحمة و البركة من اللّه تعالى على المستمع و هذا ممّا لا شكّ فيه.

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ

أمر اللّه نبيّه ظاهراً و جميع الأمّة واقعاً أن يذكروه على حال التّضرع و على وجه الخوف من عذابه فأنّ الخيفة هي الخوف.

قال بعض المفسّرين لمّا أمرهم اللّه تعالى بالإستماع و الإنصات اذا شرع في قراءة القرأن إرتقى من أمرهم الى أمر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر ربّه في نفسه أي بحيث يراقبه و يذكره في الحالة التّي لا يشعر بها أحد و هى الحالة الشّريفة العليا ثمّ أمره أن يذكروه دون الجهر من القول أي يذكروه بالقول الخفّي الذّي لا يشعر بالتّذلل و الخشوع من غير صياح و لا تصويت شديد كما تناجي الملوك و تستجلب منهم الرّغائب و كما قال للصحابة و قد جهروا بالدّعاء، أنّكم لا تدعون أصمّ و لا غائباً أربؤوا على أنفسكم وكان كلام الصحابة للرّسول سراراً.

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**[1].

قال اللّه تعالى: **لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ**[2] و لا تجهروا له بالقول.

لأنّ الجهر عدم مبالاة بالمخاطب و ظهور إستعلاء و عدم تّذللٍ و الذّكر شامل لكلّ من التّهليل و التّسبيح و غير ذلك انتهى كلامه.

أقول و إنتصب تضّرعاً و خيّفةً على أنّهما مفعولان من أجلهما لأنّهما يتّسبب عنهما الذّكر و هو التّضرع في إيصال الثّواب و الخوف من العقاب و قيل أنّهما مصدران في موضع الحال أي متّضرعاً و خائفاً أو ذا تضّرعٍ و خيفة.

و قرأ بعضهم، خفية بتقديم الفاء على الياء و عليه فهي من الخفاء.

قال بعضهم أنّ قوله تعالىٰ: **وَٱذْكُر رَّبَّكَ** على حذف مضافٍ و التّقدير و أذكر نعم ربّك في نفسك بإستدامة الفكر حتّى لا تنسى نعمه الموجبة لدوام الشُّكر و أنت خبير بأنّه لا نحتاج الى هذا التّقدير.

أمّا أوّلاً: فلأنّه خلاف الأصل.

أمّا ثانياً: فلأنّ البحث ليس في النّعم و الشّكر بعد ذكرها و أن كان هو أيضاً حسن في نفسه بل المقصود من هذا الكلام هو توّجه العبد الى معبوده في

١- الحجرات = ٥ ٢- الحجرات = ٢

جميع الأحوال و عدم الغفلة منه فأنّ الغفلة رأس الخطيئات كما أنّ عدمها رأس الخيرات و لذلك قال تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرْ** ولم يقل، و أدع ربّك مثلاً.

و أنّما قال في نفسك إشعاراً بأنّ المطلوب هو الذّكر النّفساني المعبّر عنه بالتّوجه و عدم الغفلة أحياناً، لا الذّكر اللّساني و أن كان هو أيضاً مطلوبٌ محبوبٌ و الحاصل أنّه تعالى أمر نبيّه ظاهراً و جميع الأمّة بل و جميع النّاس واقعاً بهذا الذّكر الذّي يتّقرب العبد به الى اللّه في حال التّضرع و الدّعاء و الخوف و الرّجاء اذ لا ملجأ للعبد إلاّ هو و لا يقدر على قضاء حوائجه و رفع همَّه و غمّه إلاّ ربّه الّذي ربّاه و الى هذه النكتته أشار بقوله: **رَبَّكَ** ولم يقل، و أذكر اللّه مثلاً فأنّ في لفظة ربّك من التشريف بالخطاب و الإشعار بالإحسان الصّادر من المالك الملوك ما لا خفاء فيه.

ألا ترى أنّ الأب اذا قال لإبنه أطعني ما أقول لك، أو قال أطع أباك فمعنى الكلامين واحد إلاّ أنّ الثّاني و هو قوله أطع أباك أوقع في نفس الولد بالقبول و هكذا قول الأستاذ لتلميذه أطع أستاذك و هكذا قول الام لولده أطع أمّك.

ففي قوله تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ** ترغيب وتحريص و أن شئت قلت حثٌّ على توّجه العبد بهذه الوظيفة في جميع أحواله و أمّا قوله: **دُونَ ٱلْجَهْرِ** من القول ففيه إشارة الى ما ذكرناه من أن المطلوب في هذا المقام هو الذّكر القلّبي الّذي هو ضدّ الغفلة ولذلك قال تعالىٰ: **وَ لَا تَكُنْ مِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ** عن ذكر ربّك لأنّ الغفلة أمّ الفساد و أساس الطغيان و العصيان.

و في قوله: **بِٱلْغُدُوِّ وَ ٱلْأٓصَالِ** إشارة الى دوام الذّكر بالليل و النّهار فأنّهما كنايتان عنهما، و قيل خصَّهما بالذّكر لفضلهما، و لا دليل عليه و الحقّ ما ذكرناه لأنّ حمل اللّفظ على العموم أولى، و حيث أنّه تعالى أمر نبيّه بالذّكر و نهاه عن الغفلة فقال في الأوّل و أذكر ربّك.

و قال في الثّاني و لا تكن من الغافلين و قد ثبت أنّ الغفلة ضدّ الذِّكر فمن كان ذاكراً لا يكون غافلاً و من كان غافلاً لا يكون ذاكراً في حال غفلته و هما لا

يجتمعان و لا يرتفعان كما هو شأن الضِّدين و اذا كان لذالك فلا بأس بصرف عنان الكلام اليهما إجمالاً لأنّهما من الأصول بالنّسبة الى الخيرات و الشّرور و الطّاعة و العصيان فمنشأ الشّرور و العصيان الغفلة كما أنّ منشأ الخيرات و الطّاعات الذّكر و التّوجه الى المعبود.

فنقول قال بعض العرفاء الذِّكر في لسان أهل السُّلوك عبارة عن وجدان المذكور و حضوره بالقلب لا ذكره باللّسان وحده مع غفلة القلب فأنّه غير معتبرٍ عندهم.

و أوّل مراتب الذّكر بهذا المعنى نسيان الغير لأنّك أن لم تنس الكلّ ما وجدته و لأنّك اذاكنت موصوفاً بنسيان الغير و ذكر الرّب كانت نفسك مذكورة في ضمن هذا الذّكر في هذه الدّرجة فاذا أوقفك اللّه على هذه العلّة نسيت نفسك فى ذكر ربّك لأنّ تحقق المذكور يوجب نفي الغير و أنّيتك تثبت الغيريَّة فاذا بلغت هذه الرّتبة كان ذكرك ذكره لغيبتك عن نفسك فنسيت ذكرك في ذكرك ثمّ اذا إستّمر ذلك و إستحكم شهدته ذاكراً لذاته به فنسيت في ذكر الحقّ ذاته كلّ ذكرٍ و ذاكرٍ فكان هو الذّكر و المذكور و على الوجه الثّاني معناه فنسيت في ذكر الحقّ عينيك في الأزل بتَّجليه الذّاتي في صورة عينك كلّ ذكرٍ و ذاكرٍ فقولهم الذّكر هو التّخلص من الغفلة و النّسيان يشمل المراتب كلّها فأنّ في الكلّ الخلاص عن نسيان المذكور و الغفلة عنه بالحضور، و هو على ثلاث درجات:

الأولىٰ: الذّاكر الظّاهر من ثناء أو دعاء أو رعاء، معناه الظّاهر مع حضور القلب وجدان المذكور، و الثّناء مثل قوله: (سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أكبر و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه العلّي العظيم) لأنّهاكلمات منها ثناء.

والدّعاء مثل قوله: **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِنْ نَسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا**[1] وأمثالها وبالجملة كلّ ماكان من القرأن أو مرويّاً عن النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و خصوصاً ما فيه طلب الهداية و الإستقامة.

١- البقرة = ٢٨٦

و أمّا الرّعاء أعني به المراعاة فكالصّلاة مع حضور القلب فأنّها مع كونها ذكراً فيها مراعاة الشّرع و رعاية حقوق اللّه و هكذا سائر العبادات و تلاوة كلام اللّه.

الدّرجة الثّانية: ذكر الخفّي، و هو الخلاص من الفتور و البقاء مع الشّهود و لزوم المسامرة، فالخلاص من الفتور يتحقّق بدوام الشّهود و الذّهول عن التّفرقة الموجبة للغفلة و النسيّان و الإحتجاب بالرسوم و الأنانيّة و الصّفات و الطّاعات.

و أمّا البقاء مع الشّهود فهو يتحقّق بملازمة المشاهدة، و أمّا لزوم المسامرة فهو في مقام السِّر و التَّلقي من اللّه و يدخل فيها المكاشفة و المكالمة و المناجات فأنّها تنفي الذّهول عن الحقّ بالطّريق الأولى و يستلزم الحضور مع الإنس بالضرورة.

الدّرجة الثّالثة: الذّكر الحقيقي و هو شهود ذكر الحقّ إيّاك، و التّخلص من شهود ذكرك و معرفة إفتراء الذّاكر في بقاءه مع ذكره، فالذّكر الحقيقي في الحقيقة هو إتّحاد الذّاكر و المذكور و الذّكر و هو ذكر الحقّ نفسه فمن فسَّره، بشهود ذكر الحقّ إيّاك، عنى به أوّل مراتب هذه الدّرجة فالمراد ذكر الحقّ في الأزل عينه فيمن إختصَّه بالقرب و هو في الحقيقة تجلّي الذّات في صورة عينه فيرجع الى ذكر الحقّ ذاته و قيل، معنى شهود ذكر الحقّ إيّاك، هو مرتبة البقاء بعد الفناء أخر مراتب أهل النّهاية و أرفعها، هذا تمام الكلام في معنى الذّكر بأقسامه و عليه فالذّكر الخفّي هو الّذي أريد بقوله: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ** و هو أعلى مراتب الذّكر لكونه أبعد من شائبة الرّياء من الذّكر الجلّي.

وَ لَا تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ.

إعلم أنّ الغفلة ضدّ اليقظة، و لذلك قالوا القومة للّه هي اليقظة من سنة الغفلة و النّهوض عن ورطة الفترة.

فنقول لا شكّ أنّ الإنسان المغمور في غواشي النّشأة الذّاهل عن الحقّ و نور الفطرة بمقتضيات الطبيعة كالنّائم بالحقيقة كما قال ﷺ: **النّاس نيام اذا ماتوا إنتبهوا**، فلابدّ من منبّهٍ و هو وعظ اللّه لأنّ الغافل عن فطرته إذا حصل له شعور بنور الفطرة فقد قام للّه بأمره و نهض عن فترته و هى أوّل ما يستنير قلب العبد بالحيوة لرؤية نور التنبيه.

ثمّ أنّ اليقظة الّتي هي ضدّ الغفلة تتحقّق بثلاثة أشياء:

الأوّل: توّجه القلب الى النّعمة على الإياس من عدّها، لقوله تعالىٰ: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ** [1].

الثّاني: الوقوف على حدّ النّعمة و أنّه يمتنع إنحصارها في حدٍّ.

الثّالث: التّفرغ الى معرفة المنّة بها و العلم بالتّقصير في حقّها.

فالنّهي عن الغفلة في الحقيقة يرجع الى الأمر باليقظة و هى الباعثة على القيام باداء شكر النّعمة بالطّاعة و الجدّ و الإجتهاد و ملاحظة النعّم الظّاهرة و الباطنة و السّابقة و اللاّحقة مع اليأس عن حدّها فراداي لكونها غير متناهية و من البلوغ الى نهاياتها و الوقوف على حدّها مجموعة لإمتناع إنحصارها في حدّ ثمّ التفرّغ الٰ معرفة أنّها من اللّه على سبيل الإمتنان و الموهبة لا على سبيل الإستحقاق ثمّ العلم بإنّا و إن إستفرغنا الجهد و بلغنا الوسع في القيام بشكرها كنّا في غاية التّقصير في حقّها فإنّا لا نقوم بشكرها إلاّ بآلاتٍ هي أيضاً من النّعم و لا نستطيع إستعمالها إلاّ بالحول و القوة و التّوفيق للعمل الّتي هي نعم كلّها منه فلا سبيل الى القيام بحقّها إلاّ بالإعتراف بالعجز منه و التّقصير لأنّا كلمّا إزددنا في الشكر و الطّاعة و القيام بحقّ النّعمة إزدادت النّعم أضعافاً مضاعفة.

و هذا هو السرّ في قوله تعالىٰ: **وَ لَا تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ** اعاذنا اللّه منها.

١- ابراهيم = ٣٤

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ

إتّفق المفسّرون على أنّ المراد بقوله أنّ الّذين عند ربّك الأية. الملائكة ولم يخالف في هذا التأويل أحد.

قال الطّبري يقول تعالى ذكره لا تستكبر أيّها المنصت للقرآن من عبادة ربّك و أذكره إذا قرئ القرآن تضّرعاً و خفيةً و دون الجهر من القول فأنّ الّذين عند ربّك من الملائكة لا يستكبرون عن التّواضع له و التّخشع و ذلك هو العبادة، و يسبّحونه، يقول و يعظّمون ربّهم بتواضعهم له و عبادتهم و له يسجدون يقول و للّه يصلّون و هو سجودهم فصَّلوا أنتم أيضاً له و عظِّموه بالعبادة كما يفعله من عنده من الملائكة انتهى.

و قال الشّيخ في التبّيان، بيَّن اللّه تعالى أنّ الّذين عنده من الملائكة، معناه أنّهم عنده بالمنزلة الجليلة لا بقرب المسافة لأنّه تعالى ليس في مكانٍ و لا جهة فيقرب غيره منه لأنّ ذلك من صفات الأجسام و هذا حثٌّ منه على الطّاعة و الإستكانة و الخضوع له لأنّ الملائكة مع فضلها و إرتفاع منزلتها إذا كانت لا تستكبر عن عبادته بل تسبّحه دائماً و تسجد فبنو آدم بذلك أولى و أحقّ و لهم أوجب و لزم انتهى كلامه.

أقول ما نقلناه عن الطّبري و الشّيخ هو الأصل في كلمات المفسرين من العامة و الخّاصة.

أقول يظهر من كلماتهم أنّ الملائكة مع علّو شأنهم و رفعة منزلتهم عند اللّه إذا كانوا كذلك فالإنسان أحقّ و أولى بأن لا يستكبر عن عبادة ربّه و قد صرَّح الرّازي في تفسيره بذلك كما صرَّح به الشيخ في التبيان قبله و قد نقلنا كلامه فقال الرّازي لمّا رغبَّ اللّه رسوله في الذّكر و المواظبة عليه ذكر عقيبه ما يقوي دواعيه في ذلك فقال: **عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** والمعنىٰ أنّ

الملائكة مع نهاية شرفهم و غاية طهارتهم و عصمتهم و براءتهم عن بواعث الشهوة و الغضب و حوادث الحقد و الحسد لمّا كانوا مواظبين على العبوديّة و السّجود و الخضوع فالإنسان مع كونه مبتلى بظلمات عالم الجسمانيّات و مستعداً للذّات البشريّة و البواعث الإنسانية أولى بالمواظبة على الطاعة و لهذا قال عيسى عليه السلام: **أَوْصٰنِي بِالصَّلٰوةِ وَ ٱلزَّكٰوةِ مٰا دُمْتُ حَيًّا**[1] و قال لِمُحمّد عليه السلام **وَ ٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ**[2] انتهىٰ كلامه.

و أنت ترى أنّ كلماتهم في تفسير الآية تدور مدار الأولويّة في عبادة الإنسان بمعنى أنّ الملائكة إذا كانوا لا يستكبرون عن عبادته تعالى مع شرفهم و قربهم و عصمتهم فالإنسان أولى بها منهم و عليه فالآية نزلت لترغيب النّاس في العبادة و الحثّ عليها.

و لقائلٍ أن يقول أمّا أوّلاً فلا نسلّم كون الملائكة أفضل و أشرَ و أقرب الى اللّه من الإنسان الكامل بل هو أفضل و أشرف منهم بمراتب و هذا ثابت عندنا عقلاً و نقلاً و للبحث فيه مقام آخر و على فرض التسليم فهم أولى بالعبادة من الإنسان لعدم الشهوة و الغضب و أمثالهما من الموانع فيهم كما إعترف به الرّازي في كلامه و ذلك واضح لا خفاء فيه فأنّ المخلوق الّذي خلقه اللّه لأجل العبادة و لم يجعل فيه دواعي المعصية بحيث لا يقدر عليها، أولى بعبادة ربّه من المخلوق الّذي واجدٌ لها بحسب الخلقة و هو الإنسان فكيف يقال أنّ الإنسان أولى بها فأيُّ ترغيبٍ أو تحريصٍ في الآية لرسوله و بعبارة أخرى دلالة الآية على عكس ما إستدلّوا بها عليه أظهر من دلالتها على ما ذكروه لأنّ الإنسان مع وجود الموانع فيه أولى بترك العبادة من الملائكة الّتي لا عذر لها في تركها أصلاً فالآية نزلت لبيان شئٍ آخر غير ما ذكروه و هو أنّ اللّه تعالى غير محتاج الى عبادة الإنسان بل و لا الى عبادة الملائكة لكونه غنيّاً بالذّات و

١- مريم = ٣١
٢- الحجر = ٩٩

الصِّفات و الإحتياج نقص في ذاته و النّقص مساوق للإمكان فكلّ ناقصٍ أو محتاج فهو ممكن و اذا كان كذلك فأمره بالعبادة ليس لأجل الإحتياج اليها فعدم عبادة المخلوق و وجودها بالنّسبة اليه سيّان سواء كانت العبادة من الملائكة أم للإنسان نعم نفع العبوديّة يرجع الى المخلوق إذ لا تنفعه طاعة من أطاعه كما لا تضّره معصية من عصاه إذا عرفت هذا فنقول.

ذكر في الآية السّابقة في قوله: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ** وظيفة العبد في مقام العبوديّة لخالقه و موجده الّذي أنعم اللّه عليه بأنواع النعّم الظّاهرة و الباطنة فأمره بالتّوجه الى المعبود في جميع شؤنه و نهاه عن الغفلة الّتي هي أساس العصيان و الشرور و حيث أنّ في هذا الأمر مظنّته الإحتياج و أنّه تعالى ينتفع بها قال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ** أي لو كنت منتفعاً بالعبادة لكفاني عبادة الملائكة الّذين لا يستكبرون عن عبادته و لا يعصونه طرفة عين.

و محصّل الكلام أنّ المقصود من الآية إيقاظ الإنسان عن نوم الغفلة و التّوجه الى وظيفة العبوديّة، و يمكن أن تكون الآية إشارة الى ذمّ الإستكبار بقرنية قوله: **لَا يَسْتَكْبِرُونَ**، أي أنّ الملائكة يعبدون اللّه و لا يعصونه لتواضعهم و خشوعهم و عدم إتّصافهم بالكبر الّذي هو منشأ الأفات و أمّا الإنسان فليس كذلك المعلوم أنّ الحكم في الإنسان بإعتبار الأغلب و اللّه أعلم.

❋ ❋ ❋

سورة الأنفال

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفٰالِ قُلِ ٱلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ ٱلرَّسُولِ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ ايمٰانًا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمٰا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكٰارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجٰادِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مٰا تَبَيَّنَ كَأَنَّمٰا يُسٰاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَ إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللّٰهُ إِحْدَى ٱلطّٰائِفَتَيْنِ أَنَّهٰا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذٰاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ ٱللّٰهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَ يَقْطَعَ دٰابِرَ ٱلْكٰافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَ يُبْطِلَ ٱلْبٰاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

◁ اللّغة

الْأَنْفَالِ جمع نَفَل بفتح النّون و سكون الفاء واللاّم و هو الزيادة على الشّئ يقال نفلتك كذا إذا زدته و بالجملة كلّ شئ كان زيادة على الأصل فهو نفل و نافلة و منه قيل لولد الولد نافلة و لما زاد على فرائض الصّلاة نافلة.

وَجِلَتْ، الوَجَل بفتح الواو و الجيم و سكون اللاّم، الخوف و الفزع.

يُسَاقُونَ، السُّوق الحّث على السّير عجلة.

تَوَدُّونَ، الوُدّ الحبّ أي و تحبّون.

دَابِرَ الْكَافِرِينَ، الدّابر المأخر و قطعه الإتيان على جميعهم.

تَسْتَغِيثُونَ الإستغاثة طلب المعونة و هو سّد الخّلة في وقت شدّة الحاجة.

مُرْدِفِينَ أي متتابعين لأنّ الإرداف التّتابع يقال أردفه بكذا أي أتبعه.

لِتَطْمَئِنَّ، الإطمئنّان الثّقة ببلوغ المحبوب و هو خلاف الإنزعاج، و الطّمأنينة السكون و الدّعة و الباقي واضح.

◁ الإعراب

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ يجوز أن تكون الجملة حالاً من ضمير المفعول في زادتهم و يجوز أن تكون مستأنفة حَقًّا مصدر مؤكّد و العامل فيه، أحّق ذلك حقاً عِنْدَ رَبِّهِمْ ظرف و العامل فيه الإستقرار كَمَا أَخْرَجَكَ في موضع الكاف أوجه.

أحدها: أنّها صفة لمصدر محذوف ثمّ في ذلك المصدر أوجه تقديره ثابتة للّه ثبوتاً كما أخرجك.

الثّاني: و أصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك و فى هذا رجوع من خطاب الجمع الى خطاب الواحد.

الثّالث: تقديره و أطيعوا اللّه طاعة كما أخرجك و المعنى طاعة محقّقة.

الرّابع: تقديره يتوكّلون توكّلاً كما أخرجك.

الخامس: هو صفة لحقّ تقديره أولئك هم المؤمنون حقّاً مثل ما أخرجك.

السّادس: تقديره يجادلونك جدالاً كما أخرجك.

السّابع: تقديره و هم كارهون كراهيّة كما أخرجك أي لكراهيّتهم أو كراهيّتك لإخراجك و قد قيل أنّ الكاف بمعنى الواو و الّتي للقسم و هو بعيد جدّاًمصدرية و بالحقّ حال **إِنَّ فَرِيقًا** الواو واو الحال **وَ إِذْ يَعِدُكُمُ** إذ في موضع نصب أي و أذكروا و الجمهور على ضّم الدّال و منهم من يسكنها تخفيفاً لتوالي الحركات و **إِحْدَى** مفعول ثانٍ **أَنَّهَا لَكُمْ** في موضع نصب بدلاً من إحدى، بدل الإشتمال و التقدير وإذ يعدكم اللّه ملكة إحدى الطّائفتين **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ** يجوز أن يكون بدلاً من، اذ، الأولى و التّقدير أذكروا، و يجوز أن يكون ظرفاً لتّودون **مُرْدِفِينَ** بضّم الميم وكسر الدّال و إسكان الرّاء و فعله، أردف و المفعول محذوف أي مردفين أمثالهم و يقرأ بفتح الدّال على ما لم يسمّ فاعله أي أردفوا بأمثالهم.

◁ التّفسير

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلّٰهِ وَ ٱلرَّسُولِ

قال صاحب الكشّاف النّفل الغنيمة لأنّها من فضل اللّه و عطاءه و النّفل ما ينفله الغازي أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم انتهى.

ثمّ أنّهم إتّفقوا على أنّها نزلت يوم بدر و أمر غنائمه و قد أطالوا الكلام في سبب نزول هذه الأيات و ذلك لأنّه وقع الإختلاف بين المسلمين في غنائم بدر و في قسمتها فسألوا رسول اللّه ﷺ كيف نقسمها و لمن الحكم في قسمتها، أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً فقيل له، قل لهم هي لرسول اللّه ﷺ خاصّة و هو الحاكم فيها يحكم فيها ما يشاء و ليس لأحدٍ فيها حكم غيره شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله فتسارع شبانهم حتّى قتلوا سبعين و أسروا سبعين فلمّا يسّر لهم الفتح إختلفوا فيما بينهم و تنازعوا فقال الشّبان نحن المقاتلون.

و قال الشيوخ و الوجوه الذّين كانوا عند الرايات كنّا ردأ لكم و فئة تنحازون اليها أن إنهزمتم و قالوا لرسول اللّه ﷺ المغنم قليل و النّاس كثير و أن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت ذكره الزّمخشري في الكشّاف.

و قال الطّبري قال بعضهم الأنفال الغنائم و قال أخرون الأنفال ما شذّ من المشركين الى المسلمين من عبدٍ أو دابّةٍ و ما أشبه ذلك.

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال المراد بها السَّلب و الفرس.

و في نقلٍ أخر عنه، الفرس و الدِّرع و الرُّمح و قال عطاء الأنفال الفرس الشّاذ و الدِّرع و الثّوب.

و في حديث أخر عنه ما شذّ من المشركين الى المسلمين في غير قتالٍ من دابّةٍ أو عبدٍ فهو نفلٌ للنّبي.

و قال أخرون النَّفل الخمس الذّي جعله اللّه لأهل الخمس.

ثمّ قال الطّبري بعد نقله الأقوال المذكورة و أولى هذه الأقوال بالصّواب في معنى الأنفال هو قول من قال هي زيادات يزيدها الإمام لبعض الجيش أو جميعهم الى أن قال و أنّما قلنا ذلك أولى الأقوال لأنّ النَّفل في كلام العرب أنّما هو الزّيادة على الشّئ و منه قول لبيد بن ربيعة:

أن تقوىٰ ربّنا خير نَفل وبأذن اللّه ريثي وعَجَل

فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أمر اللّه المسلمين بالتّقوى و الإصلاح و إطاعة اللّه و إطاعة الرّسول فقال فإتّقوا اللّه الخ إن كنتم مؤمنين باللّه و برسوله و محصّل الكلام فيه أنّ المؤمن ينبغي أن يفوّض أمر دينه و دنياه الى اللّه و رسوله و لذلك علَّق التّقوى و غيرها ممّا أمر اللّه به على الإيمان لأنّ غير المؤمن لا يكون متَّصفاً بهذه الأوصاف.

أقول المستفاد من أخبار أهل البيت أنّ المراد بالأنفال ما يحصل للإمام بغير قتالٍ و نحن نذكر بعض ما ورد في الباب.

ما عن أصول الكافي بالأسناد عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: الأنفال ما لم يوجف عليه بخيلٍ و لا ركاب أو قوم صالحوا لقومٍ أعطوا بأيديهم وكلّ أرضٍ خربة و بطون الأودية فهو لرسول اللّه وللإمام من بعده يضعه حيث يشاء انتهىٰ.

و بالأسناد عن محمّد بن مسلم قال سمعتُ أبا جعفر يقول: الأنفال هو النَّفل وهو فى سورة الأنفال جدع الأنف انتهىٰ

و بالأسناد عن أبي الصّباح قال: قال لي أبو عبد اللّه عليه السلام نحن قوم فَرض اللّه طاعتنا لنا الأنفال ولنا صفو المال انتهىٰ.

و عن أبان بن تغلب عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الرّجل يموت و لا وارث له مولىٰ قال عليه السلام: هو أهل هذه الأية يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ انتهىٰ.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن إسحاق بن عمّار قال: سألتُ أبا عبد اللّه عليه السلام عن الأنفال فقال: هي القرى التّي قد خرجت وإنجلى عنها أهلها فهي لِلّه وللرّسول و ما كان للمملوك فهو للإمام و ما كان من أرضٍ خربة لم يوجف عليها بخيلٍ و لا ركاب وكلّ أرضٍ لا ربّ لها والمعادن و من مات و ليس له مولىٰ فماله من الأنفال ثمّ قال نزلت يوم بدر لمّا إنهزم النّاس كان أصحاب رسول اللّه علىٰ ثلاث فرق:

فَصِنفٌ كانوا عند خيمة النّبي.
و صِنفٌ أغاروا على النّهب.
و فِرقة طلبت العَدّو وأسروا و غنموا فلمّا جمعوا الغنائم والأسارىٰ تكلّمت الأنصار في الأسارىٰ فأنزل اللّه تبارك و تعالىٰ: **مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ** (١) فلمّا أباحَ اللّه لَهم الأسارىٰ و الغنائم تكلّم سعد بن معاذ و كان ممّن قام عند خيمة النّبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول اللّه ما منعنا أن نطلب العدّو زهادة في الجهاد و لا جبناً من العدّو ولكنّا خفنا أن يعرى موضعك فتميل عليك خيل المشركين و قد أقام عند الخيمة وجوه المهاجرين والأنصار ولم يشكّ أحد منهم و النّاس كثير يا رسول اللّه و الغنائم قليلة ومتى تعطي هؤلاء لم يبق لأصحابك شئ و خاف أن يقسم رسول اللّه الغنائم و أسلاب القتلى بين من قاتل و لا يعطي من تخلّف علىٰ خيمة رسول اللّه شيئاً فإختلفوا فيما بينهم حتّى يسألوا رسول اللّه فقالوا لمن هذه الغنائم فأنزل اللّه:**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفٰالِ قُلِ ٱلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ ٱلرَّسُولِ** فرجع النّاس وليس لهم في الغنيمة شئ ثمّ أنزل اللّه بعد ذلك **وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ** (٢) فقسّمه رسول اللّه بينهم فقال ابن أبي وقاصّ يا رسول اللّه أتُعطي فارس القوم الّذي يحميهم مثل ما تعطي الضّعيف فقال النّبي ثكلتك أمّك تنصرون إلاّ بضعفائكم قال فلم يخمس رسول اللّه صلى الله عليه وآله ببدرٍ و قسّم بين أصحابه ثمّ إستقبل يأخذ الخمس بعد البدر فأنزل اللّه قوله: **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفٰالِ** بعد إنقضاء حرب بدر فقد كتب ذلك في أوّل السُّورة وكتب بعده خروج النّبي الىٰ الحرب انتهىٰ.

١- الانفال = ٦٧ ٢- الانفال = ٤١

أقول الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين[١] و قد نقل أحاديث كثيرة و فيما ذكرناه كفاية و من أراد الإطّلاع على أكثر ممّا نقلناه فعليه بمراجعته و قد ظهر لك أنّ المراد بالأنفال ما هو و كيف كان فالأنفال للّه و لرسوله و للإمام بعده.

و أمّا قوله: **فَاتَّقُوا اللّٰهَ** الخ فالوجه فيه أنّه وقعت المشاجرة و النّزاع بين المسلمين في تقسيم الغنائم فكانت كلّ طائفة منهم تجُر النّار الى قرصته فقال اللّه تعالى في جوابهم ما قال و فى قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** إشارة الى نفاقهم و أنّهم يطلبون من الغنائم زيادة على إستحقاقهم كما هو شأن أبناء الدُّنيا و هو غريب.

ثمّ وصف اللّه تعالى المؤمنين فقال: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** كلمة، أنّما، تفيد الحصر و المقصود أنّ اللّه تعالى بيَّن في هذه الآية أوصاف المؤمن على سبيل الحصر و مفهومه أنّ من لم يتَّصف بهذه صَفات فهو ليس بمؤمنٍ حقّاً.

أحداٰيها: أذا ذكر الّله و جلت قلوبهم، الوجل الخوف و المعنى أنّ المؤمن اذا ذكر الّله عنده يخاف منه و يوجل لأنّه أمن به تعالى و علم بسخطه و غضبه كما علم برحمته و علم أيضاً أنّ الدُّنيا في حلالها حساب و فى حرامها عقاب و قد ثبت أنّ الوجل أنّما يكون من خوف العقوبة.

الثّانية: أنّه اذا تليت أياته عليه زادته إيماناً، أي تلاوة أيات اللّه عليه توجب الزّيادة في إيمانه و فيه دليل على أنّ الإيمان يزيد و ينقص فهو مقول بالتّشكيك على أفراده و مصاديقه.

الثّالثة: **وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** أي أنّ المؤمن يكل أمره الى اللّه و يعتمد عليه في جميع حالاته و شئونه فالبحث حول الآية يقع في مسائل:

١- ج ٢، ص ١١٨ الى ص ١٢٠.

الأولىٰ: في قوله تعالى: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**.

الثّانية: في قوله تعالى: **وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**.

الثّالثة: في قوله تعالى: **وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**.

أمّا المسألة الأُولىٰ: فإعلم أنّ اللّه تعالى أتى في هذه الآية بكلمة، أنّما، التّي تفيد الحصر لأنّه قال في الآية السّابقة **وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** علّق الطّاعة على الإيمان إشعاراً بأنّ من لا إيمان له لا طاعة له كذلك فكأنّه قال قائل ما الإيمان الّذي يكون منشأ للطّاعة و الإنقياد هل هو الإعتقاد القلبي فقط أو غير ذلك فقال تعالى في جوابه ليس الأمر كما زعمت أنّما المؤمنون لهم أوصاف ثلاثة فالإيمان يدور مدارها زيادةً و نقصاناً لأنّها مقول على أفراده و مصاديقه بالتّشكيك فقال تعالىٰ: **إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** و المراد بالذّكر معناه اللُّغوي أي اذا ذكر إسمه تعالى عند المؤمن دخل الخوف في قلبه لا ما هو المصطلح عند الصُّوفية من الإذكار الخاصّة المتداولة بينهم على كيفيّةٍ مخصوصةٍ و عليه فالمعنى، اذا ذكر إسمه تعالى عندهم و يلفظ به تفزع قلوبهم لذكره إستعظاماً له و تهَّيباً و إجلالاً.

و يحتمل أن يكون ذكر اللّه على حذف مضافٍ أي ذكرت عظمة اللّه و قدرته و ما خوَّف به من عصاه قاله الزّجاج.

و قال السُّدي هو الرّجل يهمّ بالمعصية فيذكر اللّه فيفزع عنها.

الثّانية:**وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** والمعنىٰ أنّ تلاوة الأيات صارت سبباً لازدياد الإيمان في حقّ المؤمن و المراد بالأيات الأيات القرآنيّة و لعلّ الوجه فيه هو أنّ الأيات الموجودة في الكتاب من جهة أنّها كلام اللّه تعالى توجب توجّه العبد الى المعبود أو أنّ التَّفكر فيها يوجب زيادة الإيمان فأنّ التّوحيد أساس الإيمان.

قال بعض المفسّرين معنى زادتهم إيماناً أي يقيناً و تثبيتاً لأنّ تظاهر الأدلّة و تظافرها أقوى على الطّمأنينة المدلول عليه و أرسخ لقدمه و قيل المعنى أنّه اذا كان لم يسمع حكماً من أحكام القرأن منزل على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فأمن به زاد إيماناً الى سائر ما قد أمن به إذ لكلّ حكمٍ تصديق خاصّ.

و لهذا قال مجاهد عبَّر بزيادة الإيمان عن زيادة العلم و أحكامه.

و قيل زيادة الإيمان كناية عن زيادة العمل و غير ذلك من الأقوال التّي ذكروها في تفاسيرهم.

الثّالثة: وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أقول هذا الكلام بمنزلة النّتيجة لما تقدّم و ذلك لأنّ المؤمن الخائف يتَّوكل على اللّه لا محالة في جميع أموره لعمله بأنّ أزمّة الأمور بيد اللّه و لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو و هذا هو السِّر في التَّوكل عليه و لتوضيح الكلام في معنى التوكل و لزومه عقلاً و نقلاً على العبد نقول:

التَّوكل مصدر من باب التَّفعل مأخوذ من **وَكَلَ يَكِلُ وَكلاً ووكُولاً** بمعنى فوَّض يقال وكل الأمر اليه اذا تركه و فوَّضه اليه و عليه فالتَّوكل معناه التَّفويض و منه الوكيل المفوّض اليه الأمر من جانب الموكّل هذا بحسب اللّغة.

و أمّا في عرف علماء الأخلاق فالتَّوكل إعتماد القلب في جميع الأمور على اللّه تعالى و بعبارةٍ أخرى حوالة الأمر جميع أموره عليه.

و قال بعضهم هو التَّبريّ من كلّ حولٍ و قوّةٍ و الإعتماد على حول اللّه و قوّته و من المعلوم أنّ هذا المعنى موقوف على الإعتقاد الجازم القاطع بأنّه لا فاعل إلاّ اللّه و أنّه لا حول و لا قوّة إلاّ به و أنّ له تعالى تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثمّ تمام العطف و العناية و الرّحمة بجملة العباد و أنّه ليس وراء منتهى قدرته قدرة و لا وراء منتهى علمه علم و لا وراء منتهى عنايته عناية فمن إعتقد ذلك إتّكل قلبه لا محالة على اللّه وحده ولم يلتفت الى غيره و لا الى نفسه أصلاً و اذا كان كذلك فمن لم يجد ذلك عن نفسه فسببه أمّا ضعف

اليقين أو ضعف القلب و مرضه بإستيلاء الجبن عليه و إنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فأنّ القلب الضّعيف فينزعج تبعاً للوهم فالتّوكل لا يتّم إلاّ بقوّة اليقين و قوّة القلب جميعاً.

و بذلك ظهر لك أنّ المؤمن الحقيقي يلزمه التّوكل قطعاً فالإيمان و التّوكل متلازمان فمن لا تُّوكل له لا إيمان له و بالعكس و لذلك قال تعالى: **وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** فالتّوكل من الفضائل المتّعلقة بقوّتي العاقلة و الغضّبية معاً و قد ثبت في باب التّوحيد أنّ عماد التَّوكل و ما يبتني عليه هو المرتبة الثّالثة من التّوحيد وهي أن ينكشف للعبد بإشراق نور الحقّ بأنّه لا فاعل إلاّ هو و أنّ ما عداه من الأسباب و الوسائط مسخّرات مقهورات تحت قدرته الأزليّة اذا عرفت ذلك فنقول:

التَّوكل منزل من منازل السّالكين و مقام من مقامات الموحدين بل هو أفضل درجات المؤمنين ولذا ورد في مدحه و فضله و التّرغيب فيه ما ورد من الكتاب و السنّة.

قال اللّه تعالى: **وَ عَلَى اَللّٰهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ عَلَى اَللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُتَوَكِّلِينَ**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ فَإِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**(٥).

أي عزيز لا يذَّل من إستجار به فلا يضع من لاذ بجنابه و حكيمٌ لا يقصر عن تدبير من توّكل على تدبيره و غيرها من الأيات.

١- المائدة = ٢٣
٢- المائدة = ١١
٣- أل عمران = ١٥٩
٤- الطّلاق = ٣
٥- الأنفال = ٤٩

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: من أنقطع الى اللّه كفاه اللّه كلّ مؤنة و رزقه من حيث لا يحتسب و من إنقطع الىٰ الدّنيا وَكَلَه اللّه اليها.

و قال صلى الله عليه وآله: لو أنّكم تتوّكلون علىٰ اللّه حقّ توّكله لرزقتم كما ترزق الطّيور تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

و قال صلى الله عليه وآله: من سرَّه أن يكون أغنى النّاس فليكن بما عند اللّه أوثق منه بما في يده.

و قال الصّادق عليه السلام: أوحىٰ اللّه الىٰ داوود، ما إعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيتّه ثمّ تكيده السّموات و الأرض و من فيّهن إلاّ جعلت له المخرج من بينّهن.

و قال عليه السلام: أنّ الغني و العزّ يجولان فإذا ظفر بموضع التَّوكل أوطنا.

و قال عليه السلام: من أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً، من أعطي الدّعاء أعطي الإجابة أعطي الشكر أعطى الزّيادة و من أعطي التَّوكل أعطي الكفاية.

ثمّ قال عليه السلام: أتلوت كتاب اللّه عزّ وجلّ، و من يتّوكل على اللّه فهو حسبه:

قال اللّه تعالى: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**[2].

و قال عليه السلام: أنّ اللّه تعالى يقول و عزّتي و جلالي و مجدي و إرتفاعي على عرشي لأقطّعن أمل كلّ مؤمّلٍ من النّاس في غيره باليأس و لأكسّونه ثوب المذّلة عند النّاس و لأنحيّنه من قربي و لأبعدّنه من وصلي أيؤّمل غيري في الشّدائد و الشّدائد بيدي و يرجو غيري و يقرع بالفكر باب غيري و بيدي مفاتيح الأبواب و هي مغلقة و بابي مفتوح لمن دعاني فمن ذا الّذي أملني لنوائبه فقطعته دونها و من ذا

١- ابراهيم = ٧
٢- غافر = ٦٠

الّذي رجاني لعظيمةٍ فقطعت رجاءه منّي جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي و ملأت سماواتي ممّن لا يملّ من تسبيحي و أمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي الحديث[1].

ثمّ أنّ للتّوكل ثلاث درجات:

الأولیٰ: أن يكون حاله في حقّ اللّه، و الثقّة بعنايته وكفالته كحاله في الثّقة بالوكيل و هذه أضعف الدّرجات.

الثّانية: أن يكون حاله مع اللّه كحال الطّفل مع أمّه فأنّه لا يعرف غيرها يفزع إلاّ اليها و لا يعتمد إلاّ عليها.

الثّالثة: و هى أعلى الدّرجات أن يكون بين يدي اللّه في حركاته و سكناته مثل الميّت بين يدي الغاسل بأن يرى العبد نفسه ميتاً و تحركّه القدرة الأزليّة كما يحرّك الغاسل الميّت و هو الّذي قويت نفسه و نال الدرجّة الثّالثة من التّوحيد هكذا حقّقه بعض المحقّقين و لا مشاحة فيه و تفصيل الكلام فيه موكول الى كتب الأخلاق و حيث إنجّر الكلام الى هنا فلا بأس بالإشارة الى ما ذكروه في كتب العرفان في معناه على سبيل الإجمال فنقول.

قال بعض العرفاء التَّوكل كله الأمر الى مالكه و التّعويل على وكالته و هو من أصعب منازل العّامة عليهم و أوهن السُّبل عند الخاصّة لأنّ الحقّ قد الأمور كلّها الى نفسه و أيأس العالم من ملك شئ منها.

قال الشّارح أنّما كان التَّوكل أصعب منازل العّامة لأنّهم قد إحتجوا بالأسباب لمحبّتهم نفوسهم و موافقاتها من المشتهيّات فتعلّقوا بما تحصل به من الأسباب و الأموال لأنّ المال مادّة الشّهوات فمالوا اليها و ضرّوا بها فهم يخافون من تلف النّفوس أن تركوا الأسباب فلا يعولّون على اللّه معلّلين بعقولهم المشوبة بالوهم أنّ اللّه أعطانا العقل و القوّة و القدرة فلا يقوى إيمانهم

١- جامع السّعادات، ج ٣، ص ٢٢٠.

أن يعارض أوهامهم يعلمون أنّ الأمر ليس بأيديهم و لا تأثير لقدرتهم فيحسبون أنّ اللّه قد وكلّه اليهم فلذلك كان أصعب عليهم.

و أمّا الخاصّة فأنّهم قد علموا يقيناً أنّ الأمر كلّه للّه و أنّ أشرف النّاس و أكملهم مخاطب بقوله: **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ**[1] فكيف بأدونهم و أضعفهم و اذا لم يكن أمورهم بأيديهم و كان الملك بأسره له تعالى فأيُّ شيءٍ يكلون الى اللّه و يسلّمونه اليه و فى أيّ شيءٍ يجعلونه وكيلاً لهم فكان التّوكّل أضعف السبّل عندهم انتهى كلامه.

أقُول ما ذكره في المقام في معنى التّوكل و أنّه من أصعب منازل العّامة و أوهن السبّل عند الخاصّة أنّما يستقيم على مذهبه و مسلكه و أمّا عندنا فلا يعتمد عليه لأنّ فيه شائبة الجبر كما لا يخفى على المتدبّر في كلامه و أنّما نقلنا كلامه لتعلم أنّ كلّ حزبٍ بما لديه فرحون.

و أمّا الإستدلال بقوله تعالى: **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ** فليس بشيءٍ لأنّ المراد نفي الشّيء بيد العبد إستقلالاً مع قطع النّظر عن مشيّئة اللّه و إرادته.

و أمّا أنّه ليس عند العبد قدرة بالكليّة فلا و لتفصيل الكلام فيه مقام آخر فتأمّل فيه فأنّه دقيق فأنّ التّوكل في العّامة و الخّاصة ليس معناه عدم التّعلق بالأسباب بل معناه أنّ الأسباب ليست بعلّةٍ تامّة لوجود الفعل في الخارج بل العلّة هي و إرادة اللّه فمن زعم أنّ الأسباب لا تأثير لها أصلاً فقد أخطأ و من زعم أنّ لها التأثير بعنوان جزء العلّة فقد أصاب فالعبد يتّوكل على اللّه بعد تعلّقه بالأسباب لا قبله و لا فرق بين العّامة و الخّاصة و محصل الكلام هو أنّ العبد يعتمد على اللّه لا على قدرته و قوّته إذ لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه كيف و قد ورد أنّ أوّل العلم معرفة الجبّار و آخر الأمر، و آخر العلم، تفويض الأمر اليه وفّقنا اللّه لهذا المقام.

١- آل عمران ١٢٨

ثمّ أنّ اللّه تبارك وتعالى بعد ذكر الأوصاف الثّلاثة للمؤمنين ذكر وصفين آخرين للمؤمن الحقيقي فقال: **ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** قال بعض المفسّرين الأحسن أن يكون، الّذين، صفة، للذّين، السّابقة حتّى تدخل في حيّز الجزئيّة فيكون ذلك إخباراً عن المؤمنين بثلاث الصّفة القلبيّة السّابقة و عنهم بالصّفة البدنيّة و الصّفة الماليّة و جمع أفعال القلوب لأنّها أشرف و جمع في أفعال الجوارح بين الصّلاة و الصّدقة لأنّهما عمود أفعال الجوارح.

و قيل أنّ، الّذين، بدل من، الّذين، و هو أي الثّاني منهما خبر محذوف و التّقدير هم **ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** وكيف كان فالمراتب الثّلاثة المتّقدمة أحوال معتبرة في القلوب ثمّ إنتقل منها الى رعاية أحوال الظاهر و رأس الطاعات في الظاهر هو الصّلاة الّتي هي معراج المؤمن، و قربان كلّ تقّي و بعدها بذل المال في سبيل مرضاته و يدخل فيه الزّكاة و الصّدقات الواجبة و المستحبة و الإنفاق في الجهاد و المساجد و القناطر ذلك ممّا يعدّ إنفاقاً في الخيرات.

و المراد بإقامة الصّلاة الإتيان بها على وجهها على النّحو المقرّر في الشريعة المقدسة.

أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

أي أولئك الّذين وصفناهم بهذه الأوصاف الخمسة من الخوف عند ذكر اللّه و زيادة الايمان عند تلاوة الأيات و التوكل على اللّه في جميع أموره و إقامة الصّلاة و الإنفاق في سبيل مرضاته، هم المؤمنون حقّاً، أي خالصاً مخلصاً واقعاً لا كمن كان له إسمه على الظاهر و بعبارةٍ أخرى كلمة المؤمن، تطلق في العرف على من كان ظاهراً متّصفاً به ولو كان في الواقع منافقاً عارياً عن الايمان و ذلك كأكثر المدعين للإيمان و لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم:

قال اللّه تعالى: **قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَ لَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ**[1].

و أمّا عند أهل الحقّ فلا تطلق إلاّ على من كان متّصفاً به واقعاً أي إعتقاداً و عملاً و أن شئت قلت قيمة كلّ شيئٍ بآثاره المترتبة عليه و الآثارة تارةً تكون ذهينته و تارةً خارجيّة و الآثار الذهنيّةً لا أثر لها إذا لم توجد في الخارج ألا ترى أنّ النّار إذا لم تكن موجودة في الخارج لا تحرق فمن زعم أنّ الإيمان عبارة عن مجرّد الإعتقاد أو مجرّد الإقرار اللّفظي فقد إشتبه عليه الأمر ولم يعلم أنّ التصورات الذهنيّة و الإقرارات اللفظيّة لا أثر لها عند من يعلم الأسرار و لأجل هذه الدقيقة قال تعالىٰ: **أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** أي واقعاً لا ظاهراً

وإحتمل بعض المفسّرين أن يكون **حَقًّا** أوّل الكلام لما بعده أي تمّ الكلام عند قوله: **هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ثمّ إبتدأ و قال حقّاً لهم درجات، و هذا الإحتمال ضعيف جدّاً بل الحقّ.

إتّصاله بما قبله تمييزاً المؤمن الصُوري عن المؤمن الحقيقي و الدّليل على ما ذكرناه هو أنّ الدَّرجات و المغفرة و الرّزق الكريم، لا تحصل إلاّ للمؤمن الواقعي لا للمسمّى بالإيمان و هو ظاهر.

أن قلت ما وجه إنتصابه في الأية.

قلت ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أنّه مصدر مؤكّد لفعلٍ محذوف يدلّ عليه الكلام و التقدير و أنّ الّذي فعلوه كان حقّاً صدقاً و هذا قول سيبويه و قيل، تقديره أحقّ ذلك حقّاً.

ثانيها: ما ذهب اليه الفرّاء و هو أنّ التّقدير أخبركم بذلك حقّاً أي إخباراً حقّاً نظيره قوله هم الكافرون حقّاً.

ثالثها: قال الزّمخشري، حقّاً صفة للمصدر الحذوف أي أولئك هم المؤمنون حقّاً.

١- الحجرات = ١٤

و عن الحسن أنّه سأله رجل و قال له أمؤمن أنت، فقال الإيمان إيمانان فأن كنت تسألني عن الإيمان باللّه و ملائكته وكتبه و رسله و اليوم الأخر و الجنّة و النّار و البعث و الحساب فأنا مؤمن و أن كنت تسألني عن قوله تعالى: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ** الآية فواللّه لا أدري أمنهم أنا أم لا.

و أمّا قوله تعالى: **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ** فالظّاهر أنّ المراد بالدّرجات عند اللّه هي المنازل التّي يتفاضل بهما بعضهما على بعضٍ و أنّما قال: **لَهُمْ دَرَجَاتٌ** ولم يقل لهم درج لأنّ الإيمان مقول على أفراده و مصاديقه بالتشكيك و أن شئت قلت له درجات و مقامات فمن النّاس من يكون في الدّرجة الأولى و منهم من يكون في الثانيّة و هكذا الى العاشرة و لكلّ درجةٍ من الإيمان درجة و مقام عند اللّه.

قال بعضهم لمّا تقدّمت ثلاث صفات قلبيّة و بدَّنية و ماليّة ترتّب عليها ثلاثة أشياء فقوبلت الأعمال القلبيّة بالدّرجات و البدنيّة بالغفران انتهى كلامه.

و الحقّ أنّ الدَّرجات و المغفرة و الرّزق الكريم تتعلق بالجميع لأنّ المؤمن الحقيقي من كان متّصفاً بها جميعاً و هذه المذكورات في الآية ثابتة لمن كان مؤمناً حقّاً و هو واضح.

قال مجاهد المراد بالدّرجات ما عند اللّه من المقامات الرفيعة و الفضائل التّي إستّحقوها في أيّام حياتهم.

و قال غيره الدّرجات هي المراتب الرفيعة و أمّا الرّزق الكريم فقيل هو الجنّة و قيل هو ما أعدَّ اللّه لهم و وعدهم به في الجنّة من أنواع النّعيم.

و أمّا المغفرة في غفران الذّنوب و المعاصي يوم القيامة.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ

إختلف المفسرون في الكاف في قوله: **كَمَآ أَخْرَجَكَ** على أقوالٍ كثيرة:

منها، أنّ الكاف بمعنى واو القسم، وما، بمعنى الّذي واقعة على ذي العلم و

هو اللّه كما وقعت في قوله: **وَ مَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثَىٰ** و جواب القسم يجادلونك، و التّقدير و اللّه الّذي أخرجك من بيتك يجادلونك في الحقّ و هذا الوجه منقولٌ عن أبي عبيدة، و ضعّفوه في النّحو بل قال الكرماني هذا سهوٌ منه.

و قال إبن الأنباري الكاف ليست من حروف القسم و فيه أيضاً أنّ جواب القسم بالمضارع المثبت جاء بغير لامٍ و لا نون توكيدٍ و لابدّ منها في مثل هذا و أمّا خلوه عنهما فهو مخالف للإجماع.

و منها، أنّ الكاف بمعنى، إذ، و ما زائدة تقديره إذكر إذ أخرجك و هذا أيضاً ضعيف لأنّه لم تثبت أنّ الكاف تكون بمعنى، إذ في لسان العرب.

و منها، أنّ الكاف بمعنى على، وما، بمعنى الذّي و تقديره إمض على الّذي أخرجك ربّك من بيتك و هذا أيضاً ضعيف إذ لم يثبت أنّ الكاف تكون بمعنى، على، و لأنّه يحتاج الموصول الى عائد و هو لا يجوز أن يحذف في مثل هذا التركيب.

و منها، ما ذهب اليه عكرمة قال، التّقدير **وَ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥٓ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** كما أخرجك في الطّاعة خيرٌ لكم كما كان إخراجك خيراً لهم.

و منها ما ذهب اليه الكسائي و غيره أي كما أخرجك ربّك من بيتك على كراهةٍ من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفّار مكّة.

قال إبن عطيّة و التّقدير على هذا التّأويل يجادلونك في الحّق مجادلة لكراهتهم إخراج ربّك إيّاك من بيتك فالمجادلة على هذا التّأويل بمثابة الكراهة.

و منها، ما عن الفرّاء أنّه قال و التّقدير إمض لأمرك في الغنائم و نفل من شئت أن كرهوا كما أخرجك ربّك إنتهى.

و منها، عن الأخفش و هو أنّ الكاف نعتٌ لحقّاً و التّقدير هم المؤمنون حقّاً كما أخرجك إنتهى.

و منها، أنّ الكاف في موضع رفع و التّقدير كما أخرجك ربّك فأتّقوا اللّه و الأقوال كثيرة و قد ذكر بعض المفسّرين في المقام خمسة عشر قولاً و لا نحتاج الى ذكر جميعها فأنّ التعليل يدلّ على الكثير و من أراد الإطلاع عليها فعليه بمراجعة تفسير بحر المحيط و أمثاله من تفاسير العّامة.

و قال صاحب الكّشاف في الكاف وجهان:

أحدهما: أن يرتفع محّل الكاف على أنّه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا الحال كحال إخراجك يعني أنّ حالهم في كراهية ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في موضع كراهة خروجك للحرب.

الثّاني: أن ينتصب على أنّه صفة مصدر الفعل المقدّر في قوله الأنفال للّه و الرّسول، أي الأنفال إستقرّت للّه و الرّسول و تثبت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربّك إيّاك من بيتك و هم كارهون و من، بيتك، يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها لأنّها مهاجرة و مسكنه فهي في إختصاصها به كإختصاص البيت بساكنه، بالحق، أي إخراجاً متلبّساً بالحكمة و الصّواب الّذي لا محيد عنه وَ **إِنَّ فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** في موضع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم و ذلك أنّ عير قريش أقبلت من الشّام فيها تجارة عظيمة و معها أربعون راكباً منهم أبو سفيان و عمر و بن العاص و عمر و بن هشام فأخبر جبرئيل رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلّقي العير لكثرة الخير و قلّة القوم فلّما خرجوا بلغ أهل مكّة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكّة النّجاء النّجاء على كلّ صعب و ذلول عيركم أموالكم أن أصابها محمّد لن تفلحوا بعدها أبداً و قد رأت أخت العبّاس بن عبد المطّلب رؤيا فقالت لأخيها إنّي رأيت عجباً رأيت كأنّ ملكاً نزل من السّماء فأخذ صخرة من الجبل ثمّ حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكّة إلاّ أصابه حجرٌ من تلك الصَّخرة فحّدث بها العبّاس فقال أبو جهل ما يرضى رجالهم أن يتنبّؤا حتّى تتنبّأ نسائهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكّة و هم النّفير في المثل السّائر لا في العير و لا

في النّفير، فقيل له أنّ العير أخذت طريق السّاحل و نجت فأرجع بالنّاس الى مكّة لا فقال لا و اللّه لا يكون ذلك أبداً حتّى تنجحر الجزور و نشرب الخمور و نقيم القينات و المعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا و أنّ محمّداً لم يصب العير و إنّا قد أعضضناه فمضى بهم الى بدرٍ و بدرٍ ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السّنة فنزل جبرئيل فقال يا محمّد أنّ اللّه وعدكم إحدى الطّائفتين أمّا العير و أمّا قريشاً فأستشار النّبي صلّی الله عليه وآله وسلّم أصحابه و قال ما تقولون أنّ القوم قد خرجوا من مكّة على كلّ صعبٌ و ذلول فالعير أحّب اليكم أم النّفير قالوا بل العير أحّب إلينا من لقاء العدّو فتّغير وجه رسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم ثمّ ردّوا عليهم فقال أنّ العير قد مضت على ساحل البحر و هذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول اللّه عليك بالعير ودع العدّو فقام عند غضب النّبي صلّی الله عليه وآله وسلّم أبوبكر و عمر فأحسنا ثمّ قام سعد بن عبادة فقال أنظر أمرك فأمض فواللّه لو سرت الى عدن أبين ما تخلّف عنك رجل من الأنصار.

ثمّ قال المقداد بن عمر و يا رسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم إمض لما أمرك اللّه فانّا معك حيثما أجبت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل إذهب أنت و ربّك فقاتلا أنّا هاهنا قاعدون ولكن أذهب أنت و ربّك فقاتلا أنّا معكما مقاتلون مادامت عينٌ منّا تطرف فضحك رسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم ثمّ قال أشيروا علّي أيّها النّاس و هو يريد الأنصار لأنّهم قالوا له حين بايعوه على العقبة أنّا براءٌ من ذمامك حتّى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا فأنت في ذمامنا نمنعك ممّا نمنع منه أباءنا و نساءنا فكان النّبي صلّی الله عليه وآله وسلّم يتّخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته إلاّ على عدّوٍ دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنّك تريدنا يارسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم قال أجل قال قد أمنّا بك و صدّقناك و أشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ و أعطيناك على ذلك عهودنا و مواثيقنا على السّمع و الطّاعة فأمض يا رسول اللّه لما أردت فو الّذي بعثك بالحقّ لو إستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضنا معك ما تخلّف منّا رجل واحد و ما نكره أن تلقي بنا عدّونا أنّا نصّبر عند

الحرب صدق عند اللّقاء و لعلّ اللّه يريك منّا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة اللّه ففرح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله وسلّم و بسطه قول سعد ثمّ قال سيروا على بركة اللّه و أبشروا فأنّ اللّه وعدني أحدى الطّائفتين و اللّه لكأنّي الأن أنظر الى مصارع القوم.

و روي أنّه قيل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله وسلّم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شئ فناداه العبّاس و هو في وثاقه لا يصلح فقال له النّبي صلّى اللّه عليه و آله وسلّم لم، قال لأنّ اللّه وعدك أحدى الطّائفتين و قد أعطاك ما وعدك وكانت الكراهة من بعضهم لقوله و أنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون و الحقّ الّذي جادلوا فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله وسلّم تلقى النّفير لإيثارهم عليه تلقى العير (بعد ما تبيّن) بعد إعلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله وسلّم بأنّهم ينصرون و جدالهم قولهم ما كان خروجنا إلاّ للعير و هلاّ قلت لنا لنستعد و لنتأهب لكراهتهم القتال ثمّ شبّه حالهم في فرط فزعهم و رعبهم و هم يسار بهم الى الظّفر و الغنيمة بحال من يعتل الى القتل و يساق على الصّغار الى الموت المتّقين شاهد لأسبابه ناظر اليها لا يشكّ فيها.

و قيل كان خوفهم لقلّة العدد و أنّهم كانوا رجالة و روي أنّه ما كان فيهم إلاّ فارسان انتهى ما ذكره صاحب الكشّاف، و إختاره الفخر الرّازي أيضاً فأنّه قال أنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله وسلّم لمّا رأى كثرة المشركين يوم بدر و قلّة المسلمين قال من قتل قتيلاً فله سلبه و من أسر أسيراً فله كذا و كذا ليرغبهم في القتال فلمّا إنهزم المشركون قال سعد بن عبادة يا رسول اللّه أنّ جماعة من أصحابك و قومك فدوك بأنفسهم و لم يتّأخروا عن القتال جبناً و لا بخلاً ببذل مهجهم و لكنّهم أشفقوا عليك من أن تغتال فمتى أعطيت هؤلاء ما سمَّيت لهم بقى خلقٌ من المسلمين بغير شئ فأنزل اللّه تعالىٰ: **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ ٱلرَّسُولِ** يصنع فيها ما يشاء فأمسك المسلمون عن الطلب و فى أنفس بعضهم شئ من الكراهية انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و لقائلٍ أن يقول كيف وعدهم رسول اللّه بما وعد ثمّ تخلّف عنه بنزول

الآية و كيف نزلت الآية على خلاف قول الرّسول و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ اَلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ**[1] و لا نعلم أنّ ما ذكره الرّازي من أين نقله ولم يذكره صاحب الكشّاف و لا غيره ممّن يعتنى بنقله و لا يبعد أن يكون ما ذكره من إستظهاراته و تشكيكاته و اللّه أعلم.

ثمّ قال الرّازي فلمّا قال تعالى قل الأنفال للّه و الرّسول كان التّقدير أنـهم رضوا بهذا الحكم في الأنفال و أن كانوا كارهين له كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ الى القتال و أن كانوا كارهين له و هذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة هنا إنتهى.

أقول و الّذي يظهر لنا من كلماتهم هو أنّ المسلمين كرهوا حكم الأنفال كما أنّهم كرهوا حكم القتال و رضوا به كما رضوا به و أنّ المراد من البيت في قوله تعالى: **مِنْ بَيْتِكَ** المدينة.

و قد قيل في الشّاذ هو مكّة المكّرمة و أنّما نسب اللّه الإخراج الى نفسه و قال: **كَمٰا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ** لأنّه تعالى هو الامر بالقتال في الحقيقة كما قال: **وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ رَمىٰ**[2].

نعم قد يقال في وجه كراهيتهم للقتال عدم إستعدادهم له لقلتهم و كثرة المشركين و قيل لأنّهم كانوا يودون العير دون الحرب.

يُجٰادِلُونَكَ فِي اَلْحَقِّ بَعْدَ مٰا تَبَيَّنَ كَأَنَّمٰا يُسٰاقُونَ إِلَى اَلْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ

قيل معناه يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به أي بعد ماتبيَّن لهم أنّك يا محمّد لا تصنع إلاّ ما أمرك اللّه به و من الواضح أنّ المجادلة مع الرّسول بعد ظهور الحقّ قبيح عقلاً و شرعاً ثمّ علَّل ذلك بقوله: **كَأَنَّمٰا يُسٰاقُونَ إِلَى اَلْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ** أي كأنّ هؤلاء الّذين يجادلونك يساقون الى الموت، و

١- النجم = ٣ و ۴ ٢- الانفال = ١٧

السّوق الحثّ على اليسر عجلة، أي كأنّهم في لقاء العدو وفي كراهتهم للقتال إذا دعوا اليه بمنزلة من يساق الى الموت و هم يرونه أو يتوقعونه و محصّل الكلام أنّ العلّة في المجادلة بعد وضوح الحقّ ليست إلاّ كراهية الموت.

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ، إحدى الطّائفتين.

إمّا العير و أمّا قريشاً، وكلمة، إذ، منصوب بإضمار إذكروا و المعنى إذكروا يعدكم اللّه أنّ إحدى الطّائفتين لكم لا على سبيل التعيين و لكن أنتم تودّون أي تحبّون أنّ غير ذات الشّوكة تكون لكم و هى العير لا النّفير و الشوكة كانت في النّفير لعددهم وعدّتهم و فيها مظّنة القتل و الحال أنّ اللّه تعالى يريد أن يحقّق الحقّ و يثبته بكلماته و يقطع دابر الكافرين **لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَ يُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ** أي أنّما أراد اللّه قطع دابر الظّلمة لأنّ فيه إثبات الحقّ و إبطال الباطل و هذا هو المقصد الأعلى و الغاية القصوى لبعث الرّسل و إنزال الكتب لا تحصيل المال و الثّروة و حاصل الكلام في الأيتين هو أنّ اللّه تعالى وعدهم على لسان رسوله إحدىٰ الطّائفتين إمّا العير و أمّا قريشاً، و لم يعيّين لهم ما أراد صريحاً إختباراً و إمتحاناً و من المعلوم أنّ في العير نفع الدّنيا و فى النّفير نفع الأخرة فمن أراد الدنيا أراد العير و من أراد الأخرة أرادَ النّفير و لا شكّ أنّ اللّه تعالى أراد النّفير و القتال مع الأعداء اذ فيه ترويج الدّين و إعلاء كلمة الحقّ و إقامة الباطل بخلاف العير إذ ليس فيه إلاّ جمع المال و لكن النّاس عبيد الدنيا و الّدين لبقٌ على ألسنتهم.

و لأجل ذلك كرهوا القتال و رغبوا العير و أنّما قلنا أنّ اللّه أراد النّفير لقوله: **وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** و هو العير و اللّه تعالى أراد النّفير إذ فيه إحقاق الحقّ و إبطال الباطل، و أنّما قال و يقطع دابر الكافرين ثمّ قال ليحقّ الحقّ و يبطل الباطل الخ.

لأنّ الكافر مانعٌ من إظهار الحقّ فلابدّ لمن أراد إظهار الحقّ و إبطال الباطل من رفع المانع أوّلاً و لا سبيل اليه إلاّ بقطع دابرهم و إستئصالهم و إفناءهم من صفحة الوجود إذ لا دواء لداء العناد إلاّ القتل و لو كره المجرمون.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ

أي و أذكروا إذ تستغيثون ربّكم، الإستغاثة طلب المعونة و هو صدّ الخلّة في وقت شدّة الحاجة و قيل في معناه أي تستجيرون به من عدّوكم و الإستجارة موافقة المسألة بالعطية و قال بعضهم الإستغاثة طلب الغوث لما علموا أنّه لابدّ من القتال شرعوا في طلب الغوث من اللّه تعالى و الظّاهر أنّه خطاب لمن خوطب بقوله: **وَ إِذْ يَعِدُكُمُ** و حيث أنّ هذه الأيات نزلت في غزوة بدر الكبرى فلابدّ لنا أوّلاً من بيان القصّة ثمّ تفسير الأيات.

فنقول قال إبن الأثير في تاريخه، و فى السّنة الثانيّة (يعني من الهجرة) كانت وقعة بدر الكبرى في شهر رمضان في سابع عشرة و قيل تاسع عشرة و كانت يوم الجمعة و كان سببها قتل عمر و بن الحضرمي و إقبال أبي سفيان بن حجرت في عير لقريش عظيمة من الشام و فيها أموال كثيرة و معها ثلاثون رجلاً أو أربعون و قيل قريباً من سبعين رجلاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزّهري و عمر و بن العاص فلمّا سمع بهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ندب المسلمين اليهم و قال هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا اليها لعلّ اللّه أن ينفلكموها فأنتدب النّاس فخّف بعضهم و ثقل بعضهم و ذلك لأنّهم لن يظّنوا أنّ رسول اللّه يلقي حرباً و كان أبو سفيان قد سمع أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يريده فحذر و أستأجر ضمغم بن عمر و الغفّاري فبعثه الى مكّة يستنفر قريشاً و يخبرهم الخبر فخرج ضمغم الى مكّة و كانت عاتكة بنت عبد المطّلب قد رأت قبل قدوم ضمغم مكّة بثلاث ليالٍ رؤيا أفزعتها فقصّتها على أخيه العباس، و

إستكتمته خبرها قالت رأيت راكباً على بعير له واقفاً بالأبطح ثمّ صرخ بأعلى صوته أن إنفروا يآل غدر لمصارعكم في ثلاث قالت فرأى النّاس قد إجتمعوا اليه ثمّ دخل المسجد فمثل بعيره على الكعبة ثمّ صرخ مثلها ثمّ مثل بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثمّ أخذ صخرةً عظيمة و أرسلها فلمّا كانت بأسفل الوادي أرفضت فما بقى بيت من مكّة إلاّ دخله فلقة منها فخرج العبّاس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان صديقه فذكر حاله و إستكتمه ذلك فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشى الخبر فلقى أبو جهل العباس فقال له يا أبا الفضل إقبل الينا قال فلّما فرغت من طوافي أقبلت اليه فقال لي متى حدّثتكم هذه النبيّة و ذكر رؤيا عاتكة.

ثمّ قال له ما رضيتم أن تتنبأ رجالكم نساءكم فسنتربّص بكم هذه الثّلاث فأن يكن حقّاً و إلاّ كتبنا عليكم أنّكم أكذب أهل بيتٍ في العرب قال العبّاس فما منّي إلاّ أنّي جحدت ذلك و أنكرته فلمّا أمسيت أتاني نساء بني عبد المطّلب و قلن لي أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم و قد تناول نساءكم فلم تنكر عليه ذلك قال قلت و اللّه كان ذلك و لا تعرضن له فأن عاد كفيتكموه قال فغدوت اليوم الثالث من رؤيا عاتكة و أنا مغضب أحبّ أن أدركه فرأيته في المسجد فمشيت نحوه أتّعرض له ليعود فأوقع به فخرج نحو باب المسجد يشتد.

قال قلت ما باله قاتله اللّه أكل هذا فرقا من أن أشاتمه و اذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو و هو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدّعه و حوّل رحله و شّق قميصه و هو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللّطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّد وأصحابه لا أدري أن تدركوها الغوث الغوث فشغلني عنه و شغله عنّي.

قال فتجهّز النّاس سراعاً و لم يتخلّف من أشرافهم أحد إلاّ أبولهب و بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة و عزم أميّة بن خلف الجهمي على القعود فأنّه كان شيخاً ثقيلاً بطيئاً فأتاه عقبة بن أبي معيط بجمرةٍ فيها نار و قال يا أبا

علي إستجمر فأنّما أنت من النساء فقال قبّحك اللّه و قبّح ما حبت به و تجهّز و خرج معهم و عزم عتبة بن ربيعة أيضاً على القعود فقال له أخوه شيبة أن فارقنا كان ذلك سبة علينا فأمض مع قومك فمشى معهم فلمّا أجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم و بين بكر بن عبد مناة بن كنانة بن الحرث فخافوا أن يؤتوا من خلفهم فجاءهم إبليس في صورة سراقة بن جعشم المدلجي وكان من أشراف كنانة و قال أنا جار لكم فأخرجوا سراعاً وكانوا تسع مائة و خمسين رجلاً.

و قيل كانوا ألف رجل وكان خيلهم مائة فرس فنجا منهم سبعون فرساً و غنم المسلمون ثلاثين فرساً وكان مع المشركين سبع مائة بعير وكان مسير رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لثلاث ليالٍ خلون من شهر رمضان في ثلاث مائة و ثلاثة عشر رجلاً أربعة عشر و قيل بضعة عشر و قيل ثمانية عشر و قيل كانوا سبعة و سبعين من المهاجرين و قيل ثلاثة و ثمانون و الباقون من الأنصار.

فقيل جميع من ضرب له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بسهم من المهاجرين ثلاثة و ثمانون رجلاً من الأوس أحد و سبعون رجلاً و من الخزرج مائة و سبعون رجلاً ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو الكندي و لا خلاف فيه و الثّاني قيل كان الزبير بن العوام و قيل كان مرثد بن أبي مرثد و قيل المقداد وحده وكانت الإبل سبعين بعيراً فكانوا يتعاقبون عليها البعير بين الرّجلين و الثّلاثة و الأربعة فكان بين النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و علّي عليه السلام و زيد بن حارثة بعير، و بين أبي‌بكر و عمر و عبدالرّحمن بن عوف بعير و على مثل هذا وكان فرس المقداد إسمه سبحة و فرس الزبير إسمه السّيل وكان لواءه مع مصعب بن عمير بن عبد الدار و رايته مع علّي بن أبي طالب و على السّاقة قيس بن أبي صعصعة الأنصاري فلمّا كان قريباً من الصّفراء بعث لبيس بن عمرو و عدّي بن أبي الزّغباء يتجسّسان الأخبار عن أبي سفيان ثمّ إرتحل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و ترك الصّفراء يساراً و عاد اليه لبيس بن عمرو يخبره أنّ العير قد قاربت بدراً ولم يكن عند رسول اللّه و المسلمين علم بمسير قريش لمنع غيرهم.

و كان قد بعث عليّاً و الزبير و سعداً يلتمسون له الخبر ببدر فأصابوا راوية لقريش فيهم أسلم غلام بني الحجاج و أبو يسار غلام بني العاص فأتوا بهما النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و هو قائم يصلّي فسألوهما فقال نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء نكره القوم خبرهما و ضربوهما ليخبروهما عن أبي سفيان.

فقالا نحن لأبي سفيان فتركوهما و فرغ رسول اللّه من الصّلاة و قال اذا صدقاكم ضربتموهما و اذاكذباكم تركتموهما صدقا أنّهما لقريش أخبراني أين قريش قالا هم وراء هذا الكثيب الّذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كم القوم قالا كثير قال كم عدّتهم قالا لا ندري قال صلّى الله عليه وآله وسلّم كم ينحرون قالا يوماً تسعاً و يوماً عشراً قال القوم بين تسع مائة الى الألف ثم قال لهما فمن فيهما من أشراف قريش قالا عتبة و شيبة إبنا ربيعة و الوليد و أبو البحتري بن هشام و حكيم بن حزام و الحرث بن عامر و طعيمة بن عدّي و النضر بن الحرث و زمعة بن الأسود و أبو جهل و أميّة بن خلف و بنيه و منبه ابن الحجّاج و سهيل بن عمرو بن عبد ودّ فأقبل رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم على أصحابه و قال هذه مكّة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها ثمّ إستشار أصحابه فقال أبوبكر فأحسن ثمّ قال المقداد بن عمرو.

فقال يا رسول اللّه أمض لما أمرك اللّه فنحن معك و اللّه لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى إذهب أنت و ربّك فقاتلا أنّا هاهنا قاعدون و لكن إذهب أنت و ربّك فقاتلا أنّا معكما مقاتلون فوالّذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا الى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتّى تبلغه فدعا له بخير ثمّ قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أشيروا علّي أيّها النّاس و أنّما يريد الأنصار لأنّهم كانوا عدّته للنّاس و خاف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلاّ ممَّن دهمه بالمدينة وليس عليهم أن يسير بهم فقال له سعد بن معاذ لكأنّك تريدنا يا رسول اللّه.

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم أجل قال قد أمنّا بك و صدّقناك و أعطيناك عهودنا فأمض يا رسول اللّه لما أمرت فوالّذي بعثك بالحقّ إن إستعرضت بنا هذا البحر فخضته

فنخوض معك و ما نكره أن تكون تلقى العدّو بنا غداً أنّا لصبَّر عند الحرب صدق عند اللّقاء لعلّ اللّه يريك منّا ما تقّر به عينك فسر بنا على بركة اللّه فسار رسول اللّه ﷺ وقال أبشروا فأنّ اللّه قد وعدني إحدى الطّائفتين و اللّه لكأنّي أنظر الى مصارع القوم ثمّ إنحطّ على بدر فنزل قريباً منها وكان أبو سفيان قد ساحل و ترك بدراً يساراً ثمّ أسرع فنجا فلمّا رأى أنّه قد أحرز عيره أرسل الى قريش و هم بالجحفة أنّ اللّه قد نجى عيركم و أموالكم فأرجعوا فقال أبو جهل بن هشام و اللّه لا نرجع حتّى نرد بدراً وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوقٍ كلّ عامٍ فينقسم بها ثلاثاً فننحر الجزور و نطعم الطّعام و نسقي الخمر و تسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً.

فقال الأخنس بن شريق الثّقفي وكان حليفاً لبني زهرة و هم بالجحفة يابني زهرة قد نجى اللّه أموالكم و صاحبكم فأرجعوا فرجعوا فلم يشهدها زهّري عدًّوي و شهدها سائر بطون قريش ولما كانت قريش بالجحفة رأى جهيم بن الصلت بن محزمة بن عبدالمطلّب بن عبد مناف رؤيا فقال أنّي رأيت فيما يرى النّائم رجلاً أقبل على فرسٍ و معه بعير له فقال قل عتبة و شيبة و أبوجهل و غيرهم ممّن قتل يومئذٍ و رأيته ضرب لبة بعيره ثمّ أرسله في العسكر فما بقي خباء إلاّ أصابه من دمه.

فقال أبو جهل و هذا أيضاً نبيٌّ من بني عبد المطّلب سيعلم غداً من المقتول وكان بين طالب بن أبي طالب و هو في القوم و بين بعض قريش محاورة فقالوا و اللّه قد عرفنا أنّ هواكم مع محمّد ﷺ فرجع طالب الى مكّة فيمن رجع أنّما كان خرج كرهاً فلم يوجد في القتلى و لا في الأسرى و لا فيمن رجع الى مكّة و هو الذّي يقول:

يـــاربّ أمّـــا يـعزّون طـالب	فـي مـقنبٍ من هـذه المقانب
فـليكن المسلوب غير السّالب	وليكـن المـغلوب غير الغـالب

و مضت قريش حتّى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي و بعث اللّه السّماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و أصحابه منه ما لبدلهم الأرض و لم يمنعهم المسير و أصاب قريشاً منه ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه فخرج رسول اللّه يبادرهم الى الماء حتّى اذا جاء أدنى ماء من بر نزله فقال الحباب بن المنذر بن الجموح يا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أهذا منزل أنزلک اللّه ليس لنا أن نتّقدمه أو نتّأخره أم هو الرّأي و الحرب و المكيدة.

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم هو الرّأي و الحرب و المكيدة قال يا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فأنّ هذا ليس لك بمنزل فأنهض بالنّاس حتّى نأتي أدنى ماء سواه من القوم فننزله ثمّ نغوّر ما و راءه من القلب ثمّ نبني له حوضاً و نملأ ماءً فنشرب ماءً و لا يشربون ثمّ نقاتلهم ففعل رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ذلك فلمّا نزل جاء سعد بن معاذ فقال يا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثمّ نلقي عدّونا فأن أعزّنا اللّه و أظهرنا اللّه عليهم كان ذلك ممّا أجبناه و أن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلّف عنك أقوام ما نحن بأشدّ حبّاً لك منهم ولو ظنّوا أنّك تلقي حرباً ما تخلّفوا عنك يمنعك اللّه بهم يناصحونك و يحاربون معك فأثنى عليه خيراً ثمّ بني لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قريش و أقبلت قريش بخيلائها و فخرها فلمّا رأها.

قال اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها و فخرها تحادّك و تكذب رسولك اللّهم فنصرك الّذي وعدتني اللّهم أحنهم الغداة و رأى عتبة بن ربيعة على جملٍ أحمر فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يكن عند أحدٍ من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر أن يطيعوه يرشدوا وكان خفاف بن إيماء بن رحضة الغفاري أو أبوه إيماء بعث الى قريش حين مرّوا به إبنا له بجزائر أهداها لهم و عرض عليهم المدد بالرّجال و السّلاح فقالت قريش أن كنّا أنّما نقاتل النّاس فما بنا من ضعفٍ و أن كنّا نقاتل اللّه كما زعم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فما لأحدٍ باللّه طاقة فلمّا نزلت قريش أقبلت جماعة منهم حكيم بن حزام حتّى و ردوا حوض النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فقال رسول اللّه ﷺ أتركوهم فما شرب منه رجل إلاّ قتل يومئذٍ إلاّ حكيم نجا على فرسٍ له يقال له الوجيه و أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه و كان يقول اذا إجتهد في يمينه لا و الّذي نجّاني يوم بدر و لّما إطمأنت قريش بعثوا عمرو بن وهب الجهمي ليحرز المسلمين فجال بفرسه حولهم ثمّ عاد فقال هم ثلاث مائة يزيدون قليلاً أو ينقصونه ولقد رأيت الولايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ليس لهم منعة إلاّ سيوفهم و اللّه لا يقتل رجل منهم إلاّ يقتل رجلاً منكم فاذا أصابوا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فرأوا رأيكم فلمّا سمع حكيم بن حزام ذلك مشي في القوم فأتى عتبة بن ربيعة.

فقال يا أبا الوليد أنّك كبير قريش و سيّدها هل لك ألاّ تزال تذكر فيها بخير الىٰ أخر الدّهر قال و ما ذاك قال ترجع بالنّاس و تحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت على دمه و ما أصيب من ماله فأئت إبن الحنظليّة يعني أبا جهل فلا أخشى أن يفسد أمر النّاس غيره فقام عتبة في النّاس فقال أنّكم ما تصنعون بأن تلقوا محمّداً و أصحابه شيئاً و اللّه لئن أصبتموهم لا يزال رجلٍ ينظر في وجه رجل يكره النّظر اليه قتل إبن عمّه أو إبن خاله أو رجلاً من عشيرته.

قال حكيم بن حزام فإنطلقت الى أبي جهل فوجدته قد نثل درعاً و هو تهيّئاً فأعلمته ما قال عتبة فقال إنتفخ و اللّه سحره حين رأى محمّد و أصحابه لا نرجع حتّى يحكم اللّه بيننا و بين محمّد و ما بالعتبة ما قال و لكن رأى إبنه أب حذيفة فيهم و قد خافكم عليه ثمّ بعث الى عامر بن الحضرمي فقال له هذا حليفك يريد أن يرجع الى مكّة بالنّاس و قد رأيت ثارك بعينك فأنشد خفرتك و مقتل أخيك فقام عامر و صرخ وا عمراه وا عمراه فحميت العرب و إستوثق النّاس على الشّر فلمّا بلغ عتبة قول أبي جهل إنتفخ سحره.

قال سيعلم المصفراسته من إنتفخ سحره أنا أم هو، ثمّ إلتمس بيضة يدخلها رأسه فما وجد من عظم هامته فإعتجر ببردٍ له و خرج الأسود بن عبد الأسد

المخزومي و كان سّيئ الخلق أعاهد اللّه لأشربنّ من حوضهم و لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دونه فخرج اليه حمزة فضربه فاطن قدمه بنصف ساقه فوقع على الأرض ثمّ حبا الى الحوض فإقتحم فيه ليبّر يمينه و تبعه حمزة فضربه حتّى قتله في الحوض ثمّ خرج عتبة و شيبة إبنا ربيعة و الوليد بن عتبة و دعوا الى المبارزة فخرج اليهم عوف و معوذ إبنا عفراء و عبد اللّه بن رواحة كلّهم من الأنصار فقالوا من أنتم قالوا من الأنصار فقالوا أكفاء كرام و ما لنا بكم من حاجة ليخرج الينا أكفاءنا من قومنا فقال النّبي قم يا حمزة قم يا عبيدة بن الحرث قم يا علّى عليه‌السلام فقاموا و دنا بعضهم من بعضٍ فبارز عبيدة بن الحرث بن عبد المطّلب عتبة و بارز حمزة شيبة و بارز علّيٌ الوليد فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله و أمّا علّي فلم يمهل الوليد أن قتله وإختلف عبيدة و عتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه وكرَّ علّيٌ و حمزة على عتبة فقتلاه و إحتملا عبيدة الى أصحابه و قد قطعت رجله فلمّا أتوا به النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال ألست شهيداً يا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال نعم قال لو رأني أبو طالب لعلم أنّنا أحقّ منه بقوله:

و نسلمه حتّىٰ نصرع حوله ونذهل عن أبناءنا و الحلائل

ثمّ مات و تزاحف القوم و دنا بعضهم من بعضٍ و أبو جهل يقول اللّهم أقطعنا للرّحم و أتانا بما لم نعرف فأحنه الغداة فكان هو المستفتح على نفسه رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قد أمر أصحابه أن لا يحملوا حتّى يأمرهم و قال إن إكتنفكم القوم فأنضخوهم عنم بالنَّبل و نزل في العريش و هو يدعوا و يقول اللّه أن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض اللّهم أنجز لي ما وعدتني و لم يزل يدعو حتّى سقط رداءه و أغفى رسول اللّه في العريش إغفاءةً و إنتبه ثمّ قال هذا جبرئيل أخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النّقع و أنزل اللّه تعالى: **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَآئِكَةِ مُرْدِفِينَ**.

ثمّ أنّ صاحب التاريخ ساق الكلام الى أن قال فلمّا هزم اللّه المشركين و قتل منهم من قتل و أسر من أسر أمر رسول اللّه أن تطرح القتلى في القليب فطرحوا فيه و لمّا ألقوا في القليب وقف عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال يا أهل القليب بئس عشيرة النّبي كنتم لنبيّكم كذّبتموني و صدّقني النّاس ثمّ قال يا عتبة يا شيبة يا أميّة بن خلف يا أبا جهل بن هشام وعدّد من كان في القليب هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً فأنّي وجدت ما وعدني ربّي حقّاً فقال له أصحابه أتكلّم قوماً موتى فقال ما أنتم بأسمع لما أقول عنهم و لكنّهم لا يستطيعون أن يجيبوني انتهى ما أردنا نقله بمناسبة الآية.

و من أراد الإطلاع على أكثر ممّا نقلناه في قصّة بدر فعليه بمراجعة التّواريخ و أمّا عدد المقتولين من المشركين في غزوة بدر فقيل أنّهم قتلوا منهم يومئذٍ سبعين و أسروا سبعين على تفصيل ذكروه في محّله، فمعنى الآية و أذكروا إذ تستغيثون و تطلبون المعونة من ربّكم لقلّة عددكم و كثرة عدد المشركين فأستجاب لكم و الإستجابة موافقة المسئلة بالعطية فأمدكم اللّه بألف من الملائكة مردفين، أي جاء من بعد إستغاثتكم ربّكم و المعنى واضح.

وَ مَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

الهاء في قوله: **جَعَلَهُ ٱللَّهُ** قيل أنّها عائدة الىٰ الإمداد و قيل الىٰ الإرداف و من المحتمل أن تكون عائدة على الخبر بالمدء.

فَعلىٰ الأوّل: معنى الكلام و ما جعل اللّه الإمداد إلاّ بشرى.

علىٰ الثّانى: ما جعل اللّه الإرداف إلاّ بشرى.

علىٰ الثّالث: و ما جعل اللّه الخبر بالمدد إلاّ بشرىٰ و لكلٍّ وجهٌ وجيه و خير الأمور أوسطها و أمّا التّعبير بالبشرىٰ.

فقال الرّاغب في المفردات يقال للخبر السّار البشارة و البشرىٰ إنتهىٰ.

أقول ما ذكره حقّ قال تعالىٰ في سورة يوسف:

قال اللّه تعالى: **يا بُشْرىٰ هٰذا غُلامٌ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنآ إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قالُوا سَلاٰمًا**[٢].

قال اللّه تعالى: **لِيُنْذِرَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ**[٣].

قال اللّه تعالى: **هُدًى وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ،اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلٰوةَ**[٤].

و غيرها من الأيات و عليه فيسمّى ما يعطى المبشّر بشرىٰ و بشارة.

و أمّا قوله: **وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ** فالإطمئنان الثّقة ببلوغ المحبوب و هو خلاف الإنزعاج و الطّمأنينة السّكون و الدّعة، و فى هذا الكلام إشارة الىء أنّ المسلمين كانوا مضطرين خائفين لقلّة عددهم و كثرة عـدد المشـركين فـلّما جاءت البشارة بالفتح من عند اللّه صاروا مطمئنين.

و قوله: **وَ مَا اَلنَّصْرُ إِلاّٰ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ** فكلمة، ما، للنّفي أي ليس النّصر إلاّ نصره تعالى فلا نصر إلاّ نصره و قد ثبت أنّ تقديم النّفي يفيد الحصر أي أنّ النّصر الواقعي منحصرٌ بنصره بمعنى أنّ النّصر من غيره تعالى ليس بنصرٍ في الواقع أو أنّ نصره تعالىٰ كاشف عن رضاه و أنّ المنصور عنده من المقرّبين و كيف كان فهو أمرٌ محبوب.

قال اللّه تعالى: **وَ نَصَرْنٰاهُمْ فَكٰانُوا هُمُ اَلْغٰالِبِينَ**[٥].

قال اللّه تعالى: **إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا فِى اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا**[٦].

قال اللّه تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اَللّٰهُ فَلاٰ غٰالِبَ لَكُمْ**[٧].

قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا اَلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ**[٨].

١- يوسف = ١٩ | ٢- هُود = ٦٩
٣- الأحقاف = ١٢ | ٤- النّمل = ٢ و ٣
٥- الصّافات = ١١٦ | ٦- غافر = ٥١
٧- آل عُمران = ١٦٠ | ٨- آل عُمران = ١٦٠

و الأيات كثيرة و فى قوله من عند اللّه، إشارة الىٰ دقيقةٍ و هى أنّ النّاصر لهم كان في الظّاهر هو جبرئيل و غيره من الملائكة و أمّا في الواقع فهو اللّه تعالى لأنّ الملائكة كانوا تحت أمره و فى كلمته (عند) إشارة الىٰ أنّهم من المقرّبين لأنّ مقام العندّية لا يحصل إلاّ للمتّقرب المؤّيد ثمّ قال: **أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** أي أنّ اللّه قادر لا يغالب حكيمٌ في أفعاله ليثقوا بوعده، و قيل سأل أبوجهل مِن أين كان يأتينا الضّرب و لا نرىٰ الشخص قالوا له من قبل الملائكة فقال هم غلبونا لا أنتم.

■

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿۱۱﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَ ٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿۱۲﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿۱۳﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿۱۴﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ بار كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿۱۵﴾ وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَ مَأْوَيهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿۱۶﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَى وَ لِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿۱۷﴾ ذَلِكُمْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ ﴿۱۸﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۱۹﴾

◁ اللّغة

يُغَشِّيكُمُ التَّغشية، التَّغطية.

ٱلنُّعَاسَ بضمّ النّون النّوم القليل و قيل النُّعاس هاهنا عبارة عن السّكون.

أَمَنَةً بفتح الألف و الميم و النّون الإطمئنان و سكون القلب يقال أمَنَ أمَناً و أماناً و أمَنةً، إطّمأن.

رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ، الرِّجز بكسر الرّاء الإثم والذّنب و بضمّها القذر، العذاب، عبادة الأوثان.

ٱلرُّعْبَ بضمّ الرّاء الخوف و قال الرّاغب الرُّعب الإنقطاع من إمتلاء الخوف.

بَنَانٍ بفتح الباء الأصابع قيل سمّيت بذلك لأنّ بها صلاح الاحوال الّتي يمكن لِلإنسان أن يبّن بها يريد أن يُقيم به يقال، أبَن بالمكان يبُن خصَّه بالذّكر لأجل أنّهم بها دافع و تقاتل.

شَآقُّوا ٱللَّهَ، الشَّق بفتح الشّين و سكون القاف الحَزم الواقع في الشّئ يقال شقّقته بنصفين و الشّقاق المخالفة وكونك في شقّ غير شقّ صاحبك أو من شقِّ العصا بينك و بينه.

زَحْفًا أصل الزَّحف إنبعاث مع جرّ الرّجل كإنبعاث الصّبي قبل أن يمشي قاله الرّاغب في المفردات.

ٱلْأَدْبَارَ جمع الدُّبُر بضمّ الدّال و الباء و دبر الشّئ خلاف القبل وكنّي بهما عن العضوين المخصوصين.

مُتَحَرِّفًا، التَّحرُف الزّوال من جهة الإستواء الیٰ الحرف يقال تحرّف تحرّفاً اذا قصد جهة الحرف لطلب الرِّزق.

مُتَحَيِّزًا، التَّحَيُّز طلب حيّزٍ يتمكّن فيه و ذلك لأنّ الحّز المكان الّذي فيه الجوهر.

◁ الإعراب

إِذْ يُغَشِّيكُمُ أي أذكروا و يجوز أن يكون ظرفاً لِما دلَّ عليه، عزيزٌ حكيم، يقرأ، يغشاكم، بالتّخفيف و الألف ٱلنُّعَاسَ فاعله، و يقرأ بضمّ الياء وكسر الشّين و ياء بعدها وٱلنُّعَاسَ بالنصّب أي يغشيكم اللّه النّعاس، و يقرأ كذلك إلاّ أنّه بتشديد الشّين أَمَنَةً منصوب على المفعولية و العامل فيه، يغشى مَآءً لِيُطَهِّرَكُمْ الجمهور علىٰ المدّ و الجار صفة له و يقرأ و شاذّاً بالقصر و هي بمعنى، الّذي رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ الجمهور علىٰ الزّاي و يراد به الوسواس و قرئ بالسّين و أصل الرَّجس الشّئ القذر فجعل ما يفضي الىٰ العذاب رجساً إستعذاراً له فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ظرفٌ لأضربوا.

و قيل هو مفعول به و قيل فوق زائدة مِنْهُمْ حال من كُلَّ بَنَانٍ أي كلّ بنانٍ كائناً منهم ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ مبتدأ و خبر أي ذلك مستحقّ بشقاقهم ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ في موضع نصب أي فذوقوا ذلكم زَحْفًا مصدر في موضع الحال و قيل هو مصدر للحال المحذوفة أي تزحفون زحفاً و ٱلْأَدْبَارَ مفعول ثانٍ لتوّلوهم مُتَحَرِّفًا مُتَحَيِّزًا حالان من ضمير الفاعل في يوّلهم ذَٰلِكُمْ أي الأمر ذلكم (و) الأمر أَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ بتشديد الهاء و تخفيفها و بالإضافة و التّنوين و هو ظاهر.

◁ التّفسير

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ قلنا في شرح اللّغات أنّ النُّعاس النّوم القليل و قوله إذ يغشيكم بدل ثانٍ من قوله: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ و بدله الأوّل، إذ تستغيثون.

و الحاصل أنّ اللّه تعالىٰ أنعم عليهم أوّلاً بقوله: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ[1].

١- الانفال = ٧

ثانياً: بقوله **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**[1].

ثالثاً: بقوله **إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ** أي من اللّه تعالىٰ والمعنىٰ و أذكروا اذ تنعسون لأمنكم الحاصل من اللّه بإزالة الرُّعب عن قلوبكم.

روي أنّه لمّا بلغ أصحاب رسول اللّه كثرة قريش ففزعوا فزعاً شديداً و شكوا و بكوا و إستغاثوا فأنزل اللّه على رسوله إذ تستغيثون ربّكم فإستجاب لكم الآية فلمّا أمسى رسول اللّه و جنّه اللّيل ألقىٰ على أصحابه النُّعاس حتّى ناموا و أنزل اللّه تعالىٰ عليهم السّماء وكان نزول رسول اللّه في موضع لا يثبت فيه القدم فأنزل اللّه عليهم السّماء ولبد الأرض حتّى تثّبت أقدامهم و هو قول اللّه تعالىٰ:

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ أقول فعلىٰ هذا التّفسير يكون المراد بالنّعاس السّكون بخلافه علىٰ الأوّل والحقّ أنّ المراد غلبة النّوم عليهم وكيف كان فأنزل اللّه تعالىٰ عليهم ماءً بعد ذلك كما قال: **وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ** و ذلك أنّ بعض أصحاب النّبي إحتلم في تلك اللّيلة فأنزل اللّه المطر عليهم ليطهّروا به و يذهب عنهم رجز الشّيطان و هو الجنابة لأنّها منه على قول بعضهم.

و قال الأخرون كان في نفوسهم أنّا أولياء اللّه وفينا رسول اللّه وحالنا هذه و المشركون علىٰ الماء فأنزل اللّه المطر ليلة بدر السّابعة عشر من رمضان حتّىٰ سالت الأودية فشرب النّاس و تطّهروا و عليه فالمراد بالرّجز في الآية هو ما في قلوبهم بوسوسة الشّيطان من الشّبهة التّي حصلت لهم و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله: **لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ** أي أنّما أنزلنا الماء ليربط علىٰ قلوبكم بالوثوق على لطف اللّه و يثبّت به، أي بالمطر الأقدام حتّى لا تسوخ في الرّمل أو بالرّبط على القلوب حتّى يثبت في المعركة.

١- الانفال = ٨

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ أي أذكروا إذ يوحي ربّك الىٰ الملائكة أنّي معكم، يعني بالمعونة و النُّصرة يقال فلان مع فلان بمعنى أنّ معونته معه و أصل الإيحاء إلقاء المعنىٰ الىٰ النّفس من وجهٍ يخفى.

فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أي أحضروا معهم الحرب، و قيل قاتلوا معهم يوم بدر، و قيل معناه الأخبار بأنّه لا بأس عليهم من عدّوهم و الحاصل أنّ اللّه تعالىٰ أمر الملائكة بتثبيت قلوب المؤمنين و إزالة الخوف عنهم بأيّ نحوٍ إتّفق و هو قد حصل لهم بلاكلام بإلقاء اللّه تعالى الرُّعب في قلوب الكفّار كما قال تعالىٰ: **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ**.

قال بعضهم لهذا الكلام ما حاصله أنّ أمير النّفس هو القلب فلمّا بيّن اللّه أنّه ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنّه قوّاها و أزال الخوف عنها ذكر أنّه ألقى الرُّعب و الخوف في قلوب الكافرين فكان ذلك من أعظم نعم اللّه علىٰ المؤمنين.

فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَ ٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ إختلفوا في المراد بالضّاربين فقال بعضهم هم الملائكة و قال الأخرون هم المؤمنون.

و يؤيّد الأوّل ما روي أنّ النّبي رفع يده الى السّماء فقال يا ربّ أن تهلك هذه العصابة لم تعبد ثمّ أصابه الغشي فسرى عنه و هو يسلت العرق عن وجهه يقول هذا جبرئيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين قال فنظرنا فإذا بسحابةٍ سوداء فيها برق لائح قد وقعت على عسكر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و قائل يقول أقدم خيروم أقدم خيروم و سمعنا قعقعة السّلاح من الجوّ و نظر إبليس الى جبرئيل فراجع و رمى باللّواء فأخذ منبه ابن الحجّاج بمجامع ثوبه ثمّ قال و يلك يا سراقة تفت في أعضاد النّاس فركله إبليس ركلة في صدره و قال أنّي بريءٌ منكم أنّي أرىٰ ما لا ترون أنّي أخاف اللّه و اللّه شديد العقاب.

قيل أنّ الملك في يوم بدر كان يتّشبه بالرّجل و يقول لهم أبشروا فأنّ اللّه ناصركم لأنّكم تعبدونه و هذا القول يؤيّد الإحتمال الثّاني و كيف كان لا شكّ

في أصل القّضية و أنّ المسلمين كانوا منصورين بالملائكة كما يشعر به صريح قوله: **أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ**[1].

ثمّ أنّ المراد بقوله: **فَوْقَ ٱلْأَعْنٰاقِ** و هو الرّؤوس أي إقطعوا رؤوسهم عن أجسادهم، وبقوله: **كُلَّ بَنٰانٍ** أطراف الأصابع و ذلك لأنّ فيه تعطيل المضروب من القتال بخلاف سائر الأعضاء فأنّ مقطوع اليد لا يقدر علىٰ القتال و هو واضح و قيل أنّ ما فوق العُنق هو الرّأس و هو أشرف الأعضاء والبَنان عبارة عن أضعف الأعضاء فذكر الأشرف و الأضعف تَنبيهاً على كلّ الأعضاء ثمّ علّل ذلك الخزي و النّكال في غزوة بدر في حقّ الكفّار مع أنّ عذاب الأخرة أشدّ و أبقى.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شٰآقُّوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشٰاقِقِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقٰابِ

أي ذلك الخزي و العقاب الّذي وقعوا فيه كان سببه أنّهم أي الكفّار شاقّوا اللّه ورسوله أي جانبوا و صاروا في شقٍّ غير شقّ المؤمنين و الشقّ الجانب قيل و شاقّوا اللّه مجاز و المعنى شاقّوا أولياء دين اللّه.

و في قوله: **فَإِنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقٰابِ** إشارة الىٰ أنّ ما نزل بهم ذلك اليوم من النّكال شيئ قليل ممّا أعدّه اللّه لهم من العقاب في القيامة.

أن قلت ما فائدة التكرار في قوله: **شٰآقُّوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ** ثمّ قوله: **وَ مَنْ يُشٰاقِقِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ**.

قلت قوله: **شٰآقُّوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ** ناظر الىٰ المشركين في غزوة بدر الّذين شاقّوا اللّه و رسوله فوقعوا فيما وقعوا فيه في الدّنيا و الأخرة.

و أمّا قوله: **وَ مَنْ يُشٰاقِقِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ** و من يشاقق اللّه و رسوله حكم عامّ يشمل كلّ من إتّصف بهذه الصّفة الى يوم القيامة فكأنّه تعالىٰ بعد ما حكم

١- الانفال = ٩

عليهم بما حكم قال هذا جزاء من كان كذلك ضرورة أنّ تحقّق السَّبب و العلّة يستلزم تحقّق المسّبب و المعلول و حيث قد ثبت أنّ السّبب كونهم شاقّين للّه و رسوله فهذا السَّبب أينما وجد يتضرّع عليه العذاب و الخزي في الدّارين إذا عَرفت هذا فنقول.

قال الرّاغب في المفردات أَلشّق الحزم الواقع في الشّئ يقال شققته بنصفين:

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذَا ٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَ ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ**(٤).

ثمّ قال و الشَّقة القطعة المنشّقة كالنصّف، و الشقّ المشقّة و الإنكسار الّذي يلحق النّفس و البدن.

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ**(٥) الىٰ أن قال و الشقّاق المخالفة وكونَك في شقٍّ غير شقّ صاحبك أو من شقّ العصا بينك و بينه، قال تعالىٰ: **وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**(٧) أي مخالفة وقال: **وَ مَنْ يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** أي صار في شقٍّ غير شقّ أولياءه نحو و من يحادد اللّه و نحوه و من يشاقق الرّسول و يقال المال بينهما شقّ الشَّعرة و شقّ الأبلمة أي مقسوم كقسمتهما و فلان شق نفسى و شقيق نفسي أي كأنّه شقّ منّي لمشابهة بعضنا بعضاً انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

١- عبس = ٢٦
٢- ق = ٤٤
٣- الرحمن = ٣٦
٤- القمر = ١
٥- النحل = ٧
٦- النساء = ٣٥
٧- البقرة = ١٣٧

و يظهر منه أنّ المشاقق للّه و رسوله لا ينحصر في الكفر بل يعمّ كلّ من سلك مسلكاً غير مسلك الرّسول سواء كان بالكُفر و عدم الإيمان به رأساً أم بالإيمان به ظاهراً و مخالفة سنّته عملاً و أنّما قلنا ذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشٰاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدٰى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّٰى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سٰآءَتْ مَصِيرًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلٰى مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ وَ إِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنٰافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ شٰآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدٰى لَنْ يَضُرُّوا ٱللّٰهَ شَيْئًا وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ، يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللّٰهَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ**[٣].

فهذه الأيات و أمثالها كما ترىٰ نزلت فيمن خالف الرّسول بعد إيمانه به ظاهراً و قد يعبّر عنهم بالمنافقين الّذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و لا شكّ أنّ أكثر المسلمين في صدر الإسلام كانوا في زمرة المنافقين فهم و أتباعهم الىٰ يوم القيامة داخلون في قوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشٰاقِقِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ** فلاجرم لهم شديد العقاب و لا ينافي ذلك نزول الآية في غزوة بدر في حقّ الكفّار الّذين حاربوا رسول اللّه ضرورة أنّهم من أظهر مصاديق الآية و أعظمها.

و أمّا تخصيص الآية بهم فلا دليل عليه لِما ذكرناه و لما ثبت أنّ خصوصّية المورد لا تنافي عموم المعنىٰ.

ان قُلت ما ذَكرته في معنىٰ الآية حقٌّ لا مرية فيه في عالم الإثبات فهو محتاج الىٰ الدّليل إذ لقائلٍ أن يقول أنّهم لم يسلكوا مسلكاً أخر بل سلكوا مسلك الرّسول حذوا النَّعل بالنَّعل.

١- النّساء = ١١٥
٢- النّساء = ٦١
٣- محمّد = ٣٢ و ٣٣

قلت لا يخفى علىٰ المنصف سلوكهم غير مسلك الرّسول فهذا أبو بكر أوّل الخلفاء بزعمهم قد شاقّ اللّه و رسوله و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ أمر رسوله في غدير خم بنصب عليٍ عليه السلام للخلافة والوصاية و أبوبكر قد تقمّصها على رغم رسول اللّه.

ثانياً: هو و أتباعه يدعون أنّ الرّسول لم يخلّف و أمّا أبو بكر فقد خلف عمر و علىٰ كلّ حال فقد خالف رسول اللّه في تصدّيه للخلافة و تعيين الخليفة بعده.

ثالثاً: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قد أعطى فاطمة فدكاً و أبوبكر منعها منها.

رابعاً: أنّ اللّه تعالىٰ يقول في محكم كتابه في الإرث ما قال وأبو بكر إدّعىٰ أنّ النّبي قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث.

خامساً: أنّ أبا بكر دفن في بيت الرّسول و قد قال اللّه تعالىٰ (يا أيّها الّذين أمنُوا لا تدخلوا بيوت النّبي إلاّ أن يُؤذن لكم) و من المعلوم أنّ عائشة لم تكن صاحب البيت.

و أمّا عمر فهو مضافاً الىٰ ما قلناه في أبي بكر قال على المنبر متعتان محلّلتان في زمن النّبي أنا أحرّمهما و أعاقب عليهما، ألَيس هذا مخالفة للرّسول.

و قال في صلاة التّروايح التّي أمر النّاس أن يأتوا بها جماعة علىٰ خلاف السنّة بعدها دخل المسجد و رأى الصفوف هذه بدعة و نعم البدعة و هكذا عثمان و معاوية و سائر الخلفاء و لا نحتاج في إثبات شقاقهم لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

الى ما ذكره المؤرخون في حالاتهم و سلوكهم فانّ الأمر أوضح من أن يخفى علىٰ أحدٍ و اذاكان الأمر على هذا المنوال فهم داخلون في قوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشٰاقِقِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ** وليت شعري ما الفرق بين من أنكر الرّسول رأساً و من أقرَّ بنبوّته لساناً و أنكره قلباً و خالفه عملاً بل

هذا أضرّ علىٰ الإسلام من الكافر و لهذا قال اللّٰه تعالى في حقّهم، **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ**(١) ولم يقل في نعم الفرق بين الكافر و المنافق هو أنّ الكافر نجسٌ ظاهراً و المنافق يحكم بطهارته لأجل الإقرار اللّساني و هـذا لا ربط له بالعقاب الذّي نحن بصدد إثباته فأنّه أمرٌ أخر و محصّل الكلام هو إشتراك كثير من المسلمين لولا أكثرهم مع الكفّار في العقاب الذّي أوعدهم اللّٰه عليه **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**(٢).

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ

الذَّوق بفتح الذّال و سكون الواو مصدر من ذاقَ يَذُوقُ ذَوقاً.

قال في المفردات الذّوق وجود الطّعم بالفم و أصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر فأنّ ما يكثر منه يقال له الأكل و أختير في القرأن لفظ الذّوق في العذاب لأنّ ذلك و أن كان في التّعارف للقليل فهو مستصلح للكثير انتهىٰ كلامه.

اذا عرفت هذا فإعلم أنّ الكاف في قوله: **ذَٰلِكُمْ** لا موضع له من الإعراب لأنّه حرف خطاب و الإشارة بذلك الىٰ ما تقدّم من أنواع العقوبات و أنّما ضمّ الىٰ الكاف الميم لأنّه خطاب للمشركين.

أمّا قوله: **فَذُوقُوهُ** قال بعض المفسّرين أنّ الذّوق طلب إدراك الطّعم بتناول اليسير بالفم كما أنّ الشّم إدراك الرّائحة بالأنف و ليس بالإدراك لأنّه يقال ذقته فلم أجد له طعماً و شممته فلم أجد له رائحة و أنّما قال فـذوقوه و الذّوق اليسير من الطّعام لأنّ المعنى كونوا للعذاب كالذّائق للطّعام لأنّ فعظمه بعدي.

و قيل لأنّ الذّائق أشدّ إحساساً بالطّعم من المستمّر عليه فكأنّ حالهم أبداً حال الذّائِق في شدّة إحساسه نعوذ باللّٰه منه انتهىٰ كلامه.

و قال الرّازي لمّا بيّن أنّ من يشاقق اللّٰه و رسوله فأنّ اللّٰه شديد العقاب بيّن من بعد ذلك صفة عقابه و أنّه قد يكون معجّلاً في الدّنيا و قد يكون مؤجّلاً في

١- النساء = ١٤٥ ٢- الشعراء = ٢٢٧

الأخرة و نبّه بقوله: **ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ** و هو المعجّل من القتل و الأسر على أنّ ذلك يسير بالإضافة الىٰ المؤجّل لهم في الأخرة فلذلك سمّاه ذوقاً لأنّ الذّوق لا يكون إلاّ تعرف طعم اليسير ليعرف به حال الكثير فعاجل ما حصل لهم من الألام في الدّنيا كالذَّوق القليل بالنّسبة الى الأمر العظيم المعدّ لهم في الأخرة

و قوله: **فَذُوقُوهُ** يدّل علىٰ أنّ الذّوق يحصل بطريقٍ أخر سوى إدراك الطّعوم المخصوصة و هو كقوله: **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحكيم** وكان عليه السّلام يقول أبيت عند ربّي يطعمني و يسقين فهذا يدّل علىٰ أنّ إثبات الذّوق و الأكل و الشّرب بطريق روحاني مغاير للطّريق الجسماني انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

و أنت ترىٰ أنّ ما ذكره أوّلاً من أنّ قوله: **فَذُوقُوهُ** هو المعجّل من القتل و الأسر علىٰ أنّ ذلك يسير بالإضافة الى المؤجّل لهم في الأخرة.

خلاف ظاهر الآية فأنّها أي الآية ناظرة الى الأخرة قطعاً، فهذا التّقسيم لا معنى له و لا دليل عليه و أمّا قوله أنّ الذّوق يحصل بطريق أخر الى ما قال فهو أيضاً خارج عن مورد البحث ضرورة أنّ البحث ليس في إثبات الذّوق الرّوحاني و عدمه و للبحث فيه مقام أخر.

و أظنّ أنّ الرّازي أخذ تقسيمه من كلام صاحب الكشّاف حيث قال في تفسير قوله تعالىٰ في المقام، ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الأجل الذّي لكم في الأخرة انتهىٰ.

و كيف كان فالحقّ ما قلناه من أنّ الذَّوق بأيّ معنى كان مختصّ بالأخرة و الاربط له بالقتل والأسر و عليه فالمعنى أنّ اللّه تعالىٰ يقول لهؤلاء الكفّار يوم القيامة، ذوقوا العذاب الذّي يترتّب علىٰ كفركم و عنادكم في دار الدّنيا بدليل الفاء في قوله: **فَذُوقُوه**.

فأنّها تفيد التّفريع أي أنّ العذاب متفرّعٌ على أعمالكم في دار الدّنيا و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ ٱلأَدْبَارَ

الإلتقاء الإجتماع علىٰ وجه المقاربة و هذا خطاب للمؤمنين الذّين أمنوا باللّه و برسوله في معركة القتال ناداهم اللّه تعالىٰ ليقبلوا الىٰ أمر اللّه بما يأمرهم به و إنتهاءهم عمّا ينهاهم عنه و يكونوا على يقينٍ منه فقال لهم اذا لقيتم أي إجتمعتم مع الكفّار في الحرب و رأيتم الكفّار زحفاً و الزَّحف الجيش الدّهم الّذي يرىٰ لكثرته كأنّه يزحف أي يدُّب دبيباً من زحف الصَّبي إذا دبَّ علىٰ إسته قليلاً قليلاً سمّي بالمصدر و الجمع زحوف و المعنى إذا لقيتم الكفّار و هم كثير جمّ و أنتم قليل فلا تفرّوا منهم فضلاً عن تدانوهم في العدد أو تساوهم، و قيل أنّ، زحفاً، حال من الفريقين أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم و أنتم.

و الحاصل أنّ اللّه تعالىٰ أمر المؤمنين المقاتلين بالثَّبات و الإستقامة في معركة الحرب و نهاهم عن الفرار فقال: **فَلاَ تُوَلُّوهُمُ ٱلأَدْبَارَ** والوجه فيه واضح.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الفرار من الجهاد من أعظم الذُّنوب.

ثانياً: أنّه يوجب إستيلاء الأعداء و هو كما ترىٰ.

ثالثاً: أنّ الفرار ناشئ عن الجبن و الخوف و المؤمن لا يخاف إلاّ من اللّه تعالىٰ.

أمّا الإستقامة فأنها توجب نزول الرَّحمة من اللّه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**[١].

١- فصّلت = ٣٠

و لمّا كان كذلك قال تعالىٰ: **وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَيٰهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ**

أي و من يوّل الكفّار يوم الحرب بغير التّحرف لقتالٍ و هو الكرّ بعد الفـرّ يخيّل عدّوه أنّه منهزم ثمّ يعطف عليه و هو من باب خدع الحرب و مكائدها، أو متحيّزاً، أي منحازاً الىٰ فئةٍ أي الىٰ جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة الّتي هو فيها، فقد باء أي إنصرف و ولّى مصحوباً بغضب اللّه و مستقرّه جهنّم و بئس المصير لِمن صار اليها و حاصل المعنى في الآية أنّ الفرار مِن الزّحف لا يجوز إلاّ لمن كان متحرّفاً لقتالٍ أو متحيّزاً الىٰ فئةٍ.

و أمّا غيرهما فقد باء أي رجع و أنصرف بغضبٍ من اللّه من حيث لا يشعر و مأواه جهنّم و بئس المصير و ذلك لأنّ الفرار من الزّحف من أكبر الكبائر.

فقد روي محمّد بن مُسلم عن أبي عـبد اللّـه عليه السلام قـال: قـال أمـير المؤمنين لأصحابه إذا لقيتم عدّوكم في الحـرب فأقـلّوا الكـلام و أذكروا اللّه عزّ وجلّ و لا تولّوهم الأدبار فتسخطوا اللّـه تـبارك و تعالىٰ و تستوجبوا غضبه.

و عن عيون الأخبار فيما كتب به الرّضا الىٰ محمّد بن سـنان فـي جواب مسائله في العلل، و حرّم اللّه تعالىٰ الفرار من الزّحف لما فيه من الوهن في الدّين و الإستخفاف بالرّسل و الأئمة العادلة عليهم السّلام و ترك نصرتهم علىٰ الأعداء و العقوبة لهم علىٰ إنكـار مـا دعوا اليه من الإقرار، بالرّبوبية و إظهار العدل و ترك الجور وإقامة الفساد لِما في ذلك من جرأه العدّو على المسلمين و ما يكون مـن السّبي و القتل و إبطال دين اللّه عزّ وجلّ و غيره من الفساد انتهىٰ.

و عن كتاب الخصال في مناقب أمير المؤمنين و تعدادها قال عليه السلام: و أمّا الثّالثة والسّتون فاني لم أفرّ من الزّحف قطّ و لم يبارزني أحَد إلاّ سقيت الأرض من دمه انتهىٰ.

و عن تفسير العياشي عن زرارة عن أحدهما عليهما السّلام قال: قُلت، الزُّبير شهد بدراً قال عليه السلام نعم و لكنّه فَّر يوم الجمل فأن كان قاتل المؤمنين فقد هَلَك بقتاله أيّاهم و أن كان قاتل كفّاراً فقد باء بغضبٍ من اللّه حين ولاّهم دبره انتهىٰ.

و عن الكافي بأسناده عن الحسن بن صالح عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: كان يقول من فرَّ من رجلين في القتال من الزَّحف فقد فرّ و من فرَّ من ثلاثة في القتال من الزّحف فَلم يضرّ انتهى و الأحاديث في الباب كثيرة جدّاً[1].

تنبيهٌ:

يظهر من قوله تعالىٰ في الآية **إِذاٰ لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ بار كَفَرُوا زَحْفًا فَلاٰ تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبارَ، وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلىٰ فِئَةٍ** أنّ الإدبار عن الحرب في صورة التحرّف لقتالٍ أو التَّحيُز الىٰ فئةٍ لا إشكال فيه بل هو واجبٌ عليه إذا كان موجباً لحفظ النّفس عن التلف قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ**[2] هذا إذا كان الإدبار لما ذكر في الآية أعني التّحريف و التَّحيز لا حفظ النّفس فقط و هو ظاهر و يظهر.

ممّا روّيناه عن الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام حيث قال عليه السلام: من فَرَّ من رجلين في القتال من الزَّحف فقد فَّر و من فَّر من ثلاثة في القتال من الزّحف فلم يفرّ.

أنّه إذا كانت عدّة الكفّار أكثر من المسلمين أضعافاً كثيرة فالإدبار عن الحرب و تركها لا يكون فراراً مِن الزَّحف كذلك و لعلَّه لأجل هذه الدّقيقة ترك أمير المؤمنين عليه السلام القتال مع أصحاب السّقيفة بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و حاربهم بعد ذلك في وقعة الجمل، و صفّين، مع أنّ القتال مع هؤلاء الغاصبين

١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ ص ١٣٩ ٢- البقرة = ١٩٥

كان أحقّ و أولى منه مع أذنابهم و أتباعهم و ذلك لأنّهم أسسّوا هذا الأساس الفاسد و زرعوا الفجور و سقوه الغرور و الوجه فيه هو ما ذكره الإمام الصّادق عليه‌السلام في الحديث الّذي مرَّ ذكره و يوضح، هذا المعنى ما روي عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام حيث سأل عن علّة قعود أمير المؤمنين عليه‌السلام في بدو الأمر و قيل له عليه‌السلام ما شأن أمير المؤمنين حين ركب منه ما رَكب لم يقاتل، فقال عليه‌السلام للذّي سبق في علمه (علم اللّه) أن يكون ما كان لأمير المؤمنين عليه‌السلام أن يقاتل و ليس معه إلاّ ثلاثة رهطٍ فكيف يقاتل ألم تسمع قول اللّه عزّ وجلّ: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا** الىٰ قوله: **وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ** فكيف يقاتل أمير المؤمنين عليه‌السلام بعدها فأنّما هو يومئذٍ ليس مَعه مؤمن غير ثلاثة رهطٍ.

و عن أبي أُسامة زيد الشّحام قال: قُلت لأبي الحسن جعلت فداك أنّهم يقولون ما مَنَع عليّاً أن كان له حقّ أن يقوم بحقّه فقال عليه‌السلام: أنّ اللّه لم يكلّف هذا أحداً إلاّ نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال له قاتل في سبيل اللّه لا تُكلّف إلاّ نفسك، و قال لغيره إلاّ متحرفاً لقتالٍ أو متحيّزاً الىٰ فئةٍ، فعلّي عليه‌السلام لم يجد فيه ولو وجد فيه لقاتل ثمّ قال عليه‌السلام لو كان جعفر و حمزة حَييَّن أنّما بقى رجلان الخبر [1]

أقول و يظهر من هذه الأحاديث أنّ اللّه تعالىٰ كلَّف نبيّه بما لم يكلّف به غيره و لذلك لم يوجب عليه التّقية و أوجبها علىٰ أفراد أمّته واللّه أعلم بحقائق الأمور.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَ لِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ١٣٩

من خفَّف، لكن، في الآية رفع إسم، اللّه، و من شددَّها، نصبه و المشهور بين القرّاء هو الثّاني المصاحف الموجودة.

ثمّ أنّه تعالى نفى القَتل و الرَّمي فنفى القتل عن المؤمنين و الرَّمي عن النّبي مع أنّ القتل في الظّاهر كان مستنداً اليهم كما أنّ الرَّمي كان مستنداً الى النّبي لنكتته و هي أنّ أفعال العباد و أن كان ظاهراً مستنداً اليهم إلاّ أنّها في الواقع و نفس الأمر مستندة اليه تعالىٰ و ذلك لأنّ مشيّئة اللّه و إرادته تكون سبباً لفعل العبد و المؤدّي اليه من حيث إقداره أيّاهم ومعونته لهم و تشجيع قلوبهم فيه و إلقاء الرُّعب في قلوب أعداءهم حتّىٰ قتلوا و خذلوا على شركهم عقاباً لهم و عليه فالعبد و أن كان هو الفاعل ظاهراً إلاّ أنّه تعالىٰ حيث أيّده فصح أن ينسب الفعل اليه واقعاً و لا فرق في ذلك بين النّبي و غيره من المؤمنين لأنّ الكـلّ مستمّدٌ منه و محتاج الىٰ تأييده و توفيقه تعالىٰ أيّاه و لمّا كان اللّه تعالىٰ أيَّدَهم في غزوة بدر بجنودٍ من الملائكة و ألقى الرعّب في قلوب أعداءهم المشركين فقال ما قال.

قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام ما هذا لفظه.

المسألة الثّانية: إحتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنّ أفعال العباد مخلوقة للّه تعالىٰ وجه الإستدلال أنّه تعالىٰ قال: **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ** و من المعلوم أنّهم جرحوا فدلّ هذا علىٰ أنّ حدوث تلك الأفعال أنّما حصل من اللّه و أيضاً قوله: **وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ** أثبت كونه عليه السلام رامياً و نفى عنه مونه رامياً فوجب حمله على أنّه رماه كسباً و ما رماه خلقاً.

فأن قيل أمّا قوله: **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ** فيه وجوه:

الأوّل: أنّ قتل الكّفار أنّما تيسّر بمعونة اللّه و نصره و تأييده فصَّحت هذه الأضافة.

الثّاني: أنّ الجرح كان اليهم و إخراج الرّوح كان الىٰ اللّه و التقدّير فلم تميتوهم و لكنّ اللّه أماتهم و أمّا قوله: **وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**.

قال القاضي في أشياء منها أنّ الرّمية الواحدة لا توجب وصول التّراب الى عيونهم وكان إيصال أجزاء التّراب الى عيونهم ليس إلاّ بإيصال اللّه تعالىٰ.

و منها، أنّ التّراب الّذي رماه كان قليلاً فيمتنع وصول ذلك القدر الى عيون الكلّ فدلّ هذا على أنّه تعالىٰ ضمَّ اليها أشياء أخر من أجزاء التّراب و أوصلها الى عيونهم.

و منها، أنّ عند رميته ألقى اللّه تعالىٰ الرُّعب في قلوبهم فكان المراد من قوله و لكنّ اللّه رمى هو أنّه تعالىٰ رمى قلوبهم بذلك الرُّعب انتهىٰ كلام القاضي على ما نقله الرّازي ثمّ أجاب الرّازي عنه و قال.

والجواب أنّ كلّ ما ذكرتموه عدول عن الظّاهر و الأصل في الكلام الحقيقة فأن قالوا الدّلائل العقلّية تمنع من القول بأنّ فعل العبد مخلوق للّه تعالىٰ فنقول هيهات فأنّ الدّلائل العقلّية في جانبنا و البراهين النّقلية قائمة على صحّة قولنا فلا يمكنكم أن تعدلوا عن الظّاهر الىٰ المجاز و اللّه أعلم انتهى جواب الرّازى.

نقول ما ذكره الرّازي و القاضي و غيرهما ممّن قال بهذه المقالة لا محصّل له أمّا الرّازي فأنّه من الأشاعرة القائلين بالجبر و قد أبطلنا في موارد كثيرة.

و أمّا القاضي فأنّه و أن لم يكن من القائلين بالجبر إلاّ أنّه خبط في الجواب و أكل من القفا فالمتّبع في المقام هو ما ذكرناه و العجب أنّهم لم يعلموا أنّ الفاعل للفعل هو مخلوق لغيره و حيث أنّ الفعل مخلوق للعبد ظاهراً فيقال أنّ فلان فعل كذا، و حيث أنّ العبد و ما في يده و قدرته و إرادته كان لمولاه فصح أن يقال أنّ اللّه فعل كذا و ليس هذا من المجاز حتّى يقال الأصل في الكلام الحقيقة، و ذلك لأنّ المجاز عبارة عن إسناد الفعل الى غير ما هو له و ما نحن فيه ليس كذلك لأنّ اللّه تعالىٰ خالِقٌ و موجدٌ للفاعل الّذي أوجد الفعل في الخارج فنسبة الفعل الى الفاعل المباشر و الفاعل مع الواسطة على حدٍّ سواءٍ و أن شئت قلت للفعل فاعلان فاعل بالمباشرة و هو العبد و فاعل بالتّسبيب و هو اللّه فنسبة الفعل الى العبد حقيقة الى اللّه مجاز يحتاج الىٰ الإثبات و أنّى للمستدلّ بإثباته هذا أوّلاً و ثانياً.

نقول على فرض كون الإسناد مجازاً لا إشكال فيه فأنّ باب المجاز واسع في الكتاب و السنّة كثير و ما نحن فيه من هذا القبيل إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية قوله: **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ** معناه أنّكم لم تقتلوهم إلاّ بعد إقدار اللّه أيّاكم بسبب الملائكة ففي الحقيقة أنّ اللّه تعالىٰ قد قتلهم و أخذلهم لا أنتم: **وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ** خطاب للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم أي أنّ التّراب الّتي رميت بها في وجوه المشركين و قلت شاهت الوجوه، فصارت الوجوه مشوّهة إنّما كانت بأمراللّه و مشيّئته و لذلك أثّرت في وجوههم قيل أنّ عائشّة رمى بها في حرب الجمل في وجوه أصحاب أميرالمؤمنين عليه السلام فقال إبن عبّاس لها، و ما رميت إذ رميت و لكن اللّه رمى، أي حفظت شيئاً و غابت عنك أشياء.

عن الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: في الآية سمّى فعل النّبي فعلاً له ألا ترىٰ تأويله علىٰ غير تنزيله.

و عن تفسير العياشي عن محمّد بن كليب الأسدي عن أبيه قال: سئلت أبا عبد اللّه عن قول اللّه تعالىٰ: وَ مٰا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمىٰ قال عليه السلام ناوَل رسول اللّه القبضة الّتي رمى بها.

و فى خبر آخر أنّ عليّاً ناوله قبضة من تراب رمى بها قال بعض المفسّرين لمّا طلعت قريش قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هذه قريش قد جاءت بخيلائها و فخرها يكذّبون رسولك اللّهم إنّي أسئلُك ما وعدتني فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال خُذ قبضةً من تراب فأرمهم بها فقال صلى الله عليه وآله وسلم لمّا إلتقى الجمعان، لعلّي عليه السلام إعطني.

قبضةً من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم و قال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلاّ شغل بعينيه فأنهزموا و ردفهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم فقيل: **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ** و الفاء جواب شرطٍ محذوف تقديره إن إفتخرتُم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم و لكّن اللّه قتلهم، لأنّه هو الّذي أنزل الملائكة و ألقىٰ الرُّعب في قلوبهم و شاء النّصر و الظّفر قوى قلوبكم و أذهب عنها الفزع و الجزع **وَ مٰا رَمَيْتَ** أنت يا محمّد **إِذْ رَمَيْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمىٰ** يعني أنّ الرَّمية الّتي رميتها

لم ترمها أنت على الحقيقة لأنّك لو رميتها لما بلغ أثرها إلاّ ما يبلغه أثر رمى البشر و لكنّها كانت رمية اللّه حيث أثرت ذلك الأثر العظيم فأثبت الرّمية لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لأنّ صورتها وجدت منه و نفاها عنه لأنّ أثرها الّذي لا يطيقه البشر فِعل اللّه فكان اللّه هو فاعل الرّمية على الحقيقة و كأنّها لم توجد من الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أصلاً إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره حقّ لا مرية فيه و أمّا قوله تعالىٰ: **وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا** قال صاحب الكشّاف أي و ليعطيهم عطاءً جميلاً.

قال زهير: فأبلاهما خير البلاء الّذي يبلو.

و المعنىٰ و للإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل و ما فعله إلاّ لذلك.

و قال في التّبيان، معناه لنعيم عليهم نعمةً حسنة و المعنى، و لينصرهم اللّه نصراً جميلاً و يختبرهم بالّتي هي أحسن.

و معنى، يبليهم، هاهنا، يسدي اليهم و قيل للنعمة بلاء و للمضرّة أيضاً مثل ذلك لأنّ أصله ما يظهر به الأمر من الشُّكر أو الصَّبر إنتهىٰ.

ثمّ أنّ البلاء الحسن قيل بالنَّصر و الغنيمة و قيل بالشّهادة لمن إستشهد يوم بدر و هم أربعة عشر رجلاً منهم عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب و الّذي يظهر من كلمات المفسّرين في المقام هو حملهم البلاء هنا على النِّعمة و منهم من قال لولا أنّ المفسّرين إتّفقوا على حمل البلاء هنا على النِّعمة لكان يحتَمل المحنة للتّكليف بما بعده من الجهاد حتّى يقال أنّ الّذي فعله تعالىٰ يوم بدر كان السَّبب في حصول تكليف شاقّ عليهم فيما بعد ذلك من الغزوات.

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** معناه أنّه تعالى يسمع دعاء من يدعوه و يعلم ما له فيه من المصلحة فيجيبه إليه، أو أنّ اللّه سميعٌ بما يقوله المنافقون عليمٌ بما في ضمائرهم من الإنكار و العناد.

ذَٰلِكُمْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ

فقوله: **ذٰلِكُم**، إشارة الى قتل المشركين و رميهم حتّى إنهزموا وِ إبتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظَّفر بهم و إمكانهم من قتلهم و أسرهم **وَ أَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰافِرِينَ** أي يضعّف مكرهم حتّى يذلّوا و يهلكوا، قالوا و الكيد يقع بأشياء.

منها، الإطّلاع على عوراتهم، و منها إبطال حيلتهم، و منها إلقاء الرُّعب في قلوبهم.

و منها، تفريق كلمتهم.

و منها، نقض ما أبرموا بإختلاف عزومهم.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

الإستفتاح طلب الفتح و النُّصرة معناه طلب النُّصرة الّتي بها يفتح بلاد العدّو كأنّه قال إن تستنصروا على أعداءكم فقد جاءكم النّصر، ثمّ أنّهم إختلفوا في المخاطبين بقوله: **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا** علىٰ قولين:

أحدهما: أن يكون الخِطاب للمؤمنين على سياق قوله تعالىٰ: **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ** و بقوله: **ذٰلِكُمْ** و عليه فالمعنى أن تستفتحوا أي تستنصروا فقد جائكم النَّصر و إن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه في الغنائم و الأسرى قبل الإذن فهو خير لكم و أن تعودوا الى مثل ذٰلك نعد الىٰ توبيخكم كما قال تعالىٰ: **لَوْلَا كِتَٰابٌ مِنَ ٱللَّهِ** سبق الآية ثمّ أعلمهم أنّ الفئة و هى الجماعة لا تغني و أن كثرت إلاّ بنصر معونته ثمّ آنسهم بأخباره تعالىٰ أنّه مع المؤمنين ذهب الى هذا القول أبو علّي و من تبعه.

ثانيهما: ما ذهب اليه الحسن و مجاهد و الزّهري و الضّحاك و السّدي و الفرّاء و غيرهم أنّه خطاب للمشركين على سبيل آلهتكم و هم أهل مكّة و ذلك أنّه حين أرادوا أن ينفروا تعلّقوا بأستار الكعبة و قالوا اللّهم أنصر إقرانا للضّيف و أوصلنا للرّحم وإفكنا للعاني أن كان محمّد على حقٍّ فأنصره و أن كنّا على

حقٍّ فأنصرنا و روي أنّهم قالوا اللّهم أنصر على الجندين و أهدى الفئتين و أكرم الحزبين، و روي أنّ أباجهل قال صبيحة يوم بدر اللّهم أيّنا كان أهجر للرِّحم فأهنه اليوم أي فأهلكه.

و على هذا القول يكون معنى قوله تعالىٰ: **فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ** و لكّنه كان للمسلمّين عليكم و ذلك لأنّهم أي المشركين لم تستنصروا الفتح لأنفسهم بل طلبوا الفتح لمن كان على الحّق أو أوصل للرَّحم واللّه تعالى جعل الفتح للمسلمين لأنّهم كانوا على الحقّ و عليه فكانت دعوة المشركين مستجابة فمعنىٰ الأية: **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا** أي تستنصروا أيّها المشركون لإحدى الطّائفتين **فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ** للطّائفة الّتي كانت علىٰ الحقّ و هي المسلمون **وَ إِنْ تَنْتَهُوا** عن عداوة رسول اللّه **فَهُوَ** الانتهاء خير لكم في الدّارين **وَ إِنْ تَعُودُوا** الى مثل ما كنتم عليه من معصية اللّه **نَعُدْ** الى الإنكار أو نعد بمثل ما رأيتموه مِن الذّل و الخزي **وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا** أي لا تعتمدوا علىٰ كثرتكم و جماعتكم و أموالكم فأنّها لن تغني عنكم شيئاً **وَ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** الكافرون فأوليائهم الشّيطان و مأواهم جهنّم و بئس المصير.

و إحتمل بعض المفسّرين أن يكون الإستفتاح بمعنىٰ الحكم و القضاء فقوله تعالىٰ: **فَقَدْ جَاءَكُمُ** معناه فقد جاءكم ما بان لكم به الأمر و إستّقر به الحكم و إنكشف لكم الحقّ به.

و أنت ترى أنّ هذا الإحتمال ضعيف مضافاً الى أنّ قاله الىٰ ما ذكرناه و حقّقناه.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية أمّا قوله تعالىٰ: **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ** ففيه قولان ثمّ ذكرهما ولم يرجّح أحدهما علىٰ الأخر و هكذا أكثر المفسّرين و الذّي يقوّي في النّظر هو أن يكون الخطاب للمؤمنين واللّه أعلم بحقيقة كلامه.

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ‹٢٠› وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ ‹٢١› إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ‹٢٢› وَ لَوْ عَلِمَ ٱللّٰهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ ‹٢٣› يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ‹٢٤› وَ ٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ‹٢٥› وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَاٰوٰيكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ‹٢٦› يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللّٰهَ وَ ٱلرَّسُولَ وَ تَخُونُوٓا أَمٰنٰتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ‹٢٧› وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوٰلُكُمْ وَ أَوْلٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ‹٢٨› يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنْ تَتَّقُوا ٱللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ‹٢٩› وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ ٱللّٰهُ وَ ٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْمٰكِرِينَ ‹٣٠›

◁ اللّغة

وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ، التّولي الإعراض يقال وليت عنه أي أعرضت عنه.

ٱلدَّوَآبِّ، دوابّ بفتح الدّال و تشديد الباء جمع دابّة و هى مؤنّث الدابّ يقع علىٰ المذكر و المؤنّث و التّاء فيه للوحدة و تصغيره، دويبة، ما دبَّ من الحيوان و غلب على ما يركب و يحمل عليه.

ٱلصُّمُّ بضمّ الصّاد كحمر جمع أصَّم مثل أحمر و حمر و هو من لا يسمع لفقد حاسّة السَّمع فيه.

ٱلْبُكْمُ بضمّ الباء و سكون الكاف و الميم جمع، أبَكَم، و قيل البكم الخرس و الأبكم الّذي لا يفصح.

يَحُولُ أصل الحول تغيّر الشّئ و إنفصاله عن غيره و بإعبتار الإنفصال قيل حال بيني و بينك.

يَتَخَطَّفَكُمُ قال الرّاغب في المفردات الخطف و الإختطاف الإختلاس بالسُّرعة.

◁ الإعراب

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلصُّمُّ أنّما جمع الصُّم و هو خبر شرّ لأنّ شرّاً هنا يراد به الكثرة فجمع الخبر على المعنى لاتُصيبَنَّ فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه مستأنف و هو جواب قسم محذوف أي واللّه لا تصيبنَّ الّذين ظلموا خاصّة بل تعمّ.

الثّانى: أنّه نهي و الكلام محمول على المعنى أي لا أرينك هاهنا، أي لا تكن هاهنا.

الثّالث: أنّه جواب الأمر و أكّد بالنّون مبالغة.

تَخافُونَ يجوز أن يكون في موضع رفع صفة كالّذي قبله أي خائفون و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في، مستضعفون.

◁ التّفسير

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا قال بعض المفسّرين لمّا تقدّم قوله: **وَ إِنْ تَنْتَهُوا** و كان الضّمير ظاهره العود على المؤمنين ناداهم و حرّكهم الىٰ طاعة اللّه و رسوله و لمّا كانت الآية قبلها مسوقة في أمر الجهاد فالمعنى أطيعوه فيما يدعوكم الىٰ الجهاد و أفردهم بالأمر رفعاً لأقدارهم و أن كان غيرهم أيضاً مأموراً بطاعة اللّه و رسوله و هذا قول الجمهور.

و أمّا من قال أنّ قوله: **وَ إِنْ تَنْتَهُوا** خطاب للكفّار فيرى أنّ هذه الآية نزلت بسبب إختلافهم في النّقل و مجادلتهم في الحقّ و تفاخرهم بقتل الكفّار و النّكاية فيهم.

و أمّا من ذهب الى أنّ الآية خطاب للمنافقين أولبني إسرائيل فهوكما ترى لا يساعده العقل و النّقل.

أقول الظّاهر أنّ الآية خطاب للمؤمنين و تخصيصهم بالخطاب لأنّ غيرهم لا يعتدّ به في العمل بما يجب عليه مع ما فيه من الإعظام و الإجلال لهم و يمكن أن يكون الوجه في التّخصيص هو أنّ غير المؤمن لا يطع اللّه و الرّسول قطعاً لأنّه لم يؤمن باللّه فالخطاب منصرفٌ عنه بل لا فائدة فيه و الأحسن حمل الآية علىٰ العموم مع قطع النّظر عن الأيات السّابقة و عليه فالمعنىٰ أطيعوا اللّه ورسوله في جميع أوامره ونواهيه سواء كان المأمور به الجهاد مثلاً أم غيره.

وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ

أي لا توّلوا و لا تعرضوا عن الرّسول و أنّما أفرد الضّمير في قوله: **عَنْهُ** و لم يقل، عنهما، لأنّ الإعراض عن الرّسول هو الإعراض عن اللّه بعينه و أنتم تسمعون، أي و الحال أنتم تسمعون دعاء الرّسول لكم.

و قيل معناه و أنتم تسمعون الحجّة و قيل، تسمعون أي تصدّقون لأنّكم مؤمنون لستم كالصُّم المكذّبين من الكفرة و الىٰ هذا المعنى أشار بقوله: **وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ** قوله: **وَ لَا تَكُونُوا** في موضع جزمٍ و حذف النّون دلالة على الجزم نهى اللّه المؤمنين عن مشابهة الكفّار في عدم إنتفاعهم بالمسمُوع فانّ من سمع و لم ينتفع به فكأنّه لم يسمع أصلاً و هذا حال الكافر و المنافق فاذا كان المؤمن أيضاً كذلك فما الفرق بين المؤمن و الكافر بل هو مِن المؤمن أقبح لأنّه يدّعي الإيمان باللّه و رسوله و مع ذلك لا ينتفع بكلام الرّسول و الكافر لا يدَّعيه بل ينكره.

و من المعلوم أنّ عدم الإنتفاع من المؤمن المقرّ أقبح منه من الكافر المنكر.

أن قلت كيف يصّح أن يقولوا سمعنا و هم لا يسمعون أليس هذا من قبيل الجمع بين المتناقضين.

قلتُ من سمع و لم ينتفع بما سمع فكأنّه لم يسمع فصَّح أن يقال فلان سمِع ولم يسمع أي سمع ظاهراً ولم يسمع واقعاً و هو واضح فلافرق في ذلك بين المشركين و المنافقين و أهل الكتاب و هو ظاهر.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

لمّا نهى اللّه المؤمنين في الآية السّابقة عن مشابهة الكفّار في عدم الإنتفاع بالمسموع حكم في هذه الآية بشرارتهم و خباثتهم فقال أنّ شرّ الدّواب الآية أي أنّ هؤلاء الكفّار شرّ ما دبَّ على الأرض من الحيوان و توضيحه أنّ الدّواب جمع دابّة و هى ما دبّ على وجه الأرض من الحيوان إلاّ أنّه تخصّص في العرف بالخيل ثمّ أنّ الدّابة علىٰ صنفين:

ذوي العقول كالإنسان، و غير ذوي العقول كغيره من الدَّواب و لا شكّ أنّ ذوي العقول أشرف و أفضل من غيره فالإنسان أفضل ما يدّب على الأرض و هذا ممّا لا كلام فيه إلاّ أنّ اللّه تعالىٰ ليس بصدد إثبات هذا المعنىٰ بل المراد

بها أنّ الإنسان الّذي من شأنه النُّطق و الإستماع و التَّعقل اذا لم يترتّب الأثار علىٰ كلامه و إستماعه و عقله فكأنّه فاقدٌ لهذه الصّفات متّصفٌ بضدّها.

و من كان كذلك فهو من شرّ الدّواب لا من خيرها و ذلك لأنّ كمال الإنسان في التَّعقل في المسموعات و الكلمات لا في الإدراكات فأنّ القوىٰ المدركة موجودة في الحيوان أيضاً.

و في قوله: **لَا يَعْقِلُونَ** إشارة الىٰ أنّ الصمّ و البكم من جملة الشّرور و الأفات بالنسّبة الى ذوي العقول و أمّا غير ذوي العقول فلاكلام لنا فيه.

و حيث أنّ الكفّار و المشركين و المنافقين كلّهم داخلون في هذه الآية من جهة عدم تعقّلهم فهم شرّ الدّواب عند اللّه و قد أشار اللّه تعالىٰ بهذه الدّقيقة في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَ عُمْيَانًا**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَاتِ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمَىٰٓ أَبْصَارَهُمْ**[۶].

بل يظهرون صريح الأيات أنّ هؤلاء يحشرون كذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا**[٧].

١- البقرة = ١٨
٢- البقرة = ١٧١
٣- يونس = ۴٢
۴- الفرقان = ٧٣
۵- الأنعام = ٣٩
۶- محمّد = ٢٣
٧- الإسراء = ٩٧

و لا يخفى عليك أنّ أكثر النّاس في كلّ عصرٍ و زمانٍ من مصاديق هذه الأيات و ذلك لأنّ الإدراك شئ و ترتُّب الأثر عليه شئ آخر و عليه فكم من بصير لا يبصر و سميع لا يسمع و عاقل لا يتعقّل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْغٰافِلُونَ**[١].

أعاذنا اللّه من شرور أنفسنا.

وَ لَوْ عَلِمَ اَللّٰهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّه لو علِم في هؤلاء الكافرين الخير و الصّلاح لأسمعهم آيات اللّه و حججهُ ولم يخلف عنهم شيئاً منها ولكنّهم لا يصلحون بل يتولّون و هم معرضون و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا فائدة في الإسماع و هو ظاهر قيل أنّ الكفّار سألوا الرّسول أن يحيي لهم قصّي بن كلاب و غيره من أمواتهم ليخبروهم بصحّة نبوّته فبيّن تعالى أنّه لو علم فيهم خيراًإنتفاعهم بقول هؤلاء الأموات لأحياهم حتّى يسمعوا كلامهم و لكنّه تعالىٰ علم منهم أنّهم لا يقولون هذا الكلام إلاّ على سبيل العناد و أنّه لو أسمعهم اللّه كلامهم لتولُّوا عن قبول الحّق و أعرضوا عنه.

أقول و عليه فقوله: **لَأَسْمَعَهُمْ** أي لاسمعهم كلام الموتىٰ بعد الأحياء و لكنّه تعالىٰ لم يحيهم لهم لعلمه بأنّه لو أسمعهم لتولُّوا و هم معرضون.

عن الكافي بأسناده عن سلمة بن محرز قال سمعت أبا جَعفر عليه السلام يقول أنّ من علم ما أوتينا تفسير القرآن و أحكامه و علم تغيّير الزّمان وحدثانه إذا أراد اللّه بقومٍ خيراً أسمعهم و لو أسمع من لَم يسمع لولّى معرضاً كأن لم يسمعٍ ثمّ أمسكَ هنيئة ثمّ قال ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا واللّه المستعان.

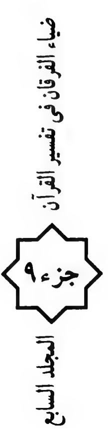

١- الأعراف = ١٧٩

وأعلم أنّ الآية دالّة علىٰ أنّه تعالى عالم بالأشياء قبل حدوثها و العلم بها قبل الحدوث حضوري لا حصولي فأنّ العلم الحصولي هو الصُّورة الحاصلة من الشّئ لدى المدرك و الحضوري عبارة عن حضور المدرك لدى المدرك.

أن قُلتَ أليس عِلم اللّه بتولّيهم و إعراضهم عن الحّق علّة له و اذا كان كذلك فما ذنب المعرض.

قُلت كلاّ فأنّ العِلم الأزلي ليس علّةً لشئ لأنّ العلم عبارة عن الإنكشاف كونه عِلّة فلا دليل عليه بل الدّليل ثابت علَىٰ عدمه و العقل أيضاً يحكم ببطلانه و ركاكته.

يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

الإستجابة طلب موافقة الدّاعي فيما دعا اليه على القطع به، و قيل معنىٰ، **ٱسْتَجِيبُوا** أجيبوا، وكيف كان فقد أمر اللّه المؤمنين بإستجابة اللّه و الرّسول أو بإجابة اللّه و رسوله إذا دعاهم الرّسول لما يحيهم و من المعلوم أنّ دَعوة الرّسول دعوة اللّه ولذلك قال دعاكم و يحييكم، أي دعاكم الرّسول وفى قوله: **يُحْيِيكُمْ** إشارة الى حياة القلب بنور المعرفة و الطّاعة و العبودّية فأنّ الحياة على قسمين:

جسمانّي و روحانّي و أن شئت قلت حيواني، و إنسانّي و الأوّل لاكلام لنا فيه فعلاً إذ هو موجود على الفرض حتّى في حقّ الكفّار بل و سائر الموجودات.

وأمّا الثّاني: أعني به الحياة الرُّوحي فهو غير موجود لنا في بدو الأمر و نحتاج فيها الى المحي قطعاً فأنّ إحياء القلب صعبٌ مستصعب جدّاً و لا تحصل هذه الحياة إلاّ بمتابعة الرّسول الذّي أمره اللّه بتذكية القلوب و تطهير النّفوس عن الأرجاس البّاطنية قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ ءَاتَيكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا**

نَهٰيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[۱] فمن زعم أنّ الإنسان يقدر علىٰ إحياء قلبه من عند نفسه فقد أخطأ.

ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا في معنى الحياة في الآية فعن السُّدي أنّ المراد بها الإيمان و الإسلام و ذلك لأنّ الايمان حياة القلب و الكفر موته:

قال اللّه تعالىٰ: **يُخْرِجُ اَلْحَىَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ** قيل المؤمن من الكافر.

و قال قتادة يعني القرأن أي أجيبوه الى ما فيه ففيه الحياة و النّجاة و العصمة و ذلك لأنّه سبب العلم و العلم حياة.

و قال بعضهم المراد بها الجهاد لأنّه سبب لحصول الشّهادة و هي توجب الحياة الدّائمة:

قال للّه تعالىٰ: **وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ اَلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰاءٌ**[۲].

و قال بعضهم **لِمٰا يُحْيِيكُمْ** أي لكلّ حقٍّ وصواب فيدخل فيه جميع الأعمال الصّالحة و غير ذلك من الأقوال.

و الحقّ أنّ المراد بالحياة في الآية هو المعارف الإلٰهية و العلوم الحقّيقية الّتي توجب حياة القلب و ذلك لأنّ الأعمال اذا صدرت عن القلب الّذي لا معرفة فيه و لا يعلم صاحبه ما يفعل و لأيّ شئٍ يفعل فلا فائدة فيها فحياة القلب بالمعرفة و هي لا تحصل إلاّ بالعلم:

قال اللّه تعالىٰ: **يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحِكْمَةَ**[۳].

هذا و قد ورد في الأخبار أنّ المراد بها الجنّة و عن أبي جعفر عليه السلام لمّا سأل عن هذه الآية قال عليه السلام ولاية علّي بن أبي طالب فأنّ إتّباعكم إيّاه و ولايته أجمع لأمركم و أبقى للعدل فيكم انتهىٰ.

۱- الحشر = ۷
۲- آل عمران = ۱۶۷
۳- آل عمران = ۱۶۴

أقول:

عـباراتـنا شـتّىٰ وحسـنك واحـدٌ وكـــلٌّ الى ذاك الجــمال يشــير

و التّحقيق أنّ المراد بها العلم فأنّ حياة القلب به كما أنّ موته بالجهل كما قيل، النّاس موتى و أهل العلم أحياءٌ.

و المراد به هو العلم الّذي يكتسب به الجنان و يعبد به الرّحمن كما قال الصّادق عليه السلام: **العلم ما عُبد به الرّحمٰن، وأُكتسب به الجنان**، و بـه تـحصل معرفة اللّه و معرفة الرّسول و معرفة الإمام و الاعـتقادات الصّـالحات و مـن المعلوم أنّ الأعمال النّاشئة عن القلب المنّور بـنور العـلم و المـعرفة تكـون صالحة و هذا هو أصل الخيرات و منشأ البركات و لا يحصل العلم بهذا المعنى إلاّ من طريق الوحـي مختصّ بـالرّسول و لا رسـول الاّ يـدعوا إلاّ الى الخـير والصّلاح و هذا معنىٰ قوله: **ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِـلرَّسُولِ إِذاٰ دَعٰـاكُـمْ لِـمٰا يُحْيِيكُمْ**.

وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

قال الشّيخ في التّبيان قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يفرق بين المرء و قلبه بالموت أو الجنون و زوال العـقل فـلا يمكنه إستدراك ما فات و المعنىٰ بادروا بالتّوبة من المعاصي قبل هذه الحال

الثّاني: أنّ معناه بادروا بالتّوبة لأنّه أقرب الى المرء مـن حـبل الوريـد لا يخفى عليه خافية من سرّه و علانيته و فى ذلك غاية التّحذير.

الثّالث: تبديل قلبه من حالٍ الىٰ حالٍ لأنّه مقلّب القلوب من حال الأمن الى حال الخوف و بالعكس انتهىٰ.

أقول أصل الحول تغيرّ الشّئ و إنفصاله عن غيره فبإعتبار التّغير قيل حال الشّئ و بإعتبار الإنفصال قيل حال بيني و بينك كذا قاله الرّاغب في المفردات.

و أمّا القلب، فقيل سمّي به لكثرة تقلّبه لأنّ قلب الشّئ تصريفه و صرفه من وجهٍ الى وجهٍ كقلب الثّوب و قلب الإنسان أي صرفه عن طريقته و الإنقلاب الإنصراف اذا عرفت هذا.

فإعلم أنّ قوله تعالىٰ: **أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ** أن قلنا أنّ الحول بمعنى التّغير فمعناه أنّ اللّه تعالى يغيّر قلب الإنسان عمّا يريده و أن قلنا أنّ الحول بمعنى الإنفصال فمعناه أنّه تعالى يفصل بين المرء و قلبه وكيف كان قد دلّت الآية على أنّ اللّه تعالىٰ مقلّب القلوب و تقليب الأمور تدبيرها و النّظر فيها و تقليب اللّه القلوب و البصائر صرفها من رأي الىٰ رأيٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُقَلِّبُهُمْ ذٰاتَ ٱلْيَمِينِ وَ ذٰاتَ ٱلشِّمٰالِ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **يُقَلِّبُ ٱللّٰهُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّـهٰارَ إِنَّ فِـي ذٰلِكَ لَـعِبْرَةً لِأُولِـي ٱلْأَبْصٰارِ**[3].

قال بعض المحققين قوله تعالى: **وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ** إشارة الى ما قيل في وصفه، يقلّب القلوب و هو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده لحكمةٍ تقتضي ذلك وعلىٰ ذلك حمل قوله: **وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مٰا يَشْتَهُونَ**.

و قال بعض أخر معناه أن يهمله و يردّه الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً و حوّلت الشّئ فتحوّل غيّرته، أمّا بالذّات و أمّا بالحكم و القول انتهىٰ كلامه.

وأنا أقول الذّي يستفاد من الآية هو أنّ العبد لا يكون في فعله و قوله مختاراً مطلقاً كما زعمت المفوّضة و لا مجبوراً كذلك كما زعمت المجبّرة بل الأمر بين الأمرين و هو الّذي نقول به في مذهب الشّيعة.

١- الأنعام = ١١٠ ٢- الكهف = ١٨

٣- النّور = ۴۴

قال الصّادق عليه‌السلام لا جبر و لا تفويض بل أمرٌ بين أمرين، و ذلك لأنّ حيلولة اللّه بين المرء و قلبه دليلٌ على عدم الجبر لأنّه لو كان العبد مجبوراً في فعله و قوله فالحيلولة لا معنى لها و هكذا لو كان الأمر مفوّضاً اليه مطلقاً.

قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام، أمّا القائلون بالجبر فقال الواحدي حكاية عن إبن عبّاس و الضّحاك يحول بين المرء الكافر و طاعته و يحول بين المرء المطيع و معصية فالسّعيد من أسعده اللّه و الشّقي من أضلّه اللّه و القلوب بيد اللّه يقلّبها كيف يشاء فاذا أراد الكافر يؤمن و اللّه لا يريد إيمانه يحول بينه و بين قلبه واذا أراد المؤمن أن يكفر واللّه لا يريد كفره حال بينه و بين قلبه.

ثمّ قال الرّازي، قلت قد دلّلنا بالبراهين العقلّية على صحّة أنّ الأمر كذلك و ذلك لأنّ الأحوال القلبّية إمّا العقائد و أمّا الإرادات و الدّواعي إمّا العقائد فهي إمّا العِلم و إمّا الجهل إمّا العلم فيمتنع أن يقصد الفاعل الى تحصيله إلاّ اذا عَلِم كونه علماً و لا يعلم ذلك إلاّ اذا علم كون ذلك الإعتقاد مطابقاً للمعلوم و لا يعلم ذلك إلاّ اذا سبق علمه بالمعلوم و ذلك يوجب توّقف الشّئ على نفسه.

و أمّا الجهل فالإنسان البتّة لا يختاره و لا يريده إلاّ اذا ظنّ أنّ ذلك الإعتقاد علم و لا يحصل له هذا الظّن إلاّ بسبق جهلٍ أخر و ذلك أيضاً يوجب توقّف الشّئ على نفسه و أمّا الدّواعي و الإرادات فحصولها أن لم يكن بفاعلٍ يلزم الحدوث لا عن محدثٍ وأن كان بفاعلٍ فذلك الفاعل إمّا العبد و إمّا اللّه تعالى و الأوّل باطل و إلاّ لزم توّقف ذلك القصد على قصدٍ أخر و هو محال فتعيّن أن يكون فاعل الإرادات و الإعتقادات و الدّواعي هو اللّه تعالى فنصّ القرأن دلّ على أنّ أحوال القلوب من اللّه و الدّلائل العقلّية دلّت علىٰ ذلك فثبت أنّ الحقّ ما ذكرناه انتهىٰ كلامه.

والجواب أنّه أن أياد أنّ الفاعل للإعتقادات و الإرادات و الدَّواعي هو اللّه تعالى بلا واسطة العبد فنحن نطالب اليدّليل على ذلك و لا دليل عليه و أن أراد الفاعل لها هو اللّه بواسطة العبد فهو حقّ إلاّ أنّه لا يثبت مدّعاه.

سلّمنا أنّ الدّواعي الموجودة في العبد بيد اللّه لكن نقول بثبوت الواسطة أعني بها الإختيار بين الدّاعي و الفعل لأنّ الدّاعي على الفعل لا يكون علّة تامّة له.

و الحاصل أنّا لا نشكّ في أنّ اللّه تعالى خالق لجميع ما سواه كائناً ما كان نقول أنّ الإنسان قد جعله الّه مختاراً في فعله إلاّ أنّ هذا الفعل له نسبة الىٰ الفاعل المباشر أعني به العبد و نسبته الى الخاق الموجد لكلّ ما سواه و هو اللّه فأنّ العبد و ما في يده كان لموﻻه و لا شكّ أنّ نسبة الفعل الى الفاعل المباشر على سبيل الحقيقة و الى الخالق الموجد للعبد على سبيل المجاز فقول الرّازي بالمغالطة أشبه منه بالدّليل هذا كلّه مضافاً الىٰ أنّه تعالى أنزل القرأن ليكون حجّة للرّسول على الكفّار لا ليكون حجّة للكفّار علىٰ الرّسول فعلى ما ذكره الرّازي و من حذي حذوه لصارت الآية من أقوى الدّلائل للكفّار على الرّسول اذ لهم أن يقولوا لمّا منعنا من الإيمان فكيف يأمرنا به و يقول: **وَ مآ اٰتيٰكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** [1] و المفروض أنّا لا نقدر على ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ قد حال بيننا و بين قلبنا و لعمري هذا واضح لا خفاء فيه.

أن قُلت فما معنىٰ الآية و ما المراد بالحيلولة.

قلتُ المراد بها التّوفيق و ذلك لأنّ الآية خطاب للمؤمنين و معنى قوله: **أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ** أنّ اللّه يوّفقه و يؤيّده و لا يدعه الىٰ نفسه و هذا المعنى ثابت في حقّ المؤمن الّذي أراد الحقّ و إستجاب للّه و للرّسول و أمّا الكافر الّذي لم يرد الإيمان فقد وكله اللّه الىٰ نفسه فلا محالة لم يوفّق ولم يستجيب و هذا هو الحقّ الموافق للقواعد العقلّية و الأثار النّقلية فأنّ الجبر يأباه العقل و النّقل.

١- الحشر = ٧

فتعالى و فى المعنى إحتمال آخر و هو أنّ اللّه تعالى قد يلقي الى القلب ما هو بمصلحته و الإنسان لا يعلم بها لأنّه تعالى هو المتصرّف في جميع الأشياء و القادر على الحيلولة بين المرء و قلبه فهو الّذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعىٰ إذ بيده ملكوت كلّ شيئ و زمامه و فى ذلك حثٌّ علىٰ المراقبة و الخوف منه و البدار الى الإستجابة له و أنّ الأمور ليست مفوّضة الىٰ العبد بقولٍ مطلق و اذا كان الإلقاء أو التّغيير أو الحيلولة أو ما شئت فسمّه مطابقاً لمصلحة العبد فهو عين اللّطف و العناية من اللّه الى عبده و أمّا منعه من الإيمان و إدخال العبد في الكفر فلا مصلحة فيه بل هو ظلمٌ قبيح لا ينبغي أن يصدر منه تعالى لأنّه ليس بظّلامٍ للعبيد و عليه فمعنىٰ الحيلولة منع العبد من الوقوع في المفسدة و الشّقاوة و اللّه أعلم.

و أمّا قوله: **وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ففيه إعلام بأنّه تعالى اليه يحشرهم فيثيبهم أو يعاقبهم علىٰ أعمالهم ففيه تذكار لما يؤول اليه أمرهم من البعث و الجزاء بالثواب و العقاب و أنّ الدّنيا مزرعة الأخرة وكلّ إنسانٍ مرهونٌ بعمله و هذا واضح لا خلاف فيه لمن آمن باللّه و اليوم الأخر.

وَ ٱتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ

الفتنة البّلية التّي يظهر بها باطن أمر الإنسان فيها و الفتنة الهرج الّذي يركب فيه النّاس بالظّلم.

قال بعض المفسّرين هذا الخطاب ظاهره العموم بإتّقاء الفتنة الّتي لا تّختص بالظّالم بل تعمّ الصّالح والطّالح و قد روي عن إبن عبّاس أنّه قال أمر اللّه المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم اللّه بالعذاب.

قال روي البخارى، و التّرمذي أنّ النّاس إذا رأوا ظالماً و لم يأخذوا علىٰ يديه أوشك أن يعمّهم اللّه بعذاب من عنده.

و في صحيح مسلم من حديث زينب بنت جحش سألت رسول اللّه أنهلك و فينا الصّالحون قال نعم إذا كثر الخبيث انتهىٰ كلامه.

و قيل أنّ الآية خطاب للصّحابة، و قيل لأهل بدر، و قال أكثر المفسّرين من العامّة نزلت في علّيٍ و عمّار و طلحة و الزّبير، و قيل لرجلين من قريش قالوا و الفتنة هنا القتال في وقعة الجمل.

قال الحقّي في تفسيره المسّمىٰ بروح البيان ما هذا لفظه، قال الحدادي في تفسيره نزلت في عثمان و علّيٍ أخبر اللّه تعالىٰ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بالفتنة الّتي تكون بسببهما أنّهما ستكون بعدك تلقاها أصحابك تصيب الظّالم و المظلوم و لا تكون لِلظّلمة، و حدهم خاصّة و لكنّها عامّة فأخبر النّبي بذلك أصحابه فكان بعد وفاة النّبي من الفتن بسبب علّيٍ و عثمان ما لا يخفى على أحدٍ إنتهىٰ كلامه.

أقول لم يذكر الفتنة الّتي كانت بسبب علّيٍ و عثمان ما هي فقوله ما لا يخفى على أحدٍ لا نفهم معناه و ليعلم أنّه متفرّدٌ بهذا القول و لم يقل به أحدٌ من مفّسريهم و لا معنى للتّغيير بالرّأي إلاّ هذا و قال صاحب الكشّاف نقلاً عن الحسن نزلت في علّيٍ و عمّار، و طلحة و الزُّبير و هو يوم الجمل خاصّة قال الزّبير نزلت فينا و قرأناها زماناً و ما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنّيون بها وعن السُّدي نزلت في أهل بدر فأقتتلوا يوم الجمل انتهى كلامه.

أقول و أعجب من هذا كلّه ما رواه القُرطبي في تفسيره لهذه الآية قال.

و عن حذيفة اليماني قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله يكون بين ناسٍ من أصحابي فِتنة يغفرها اللّه لهم بصحبتهم أيّاي، يستنّ بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم اللّه بها النّار انتهىٰ.

أقول هذا الحديث الّذي نقله القرطبي لا يشبه كلام الرّسول أصلاً مضافاً الى أنّ العقل السّليم يحكم ببطلانه إذ كيف يعقل أن يكون صاحب الفتنة و

موجدها مغفوراً له لصحبته دون تابعه و الآخذ بسنتّه و بدعته فهذا عجيبٌ و هذه الأقوال الّتي نقلناها عن تفاسيرهم لا يقبلها العقل السّليم و لا يساعدها النّقل الصّحيح و ذلك لأنّ حرب الجمل و أن كانت فتنة إلاّ أنها من ثمرات فتنة السّقيفة التّي وقعت بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك أي السّقيفة كانت أساس الفتنة و أصلها.

و أمّا حرب الجمل أو النّهروان و صفّين و غيرهما من الفتن الواقعة مثل خلافة معاوية و يزيد الىٰ آخر أولاد العبّاس و ما وقع في خلافتهم من الظّلم و الجور فلا شكّ أنّ تلك المفاسد كلّها من ثمرات السّقيفة فالقول بأنّ حرب الجمل و أمثالها هي الفتنة لا غيرها كلام عارٍ عن التّحصيل بعيدٌ عن الإنصاف فالحقّ أنّ المراد بالفتنة في الآية الشّريفة معناها العامّ الشّامل لكلّ فتنةٍ الىٰ يوم القيامة إلاّ أنّ أصلها و أساسها في الإسلام هو السّقيفة الّتي أوجدوها بعد رسول اللّه للوصول الى مقام الخلافة والرّئاسة و لعلّك تقول هذا الّذي ذكرت مجرّد إدّعاء لا دليل عليه فنقول ليس الأمر كذلك بل هو الحقّ الّذي لا مرية فيه عند المنصف المطّلع علىٰ التّاريخ.

و أمّا المعاند الّذي لا يقبل الحقّ فلاكلام لنا معه و لتوضيح المدّعى لابدّ لنا من بيان السقيفة و ما وقع فيها و ما ترتّب عليها من الأثار و نحن نذكر قصّتها على ما ذكرها إبن الأثير في تاريخه و هو من أعيان العامّة قال ما هذا لفظّه.

لمّا توفّى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم و معه عمر و أبو عبيدة بن الجّراح فقال ما هذا فقالوا منّا أمير و منكم أمير فقال أبو بكر منّا الأمراء و منكم الوزراء ثمّ قال أبوبكر قد رضيت لكم أحد هذين الرّجلين عمر و أبا عبيدة أمين هذه الأمّة فقال عمر أيّكم يطيب نفساً أن يخلف قدمين قدمهما النّبي فبايعه عمر و بايعه النّاس فقالت الأنصار أو بعض الأنصار لا نبايع إلاّ عليّاً قال و تخلّف علي و

بنوهاشم و الزّبير و طلحة عن البيعة و قال الزّبير لا أغمد سيفاً حتّىٰ يبايع علّي فقال عمر خذوا سيفه و أضربوا به الحجر ثمّ أتاهم عمر فأخذهم للبيعة و قيل لمّا سمع علّي بيعة أبي بكر خرج في قميص ما عليه أزار و لا رداء عجلاً حتّى بايعه ثمّ إستدعى إزاره ورداءه و الصّحيح أنّ أمير المؤمنين ما بايع إلاّ بعد ستّة أشهر واللّه أعلم و قيل لمّا إجتمع النّاس علىٰ بيعة أبى بكر أقبل أبوسفيان وهو يقول أنّي لا أرىٰ عجاجة لا يطفئها إلاّ دم يا آل عبد مناف فيم أبوبكر من أمورهم أين المستضعفان أين الأذّلان علّي و العبّاس ما بال هذا الأمر في أقلّ حيٍّ من قريش ثمّ قال لعلّي أبسط يدك أبايعك فواللّه لأن شئت لاملأنّها عليه خيلاً و رجلاً فأبى علّي عليه السّلام فيتمثّل بشعر المتلمس.

ولن يقيم على خسفٍ يراد به إلاّ الأذّلان عير الحيّ والوتد

هذا علىٰ الخَسف مربوطٌ بذمّته وذا يشّج فلا يبكي له أحد

فزجره علّي و قال و اللّه أنك ما أردت بهذا إلاّ الفتنة و أنّك طالما بغيت الإسلام شرّاً لا حاجة لنا في نصيحتك و قال إبن عبّاس كنت أقرأ عبد الرّحمن بن عوف القرآن فحجّ عمر و حججنا معه فقال لي عبدالرّحمٰن شهدت أمير المؤمنين اليوم بمنى و قال له رجل سمعتُ فلاناً يقول لو مات عمر لبايعت فلاناً فقال عمر أنّي لقائم العشّية في النّاس أحذّرهم هؤلاء الرهط الّذين يريدون أن يغتصبوا النّاس أمرهم فقلت له أنّ الموسم يجمع رعاع النّاس و غوغاءهم و هم الّذين يغلبون على مجلسك و أخاف أن تقول مقالة لا يعوها و لا يحفظوها و يطّيروا بهاأمهل حتّى تقدّم المدينة و تخلّص بأصحاب رسول اللّه فتقول ما قلت فيعوا مقالتك فقال و اللّه لأقومّن بها أوّل مقامٍ أقومه بالمدينة قال فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرّحمٰن فلمّا جلس عمر على المنبر حمد اللّه و أثنى عليه.

ثمّ قال بعد أن ذكر الرّجم و ما نسخ من القرأن فيه أنّه بلغني أنّ قائلاً منكم يقول لو مات عُمر بايعت فلاناً فلا يغرَّن إمرؤٍ أن يقول أنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة (فِتنة خ ل) فقد كانت كذلك و لكن وقى اللّه شرّها و ليس منكم من تقطع اليه الأعناق مثل أبى بكر و أنّه كان خَيرنا حين توّفى رسول اللّه و أنّ عليّاً و الزّبير معهما تخلّفوا عنّا في بيت فاطمة و تخلّف عنّا الأنصار.

و إجتمع المهاجرون الى أبي بكر فقلت له إنطلق بنا الى أخواننا من الأنصار فإنطلقنا نحوهم فلقينا رجلان صالحان من الأنصار أحدهما عويم بن ساعدة و الثّاني معن بن عدّي فقالا لنا أرجعوا أقضوا أمركم بينكم قال فأتينا الأنصار و هم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة و بين أظهرهم رجل مزمّل.

قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجع فقام رجل منهم فحمد اللّه و أثنىٰ عليه و قال أمّا بعد فنحن الأنصار و كتيبة الإسلام و أنتم يا معشر قريش رهطٌ بيننا دفت الينا دافة من قومكم فاذا هم يريدون أن يغصبُونا الأمر فلمّا سكت و كنت قد زوَّرت في نفسي مقالة أقولها بين يدي أبي بكر فلمّا أردت أن أتكلّم قال أبوبكر على رسلك يا عُمر فقام فحمد اللّه و أثنى عليه و ما ترك شيئاً كنت زوَّرتُ في نفسي إلاّ جاء به أو بأحسن منه و قال:

يا معشر الأنصار أنّكم لا تذكرون فضلاً إلاّ و أنتم له أهل و أنّ العرب لا تعرف هذا إلاّ لقريش هم أوسط العرب داراً و نسباً و قد رضيت لكم أحد هذين الرّجلين و أخذ بيدي و يد أبى عبيدة و أنّي و اللّه ما كرهت من كلامه كلمة غيرها أن كنت أقدّم فتضرب عنقي فيما لا يقربني الىٰ إثم أحبّ إلّي من أن أومرّ على قومٍ فيهم أبو بكر فلمّا قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال:

أنا جذيلها المحكّك و عذيقها المرّجب منّا أمير و منكم أمير و إرتفعت الأصوات و اللّغط فلمّا خفت الإختلاف قلت لأبى بكر أبسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته و بايعه النّاس ثمّ نزونا على سعد بن عبادة فقال قائلهم قتلتم سعداً فقلت قتل اللّه سعداً و أنّا و اللّه ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر

خشيت إن فارقت القوم و لم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فإمّا أن نتابعهم على ما لا نرضىٰ و إمّا أن نُخالفهم فساداً.

و قال أبو عمرة الأنصاري لمّا قبض النّبي إجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة و أخرجوا سعد بن عبادة ليولّوه الأمر وكان مريضاً فقال بعد أن حمد اللّه يا معشر الأنصار لكم سابقة و فضيلة ليست لأحدٍ من العرب أنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما أمن به إلاّ القليل ما كانوا يقدرون على منعه و لا على إعزاز دينه و لا على دفع ضيم حتّى أراد اللّه بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة و رزقكم الإيمان به و برسوله و المنع له و لأصحابه و الإعزاز له و لدينه و الجهاد لأعداءه فكنتم أشدّ النّاس على عدّؤوه حتّى إستقامت العرب لأمر اللّه طوعاً و كرهاً و أعطى البعيد المفادة صاغراً فدانت لرسوله بأسيافكم العرب و توّفاه اللّه و هو عنكم راض قرير العين إستّبدوا بهذا الأمر دون النّاس فأنّه لكم دونه فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت و أصبت الرّأي و نحن نولّيك هذا الأمر فأنّك مقنع و رضا للمؤمنين.

ثمّ أنّهم ترادوا الكلام و أبى المهاجرون من قريش و قالوا نحن المهاجرون و أصحابه الأوّلون و عشيرته و أولياءه فقالت طائفة منهم فأنّا نقول منّا أمير و منكم أمير و لن نرضى بدون هذا أبداً فقال سعد هذا أوّل الوهن و سمع عُمر الخبر فأتىٰ منزل النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وأبو بكر فيه فأرسل اليه أن أخرج إلّي فأرسل اليه أنّي مشتغل فقال عمر قد حدث أمر لابدّ لك من حضوره فخرج اليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم و معهما أبو عبيدة.

قال عمر فأتيناهم و قد كنت زوَّرت كلاماً أقوله لهم فلمّا دنوت أقول أسكتني أبو بكر و تكلّم بكلّ ما أردت أن أقول فحمد اللّه و قال أنّ اللّه قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمّته ليعبدوه و يوَّحدوه و هم يعبدون من دونه ألهة شتّى من حجر و خشب فعظم على العرب أن يتركوا دين أباءهم فخصَّ اللّه المهاجرين الأوّلين من قومه بتصديقه و المواساة له والصّبر معه علىٰ شدّة

أذى قومهم و تكذيبهم إيّاه وكلّ النّاس لهم مخالف زرأ عليهم فلم يستوحشوا القلّة عددهم و شنف النّاس لهم فهم أوّل من عبد اللّه في هذا الأرض و أمن باللّه و بالرّسول و هم أولياءه و عشيرته و أحقّ النّاس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلاّ ظالم.

و أنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدّين و لا سابقتهم في الإسلام رضيكم اللّه أنصاراً لدينه و رسوله و جعل اليكم هجرته فليس بعد المهاجرين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء و أنتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة و لا تقضي دونكم الأمور فقام حباب بن المنذر الجموح فقال:

يا معشر الأنصار أملكوا عليك أمركم فأنّ النّاس في ظلّكم و لن يجتريَ مجتريٌ على خلافكم و لا يصدروا إلاّ عن رأيكم أنتم أهل العزّ و أولوا العدد و المنعة و ذووا البأس و أنّما ينظر النّاس ما تصنعون و لا تخلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلاّ ما سمعتم فمنّا أمير و منكم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع أثنان و اللّه لا ترضى العرب أن تؤمركم و نبيّنا من غيركم و لا تمتنع العرب أن تولّي أمرها من كانت النبوّة فيهم و لنا بذلك الحجّة الظّاهرة من ينازعنا سلطان محمّد و نحن أولياءه و عشيرته.

فقال الحباب بن المنذر يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم و لا تسمعوا مقالة هذا و أصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فأن أبوا عليكم فجلوهم عن هذه البلاد و توَّلوا عليهم هذه الأمور فأنتم و اللّه أحقّ بهذا الأمر منهم فأنّه بأسيافكم دان النّاس لهذا الدّين أنا جذيلها المحكّك و عذيقها المرّجب أنا أبو شبل في عرينة الأسد واللّه لئن شئتم لنعيدنّها جذعة.

فقال عمر اذاً ليقتلك اللّه فقال بل إيّاك يقتل فقال أبو عبيدة يا معشر الأنصار أنّكم أوّل من نصر فلا تكونوا أوّل من بدَّل و غير فقام بشير أبو النّعمان بن بشير.

فقال: يا معشر الأنصار إنّا واللّه و أن كنّا أولى فضيلة في جهاد المشركين و سابقةً في الدّين ما أردنا إلاّ رضا ربّنا و طاعة نبيّنا و الكدح لأنفسنا فما ينبغي أن نستطيل على النّاس بذلك و لا نبغي به الدّنيا ألا أنّ محمّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من قريش و قومه أولى به و أيم اللّه لا يراني اللّه أنازعهم هذا الأمر فإتّقوا اللّه و لا تخالفوهم فقال أبو بكر هذا عمر و أبو عبيدة فأن شئتم فبايعوا فقالا لا واللّه لا نتولّى هذا الأمر عليك و أنت أفضل المهاجرين و خليفة رسول اللّه في الصّلاة و هى أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فلمّا ذهبنا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فناداه الحباب بن المنذر عققت عقاقاً أنفت على إبن عمّك الإمارة فقال لا و اللّه وكلنّي كرهت أن أنازع القوم حقّهم و لمّا رأت الأوس ما صنع بشير و ما تطلب الخزرج من تأمير سعد.

قال بعضهم لبعضٍ و فيهم أسيد بن حضير و كان نقيباً و اللّه لئن ولّيتها الخزرج مرّة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة و لا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبابكر فبايعوه فإنكسر علىٰ سعد و الخزرج ما أجمعوا عليه و أقبل النّاس يبايعون أبابكر من كلّ جانب ثمّ تحوّل سعد بن عبادة الىٰ داره فبقي أيّاماً و أرسل اليه ليبايع فأنّ النّاس قد بايعوا فقال لا واللّه حتّى أرميكم بما في كنانتي و أخضب سنان رمحي و أضرب بسيفي و أقاتلكم بأهل بيتي و من أطاعني ولو إجتمع معكم الجنّ و الإنس ما بايعتكم حتّى أعرض على ربّي فقال عمر لا تدعه.

فقال: بشير بن سعد أنّه قد لجَّ و أبى و لا يبايعكم حتّى يقتل و ليس بمقتول حتّى يقتل معه أهله و طائفة من عشيرته و لا يضرّكم تركه و أنّما هو رجل واحد فتركوه وجاءت أسلم فبايعت فقوّي أبوبكر بهم و بايع النّاس بعد.

قيل أنّ عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد متى بويع أبوبكر قال يوم مات رسول اللّه كرهوا أن يبقوا بعض يوم و ليسوا في جماعة.

قال الزّهري بقى علّي و بنو هاشم و الزّبير ستّة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتّى ماتت فاطمة بنت رسول اللّه فبايعوه انتهى كلام صاحب التّاريخ بألفاظه و عباراته.

و أنت اذا كنت من أهل الإنصاف و أمعنت النّظر فيما ذكره هذا المؤرّخ و هو من العامّة بل من أعيانهم المشار اليه بالبنان لعلمت أنّ ما ذكرناه و إدعيناه في معنى الفتنة و أنّها هي الّتي أشار اليها القرأن في قوله و إتّقوا فتنة الخ حقّ لا ريب فيه كما لا ريب في نبوّة رسول اللّه و لكن أنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السّمع و هو شهيد ومع ذلك لا ينافي ما ذكرنا في المقام أن يكون المراد بها في الآية معناها العام الشّامل لكلّ فتنة الىٰ يوم القيامة لأنّا لم ينحصرها بالسّقيفة و أنّها منحصرة فيها.

بل قلنا أنّها أصلها و أساسها في الإسلام بمعنىٰ أنّه كلّما وجد منها بعدها أو سيوجد بعد ذلك فهو من ثمراتها و فروعها و المبتدع بها بعد رسول اللّه شريك في أوزارها الىٰ يوم القيامة و لا نحتاج الى توضيحها أكثر من ذلك فأن ريح الفتنة تفوح من جدران السّقيفة لمن كان له شمّ و أثار الفتنة ظاهرة في جميع شئون المسلمين لمن كان له عقلّ و دراية وكيف لا يكون الأمر كذلك و بسببها غصب حقّ أهل البيت و قتلوا أو قهروا وكذلك أولادهم و شيعتهم الى يوم ظهور دولة الحقّ و لا نظنّ أن يشكّ ذو مسكةٍ في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام منع و قتل بسببها كما أشار اليه عليه السلام بقوله في الخطبة الشقشقية حيث قال عليه السلام:

أَمٰا وَ اَللّٰهِ لَقَدْ تَقَمصَّهَا ابْنُ أَبِى قُحافَةَ و إِنَّهُ لَيَعْلَمُ اَنَّ مَحَلّى مِنْهٰا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحٰى، يَنْحَدِرُ عَنِّى السَّيْلُ وَ لاٰ يَرْقٰى اِلَىَّ الطَّيْرُ، الخ.

و حيث إنّجر بنا الكلام الىٰ هُنا فلا بأس بالإشارة الىٰ شمّةٍ من ثمراتها الخبيثة فنقول:

منها، غصب حقّ أهل البيت و هو الأصل من ثمراتها في الباب.

منها، غصب أصحاب السّقيفة حقّ الزّهراء من فدك و ميراثها من رسول اللّه.

منها، مضافاً الى ذلك إحراق بيتها و ضربها و أذاها الى أن ماتت ساخطة عليهم و أوصّت أن تدفن ليلاً.

و قد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله فاطمة بَضعة مِنّي من أذاها فقد أذانى الخ.

منها، خلافة عمر بعد أبي بكر بوصّيةٍ منه اليه بغير مشورةٍ كما قال علّي عليه السلام في الخطبة فياعجبا بينا هو يستقيلها في حياته اذ عقدها لأخر بعد وفاته لشدّ ما تشطر ضرعيها فصيَّرها في حوزةٍ خشناء يغلظ كلمها و يخشن مسّها الخ.

منها، خلافة عثمان بعد عمر بواسطة الشّورىٰ الّتي أبدعها عمر و جعل زمامها بيد عبد الرّحمٰن بن عوف الّذي كان هواه مع عثمان لقرابته كما أشار عليه السلام الىٰ هذا المعنى بقوله.

و قال الأخر لصهره مع هنٍ وهنٍ و تفصيلها مسطورة في التّواريخ ثمّ ولد من عثمان معاوية ابن أبي سفيان لعنهما اللّه و مروان بن الحكم الخبيث و منهما يزيد و عبد الملك و منه أولاده الى أخر القوم ثمّ وصلت النّوبة على ما أسسَّها السَّقيفة الى أولاد العبّاس الى أخرهم ففعلوا في الدّين ما فعلوا و قتلوا من المسلمين نفوساً كثيرة لا يعلمها إلاّ اللّه و لم يقنعوا بالقتل و الضّرب و الهتك في المسلمين بل غيّروا أحكام اللّه و فسَّروا كتاب اللّه بأراءهم و أميالهم و أوجدوا في الدّين بدعاً كثيرة و حلَّلوا حرامه و حرَّموا حلاله و بالجملة فعلوا بالإسلام و المسلمين ما ترىٰ.

و أنّي لا أظنّ بهم خيراً بل أعتقد إعتقاداً جازماً أن لو سلَّط الكفّار على المسلمين ما فعلوا بأكثر منهم و هذه الأثار كلّها من ثمرات غصب الخلافة الّتي لأجلها وجدت السّقيفة الملعونة و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا يبعد أن تكون الآية ناظرة الىٰ ما ذكرناه.

وَ ٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً

إشارة الىٰ قَبح الفِتنة و عدم الدّخول فيها و من المعلوم أنّ الكلّي ينصرف الىٰ مصداقه الأتمّ و هو السّقيفة فالقول بأنّ المراد بها حرب الجمل أو حرب صفّين و أمثالهما ممّا هو من ثمراتها لا معنىٰ له و فى قوله: **لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** إشارة الىٰ عموم الفتنة و المعنى إتّقوا الفتنة إذا كانت كذلك لأنّ العقابِ المترتب عليها يشمل الكّل سواء كان ظالماً أم مظلوماً و فى قوله: **وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** إشارة الى أنّ الفتنة إذا بَلَغت هذه المرتبة فهي توجب العقاب قهراً فلا تكلوا الى رحمة اللّه فأنّها قريبٌ من المحسنين و أعلموا أنّه أشدّ المعاقبين في موضع النّكال و النِّقمة و السرّ فيه واضح فأنّ الفتنة العامّة ليست من المعاصي الشخَيصة الّتي تعدّ من الظُّلم على النّفس بل هي من المعاصي المسرية المهلكة للغير أيضاً و هذا هو الوجه في عدم قبول توبة المبتدع إلاّ بعد إصلاحه ما أفسده بالفتنة و أنّى يكون له ذلك و لولا مخافة الأطناب و خروج الكتاب عن موضوعه لقلت لك غير ما قلت و أشرت الى تفصيل ما ترتّب على تلك الفتنة بوجهٍ أبسط و لكن في ما ذكرته كفاية لمن نظر اليه بعين التدبّر و الإنصاف لا بعين البغي و الاعتساف و الحمد لِلّه على كلّ حالٍ و صلّىٰ اللّه علىٰ رسوله و آله بقى في المقام شيئان لابدّ لنا من الإشارة اليهما:

أحدهما: أنّ ظاهر الآية يدّل على أنّ اللّه تعالى ياخذ غير المذنب بذنب المذنب و هو خلاف العدل بل العدل يقتضي أخذ المذنب بذنبه و أمّا غيره فلا و يدلّ على هذا الحكم بعد العقل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**[2].

١- الانعام = ١٦٤ ٢- مدثر = ٣٨

قال اللّه تعالىٰ: **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**[١].

و غيرها من الأيات و اذا كان كذلك فما معنىٰ قوله: **وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**.

والجواب عنه أنّ اللّه تعالىٰ لا يأخذ أحداً بذنب غيره إلاّ أن يكون راضياً به أو ساكتاً عنه و ذلك لأنّ النّاس إذا تظاهروا بالمنكر فمِن الفرض علىٰ كلّ من رآه أن يغيّره فإذا سكت عليه وكلّهم عاص هذا بفعله و هذا برضاه و قد جعل اللّه في حكمه و حكمته الرّاضي بمنزلة العامل لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من رضي بفعل قومٍ فهو منهم و عليه فلا يؤخذ أحد بذنب غيره بل يؤخذ بذنبه الّذي دلّ عليه سكوته و رضاه بفعله و هو عين العدل.

ثانيهما: أنّهم إختلفوا في دخول النّون في **لَا تُصِيبَنَّ** فقال الفّراء دخلت النّون علىٰ الفعل لما فيه من معنىٰ الجزاء و قيل لأنّه خَرج مخرج القسم و النّون لا تدخل إلاّ علىٰ فعل النّهي.

و جواب القسم فعلىٰ قول الفرّاء هو بمنزلة قولك، إنزَل عن الدّابة لا تطرحنّك فهو جواب الأمر بلفظ النّهي أي أن تنزل عنها لا تطرحنّك و قال المبرّد أنّه نهيٌ بعد أمر و المعنىٰ النّهي للظّالمين أي لا تقربّن الظّلم.

و قال الجرجاني أنّه نهي في موضع وصف النّكرة و تأويله الأخبار و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة.

وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَيكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

إختلفوا في المخاطبين بها فقال قوم نزلت في المهاجرين و هم المخاطبون بها قبل الهجرة و فى إبتداء الإسلام فأنّهم كانوا بمكّة قليلي العدد مقهورين فيها

١- البقرة = ٢٨٦

يخافون أن يسلبهم المشركون، و قيل نزلت عقيب بَدر لقلّة عددهم فيها بالنّسبة الىٰ أعداءهم.

و قيل الخطاب لكلّ العرب من المهاجرين والأنصار و هو الحقّ بالإتّباع إذ لا دليل علىٰ الخُصوص فيحمل اللّفظ علىٰ العُموم كما هو مقتضى القاعدة فالمعنى إذكروا يا معشر العرب و الذِّكر هو إحضار المعنى في النَّفس و هو ضدّ السَّهو.

إذ أنتم قليلون، من حيث العدد **مُسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ** و الإستضعاف طلب ضعف الشّئ بتهوين حاله و الضّعف خلاف القوّة **تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ** أي كنتم خائفين من أن ينال منكم العدُّو و التَّخطف الأخذ بسرعة إنتزاع و المراد بالنّاس، الرّوم، و فارس،**فَآوٰيكُمْ** اللّه أي جعل لكم مأوىٰ حريزاً ترجعون اليه و تسكنون فيه، بنصرة، الباء للسَّببية أي بسبب نصر اللّه و تأييده، **وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**.

و محصّل الكلام في الآية هو أنّ اللّه تعالى قد منَّ على العرب إذ أخرجهم من الإستضعاف في الأرض و نصرهم و أيدَّهم و رزقهم من المأكولات و الملبوسات ما لم تقدروا على الوصول اليها قبل الإسلام و يكشف عن هذه الحقيقة ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة حيث قال عليه السلام:

اِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله وَ لَيسَ اَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَءُ كِتاباً، وَّ لايَدَّعِيَ نُبُوّةً، فَساقَ النّاسَ حَتّىٰ بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَ بَلَّغَهُمْ مَنجاتَهُمْ، فَاسْتَقامَتْ قَناتُهُمْ، وَ اطْمَأَنَّتْ صَفاتُهُمْ[1].

و قال عليه السلام في موضع آخر:

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِى حَيْرَةٍ، وَخابِطُونَ فِى فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتهُم الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجاهِلِيَّةُ الْجَهْلاَءُ، حَيَارىٰ فِى زَلْزَالٍ مِنَ

١- الخطبة ٣٣

الأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صلّى الله عليه و آله فِى النَّصِحَةِ، وَمَضىٰ عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ[1].

و قال عليه السلام:

اِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم

نَذِيراً لِلْعٰالَمِينَ، وَاَمِيناً عَلَى التَّنزِيلِ وَاَنتُم مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلىٰ شَرّ دِينٍ وَشَرّ دٰارٍ مُنيخوُنَ بَيْنَ حِجٰارَةٍ خُشْنٍ وَحَيّٰاتٍ صُمٍّ تَشْربُونَ الكَدِرَ، وَتَاكُلُونَ الْجَشْبَ وَتَسفِكوُنَ دِمٰائَكُمْ وَتَقْطَعوُنَ اَرْحٰامَكُمْ اَلاَصْنٰامُ فِيكُمْ مَنصوُبَةٌ وَالاٰثٰامُ بِكُمْ مَعْصوُبَةٌ مِنْهٰا[2] انتهىٰ.

و قالت الصّديقة الطّاهرة عليها السلام بضعة الرّسول في خطبتها الّتي أوردها في مسجد الرّسول لإحقاق حقّها و إتمام الحجّة علىٰ المهاجر و الأنصار قالت:

فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ صادِعاً بِالنِّذارَةِ، مائِلاً عَن مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكينَ، ضارِباً ثَبَجَهُمْ، آخِذاً بِأكظامِهِمْ، داعِياً إلى سَبيلِ رَبّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ، يُكْسِرُ الاَصْنامَ وَ يَنْكُثُ الْهامَ، حَتّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلُّوا الدُّبُرَ، حَتّى تَفَرّىٰ اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأسْفَرَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَ نَطَقَ زَعِيمُ الدّينِ، وَ خَرِسَتْ شَقاشِقُ الشّياطِينِ، وَ طاحَ وَ شِيظُ النِّفاقِ، وَأنْحَلَّتْ عُقَدُ الكُفْرِ وَ الشِّقاقِ، وَ فُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الإخْلاصِ فِى نَفَر مِنَ الْبَيضِ الخِماصِ، **(وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّار)**[1] مُذْقَةَ الشّارِبِ، وَ نُهْزَةَ الطامِعِ، وَ قُبسَةَ العَجْلانِ، وَ مَوْطِىء اَلأَقْدامِ، تَشْرِبُونَ الطَّرْقَ، وَ تَقْتاتُونَ الْوَرَقَ، أذِلَّةً خاسِئِينَ، تَخافُونَ أنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ مِنْ حَولِكُمْ.

فَأنْقَذَكُمُ اللّهِ تَبارَكَ وَ تَعالى بِمُحَمَّدٍ صلّى الله عليه و آله و سلّم انتهىٰ.

۱- خ ۹۵ ۲- خ ۲۶

۱- آل عمران = ۱۰۳.

موضع الحاجة من كلامهاعليهاالسلام و من أراد الإطّلاع علىٰ شرح هذه الكلمات فعليه بشرحنا على نهج البلاغة و شرحنا على الخطبة المشهورة بخطبة فدك.

و المقصود أنّ العرب كانت قبل الإسلام من أذلّ الأقوام و أخسَّهم، و أرذَّلهم و أنّما و صلوا الىٰ ما و صلوا من النَّعيم ببركة الإسلام و هذا ممّا لا كلام فيه الكلام في شكر المنعم الّذي ثبت وجوبه عقلاً و شرعاً فقوله تعالىٰ: **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ليس معناه التَّرجي في كلام اللّه تعالىٰ كما هو معناه في سائر الموارد و ذلك لمّا مرّ منّا أنّ هذه الكلمة (لعَل) وأن كانت في أصل اللّغة بمعنى التَّرجي إلاّ أنّها في كلام اللّه تستعمل بمعنى (كَي) أي لكي تشكرون و الشُكّر من العبد واجب في مقابل النّعمة عقلاً و شرعاً، لأ انّ اللّه تعالى محتاج اليه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا لُقْمٰانَ اَلْحِكْمَةَ أَنِ اَشْكُرْ لِلّٰهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**[2] و العقل أيضاً يحُكم به.

يٰآ أَيُّهَا اَلَّذِينَ اٰمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ وَ تَخُونُوٓا أَمٰانٰاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

الخِيانة بكسر الخاء مصدر، **خانَ**، يقال **خانَ يخُون خَوناً** و **خيانةً** فهي ضدّ الأمانة فالخيانة مخالفة الحقّ بنقض العهد في السِّر قيل هي و النّفاق واحد و الفرق بينهما بالإعتبار.

فالخيانة تقال إعتباراً بالعهد و الأمانة و النّفاق يقال إعتبارٌ بالدّين ثمّ يتداخلان، خاطب اللّه المؤمنين و قال لهم لا تخونوا اللّه و الرَّسول و أماناتكم و ذلك لأنّ، **تَخُونُوا** موضعه الجزم بتقدير، لا، أي و لا تخونوا أماناتكم.

۱- لقمان = ۱۲ ۲- النّمل = ۴۰

قال المفسّرون و المعنى لا تخونوا مال اللّه الّذي جعله لعباده فلا يخن بعضكم بعضاً فيما أئتمنه عليه.

و قال الحسن و السّدي لا تخونوه كما صنع المنافقون.

و قال الجبائي نهاهم أن يخونوا الغنائم.

و قال إبن زيد الأمانة هاهنا الدّين نزلت في بعض المنافقين.

و قال صاحب الكشّاف و المعنى **لَا تَخُونُوا اللَّهَ** بأن تعطلوا فرائضه و رسوله بأن لا تستنّوا به و أماناتكم فيما بينكم بأن لا تحفظوها و أنتم تعلمون، تبعة ذلك و وباله.

و أمّا سبب نزول الآية فذهب أكثر العّامة أنّها نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم الى بني قريظة لمّا حاصرهم وكان أهله و ولده فيهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى لنا أتنزلنا على حكم سعد بن معاذ فينا فأشار أبو لبابة الىٰ حلقه أي أنّه الذّبح فلا تفعلوا فكان ذلك منه خيانة لِلّه و رسوله.

و قال السّدي كانوا يسمعون الشّيء من النّبي صلى الله عليه و آله و سلم فيغشّونه و يلقونه الى المشركين فنهاهم اللّه عن ذلك.

و عن جابر أنّ أباسفيان خرج من مكّة فعلم النّبي صلى الله عليه و آله و سلم خروجه و عزم على الذّهاب اليه فكتب اليه رجل من المنافقين أنّ محمّداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل اللّه هذه الآية و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة ونحن نقول لو كان سبب نزول الآية ما ذكروه لا إشكال فيه لكنّه لا يقتضي قصر الآية عليها و ذلك لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب و اذا كان اللّفظ عامّاً يجب حمل الكلام علىٰ العموم و عليه فالمعنى أنّ اللّه تعالىٰ نهى المؤمن عن الخيانة مطلقاً و تخصيص النّهي بالمؤمنين إمّا لمزيد الشّرف و الإعتناء بهم و إمّا لأنّ غيرهم ممّن لم يؤمن باللّه و رسوله لا يليق بالخطاب أمراًكان أو نهياً والوجه فيه واضح لأنّ ترك الخيانة أو حفظ الأمانة من فروع الإيمان فمن لم يؤمن باللّه كيف يقال له لا تخن اللّه مع أنّ الكفر من أعظم مصاديق الخيانة اذا عرفت هذا فنقول:

إمّا خيانة اللّه، فهي تتحقّق بترك العبودّية النّاشئة عن الكفر و الإلحاد فمن كفر باللّه و لم يؤمن به فقد خانه لأنّ التّوحيد و المعرفة أمانة من اللّه مودّعة في فطرة البشر:

قال اللّه تعالىٰ: **فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**[١].

فسِّرت الفطرة بالمعرفة و التّوحيد فالبشر مجبول عليها بحسب الفطرة و من المعلوم أنّ إنكارها خيانة و أن شئت لت التّوحيد أمانة اللّه فمن كفر به فقد خانه، و يحتمل أن يراد بالأمانة دينه و هو الإسلام فمن غيره أو يدّله فقد خان اللّه.

و أمّا خيانة الرّسول، فبالإعراض عن سنّته و عدم قبول قوله و لو في بعض الموارد و التّظاهر بالإيمان و الإسلام نفاقاً و فى رأسها عدم قبوله بالرّسالة واقعاً و أنّما قلنا أنّ هذه الأمور خيانة لأنّ الرّسول أمانة اللّه في خلقه فإنكاره خيانة لِلّه و للرّسول معاً.

إن قلت هذه الأمور كلّها يرجع الى اللّه و داخل في خيانة اللّه لأنّ الرّسول جاء مِن الأحكام مِن قبل اللّه قلت لا يبعد أن يكون المراد من خيانَة الرّسول الظُّلم على أولاده بعد وفاته اذ لا شكّ في كونهم أمانة الرّسول عند المسلمين قال صلى الله عليه وآله وسلم: **أنّي تاركُ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عِترتي الحديث.**

فلو قلنا بأنّ الكتاب أمانة اللّه فالعترة أمانة الرّسول فمن ضيَّعهما فقد خان اللّه ورسوله و عليه فلا يبعد أن تكون الآية إشارة بجميع هذه الأمور فأنّ حَمل الآية علىٰ العموم أولىٰ.

و أمّا الخيانة في حقوق الغير فمصاديقه أكثر من أن تحصى كما أنّ الحثّ على حفظ أمانة الغير أيضاً كذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**[٢].

١- الروم = ٣٠
٢- البقرة = ٢٨٣

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلْجِبَالِ**[۳].

ومن الأخبار:

قال الصّادق عليه السلام: أنّ اللّه عزّ وجلّ لم يبعث نبيّاً إلاّ بصدق الحديث و أداء الأمانة الى البّر والفاجر انتهىٰ.

و قال عليه السلام: لا تغترّوا بصلاتهم و لا بصيامهم فأنّ الرّجل ربّما لهج بالصّلاة و الصّوم حتّىٰ لو تركُوا إستوحش و لكن إختبروهم بصدق الحديث و أداء الأمانة.

و قال عليه السلام: أنّ عليّاً عليه السلام أنّما بلغ ما بلغ عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله بصدق الحديث و أداء الأمانة.

و قال عليه السلام: ثلاث لا عُذر لأحدٍ فيها، أداء الأمانة الى البّر و الفاجر، والوفاء بالعهد الى البّر و الفاجر وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين.

و قال عليه السلام: أهل الأرض مَرحُومُون ما يخافون و أداء الأمانة و عملوا بالحقّ و الأحاديث كثيرة في الباب جدّاً[۴].

فقول اللّه تعالىٰ: **أَمَانَاتِكُمْ** إشارة حفظها و عدم الخيانة فيها و أمّا قوله: **وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** فالواو للحال أي لا تخونوا و الحال أنتم تعلمون قبح الخيانة عقلاً و شرعاً.

و قيل معناه و أنتم تعلمون أنّها أمانة من غير شبهة.

و قيل أنتم تعلمون ما في الخيانة من الذّم و العقاب بخلاف الجهّال، المحتمل أن يكون النّهي قد تعلّق بالمؤمن العالم بالخيانة و ما يترتّب عليها من العقاب و أمّا الجهّال فهم في سعة ما لا يعلمون و اللّه أعلم.

۱- النّساء = ۵۸
۲- المؤمنون = ۸ والمعارج = ۳۲
۳- الأحزاب = ۷۲
۴- جامع السّعادات ج ۲ ص ۱۷۸

وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ

أمر اللّه تعالى المكلّفين أن يعلموا أنّ أموالهم و أولادَهم فتنة و أنّما يمكن معرفة ذلك بالنَّظر و الفكر و المراد بالفتنة هاهنا المِحنة الّتي يظهر بها ما في النّفس من إتّباع الهوىٰ أو تجنّبه قاله بعض المفسّرين.

و قيل المراد بها الإثم و العذاب و قيل المراد بها الإمتحان و كيف كان فالمراد أن لا تفتنوا بأموالكم و أولادكم في دار الدُّنيا و أحفظوا حدود اللّه فيها.

و إعلم أنّ الفِتنة في الأصل علىٰ ما قاله الرّاغب في المفردات هي إدخال الذَّهب النّار لتظهر جودته من رداءته و لذلك استعملت في إدخال الإنسان النّار:

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ**(١) انتهىٰ.

أقُول هذه اللّفظة قد وردت في القرأن علىٰ وجوه:

أحدها: الإمتحان و الإختبار و منه:

قوله تعالىٰ: **حَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ**(٢).

ثانيها: الشَّر و منه:

قوله تعالىٰ: **فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ**(٣).

و المعنىٰ و أن أصابته محنة و شرّ.

ثالثها: الشِّرك و منه:

قوله تعالىٰ: **وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**(٤) أي لا يكون شرك.

وقوله تعالىٰ: **وَ ٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ**(٥).

١- الذاريات = ١٣ ٢- العنكبوت = ٢

٣- الحجّ = ١١ ٤- البقرة = ١٩٣

٥- البقرة = ١٩١

يعني و الشِّرك أعظم عند اللّه من القتل في الشّهر الحرام.

رابعها: الإثم و منه:

قوله تعالىٰ: **أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا**[۱].

خامسها: العذاب و منه:

قوله تعالىٰ: **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا**[۲] أي من بعد ما عُذّبوا في ٱلدّنيا.

قوله تعالىٰ: **فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ**[۳] أي جعل عذاب النّاس في الدُّنيا كعذاب اللّه في الأخرة.

سادسها: القتل و منه:

قوله تعالىٰ: **إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا**[۴] يعني أن يقتلكم.

سابعها: الإحراق و منه:

قوله تعالىٰ: **يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ**[۵] يعني يحرقون بها في الأخرة.

ثامنها: الصَّد والمنع و منه:

قوله تعالىٰ: **وَ ٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ**[۶] يعني و أحذرهم أن يصدّوك.

تاسعها: الضّلالة و منه:

قوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا**[۷] أي و مَن يُرد اللّه ضلالته.

۱- التّوبة = ۴۹
۲- النّحل = ۱۱۰
۳- العنكبوت = ۱۰
۴- النّساء = ۱۰۱
۵- الذّاريات = ۱۳
۶- المائدة = ۴۹
۷- المائدة = ۴۱

عاشرها: الجنون و منه:

قوله تعالىٰ: **فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ،بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ**[١] أي المَجنُون.

حادي عشرها: العبرة و منه:

قوله تعالىٰ: **لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ**[٢] يعني لا تجعلنا عَبرة لهم و قوله: **لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا**[٣] أي عبرةً لهم.

ثاني عشرها: العذر و منه:

قوله تعالىٰ: **ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ**[٤].

أي لم تكن معذرتهم اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالىٰ: **وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** الفِتنة هاهنا الإختبار فقد سمّاهم بها إعتباراً بما ينال الإنسان من إختبارهم كما سمّاهم عدّواً: في قال اللّه تعالى: **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ**[٥].

إعتباراً بما يتولّد منهم و جعلهم زينة

قال اللّه تعالىٰ: **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**[٧].

إعتباراً بأحوال النّاس في تزيُّنهم بهم فعلىٰ الإختبار معنى الكلام أنّكم مختبرون بالأموال و الأولاد في الدّنيا و هذا ممّا لا كلام فيه و معنىٰ الإختبار في الأموال و الأولاد هو مراعاة الجهات الشّرعية و العقليّة في الأموال و الأولاد و عدم مراعاتها

أمّا الأموال فمن جهة تحصيلها و مصرفها و أمّا الأولاد فمن حيث الأداب و الوظائف المقّررة عقلاً و شرعاً.

١- القلم = ٥ و ٦
٢- يُونس = ٨٥
٣- المُمتحنة = ٥
٤- الأنعام = ٢٣
٥- التغابن = ١٤
٦- آل عمران = ١٤
٧- الكهف = ٤٦

و أمّا قوله: **وَ أَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ** فقال بعضهم فيه تنبيهٌ علىٰ أنّ سعادات الأخرة خير من سعادات الدّنيا لأنّها أعظم في الشّرف و أعظم في الفوز و أعظم في المُدّة لأنّها تبقىٰ بقاءً لا نهاية له فهذا هو المراد من وصف اللّه الأجر الّذي عنده بالعظم.

ثمّ قال و يمكن أن يتمسّك بهذه الآية في بيان أنّ الإشتغال بالنّوافل أفضل من الإشتغال بالنّكاح لأنّ الإشتغال بالنّوافل يفيد الأجر العظيم عند اللّه فالإشتغال به خير و الإشتغال بالنّكاح يفيد الولد و يوجب الحاجة الىٰ المال و ذلك فتنة.

و معلوم أنّ ما أفضى الى الأجر العظيم عند اللّه فالإشتغال به خير ممّا أفضى الى الفتنة انتهى كلامه.

أقول أمّا ما ذكره من أنّ سعادات الأخرة خير من سعادات الدّنيا لأنّها أعظم في الشّرف الى أخر ما قال فهو ممّا لا كلام فيه إلاّ أنّ الوصول اليها لا يمكن إلاّ من ناحية الأعمال الصّالحة و الإعتقادات الحسنة في هذه الدّنيا فلو كان المال و الولد ممّا يُفضي اليها فهما الأصل في تحصيل السّعادة في الأخرة و أن كان المال و الولد ممّا يفضي الى العقاب و العذاب فهما محكومان مذمومان فالقول بأنّ سعادات الأخرة خير من سعادات الدّنيا لا نفهم معناه.

و أن شئت قلت السّعادة في الدّارين في الحقيقة واحدة لأنّ أحديٰهما علّة و سبب للأخرى فقول القائل هي خير منها مثل قول القائل المسبّب خير من السَّبب و هو كما ترى لا معنىٰ له.

و أمّا قوله يمكن أنّ يتمسّك بهذه الآية أنّ الإشتغال بالنّوافل أفضل من الإشتغال بالنّكاح ففيه.

أنّ الإشتغال بالنّكاح ممّا أمر به في الشّريعة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ إِمٰائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرٰاءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ**[1].

قال اللّه تعالى: **فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ**[2].

و من السُنّة قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله: من تزَّوج فقد أحرز نصف دِينه.

و قال الصّادق عليه السلام: ركعتان يصلّيهما المتزّوج أفضل من سبعين ركعة يصلّيها أعَزب.

و قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله: ركعتان يصلّيهما متزّوج أفضل من رجلٍ عزب يقوم ليله و يصوم نهاره.

و قال صلّى الله عليه و آله: رُذّال موتاكم العزّاب.

و أمثال ذلك من الأحاديث المنقولة من طرق العامّة و الخاصّة فكيف يمكن القول بأنّ الإشتغال بالنّوافل أفضل من الإشتغال بالنّكاح و أضعف من ذلك ما علَّله بقوله لأنّ الاشتغال بالنّوافل يفيد الأجر العظيم و الإشتغال بالنّكاح يفيد الولد و يوجب الحاجة الىٰ المال و ذلك فتنة.

وجه الضَّعف أنّ الإشتغال بالنّوافل لا يفيد الأجر العظيم بقولٍ مطلق فأنّ الرّجل العزب لا أجر له و لو كان له أجر فالأجر المترتّب على العمل المتزّوج أعظم و أكثر منه في غيره بل في بعض الأخبار أنّ الأرض تلعن العزب اذاكانت عزويته من غير عذرٍ و الحاصل أنّه لا شكّ أنّ الأجر العظيم عند اللّه لا يكون للمشتغل بالنّوافل مطلقاً و ذها واضح مضافاً الى أنّ النّوافل لا عقاب علىٰ تركها و أمّا ترك النّكاح فيترتّب عليه العقاب أن كان من غير عذرٍ.

و أمّا قوله هذا يفضي الىٰ كذا و ذاك يفضي الىٰ كذا، فهو كلام لا طائل تحته بل لا ينبغي أن يصدر من عاقلٍ فضلاً عن عالمٍ و ذلك لأنّ إفضاء العمل الىٰ السّعادة و عدمه لا ربط له بأصل العمل بل هو مربوط بكيفيّة العمل الصّادر من

١- النُّور = ٣٢
٢- النساء = ٣

المكلّف من حيث الإخلاص و مراعاة الشّرائط فيه و لا فرق فيه بين المال و الأولاد و الصّلاة و الصّوم و النّوافل و غيرها فأنّ المكلّف اذا أتى بالنّافلة كما هو حقّه فهو مأجور و هكذا في الواجبات بل الأموال و الأولاد و بالجملة المفضي الىٰ السّعادة ليس نفس العمل كيف إتّفق بل المفضي اليها هو الإتيان به مع شرائطه.

و لا شكّ أنّ مراعاة الشّرائط بيد المكّلف و تحت إختياره و قدرته ففي الحقيقة هو المفضي اليها لا عمله فالمال قد يكون فتنة بمعنى الفساد و قد يكون رحمة و سعادة و هكذا الأولاد.

أن قلت فما معنى قوله: **وَ أَنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ**.

قُلتُ فيه إشارة الىٰ كيفيّة الإستفادة من الأموال و الأولاد أي إن حصلّتم الأموال و الأولاد من طريق المشروع و جعلتم الأموال و الأولاد في طريق رضا الرّب و الشّرع فأعلموا أنّ اللّه يؤجركم أجراً عظيماً فالأجر العظيم في الآية مترتّب علىٰ ما ذكره في صدر الآية و هو الأموال و الأولاد و عليه **فالواو** في قوله **وَ أَنَّ ٱللَّهَ** للعطف أي و أعلموا أنّ اللّه الخ.

و أمّا على مذاق القوم **فالواو** للإستئناف فأقض ما أنت قاض.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

هذا خطاب للمؤمنين وجه التّخصيص ظاهر لأنّ التّقوىٰ أعني بها إمتثال أوامر اللّه و ترك نواهيه تقرّباً اليه لا تحصل إلاّ لمن أمن باللّه و رسوله و اليوم الأخر إعتقاداً و عملاً و مع ذلك ففي الكلام إيماء الىٰ أنّ الإيمان قد يكون مع التّقوىٰ و قد لا يكون فمن زعم أنّهما مترادفان و أنّ أحدهما عين الأخر فقد أخطأ.

أمّا على القول بأنّ الإيمان عبارة عن مجرّد الإعتقاد و لا يشترط في تحقّقه العمل فواضح لأنّ التّقوىٰ عبارة عن فعل الواجبات و ترك المحرّمات فالتّقوى لا تحصل إلاّ في قالب العمل.

و أمّا علىٰ القول بإشتراط العَمَل في تحقّق الإيمان فالفرق أيضاً واضح اذ قصد الإمتثال و التقرّب الىٰ اللّه من شئون التّقوىٰ و كيف كان فقد خاطب اللّه المؤمنين وقال لهم: **إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا** أقوال:

قال ابن زيد يجعل هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحقّ والباطل.

و قال مجاهد معناه يجعل لكم مخرجاً في الدّنيا والأخرة.

و قال السُّدي يجعل لم نجاةً.

و قال الفرّاء يجعل لكم فتحاً ونصراً.

و قال الجبائي يجعل لكم نصراً و عِزّاً و ثواباً و علىٰ أعداءكم خذلاناً و ذلاًّ و عقاباً ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

أقُول ما ذكروه في معنى الفرقان لا بأس به إلاّ أنّه يرجع الىٰ شئ واحد الفرق بين الحقّ و الباطل و قد أستعمل اللّفظ في كثير من الموارد في الكتاب و السنّة إلاّ أنّه في كلّ موردٍ بحسبه، فتارةً يراد به القرآن و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ ٱلتَّوْرٰيٰةَ وَ ٱلْإِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ ٱلْفُرْقَانَ**[1] يعني وأنزَل القرآن.

و تارةً يراد بها الفارق بين الحقّ و الباطل ومنه:

قال اللّه تعالىٰ: **تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**[2] يعني ما يفرق به بين الحقّ والباطل.

و تارةً يراد به النصّرة ومنه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَ ٱلْفُرْقَانَ**[3].

١- آل عمران = ٣ و ٤ ٢- الفرقان = ١
٣- البقرة = ٥٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ**(١).

يعني يوم النُّصرة و تارةً يراد به الخروج عن الضّلالة و الشّبهة و منه قوله: **وبيّناتٍ من الهُدىٰ والفرقان** (٢) و هذه الوجوه المُحتملة في اللّفظ بحسب موارد الإستعمال و أنت ترى أنّ الكلّ يرجع الى ما ذكرناه و لا شكّ أنّ الفرقان بهذا المعنى من أحسن النّعم و أفضلها فمن وصل الىٰ هذا المقام فقد فاز فوزاً عظيماً إذ متابعة الحقّ و ترك الباطل فرعٌ علىٰ معرفتهما فمن لم يفرق بين الحقّ و الباطل كيف يتبع الحقّ و يعمل به و لا يصل العبد الى هذا المقام إلاّ بالعمل الصّالح و ترك المعاصي للّه وحده و هذا هو التّقوى المشار اليها في الآية فظهر معنىٰ قوله: **إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**.

و هذا أعني الفرقان هو أحد الفروع المترتّبة علىٰ التّقوىٰ.

ثانيها: قوله: **وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** تكفير السّيئة سترها و تغطيتها حتّى تصير بمنزلة ما لم يعمل بها فالمعنى أن تتّقوا اللّه يستر و يغطّي عنكم السيّئات كأن لم تعملوا بها و أن شئت قلت معناه حطّ الذُّنوب و قد أشار اللّه تعالى الى هذا في كثير من الموارد:

قال اللّه تعالىٰ: **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بَالَهُمْ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ**(٧).

١- الأنفال = ٤١
٢- البقرة = ١٨٥
٣- محمد = ٢
٤- المائدة = ٦٥
٥- النّساء = ٣١
٦- العنكبوت = ٧
٧- التّغابن = ٩

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ كَفِّرْ عَنّٰا سَيِّآتِنٰا وَ تَوَفَّنٰا مَعَ اَلْأَبْرٰارِ** (١).

والأيات بهذه المضامين كثيرة ومُحصّل الكلام هو أنّ حطّ الذّنوب و تكفير السيّئات ممّا يرغب اليه الكلّ و هو واضح لا خفاء فيه.

ثالثها: قوله: **وَ يَغْفِرْ لَكُمْ** و هو أيضاً مرغّبٌ فيه مندوبٌ اليه عقلاً و شرعاً و من الّذي لا يحتاج الىٰ غفران الرّب:

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنٰا رَبُّنٰا وَيَغْفِرْ لَنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰآ اٰمَنّٰا بِرَبِّنٰا لِيَغْفِرَ لَنٰا خَطٰايٰانٰا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓئَتِي يَوْمَ اَلدِّينِ** (٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا كٰانَ قَوْلَهُمْ إِلّآ أَنْ قٰالُوا رَبَّنٰا اَغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا**(٥).

و الأيات في باب المغفرة كثيرة و نحن أيضاً نقول اللّهم أغفر لنا وكفّر عنّا سيّئاتنا و توَّفنا مع الأبرار آمين.

ثمّ قال تعالىٰ في آخر الكلام:**وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِيمِ** أي لا تَتعجبوا ممّا وعدناه لكم من إعطاء الفرقان وتكفير السّيئات و غفران الذُّنوب لأنّ فضله تعالى أعظم من ذلك أو أنّه الّذي يملك الفضل العظيم فينبغي أن يطلب من جهته.

أن قلت كيف يجوز الشّرط في إخبار اللّه تعالىٰ و المفروض أنّه عالمٌ بعواقب الأمور و من المعلوم أنّ منشأ الشّرط الشكّ و الجهل بوقوع المشروط و عدم وقوعه.

قُلت قد يجاب عنه تارةً بأنّ الشّرط مستلزم للجزاء و هذا القدر مسلّم لا شكّ فيه.

١- آل عمران = ١٩٣
٢- الأعراف = ١٤٩
٣- طه = ٧٣
٤- الشّعراء = ٨٢
٥- آل عمران = ١٤٧

و أمّا أنّ وقوع الشّرط مشكوك فيه أو معلوم فذلك غير مستفادٍ من هذا اللّفظ.

و أخرىٰ بأنّه سلّمنا أنّه يفيد الشكّ إلاّ أنّه تعالىٰ يعامل العباد في الجزاء معاملة الشّاك و عليه يخرج قوله تعالىٰ: **وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّىٰ نَعْلَمَ اَلْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ اَلصّابِرِينَ**[1].

والحقّ في الجواب أنّ الشّرط من المتكلّم العالم بعواقب الأمور يفيد التّحريص والتّرغيب الىٰ العمل في المخاطب و ما ورد في القرآن من هذا القبيل.

نعم في غيره تعالىٰ قد يفيد الشكّ بل هو الغالب فيه لجهل الإنسان بعواقِب الأمور.

و أنّما قلنا غالباً لأنّه في الإنسان أيضاً قد لا يفيد الشكّ و الجهل ألا ترى أنّ الطّبيب إذا قال للمريض إذا شربت الدّواء تصّح ليس مفاده جهل الطّبيب بل هو عالم بأنّ هذا الدَّواء يكفيه إلاّ أنّه أي الطّبيب يحرّص المريض و يرغّبه على الشَّرب بهذا الكلام و نظائره في عرف العقلاء كثيرة.

فالقول بأنّ الشّرط يقتضي الشكّ أو الجهل في المُخبر بقولٍ مطلق لا معنى له و إذا كان هذا الأمر ممكناً في العبد الجاهل فما ظنّك بربّ العالمين الّذي لا يعلم الغيب إلاّ هو و لا يخفىٰ عليه شئ و هو بكلّ شئٍ عليم.

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلْماكِرِينَ

المَكر في الأصل صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ فإن يتحرّىٰ الماكر بذلك فعلاً جميلاً فهو ممدُوحٌ و إن يتحرّى به فعلاً قبيحاً فهو مذموم فالمكر من اللّه في حقّ العِباد لا يكون إلاّ ممدوحاً لتنزّهه عن القبائح و المتنزّه عنها لا يَفعل

١- محمد = ٣١

القبيح و لا يريد من غيره و أمّا المكر من غيره تعالىٰ فقد يكون ممدوحاً و قد يكون مذموماً و هو الأكثر و الملاك في المدح و الذّم ما ذكرناه إذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** من المكر المذموم لصدوره عن الكافر في حقّ الرّسول ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه قيل أي ليثبّتوك في الوثاق، أو ليثبّتوك في حبسٍ، أو يقتلوك أو يخرجوك، من مكّة.

قد أجمع المفسّرون على نزول الآية أنّ الكفّار إجتمعوا في دار النَّدوة و تشاوروا في أمر رسول اللّه فقال عُمر بن هشام قيّدوه تتربّصون به ريب المنون.

و قال أبو البختري إخرجوه عنكم تستريحوا من آذاه لكم و قال أبو جهل ما هذا برأيي و لكن إقتلوه بأن يجتمع عليه من كلّ بطنٍ رجل فيضربونه بأسيافهم ضربة رجلٍ واحدٍ فترضى حينئذٍ بنو هاشم بالدّية فصوّب إبليس هذا الرّأي و خطّأ الأوّلين و زيّفهما فأوحى اللّه تعالى الى نبّيه بذلك فأمره بالخروج فخرج الى الغار وبات عليّ عليه السلام تلك اللّيلة على فراشه الى أن أصبح وكانوا يحرسونه الىٰ الصّباح و لّما طلع الفجر ثاروا إليه فإذا عليّ عليه السلام قالوا له أين صاحبك قال لا أدري فتركوه و خرجوا في أثره هذا كلّ الكفّار في حّق النّبي و أمّا مكر اللّه في قوله: **وَ يَمْكُرُ ٱللَّهُ وَ ٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ** الّذي نُعّبر عنه بالممدوح فقد ظهر وجهه ممّا ذكرناه وهو أنّ اللّه أخبر رسوله بمكرهم فأمر بالخروج من مكّة، فلم يقدروا علىٰ شيئ **وَ ٱللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**.

يريدون ليطفئوا نُور بأفواههم واللّه متمّ نوره ولو كره الكافرون.

و قال بعض المحقّقين من مكر اللّه إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدّنيا و لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: **من وُسع عليه دنياه ولم يعلم أنّه مكر بـه فهو مخدوع عن عقله انتهىٰ.**

و علىٰ ما ذكرناه في معنىٰ المكر في حقّ اللّه و فى حقّ الأدّميين يحمل قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنا مَكْرًا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ ٱللّٰهُ وَ ٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْماكِرِينَ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّٰهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُون**(٤).

و الأيات كثيرة وبعد الوقوف علىٰ ما ذكرناه في معنى المكر في الموردين فلا خفاء فيه فلا يقال كيف مكر اللّه.

■

١- النّمل = ٥٠
٢- أل عمران = ٥٤
٣- الرّعد = ٤٢
٤- النّحل = ١٢٧

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

◁ اللّغة

أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ، أساطِير بفتح الألف وكسر الطّاء جمع أُسطُورة بضمّ الألف و الطّاء و سكون الواو ما سطر كذباً و ميناً و هذا قول المبّرد و الزّجاج و قيل هو جمع أسطُر بفتح الألف و سكون السّين و ضمّ الطّاء و أسطُر جمع سَطر بفتح السّين و سكون الطّاء و عليه فهي أي الأساطير صيغة منتهىٰ الجموع و زيدت الياء لِلمَّد و على أيّ التّقديرين لا خلاف في معناها و هو القصص المكذوبة التّي لا واقع لها.

يَصُدُّونَ، الصَّد المنع أي يمنعون.

مُكَآءً، مكا الطّير يَمكُو مُكاءً، صفر و المكاء طائر و قيل المكاء صفير كصفير المكاء و هو طائر يكون بالحجاز له صفير.

وَ تَصْدِيَةً، التَّصدية التَّصفيق يقال صَدىٰ يَصدىٰ تصديةً إذا صفق بيديه و منه الصّدي صوت الجبل.

فَيَرْكُمَهُ معناه تراكب بعضه فوق بعضٍ كالرَّمل الرّكام و هو المتراكب يقال رَكَمه يَركمُه رَكماً وترَاكم تراكُماً والباقي واضح.

◁ الإعراب

هُوَ ٱلْحَقَّ القراة المشهورة بالنّصب ويُقرأ بالرّفع علىٰ أنّ، هو، مبتدأ و الحقّ، خبره و الجملة خبر كان مِنْ عِنْدِكَ حالٌ من معنىٰ الحقّ أي الثّابت من عندك مِنَ ٱلسَّمَآءِ متعلّق بأمطر، و يجوز أن يكون صفة لحجارة أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ أي في أن لا يعذّبهم فهو في موضع نصب أو جرّ علىٰ الإختلاف وَ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ الجمهور علىٰ رفع الصّلاة و نصب المكاء و هو ظاهر و قرأ الأعمش بالعكس و هى ضعيفة لِيَمِيزَ بالتّشدّيد و التّخفيف أشهر و عليه المصاحف وبَعْضَهُ بدل من الخبيث بدل البعض أي بعض الخبيث على بعض نِعم المَولىٰ المخصوص بالمدح محذوف و التّقدير نعم المولىٰ اللّه سبحانه.

◁ التّفسير

وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ

قيل قائل هذا الكلام هو النّضر بن الحرث و إتّبعه قائلون كثيرون و كان من مردة قريش سافر الىٰ فارس و الحيرة و سمع من قِصص الرّهبان و الأناجيل و أخبار رستم و إسفند يار و يرى اليهود و النّصارىٰ يركعون و يسجدون، قتله رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم صبراً بالصّفراء بالأثيل فيها فيصرفه من بدر و معنىٰ قد سمعنا اى قد سمعنا و لا نطيع أو قد سمعنا منك هذا.

و قولهم لو نشاء أي لو نشاء القول لقلنا مثل هذا الذّي تتلوه و ذكر على معنى المتلو و هذا القول منهم على سبيل البهت و المصادقة و ليس ذلك في إستطاعتهم فقد طولبوا بسورةٍ منه فعجزوا و كان أصعب شئٍ اليهم الغلبة و خصوصاً في باب البيان، و قيل أنّ اللّه تعالىٰ أخبر في الآية عن عناد الكفّار و مباهنتهم للحقّ بأنّهم بلّغوا في ذلك الى رفع الحقّ بما ليس فيه شبهة و هو أنّه اذا تتلى عليهم أياته يعني القرأن قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا، و قد أبان التّحدي كذبهم في ذلك و تخرصّهم فيه بما ظهر من عجزهم عن سورةٍ مثله.

أقُول معنى الآية ظاهر لا خفاء فيه وحاصل الكلام في هو أنّ الكفّار المعاندين لمّا رأوا القصص في القرأن قالوا بهذه المقالة أعني بها قولهم: **إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ** أي ليس القرأن إلاّ هذه و لم يعلموا أن مقصص القرأن ليست من سنخ الأساطير التّي لا واقع لها بل هي مواعظ و حكم لمن يتدبّر فيها مضافاً الىٰ فصاحة القرأن و بلاغته و هذا معلوم لا كلام فيه إلاّ أنّ المعانِد المستهزء يقول كذِباً و إفتراءً بما لا حقيقة له و لا دواء لداء العناد إلاّ الموت و هذا الكلام لا يختصّ بهؤلاء الكفّار في صدر الإسلام بل قد يوجد منهم في كلّ عصرٍ و زمانٍ و في زماننا هذا أيضاً نجد منهم من يقول بأفظع و أشنع ممّا قالوه فيما مضىٰ و لا يخفىٰ على أحدٍ أنّ ما قالوه أوّلاً و ثانياً و ثالثاً

الىٰ زماننا هذا لم يكن إلاّ مجرّد إنكارٍ للحقّ و لم يقيموا على ما إدعوه دليلاً ولم يأتوا بمثل القرأن أصلاً و هو واضح.

وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

أنظر الىٰ عنادهم و لجاجهم إذْ قالوا، أي هؤلاء الكفّار، اللّهم أن كان هذا، أي القرأن، هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً الخ...

قيل أنّ الطّالب لذلك كان النّضر بن الحارث بن كلدة فقتله النّبي يوم بدر صبراً.

فقال يا رسول اللّه من للصبيّة، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم النّار.

و قيل القاتل هو عقبة بن أبي معيط و المطعم بن عدي قتل هؤلاء صبراً من جملة من أسروا في النّضر نزل قوله تعالىٰ: **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**(١).

و قال بعض المفسّرين من العّامة القائل هو أبو جهل لما رواه البخاري و مُسلم.

و هذا القول لا يعتدّ به و فى قولهم من السّماء إشارة الىٰ نقطةٍ خفّية مقابلتهم مجيئ الأمطار من الجهة التّي ذكر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه يأتيه الوحي من جهتها أي أنّك يا محمّد تذكر أنّه يأتيك الوحي من السّماء فأتنا بعذاب من الجهة الّتي يأتيك منها الوحي و أنّما قلنا ذلك لأنّه كان يحسن أن يعبّر عن إرسال الحجارة عليهم من غير جهة السّماء بقولهم فأمطر علينا حجارةً وكيف كان قالوا ذلك علىٰ سبيل الإعتقاد بأنّ ما أتىٰ به ليس بحقٍّ و قيل علىٰ سبيل الحسد و العناد مع علمهم أنّه حقّ.

و قيل أنّها نزلت لمّا قال رسول اللّه لقريش أنّ اللّه بعثني أن أقتل جميع ملوك الدّنيا و أجرّ الملك اليكم فأجيبوني الىٰ ما أدعوكم اليه تملكوا بها العرب

١- المعارج = ١

و تدين لكم بها العجم و تكونوا بها ملوكاً في الجنّة فقال أبو جهل اللّهم أن كان هذا، الّذي يقول محمّد، هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة الآية حسداً لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ثمّ قال كنّا و بني هاشم كفرسي رهان نحمل إذا حملوا و نطعن إذا طعنوا و نوقد إذا وقدوا فلّما إستوىٰ بنا وبهم الرّكب قال قائلٌ منهم منّا نبّي، لا نرضىٰ بذلك أن يكون في بني هاشم و لا يكون في بني مخزوم.

و قيل في نزولها، بينا رسول اللّه جالساً و ذكر كلاماً طويلاً في فضل علّي الىٰ أن قال فغضب الحارث بن عمرو الفهري فقال اللّهم أن كان هذا هو الحقّ الآية فأنزل اللّه تعالىٰ عليه مقالة الحارث و نزلت هذه الأية: **وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ**.

و قيل لمّا نصب رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم علّياً يوم غدير خُمّ فقال: **من كُنتُ مولاه فهذا علّيٌ مولاه** طار ذلك في البلاد فقدم على النّبي النّعمان بن الحارث الفهري فقال أمرتنا من اللّه أن نشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّك رسول اللّه وأمرتّنا بالجهاد و الحجّ والصّوم و الصّلاة و الزّكاة فقبلناها ثمّ لم ترضِ حتّىٰ نصبت هذا الغلام فقلت من كنت مولاه فعلّي مولاه فهذا شئ منك أو أمرٌ من عند اللّه فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم و اللّه الّذي لا إله إلاّ هو هذا من اللّه فولّىٰ النّعمان بن الحارث و هو يقول: **اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ اَلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنٰا حِجٰارَةً** فرماه اللّه بحجر علىٰ رأسه فقتله انتهىٰ.

أقول والّذي يقوّي من بين هذه الأقوال في النظّر هو القول الأخير و هو أنّها نزلت فيمن أنكَر الولاية و قال لرسول اللّه ما قال علىٰ ما مرّ و ذلك لأنّ كلمة، هذا، يشار بها الىٰ الشّئ المشخّص الحاضر.

و أمّا مسألة الأحكام والدّين والنّبوة فلا تناسب هذه المقالة واللّه أعلم.

وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ نبيّه على وجه الإمتنان عليه و إعلامه منزلته عنده أنّه تعالى لا يعذّب هؤلاء الكفّار بهذا العذاب الّذي إقترحوه على وجه الفساد للحقّ و أنت ترى يا محمّد فيهم موجود و هكذا لا يعذّبهم و هم يستغفرون و يقولون يا ربّ غفرانك و لكن يعذّبهم على شركهم في الأخرة و فى هذا الكلام إشارة بل دلالة على أنّهم أي الكفّار كانوا مستحقّين للعذاب الّذي طلبوه منه تعالىٰ و لكن اللّه تعالىٰ لم يعذّبهم لوجود الرّسول فيهم ولأنّهم كلّهم أو بعضهم كانوا من المستغفرين.

فقد روي أنّ أبا جهل قال بعد قوله: **إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ اَلْحَقَّ** غفرانك اللّهم، فأنزل اللّه في ذلك **وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ** حين قال غُفرانك اللّهم و هذا هو المراد بقوله و هم يستغفرون، و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ أخرّ العذاب عنهم في الدّنيا مع كونهم مستحقّين له لأجل هذين الأمانين أعني بهما رسول اللّه و الإستغفار.

روي في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله إنّ لكم في حياتي خيراً و فى مَماتي خيراً قال، فقيل يا رسول اللّه إمّا حياتك فقد علمنا فما لنا في وفاتك فقال صلى الله عليه و آله أمّا في حياتي فأنّ اللّه عزّ وجلّ يقول: وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ. و أمّا في مَماتي فتعرض عَلّى أعمالكم فأستغفرلكم انتهىٰ.

أقول يظهر من هذه الرّواية و أمثالها أنّ المراد بقوله: **وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** جميع المسلمين ومنهم الرّسول و لكن ظاهر الآية يدّل علىٰ وجود الإستغفار في الكفّار و ذلك لأنّ قوله: **وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** أي هؤلاء الكفّار، اللّهم إلاّ أن يقال بأنّ المراد بقوله: **وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**.

غير هؤلاء الكفّار الّذين طلبوا العذاب بل المراد بهم من بقى من هؤلاء من المؤمنين في مكّة بعد خروج المعاندين منها.

فقد روي عن إبن عبّاس و عطيّة و أبي مالك وغيرهم أنّه لمّا خرج النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكّة بقى فيها بقيّة من المؤمنين يستغفرون، و عليه فقوله تعالىٰ: **وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** أي هؤلاء المؤمنين الّذين بقوا في مكّة و هذا ممّا لا إشكال فيه و لكنّه أيضاً خلاف ظاهر الآية إذ لو كان كذلك لينبغي أن يقال و بعضهم أو منهم من يستغفر و لم يقل هذا بل قال: **وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**.

و قال بعضهم أراد بذلك أنّه تعالىٰ لا يعذّبهم بعذاب الإستئصال في الدّنيا و هم يقولون يا ربّ غفرانك و لكن يعذّبهم علىٰ شركهم في الأخرة و هذا أوفق بنظم الكلام لأنّهم كانوا يقولون يا ربّ غفرانك فعبّر اللّه تعالىٰ عنه بالإستغفار و أفاد أنّه أمانٌ لهم من العذاب كما أنّ وجود الرّسول فيهم أمان لهم منه ففي نهج البلاغة حكى عن أمير المؤمنين عليه السلام أبو جعفر محمّد ين علي عليه السلام أنّه قال: **كان في الأرض أمانان من عذاب اللّه و قد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به.**

أمّا الأمان الّذي رفع فهو رسول اللّه.

و أمّا الباقي فالإستغفار قال اللّه تعالىٰ: وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ[1].

و قال عليه السلام: في موضع آخر عجبت لمن يقنط و معه الإستغفار.

و عن كتاب ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول، الإستغفار لكم حصنٌ حصين من العذاب فمضىٰ أكبر الحِصنين و بقى الإستغفار فأكثروا منه فأنّه محاة للذّنوب.

قال اللّه عزّ وجلّ: وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

١- قُصار الحِكَم ٨٨

هذا ما قيل أو يقال في تفسير الآية و أنت ترى إذا تأمّلت في التّفاسير ترىٰ المفسّرين إعتمدوا في تفسير الآية على شخص الرّسول من حيث كونه أماناً لأهل الأرض في حياته.

و لنا في المقام كلام لم يتّنبهوا له أو لم يذكروه و هو أنّ الرّسول جعله اللّه أماناً لمقام خلافته و إمامته على الخلق و أنّه حجّة من اللّه علىٰ خلقه و واسطة في الفيض بين الخالق و المخلوق و أمثال ذلك من العناوين الزّائدة علىٰ وجوده و شخصه مع قطع النظّر عنها و اذا كان كذلك فهذا المقام أعني به كونه أماناً، ثابت لمن كان بعده من أوصياءه و خلفاءه الّذين أذهب اللّه عنهم الرَّجس و طهّرهم تطهيراً و ذلك لوجود الملاك فيهم من حيث الخلافة والإمامة وكونهم حجج اللّه على خلقه بعد الرّسول و أنّما قلنا بذلك لوجهين.

أحدهما: عدم القول بالفصل فكلّما ثبت للرّسول بإستثناء مقام النبوّة ثابت لأوصياءه و من المعلوم أنّ كونه صلّى الله عليه وآله وسلّم أماناً ليس لأجل نبوّته فحسب بل لأجل أنّه كان حجّة اللّه علىٰ خلقه و لا فرق في ذلك بينه و بين أوصياءه لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **يا علّي أنتَ منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي**، خرجت النبوّة بحكم الإستثناء وبقي الباقي تحت الحكم.

ثانيهما: قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **أنا و علّيٌ من نُورٍ واحدٍ**، و مقتضىٰ الوحدة هو ثبوت ما لأحدهما لِلأخر خرجت النبوّة وبقي الباقي فكلّما ثبت للرّسول ثبت لوصيّه و أوصياءه و من جملة ما ثَبت له صلّى الله عليه وآله وسلّم كونه أماناً لأهل الأرض مادام حيّاً فهذا ثابت لأوصياءه من بعده و هو المطلوب.

و هذا الّذي ذكرناه لا ينافي كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: **كان في الأرض أمانان من عذاب اللّه فرفع أحدهما فدُونكم الأخر**، و ذلك لأنّه لا شكّ أنّ الأمان، الأوّل أعني به رسول اللّه قد رفع بالموت و بقي الأخر أعني به الإستغفار.

و هذا لا يدّل علىٰ أنّ الإستغفار بعد رسول اللّه أمانٌ بمعنىٰ أنّه لا أمان غيره بل الكلام يدّل على كونه أماناً بعده و هو لا ينافي وجود غيره أيضاً كما أنّ رفع حدهما أعني به الرّسول لا يدّل على رفع الأمان الأوّل بالكلّية الىٰ يوم القيامة بل يدّل على رفع الأوّل و هو ممّا لا خلاف فيه فأنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قد مات و أمّا الحجّة على الخلق لم تمت لقولهم عليه السلام لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها، فلو لم تكن الحجّة أماناً فما معنىٰ الحديث.

و قد ورد في شأن الحُجّة صاحب العصر و الزّمان، بيمنه رزق الوري و بوجوده ثبتت الأرض والسّماء، و لا نعني بالأمان إلاّ هذا و محصّل الكلام هو أنّ الآية قد أثبتت الأمان لرسول اللّه فى حياته و لم تنفيه لمن بعده من الأوصياء.

و من المعلوم أنّ إثبات الشّئ لا ينفىٰ ما عداه و مجرّد كون الخطاب للرّسول لا يدّل علىٰ الإنحصار فانّ القرأن أنزل عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم فلا محالة يكون الخطاب اليه كما ترى في كثير من الأيات و يؤيّده ما إستظهرناه ما رواه في كتاب علل الشّرائع بأسناده عن جابر بن يزيد الجعفي قال:

قلتُ لأبي جعفر محمّد بن علّي الباقر عليه السلام لأيّ شئٍ يحتاج الىٰ النّبي و الإمام فقال عليه السلام: لبقاء العالم على صلاحه و ذلكَ أنّ اللّه عزّ وجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض اذا كان فيها نبّي أو إمام قال اللّه عزّ وجلّ: وَ مٰا كٰانَ ٱللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ

و قال النّبي صلّى الله عليه وآله النّجوم أمان لأهل السّماء و أهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهبت النّجوم أتىٰ أهل السّماء ما يكرهون و اذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون، يعني بأهل بيته الأئمّة عليهم السّلام الذّين قرن اللّه عزّ وجلّ طاعتهم بطاعته انتهىٰ[1].

١- تفسير نور الثّقلين ج ٢ ص ١٥٧

أقول هذا الحديث كما ترىٰ صريح في المدّعى و دونه خرط القتاد.

وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ يُعَذِّبَهُمُ اَللّٰهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ وَ مٰا كٰانُوا أَوْلِيٰاءَهُ إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ اَلْمُتَّقُونَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ

كلمة، ما، خرجت مخرج الإستفهام و معناه إيجاب العذاب و المعنى لم لا يعذّبهم فعلهم أعني به الصَّد و المنع عن المسجد الحرام.

و قيل الصَّد هنا بمعنىٰ الإعراض أي و هم يعرضون عن المسجد الحرامالصَّد هو الإعراض عن الشّئ من غير حيلولة بينه و بين غيره و المراد هنا المَنع **وَ مٰا كٰانُوا أَوْلِيٰاءَهُ** جمع ولّي و هو الذّي يستحقّ القيام بأمر الشّئ و يكون أحقّ به من غيره فعلىٰ هذا، الّله تعالىٰ ولّي المؤمنين دون المشركين، قال الّله تعالىٰ ذلك لأنّ المشركين قالوا نحن أولياء المسجد فردّ الّله ذلك عليهم و قال، و ما كانوا أولياءه.

ثمّ أخبر الّله تعالىٰ انّ أولياء المسجد هم المتّقون فقال: **إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ اَلْمُتَّقُونَ** كلمة، إن بمعنىٰ لَيسَ أي ليس أولياء المسجد إلاّ المتَّقون.

و قيل ليس أولياء الّله إلاّ المتّقون، والأوّل أظهر و أوفق بنظم الكلام ثمّ أنّهم إختلفوا في هذا التّعذيب فقال قوم هو الأوّل أعني به إستئصالهم جميعاً إلاّ أنّه لم يقع لما علم من إسلام بعضهم و إسلام بعض ذراريهم.

الثّاني: قتل بعضهم يوم بَدر، و قال ابن عبّاس الأوّل عذاب الدّنيا.

الثّاني: عذاب الأخرة فالمعنىٰ و ما كان الّله تعالىٰ معذّب المشركين لإستغفارهم في الدّنيا و ما لهم أن لا يعذّبهم الّله في الأخرة و متعلّق، لا يعلمون، محذوف و التّقدير لا يعلمون أنّهم ليسوا أولياءه بل يظنّون أنّهم أولياء قوله: **أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ** إشارة الىٰ وجود قليل من العلماء بأنّهم ليسوا أولياء البيت، فيهم و هو كذلك.

وَ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

بمعنى ليس و هذه الآية كأنّها جواب عن سؤالٍ مقدّر و هو أن يقال كيف يعذّبهم اللّه و أنّهم يصّلون عند البيت فقال تعالى في الجواب و ماكان صلاتهم أي ليس صلاتهم عند البيت بصلاةٍ واقعاً بل هي منهم ليست إلاّ مكاءً و تصدية أي التّصفير و التّصفيق و ذلك لأنّ الكفّار كانوا يطوفون حول البيت عراة رجالهم و نساءهم مشبّكين بين أصابعهم يصفّرون و يصفّقون، ذلك اذا قرأ الرّسول يخلطون عليه في صلاته ونظير هذا المعنىٰ قولهم كانت عقوبتك عزلتك أي القائم مقام العقوبة العزل كما قال الشّاعر:

اذا هُم سوداً أو مدحرجة سمراً أقام مقام العطاء القيود والسّياط

كما أقاموا مقام الصّلاة المكاء و التّصدية.

و قال إبن عبّاس كان ذلك عبادة في ظنّهم، و مكاء بضمّ الميم مصدر مكا يمكوا و جاء فعال و يكثر فعال في الأصوات كالصُّراخ، قال الشّاعر:

وحليل غانيةٍ تركت مجدّلاً تمكوا فريصته كشدق الأعلم

أي تَصَّوت.

و قال السُّدي المُكاء الصَّفير علىٰ لحن طائرٍ أبيض بالحجاز قال الشّاعر:

اذا غرَّد المكّاء في غير روضةٍ فويلٌ لأهل الشّاء والحمرات

و قال قتادة المكاء ضربٌ بالأيدي و التّصدية الصّياح و الجامع بين هذه الأقوال هو أنّ الكفّار كانوا يفعلون ذلك و يريدون أن يشغلوا بذلك رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰه عَلَيْه وَآله وَسَلَّم عن الصّلاة.

روي بعضهم عن بعض أقوياء العرب أنّه كان يمكو علىٰ الصّغاء فيسمع من جبل حرّاء و بينهما أربعة أميال و على هذا يستقيم تعبيرهم و تنصيصهم بأنّ شرعهم و صلاتهم و عبادتهم لم تكن رغبة و لا رهبة بل كانت مكاء و تصدية

من نوع اللَّعب و لكنّهم كانوا يتزّيدون فيها وقت قراءة النّبي ليشغلوه و أمّته عن القراءة والصّلاة.

قال القُرطبي في تفسيره ففيه ردٌّ علىٰ الجهّال من الصّوفية الذّين يرقصون و يصّفقون (و يصعقون) و أمّا قوله: **فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** للكفّار و المراد بالعذاب عذابهم في الدّنيا، أو في الأخرة أو فيهما علىٰ إختلاف الأقوال فيه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

أخبر اللّه تعالٰى عن هؤلاء الكفّار أنّهم ينفقون أموالهم ليصّدوا عن سبيل اللّه و غرضهم المنع عن سبيل اللّه أعني به دين اللّه الّذي أتىٰ به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و سمّي سبيل اللّه لأنّ بسلوكه و إتّباعه يبلغ ما عند اللّه و لا مدخل للعلم فيه لأنّهم قصدوا الصّد عنها و هي سبيل اللّه على الحقيقة علموا بها أو لم يعلموا فأنّ القصد هو الأصل في المقام.

قيل أنّها نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا أثنى عشر رجلاً، أبو جهل بن هشام، و عتبة و شيبة و بينه و منبه إبنا حجّاج، و أبو البختري بن هشام، و النّضر بن الحرث، و حكيم بن حزام، أبّي بن خلف، و زمعة بن الأسود، و الحرث بن عامر بن نوفل، والعبّاس بن عبد المطّلب وكلّهم من قريش وكان يطعم كلّ واحدٍ منهم كلّ يومٍ عشر جزائر.

و قال مجاهد و السُّدي و ابن جبير نزلت في أبي سفيان بن حرب إستأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم سوىٰ من إستجاش من العرب و فيهم يقول كعب بن مالك:

فجئنا الىٰ موجٍ من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنّعُ
ثلاثة ألافٍ ونحن بقيّة ... وثلاث مئين إن كثرنا وأربعُ

قيل أنّه أنفق علىٰ الأحابيش وغيرهم أربعين أوقية من ذهب.

و قال إبن إسحاق عن رجالة لمّا رجع قريش الىٰ مكّة من بدر ورجع أبو سفيان كلّم أبناء من أصيب ببدرٍ ففعل بهم ما فَعَل من الأمانة و الأقوال في نزول الآية مختلفة و لا يهمّنا البحث فيها اذ لا شكّ في أصل القضّية.

و أمّا تعيين الشّخص أو الأشخاص فلا نحتاج اليه **ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** أمّا الحسرة فلأنّهم لم يصلوا الى ما قصدوا في إنفاق الأموال لعدم تحقق الصّد و المنع عن سبيل اللّه و أمّا أنّهم مع ذلك يغلبون فواضح لأنّهم قتلوا أو أسروا يوم بدر كما هو مسطورٌ في التّواريخ ففي الحقيقة صاروا مصداقين لقوله تعالى (خسر الدّنيا والأخرة ذلك هو الخسران المبين) هذا ما قالوه في تفسير الآية و ظاهرها يقتضي ذلك أيضاً فأنّ الآية نزلت في ذمّ الكفّار الّذين كانوا بمكّة و أذوا رسول اللّه ﷺ بأنواع الأذىٰ ثمّ بعد هجرته ﷺ أيضاً لم يتركوا الأذىٰ بل أوقدوا نيران الحرب مرّةً بعد أخرى و أنفقوا أموالهم في سبيل اللّه ظنّاً منهم أنه الحقّ و لكنّهم لم يصلوا الى ما قصدوا و أرادوا بل وقعوا في الخسران و الحسرة في الدّنيا و الأخرة و أنت اذا أمعنت النّظر في قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ** و علمت أنه لم يبق لهم إلاّ الحسرة و النّدامة و الخسران كما هو صريح الآية لدريت أنّ الآية و أن كان سبب نزولها هؤلاء الكفّار في صدر الإسلام إلاّ أنّ خصوصّية السّبب لا توجب رفع اليد عن العمُوم فالآية خاصّةٌ سبباً و مورداً و عامّةً و دلالةً فأنّ قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ** كذا تكون عليهم حسرةً ثمّ يغلبون، حكمٌ عامٌّ يشمل جميع الكفّار الموصوفين بهذه الصّفة الىٰ يوم القيامة.

و الوجه في ذلك أنّ القرأن لم ينزل علىٰ قومٍ دون قومٍ و أحكامه أيضاً كذلك فأنّ الإشتراك في التّكليف يقتضي ذلك فحلاله حلالٌ الىٰ يوم القيامة و حرامه كذلك و أوامره و نواهيه أيضاً تشمل الكلّ اذا عرفت هذا الحكم منه

تعالى ثابت لجميع الكفّار في كلّ عصرٍ و زمانٍ و الكفر أيضاً لا يختصّ بالجحود و الإنكار بل يشمل الكفر بالنِّعَم أي كفران النِّعمة فالآية تشمل المسلم الّذي ينفق أمواله في طريق الباطل ليصدّ عن الحقّ و أن لم يكن مشركاً كافراً بالتّوحيد و النبوّة و المعاد اذا كان قصده ترويج الباطل و إطفاء نور الحقّ و هذا لا يختصّ بالكفّار، و المشركين في صدر الإسلام أو بعده الى يوم القيامة يل يعمّ كلّ من كان كذلك فأنّه لا يبقى له إلاّ الحسرة و الخسران و اذا كان مأل من أنفق ماله كذلك على هذا المنوال فما ظنّك بمن أنفق أول النّاس في إحياء الباطل و إماتة الحقّ فأنّ ذنبه أعظم و حسرته أشدَّ و أدوم لأنّه قد إرتكب ذنبين:

أحدهما: التّصرف في مال الغير بدون أذن صاحبه و هو الغصب.

الثّاني: صرف المال في طريق الباطل ليصدّ عن الحقّ بزعمه و مصاديقه كثيرة في المسلمين بعد رسول اللّه و من أعظم مصاديق هذه الرَّوية الخبيثة الرّديئة الخلفاء واحداً بعد واحد و من حذي حذوهم من الحكّام، ألا ترىٰ أنّهم بعد رسول اللّه و غصبهم الخلافة كيف أنفقوا أموال النّاس ليصّدوا عن سبيل اللّه.

و من المعلوم أنّ سبيل اللّه في الآية و فى غيرها طريق الحقّ، و هو منحصرٌ في طريق أهل البيت الّذين أذهب اللّه عنهم الرَّجس و طهَّرهم تطهيراً، فمن أنفَق المال لصدّ هذا الطّريق فهو من أعظم مصاديق الآية لما ذكرناه، و اذا كان الأمر على هذا المنوال فلا نحتاج الىٰ بَسط الكلام في المقام بعد شهادة التّاريخ بأنّهم أي الخلفاء أنفقوا أموال المسلمين في جعل الأحاديث المكذوبة ثمّ نسبوها الى رسول اللّه ﷺ مثل قولهم نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.

و قولهم أصحابي كالنّجوم بأيّهم إقتديتم إهتديتم، و قوله متعتان محلّلتان في زمن النّبي أنا أحرّمهما الخ... .

و أمثال ذلك ممّا أبدعوه بعد رسول اللّه وجَعلوه من الدّين ثمّ بعد ذلك وصلت النّوبة الى أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا في حقّه ما قالوا ولم يَقنعوا بذلك بل أنفقوا أموال المسلمين.

في سبّه عليه السلام و لعنه علىٰ ألسنة الخطباء و الحكّام و العوام كالأنعام فأعطىٰ معاوية بن أبي سفيان سمرة بن جندب أموالاً كثيرة و أمره أن يخطب النّاس و يقول لهم أنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول أنّ قوله تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللّٰهِ**[1] نزل في حقّ عبد الرّحمٰن بن مُلجم قاتل علّي إبن أبي طالب عليه السلام.

و قد إتّفق المفسّرون علىٰ أنّه الآية نَزلت في حقّه ليلة المبيت و نظائره كثيرة فأن لم يكن هذا من مصاديق الصَّد عن الحقّ فَلم يكن لها مصداق أصلاً الأمر في أشباهه و نظائره وكما أنّ المشركين في صدر الإسلام لم يصلوا الىٰ آمالهم و مقاصدهم بل حصدوا الثبّور و النّدامة كذلك أتباعهم و أولادهم لم يصلوا الىٰ مقاصدهم يريدون ليطفؤا نور اللّه بأفواههم و اللّه متمّ نوره ولو كره الكافرون.

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ و هذا إشارة الى العقاب المعدّ لهم في و الاخرة مضافاً الى الحسرة و النّدامة و القتل و الأسر في الدّنيا و هو ظاهر.

لِيَمِيزَ ٱللّٰهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ

قرأ حمزة و الكسائي، لِيُميّزَ، مضمومة الياء مشدّدة و الباقون بفتح الياء تخفّيفاً و هذا هو الأشهر و عليه المصاحف مَعَ أنّ المآل واحد.

قال المفسّرون المراد بالخبيث الكافر و بالطّيب المؤمن و المعنى إنّا سُقنا الكفّار الى جهّنم ليميز اللّه الخبيث من الطَّيب فأنّ التَّميز هو إخراج الشّئ عمّا خالفه ممّا ليس منه وإلحاقه بما هو منه.

١- البقرة = ٢٠٧

و الخبيث الرَّديّ من كلّ شيءٍ و ضدّه الطَّيب و قيل المعنى ليميز اللّه ما أنفقه المؤمنون في طاعة اللّه ممّا أنفقه المشركون في معاصيه، و هذا ما يقتضيه العدل وقوله: **وَ يَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ** قيل معناه أنّ الكافر على أسوء حالٍ كالمتاع و الرّكام هواناً و تحقيراً و إذلالاً و قوله فيركمه جميعاً معناه تراكب بعضه فوق بعضٍ كالرَّمل الرّكام و هو المتراكب كما قال تعالىٰ في صفة السّحاب:**ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا**[١].

و قيل يركمهم اللّه مع ما أنفقوا في جهنّم كما قال تعالىٰ:(يوم يحمىٰ عليها في نار جهنّم فتكوىٰ بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم)**يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ**[٢].

ثمّ أخبر اللّه أنّه إذا ركمه جميعاً يجعله في جهنّم و أخبر عنهم بأنّهم الخاسرون بإرتكاب المعاصي و الكفر المؤدّي الىٰ عذاب الأبد.

قال بعض المفسّرين من العامّة معنىٰ الكلام، **لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ** بتأخير عذاب كفّار هذه الأمّة الىٰ يوم القيامة ليستخرج المؤمنين من أصلاب الكفّار انتهىٰ كلامه.

أقول فعليه يكون التَّمييز في الدّنيا و على القول الأوّل يكون في الأخرة و الحقّ هو القول الأوّل لأنّ قوله قبل هذا الكلام، **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** دليل على ثمّ قال و من المفسّرين من تأوّل الخبيث و الطَّيب على الأموال و قال المعنى بالخبيث المال الّذي أنفقه المشركون كمال أبي سفيان و أبي جهل و غيرهما المنفق في عداوة رسول اللّه و الطّيب هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل اللّه كمال أبي بكر و عمر و عثمان انتهىٰ كلامه.

أقول هذا التّأويل خلاف ظاهر الآية و مع ذلك هو خلاف العقل و ذلك لأنّ البحث في الآية يدُور مدار أشخاص الكفّار لا أموالهم الّتي أنفقوها فأنّ المال لا ذنبٌ له و أنّما الذّنب ثابت لصاحبه بل نقول المال بما هو هو لا يتّصف

١- النور = ٤٣

٢- التّوبة = ٣٥

بالخبيث و الطَّيب و أنّما يتّصف بهما مجازاً لا حقيقة بإعتبار صاحبه فأن جمعه من غير طريق الشّرع يقال أنّه خَبيث و إن جمعه علىٰ طبق الشّرع و العقل يقال له الطَّيب و من المعلوم أنّ العنوانين طاريان عليه و هذا بخلاف صاحب المال فأنّه يتّصف بهما بمقتضى ذاته وأظُنّ أنّ غرض المتأوّل من تأّويله هو قوله كمال أبي بكر و عُمر و عثمان و أنّه لأجل هذا أوَّلَ الآية و ليت شعري أيّ مالٍ كان لأبي بكر و عُمر و عثمان.

و من أثبت لهم المال ليقال أنّهم أنفقوه في طاعة اللّه و طاعة رسوله اللّهم إلاّ أن يقال أنّهم بعد تصدَّيهم للخلافة و إستيلاءهم على بيت المال و أخذهم الأموال صاروا أغنياء و أنفقوا أموال النّاس فيما أنفقوا و هذا ممّا لا كلام فيه إلاّ أنّه خارج عن مورد البحث و قد صدق رسول اللّه حيث قال من لا حياء له لا دين له، نعم حبّ الشّئ يعمي و يصمّ.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ

أمر اللّه تعالىٰ نبَّيه أن يقول للكفّار أن ينتهوا، أي أن أنابوا و رجعوا عن الكُفر و المعاصي و تابوا منها توبةً خالصة يغفر لهم ما قد سلف و مضى منهم من الأعمال و الأقوال و أن يعودوا و يرجعوا الىٰ المعصية كما كانوا عليه فقد مضت سنّة الأوّلين في تعجيل العقاب لهم في الدّنيا بعذاب الإستئصال و ما جرى مجراه من القتل والأسر يوم بدر و فى الأخرة كما مرّ فيه و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ: **يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا** بعد التّوبة واقعاً و هذا ممّا لا كلام فيه فأن كان المنتهي كافراً يغفر له ما قد سلف في أيّام كفره لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله، و هذا ممّا إتَّفق عليه الكلّ و لم يخالف فيه أحد و أنّما الكلام في قوله: **وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ.**

و أنّه ماالمراد بالعود في الآية.

فقال قوم المراد به العود الى المعصية لأنّ الإنتهاء عنها لا يكون مع الإصرار عليها فأنّ الإصرار معصية و قد ذكرناه في أوّل البحث، و عليه فالمراد بالعود العود الى قتال رسول اللّه، و قيل و أن يعودوا الى الإرتداد بعد الإسلام و به فسرّ الكلام أبو حنيفة و إحتّج بالآية علىٰ أنّ المرتّد إذا أسلم فلا يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الرِّدة و قبلها.

و قال القرطبي قوله تعالىٰ: **إِنْ يَنْتَهُوا** يريد عن الكفر و الحامل علىٰ ذلك جواب الشّرط و هو قوله: **يُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ** و مغفرة ما قد سلف لا تكون إلاّ لمنتهٍ عن الكفر و لقد أحسن القائل حيث قال:

يستوجب العفو الفتى إذا إعترف ثـم أنـتهى عـمّا أتـاه وإقترف
لقـوله سـبحانه فـي المُـعترف أن ينتهوا يغفر لهم ما قـد سـلف

وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللّٰهَ بِمٰا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

أمر اللّه نبّيه و المسلمين بالقتال مع الكفّار حتّى لا تكون فتنة، و هى الكفر من غير، أهل العهد و ما جرى مجراه من البغي لأنّهم يدعون النّاس الىٰ مثل حالهم بتعزّزهم علىٰ أهل الحقّ و تطاولهم فيفتنوهم في دينهم.

و قال إبن عبّاس و الحسن معناه حتّىٰ لا يكون مشرك.

و قال إبن إسحاق حتّىٰ لا يفتن مؤمنٌ عن دينه قال و الفرق بين قوله، حتّىٰ لا يكون فتنة وبين قوله حتّىٰ لا يكون كفر هو أنّ الدّليل و الأسير و الشّريد لا يفتن النّاس في دينهم لأنّ الذّل لا يدعو الىٰ حال صاحبه كما يدعوا العزّ انتهىٰ.

و قال الزّمخشري في الكشّاف معناه الىٰ أن لا يوجد فيهم شرط قطّ، و يكون الدّين كلّه لِلّه.

و أمّا الطّبري و غيره من المُفسّرين قالوا المراد بالفتنة هنا الشِّرك.

و انا اقول قو له تعالى: :**وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ** ذكره اللّه تعالى فى موضعين من كتابه.

احدهما: فى سورة البقرة:

قال اللّه تـعالى: **وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ**

ثانيهما: في المقام أعني به سورة الأنفال إلاّ أنّه تعالىٰ قال هناك، و يكون الّدين للّه، و هاهنا و يكون الدّين كلّه للّه، و قال هناك فأن أنتهوا فلا عدوان إلاّ علىٰ الظّالمين.

و في المقام قال فأن أنتهوا فأنّ اللّه بما يعملون بصير:

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ**[1]

قال القرطبي في تفسير الآية في سورة البقرة و قاتلوهم، أمرٌ بالقتال لكلّ مشرك في كلّ موضع على من رآها ناسخة قال المعنىٰ قاتلوا هؤلاء الّذين قال اللّه فيهم، فأن قاتلوكم الآية و الأوّل أظهر و هو أمرٌ بقتالٍ مطلق لا بشرط أن يبدء الكفّار دليل ذلك قوله تعالىٰ: **يَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**.

و قال عليه‌السلام: **أُمرت أن أُقاتل النّاس حتّىٰ يقولوا لا إله إلاّ اللّه** و الحـديث علىٰ أنّ سبب القتال هو الكفر لأنّه قال حتّى لا تكون فتنة أي كُفر فجعل الغاية عدم الكفر و هذا ظاهر انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

و قال في تفسير الآية في المقام أعني به سورة الأنفال: **وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** أي كفر الىٰ آخر الآية تقدّم معناها وفسير ألفاظها في سورة البقرة انتهىٰ.

أقول و قد نقلنا عنه ما ذكره في سورة البقرة، هذا ما قالوه في تفسير الآية و حاصل ما ذكروه هو أنّ اللّه تعالىٰ أمر نبيّه و جميع المسلمين بالقتال حتّى لا تكون فِتنة أي كفراً و شركً.

١- الحجرات = ٩

و نحن نقول في هذا التفسّير إشكال واضح و هو أنّ الفعل أعني به القتال لم يقيّد بزمانٍ خاصّ بل قيّد بحصول الغاية أعني بها الفتنة و اذا كان كذلك فالقتال واجب حتّىٰ حصلت الغاية و هی رفع الفتنة و الكفر عن العالم و يكون الّدين كلّه لِلّه و بعبارةٍ أخرى وجب القتال لهؤلاء الكفّار الى أن لا يبقى من الكفر و الشّرك عينٌ و لا أثر و من المعلوم أنّ هذا الحكم عامٌ لجميع المسلمين لقوله تعالىٰ: **وَ قَٰتِلُوهُمْ** و هذا بالنسّبة الىٰ المسلمين في صدر الإسلام واضح.

و أمّا بالنّسبة الينا بعدهم فالأدّلة الدّالة على الإشتراك في التّكلّيف أوّلاً و لأجل حصول الغاية ثانياً و لازم ذلك هو وجوب القتال في كلّ عصرٍ و زمانٍ بعد النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أيضاً الى يوم القيامة.

أن قُلت أنّ الأمر بالقتال كان مختّصاً بزمان النّبي فحسب و امّا بعد فلا، قلت هذا يتمّ اذا لم يكن الفعل مغّيب بغاية و امّا اذا قيد بها ما الامر بالفعل باق حتىّ تحصل الغاية و حبث لم تحصل فی زمان النبی فلا محالة بقی الفعل المأمور به بحاله حتّى تحصل اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الأمر بالقتال كان مختصّاً بالنّبي فقط دون المسلمين أو به و بمن معه منهم فقط و هذا ممّا لا يقول به عاقل ذهاً مضافاً الىٰ أنّه لو كان كذلك لينبغي أن تحصل الغاية في عهد النّبي اذ النّبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن فيما أمِر به قاصراً و لا مقصّراً و نحن نعلم أنّ الدّين لم يكن للّه وحده في زمانه بل الفتنة و الكفر كانت موجودة الى موته صلى الله عليه و آله و سلم و هكذا الى زماننا هذا فَثبت و تحقّق أنّ الأمر بالقتال في قوله: **وَ قَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** لم يكن مختّصاً بزمانه بل كان الأمر لهم و لمن بعدهم الى حصول الغاية فيجب علينا القتال مثلاً في هذا الزّمان كما كان واجباً علىٰ من قبلنا و يكون واجباً علىٰ من يأتي في المستقبل أيضاً الىٰ أن **لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ**.

و حيث أنّ هذا المعنى يستفاد من ظاهر الآية إشتبه الأمر علىٰ أكثر المفسّرين فقال بعض من عاصرناه بوجوب القتال في زماننا هذا و إستدّل في إثبات مدّعاه بهذه الآية ولم نر من المتّقدمين من المفسّرين و غيرهم من تفطنّ لهذه الدّقيقة و تصدّي لرفع الإشكال.

نعم قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

أمّا أن يكون المراد من الأية: **وَ قَاتِلُوهُمْ** لأجل أن يحصل المعنى أو يكون المراد و قاتلوهم، لغرض أن يحصل هذا المعنى فأن كان المراد من الآية هو الأوّل وجب أن يحصل هذا المعنى من القتال فوجب أن يكون المراد و يكون الدّين كلّه للّه، في أرض مكّة و حواليها لأنّ المقصود حصل هناك قال عليه السلام لا يجتمع دينان في جزيرة العرب و لا ايمكن حمله على جميع البلاد اذ لو كان ذلك مراداً لما بقي الكفر فيها مع حصول القتال الذّي أمر اللّه به.

و أمّا اذا كان المراد من الآية هو الثّاني و هو قوله قاتلوهم، لغرض أن يكون الدّين كلّه للّه فعلىٰ هذا التّقدير لم يمتنع حمله علىٰ إزالة الكفر عن جميع العالَم لأنّه ليس كلّ ماكان غرضاً للإنسان فأنّه يحصل فكان المراد الأمر بالقتال لحصول هذا الغرض سواء حصل أو لم يحصل انتهىٰ كلامه.

أقُول ما ذكره الرّازي في المقام يدّل علىٰ وقوفه علىٰ أصل الإشكال و تنبّهه له إلاّ أنّه لم يقدر على الجواب و لذلك تمسّك بالقتال احصول الغرض سواء حصل و لم يحصل، و لم يعلم أنّ حمل كلام اللّه العالم بالسِّر و الخفيّات و ما وقع سيقع الى يوم القيامة علىٰ هذه الإحتمالات الباردة السّخيفة دليل على عدم المعرفة بصدق قوله و أنّه لا يخلف الميعاد و ذلك لأنّه تعالى أمر نبيّه بالقتال الى حصول الغاية و هو رفع الفتنة و أن يكون الدّين للّه وحده فهذه الغاية لا تخلو حالها.

أمّا أنّها تحصل أو لا تحصل أمّا الحصول فلم يقع فأن قلنا بعدم حصولها الى يوم القيامة يلزم أن لا يكون للأية مصداق و هو كما ترىٰ دليل على ضعف الخالق حيث لم يقدر على إنفاذ مشيّئته فلم ينصر رسوله حتّى يقلع باب الفتنة و يكون الدّين لِلّه وحده و المفروض أنّه على كلّ شئٍ قدير.

أو نقول أنّ النّبي ﷺ كان مقصّراً في وظيفته حيث لم يفعل بما أمر به و المسلم لا يرضى به ضرورة أنّ نسبة الضّعف اليه تعالىٰ أو التّقصير الى رسوله كفرٌ محض.

بقي هنا إحتمال ثالث و هو أنّ اللّه تعالىٰ قادر على كلّ شئٍ و النّبي ﷺ لم يقصّر في وظيفته إلاّ أنّ حصول الغاية يحتاج الى إدامة القتال بعد النّبي لأنّهم كانوا مأمورين به فعدم حصول الغاية لأجل تقاعدهم عن القتال بعد رسول اللّه و هذا الإحتمال أيضاً ساقط من أصله و ذلك لعدم قدرة المسلمين في زماننا هذا مثلاً علىٰ القتال للكفّار بوجهٍ من الوجوه و لازم ذلك سقوط التّكليف منهم لقوله تعالىٰ: **وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ** و سقوطه عنهم يوجب تخصيص الآية بزمان الرّسول و من كان مصاحباً له ﷺ من المسلمين فيرجع الكلام الى قولنا لم لم تحصل الغاية هذه خلاصة الإشكال و لابدّ له من الجواب أو حذف الغاية عن الآية أو القول بزيادتها لا سبيل لنا الى الأخيرين فلابدّ من الجواب.

فنقول مستعيناً باللّه أنّ اللّه تعالىٰ قد أمر رسوله بالقتال و جعل له غاية رفع الفتنة و أن يكون الدّين للّه وحده كما هو ظاهر الآية و قد صدق اللّه في قوله أصدق من اللّه قيلاً و أنّه قادرٌ علىٰ كلّ شئٍ و رسوله ﷺ لم يقصّر في إنفاذ أمر اللّه أصلاً و أنّما لم تحصل الغاية في الآية في زمانه ﷺ لأنّ الأمور مرهونة بأوقاتها و لم يعد اللّه نبيّه بحصول الغاية علىٰ يَده بل أعلمه بالغاية التّي تترتب علىٰ قتال الكفّار و هى رفع الفتنة و أن يكون الدّين كلّه لِلّه.

و أمّا أنّ تلك الغاية متىٰ تحصل في زمانه أو بعد وفاته فالآية ساكتةٌ عنه و الّذي يحكم العقل في الغاية وذيها هو ترتّبها عليه و أمّا أنّ الترتّب متى يكون فلا يكون للعقل مدخل فيه.

نعم إنفصالها عنه بالكلّية في الأوامر الإلٰهيّة لا معنى له لكونه مستلزماً للكذب أو الضّعف و هو تعالىٰ منزّه منهما اذا عرفت ما تلوناه عليك.

فإعلم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أمر بالقتال على تنزيل الآية و أمّا القتال علىٰ تأويلها فهو مختصّ بالإمام الثّاني عشر حجّة إبن الحسن المهدي عجل اللّه فرجه الشّريف الّذي قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في حقّه.

لو لم يبق من الدّنيا إلاّ يوم واحد لطوّل اللّه ذلك اليوم حتّى يخرج رجل من وُلدي إسمُه إسمي يملأ اللّه الأرض به قسطاً و عدلاً بعد ما مُلأت ظُلماً وجوراً.

فهو عليه السلام يقاتل الكفّار علىٰ تأويل الآية كما قاتلهم جدّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم علىٰ تنزيلها فقوله تعالىٰ: **حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ** يتحقّق في ذلك الزّمان ولا إشكال فيه لأنّ الغَرض هو حصول الغاية و قد إقتضت الحكمة الإلٰهيّة على تحقُّقها في ذلك الزّمان الذّي لا يعلم وقته إلاّ اللّه تعالىٰ و يدلّ ما ذكرناه.

ما روي في روضة الكافي بأسناده عن محمّد بن مُسلم قال: قُلت لأبي جعفر عليه السلام في قول اللّه عزّ ذكره:

وَ قَٰتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فقال عليه السلام: لم يجئ تأويل هذه الآية بعد، أنّ رسول اللّه رخّص لهم لحاجته وحاجة أصحابه فَلو قد جاء تأويلها لم يقبل منهم ولكنّهم يقتلون حتّى يوحّد اللّه عزّ وجلّ و حتّىٰ لا يكون شرك انتهىٰ.

و أيضاً روى زرارة و غيره عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: لم يجئ تأويل هذه الآية ولو قد قام قائمنا بعدُ، سيرى من يدركه ما يكون

من تأويل هذه الآية و ليبلغن دين محمّد صلى الله عليه وآله ما بلغ اللّيل حتّىٰ لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال اللّه تعالىٰ انتهىٰ[1] **و الأخبار بذلك كثيرة.**

و قد ورد أنّ رسول اللّه لمّا صالح في الحدّيبية فقال عُمر يا رسول اللّه ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام و نحلق مع المحلقين فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أمِن عامنا هذا و عدتك قلت لك أنّ اللّه عزّ وجلّ قد وعدني أن أفتح مكّة و أسعى و أحلق مع المحلقين.

و قال بعض المؤرّخين أنّه لمّا أجابهم رسول اللّه الىٰ الصُّلح أنكر عامّة أصحابه و أشدَّ ما كان إنكاراً عُمر فقال يا رسول اللّه ألسنا على الحقّ وعدّونا علىٰ الباطل فقال صلى الله عليه وآله وسلم نعم قال عُمر فتعطي الذّلة في ديننا فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قد وعدني و لن يخلفني الخ و يظهر من ذلك صدق ما ذكرناه من تأخير الغاية اذا إقتضت المصلحة و ليكن ما نحن فيه من هذا القبيل.

فَقَد وعد اللّه رسوله بما وعد من رفع الفتنَة و أن يكون الدّين للّه وحده إلاّ أنّ وعد اللّه و تحققه في زمانٍ لا يعلم وقته إلاّ اللّه لأنّ الحكمة إقتضت ذلك.

فأن قُلت خاطب اللّه تعالىٰ رسوله بذلك في الآية و لازم ذلك هو حصول لغاية بيده.

قُلتُ خاطب الرّسول بالقتال فقط و أمّا أنّ الغاية تحصل بيده فلا دلالة في الآية عليها مضافاً الىٰ أنّ قتال الحجّة المنتظر هو قتال رسول اللّه بعينه لأنّهما نور واحد و المقصد أيضاً واحد إلاّ أنّ أحدهما يقاتل علىٰ التّنزيل والأخر علىٰ التّأويل.

ألا ترىٰ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **يقول أُمرت أن أُقاتِل النّاس حتّىٰ يقولوا لا إله إلاّ اللّه**،و هذا معنىٰ قتاله صلى الله عليه وآله وسلم علي التّنزيل فلو كان علىٰ التّأويل

١- نور الثّقلين ج ٢ ص ١٥٤

لقال ﷺ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ و لم يقل ذلك و هو دليل علىٰ أنه ﷺ لَم يكن مأموراً به واقعاً ولأجل هذا قال جميع المفسّرين أنّ رسول اللّه ﷺ كان مأموراً بالظّاهر في أحكامه فقد ظهر ممّا ذكرناه و حقّقناه أنّ اللّه تعالىٰ صدق فيما قال و ينجز وعده علىٰ طبق المصلحة لأنّه لا يـخلف الميعاد.

فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أي فأن رجعوا عن الكفر و إنتهوا عنه فأنّ اللّه يجازيهم مجازاة البصير بهم وبأعمالهم باطنها وظاهرها لا يخفى عليه شئ منها هذا اذاكانوا صادقين في دعواهم و أمّا إن قالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم كما هو شأن المنافق فلا.

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَيٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ بَعْضَهُ وَ نِعْمَ ٱلنَّصِيرُ

و المعنى وأن توّلوا أي و إن أعرضوا عن الحقّ و إتّباعه كما هو شأن المنافق و المعاند فأعلموا أيّها المؤمنون أنّ اللّه مَولاكم و ناصركم فينصركم عـليهم فقوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا شرط وقوله: فَاعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ أمرٌ في موضع الجواب و أنّما جاز ذلك لأنّ فيه معنى الخبر فلم يخرج من أن يجب الثّاني بالأوّل كأنّه قال فواجبٌ عليكم العلم بأنّ اللّه مولاكم أو فينبغي أن تعلموا أنّ اللّه مولاكم و كيف أنّما قال اللّه ذلك تسكيناً لنفوس المؤمنين و تمكيناً للحقّ عندهم فأنّ المؤمن الّذي يعلم أنّ اللّه تعالىٰ مولاه و ناصره في جميع أموره لا يخاف إلاّ منه و لا يعمل إلاّ له و لا يعتمد و لا يتوكّل إلاّ عليه فأنّ من يتوكّل عليه فهو حسبه، و الحمد لِلّه ربّ العالمين و صَلَّىٰ اللّه علىٰ رسوله والأئمّة الميامين.

هذا أخر الكلام في الجُزء التّاسع ويتلُوه الجُزء العاشر إن شاء اللّه

■

الفهرست

■